

اتحاد المؤرخين العرب
بالقاهرة

مجلة المؤرخ العربى

هيئة التحرير

أ.د. سعيد عبد الفتاح عاشور (رئيس هيئة التحرير)

أ.د. حسنين محمد ربيع أ.د. سهيل محمد ذكار

أ.د. عبد اللطيف عبد الله بن دهيش أ.د. مصطفى محمد رمضان

د. سليمان إبراهيم العسكرى

تم الجمع والإخراج الداخلى والخارجى :

دار عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية

٥ شارع ترعة المريوطية - عمارات شركة الخليج

تليفون وفاكس / ٣٨٧١٦٩٣

هذه المجلة

- * علمية تاريخية بحتة ، تصدر عن اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة .
- * تستهدف الحقيقة التاريخية صافية نقية ، بعيدة عن أى تيارات سياسية أو عقائدية .
- * البحوث التى تنشر فيها محكمة ، تعبر عن وجهة نظر أصحابها ، وهيئة التحرير غير مسئولة عما يرد فيها من آراء علمية .
- * تصدر مؤقتاً سنوياً فى مارس من كل عام ؛ على أن تصلها البحوث المقدمة للنشر فى كل عدد فى موعد غايته نهاية شهر نوفمبر من العام السابق .
- * لا يزيد حجم البحث المقدم للنشر عن أربعين صفحة ، منسوخ على الآلة الكاتبة أو الكمبيوتر ؛ ويكون البحث من نسختين أصل وصورة .
- * تخصص أقسام فى المجلة - حسب الإمكانيات - لعرض الكتب والمراجعات العلمية وتقارير عن المؤتمرات التاريخية والندوات .
- * البحوث والأعمال المقدمة للنشر لا ترد لأصحابها فى حالة عدم إجازتها للنشر بالمجلة .
- * يأتى ترتيب البحوث المنشورة وفق أسبقية ورودها وإجازتها للنشر مع مراعاة الترتيب الزمنى بقدر الإمكان ، مراعاة للحاسة التاريخية . ولا علاقة إطلاقاً بين هذا الترتيب ومكانة الباحث أو درجته العلمية .

- * جميع المراسلات تكون باسم الأستاذ الدكتور رئيس هيئة التحرير .
- العنوان : ١٠ شارع فؤاد بدوانى - الحى الثامن - مدينة نصر - القاهرة .

تليفون / ٢٨٧٠٠٩٠ - فاكس / ٢٨٧٠٠٩١

المحتويات

- كلمة الافتتاح ٧
- العلاقات الاقتصادية بين مصر وكنعان خلال النصف الأخير من الألف الثاني قبل الميلاد ٩
- د. فايزة محمود صقر
- تراث حضارة مصر الفرعونية في الحضارة الإنسانية ٢٧
- أ.د. عبد المنعم عبد الحليم سيد
- دراسة علمية حول مخطوطة الخلفاء الأربعة للإمام إسماعيل بن محمد التيمي ١٠١
- د. كرم حلمي فرحات
- المستوفى والاستيفاء في العصر السلجوقي ١٣٥
- د. نعمة علي مرسى محمد
- الإرهاب في عصر الحروب الصليبية ١٧٧
- أ.د. سعيد عبد الفتاح عاشور
- الشيخ عز الدين القسام رائد الحركة الوطنية الفلسطينية المسلحة ١٩١
- د. حسن أحمد يوسف نصار
- مدينة الرى في تاريخها السياسى من العصر العباسى الثانى حتى سقوط بغداد ٢٢٩
- د. حسين على المسرى
- العلاقات الفينيقية المغاربية في شمال إفريقيا ٢٩٩
- د. محمد الصغير غانم
- المنطلقات الحضارية في سلطنة المعاليك ٣١١
- أ.د. حياة ناصر الحجي
- معابر الحضارة العربية الإسلامية للغرب الأوربي ٣٣٣
- د. علي منصور نصر

- بورسعيد مركز التقاء ثقافات وحضارات الشرق والغرب ٣٦٧

- د. السيد حسين جلال

- الأزمة السياسية اللبنانية عام ١٩٤٣ ٤١٣

- د. مدحت محمد عبد النعيم

- الهمداني ومنهجه في كتابة التاريخ القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي ٤٦٥

- د. حسن خضري أحمد

- النشاط السياسي والحضاري للمسلمين في الهند في عهد السلطان علاء الدين الخلجي

٦٩٥-٧١٥هـ / ١٢٩٥-١٣١٦م ٤٩٥

- د. جمال فوزي محمد

التاريخ ... أيام متداولة

جاء فى قواميس اللغة العربية : دالت الأيام أى دارت ! والله عز وجل (يداولها بين الناس) .

والواقع إن من يتأمل مسيرة التاريخ على مر الأيام والعصور تتكشف أمامه الكثير من الحقائق التى يمكن أن تستوقفه ، والتى يتخذ منها التاريخ ركائز يبنى عليها مسيرته ، فى حين يتخذ منها المؤرخون محاور يحاولون النفاذ منها إلى صميمها للكشف عن أسرار الماضى وخبايا الحاضر .

وإذا كان للتاريخ ثلاثة محاور كبرى يدور حولها ، هى الإنسان والزمان والمكان ، فإن المشتغل بالتاريخ تواجهه مشكلة عدم تكافؤ هذه العناصر فى قوة التأثير على المدى القريب والبعيد . وكثيرا ما يلمس الباحث فى بعض حلقات التاريخ تغلب الزمان والمكان على الإنسان ، كما هو الحال فى الفيضانات والأوبئة وغير ذلك من الكوارث الطبيعية . وفى الوقت نفسه كثيرا ما يلمس الباحث تغلب الإنسان على كوارث الطبيعة ، فيقيم السدود ويشق الطرق ويعالج الأمراض . ويستغل ما وهبه الله من عقل وطاقة فى التغلب على ما يواجهه من صعاب وأخطار .

وهكذا فإنه مع مسيرة الزمان تبرز على ساحة المجتمع البشرى قوى جديدة وقد يكون ذلك فى نفس الحقبة التى يخبئ فيها ضوء شعل كبيرة فيكون ذلك مصداقا لقوله عز وجل : " وتلك الأيام نداولها بين الناس " (من الآية ١٤٠ - سورة آل عمران) .

وهكذا تدور عجلة التاريخ .

العلاقات الاقتصادية بين مصر وكنعان خلال النصف الأخير من الألف الثاني قبل الميلاد

كان اجتياح شعوب البحر منطقة الشرق الأدنى القديم عاملا هاما في انهيار الإمبراطوريات الكبرى خلال النصف الأخير من الألف الثانية قبل الميلاد . وقد أدى ذلك إلى تخفيف الضغط الأجنبي على إقليم سوريا وفلسطين وهو الإقليم الذي عرف باسم كنعان مما أدى - بدوره - إلى قيام كيانات محلية في تلك المنطقة أكثر استقلالا من الكيانات السابقة . وقد أتاح ذلك لشعوب المنطقة فرصة إثبات وجودها ، مما أثر في الأحداث التي مرت بها ، حتى اضمحلت الدول الكبرى من كيوتهيا . وتاريخ العبريين هو من الناحية السياسية فترة متواضعة الشأن ، إذا قورن بتاريخ الإمبراطوريات الكبرى في الشرق الأدنى قديما ، ولا تصبح مقارنته في الواقع إلا بتاريخ الأقوام المتواضعة الأخرى في المنطقة نفسها^(١) ، ونقوم نحن في هذا البحث برصد العلاقات السياسية والاقتصادية بين مصر وإقليم كنعان خلال النصف الثاني من الألف الثانية قبل الميلاد ، وهو الأمر الذي يتضح من خلال حملتين عسكريتين مصريتين سجلتهما المصادر التاريخية .

الحملة الأولى قام بها الملك سيا أمون (٩٧٩ - ٩٦٠ ق . م .) ، والحملة الثانية قام بها الملك ششنق الأول (٩٤٥ - ٩٢٤ ق . م .) ، حيث كانت سياسة كلا الملكين تجاه إقليم سوريا وفلسطين خيارا استراتيجيا لا مناص من تحقيقه سواء سلما أم حربا شكل (١) .

* - مدرس تاريخ مصر والشرق الأدنى القديم - كلية الآداب - جامعة الإسكندرية - فرع دمنهور .

ذلك أن بعض الباحثين يعتقد أن عصر الأسرة الحادية والعشرين (١٠٨٥ - ٩٥٠ ق.م.) يعبر عن بداية للتأخر في أوضاع مصر ربما بسبب الخمول الذي غلب على سياسته وضعف وحدة الحكم الأعلى فيه ، وتقلص النفوذ المصرى خلاله خارج الحدود ، وتوزع السلطة فيه بعض الشيء بين الملوك . ويرى كتشن^(٢) أن الفترة الممتدة من عصر الأسرة الحادية والعشرين حتى نهاية الأسرة الخامسة والعشرين تعبر عن عصر انتقال ثالث يتوسط بين العصر الزاهر للأسرة العشرين وبين بداية الأسرة السادسة والعشرين الذي جرى على تسميته باسم العصر الصاوى .

وقد أدت سياسة المسالمة واقتسام المغنم في عصر الأسرة الحادية والعشرين بين البيتين المالكين في تانيس وطيبة ، إلى الإبقاء على نظام الحكم الثنائى مائة واثنين وأربعين سنة اتسمت بالفتور والسياسة الانطوائية في مجملها . ويرجع السبب في غموض عصر الأسرة الحادية والعشرين إلى قلة ما كشف من أثارها في صعيد مصر ، ولتحلل أغلب أثاره في الدلتا بفعل رطوبة الأرض وكثافة طميها وكثرة المجارى المائية . وهكذا ظلت إمكانيات الدولة ومواردها محدودة ، بحيث استعانت في بعض منشآتها المعمارية بأحجار المباني القديمة . وانكشفت بر رعمسو وتانيس إلى نصف مساحتهما السابقة^(٣) .

وجدير بالذكر أن تاريخ العلاقة بين مصر وكنعان خلال عصر الأسرة الحادية والعشرين يقتصر على المعلومات التوراتية (الملوك ١١ : ٢١-٢٢) ومؤداها أن القائد اليهودى "يؤاب" كان قد قام - كقائد لقوات داود - بمجزرة بشرية في " أدوم " أفنى فيها الذكور بحد السيف ولكن أحد أطفال الأسرة المالكة واسمه " هدد " استطاع أن يهرب مع بعض الرفقاء ولجأ إلى مصر حيث احتضنه الملك المصرى ، وتزوج من أخت " تحفنيس " زوجة ملك مصر إذ ذاك ، وولدت أخت " تحفنيس " له ، " جنويث " ابنة ، وفطمته " تحفنيس " في وسط بيت فرعون بين بنى فرعون (ملوك أول ١١ : ١٤-٢٢) . وبعد مدة خرج ملك مصر إلى كنعان وهاجم " جازر " وأحرقها وقدمها هدية لابنته التى تزوجها من سليمان مما يدل على أنه تودد بهذه الطريقة إلى جاره ملك فلسطين . شكل (٢) .

وهكذا تتضح سياسة ملوك مصر في ذلك العصر : فإنهم في الوقت الذى يظهرون ودهم وتحالفهم مع حكام فلسطين كانوا ينتهزون كل فرصة لتنمية روح الانقسام بين حكامهم وذلك للتدخل بينهم في الوقت المناسب . وبهذه الوسيلة يمكنهم استرجاع شئ من النفوذ في تلك

البلاد التي حصلوا عليها ممن سبقوهم ، بحروبهم المظفرة^(٤)، ويبدو أن ملوك الأسرة الواحدة والعشرين كانت لديهم الرغبة في إعادة النفوذ المصرى فى آسيا . ومن هؤلاء الملك بسونس الأول حيث تشير ألقاب الملوك إلى الطموح السياسى والعسكرى^(٥) .

حملة سيا أمون على فلسطين

جاء فى سفر الملوك - الجزء الأول ، الإصحاح التاسع ، الفقرة ١٦ - أن الملك منح ابنته زوجة للملك سليمان ، وتعاهد الملك سليمان مع الملك المصرى عن طريق المصاهرة ، واصطحب ابنة ملك مصر فى مدينة داود حتى انتهى من بناء منزله ، " منزل الأبدية " وانتهى من بناء المعبد بعد إتمام الزواج الذى من المحتمل أنه تم فى ٩٨٠ ق.م. ويقال أن هذه الأميرة أعطيت مدينة جازر صداق ، ولكن من الصعب معرفة إذا كانت هذه الأحداث قد وقعت أثناء حكم سيا أمون أو إبان حكم خليفته بسونس الثانى ، وقد حكم سيا أمون حوالى ستة عشرة عاما^(٦) .

ويرى د. عبد العزيز صالح أن تحالف الملك المصرى مع سليمان كان تحالف الأقوياء ، فبعث جيشه إلى جنوب أرض كنعان حيث استقرت جماعات من شعوب البحر المنافسة لسليمان وسيطرت القوات المصرية على مدينة جازر التى عجز العبرانيون عنها عدة مرات ، ثم جعلها باثنة لابنته التى رضى أن يزوجها لسليمان ، وفى ذلك يعنى ضمنا أن مصر ظلت حتى فى عهود ضعفها أقوى مرات من ملك سليمان الذى تحدثت به الأمثال لما كان عليه ملك أسلافه وجيرانه بطبيعة الحال^(٧) .

ويرجح كيتشن أن الملك المصرى الذى زوج ابنته لسليمان هو سيا أمون^(٨) بينما يرى د. نجيب ميخائيل أن الملك هو فى الغالب " باسباخع ان نيوت " ^(٩) .

وجدير بالذكر أنه لدينا شواهد مصرية نستخلص منها زواج المصرى من أجنبية ، إلا أنه فى الغالب لم يكن الأب يرضى أن تتزوج ابنته من أجنبى ، ونستخلص من ذلك ما جاء على لسان ملك مصر أمنحتب الثالث - وكان قد تزوج من أكثر من امرأة من البلاد الآسيوية ولكنه دهم حين طلب منه ملك متياتى أن يبعث بفتيات مصريات إلى حريمه^(١٠) .

وقد عرفت مصر الزواج السياسى كأسلوب من أساليب الدبلوماسية المصرية ولكنه اقتصر على زواج الملك المصرى من أميرات أجنبيات وخاصة خلال الإمبراطورية أو الدولة الحديثة .

ولكن حدث خلال عصر الأسرة الحادية والعشرين والثانية والعشرين أن اختلف الأمر ، إذ عقد زواج أميرات ملكيات على أشخاص من العامة ، بما فيهم غير المصريين ، فالأميرة " تننت سبتاح " ابنة الملك بسونس الثانى تزوجت من الكاهن الأعلى للإله بتاح فى منف ، كما تزوج سيا أمون أو ربما بسونس الثانى ، ابنة ششنق زعيم الما الليبى . كما تزوجت الأميرة " ماعت كارع " ابنة بسونس الثانى من الشاب الليبى أوسركون الذى سيعتلى عرش مصر فى الأسرة الثانية والعشرين باسم أوسركون الأول ابن ششنق الأول . وفى المقابل فإن ملوك الأسرة الثانية والعشرين لم يزوجوا بناتهم من أشخاص لا ينتمون إلى الأسرة الملكية (١١) .

ورغم صعوبة تفسير زواج سليمان من ابنة سيا أمون ، إلا أن القرن العاشر ق.م. شهد عدة زيجات بين العائلات الملكية ومطبقة النبلاء وذلك بغرض تحقيق أهداف اقتصادية وسياسية (١٢). وقد تزوج ششنق الأول من ابنة بسونس آخر ملوك الأسرة الحادية والعشرون ، ويبدو أن ششنق لم يقم بثورة للاستيلاء على الحكم بل انتظر حتى وفاة آخر ملوك الأسرة الحادية والعشرين واستولى على العرش فى تانيس ، وعلى ذلك فقد قامت الأسرة الثانية والعشرين متخذة من بوباسطة بشرق الدلتا عاصمة لها (١٣) .

ونلاحظ أن النص التوراتى قد ربط بين زواج الملك سليمان من ابنة الملك المصرى وبناء المعبد .

ويرى د. حسن ظاظا أن عدد الصناع الذين اجتمعوا فى أورشليم لينفذوا مشروع سليمان - الذى أوصى به أبوه داود - ضخم جدا يزيد على مائة وخمسين ألف عامل ، والهيكل بناء صغير حسب أوصافه التى وردت فى النصوص (طوله ٣٢ مترا ، وعرضه ١١ مترا وارتفاعه ١٦٧ مترا بالتقريب) مما يدعو إلى التساؤل :

هل كانت كل مواد البناء التى أعدها داود ، وهذا العدد الضخم من العمال والفنيين الأجانب مخصصة للهيكل وحده ، أم أن الأمر على ما يذكره (لويس براون) من أن الهيكل لم يظفر من كل هذا إلا بالقدر الأقل بينما الجانب الأكبر خصص لمبان أخرى أقل اتصالا بتمجيد الرب ، منها القصر الملكى لسليمان ، وقصر زوجته ابنة فرعون مصر ، الصروح البديعة والأبنية الحكومية ، المعابد الوثنية التى أقيمت لمن رفضن اليهود من النساء الأجنبية اللاتى تزوجهن سليمان (الملوك الأول ١١) (١٤) .

وجدير بالذكر أن المعابد الوثنية استمرت تقيم طقوس المعبودات القديمة التي عرفت بها أرض فلسطين ومنها الإله حورون الذي أشارت الأدلة الأثرية إلى استمرار عبادته في أرض فلسطين منذ القرن الثاني قبل الميلاد حتى العصر الهليني (١٥) .

ويذهب بعض الباحثين إلى أن سيا أمون كان يخطط لغزو إسرائيل نفسها كما عثر له على آثار في " تل فرعة " ، وسواء أصبح هذا أم لم يصبح ، فإن سليمان أدرك بثاقب فكره أن مملكته الصغيرة لن تعيش بالتفاهم مع جيرانها . واقتضت هذه السياسة أن يرتبط برباط المصاهرة مع جيرانه من الأمراء والملوك ، ومن ثم تزوج طبقا لرواية التوراة من بنات أمراء العمونيين والمؤابيين والآراميين والكنعانيين والحيثيين (١٦) ، ثم ساعدته الظروف بأن كانت أحوال مصر وأشور مرتبكة إلى حد كبير ، وأيا كان الأمر ، فقد لجأ سليمان إلى صهره ملك مصر لكي يعطيه منفذا على البحر المتوسط الذي كان يتنازع السيادة على موانيه ، الفينيقيون والفلسطينيون ، ومن ثم نقرأ في التوراة " أن فرعون قد صعد وأخذ جازر وأحرقها بالنار ، وقتل الكنعانيين الساكنين في المدينة ، وأعطاهم مهرا لابنته امرأة سليمان " ، وأصبحت الأميرة المصرية هي السيدة الأولى في مملكته أو الزوجة الرئيسية كما كان يطلق عليها (١٧) .

وجدير بالذكر أن أحوال مصر الاقتصادية كانت متدهورة وخاصة في عاصمة الأسرة الحادية والعشرين (تانيس) التي - بعد أن كانت مركزا لتجارة البحر المتوسط - أضحت لاتمتاز بغير كونها قاعدة الحكم ، وكان ثراؤها من قبل يقوم على قناة بينها وبين البحر ، ولكن تطهير هذه القناة أصابه الإهمال فملأتها الرواسب الطميية ولم يعد أصحاب السفن يدخلون الميناء . ثم ظهر منافسون جدد في الميدان التجاري وعلى رأسهم سليمان الذي كان حريصا على تلك الأسواق القديمة وغزو أسواق جديدة . ولقد دخلت إسرائيل تحت حكمه - لأول مرة في تاريخها- في الميدان التجاري فحرمت مصر من موارد التجارة العربية ، وقد انضم حيرام الصوري إلى سليمان واتفقا على تبادل الفائض ، وكان حيرام في حاجة إلى الزيت والحبوب ، وسليمان في حاجة إلى خشب لبنان لبناء أسطوله ، وهكذا سيطر سليمان على محاصيل آسيا التي بادلها بمحاصيل بلاد العرب وأفريقيا (١٨) .

يتضح من النص التوراتي أن جيوش سيا أمون زحفت إلى جنوب غرب فلسطين واجتاحت مدنها حتى وصلت " جازر " - المقاطعة الكنعانية - التي تقع على الحدود بين فلسطين وإسرائيل ، كما يتضح أن الملك المصري اجتاح أولا مدينة جازر قبل أن يقدمها بومة (هدية

زواج) ابنته من الملك سليمان . ومن الواضح أن هذه الحادثة وقعت فى بداية تولى سليمان للعرش ، ربما خلال العقد الأول من عهد سليمان (٩٧٠ - ٩٦٦ ق.م) ، وربما خلال السنوات الأربعة الأولى من عهده وهذا يتطابق مع الغزو المصرى لجازر والمدن الفلسطينية الذى يقع خلال العقد الأخير من عصر الملك المصرى سيا أمون (٩٧٨ - ٩٥٩ ق.م) ، ومن الشواهد الأثرية التى تشير إلى حملة سيا أمون ، يظهر على مبنى متهدم ، أقامه بسونس الأول وسيا أمون فى المنطقة الشرقية للمقابر الملكية وجنوب المعبد الرئيسى للإله أمون فى العاصمة تانيس ، فى هذا النقش يظهر سيا أمون يضرب بمجموعة مجموعة من الأسرى تتسلح بفأس مزدوجة ، وهم ممثلون فى طراز شعوب البحر المتوسط وآسيا الصغرى .

وهذا المنظر يؤكد خروج الملك سيا أمون بالفعل للحرب ضد عناصر شعوب البحر فى فلسطين، وهذا ما يشير إليه الفأس المزدوجة الذى يمثل تقليدا مصرىا يحى ذكرى حملات الملوك المصريين ضد شعوب البحر (١٩) .

وتعد الفأس المزدوجة رمزاً للسلاح الذى كانت تستخدمه شعوب البحر الذين عاشوا فى فلسطين بعد هزيمتهم على أيدي رمسيس الثالث ، مما يشير إلى أن النقش إنما يخلد ذكرى غزو حقيقى قام به المصريون هناك ، وأن مدينة جازر إنما كانت هى الهدف المقصود ، ولعل هذه المصاهرة وغزو جازر وتقديمها مهرا لابنة الملك المصرى ، إنما كانت أحد الأسباب التى دفعت "برستد" يذهب إلى أن سليمان إنما كان واليا تحت النفوذ المصرى ، كما يرى المؤرخ اليهودى "سيسل روث" ، أن التحالف مع مصر هو الذى مكن دولة سليمان من أن يكون لها موطن قدم على البحر المتوسط ، الأمر الذى لم يتح لها بغير معاونة الملك المصرى (٢٠) .

وغالبا فإن لوحة تانيس التى تصور الملك سيا أمون وهو يضرب عددا راکعا أمامه قابضا فى يده على فأس للحرب مزدوجة ، تسجل غزوة حقيقية قام بها المصريون وأنهم استولوا على مدينة جازر وإذا صح ذلك فسيكون سيا أمون هو الملك المصرى الذى عاصر سليمان (٢١) .

مما سبق يتضح أن العناصر العبرانية قامت بتحسين أوضاعها فى إقليم كنعان بعد مواجهة بعض مدن المنطقة مثل أريحا ولكيش وجازر ، بيد أن المدن الفلسطينية التى استقر أهلها بالمنطقة وأسسوا كيانات سياسية تحكمت فى اقتصاديات المنطقة ، قد وقفت عقبة كؤود ضد طموح سليمان فى بسط السيطرة التجارية ، وكل منهما منع مصر من الحصول على حاجاتها من المواد الأساسية ، الحبوب من شمال النقب أو النحاس من مناجم تمنا أو

تحصيل الضرائب من بعض هذه المدن على الأقل في الجزء الكنعاني وكذلك خشب الأرز من بيبولس (٢٢) .

وتعد حملة سيا أمون على فلسطين ثم تحالفه مع سليمان ذات أهداف مزدوجة لأن أغراض سيا أمون من الحملة كانت اقتصادية قبل أن تكون سياسية . فمتذ عصر سمندس والمرحلة الانتقالية ، كانت تانيس مدينة لها علاقات تجارية مع موانئ البحر المتوسط ، تمتلك موانئ تجارية مع سواحل البحر المتوسط (قصة ون أمون) ، فقوات سيا أمون تقوم بإعادة الأمن للمنطقة بفرض القضاء على منافسة المدن الفلسطينية والفينيقية التجارية . ومقاطعة جازر كانت مدينة كنعانية محصنة تقع على الحدود مع مملكة سليمان ، وكان وصول القوات المصرية حتى هذا الموقع مدعاة لوقوع تصادم بين قوات سليمان وقوات سيا أمون ، ولكن كلا الملكين وجدا في التحالف الاقتصادي فائدة أكثر من الحرب ، لأن التحالف العسكري والاقتصادي بين سليمان وسيا أمون سيجعل المدن الكنعانية تقع بين شقي الرchy ، فمدينة جازر ليست ذات أهمية خاصة للملك سيا أمون ولكنها تمثل أهمية كبيرة عند الملك سليمان حيث تمثل خطرا على حدوده ، وهنا يحصل عليها سليمان عند زواجه من ابنة سيا أمون ، إذن فقد قامت الحملة وتم التحالف ثم الزواج حوالي عام ٩٦٧ ق.م. واستطاع سيا أمون وقف زحف التنافس التجاري من قبل المدن الفلسطينية ، واكتسب امتيازات اقتصادية في سوريا وفلسطين ، وسليمان في نفس الوقت أمن حدوده الجنوبية الغربية مع مصر (٢٣) .

أما ازدهار الأحوال الاقتصادية في أرض كنعان فقد نشأت عدة مدن تعد مراكز تجارية أخذت تزدهر خلال عصر سليمان وهي :

١- عصيون جابر

تقع بقايا عصيون جابر الآن في تل الخليفة غربي ميناء العقبة (٢٤) . وقد نشر جلوك Gluek ، في الفترة ١٩٢٨-١٩٤٠ نتائج الحفائر التي أجراها في تل الخليفة ، وقد كشفت عن بقايا مصانع النحاس والحديد ترجع إلى القرن العاشر وعصر سليمان . وقد أحسن اختيار المكان ، فقد أقيمت في موضع تبلغ فيه الرياح على وادي عربية غاية قوتها ، وذلك لكي توجع النار اللازمة للتكرير . وكان يؤتى بالنحاس والحديد من مناجم وادي عربية وطور سيناء ويتم التكرير في عصيون جابر حيث تصنع الأدوات المعدنية المختلفة ، وقد عثر على الكثير منها في تل الخليفة .

وجدير بالذكر أن العهد القديم لا يذكر شيئا عن هذه المصانع رغم أهميتها (٢٥).

وقد أضاء القرآن الكريم لنا الطريق في هذا الشأن حينما حدثنا عن النشاط التجارى للملك سليمان في قوله تعالى :-

" قال رب اغفر لى وهب لى ملكا لا ينبغى لأحد من بعدى إتك أنت الوهاب ، فسخرنا له الريح تجرى بأمره رخاء حيث أصاب " صدق الله العظيم (سورة ص ، آية ٣٥ ، ٣٦) .

ويتميز عهد سليمان بن داود بتقدم تجارى عظيم ، كفلته السيطرة على الطرق التجارية فى سوريا وفلسطين وعلى الطريق المؤدى إلى البحر الأحمر .

ويرى " موسكاتى " أن رحلته إلى أوفير كانت عملا مشتركا مع الدول الفينيقية البحرية ، كما يعتقد أن أوفير ربما تقع على ساحل الصومال شكل (٤) (٢٦) .

ويتحدث سفر الملوك (١٠) عن اتجاره فى الخيل وعربات الحرب ، ولابد أنه كان محتكرا لهذه التجارة فعلا ، لأن مزاواتها بين مصر وسوريا كانت تعتمد بالطبع على الطرق البرية ، وهذه كلها كانت فى يد سليمان ، والاسطبلات الملكية الكبيرة التى كشف عنها فى مجدو تؤكد مدى اهتمام سليمان بتربية الخيل (٢٧) .

وقد قام أسطول سليمان من هذا الميناء بعدة بعثات بحرية حول ساحل بلاد العرب وشرقى أفريقيا ، وكان الغرض من هذه البعثات هو إحضار البخور وخشب الصندل والعاج والذهب والأحجار الثمينة فى مقابل النحاس والحديد اللذين كانا يتم تكريرهما فى عصيون جابر ، وهذه المواد كانت ترسل بطريق البحر أو بالقوافل إلى بلاد العرب وغيرها (٢٨) ، وقد أكدت الدلائل الأثرية استخدام الطرق البحرية منذ فترة مبكرة ، ومن تلك الدلائل العثور على جرة تحمل نقشا عربيا فى ميناء عصيون جابر على رأس خليج العقبة ويعود تاريخها إلى القرن السادس ق.م. (٢٩) ، مما قد يشير إلى استيلاء سليمان على تجارة الجزيرة العربية .

وفى جملة ما عثر عليه فى (تل الخليفة) جرتان ، عليهما كتابات بأحرف المسند ، وقد قدر أن تاريخ صنعهما لا يقل عن القرن الثامن قبل الميلاد ، وتدل أحرف المسند هذه على أن صانعيها كانوا يستخدمون هذه الكتابة . وقد يشير هذا إلى التبادل التجارى بين فلسطين والمعينين الذين كانوا فى العلا وتبوك (٣٠) .

٢- أوفير

اتجه سليمان إلى التجارة مع البلاد الساحلية ، وليستورد منها ما يحتاج العبرانيون إليه ، فأنشأ أسطولاً تجارياً في (عصيون جابر) على خليج العقبة بجانب (أيلة) - (أيلوت) - (أيلات) من أرض أبوم (٣١) .

وقد عرف خليج العقبة بـ (بحر سوف) ، (يم - سوف) في العبرانية . ولما كان العبرانيون لا يعرفون البحر ، استعان سليمان بـ (حيرام) ملك صور في تسيير الأسطول وتدريب العبرانيين على ركوب البحر ، فأمدّه بخبراء من صور تولوا قيادة السفن ، يخدمهم رجال سليمان ، فمخروا البحر حتى وصلوا إلى (أوفير) وأخذوا من هناك ذهباً زنته أربعمئة وعشرون وزنة أتوا بها إلى سليمان (٣٢) .

وقد اختلف الباحثون في تحديد موقع أوفير ، فيرى البعض أنها في جنوب غرب شبه الجزيرة العربية (٣٣) ، ويرى البعض أنها على ساحل أريتريا (٣٤) ، بينما يرى آخرون أنها كانت تشمل المنطقتين ، أي أنها كانت تشمل بلاد اليمن والساحل الإفريقي المقابل لها ، ويحدد البعض الآخر موقع أوفير بساحل الصومال ، بينما يرى آخرون إلى مدى أبعد بالقول أنها كانت في بلاد الهند . فالذين قالوا بأن أوفير في الهند اعتمدوا على ما ورد في الكتاب المقدس من أن سفن حيرام وسليمان كانت تقوم بالرحلة إلى أوفير مرة واحدة كل ثلاث سنين ، كما اعتمدوا على أنواع السلع التي ذكرها الكتاب المقدس ، وكانت تجلب من أوفير ومن بينها سلع لا توجد إلا في الهند منها الطواويس وخشب الصندل . غير أن بعض الباحثين يرون أن كلمة " تكليم " التي تترجم عادة بالطواويس ، محرفة عن " سكليم " بمعنى العيد ، وبذلك تشير هذه الكلمة إلى سلعة أفريقية (٣٥) .

وقد قام الأستاذ الدكتور يعقوب بكر بعرض الآراء المختلفة حول مكان " أوفير " فقسمها إلى ثلاثة أقسام رئيسية ، إذ منها ما يجعل أوفير في الهند ، ومنها ما يجعلها في بلاد العرب . وإذا استبعدنا النظرية الهندية ، لأن السفن في عصر سليمان كانت أضعف من أن تتجاوز مضيق باب المندب ، فقد تركّزت آراء الباحثين حول النظرية الإفريقية والنظرية العربية ويرجع يعقوب بكر أن أوفير تقع في الجانب الجنوبي الغربي من الجزيرة العربية ، إذ كان أمام سليمان طريقان للحصول على الذهب هما : طريق البر عبر الصحراء وطريق البحر على طول ساحل البحر الأحمر ، فآثر طريق البحر . رغم أن قومه أهل زراعة ورعى ولم يتمرسوا البحار ،

. ذلك لأن طريق القوافل شاق ، وقد تزيد نفقاته على نفقات الطريق البحرى . ويفترض يعقوب بكر أن الجانب الجنوبي الغربى من الجزيرة العربية هو المصدر الذى يجلب منه سليمان الذهب . ويستدل من الرواية التوراتية أن الذهب أهم سلع أوفير ، ويرد ذكرها فى سفر الملوك الأول ٢٨:٩ (فأتوا إلى أوفير وأخذوا من هناك ذهباً أربعمئة وزنة وعشرين وزنة) ويذكر الذهب وحده أيضاً فى أخبار الأيام الثانى ١٨:٨ ، كما يذكر فى الملوك الأول ٤٩:٢٢ . كما ورد " الذهب الأوفيرى " فى أيوب ٢٢ : ٢٤ (٣٦) .

وكان يلى الذهب فى الأهمية بين سلع أوفير خشب الصندل ، ويرى بعض الباحثين أنه خشب الأبطرك ، والحجارة الكريمة ، فسفر الملوك الأول ١١:١٠ يذكرهما هما والذهب دون سائر السلع . كذلك لا نجد سوى هذه السلع الثلاث فى سفر أخبار الأيام الثانى ٩ : ١٠ ، والحجارة الكريمة سلع عربية أيضاً ، وكذلك خشب الأبطرك . ويرى البعض أنه كان ينبت فى بعض أرجاء الجزيرة نبات يشبه الصندل ويقاربه فى الرائحة (٣٧) .

يضاف إلى هذا أن أوفير هو أحد أبناء يقطان ، وأوفير بن يقطان هذا - أى شعب أوفير القحطاني - هو الشعب الذى يسكن أرض أوفير ، فليس هناك أوفيران ، أوفير فى الجزيرة العربية وأوفير فى مكان آخر . وقد يعترض على هذا الرأى : من أن ذهب بلاد العرب كان قليلاً بالقياس إلى المقادير الهائلة التى كانت تصل إلى سليمان ويتفق جواد على مع رأى يعقوب بكر فى أن أوفير تقع فى شبه الجزيرة العربية (٣٨) .

ولكن يجب علينا ألا نسلم بقصة أوفير حرفاً حرفاً ، لأن المبالغة الأدبية واردة فى هذا المجال ، وربما كان الغرض من المبالغة إظهار حملات أوفير وكأنها من حملات الملوك المصريين إلى بلاد بونت . وعن المبالغة فى تقدير دخل سليمان من الذهب ، يذكر سفر الملوك الأول ١٤:١٠-١٥ أن الدخل السنوى المنتظم ٦٦٦ وزنة يساوى حوالى ٢٠٠٠٠ كيلو جرام (يساوى ٤٠٠ قنطار إنجليزى) ، وهو قدر لم يكن العالم القديم كله يستطيع إنتاجه فى سنة واحدة . ويضاف إلى ذلك أن ما كان يأتى من أوفير كل ثلاث سنوات هو ٤٢٠ وزنة تساوى ١٢٦٠٠ كيلو جرام (يساوى ٢٥٢ قنطاراً إنجليزياً) . يضاف أن ما أتت به مملكة سبأ (الملوك الأول ١١:١٠) هو ١٢٠ وزنة تساوى ٣٦٠٠ كيلو جراماً (تساوى ٧٢ قنطاراً إنجليزياً) فيكون المجموع ٧٢٤ قنطاراً إنجليزياً من الذهب ومع هذا لم يستطع سليمان أن يرد دين ملك حيرام ، فيروى العهد القديم (الملوك الأول ٩ : ١١) أن حيرام ملك صور " قد ساعد سليمان

بخشب أرز وخشب سرو وذهب " فأعطاه سليمان مقابل ذلك " عشرين مدينة من أرض الجليل " وهذا يدل على أن موارد سليمان لم تسعفه في رد الدين ، فتنازل لدائنه عن بعض أرض فلسطين نفسها . إذن لم يكن الذهب الذي يجلبه سليمان من أوفير بالكثرة الخيالية كما صورتها الرواية التوراتية (٣٩).

وفي دراسة أخرى تربط بين بلاد بونت (٤٠) والفينيقيين ، حيث لكل منهما نشاط تجارى فى البحر الأحمر ، فقد مارس الفينيقيون نشاطاً بارزاً فى البحر الأحمر خاصة فى العصور المتأخرة لمصر ، ومع ذلك لم تنقطع علاقتهم بمصر وهم يمارسون نشاطهم البحرى فى البحر الأحمر . وقد كان المصريون يستخدمون فى رحلاتهم فى البحر الأحمر سفناً تسمى " سفن جبيل " وقد اقتصررت هذه السفن على الرحلات المصرية فى البحر الأحمر . ورد فى مقبرة " خوى " بأسوان نص يربط بين بونت وبيبلوس ، ولعل ما يعزز هذه الصلة ، ذلك التشابه بين سلع بلاد بونت وبين السلع التى كانت السفن الفينيقية تجلبها من موانئ البحر الأحمر ومنها بلاد أوفير - أى المناطق الجنوبية من الساحل الأفريقى للبحر الأحمر .

ومن أهم السلع التى كانت تجلب من بونت ومن أوفير : الذهب ، وقد أفاضت نصوص البعثات المصرية فى ذكر وفرة الذهب الذى كان يجلب من بلاد بونت ، واحتل مكانا بارزا بين السلع التى جلبتها بعثة حتشبسوت . أما القرده فقد كانت من أبرز السلع التى جلبها المصريون من بلاد بونت كما أسماها المصريون gwI وقد انتشر اللفظ لدى بعض الشعوب التى كانت تشارك فى تجارة البحر الأحمر ومنها اللغة العبرية (٤١) .

وكان العاج فى مقدمة السلع التى تجلب إلى مصر من بونت ، وكان أيضا ضمن سلع أوفير (الملوك الأول ١٠ : ٢٢ ، وأخبار الأيام الثانى ٢١ : ٩) ، وهذا يرجح تحديد موقع أوفير على الساحل الأفريقى للبحر الأحمر ، فإن وفرة الفيلة فى القارة الأفريقية ، لاشك جعل من السهل على الفينيقيين والعبرانيين استيراد العاج من مناطق إنتاجه مباشرة . ومما يعزز هذا الرأى ما ورد فى سفر الملوك الأول بأن رحلات أوفير كانت تتم عن طريق البحر ، بينما ورد أن رحلة سبأ (فى بلاد العرب) كانت تتخذ البحر طريقا (وهذا يبرر أن أوفير كانت تقع فى جهة أخرى من بلاد العرب حيث سبأ - أى فى جهة كان الوصول إليها بالبحر) .

ومن أنواع سلع أوفير والتى تتفق مع سلع بلاد بونت ، الفضة والأحجار الكريمة (وقد وردت هذه المنتجات فى رسوم بهو بونت فى معبد حتشبسوت) (٤٢) . غير أن هناك سلعة من

سلع أوفير تثير مشكلة وهي خشب الصندل ، فإن هذا النبات هندي الأصل ، ولا يوجد لا في شبه الجزيرة العربية ولا في المناطق الأفريقية ، وقياسا على رأى يعقوب بكر بوجود نبات في شبه الجزيرة العربية يشبه خشب الصندل ويقاربه في الرائحة ، فليس هناك ما يمنع (٤٢) أن يكون نفس الأمر ينطبق على القارة الأفريقية التي تمتاز عن شبه الجزيرة العربية بكثرة أشجارها وتعدد أنواعها ، هذا بالإضافة إلى نصوص رحلة بلاد بونت الى أشارت إلى جلب الأخشاب ذات الرائحة الذكية ضمن سلع هذه البلاد .

من هذا يتضح أن موقع أوفير يقع ضمن مناطق الساحل الأفريقي للبحر الأحمر .

ويرجع د. عبد المنعم عبد الحليم أن أوفير تقع على الساحل الممتد من أريتريا إلى الصومال وخاصة المنطقة الممتدة من خليج زولا (أنوليس) إلى خليج تاجورة حيث تنتشر الموانئ الملاحة لرسو السفن الفينيقية والعبرانية . ويقدم عدة أدلة لإثبات هذا الموقع (٤٤) .

ويبدو أن أوفير كانت محطة تجارية لتجميع منتجات القارة الأفريقية حيث تبادل المنتجات المحلية بما تحمله السفن من بضائع يحتاج إليها سكان أفريقيا من ملح وحديد ، وهكذا كان تكديس السفن الفينيقية والعبرانية والسفن المصرية بالمنتجات كالذهب والفضة والعاج والقردة والأخشاب .

وفي حفائر " تل قاصيل " على الضفة الشمالية لنهر " يرقون " عثر على قطعتين أوستراكا بنقوش عبرية ترجع إلى القرن الثامن قبل الميلاد ، تحمل الأولى نقشا يقول :

" للملك ألف (وزنة) من الزيت " . وربما تمثل قائمة بكميات الزيت التي ترسل من قبل الخزائن الملكية إلى أحد الموانئ المصرية أو الفينيقية من تل قاصيل . أما القطعة الثانية فتحمل إشارة إلى ذهب أوفير : " ذهب أوفير إلى بيت حورون ، ثلاثون وزنة " . ويبدو أن بيت حورون كان مركزا إداريا في مقاطعة افرايم التي كانت مدينة اقتصادية في عصر سليمان وقد أقيمت عدة قلاع على الطريق الذي يبدأ من السهل حتى الجبال التي تقع بين مملكة يهوذا ومملكة إسرائيل . ومع ذلك لا يمكننا أن نغفل أن بيت حورون كانت تتضمن معبدا كنعانيا للمعبود حورون ، وكان يعبد في فلسطين منذ القرن الثاني قبل الميلاد ، وقد استمرت عبادة هذا المعبود على الساحل الفلسطيني حتى العصر الهيلينستي كما يشير هذا النقش إلى أن عبادة حورون من قبل الفلسطينيين والفينيقيين استمرت في تل قاصيل والمدن المجاورة لها شكل (٥) (٤٥) .

٣- ترشيش

أنشأ سليمان خطا بحريا آخر ينتهى بأرض اشتهرت بالذهب كذلك ، سميت فى التوراة (ترشيش) . وقد استعان سليمان بمدرين وملاحين من صور أمدته بهم حيرام ملك صور ، وكان الأسطول يذهب مرة كل ثلاث سنوات وأما البضائع التى تعود بها من ترشيش فهى الذهب والفضة والعاج والقردة والطواويس . ولم يتفق الرأى على تعيين موضع ترشيش فيرى البعض أنها فى أفريقية ، ويرى آخرون أنها فى مكان ما من سواحل أسبانيا الجنوبية ، ويرى البعض أنه فى أسبانيا ، وكانت سفن صور تتاجر مع ترشيش وتربح من هذه التجارة ربحا وفيرا كما جاء فى التوراة (٤٦) .

وترى الباحثة أن اسم ترشيش يقترب من اسم أحد عناصر شعوب البحر وهم التورشا الذين جاؤا من المنطقة التى عرفت فيما بعد باسم ليديا (غرب الأناضول) ومنها هاجر التورشيون إلى وسط إيطاليا ، وربما حرف اسمهم إلى تاروشا ثم الأتروسكيين سكان روما القدامى (٤٧) .

ويتضح أن سليمان استعان بخبرة الفينيقيين فى تجارة البحر المتوسط ويبدو أن العبرانيين لم يتعلموا ، الخبرة الفينيقية البحرية ، إنما اعتمدوا عليهم اعتمادا كبيرا ، ويتضح ذلك عندما أقدم أحد خلفاء سليمان بعد وفاة سليمان على بناء أسطول جديد فى عصيون جابر ليسير إلى ترشيش ، غير أن مأربه لم يتحقق إذ تكسرت السفن ولم تستطع السير إلى ترشيش . وهذا يوضح أن العبرانيين لم يكونوا قد أتقنوا بناء السفن والسير بها فى البحار ، فأخفقوا ، بأن نجاح سليمان فى الوصول إلى أوفير وترشيش مرده إلى خبرة ومهارة الفينيقيين (٤٨) . ورغم أن أسماء داود وسليمان لم يردا فى النصوص المصرية ، إلا أن الشواهد الأثرية تشير إلى أن المدن التى افترض أن سليمان أقامها فى فلسطين ومنها حازور ومجدو وجازر فإن سماتها المعمارية من أسوار ومداخل ثلاثية وتكنات الموظفين تشير بجدية إلى النموذج المعماري المصرى السائد فى ذلك العصر (٤٩) .

حملت ششنىق الأول على فلسطين (الأسرة الثانية والعشرون ٩٥٠-٧٣٠ ق.م.)

من أهم الأحداث فى عهد الملك ششنىق الأول (٩٥٠-٩٢٩ ق.م.) غزو سوريا العليا

وفلسطين ، وقد جاء ذكر هذه الحملة في الكتاب المقدس ، فنجد في سفر الملوك الأول ، الفصل الرابع عشر ، الجزء الثاني من التأريخ ، الفصل الثالث عشر أنه : " في السنة الخامسة من حكم مريماء جاء ششاق - هكذا يسمى في التوراة - ملك مصر ليهاجم القدس بألف ومائتي مركبة حربية وستين ألف فارس ، وخرج من مصر ومعه شعب لا يمكن حصره من الليبيين والسوقيين والآثيوبيين ، واستولى على المدن المحصنة التي كانت ملكا ليهودا ووصل القدس واستولى على خزائن بين الأبدية وخزائن بيت الملك ، وأخذ كل شيء ، وأخذ كل الدروع من الذهب التي صنعها سليمان " .

كانت حملة ششاق الأول تهدف إلى إحياء الأمجاد المصرية في غربي آسيا ، وكانت الأمور قد بدأت تسير في هذا الاتجاه منذ عصر الأسرة الحادية والعشرين كما رأينا من قبل ، وهناك ما يشير إلى أن ششاق وخلفاءه قد أعادوا العلاقات التجارية مع أمراء جبيل ، وقد أهدى ششاق الأول تمثالا جالسا له إلى معبد سيدة جبيل ، أما في الجنوب فهناك ما يشير إلى إرسال حملة للحصول على احتياجات آمون في الكرنك . وهذا يرجع عودة العلاقات التجارية ، وقد تحقق ذلك عام ٩٢٥ ق.م. تقريبا ودخل أورشليم واستولى على خزائن معبدها الرئيسي بعد تسليم رجبعام له تجنباً لأي تخريب قد يلحق بالعاصمة ومعبدها ، ثم يقفل ششاق عائداً لمصر ليخضع في طريق العودة مدن مجدو ومجاوراتها في سهل جزريل^(٥٠) .

تتطابق السنة الخامسة من حكم مريماء الذي خلف سليمان في عام ٩٢٩ ق.م. مع السنة الحادية والعشرين من حكم ششاق ، وكان الجيش المصري يضم في تلك الفترة قوات مرتزقة من الليبيين والسوقيين الذين قد يكونون قبائل من شرق الدلتا ، أما الآثيوبيون فهم قبائل من بلاد النوبة السفلى الذين أطلق عليهم الكوشيين والذين أمداوا في كل الأوقات الجيش المصري بأفضل عناصره المقاتلة^(٥١) .

وعندما عاد ششاق مقتصراً إلى مصر ، سجل بالتقوش قصة انتصاره على الجدران الجنوبية الخارجية ليهو الأعمدة الكبير في معبد الكرنك . ويظهر في منظر فوق رؤوس الأسرى الذين يمثلون أهالي مائة وست وخمسين مدينة فلسطينية تقع على الحدود الجنوبية لأرض يهوذا شمال الجليل^(٥٢) .

وعادت حملة ششاق على فلسطين بفوائد شتى ، فاستعادت مصر بها جانباً من مجدها القديم ، واستعادت سعة صلاتها بالمدن الفينيقية ، واستحب بعض حكام المدن الفينيقية أن

يقيموا التماثيل والنصب بأسماء ملوك مصر فى معابدهم ومنها تماثيل لكل من ششنق الأول واسركون الأول واسركون الثانى . وأفاضت الحملة على مصر فى الوقت نفسه غنائم وثروات استغلها ملوك الأسرة ٢٢ فى مواصلة الترف القديم وزيادة مبانى المعابد (٥٢) . وأعاد هذا الملك لمصر بعض سيطرتها القديمة التى كانت على عهد أسلافة المحاربين منذ النصف الثانى من الألف الثانى قبل الميلاد .

أهم المدن التى ورد ذكرها فى نص ششنق الأول

يصف كيتشن قائمة ششنق الأول (٥٤) ، فيذكر أن القائمة تتكون من عشرة صفوف من الأسماء ، كتبت خلف المعبود آمون ، بينما هناك صف حادى عشر يمتد أسفل الجزء الخاص بالملك . ويرى كيتشن أن هذه السلسلة الطويلة من الأسماء لا تشكل تسلسلا جغرافيا فى مجملها ، إلا أن بعضها يشير إلى طريق جغرافى موحد (شكل ٣) .

ويقدم كيتشن توزيعا جغرافيا كما يلى :-

الصف العلوى قائمة تمهيدية للأعداء التقليديين لمصر (الأقواس التسعة) ، ثم يعطى نقطة بداية الحملة إلى فلسطين وهى غزة إن لم تكن Makkedah أو Rubuti . أما الصف الثانى فيحتوى على ثلاثة قطاعات يمكن تمييزها :

أ- من وادى اسدراليون إلى رحوب (تل الساريم) .

ب- يستمر الامتداد عبر الأردن إلى ماهانيم .

ج- قطاع منفصل يمتد من وادى اجالون حتى جيبون بالقرب من أورشاليم .

وهكذا فإن الصف الثانى فى (ج) يكمل المعلومات فى الصف الأول ، بينما الصف الثانى

(أ) و (ب) يمثلان الجزء الشمالى الشرقى من حملة ششنق ثم يقدم الصف الثالث :-

١- جزء من الطريق من مجدو جنوبا إلى Socoh وما وراءها .

٢- جزء يمثل الطريق من مجدو إلى جنوب غرب الجليل .

أما الصف الرابع والخامس فإن جزئيهما يمثلان :

١- طريق عبر الأردن بين ماهانيم وأدوم .

٢- طريق من زيماريام (شمال اورشليم) حتى تيرزان والوادي (اسدارليون) .

وبعد ذلك فالصفوف من التاسع حتى العاشر ترتبط بجنوب يهوذا ومناطق النقب ، بينما الصف الحادى عشر من رفح متجها مع الطريق الساحلى إلى مصر .

وهكذا نجد الصف الرابع الذى كان يحتوى على ثلاثة عشر اسما لمواقع ، فقدت كلها باستثناء اثنين فقط أحدهما (رقم ٤٠) لا يمكن تحديده تماما ، والموقع الثانى غامض (بيت سبا؟) وهناك عشرة أسماء أخرى ، كلها فقدت باستثناء بقايا غير مقروءة ولا نستطيع معرفة أى بيت من فلسطين كانت ترتبط به هذه الأسماء . وقد يثار تساؤل حول عدم ذكر لمدينة أورشاليم فى قائمة ششنيق ، والإجابة بسيطة وتشمل :

أولا : من المحتمل أن أورشاليم قد استسلمت لششنيق الأول قبل قيام الحملة وقامت بدفع الجزية ، فلم يتم غزوها بالقوة وبالتالي لم يأت ذكرها فى القائمة .

ثانيا : من المحتمل أن اسم أورشاليم ذكر فى القائمة ولكن ضاع فى الأجزاء المهشمة منها فهناك ثمان أسماء مفقودة بالكامل قد تكون أورشاليم واحدة منها وعليه فإن قائمة ششنيق الأول إما أنها لم تعد فى حاجة إلى وضع اسم أورشاليم فى المكان الأول ، أو قد ذكر فى الصف الرابع المهشم .

وجدير بالذكر أن التوراة تتحدث فقط عن غزو يهوذا جنوبا بينما قائمة ششنيق تركز على مدن إسرائيل شمالا . فالمواقع الشمالية التى أخضعها الملك المصرى تشتمل على صفين كاملين فى القائمة هى الصف الثالث والخامس وجزء من الصف الثانى . بينما الصف الرابع مهشم ، وغير مقروء أساسا . وعلينا أن نأخذ فى الاعتبار أن الروايات التوراتية كتبت من وجهة نظر مملكة يهوذا وبالتالي فهم لم يهتموا بما حدث لجيرانهم فى الشمال ، لذا فإن قائمة ششنيق أصدق قولا فى اجتياح الملك المصرى لهاتين المملكتين الصغيرتين : يهوذا وإسرائيل(٥٥) .

وفى محاجر جبل السلسلة التى أخذت منها أحجار البناء لتشييد بهو الأعمدة الكبير فى الكرنك والبوابة الرئيسية ، عثر على نقش رقم (١٠٠) مؤرخ بنهاية العام الحادى والعشرين من حكم ششنيق الأول . مما يشير إلى أن الحملة نفسها قد قامت بالفعل فى خريف هذا العام نفسه ، حيث كان من نتيجة هذه الحملة تزويد المعابد المصرية بالغنائم العديدة(٥٦) .

ويرد فى نقش جبل السلسلة أن الملك ششنق الأول أمر بإعادة فتح محاجر جبل السلسلة لبدء مشروعات الملك الإنشائية ، من أجل إقامة العمائر الدينية للإله آمون رع الذى يمنحه مزيد من سنوات الحكم ، كما يتضح من النقش أن الملك ومعه ولى العهد (ابنه الذى كان يحمل لقب الكاهن الأول لآمون رع) قاما بافتتاح هذا المشروع وذلك فى العام الحادى والعشرين من حكم ششنق الأول ، حيث تقوم الآلهة برعاية وحماية هذا المشروع واختيار أحسن المواقع فى محاجر السلسلة من أجل إقامة العمائر العظيمة فى معبد آمون رع .

وجدير بالذكر أن النقش يحتوى على عبارة " إن الملك أعطى تعليماته من أجل بناء الصرح العظيم " . ويبدو أن العام الحادى والعشرين كان العام الأخير من حكم ششنق وهو ٩٢٥ ق.م. حيث ذكر مانيثون أن مدة حكم ششنق الأول هى واحد وعشرون عاما . ويبدو أن ششنق الأول أعطى أوامره إلى مهندس المعماري " حر - م - ساف " لإعادة فتح المحاجر فى جبل السلسلة من أجل إنشاء مبنين رئيسيين فى المعبد الكبير لآمون رع بالكرك ، ويفترض أنهما الصرح والأعمدة . وقام الملك بتقديم هدايا الذهب والفضة لكبار الموظفين المشرفين على المشروع تقديرا لجهودهم . ويتضح من ذلك أن البوابة البوئاسطية كانت جزء من المشروع الأساسى الذى بدأه ششنق الأول ، أما عبارة " الصرح العظيم " التى وردت فى نص جبل السلسلة فتشير إلى المدخل الرئيسى للمعبد كله (٥٧) .

ويرى John Wilson (٥٨) أن النصوص المصرية لم تكن كافية لتغطية تفاصيل حملة ششنق الأول على فلسطين ، مما يجعل نص ششنق يبدو كما لو كان سرد لخط سير الرحلة أكثر منه نصا روائيا للحملة التى قادها الملك (٥٩) . ومع ذلك يتضمن النص عبارات مثل : " جزى الأراضى السورية " و " الأسيريون فى البلاد الأجنبية " كما يذكر الملك أنه قام بالحملة إرضاء للإله آمون : " أحضرت للإله ، الأسيريين من جيوش ميثانى " . وهناك وثيقتان عثر عليهما فى الأراضى الآسيوية تؤكدان حملة ششنق ، ففي مجرى عثر على لوحة جنائزية تحمل اسم الملك ششنق الأول تشير إلى أن الملك بنفسه أقام احتفالا بالنصر هناك . وفى جبيل عثر على مقعد لتمثال جالس يحمل اسم الملك ، ويبدو أن هذه القطعة كانت هدية من أمراء المنطقة. كما يوجد فى بلتيمور " Walters Art Gallery " تمثال من البازلت لشخص مصرى نقش عليه : " مبعوث إلى كنعان وفلسطين بآدى ايسن ابن أيب " وربما رجع هذا التمثال إلى

عصر الأسرة الثانية والعشرين ، وهذا يؤكد عودة العلاقات الدبلوماسية بين مصر وكنعان (٦٠).

مما سبق يتضح أن :-

- تاريخ العبريين هو من الناحية السياسية فترة متواضعة الأهمية إذا قورن بتاريخ الإمبراطوريات الكبرى في الشرق الأدنى .

- إمكانيات الأسرة الحادية والعشرين الاقتصادية كانت محدودة ، حيث انكسرت العاصمة تانيس إلى نصف مساحتها السابقة .

- التحالف بين سيا أمون وسليمان كان يحقق لكل منهم غرضا اقتصاديا ، فمصر في حاجة إلى اكتساب امتيازات اقتصادية في فلسطين ، وسليمان يأمل أن يكون لدولته منفذ على البحر المتوسط عن طريق القضاء على مدينة جازر .

- استعان سليمان بخبرة المدن الفينيقية في إنشاء أسطول تجارى بحرى .

- استولى سليمان على الأسواق التجارية القديمة في البحر الأحمر وحرم مصر من موارد التجارة الخارجية .

- استطاع سليمان نتيجة تحالفه مع مصر ، إنشاء ميناء عصيون جابر على خليج العقبة حيث أنشأ مصانع لإنتاج النحاس والحديد مستغلا اتجاه الرياح ، ويبدو أن النحاس كان يأتى إليها من المناجم الغنية في طور سيناء .

- وصلت سفن سليمان إلى ميناء أوفير لإحضار الذهب ، الرواية التوراتية بالغت في إظهار حملات أوفير وكأنها أبهى من حملات الملوك المصريين إلى بلاد بونت .

- تشابه السلع التى جلبتها سفن سليمان من أوفير مع السلع التى كانت مصر تجلبها من بلاد بونت وهى الذهب والعاج والقردة والأخشاب والفضة والأحجار الكريمة وتكاد تقع فى المنطقة التى تشمل الصومال حتى خليج عدن .

- أوفير كانت محطة تجارية لتجميع منتجات القارة الأفريقية .




- سار سليمان على نهج الملوك المصريين من تقديم الهبات والهدايا إلى المعابد الأخرى ، مثل معبد حورون حيث كان يقدم له ذهب أوفير .

- ميناء ترشيش ربما كان المنفذ لتجارة سليمان على البحر المتوسط الذى أتاحه له الملك المصرى .

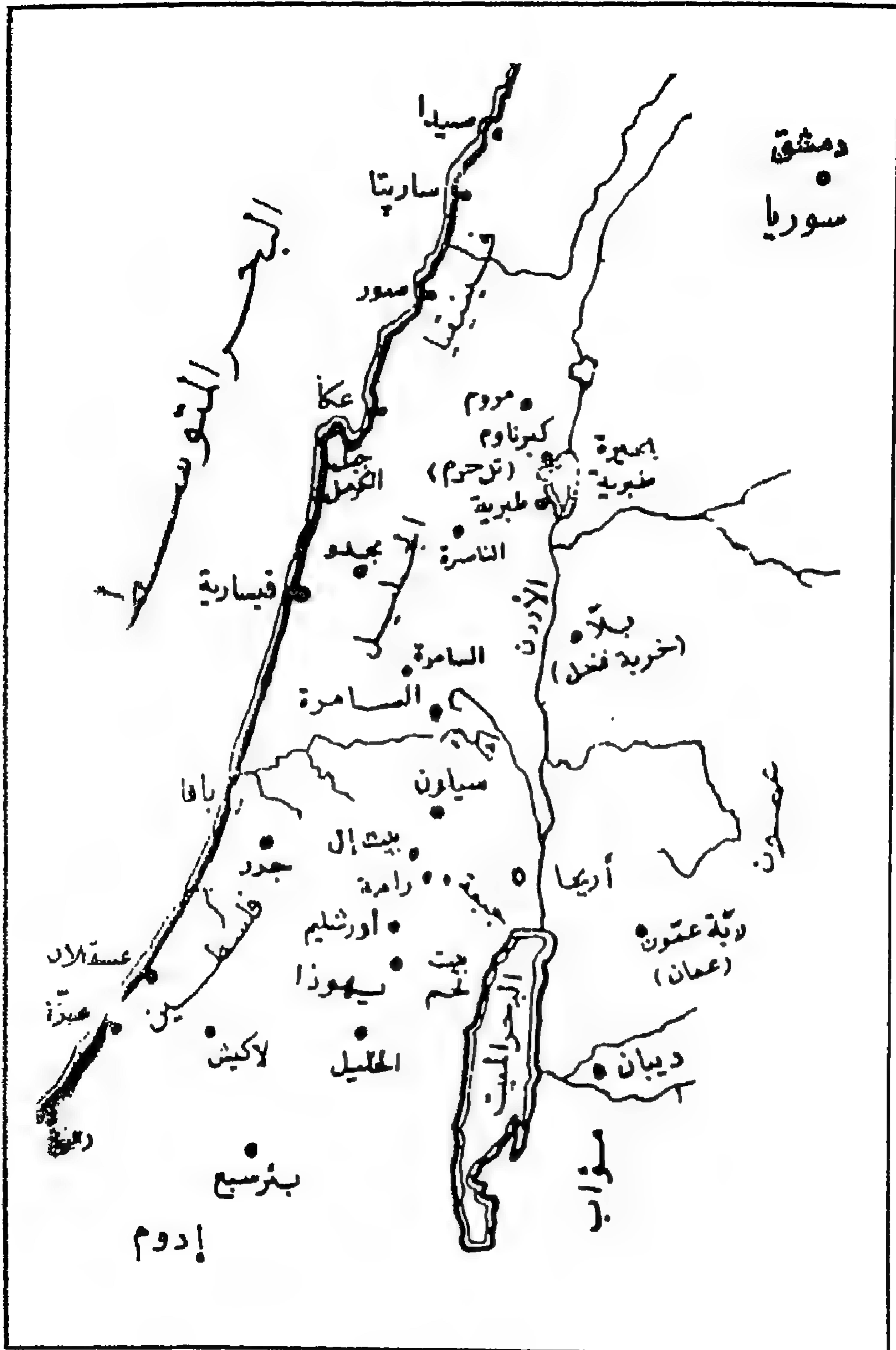
- حملة ششنق الأول على فلسطين أعادت سيطرة مصر على التجارة الخارجية فى غرب آسيا ، وعادت العلاقات التجارية بين مصر والمدن الفينيقية .

- سياسة الملك ششنق الأول تختلف عن سياسة سيا أمون تجاه الشرق ، فكان يرى أن صالح مصر السياسى والاقتصادى ليس مع التحالف مع الكيانات القائمة فى تلك المنطقة لأنها تمثل عائقا لا يستهان به أمام ازدهار العلاقات المصرية السورية ويقلل من الثروة المصرية لحساب مملكة سليمان ، فزحف بقواته لإخضاع المنطقة عسكريا .

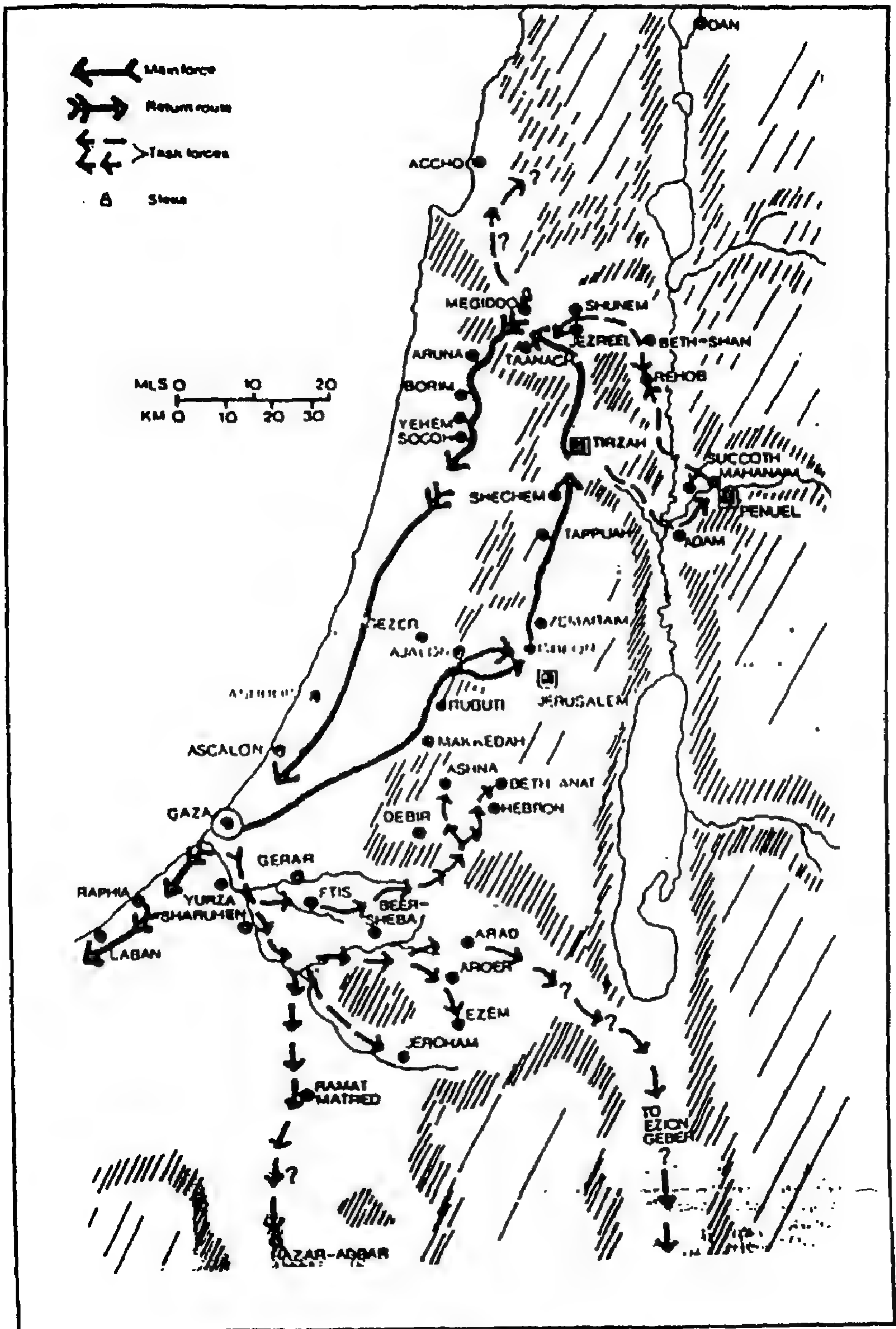
فترات حكم ملوك مصر المعاصرة لسليمان وابنه

الأسرة الواحدة والعشرين		سليمان	٩٧٠ - ٩٣٠ ق.م.
		سيا آمون	٩٧٩ - ٩٦٠ ق.م.
حملة سيا آمون		 العقد الأول من عهد سليمان والعقد الأخير من عهد سيا آمون = ٩٦٧ ق.م.	
الأسرة الثانية والعشرين		ششتق الأول	٩٤٥ - ٩٢٤ ق.م.
		رجبعام	٩٣٠ - ٩١٣ ق.م.
حملة ششتق الأول		 السنة الخامسة من حكم رجبعام = ٩٢٥ ق.م.	
		 السنة ٢١ من حكم ششتق	

شكل (١)

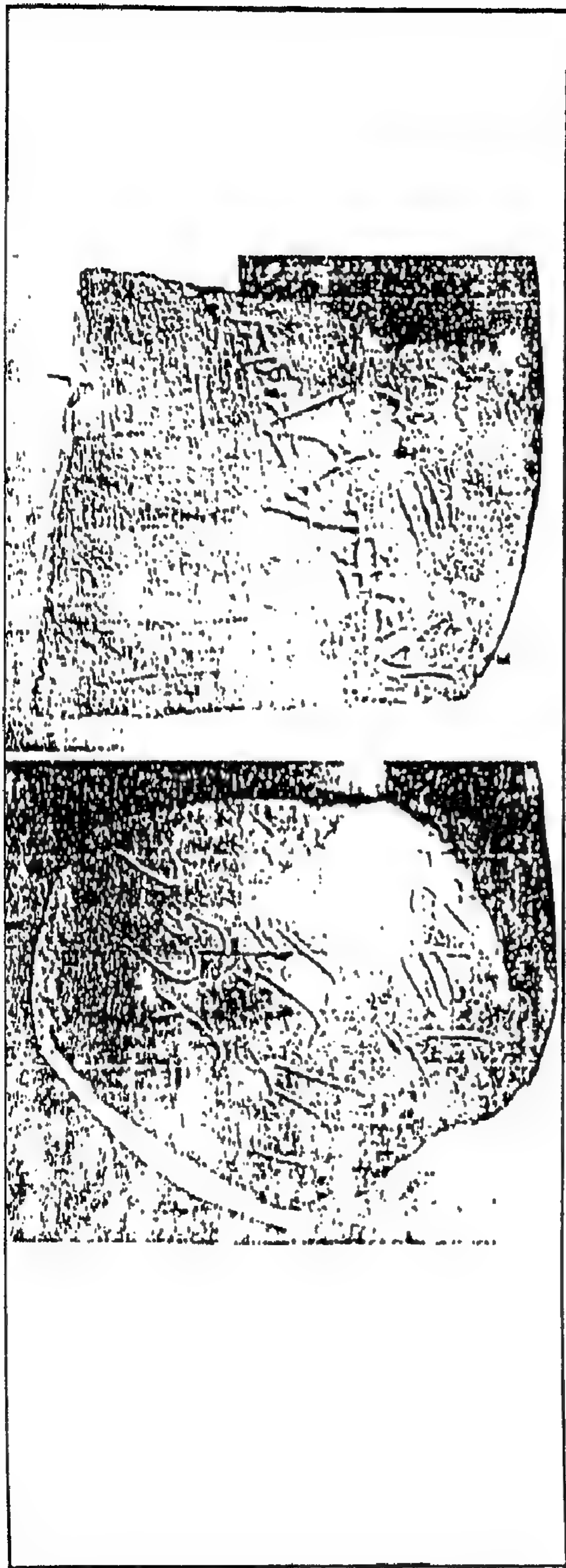


شكل (٢) فلسطين



شكل (٣)

Course of the Palestinian Campaign of Shosheng I. O.925.13.C.



شكل (٥)

HERRI:W OSTRACA FROM TEL. QAILI:

A OSTRACON NO.1

B OSTRACON NO.2

الهوامش

- ١- سبتينو موسكاتى : الحضارات السامية ، ترجمة السيد يعقوب ، القاهرة ، ١٩٩٧ ، ١١٠ .
- ٢- Kitchen, K, The Third Intermediate Period in Egypt, warminster, 1986, 493.
- ٣- عبد العزيز صالح : مصر والعراق ، القاهرة ١٩٨٧ ، ٢٦٥ .
- ٤- نجيب ميخائيل : مصر من قيام الدولة الحديثة إلى دخول الإسكندر ، ج٢ ، الإسكندرية ، ١٩٦٢ ، ٣١٧ ; Kitchen, K.A, op. cit, 280.
- ٥- Redford. B.R., Egypt, Canaan, and Israel, Cairo, 1993, 310.
- ٦- رمضان السيد : تاريخ مصر القديمة ، ج٢ ، القاهرة ١٩٩٣ ، ٢٢٥ .
- يرى د. عبد العزيز صالح أن تحديد اسم الملك لازال فى مرحلة الفروض ، فهو قد يكون أحد الاثنين السابق ذكرهما ، أو قد يكون أول ملوك الأسرة الثانية والعشرين : عبد العزيز صالح : مصر والعراق ، القاهرة ١٩٨٧ ، ٢٦٥ .
- ٧- عبد العزيز صالح : المرجع السابق ، ٢٦٥ .
- ٨- Kitchen, K.A, op. cit, table 12 , 479.
- ٩- نجيب ميخائيل : المرجع السابق ، ٣١٧ .
- ١٠- تحفة أحمد خندوسة : الزواج والطلاق فى مصر القديمة ، القاهرة ، ١٩٩٨ ، ٢٨ .
- ١١- Kitchen, K.A, op. cit, 276, 282.
- ١٢- Redford, B.R. op. cit., 311.
- ١٣- أحمد أمين سليم وسوزان عباس عبد اللطيف : تاريخ مصر الفرعونية ، الإسكندرية ، ١٩٩٧ ، ٢٩٢ .
- ١٤- حسن ظاظا : القدس مدينة الله ... أم مدينة داود ، الإسكندرية ، ١٩٧٠ ، ٣٨ .
- ١٥- Maisier, B, Two Hebrew Ostraca from Tell Qasile, JENS, X, 1951, 267.
- ١٦- عبد الحميد زايد : الشرق الخالد ، القاهرة ، ١٩٦٧ ، ٣٨٧ .
- ١٧- محمد بيومى مهران : ج٣ ، الإسكندرية ، ١٩٨٨ ، ٦٠٩ .
- انظر: Chen, S., Solomon and the Daughter of pharaoh: intermarriage Conversion and the Impurity of woman, JENS, 1984/85, 37.
- ١٨- نجيب ميخائيل : المرجع السابق ، ج٢ ، ص ٣١٦ .

قام ششتق بنقل قاعدة الملك من تانيس إلى بوباستة التي رأى أنها تفضل تانيس من نواحي عدة ، أنظر : إبراهيم محمد كامل : إقليم شرق الدلتا في عصوره التاريخية القديمة ، ج٢ ، القاهرة ، ١٩٨٥ ، ١٤٩-١٨١ .

سليم حسن : مصر القديمة ، ج٩ ، القاهرة ، ١٩٩٤ ، ٥١٧-٥١٩ .

Montet, P., Les Constructions et le Tombeau d'Osorkon II á de Tanis, 1947, (La Nécropole Royale Tains, I) 36, pl. I, 9A'; Kitchen, K.A., op. cit, 280-281.

٢٠- محمد بيومي مهران : مصر ، ج١ ، الإسكندرية ، ١٩٨٨ ، ٦٠٩-٦١٠ .

٢١- عبد الحميد زايد : المرجع السابق ، ص ٣٨٩ .

حفلت النقوش الجدارية بالعديد من مناظر قهر الشعوب الأجنبية منذ عصور ما قبل الأسرات وحتى العصور المتأخرة ، وهي تسجل الأحداث التاريخية بالإضافة إلى نوعية العقوبات التي ينزلها الملك على الشعوب الأجنبية ، أنظر :

Ivery, J., Crime and Punishment, (in) Egyptian Art principle and Themes in Wall Scenes, Prism Egypt, 2000, 207-223.

٢٢- Kemp, B., Ancient Egypt: A social History, Cambridge, 1989, 226-232.

Malemat, A., Aspects of the forgien Policies of Dawid and Solomon. JENS, 22/1, 1963, 1-17.

Waterman, L., The Treasuries of Solomon's Private chapel, JENS, 6, 1947, 161-163.

٢٣- Kitchen, K.A, op. cit, 282; Redford, D.B. op, cit., 310; Malamet, A., JENS, 22, 10- 17.

إبراهيم محمد كامل : المرجع السابق ، ١٤٩-١٨١ .

٢٤- تقع عند رأس خليج العقبة عند تل الخليفة حاليا ، وكانت تسمى قديما عصيون جابر ثم أطلق عليها بعد ذلك إيلات ولما أتى الرومان أسموها أيلة :

انظر: عبد الحميد زايد : المرجع السابق ، ص ٣٨٨ .

٢٥- Albright, W.F., The Archaeology of PALASTINE, Pengeuim Books;, Haramonds-worth, 1949, 44, 127-128

٢٦- سبتينو موسكاتي : الحضارات السامية ، ترجمة السيد يعقوب ، القاهرة ، ١٩٩٧ ، ١١٥-١١٦ .

٢٧- جواد على : المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، ج١ ، بيروت ، بغداد ، ١٩٧٦ ، ٦٣٨ .

٢٨- سليم حسن : مصر القديمة ، ج٩ ، القاهرة ، ١٩٩٤ ، ٥١٦ .

- ٢٩ Glueck, N., M River in the Desert, New York. 1959, 162.
- ٣- جواد على : المرجع السابق ، ٦٨٣ ، Redford, D.B. op, cit., 328 .
- ٣١- لطفى عبد الوهاب : العرب فى العصور القديمة ، الإسكندرية ، ١٩٩٧ ، ٣٢٥ ، LÄ, V, 370
- ٣٢- جواد على : المرجع السابق ، ٦٣٧ .
- ٣٣- جورج فضل حورانى : العرب والملاحة فى المحيط الهندى ، ترجمة السيد يعقوب بكر ، القاهرة ، ١٩٥٨ ، ١٥١-١٦٠ .
- ٣٤- Oxford Bible Atlas, trans. By Herbert G., and others , London, Oxford, 1968 , 66 .
- ٣٥- عبد المنعم عبد الحليم سيد : دراسة تاريخية للصلات والمؤثرات الحضارية بين حضارة مصر الفرعونية وحضارات البحر الأحمر ، رسالة دكتوراه ، جامعة الإسكندرية ، ١٩٧٣ ، ٢٠٢ .
- ٣٦- جورج فضل حورانى : المرجع السابق ، ١٥٢-١٥٣ . لطفى عبد الوهاب : المرجع السابق ، ٣٣٥-٣٣٦
- ٣٧- جورج فضل حورانى : المرجع السابق ، ١٥٣-١٥٤ .
- ٣٨- جواد على : المرجع السابق ، ٦٣٨ .
- ٣٩- جورج فضل حورانى : المرجع السابق ، ١٥٨-١٦٦ .
- ٤٠- بلاد هونت : كان لها مدلول عام عند المصريين جنوبا على طول الساحل الأفرى للبحر الأحمر .
- ٤١- عبد المنعم عبد الحليم سيد : المرجع السابق ، ص ٢٠٢-٢٠٣ : Faulkner, R.O., CD., 288
- ٤٢- سليم حسن : مصر القديمة ، ج٤ ، القاهرة ، ٢٠٠٠ ، ٣٢٦ : Naville, D. Bahari, Pl. 81
- ٤٣- عبد المنعم عبد الحليم سيد : المرجع السابق ، ص ٢٠٥ .
- ٤٤- عبد المنعم عبد الحليم سيد : المرجع السابق ، ص ٢٠٧ .
- ٤٥- Maisler, B., Two Hebrew Ostraca from Tell Qasile, JENS, X, 1951, 265-267.
- ٤٦- جواد على : المرجع السابق ، ٦٤٠ : LÄ, V, 370
- ٤٧- Wainwright, G., the Teresh, The Etruscans and Asia Minor, Antolian Studies, 9, 201 ff. ;
- Id., JEA, 47, 1961, 83 ff. ; Sanders, N.K., Sea Peoples, London, 1978, 111 ff.
- ٤٨- جواد على : المرجع السابق ، ٦٤٠-٦٤١ .
- ٤٩- Redfold, D.B., Egypt, Canaan and Israel, Cairo, 1993, 310;
- انظر : Bienkowski, P., The Role of Hazor in the late Bronze Age, PEQ, 1987, 50-51.
- ٥- Kitchen, K.A., The third Intermediate Period, 1996, 293-300. fig.2;

رمضان السيد : المرجع السابق ، ٢٣٣ : عبد العزيز صالح : المرجع السابق ، ٢٨٦ :

محمد بيومي مهران : المرجع السابق ، ٦١٤-٦١٥ :

Simons, J., Hand book for the study of Egyptian Topographical Lists Relating to Western Asia, Leiden, 1937, 89-102.

٥١- رمضان السيد : المرجع السابق ، ٢٣٣-٢٣٤ .

٥٢- انظر: Braguet, Le Temple d'Amon-Re à Karnak, 1962, 48-49;

Legrain, Karnak, 54-62; University of Chicago, Oriental Institute Publ. 74, Relief and Inscriptions at Karnak III, 74; PM, VII, 381.

PM, VII, 388

٥٣- عبد العزيز صالح : المرجع السابق ، ٢٨٦ :

Redford, D.B., Op. Cit., 334.

PM, Theban Temples, II, Oxford, 1991, 34-35.

-٥٤

٥٥- Kitchen, K.A., Jerusalem in Ancient Egyptian Documentation ; in Bienkowski, P., The Jordan Volume: Ape- Islamic Jerusalem, London (Forth Coming) , 16.

٥٦- رمضان السيد : المرجع السابق ، ص ٢٣٤ : عبد الحميد زايد : مصر الخالدة ، ٨٥٧ :

Cominos R.A., Gebel Es - Silsilah No. 100, JEA, 38, 1952, 46-61, Pl. 10-13.

Cominos R.A., op. Cit., 50, 59-60.

-٥٧

Pritchard, J.B., Ancient Near Eastern Texts, New Jersey, 1969, 263-264.

-٥٨

٥٩- Olmstead, A.T., History of Palastine and Syria, New York, 1931, 354-56; Yeivin, S., JEA, XVIII, 1962, 75-80.

Steindorff, G., JEA, XXV, 1939, 30-33;

-٦٠

Malamat, A., The Kingdom of David & Solomon in its Contact with Egypt and Aram Naharain, XXII, 1963, 96-104;

Helck, W., Geschichte Des Alten Ägypten, Leiden, 1968, 217-221.

أ.د. عبد المنعم عبد الحليم سيد (*)

تراث حضارة مصر الفرعونية في الحضارة الإنسانية

نتناول في هذا البحث جانباً من تراث حضارة مصر الفرعونية الذي ما زال باقياً حتى اليوم في سجل الحضارة الإنسانية ، فنقول إن هذا التراث يدور حول محورين ، لا تتقدم أى حضارة بدونهما ، هما : تقسيم الزمن ، والكتابة أو بالتحديد الأبجدية .

أما عن تقسيم الزمن فقد اعتمد المصريون القدماء فيه على دورة الشمس السنوية ، وليس على دورة القمر مثل سائر شعوب الشرق الأدنى القديم . وأما الأبجدية فقد كان المصريون القدماء أقدم الشعوب التى توصلت إلى الأساس الذى تقوم عليه فكرة الأبجدية بابتكار ٢٤ حرفاً أبجدياً فى الكتابة الهيروغليفية .

وقد انتقلت هاتان الظاهرتان الحضاريتان أى التقويم الشمسى وفكرة الأبجدية إلى الشعوب الأخرى ، وتطورت خلال القرون ، حتى وصلت إلينا فى أشكالها الحالية . فالتقويم الشمسى المصرى وصل إلينا فيما يعرف بالتقويم الميلادى ، وفكرة الأبجدية وصلت إلينا فى مختلف الأبجديات الباقية حتى اليوم سواء الأبجدية العربية (الخط العربى) أو الأبجديات اليونانية واللاتينية وسائر الأبجديات الأوروبية أو الأبجدية الجعزية فى الحبشة .

وعلى ذلك سوف نتناول فى هذا البحث العناصر الحضارية التى ما زالت باقية حتى اليوم لدى الشعوب المعاصرة والتى ترجع فى أصولها إلى حضارة مصر الفرعونية ، وهى :

* - أستاذ التاريخ القديم والآثار غير المتفرغ - كلية الآداب - جامعة الإسكندرية .

أولاً: التقويم الميلادى (الشمسى) .

ثانياً: الأبيديات المنتشرة فى حوض البحر المتوسط وما يتاخمه من مناطق أوروبية .

ثالثاً: الأجدية الأثيوبية (الجعزية) فى الحبشة .

أولاً: تراث مصر الفرعونية فى التقويم الشمسى

لما كان المصريون القدماء شعباً زراعياً ، فقد احتاجوا إلى تقويم ثابت لضبط مواعيد البذر والحصاد . لذا فإن التقويم القمرى لم يكن ملائماً لضبط هذه المواعيد . فأتجهوا لرصد دورة الشمس السنوية ، وبذلك لاحظ الراصدون المصريون أن وصول بشارت فيضان إلى خط عرض مدينة عين شمس أو هليوبوليس (التى كان المصريون القدماء يسمونها أون بمعنى "البرج" لأنهم كانوا يرصدون منه الأجرام السماوية) يتفق مع الشروق الاحتراقى (والشروق الاحتراقى لى نجم معناه ظهور النجم قبل شروق الشمس ، ثم اختفائه بمجرد شروقها) لنجم الشعري اليمانية الذى كان المصريون القدماء يسمونه " سبت " (وقد شبهوا هذا النجم فيما بعد فى المراحل التالية من تاريخهم بالإلهة إيزيس) وكان هذا النجم يظهر فى الأفق الشرقى قبل شروق الشمس مباشرة بعد اختفائه مدة طويلة .

وقد أطلقوا على هذا الشروق الاحتراقى للنجم واقتترانه ببشارت فيضان النيل عبارة " ب ر ت / س ب د ت / ح ع ب " ومعناها " شروق نجم الشعري اليمانية (مع) فيضان النيل " (Breasted 1988, 709 & Sethe 1961, IV, 1116.4) وهذه الظاهرة أى اقتران الشروق الاحتراقى لنجم الشعري اليمانية بوصول بشارت فيضان النيل لخط عرض هليوبوليس كانت تحدث يوم ١٩ يوليو من كل عام .

وعلى هذا فقد اعتبر الراصدون المصريون أن حدوث هذه الظاهرة يعبر عن بداية السنة ، وكانوا يحتفلون بها كل عام ، ويسمونها " أ و ب ت / ر ن ب ت " أى " فاتحة السنة " . وعلى ذلك فقد كان طول السنة المصرية هو المدة التى تتقضى بين شروطين احتراقيين لنجم الشعري اليمانية . وقد احتسبها المصريون ٣٦٥ يوماً ، وقسموا السنة على أساس فيضان النيل إلى ثلاثة فصول ، هى : الفصل الأول الذى أطلقوا عليه " آ خ ت " بمعنى " الفيضان " ، والفصل الثانى " ب ر ت " بمعنى " الخروج " أى خروج النبات من الأرض ، والفصل الثالث " ش م و " بمعنى " الذهاب " أى ذهاب الماء نتيجة انحسار الفيضان . ثم قسموا كل فصل من هذه

الفصول إلى أربعة شهور طول كل شهر ثلاثون يوما . وبذلك يكون مجموع الشهور الاثنى عشر ٣٦٠ يوما ، وتبقت خمسة أيام كان المصريون يضيفونها إلى آخر كل سنة ، وهى ما تعرف اليوم بأيام النسيء فى السنة القبطية التى هى امتداد للسنة المصرية القديمة .

وكانوا فى البداية لا يطلقون أسماء على الشهور لأن هذه الأسماء - التى تبدأ بشهر توت وتنتهى بشهر مسرى فيما يعرف بالشهور القبطية اليوم - لم يطلقها المصريون على الشهور إلا ابتداء من عصر الأسرة السادسة والعشرين (حوالى ٦٠٠ ق . م) (مونتيه ، ١٩٦٥ ص ٤٥) وإن كانت بعض الأسماء قد ظهرت فى عصر الأسرة الثامنة عشرة (إرمان ، ١٩٥٠ ، ص ٣٦٧) .

أما قبل الأسرة الثامنة عشرة فقد كان المصريون القدماء يرقمون الشهور طبقا لتسلسلها بالنسبة للفصول ، فيقولون : الشهر الأول من فصل أخت - وهو الذى أطلق عليه فيما بعد شهر " توت " - والشهر الأول من فصل برت - وهو الذى أطلق عليه فيما بعد شهر " طوبة " - والشهر الرابع من فصل شمو - وهو الذى أطلق عليه فيما بعد " مسرى " .

ثم قسموا الشهر إلى ثلاث عشرات ، وليس إلى أسابيع كما تفعل اليوم . وقسم المصريون القدماء اليوم إلى ٢٤ ساعة ، ١٢ ساعة للنهار ، و ١٢ ساعة لليل . وهكذا أرسى المصريون القدماء أساس التقسيم الزمنى المتبع حتى اليوم فيما عدا اختلافين أولها أن طول السنة الشمسية اليوم ٣٦٥, ٢٥ ، وليس ٣٦٥ كما كان عند المصريون القدماء فى البداية مما كان يؤدي إلى اضطراب مواعيد الفصول ولكن ذلك كان يحدث فى مدى زمنى طويل يصل إلى ٧٣٠ سنة عندما كانت الشهور التى من المفروض أنها شهور صيفية مثل شهر بؤونة تأتى فى فصل الشتاء ، بينما كانت الشهور التى من المفروض أنها شهور شتوية مثل شهر طوبة كانت تأتى فى شهر الصيف .

ولم يحاول المصريون إصلاح هذا الخطأ بإضافة ربع اليوم إلى الـ ٣٦٥ لأن التغيير فى الفصول لم يكن يشعر به الإنسان طوال حياته أو حتى طوال عدة أجيال ، وإن كان قد وصلتنا شكاوى للمصريين من هذا الاضطراب فى نص ، يتضرع كاتبه إلى الإله " آمون " أن يخلصه من السنة المضطربة . غير أنه بمرور ٧٣٠ سنة أخرى كانت الفصول تعود إلى حالتها الأصلية لأن نجم الشعرى اليمانية يعود إلى دورته المعتادة كل ١٤٦٠ سنة .

وكان أن أصلح الكهنة المصريون هذا الخطأ بإضافة ربيع اليوم إلى الـ ٣٦٥ يوما ، وبالتحديد بإضافة يوم كامل إلى السنة كل أربع سنوات . وقد حدث ذلك سنة ٢٣٨ قبل الميلاد في عهد الملك بطليموس الثالث في المرسوم الذى أصدره هؤلاء الكهنة لتمجيد هذا الملك البطلمى ، والذى سجل على كتلة من الحجر بالهيروغليفية والديموطيقية واليونانية (مثل حجر رشيد) فيما يعرف باسم حجر كانوب نسبة إلى بلدة كانوب (أبى قير الحالية) ، حيث اجتمع هؤلاء الكهنة ، وسجلوا هذا المرسوم (عبد المنعم عبد الحليم ، ٢٠٠٠ ، ص ٦١).

وكان سبب هذا الإصلاح رغبة هؤلاء الكهنة فى ضبط مواعيد الاحتفال بعيد تتويج الملك البطلمى ، وليس لعلاج الاضطراب فى الفصول ، لأن المصريين لم يشعروا فى حياتهم بهذا الاضطراب كما سبق القول .

ولعل الإنسان يتساءل كيف عرفنا هذه المعلومات عن علاقة التقويم المصرى بنجم الشعرى اليمانية ؟

لقد ذكرنا فيما سبق النص الهيروغلىفى الذى يدل على أن المصريين القدماء ربطوا بين شروق نجم الشعرى اليمانية وبين فيضان النيل ، ولكن تواريخ بدء اتباع المصريين للتقويم الشمسى على هذا الأساس لم يرد لها ذكر فى النصوص المصرية القديمة ، وإنما الذى ذكرها كاتب رومانى يدعى سنسورينوس Sinsorinus الذى كتب فى عام ٢٣٨ ميلادية ، يقول : إن المصريين لا يعتمدون على القمر فى تقويمهم ، بل يبدعون سنتهم بشروق النجم Sothis (وهو الاسم الرومانى للشعرى اليمانية التى تسمى باليونانية Sirius) فى الأول من شهر توت ، وأن طول السنة المصرية يقل بمقدار ربيع يوم عن السنة الفعلية (حرفيا يقل بمقدار يوم كامل كل أربع سنوات) وهذا الفرق يختفى كل ١٤٦٠ سنة ($١٤٦٠ = ٤ \times ٣٦٥$) ، ويقول سنسورينوس أيضا أن النجم Sothis هو نجم الكلب الذى ينتمى للمجموعة الجنوبية لكوكبة الكلب الأكبر Canis Major وأن هذا النجم يختفى من السماء الشمالية (حيث توجد سماء مصر) لجزء من السنة ، ثم يعود إلى الشروق فى نفس المكان فى نفس الوقت من فصل الصيف (Velikovsky 1977, P.216) .

أما تفسير فرق الربيع يوم فهو بعد أن يظهر نجم الشعرى اليمانية فوق الأفق قبل شروق الشمس بقليل ، ثم يختفى هو والنجوم الأخرى مع شروق الشمس فيما يسمى " الشروق الاحتراقى " فإن نجم الشعرى اليمانية يشرق فى اليوم التالى مبكرا بعدة دقائق عن اليوم

السابق ، ويعلو في الأفق قبل شروق الشمس . وبذلك يتجمع تأخير شروق النجم عن شروق الشمس بما يساوي ربع يوم كل ٣٦٥ يوما .

وهكذا يتأخر الشروق الاحتراقي للشعري اليمانية فبدلاً من أن يحدث هذا الشروق الاحتراقي في اليوم الأول من شهر توت ، فإنه يشرق في اليوم الثاني من توت ، ويظل هذا التأخير مستمرا حتى يبلغ ٣٦٥ يوما بعد ١٤٦٠ سنة إذ يعود الشروق الاحتراقي للنجم إلى اليوم الأول من شهر توت (Velikovsky 1977, p. 217) .

وقد أنبأنا سنسورينوس بمعلومة هامة أخرى هي أنه في سنة ١٣٩ ميلادية بدأت دورة جديدة للنجم Sothis ، وهذا معناه أن الاتفاق بين الشروق الاحتراقي لنجم الشعري اليمانية مع أول شهر توت حدث عام ١٣٩ ميلادية . وما لا شك فيه أن المصريين القدماء لابد أنهم قد بدأوا تقويمهم بهذه الظاهرة أي باتفاق الشروق الاحتراقي لنجم الشعري اليمانية مع أول شهر توت ، والذي يحدث كل ١٤٦٠ سنة . فإذا رجعنا في الزمن إلى الوراء لتحديد مناسبات هذا الاتفاق لوجدنا أن ذلك حدث عام ١٣٢١ قبل الميلاد (١٤٦٠ - ١٣٩ = ١٣٢١) وقبل ذلك حدث في عام ٢٧٨١ ق.م. (١٤٦٠ + ١٣٢١ = ٢٧٨١) وقبل ذلك في عام ٤٢٤١ ق.م. (١٤٦٠ + ٢٧٨١ = ٤٢٤١) .

ولما كانت حضارة مصر الفرعونية قد بلغت النضج في الأعوام ١٣٢١ ق.م (عصر الدولة الحديثة) و ٢٧٨١ ق.م (عصر الدولة القديمة) مما يدل على أن المصريين كانوا يتبعون فعلا التقويم الشمسي قبل هذه السنوات ، فضلا عن وجود إشارات في النقوش المصرية إلى رصد النجم سبد منها : إشارة في إحدى برديات اللاهون من عصر الأسرة الثانية عشرة (Breasted 1988, Vol. I, § 42) وإشارتان من عصر الملك تحتمس الثالث (Breasted , 1988, Vol. I, § 42, Vol. II, § 709) فعلى ذلك لا يبقى غير التاريخ الأقدم وهو عام ٤٢٤١ ق.م وهو يعاصر فترة ازدهار مدينة هليوبوليس التي يغلب أثرها قامت فيها مملكة أو دولة كانت تتخذ من الشمس معبودا لها ، كما يدل على ذلك رمزها الذي ظهر على آثار العصور التالية ، وهو قرص الشمس المجنح . والتي كان معنى اسمها يشير إلى رصد الأجرام السماوية ، وهو " أون أو البرج " كما كان كبير كهنتها يحمل لقب " ور / م / و " بمعنى " كبير الرائين " .

وقد استمر المصريون القدماء يتبعون هذا التقويم الشمسى القائم على الاتفاق بين الشروق الاحتراقى لنجم الشعرى اليمانية وبين وصول بشائر فيضان النيل إلى خط عرض هليوبوليس حتى آخر عصورهم ، وإن كانت أسماء الشهور قد تغيرت من أرقام منسوبة إلى الفصول إلى أسماء خاصة بكل شهر والتي استمرت حتى اليوم فيما يعرف بالشهور القبطية ، والتي تغيرت تواريخ بدايتها اليوم عما كانت أيام المصريين القدماء .

فبينما كان شهر توت هو أول شهور السنة يبدأ يوم ١٩ يوليو ، أصبح اليوم يبدأ يوم ١١ سبتمبر ، وتبع ذلك تغير بدايات الشهور الأخرى ربما نتيجة لما تعرض له التقويم الشمسى من إضافات أولها إضافة ربع اليوم سنة ٢٣٨ ق.م كما ذكرنا ، ثم ما أدخل عليه من إصلاحات عبر القرون حتى اليوم وكان آخرها الإصلاح الجريجورى كما سنذكر بعد .

وأسماء الشهور القبطية هذه إما أسماء آلهة أو أسماء مناسبات كما يلى :

١- توت : وهذا الشهر يبدأ فى الوقت الحاضر من ١١ / ٩ ، ويمتد حتى ١٠ / ١٠ ، واسمه الأصلي فى اللغة المصرية القديمة " تحوت " ، وقد تحور فى اللغة القبطية إلى Toot ، وهو نفس الاسم المستخدم حالياً فى العامية المصرية . وتحوت اسم إله مصرى كان رمزه الطائر أبى منجل والظاهر أن هذا الطائر كان يكثر فى الحقول لالتقاط الديدان بعد تعرية الأرض من النباتات قبل وصول مياه الفيضان الجديد .

٢- بابه : ويمتد من ١٠ / ١١ إلى ١١ / ٩ ، وهو اسم عيد كان يحتفل به فى طيبة التى كانت تسمى فى اللغة المصرية القديمة " أب ت " ، وأضيف إليها اسم الإشارة " ب ن " ، فصارت الكلمة " ب ن / أب ت " التى تحولت فى اللغة القبطية إلى Pawpi وبقيت نفس الكلمة فى العامية المصرية .

٣- هاتور : ويمتد من ١٠ / ١١ إلى ٩ / ١٢ ، وينسب إلى الالهة " حتحور " إلهة الخصب والجمال عند المصريين القدماء ، التى تحور اسمها فى اللغة القبطية إلى Hatwr .

٤- كيهك : ويمتد من ١٠ / ١٢ إلى ٨ / ١ والاسم محور من الكلمة المصرية القديمة " كا-حر-كا " ومعناها " قران الروح بالروح " ، وهو اسم عيد ، وقد صار الاسم فى اللغة القبطية Kiahk ، وهو نفس نطقه بالعامية المصرية .

٥- طوبة : ويمتد من ١/٩ إلى ٢/٧ ، وأصل الاسم من الكلمة المصرية القديمة بتت أو ببت ومعناها " قمح " ، وقلبت الكلمة في اللغة القبطية إلى Twbe وهو نفس نطقها في العامية المصرية .

٦- أمشير : يمتد من ٢/٨ إلى ٣/٩ ، وأصل اسمه من الكلمة المصرية القديمة " مخير " ومعناها " الزوابع " ، ثم صارت في القبطية Emsheer ، وهو نفس النطق في العامية المصرية .

٧- برمهاث : يمتد من ٣/١٠ إلى ٤/٨ والأصل المصرى القديم للاسم هو " ب ن / أمنحتب " وهو اسم أحد فراعنة الأسرة الثامنة عشرة ، وقد رفعه المصريون إلى مصاف الآلهة بعد وفاته ، وقد تحور الاسم في اللغة القبطية إلى Parmhotep ، وصار في العامية المصرية " برمهاث " .

٨- برمودة : يمتد من ٤/٩ إلى ٥/٨ ، وأصل الاسم في اللغة المصرية القديمة " ب ن / ر ن و ت هـ " وهو اسم إلهة الحصاد عند المصريين القدماء ؛ لأنه شهر حصاد القمح ، وقد صار الاسم في اللغة القبطية Parmoutc وصارت في العامية المصرية برمودة .

٩- بشنس : يمتد من ٥/٩ إلى ٦/٧ ، وأصل الاسم في اللغة المصرية القديمة " ب ن / خ ن س و " ، وخنسو هو اسم إله القمر عند المصريين القدماء ، وقد صار الاسم في اللغة القبطية Pashons ، وهو نفس الاسم تقريبا في العامية المصرية .

١٠- بؤونه : يمتد من ٦/٨ إلى ٧/٧ ، وأصل الاسم في اللغة المصرية القديمة " ب ن / ا ن ت " ، و" ا ن ت " وهو اسم وادى الملوك غرب مدينة طيبة الذى توجد فيه مقابر الفراعنة ، وكان المصريون يحتفلون في هذا الوقت بعيد ينسب إليه أى يسمى " عيد الوادى " كان يتم فيه انتقال تمثال الإله آمون إله مدينة طيبة من البر الشرقى للنيل حيث يوجد معبد الكرنك إلى البر الغربى حيث يوجد وادى الملوك . وقد صار الاسم في اللغة القبطية Paowne ، وهو نفس النطق في العامية المصرية .

١١- أبيب : يمتد من ٧/٨ إلى ٨/٧ ، وأصل الاسم في اللغة المصرية القديمة " إب إب " ، وفي القبطية Epep وهو اسم عيد كان المصريون يحتفلون فيه بانتصار الإله حورس على إله الشر ست أى بانتصار الخير على الشر ، وقد ظل الاسم كما هو تقريبا في العامية المصرية .

١٢- مسرى : يمتد من ٨/٨ إلى ٩/٥ ، وهو من الكلمة المصرية القديمة " م س / ر ع " بمعنى " ميلاد الشمس " أو " ابن الشمس " ربما إشارة إلى قرب ميلاد السنة الجديدة باقتران شروق (ميلاد) الشمس بنجم الشعرى اليمانية . وقد صار الاسم فى القبطية Me-sowre التى صارت فى العامية المصرية " مسرى " . (جورجى صبحى ، ١٩٢٥ ، ص ٩٣) .
وأخيرا تبقى الأيام الخمسة الزائدة على الـ ٣٦٠ يوما والمسماة اليوم " أيام النسى " ، وكان المصريون القدماء يسمونها باللغة المصرية القديمة " دى و/هـ ر و / ان / ر ن ب ت " ومعناها " الخمسة أيام الخاصة بالسنة " أو " دى و/هـ ر و / ح ر و / ر ن ب ت " أى الأيام الخمسة التى فوق السنة .

والآن بعد أن تتبعنا نشأة التقويم الشمسى عند المصريين القدماء وتطوره عبر العصور تبقى نقطة هامة هى : كيف انتقل هذا التقويم إلى الشعوب الأخرى واستمر حتى اليوم ؟
وللإجابة على هذا السؤال نقول أن هذا التقويم انتقل عن طريق الرومان على يد يوليوس قيصر عندما جاء إلى مصر فى عام ٤٦/٤٥ قبل الميلاد ، فقد كان الرومان يتبعون تقويما قمريا يبدأ بتأسيس رومولوس لروما ، وقد أخذ يوليوس قيصر فى ذلك بنصيحة عالم فلكى سكندرى يدعى " سوسيجينس " Sosigenes .

وهناك معلومة خاطئة تتردد عن سوسيجينس هذا بأنه الذى أضاف ربيع اليوم للسنة المصرية التى كانت تتكون من ٣٦٥ يوما ، وبالطبع فإن الذى أضاف ربيع اليوم هم الكهنة المصريون فى عام ٢٣٨ قبل الميلاد كما تقدم القول .

أما كيف تمت مطابقة التقويم الشمسى المصرى مع التقويم الرومانى القمري ؟ فيمكننا معرفة ذلك إذا تتبعنا التقويم الرومانى منذ نشأته وتطوره حتى استبدل به التقويم المصرى على يد يوليوس قيصر .

نشأة التقويم الرومانى وتطوره :

ينسب الرومان التقويم الرومانى إلى Romulus مؤسس مدينة روما ، وكانت السنة الرومانية تتكون فى الأصل من عشرة شهور ، تبدأ بشهر مارس ، وتنتهى بشهر ديسمبر الذى اشتق اسمه من العدد عشرة (Decem) ، ثم حدثت عدة تعديلات فى هذا التقويم منها إضافة شهرى يناير وفبراير فى بداية السنة أى قبل شهر مارس ، فصارت السنة الرومانية

تتكون من اثنتى عشر شهرا ، ورغم ذلك ظل شهر ديسمبر يحتفظ بالرقم عشرة (Decem) فى اسمه .

ولما كانت السنة الرومانية سنة قمرية ، فقد كان عدد أيامها ٣٥٤ يوما ؛ لذلك أخذ يوليوس قيصر عندما جاء إلى مصر عام ٤٦/٤٥ ق.م بنصيحة العالم الإسكندري سوسيجينس باتباع التقويم المصرى بدلا من التقويم الرومانى كما ذكرنا سابقا . وأصبحت السنة الرومانية تتكون من ٣٦٥, ٢٥ (لأن ربيع اليوم سبق أن أضافه الكهنة المصريون سنة ٢٣٨ ق.م كما ذكرنا) مع تغيير أسماء الشهور من مصرية إلى رومانية فشهر توت أول شهور السنة المصرية صار " يناير " ، وشهر بابو صار فبراير وهكذا .

وكانت أسماء الشهور الرومانية متخذة من أسماء آلهة أو أباطرة أو أرقام كما يلى :

- يناير : اتخذ اسمه من اسم الإله الرومانى يانوس Janus وهو إله على هيئة إنسان ذى وجهين أو رأسين لهما ذقنان ملتصقان ظهرا بظهر فكأنه يودع العام الفائت ويستقبل العام الجديد (أمين سلامة ، ١٩٥٥ ، ص ١٦٧) .

- فبراير : واسمه مشتق من الاسم Februra بمعنى " التطهير " لأن الرومان كانوا يتطهرون فى منتصف هذا الشهر ، ويكفرون عن الخطايا .

- مارس : نسبة إلى إله الحرب Mars .

- إبريل : وهو من كلمة Operio بمعنى " ينكشف " أو " يفتح " (Lewis, 1979, p. 64) وربما يشير إلى تفتح الأزهار فى فصل الربيع .

- مايو : من اسم الآلهة Maia إلهة الإخصاب والنمو الطبيعى (أمين سلامة ، ١٩٥٥ ، ص ٢٨٣ ، ٢٨٦) . وربما إشارة إلى إخصاب الطبيعة فى فصل الربيع .

- يونية : ربما اسم الإلهة الرومانية Juno ، وتعادل الإلهة هيرا عند اليونان ، ولعلها ترمز إلى جمال الطبيعة فى شهر يونيه .

- يولية : على اسم يوليوس قيصر .

- أغسطس : على اسم الإمبراطور أغسطس أكتافىوس .

- سبتمبر : معناه الشهر السابع ، وهو رقمه فى السنة الرومانية ، عندما كانت تتكون من عشرة شهور ، وقد ظل اسم الشهر السابع (سبتمبر) رغم أنه أصبح الشهر التاسع عندما أصبحت السنة الرومانية تتكون من اثنى عشر شهرا كما ذكرنا .

- أكتوبر ونوفمبر وديسمبر : أسماء هذه الشهور معناها الثامن والتاسع والعاشر على التوالى ، وهى أرقامها عندما كانت السنة الرومانية تتكون من عشرة شهور ، وشأنها شأن شهر سبتمبر ، فقد احتفظت بترقيعها القديم .

هذا التقويم أطلق عليه التقويم اليولياني نسبة إلى يوليوس قيصر ، ومبدؤه كما ذكرنا هو سنة تأسيس روما على يد رومولوس ، ولكنه تحول إلى التقويم الميلادى ، أى صار مبدؤه سنة ميلاد السيد المسيح وذلك على يد راهب يدعى ديونيسيوس اكسيخيوس Dionysius Exigys الذى عاش فى روما فى منتصف القرن السادس الميلادى وحوالى عام ١٢٨٦ رومانية حول هذا الراهب التقويم اليولياني إلى التقويم الميلادى على أساس رواية للمؤرخ الرومانى كليمنت السكندرى بأن السيد المسيح ولد فى ٢٥ ديسمبر فى السنة الثامنة والعشرين من حكم الإمبراطور أغسطس أكتافىوس ، وبمعادلة هذه السنة مع التقويم الرومانى ، توصل ديونيسيوس إلى أن السيد المسيح ولد يوم ٢٥ ديسمبر سنة ٧٥٤ رومانية ، وقد اعتبر ديونيسيوس إن أول يناير من هذه السنة (٧٥٤ رومانية) موافقا لأول يناير سنة ١ ميلادية (محمد محمد فياض ، ١٩٥٨ ، ص ٢٩) وبذلك بدأ التقويم الميلادى ، وبحساب هذا التقويم يكون هذا التغيير قد حدث سنة ٥٢٢ ميلادية (وهى المعادلة لسنة ١٢٨٦ رومانية) .

غير أنه بمرور القرون تبين فى عام ١٥٨٢ ميلادية - فى عهد البابا جريجورى الثالث عشر- أن هناك خطأ فى حساب هذا التقويم نتيجة لوجود اختلاف طفيف بين السنة الشمسية والسنة الميلادية بزيادة السنة الميلادية بمقدار ٠.٠٠٧٨ من اليوم ، وقد عهد البابا جريجورى إلى الراهب كرسطوفر كلافيوس Christopher Clavius بإصلاح هذا الخطأ ، الذى تبين له أنه نتيجة لهذا الخطأ زادت السنة الميلادية بمقدار عشرة أيام عن السنة الشمسية ، فاعتبر هذا الراهب يوم الجمعة ٥ أكتوبر سنة ١٥٨٢ هو يوم الجمعة ١٥ أكتوبر سنة ١٥٨٢ جريجوارية (محمد محمد فياض ، ١٩٥٨ ، ص ٢٨ ، ٣٢) .

(وقد استخدمنا كلمة "ميلادية" بدلا من "يوليانية" ؛ لأن التقويم ظل يطلق عليه التقويم اليولياني رغم أنه بدأ بميلاد السيد المسيح ، ولهذا استخدمنا كلمة ميلادى بدلا من كلمة يولياني تسهيلا على القارئ الكريم) .

وقد أخذت الدول الأوربية تباعا بالتقويم الجريجوارى ، وتبعتها بقية دول العالم ، وهو التقويم المستخدم اليوم فى سائر أنحاء العالم باسم التقويم الميلادى ، وهو فى أصله من تراث حضارة مصر الفرعونية كما ذكرنا .

ثانياً: تراث مصر الفرعونية فى الأبجديات المنتشرة فى حوض البحر المتوسط وما يتاخمه من مناطق أوربية

من المتفق عليه بين الباحثين فى تاريخ الكتابة ، أن جميع الأبجديات المعاصرة فى المناطق المحيطة بالبحرين المتوسط والأحمر وما يتاخمها شمالاً فى أوروبا وجنوباً حتى اليمن والحبشة وشرقاً حتى الهند ، ترجع لأصل واحد مشترك يطلق عليه الأبجدية الأم أو الأبجدية الأولى .

ورغم أن الكتابة الهيروغليفية المصرية تضم أقدم أبجدية فى التاريخ ، وتتكون من أربع وعشرين علامة أبجدية (شكل ١) ، إلا أنها لم تكن الأبجدية الأم ، لأن المصريين القدماء استخدموها بطريقة أضاعت قيمتها الأبجدية ، فقد كانت الكتابة الهيروغليفية تضم إلى جانب هذه العلامات الأبجدية علامات مقطعية ثنائية وثلاثية (شكل ٢) ، وكانوا يستخدمون العلامات الأبجدية كمكملات صوتية لهذه العلامات المقطعية ، ومثال ذلك العلامات المقطعية الدالة على المنزل كانت تنطق " بر " أى بصوتين هما : الباء والراء (شكل ٣) ، فكان المصريون يضيفون حرف الراء ورغم ذلك كانت تنطق " بر " وليس " برر " وبذلك ضاعت قيمة الحروف الأبجدية الهيروغليفية نتيجة استخدامها مع العلامات المقطعية أى عدم الاقتصار على استخدامها وحدها كما هو الشأن فى الحروف الأبجدية .

وقد راجت آراء فى وقت ما بأن الأبجدية الفينيقية هى هذه الأبجدية الأم ، ولكن ثبت خطأ هذا الرأى لأنه لا يظهر فى حروفها مراحل التطور على الأرض الفينيقية ، وإنما تدل أشكال حروفها على أنها نهاية سلسلة تطور كما سنوضح بعد

فما هى هذه الأبجدية الأم أو الأبجدية الأولى ؟

إنها تلك التى يطلق عليها الأبجدية السينائية المبكرة Proto-Sinaitic Alphabet لأنها نشأت فى سيناء . وكلمة المبكرة تميزها عن أبجدية سينائية أخرى انتشرت فى سيناء فى عصر متأخر وبالتحديد فى القرنين الثالث والرابع الميلاديين ، وترجع فى أصلها إلى الأبجدية النبطية.

نشأت الأبجدية السينائية المبكرة فى منطقة سيرايبط الخادم بسيناء على يد شعب سامى بسيط كان أفرادهم يعملون تحت إشراف المصريين فى استخراج النحاس والفيروز فى العصر الذى بلغ فيه النشاط المصرى ذروته فى سيناء ، وهو عصر الأسرة الثانية عشرة الفرعونية أى ما بين القرنين العشرين والثامن عشر قبل الميلاد ، إذ بلغ عدد أفراد إحدى البعثات التى أرسلها الفرعون آمون - محات الثالث - أحد ملوك هذه الأسرة - ٧٣٤ فردا وذلك لتعدين حجر الفيروز نصف الكرم من مناجم منطقة سيرايبط الخادم (الخريطة رقم ١) .

وقد حدث نوع من التقارب بين المصريين وبين أفراد هذا الشعب السامى البسيط تمثل فى اتباع هؤلاء الساميين للعادات المصرية وفى تقليدهم لمظهر المصريين ، وخاصة أن المصريين شيدوا معبدا لإلهتهم حتحور داخل كهف كان فى الأصل معبدا لإلهة الساميين " عشتارت " التى كانوا يكنونها " بعلات " بمعنى الربة أو السيدة مما أدى إلى توحيد الإلهتين . فوجدت داخل هذا المعبد تماثيل مصرية الطابع مثل تماثيل على هيئة أبى الهول (شكل ٤) والشخص القابع (شكل ٥) كما وجدت رسوم الآلهة المصرية كالإله " بتاح " (شكل ٦) وقد نقشت على هذه التماثيل والرسوم عبارات بالكتابة السينائية المبكرة . أى أن أصحابها الساميين صنعوها على الطراز المصرى بينما نقشوا عليها كتاباتهم . كذلك ظهرت بين الرسوم صور لبعض هؤلاء الساميين وهم يرتدون الزى المصرى ، وقد حلقوا لحاهم كالمصريين (شكل ٧ ب) على عكس عادة الساميين كما تظهرهم الرسوم المصرية الأخرى بلحى نامية وبأردية طويلة كاسية . (شكل ٧ أ) .

غير أن أهم ما أخذه هؤلاء الساميون عن المصريين علامات الكتابة الهيروغليفية المصرية التى كانت بمثابة المادة الخام التى استخلص هؤلاء الساميون منها أبجديتهم ، إذ يبدو أن الكتابة الهيروغليفية المصرية بعلاماتها التى تبلغ حوالى ٧٠٠ علامة بخصائصها المقطعية المعقدة ، والتى لم يكن يستطيع فهمها واستخدامها إلا الذين نشأوا فى البيئة المصرية ، وتمرسوا عليها منذ صغرهم - يبدو أن هذه الكتابة استعصت على هؤلاء الساميين البسطاء ، فبسطوا بعض علاماتها بتحويلها من كتابة مقطعية إلى حروف أبجدية ، واتبعوا فى ذلك نفس الطريقة التى اتبعها المصريون فى ابتكار حروف أبجديتهم الهيروغليفية ، والتى لا شك أنهم تعلموها من المصريين ، إذ يستبعد توصلهم إلى هذه الطريقة بأنفسهم بالنظر إلى بداوتهم وحياتهم البسيطة ، وهذه الطريقة يطلق عليها الباحثون فى تاريخ الكتابة " الطريقة

الأكروفونية "Acrophonic Principle" وتتلخص فى اتخاذ الصوت الأول من نطق الاسم الدال على شكل العلامة ليكون مدلولاً صوتياً مفرداً Unilateral للعلامة إذا دخلت فى تركيب الكلمات (راجع حروف النون والألف المكسورة والغين والقاف والجيم والثاء والزاي أو الجيم المعطشة على سبيل المثال فى الأبجدية الهيروغليفية فى شكل ١) ، ومثال ذلك العلامة المقطعية الدالة على المنزل التى سبق أن ذكرناها والتى تنطق " بر " (شكل ٣) ، فقد اتخذها هؤلاء الساميون مدلولاً لحرف الباء لأن المنزل يدعى " بيت " فى لغتهم (وبلاحظ أن الكلمة تتفق فى نطقها ومعناها مع اللغة العربية لأنها لغة سامية الأصل) ولأن أول حرف فى هذه الكلمة هو حرف الباء .

بهذه الطريقة حول هؤلاء الساميون سبعة وعشرين علامة من العلامات الهيروغليفية إلى حروف أبجدية ، واستخدموها وحدها فقط ، أى غير مقترنة بعلامات مقطعية كمكمل صوتى لها كما فعل المصريون القدماء بأبجديتهم الهيروغليفية . فكانت هذه الأبجدية المسماة بالسينائية المبكرة هى الأبجدية الأم أو الأبجدية الأولى التى اشتق منها سائر الأبجديات وفى مقدمتها أبجديات شرق البحر المتوسط التى اشتقت منها بدورها أبجديات غرب البحر المتوسط والبحر الأحمر والمحيط الهندى .

وكما ذكرنا ، رجح الباحثون - وخاصة علماء المصريات - عصر الأسرة الثانية عشرة الفرعونية (١٩٩١ - ١٧٨٣ ق.م) كتاريخ لنشأة هذه الأبجدية وفى مقدمتهم العالم " الان جاردنر " الذى حل رموز هذه الأبجدية (Gardiner , 1916, pp. 1-16) وحددوا لذلك عصر الفرعون آمون - محات الثالث بوجه خاص (١٨٤٣-١٧٩٧ ق.م) لأن منطقة مناجم الفيروز فى سراييط الخادم شهدت نشاطاً مصرياً مكثفاً لم يحدث فى عصر ملك واحد طوال عصور استغلال المصريين القدماء لهذه المناجم ، وازدادت مشاركة الساميين فى البعثات المصرية فى منطقة سراييط الخادم (Gardiner , 1962, p. 47) .

غير أن بعض الباحثين فى الدراسات السامية وخاصة الإسرائيليين منهم (Cross 1947, p. 30, cf. Naveh 1987, p. 8) أرجعوا تاريخ اختراع الأبجدية السينائية المبكرة إلى عصر الأسرة الثامنة الفرعونية وخاصة عصر حتشبسوت وتحتمس الثالث (١٤٨٤-١٤٢٩ ق.م) واعتمدوا فى ذلك على رأى قديم يرجع إلى أوائل القرن الحالى كان قد تبناه العالم الأثرى

فلندرز بتري (Petrie 1906, p. 131) الذى كان أول من أجرى حفائر أثرية فى منطقة سيرابيط الخادم ، وكشف عن معبدتها وأثارها ، وتتلخص الأدلة التى اعتمد عليها بتري فى تحديد عصر النقوش السينائية المبكرة بعصر الأسرة الثامنة عشر وخاصة عصر تحتمس الثالث وحتشبسوت فيما استخلصه من الآثار التالية :

(١) تمثال لشخص قابع (شكل ٥) عليه كتابة سينائية مبكرة (وقد أعطاه بتري رقم ٣٤٦) عثر عليه عند مدخل مقصورة الإله " سيبو " (أحد ألها منطقة سيرابيط الخادم) التى شيدتها الملكة حتشبسوت .

(٢) تمثال على شكل أبى الهول المؤنث (شكل ٤) وعليه كتابة سينائية مبكرة (وهى التى توصل إلى حلها العلامة جاردنر كما سبق القول وأمكنه بذلك قراءة النصوص السينائية المبكرة) ، وهذا التمثال مصنوع من الحجر الرملى الأحمر ، وقال بتري عن هذا الحجر أنه استخدم لأول مرة فى عصر الملك تحتمس الثالث .

(٣) كسرة من الفخار البرتقالى ذو الخطوط الحمراء والسوداء ، وجدت فى أحد مناجم سيرابيط الخادم الذى نحتت على واجهته كتابة سينائية مبكرة ، وهذا النوع من الفخار يميز عصر تحتمس الثالث فى رأى بتري (Ibid) .

وقد أضاف علماء الدراسات السامية إلى أدلة بتري هذه أدلة أخرى من وجهة نظرهم ، وهى أن تمثال أبى الهول المؤنث (شكل ٤) ظهر فجأة فى عصر حتشبسوت (Albright 1948, p.10) وأن التمثال القابع شاع فى القرن الخامس عشر قبل الميلاد أى فى عصر الأسرة الثامنة عشرة ، وأن وجود هذا التمثال يعتبر دليل قوى ضد أى تحديد لعصر النقوش قبل هذه الأسرة (Ibid) .

والرد على هذه الحجج ، فإننا نقول إن آراء بتري كانت تعتبر صحيحة فى أوائل القرن العشرين عندما ألف كتابه عن حفائره فى سيناء فى أوائل القرن السابق (عام ١٩٠٦) ، ولكنها تغيرت خلال هذه المدة الطويلة ، فمثلاً ثبت أن الحجر الرملى الأحمر استخدم قبل عصر تحتمس الثالث بوقت طويل ، بل وقبل عصر الأسرة الثانية عشرة نفسها وبالتحديد فى معبد الملك منتو - حتب الثانى فى الدير البحرى بالأقصر (٢٠١٠-١٩٩٨ ق.م) الذى يرجع لعصر الأسرة الحادية عشرة . (Lucas 1945, p. 72) .

أما عن العثور على قطعة الفخار من عصر تحتتمس الثالث وعلى تمثال من عصر حتشبسوت فى أماكن ترجع لعصر هذين الملكين فلا يمكن الاعتماد على ذلك لأن هذه الآثار غير ثابتة ، فيسهل نقلها من مكان لآخر فضلا عن أن معبد سيرايط الخادم امتد بناء أجزائه من عصر الأسرة الثانية عشرة إلى عصر الأسرة العشرين وبذلك شمل آثارا من جميع هذه العصور ومن بينها بطبيعة الحال آثار من الأسرة الثامنة عشرة .

وبالنسبة لأراء علماء الدراسات السامية بأن تمثال أبى الهول المؤنث ظهر فجأة فى عصر حتشبسوت ، فالواقع غير ذلك لأن هذا النوع من التماثيل منذ عصر الأسرة الرابعة وبالتحديد فى منطقة هرم الملك ددفرع فى أبى رواش (حوالى ٢٥٤٠ ق م) (Hassan 1949, p.91).

كذلك فإن رأيهم بأن وجود التمثال المكعب يعتبر دليل قوى ضد تحديد عصر النقوش السينائية قبل عصر الأسرة الثامنة عشرة ، هذا الرأى ينقضه العثور على تماثيل من هذا النوع ترجع لعصر الأسرة الثانية عشرة ، ومثال ذلك تماثيل أحدهما محفوظ فى المتحف البريطانى وهو لشخص يدعى " سا - حتحور " والثانى فى المتحف المصرى وهو لشخص يدعى " حتب " (Aldred 1956, pp. 43-44, pls. 36-37) .

وعلى ذلك فإن رأى علماء المصريات بتحديد عصر النقوش السينائية المبكرة بعصر الأسرة الثانية عشرة هو الأرجح ولاسيما أنهم الذين نسخوا النقوش السينائية المبكرة والذين درسوها ، والذين حلوا رموزها ، فهم أقدر على تحديد عصرها . (Cerny 1955, Vol I, pl. 82 & Vol II, p. 202 no. 345) .

وقد أكد هذا التحديد نقش وجد فى منطقة وادى نصب بسيرايط الخادم (شكل ٨) بعد حوالى ستين عاما من كشف بترى للنقوش السينائية . ويتميز بخشونة ظاهرة بالنسبة لباقي النقوش مما يدل على قدمه فضلا عن أن العالم " ألان جاردنر " أثبت أنه يرجع إلى عصر الملك " أمون - محات " الثالث أحد أواخر ملوك الأسرة الثانية عشرة (Gardiner 1962, p. 46)

ومن الغريب أن هذا الرأى أى إرجاع عصر النقوش السينائية المبكرة إلى عصر الأسرة الثانية عشرة ، كان سائدا بين علماء الدراسات السامية وفى مقدمتهم العالم " ألبريت " فى بحث نشره عام ١٩٣٥ (Albright 1948, p. 15) واعتمد فى هذا التاريخ على وجود ميم التنوين Mimation فى لغة النقوش السينائية المبكرة (Ibid) وكانت ميم التنوين هذه - فى

رأيه - من خصائص اللغات السامية قبل منتصف الألف الثاني قبل الميلاد ، ثم اختلفت حوالى ذلك التاريخ (Ibid) . ثم عاد ألبريت وغير رأيه فى بحث نشره عام ١٩٤٨ منكراً وجود ميم التتوين فى النقوش السينائية المبكرة (Ibid) وأكد رأيه هذا فى دراسة نشرها عام ١٩٦٩ عن قواعد لغة النقوش السينائية المبكرة ومفرداتها ، وبذلك تبنى الرأى القائل بأن النقوش السينائية المبكرة ترجع إلى عصر الأسرة الثامنة عشرة (Albright 1969 , p.6) ولو أنه فى نفس هذه الدراسة أقر بأنه قد يضطر لقبول الرأى القائل بأن النقوش السينائية المبكرة ترجع لعصر الأسرة الثانية عشرة عندما واجهته بعض الصعوبات بشأن تفسير نشأة الأبجدية السامية الشمالية الغربية (ربما يقصد الفينيقيّة) ذات المظهر الخطى (Op.Cit., p.15) .

هذا التذبذب فى الرأى من أكبر علماء النقوش السينائية المبكرة يضاعف رأى علماء الدراسات السامية بتحديد عصر هذه النقوش بعصر الأسرة الثامنة عشرة ، وبالتالي يرجع رأى علماء المصريين بإرجاع هذا العصر إلى عصر الأسرة الثانية عشرة .

لقد كان من أهم أسباب تغيير علماء الدراسات السامية لرأيهم الأقدم بأن النقوش السامية المبكرة ترجع إلى عصر الأسرة الثانية عشرة إلى رأيهم الأحدث بأنها ترجع إلى عصر الأسرة الثامنة عشرة - كان من أهم هذه الأسباب - العثور فى فلسطين على عدة قطع أثرية حدد الباحثون عصرها بالقرنين السابع عشر والسادس عشر قبل الميلاد، وقد نقشت بكتابة أطلقوا عليها الكتابة الكنعانية المبكرة Proto-Canaanite (Naveh 1987, p. 27) وهذه القطع الأثرية هى :

(١) كسرة فخار وجدت فى منطقة تل جازر الواقعة شمال غرب أورشليم بثلاثين كيلو مترا (الخريطة رقم ٢) وعليها ثلاثة حروف تقرأ من أعلى إلى أسفل " ك ل ب " (شكل ٩) (Op,cit.fig.19) وهو فى الغالب اسم علم قد يكون الاسم السامى " كالب " .

(٢) نصل خنجر من البرونز عثر عليه فى منطقة لكيش القديمة (تل البوير الواقعة على بعد أربعين كيلو مترا جنوب غرب أورشليم) (الخريطة رقم ٢) وقد نقشت عليه أربعة حروف من أعلى إلى أسفل تقرأ " ط ر ن ز " (شكل ١٠) (Op,cit.fig.20) ويرى ألبريت أنه من أسماء الحوريين (شعب كان يسكن بين جنوب تركيا وشمال الشام) (Albright 1969,p.10) .

(٣) كسرة وجدت في منطقة " شكيم " القديمة (تل بلاطة الحالية بالقرب من نابلس) ، وقد نقشت عليها سبعة حروف (شكل ١١) (Naveh, Op,cit.fig.19) قرأها ألبريت من اليسار إلى اليمين (... ت «ب» أ ر غ م / م أ ر «ت ») وترجمتها " (سوف) تحدث كلمات (هذه) اللعنة " (Abright 1969, p. 10).

ومن رأى علماء الدراسات السامية أن حروف النقوش السينائية المبكرة لاحقة في التطور لحروف النقوش المذكورة وبهذا أرجعوا النقوش السينائية المبكرة إلى القرن الخامس عشر قبل الميلاد لأن النقوش المذكورة ترجع إلى القرن السابع عشر أو السادس عشر قبل الميلاد .

غير أننا إذا قارنا بين حروف الكتابة الكنعانية المبكرة ، وبين حروف الكتابة السينائية المبكرة من حيث الصفة الصورية (أو التصويرية) لهذه الحروف ، وهو لا شك مقياس قدم إحدى الكتابتين عن الأخرى ، نجد أنها إما متساوية بين حروف الكتابتين أو أن الحروف السينائية المبكرة تتفوق على الكنعانية المبكرة التي اختلفت من حروفها هذه الصفة . فمن أمثلة الظاهرة الأولى حروف الكاف والباء (فى شكل ٩) وفى قائمة الحروف السينائية المبكرة (فى شكل ١٢ أرقام ٢ ، ١٣) وأيضا حرف الراء (فى شكل ١٠ ، ١١ بالمقارنة فى القائمة شكل ١٢ رقم ٢٤) أى أن الحروف الكنعانية المبكرة تتقارب فى شكلها الصورى مع الحروف السينائية المبكرة ومن أمثلة الظاهرة الثانية أى التى تتفوق فيها الحروف السينائية المبكرة على الكنعانية المبكرة فى الصفة الصورية ، حرف الألف (رأس الثور) فما زال رأس الثور واضحا فى السينائية المبكرة كما يتضح من القائمة (شكل ١٢ رقم ١) بينما اختلف فى الكنعانية المبكرة ، وتحول إلى ما يشبه شكل المثلث (شكل ١١) أى أخذ الشكل الخط Linear الذى يشبه إلى حد كبير الشكل الذى ظهر به هذا الحرف فى المرحلة النهائية للكتابة الكنعانية التى ترجع للقرن الثالث عشر ق.م (شكل ١٦) وكذلك حرف النون فما زال انحناء رأس الثعبان (نحش) ظاهرا فى السينائية (رقم ١٦ فى القائمة شكل ١٢) بينما اختلف هذا الانحناء وتحول إلى شكل مستطيل (خطى) فى الكنعانية المبكرة (شكل ١٠) . وأيضا حرف الميم الذى تمثله موجة مياه ، فما زال شكل موجة المياه ظاهرا فى السينائية المبكرة (رقم ١٥ فى القائمة شكل ١٢) بينما اختصرت خطوطها فى الكنعانية المبكرة (شكل ١١) . وأخيرا حرف الياء (يد) فإن شكل اليد (الذراع) ما زال واضحا فى السينائية المبكرة (رقم ١٢ فى القائمة شكل ١٢) بينما ابتعد عن هذا الشكل فى الكنعانية المبكرة (نفس الرقم فى نفس القائمة شكل ١٢) . (عبد المنعم عبد الحليم ، ١٩٩٤ ، ص ١٨٣) .

نستنتج من هذه المقارنة أن الصفة الصورية (أو التصويرية) قد غلبت في الحروف السينائية المبكرة بالنسبة للحروف الكنعانية المبكرة مما يدل على أسبقية الأبجدية السينائية المبكرة وأنها الأصل الذي اشتقت منه الأبجدية الكنعانية المبكرة ، وهو ما يخالف رأى علماء الدراسات السامية . ويطابق رأى علماء المصريات الذين حددوا تاريخ النقوش السينائية المبكرة بالقرن الثامن عشر قبل الميلاد ، وبهذا تسبق أقدم نقوش الكتابة الكنعانية المبكرة التي حدد علماء الدراسات السامية تاريخها بالقرنين السابع عشر والسادس عشر قبل الميلاد .

والحقيقة إن الكتابات السينائية المبكرة انتقلت إلى فلسطين ، وعلى الأرض الفلسطينية أخذت الصفة الصورية تختفى بالتدريج بينما غلبت الصفة الخطية على أشكال الحروف ومثال ذلك مكعب من الطين وجد في لكيش (تل الدوير) وقد نقشت على وجهين من أوجهه علامات ميروغليفيه (شكل ١٣ أ ، ب) (Albright 1969, fig.2) بينها اسم الفرعون أمنحتب الثانى (الوجه أ) وبذلك تحدد تاريخ المكعب بعصر هذا الفرعون (١٤٢٣-١٤٣٥ ق.م) وعلى الوجهين الآخرين (ج ، د) نقشت كتابة سينائية مبكرة وقد طمست تلك التى على الوجه (د) بينما يمكن قراءة التى على الوجه (ج) وقد قرأها ألبريت " (ايل) ذ ج ت " وفسر العبارة بأنها وصف للإله المسمى عند الساميين فى سيناء " نو - جت " أو " نو - جنتى " وإنه الإله الحامى لمعصرة العنب وإنه كان يعتبر من ضمن حاشية الإله بتاح المرسومة صورته بجوار هذا النقش (Albright 1969 , p. 4) .

ويلاحظ على حروف هذا النقش أن حرف التاء ما زال محتفظا بالشكل الصورى وهو شكل رغيف الخبز بينما اختفى الشكل الصورى فى حرفى الذاال والجيم وغلب عليهما الشكل الخطى.

إن النقوش على هذا المكعب تعتبر دليلا قويا على تطور الأبجدية السينائية المبكرة على الأرض الفلسطينية من الصفة الصورية إلى الصفة الخطية . وهذه الصفة الأخيرة سوف تتضح فى مراحل اللاحقة للكتابة الكنعانية المبكرة إلى أن تصل إلى آخر مراحل تطورها فى الكتابة الفينيقية ، ولكن خلال هذا التطور سوف تظهر فى كل مرحلة خاصة من الخصائص التى ميزت الكتابة الفينيقية وهى اختفاء الشكل الصورى تماما واتخاذ الحروف كلها الشكل

الخطى ، ثم ظهور الفواصل الرأسية التى بدأت على شكل نقط ثم صارت خطا رأسيا فى نهاية التطور . (عبد المنعم عبد الحليم سيد ، ١٩٩٤ ، ص ١٨٤) .

وقبل أن نتتبع هذا التطور ، يجدر بنا أن نشير إلى الكتابات الأخرى التى ظهرت فى الشام ، والتى يحاول بعض الباحثين الربط بينها وبين الأبجدية الأولى ، وهى كتابة " رأس الشمرا - أوجاريت " فى شمال سوريا ، والكتابة المسماة بكتابة ببلوص الشبيهة بالهيروغليفية (Pseudo-hieroglyphic Script of Byblos) ورغم أن كتابة رأس شمرا تتكون من أبجدية من ثلاثين حرفا ، فإن كتاباتها بالخط المسمارى على الطين قلل من قيمتها فى نظر الفينيقيين التجار الذين كانوا يفضلون أبجدية تصلح للكتابة على المواد السهلة كالبردى والجلد ففضلوا عليها الأبجدية الكنعانية المبكرة (المتطورة عن السينائية المبكرة كما ذكرنا) ولهذا اندثرت أبجدية رأس الشمرا ، ولم تترك أثرا لدى شعوب الشام . أما الكتابة الثانية المسماة بكتابة ببلوص الشبيهة بالهيروغليفية فرغم أن أغلب علاماتها صورية الشكل إلا أنها لم تكن كتابة أبجدية بل كانت مقطعية تتكون من عدد كبير من العلامات يبلغ ١١٤ علامة ، فاندثرت هى الأخرى .

ورغم هذه الحقائق عن هاتين الكتابتين التى أخذ بها العلماء منذ عهد بعيد ، فما زال بعض الباحثين يحاول الربط بين هاتين الكتابتين للخروج بأراء مؤداهما أن الأبجدية الفينيقية ترجع إلى هاتين الكتابتين بل أن أحد الباحثين فى الدراسات العراقية القديمة حاول الربط بين هاتين الكتابتين من ناحية بعض حروف الكتابة الكنعانية المبكرة ، وهى المنقوشة على خنجر لكيش (شكل ١٠) وفى سبيل الوصول لهذا الغرض قرأ هذه الحروف قراءة تختلف تماما عن جميع قراءات العلماء الذين قرأوها " ط ر ن ز " كما ذكرنا ، إذ قرأها " ل ر ص ي " وفسر الكلمة بأنها اسم علم تعنى " معاونتى (على الإله) " (Sauren 1992, p.218) . ولا شك أن هذه الأراء تخالف تماما ما اتفق عليه العلماء بشأن هاتين الكتابتين ، (عبد المنعم عبد الحليم ، ١٩٩٤ ، ص ١٨٥) .

مراحل تطور الأبجدية الكنعانية المبكرة وظهور الأبجدية الفينيقية :

يطلق الباحثون على الحروف الكنعانية المبكرة التى ترجع للقرنين السابع عشر والسادس عشر ق م (التى ذكرناها فيما سبق) " المجموعة الأولى من الحروف الكنعانية المبكرة " بينما

يطلقون تسمية " المجموعة الثانية " ، " والمجموعة الثالثة " على مجموعتين لاحقتين من هذه الحروف (Diringer 1947, p.208) . وبعضهم يجمعونها تحت تسمية واحدة هي " الكتعانية " أو " الكتعانية المتأخرة " . وترجع المجموعة الثانية إلى القرنين الخامس عشر والرابع عشر قبل الميلاد (وبعضها يرجع للقرن الثالث عشر) بينما ترجع المجموعة الثالثة إلى القرن الثاني عشر . وتتميز حروف المجموعتين بغلبة الصفة الخطية عليها ، وهي الصفة التي ستظهر بوضوح فيما بعد في الأبجدية الفينيقية .

وقد وجد أحد نقوش المجموعة الثانية في منطقة " تل الحصى " في جنوب فلسطين (بالقرب من تل الدوير) بينما وجد النقش الآخر في منطقة " بيت شمس " (الواقعة عند منتصف المسافة بين القدس واسدود تقريبا (الخريطة رقم ٢)) .

ويتكون نقش " تل الحصى " من ثلاثة حروف منقوشة على شقفة فخار تقرأ " ب ل ع " (شكل ١٤) ويتضح التطور نحو الشكل الخطى في حرف الباء الذي ابتعد عن شكل البيت وفي حرف العين الذي خلا من النقطة التي في وسط الدائرة التي ترمز لإنسان العين في الكتابة السينائية المبكرة .

أما نقش " بيت شمس أو بيت الشمس " فقد نقش على وجهى شقفة فخار أيضا ، ويتكون من خمسة أسطر على وجه الشقفة (شكل ١٥ أ) ومن أربعة أسطر على ظهرها (شكل ١٥ ب) ويلاحظ أن نظام الكتابة على وجه الشقفة يتبع الطريقة المعروفة بالطريقة الحزنونية فالسطر الأول يقرأ من اليسار إلى اليمين والثاني من اليمين إلى اليسار والثالث من اليسار إلى اليمين (شكل ١٥ أ) . وهي الطريقة المتبعة في بعض النقوش السينائية المبكرة كما ذكرنا وأن كانت الحروف في هذه النقوش تكتب أيضا من أعلى إلى أسفل ومن أسفل لأعلى (شكل ٨) . أما ظهر الشقفة فتقرأ سطورها كلها من اليمين إلى اليسار باستثناء السطر الأول فيقرأ من اليسار (شكل ١٥ ب) (Jensen 1958, p.279 & fig. 234) .

وفي هذه المجموعة أيضا تظهر بداية إحدى الخصائص التي ميزت الكتابة الفينيقية فيما بعد ، وهي الفواصل الرأسية بين الكلمات ، وكان ظهورها في هذه المرحلة على هيئة نقط رأسية وذلك في نقش يعرف بنقش " إبريق لكيش " (شكل ١٦) ويرجع لأواخر القرن الرابع عشر أو أوائل الثالث عشر ق.م. (Naveh 1987, p.35 & fig. 28) .

أما المجموعة الثالثة فترجع للقرن الثاني عشر قبل الميلاد وفيها يختلف الشكل الصوري تماماً من الحروف ، وتتحول الفواصل من نقطة رأسية إلى خطوط عمودية ، وتتضح هذه الخصائص في نقش يعرف بنقش " قبور الوليدة " (الواقعة شمال غرب بئر سبع في جنوب فلسطين) (شكل ١٧) (Naveh, Op. cit. p. 38 & fig. 30) ويتمثل اختفاء الشكل الصوري في هذا النقش في تحول شكل رأس الثور إلى ما يشبه المثلث واختفاء النقطة التي تمثل إنسان العين من وسط الدائرة التي تمثل حرف العين (وإن كانت هذه الظاهرة ترجع إلى أحد نقوش المجموعة الثانية كما ذكرنا) .

ولكن رغم هذه التطورات الهامة نحو خصائص الكتابة الفينيقية ، فما زال اتجاه الكتابة مخالف لاتجاه الكتابة الفينيقية ، فالنقش يقرأ من اليسار إلى اليمين بينما تتجه الكتابة الفينيقية من اليمين إلى اليسار .

من كل ما تقدم يتبين أن الشكل الخطي للحروف الأبجدية ظهر في فلسطين متطوراً عن المراحل الأخيرة للأبجدية الكنعانية المبكرة (التي تطورت بدورها عن السينائية المبكرة) أي أن الأبجدية ذات الشكل الخطي كانت قد اكتملت قبل انتقالها إلى الفينيقيين فيما عدا خاصية واحدة هي اتجاه الكتابة الذي كان من عدة اتجاهات .

غير أنه بحلول القرن الحادي عشر قبل الميلاد ، استقرت الكتابة الكنعانية في آخر مراحل تطورها على اتجاه واحد هو من اليمين إلى اليسار ، وكان ذلك إيذاناً بظهور الأبجدية الفينيقية .

الأبجدية الفينيقية وخصائصها :

إن هذه الخصائص كما يتضح من الدراسة السابقة هي اتخاذ الحروف الشكل الخطي Linear البحت بعد اختفاء الشكل الصوري تماماً ، واقتصار اتجاه السطور على اتجاه واحد هو من اليمين إلى اليسار والفصل بين الكلمات بخطوط عمودية .

وأقدم النقوش التي ظهرت فيها هذه الخصائص والتي وجدت على الأرض الفينيقية نفسها، هو نقش تابوت الملك " حيرام " الذي يرجع إلى حوالي ١٠٥٠ ق.م (شكل ١٨) (Naveh 1987, p. 53) .

والظاهرة التي تلاحظ على حروف هذا النقش أن أشكالها لا تمت بصلة إلى أسمائها (التي وصلتنا عن طريق العبرية واليونانية اللتين اشتقتا حروفهما من الفينيقية) ، وإنما ترتبط بالأشكال الأولى لهذه الحروف في السينائية المبكرة (وليس في الكنعانية المبكرة لابتعاد بعض حروفها عن الشكل الصوري كما ذكرنا من قبل) ، وتوضيح هذه الظاهرة رسمنا فوق الحرف شكله كما ظهر في السينائية المبكرة ، فحرف الألف اسمه في السينائية " الف " بمعنى ثور أو رأس ثور ، بينما لا يدل شكله في الفينيقية كما هو موضح على هذا المعنى ، وحرف الباء اسمه في الفينيقية " بيت " بينما لا يدل شكل الحرف في الفينيقية على ذلك ، وكذلك حرف النون (نحش بمعنى ثعبان) وحرف الراء (راش بمعنى رأس) وحرف اللام (لامد بمعنى لجام أو مقود ثور) ، فهذه الأسماء كلها تدل عليها أشكال هذه الحروف في السينائية المبكرة والمرسومة فوقها .

مراحل اشتقاق الأبجديات الأخرى في شرق البحر المتوسط :

استكمالا لحلقات التطور عن الأبجدية الأولى وانتشارها في شرق البحر المتوسط ، فمن المناسب تتبع مراحل هذا التطور ، وهناك رأيان في هذا الموضوع أولهما أن الأبجدية الكنعانية المبكرة (التي يسميها أصحاب هذا الرأي " الأبجدية السامية الشمالية ") اشتقت منها في الشام - بالإضافة إلى الفينيقية - أبجديتان أخريان هما الآرامية والعبرية المبكرة (وهي غير العبرية المتأخرة المسماة بالخط المربع) (Jensen 1958, p. 286) والرأي الثاني أن الآرامية والعبرية المبكرة اشتقتا من الفينيقية . (Naveh, Op. cit., p. 53) .

وسواء صح هذا الرأي أو ذلك ، فالثابت أن هناك تشابها كبيرا بين حروف الأبجديات الثلاث قد يرجع إلى الأصل المشترك لها كما يرى الفريق الأول أو إلى اشتقاق العبرية والآرامية من الفينيقية كما يرى الفريق الثاني .

غير أن الثابت أن الحروف العبرية المبكرة بدأت تأخذ شكلها المميز منذ منتصف القرن التاسع قبل الميلاد ، وأول نقش تظهر فيه خصائصها المميزة هو نقش " ميشع " ملك مواب (Naveh, Op.cit., P.65) .

أما الآرامية فقد بدأت حروفها تأخذ شكلها المميز ابتداء من منتصف القرن الثامن ق.م وظهرت هذه الخصائص في نقوش على قوالب من الطين وجدت في أطلال مدينة " حماة " (Naveh, Op.cit., P.78 & fig. 74) .

وحوالى القرن السادس قبل الميلاد ، اختلفت حروف كل من الأبجديات الثلاث (الفينيقية والآرامية والعبرية المبكرة) عن بعضها كما يتضح من الجدول (شكل ٩) (Naveh, Op.cit., (P.87) .

وقد تميزت من هذه الأبجديات الثلاث الأبجدية الآرامية باشتقاق العديد من الأبجديات منها ، بينما توقفت الفينيقية عن التطور ، فيما عدا انتقالها (وهى فى مرحلة التكوين كما سنذكر بعد) إلى بلاد اليونان واشتقاق الأبجدية اليونانية منها . كذلك اندثرت العبرية المبكرة ، وحلت محلها بعد السبى البابلى أبجدية أخرى اشتقت من الآرامية هى العبرية المتأخرة أو ما تسمى بالخط المربع . وأقدم نقش معروف من هذه الأبجدية هو المعروف بنقش " عراق الأمير " وهو اسم منطقة تقع على بعد خمسة وعشرين كيلو مترا إلى الشمال الشرقى من نقطة التقاء نهر الأردن بالبحر الميت ، ويرجع هذا النقش إلى حوالى عام ١٨٠ ق م . (Jensen 1958, p.305) .

ومن الآرامية أيضا تفرعت عدة أبجديات أخرى هى التدمرية (أو البلميرية Palmyrene) والسريانية والنبطية ، ومن هذه الأخيرة اشتقت الأبجدية العربية أو الخط العربى .

أما التدمرية والتي تنسب إلى مملكة " تدمر " أو بلميرا Palmyra التي ازدهرت خلال القرن الثالث الميلادى ، ثم سقطت فى يد الرومان عام ٢٧٢ ق م فأقدم نقش تدمرى يرجع إلى عام ٩ ق م ، وقد دون على شاهد قبر شخص يدعى " غ د ن ت ن " بن " ك ه ي ل و " (Jensen, Op.cit., p.315) وتتميز الكتابة التدمرية بظهور الأريطة ، وإن كانت قليلة فى أول الأمر وذلك فى نقش يرجع إلى عام ٢٧١ م على تمثال للملكة " بت زباى " (المسماة زنوبيا عند الرومان) (Jensen, Op.cit., p.316 & fig. 281) ، أو الزباء عند العرب .

أما الأبجدية السريانية ، فقد ظهرت بوضوح فيما بين القرنين الأول والثانى الميلاديين ، وأقدم نقش سريانى معروف ورد على شاهد قبر ملكة تدعى " صدان " ويرجع إلى القرن الأول الميلادى (Jensen, Op.cit., p.318 & fig. 281) وحروف هذا النقش مفردة فلم تظهر الأريطة فى الحروف السريانية إلا فى القرن الرابع الميلادى وذلك فى نقش وجد فى مجاورات منطقة الرها (Jensen, Op.cit., p.318 & fig. 286) .

وبالنسبة للأبجدية النبطية التي تنسب إلى الأنباط الذين ازدهرت دولتهم في البتراء (شمال شرق خليج العقبة بحوالى ١٤٠ كيلو مترا) خلال القرنين الثانى والأول قبل الميلاد والأول الميلادى . والذي امتد نفوذها جنوبا فشمّل الحجاز - بالنسبة لهذه الأبجدية ، فقد اشتقت من الأبجدية الآرامية ، ويمكن تتبع الأصل الآرامى لها فى نقش وجد فى منطقة حوران (جبل الدروز) يرجع إلى القرن الأول قبل الميلاد (شكل ٢٠) (Jensen, Op.cit., p. 323 & fig. 292) ويلاحظ أن الأريطة التي ستصبح من مميزات الخط النبطى (ثم الخط العربى الذى اشتق منه) لم تظهر بعد كما يبدو من هذا النقش .

وقد اكتمل الخط النبطى بكل مميزاته فى أواخر القرن الأول قبل الميلاد فغلبت الأريطة على حروفه كفا يتضح من نقش على أحد أضرحة مدائن صالح (شكل ٢١) (Jensen, Op.cit., p. 323 & fig. 294) .

والجدول الموضح فى (شكل ٢٢) يوضح تطوير الخطين التدمرى والنبطى من الخط الآرامى مع مقارنة بين الحروف النبطية والحروف العربية (رمزى بعلبكي ، الكتابة العربية ، ١٩٨١ ، ص ١٦٨ ، شكل ٤١) .

ومن الخط النبطى اشتق الخط العربى كما هو معروف ، ولكن هناك رأيان بشأن مكان هذا الاشتقاق ، أى مكان نشأة الخط العربى ، أحدهما رأى قديم تبناه المستشرقون ومؤداه أن هذا الخط نشأ فى منطقة حوران فى جنوب شرق سوريا حيث وجد النقش النبطى المعروف بنقش " النمارة " . وأن هذا الخط انتقل إلى شمال الشام ومنه إلى الحيرة التى انتقل الخط العربى المبكر منها إلى مكة ويثرب فى عصور ما قبل الإسلام .

أما رأى الثانى فيتبناه الباحثون العرب ومؤداه أن الخط العربى نشأ من الخط النبطى فى الحجاز حيث يوجد نقش نبطى فى منطقة مدائن صالح يعرف باسم نقش " رِقوش بنت عبد مناة " وهو اسم صاحبة النقش وقد اتضحت فى هذا النقش الخصائص المبكرة للخط العربى ، ومن مدائن صالح انتقل هذا الخط إلى يثرب ومكة رأسا فكان أصل الخط العربى الذى ظهر فى صدر الإسلام ومنهما انتقل إلى الكوفة بعد تأسيسها . وقد ناقشنا هذين الرأيين فى دراسة سابقة ، ورجحنا رأى الثانى (عبد المنعم عبد الحليم سيد ، البحر الأحمر وظهيره ، ١٩٩٣ ، ص ٢٣٦-٢٤٥) .

انتشار الأبجدية الفينيقية إلى بلاد اليونان ونشأة الأبجدية اليونانية

رغم أن الأبجدية اليونانية تنتمي للدراسات الكلاسيكية أكثر من انتمائها للدراسات السامية ، ولكن نظرا لاشتقاقها من أبجدية سامية هي الأبجدية الفينيقية فإنه يجب دراستها في إطار الأبجديات السامية .

وقبل أن نتتبع مراحل اشتقاق الأبجدية اليونانية من الأبجدية الفينيقية لابد من أن نسوق الأدلة التي تثبت هذا الاشتقاق ، ونلخصها فيما يلي :

أ- جاء في الروايات اليونانية أن حروف الأبجدية التي تطلق عليها هذه الروايات (Phoinika Grammata) بمعنى الحروف الفينيقية أو Kadmeia Grammata بمعنى حروف كادموس - جاء في هذه الروايات أن هذه الأبجدية دخلت اليونان مع فنون أخرى على يد الفينيقيين الذين جاسوا إلى بلاد اليونان مع شخص يسمى كادموس (Naveh 1987,p.175) .

ب- إن أغلب أسماء الحروف اليونانية وهي ألفا ، بيتا ، جما ، دلتا لا معنى لها في اللغة اليونانية ، ولكن لها معان في اللغات السامية أي أنها كلمات سامية الأصل .

ج- إن ترتيب الحروف في الأبجدية اليونانية مشابه في الأساس لترتيب الحروف في الأبجدية الفينيقية كما عرف من الأبجديتين العبرية والآرامية .

د- إن أشكال الحروف اليونانية المبكرة تشبه إلى حد كبير أشكال الحروف الفينيقية المناظرة لها .

والحقيقة إن بلاد اليونان نفسها لم تصلها الأبجدية الفينيقية إلا في مرحلة متأخرة نسبيا ، بينما وصلت الأشكال المبكرة للأبجدية الكنعانية (التي اشتقت منها الأبجدية الفينيقية كما ذكرنا) إلى المناطق المحيطة ببلاد اليونان نفسها مثل جزيرة كريت وجزر الكيكلاد Cyclades ومن ذلك نقش وجد في مدينة كنوسوس بجزيرة كريت (شكل ٢٦) وتظهر فيه أشكال الحروف الكنعانية ، كما تظهر الشرط الرأسية التي تفصل بين الكلمات واتجاه الكتابة من اليمين إلى اليسار ، وهي نفس الخصائص التي ظهرت فيما بعد في الكتابة الفينيقية ، ومثال ذلك نقش الملك " احيرام " (شكل ١٨) من القرن الحادي عشر ، ونقش من بلدة كنوسوس في جزيرة كريت ، ثم نقش من القرن الثامن قبل الميلاد وجد في جزيرة ثيرا في منطقة جزر الكيكلاد

(شكل ٢٥ أ ، ب) . تبدو فيه الخاصية الحزونية التي تظهر في الكنعانية التي تطورت عنها الفينيقية . فالسطر الأول والرابع يقرأن من اليمين لليسار ، والسطران الثاني والثالث يقرأن من اليسار إلى اليمين . وهذا دليل على أن الأبجدية اليونانية اشتقت من الأبجدية الفينيقية في مرحلة تكوين هذه الأخيرة .

وأخيرا نقش وجد في أثينا ، وهو نقش على إناء يطلق عليه Dipylon وهو أقدم نقش يوناني على الأرض اليونانية نفسها ، ويرجع إلى نهاية القرن الثامن ق.م (شكل ٢٦) ، وقد بدأت الحروف فيه تأخذ أشكال الحروف اليونانية . والجدول (شكل ٢٧) يوضح مراحل تطور حروف الأبجدية اليونانية بعد اشتقاقها من حروف الأبجدية الفينيقية ، والتشابه في نطق أسماء الحروف في كل من اليونانية والفينيقية ، وقد ميزت الأسماء اليونانية التي اختلفت عن الأسماء الفينيقية بعلامة x (عماد حاتم ، ١٩٨٢ ، شكل ٣٦ ص ٢٥١) .

إن هذه الأشكال التي توضح مراحل اشتقاق الأبجدية اليونانية من الأبجدية الفينيقية تدل على أن الإغريق أخذوا أبجديتهم عندما كانت الأبجدية في الشام في المرحلة الكنعانية ، وكانت تكتب بالطريقة الحزونية أي قبل أن تثبت الكتابة اليونانية على نظام موحد ، فذلك لم يحدث إلا في القرن الرابع قبل الميلاد عندما اتبع الإغريق في كل بلاد اليونان الكتابة الأيونية ، واختلفت بذلك الكتابات اليونانية المحلية ، وصارت هذه الكتابة هي كتابة اليونان الكلاسيكية (انظر شكل ٢٧) وثبت اتجاه كتابتها من اليسار إلى اليمين ، كما ثبتت أشكال الحروف (Naveh 1987, p.178) .

هذا ومن المعروف أن اللاتينية اشتقت من الأبجدية اليونانية ومن الأبجدية اللاتينية اشتقت سائر الأبجديات الأوروبية وبذلك انتشر تراث مصر الفرعونية في الكتابة خلال ألوف السنين في حوض البحر المتوسط .

ثالثا: انتقال الأبجدية السينائية المبكرة إلى اليمن ومنها إلى الحبشة حيث نشأت الأبجدية الأثيوبية (الجزرية) التي ما زالت باقية حتى اليوم .

مثما انتقلت الأبجدية السينائية المبكرة إلى الشام حيث تطورت عنها أبجديات الشام وأوروبا الباقية حتى اليوم ، فقد انتقلت إلى اليمن في جنوب الجزيرة العربية ، حيث نشأت عنها ما يطلق عليه الباحثون الأبجدية السامية الجنوبية التي تفرعت منها الأبجديات العربية الجنوبية في اليمن ، وهي السبئية والمعينية والقبتانية والحضرية .

ومن السبئية اشتقت الأبجدية الحبشية القديمة Old Abyssinian التي تطورت إلى الأثيوبية Ethiopian المسماة أيضا " بالجعزية " نسبة إلى اللغة التي تكتب في الحبشة بهذه الأبجدية .

كما تفرعت عن الأبجدية السامية الجنوبية الأبجديات العربية الشمالية في شمال الجزيرة العربية ، وهي الدادانية واللحيانية والثمودية والصفوية ، ولكن جميع هذه الأبجديات اندثرت ، ولم يتبق من فروع الأبجدية السامية الجنوبية في الوقت الحاضر سوى الأبجدية الأثيوبية أو الجعزية ، وعلى ذلك فهذه هي الوحيدة التي تعتبر من تراث حضارة مصر الفرعونية في الحضارة الإنسانية .

وفي دراستنا لنشأة الأبجدية الحبشية القديمة ، واشتقاقها من الأبجدية السبئية (الخط المسند) سوف نتناول ناحيتين :

أ- أدلة انتقال الأبجدية السينائية المبكرة إلى اليمن واشتقاق الأبجدية السامية الجنوبية وأبجدية الخط المسند منها .

ب- مراحل اشتقاق الأبجدية الحبشية القديمة من الأبجدية السبئية .

أدلة انتقال الأبجدية السينائية المبكرة إلى اليمن واشتقاق الخط المسند منها :

هذه الأدلة يمكن إجمالها فيما يلي :

١- العثور على حروف سينائية مبكرة في النقوش الصخرية في اليمن ومثال ذلك حرف الألف ، وقد تمكن الباحثون من تتبع مراحل تطوره في هذه النقوش حتى وصل إلى شكل حرف الألف في الخط المسند (شكل ٢٨) (Jamme 1963, no. 173, fig.1) .

٢- العثور على نقش في منطقة تل الخليفة بالقرب من العقبة يظهر به حرفان من حروف الخط المسند المبكر ، وهما حرف الألف وحرف الحاء أو الصاد (شكل ٢٩) ، مما يدل على أن انتقال الأبجدية تم عبر الطريق التجاري العظيم المتجه من اليمن إلى سواحل البحر المتوسط .

٣- التشابه الكبير بين أشكال بعض حروف الأبجدية السينائية المبكرة وما يماثلها من حروف الأبجدية السبئية المبكرة كما يدل على ذلك (شكل ٣٠) (Naveh 1987, fig.41) ، وهو يحتوى على حروف سبئية مبكرة (موضحة بالخط الثقيل) وإلى جانبها ما يشبهها من

حروف الأبجدية السينائية المبكرة (بالخط الرفيع) . هذا بالإضافة إلى أن الكتابة السبئية المبكرة كتبت أحيانا في سطور رأسية (شكل ٣٠) مثل الكتابة السينائية المبكرة (شكل ٣١).

٤- إن الكتابة السبئية المبكرة كانت تكتب أحيانا بالطريقة الحزونية ، وهى تختلف عن الطريقة الحزونية التى كتبت بها الأبجدية الكنعانية فى الشام وفى بلاد اليونان فى أن السبئية الحزونية منتظمة . فيكتب السطر الأول من اليمين إلى اليسار ، ويكتب السطر الثانى من اليسار إلى اليمين مع تغيير اتجاه الحروف ، والسطر الثالث من اليمين إلى اليسار ، والرابع من اليسار إلى اليمين ، وذلك بصفة مطردة وبانتظام (شكل ٣٣) (عبد المنعم عبد الحليم ، ١٩٩٣ ، ص ٢٧٣ وشكل ٣ ص ٢٩٠) . ولذلك يطلق الباحثون فى نقوش الجزيرة العربية على هذه الطريقة المصطلح Boustrophedon أى " دوران الثور " أو " دوران المحراث " ، وهذه الطريقة الحزونية من خصائص الكتابة السينائية المبكرة (شكل ٣٢) وإن كانت ليست بنفس الانتظام الذى يميز الكتابة السبئية .

٥- إن الأبجدية السبئية تحتوى على روادف أو حروف ثانوية Secondary Letters وهى حروف الذال ، والطاء ، والضاد ، والظاء ، والغين ، ونفس الحروف توجد فى السينائية المبكرة . (شكل ٣٦) .

٦- وفى الجدول (شكل ٣٤) قائمة بحروف كل من الأبجدية السينائية المبكرة والأبجدية السامية الجنوبية المبكرة (الخط المسند) يظهر فيها التشابه الكبير بين حروف الأبجديتين .

هذه هى أدلة اشتقاق الأبجدية السبئية أو أبجدية الخط المسند من الأبجدية السينائية المبكرة . أما عن اشتقاق الأبجدية الحبشية القديمة من الأبجدية السبئية ، فلا يحتاج إلى أدلة لوضوح التشابه الكبير بين أشكال الحروف فى الأبجديتين رغم أن حروف الأبجدية السبئية أو أبجدية الخط المسند أغلبها ذات زوايا قائمة أو حادة ، بينما حروف الأبجدية الحبشية القديمة (التي تطورت عنها الأبجدية الأثيوبية المسماة بالجعزية التى تستخدم اليوم) مُستديرة (شكل ٣٥) .

وقد أفاد هذا التشابه علماء اللغات السامية فى التوصل إلى حل رموز الكتابة السبئية أو الخط المسند عام ١٨٤١ ، وذلك على يد العالمين النمساويين Gesenius & Rodiger ، وأقدم نقش حبشى قديم هو ما يعرف بنقش الملك " عيزانا " (شكل ٣٦) ويرجع إلى النصف الأول من القرن الرابع الميلادى (Jensen 1970, p. 345) ، ويتميز هذا النقش بأن الكلمات

تفصلها شرط رأسية ، وهى نفس خصائص الكتابة السبئية ، وقد اختلفت هذه الخاصية فى الكتابة الأثيوبية الجعزية .

ولأهمية هذا النقش نقدم فيما يلى ترجمة له :

" عيزانا ملك أكسوم وكاسو (و) سبأ وحبشات وريدان وسلحين (و) سيامو وبجا ملك الملوك ابن محرم الذى لم يهزمه عدو ، عندما بدأ شعب بجا شن الحرب ، أرسلت إخوتنا "سيا زانا" وحشاد فاما ؛ لكى يتصدوا لهم وعندما ... " (Jensen 1970, p. 345 & fig. 329) .

كذلك تتميز الكتابة الحبشية القديمة بوجود بعض الروادف ، وهى حروف الحاء ، والضاد ، والطاء ، والغين ، وقد ورثت ذلك من الأبجدية السبئية التى ورثتها بدورها من الأبجدية السينائية المبكرة (شكل ٣٧) كما ذكرنا .

غير أن الأبجدية الأثيوبية (وهى المرحلة التالية لمرحلة الحبشية القديمة) تتميز بوجود الحروف المتحركة Vowels ، وهى ليست حروفا مستقلة ، وإنما تكون نتيجة إضافة زيادات إلى شكل الحرف الساكن (شكل ٣٨) كما تتميز الأبجدية الأثيوبية بكتابتها من اليسار إلى اليمين ، ويبدو أنها أخذت هذه الخصائص (فيما عدا طريقة تحويل الحروف الساكنة إلى متحركة التى يغلب أنها أخذتها من الكتابة الهندية) من الكتابة اليونانية إبان انتشار النفوذ اليونانى فى الحبشة فى القرن السادس عشر .

وعلى ذلك فإن الأبجدية الأثيوبية الجعزية هى التراث الباقى من حضارة مصر الفرعونية فى الحضارة الإنسانية بعد رحلة الكتابة المصرية القديمة عبر آلاف السنين ، وتطورها وانتشار المراحل الأخيرة لهذا التطور بين مختلف الشعوب .

ملاحظة : اقتصرنا فى دراسة انتشار الأبجديات الباقية من تراث مصر الفرعونية على الأبجديات المنتشرة فى حوض البحر المتوسط ، وفى الحبشة حتى اليوم ، ولم نتناول تلك التى انتشر منها فى مناطق أخرى مثل بعض الأبجديات المنتشرة فى إيران وفى الهند ، والتى اشتقت من الأبجدية الآرامية .

قائمة المراجع

أ- المراجع العربية والمترجمة :

- ١- أمين سلامة ، ١٩٥٥ : معجم الأعلام فى الأساطير اليونانية والرومانية ، القاهرة .
- ٢- إرمان ، ١٩٥٠ : إرمان ، أدولف وهلمان رائكة ، مصر والحياة المصرية فى العصور القديمة ، ترجمة عبد المنعم أبوبكر ومحرم كمال ، القاهرة .
- ٣- جورجى صبحى ، ١٩٢٥ : كتاب قواعد اللغة المصرية القبطية ، القاهرة .
- ٤- عبد المنعم عبد الحليم سيد ، ١٩٩٣ : البحر الأحمر وظهيره فى العصور القديمة ، الإسكندرية .
- ٥- عبد المنعم عبد الحليم سيد ، ١٩٩٤ : " الأبجدية الأولى وانتشارها فى شرق البحر المتوسط " كتاب بحوث مؤتمر الإسكندرية الدولى الأول حول التبادل الحضارى بين شعوب حوض البحر المتوسط عبر التاريخ (١٥-١٩ يناير ١٩٩٤) ، كلية الآداب ، جامعة الإسكندرية .
- ٦- عبد المنعم عبد الحليم سيد ، ٢٠٠٠ : " حجر رشيد ، قصة الكشف عنه ومراحل نقله وعرض لمحاولات حل رموزه ، ودراسة تحليلية مقارنة لنصوصه " ، العدد الثامن من مجلة المؤرخ العربى ، مارس ٢٠٠٠ ، إصدار اتحاد المؤرخين العرب ، القاهرة .
- ٧- عماد حاتم ، ١٩٨٢ : فقه اللغة وتاريخ الكتابة ، طرابلس ، ليبيا .
- ٨- محمد محمد فياض ، ١٩٥٨ : التقاويم ، العدد ١٦٣ من مجموعة الألف كتاب الأولى ، القاهرة .
- ٩- مونتيه ، ١٩٦٥ : مونتيه ، بيير ، الحياة اليومية فى مصر فى عصر الرعامسة ، ترجمة عزيز مرقص منصور ، ومراجعة عبد الحميد النواخلى ، القاهرة .
- ١٠- وليم نظير ، ١٩٦٨ : الثروة النباتية عند قدماء المصريين ، القاهرة .

ب- المراجع الأجنبية :

ملاحظة : اتبع فى الإشارات لهذه المراجع النظام المعروف بنظام Harvard Reference

System ، ويتخلص في الإشارة إلى المرجع في صلب البحث باسم المؤلف وسنة الطبع ورقم الصفحة فقط . ويمتاز هذا النظام بأنه يوفر المساحة الكبيرة التي تشغلها بيانات المراجع في النظام التقليدي المعروف ، فضلاً عن تركيز انتباه القارئ في متابعة البحث وعدم تشتيت هذا الانتباه لمتابعة الإشارات للمراجع في أسفل الصفحات أو في نهاية البحث كما هو الحال في النظام التقليدي .

- 1- Albright, W.F., 1948. The Early Alphabetic Inscriptions from Sinai and their Decipherment, Bull. Schools of Oriental Research, No. 110.
- 2- Aldred, C., 1956. Middle Kingdom Art in Ancient Egypt, London.
- 3- Breasted, J.H., 1988. Ancient Records of Egypt 5 Vols. Chicago, 1906, Repr. 1988.
- 4- Cerny, J., & Gardiner, A. & Peet, E., 1955. The Inscriptions of Sinai, 2 Vols. London.
- 5- Cross, M., F., 1967. The Origin and Early Evolution of the Alphabet, Ercz.
- 6- Driniger, D., 1947. The Alphabet, a key to the history of Mankind, London.
- 7- Gardiner, A., 1916. "The Egyptian Origin of the Semitic Alphabet", Journ. Egypt. Arch., Vol 3.
- 8- Gardiner, A., 1962. "Once Again the Proto-Sinaitic Inscriptions", .. Journ. Egypt. Arch., Vol 48.
- 9- Hassan, S., 1949. The Sphinx, its History in the Light of Recent Excavations, Cairo.
- 10- Jamme, A., 1963. Preliminary Report on Epigraphic Research. Bulletin of the Schools of Oriental Research, London.
- 11- Jensen, Hans, 1958. Sign, Symbol and Script, 3rd. ed. transl. From the German by G.Unwin, London.
- 12- Lewis, C.T., 1979. An Elementary Latin Dictionary, Oxford.

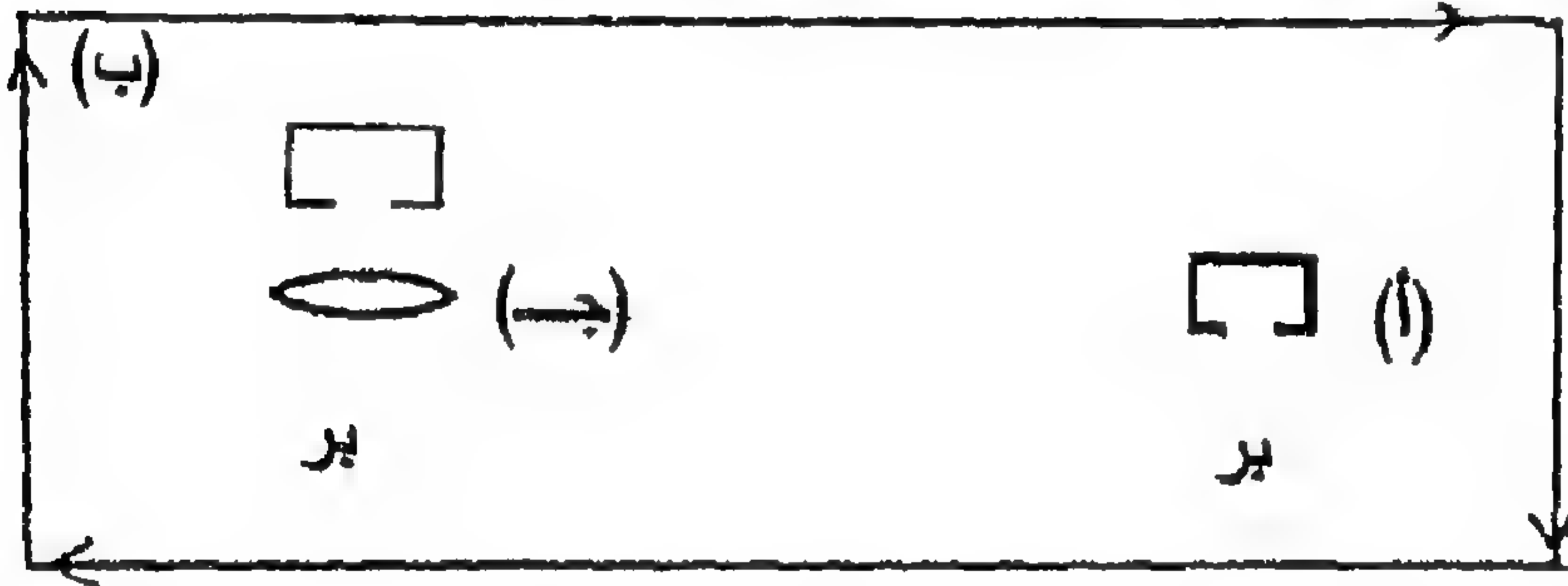
- 13- Lucas, A., 1945. *Ancient Egyptian Materials and Industries*, London.
- 14- Naveh, J., 1987. *The Early History of the Alphabet*, London.
- 15- Petrie, W.M.F., 1906. *Researches in Sinai*, London.
- 16- Sauren, Herbert, 1992, "Une Lance Pour L'Alphabet, le Poignard de Lachis" *le Muséon*, Tome 105, Fac. 3-4, Louvain.
- 17- Sethe, K., 1961. *Urkunden der 18. Dynastie, Vierte Band*, Berlin, 1927-1930, Rebr. 1961.
- 18- Sewell, 1943. "The Calendars and Chronology "in *Clanville, S.R.K. (Editor) The Legacy of Egypt*, Oxford.
- 19- Velikovsky Immanuel, 1977. *People of the Sea*, New York.

"ت" في اللغة المصرية القديمة . وحرف الراء ، ويمثل "تم إنسان" الذي يسمى "ز" في اللغة المصرية القديمة . وقد نقل الساميون سكان سيناء هذه الطريقة عن المصريين ، واستخدموها في ابتكار أبجديتهم (السينائية المبكرة) التي اقتبسوها من العلامات الهيروغليفية المصرية .

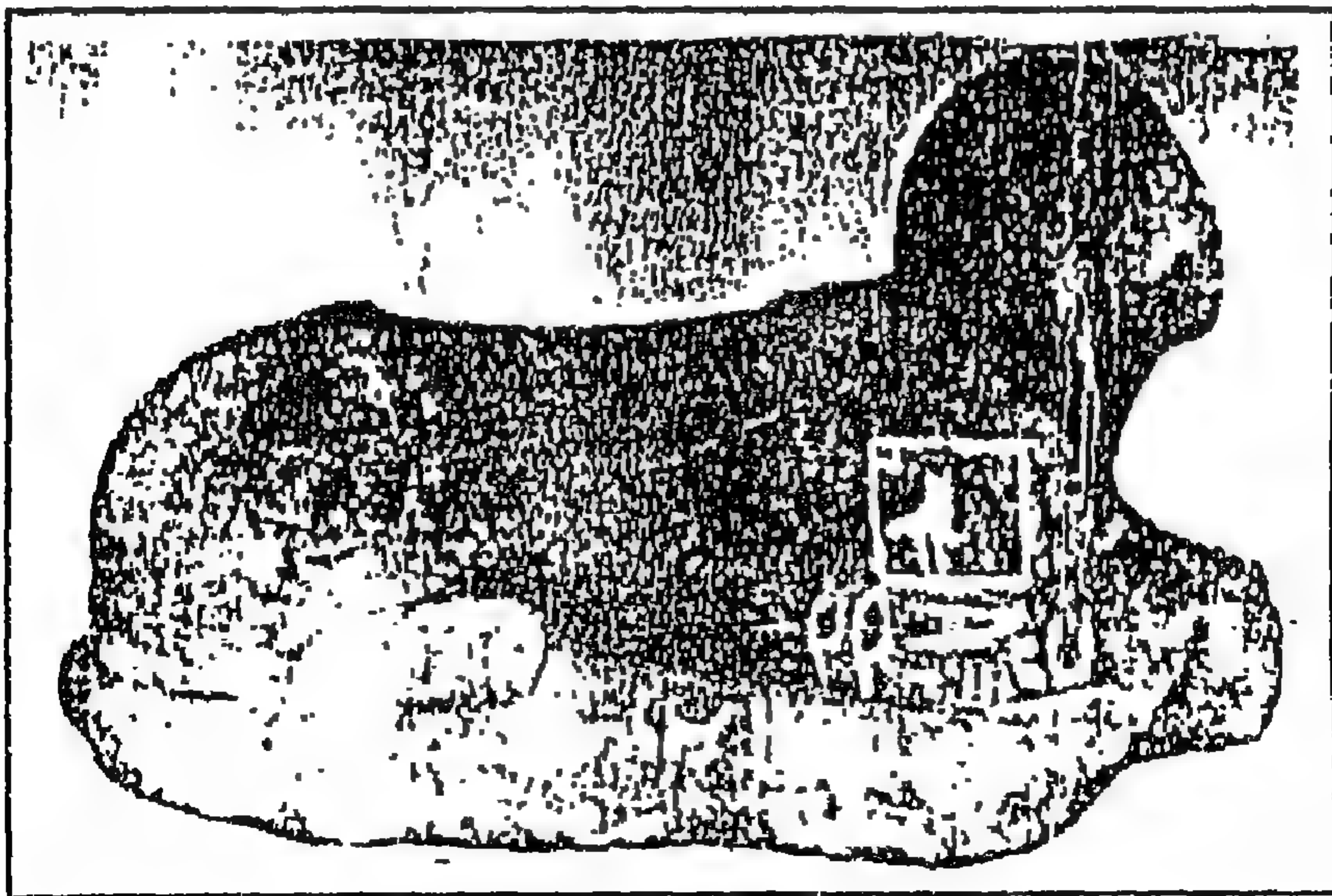
(الرسم من كتاب قواعد اللغة المصرية للدكتور عبد المحسن بكير ، القاهرة ، ١٩٧٧ ، ص ٥) .



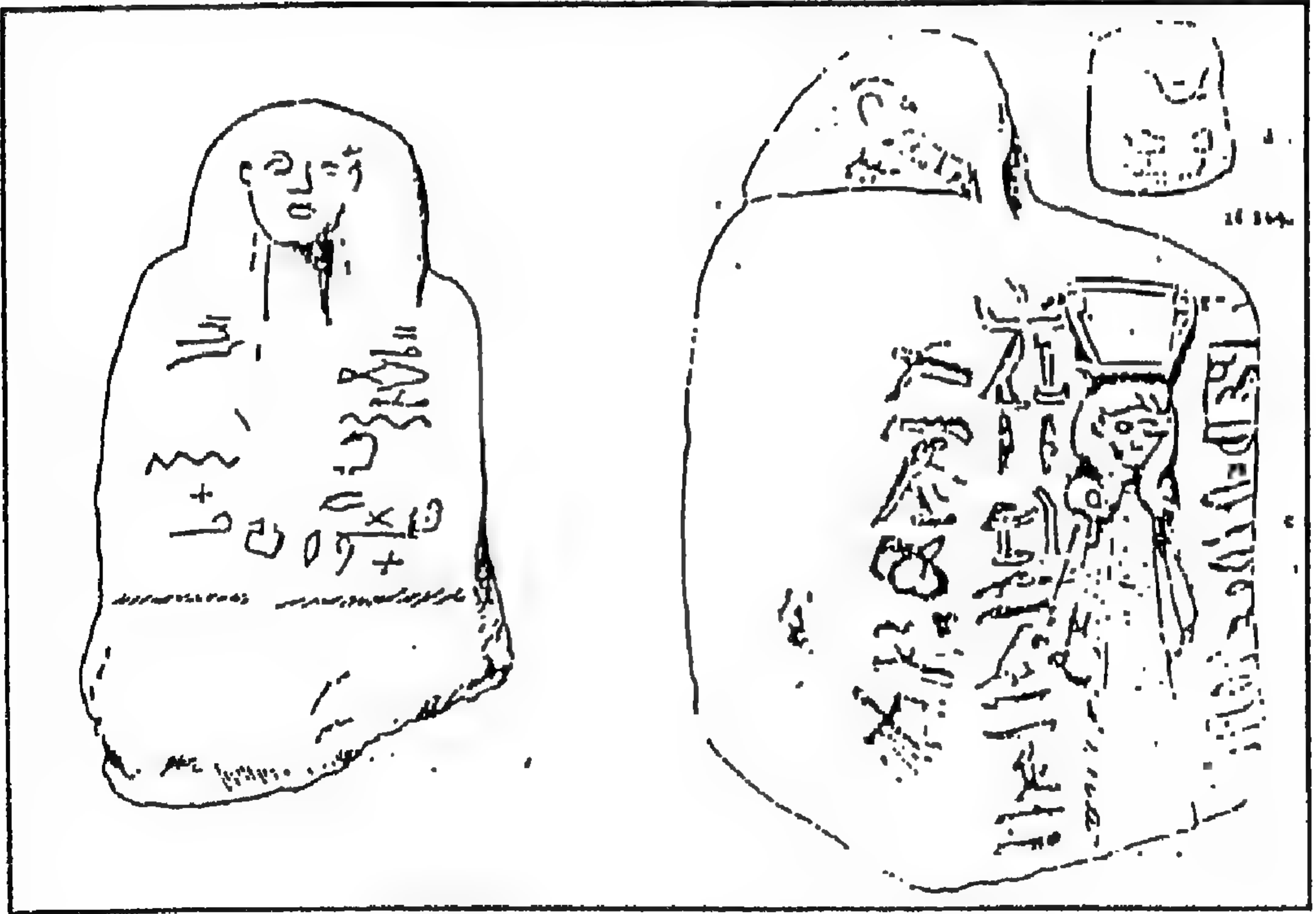
(شكل ٢) خرطوش (اسم) الملك "توت - عنخ - إمن (أمون)" وهو مثال لتوضيح كيفية الجمع بين الحروف الأبجدية وهي الألف (١) ، والنون (٢) ، والتاء (٤ ، ٦) ، والوار (٥) ، وبين العلامات المقطعية الثنائية وهي "من" (٢) والثلاثية وهي "عنخ" (٧) .



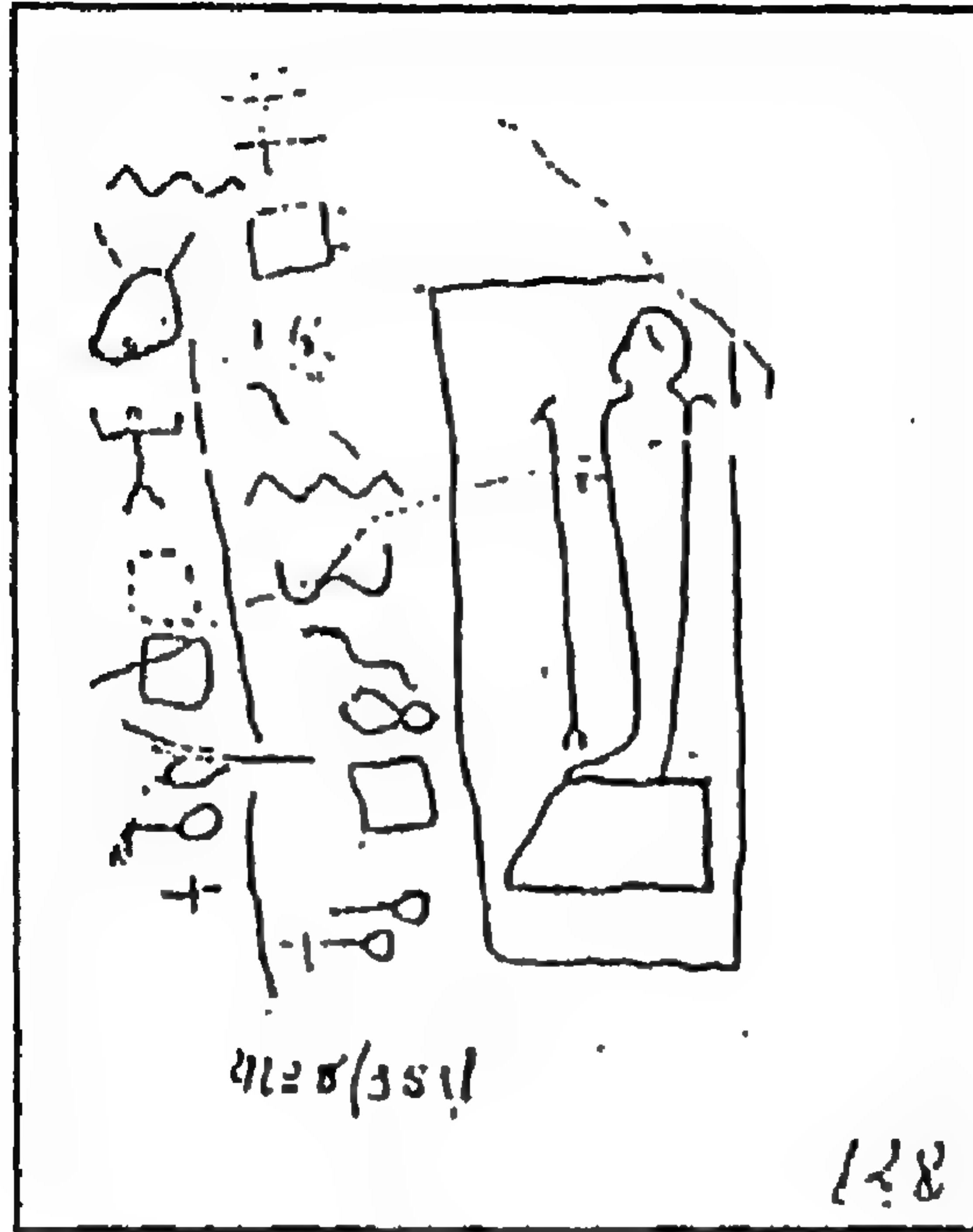
(شكل ٢) العلامة المقطعية الدالة على المنزل ، وتنطق "بر" (أ) رغم إضافة حرف الراء الأبجدي (ج) أي لا تنطق "برر" ؛ لأن حرف الراء مكمل صوتي أي تكرر للصوت الأخير في كلمة "بر" .



(شكل ٤) تمثال أبو الهول المؤنث ، وقد نوت عليه كتابتان إحداهما هيروغليفية (شكل الطائر الذي داخل مربع والسطر أسفله) والأخرى سينائية مبكرة (السطر السفلى) وهي ترجمة للنص الهيروغليفي المنون أعلاه . ومن الواضح أن أحد الساميين كرس التمثال لكل من الإلهة المصرية "حتحور" والإلهة السامية "عشتارت" لأن ترجمة النص الهيروغليفي هي "محبوب حتحور ربة الفيروز" والنص السينائي يقرأ "ماء بعلت" أي "محبوب بعلت" وبعلت كان لقباً للإلهة السامية "عشتارت" التي عبدها الساميون في سيناء كمرافقة للإلهة المصرية "حتحور" التي كانت الإلهة الحامية لمناجم الفيروز في منطقة سيرايط الخادم (عند المصريين) . وقد مكنت العبارة المصرية وترجمتها السينائية المبكرة العالم "جاردينر" من حل رموز الكتابة السينائية المبكرة .

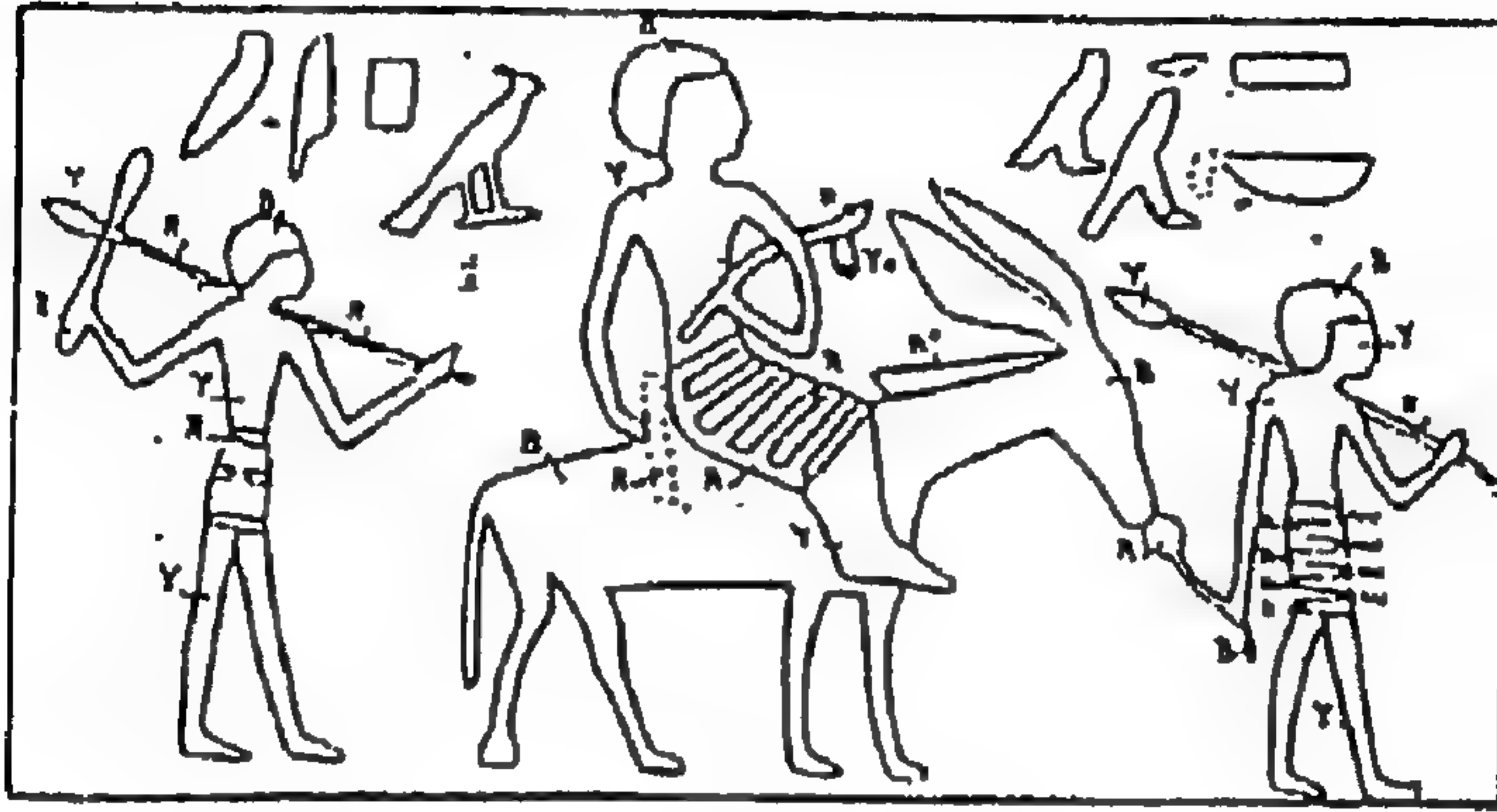


(شكل ٥ أ ، ب) تمثالان على هيئة "الشخص القايح" وجدا في معبد سيرايط الخادم وهو طراز مألوف في التماثيل المصرية القديمة . والتمثال الذي إلى اليمين كرس للإلهة "حتحور" ربة الفيروز كما يدل على ذلك النص الهيروغليفي المحفور على واجهته . أما الذي إلى اليسار للإلهة "عشتارت" السامية كما يدل على ذلك النص السينائي على واجهة التمثال (السطر السفلى) ويقرأ : "ع ل ن ع م ت ل ب ع ل ت" وترجمتها "من أجل نعمة من بعلت" .



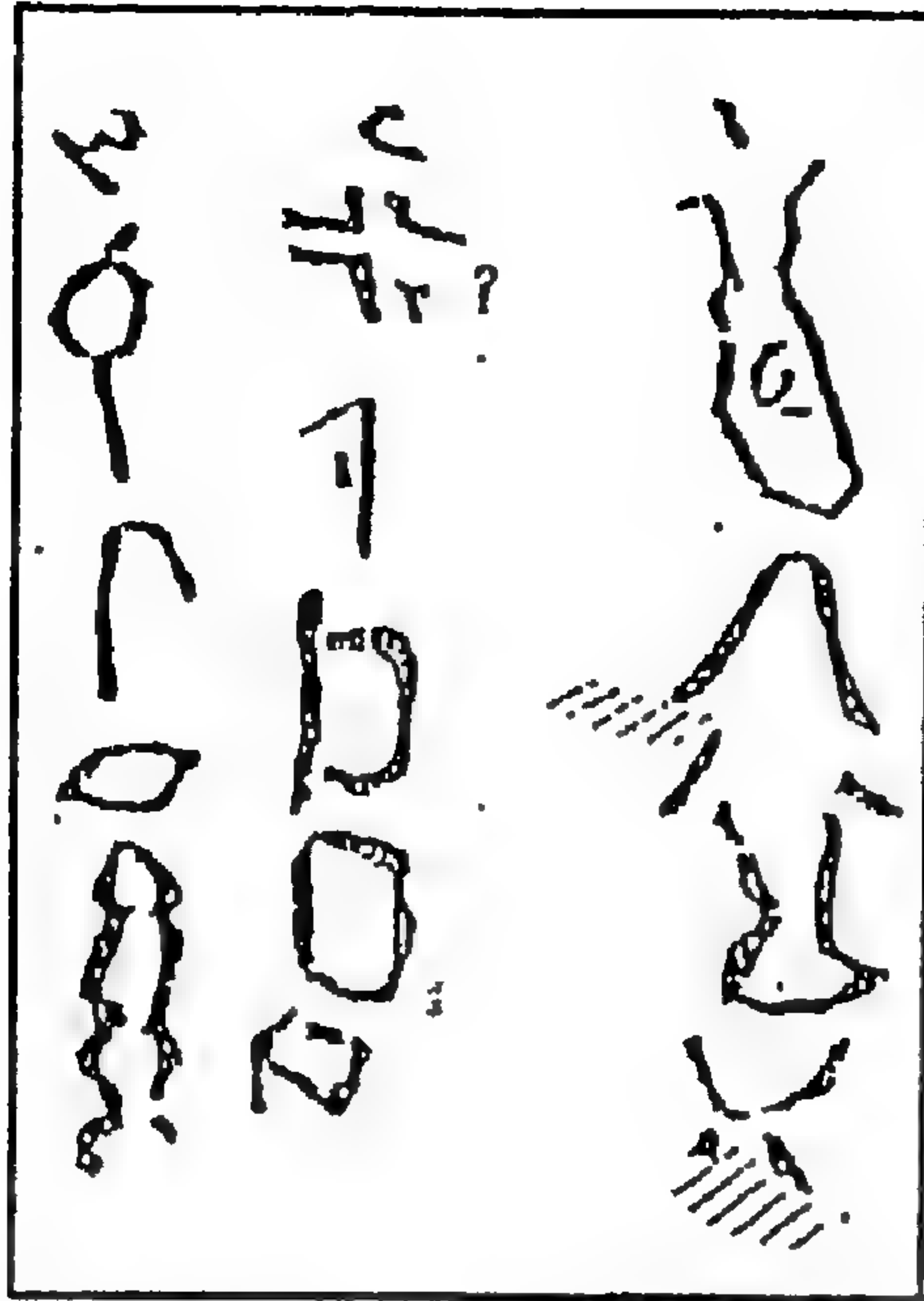
(شكل ٦) نقش كان محفورا فوق مدخل أحد مناجم الفيروز في منطقة سيرايبط الخام ، ويظهر فيه رسم للإله بتاح المصري ، وقد عبده الساميون السيناثيون في صورة إلههم المسمى " نوجنتتى " وكان إله معصرة العنب عندهم . والنص السيناثي المذكور يسجل الإهداء المأثور للإلهة " بعلت " (السطر الأيسر) .

وهذا النقش والنقوش الأخرى المذكورة سابقا (شكل ٤ ، ٥) المدونة على آثار مصرية الطابع (تابع وصف شكل ٥ أ ، ب) تؤكد اتباع الساميين في سيناء للعبادات والعادات الدينية المصرية .

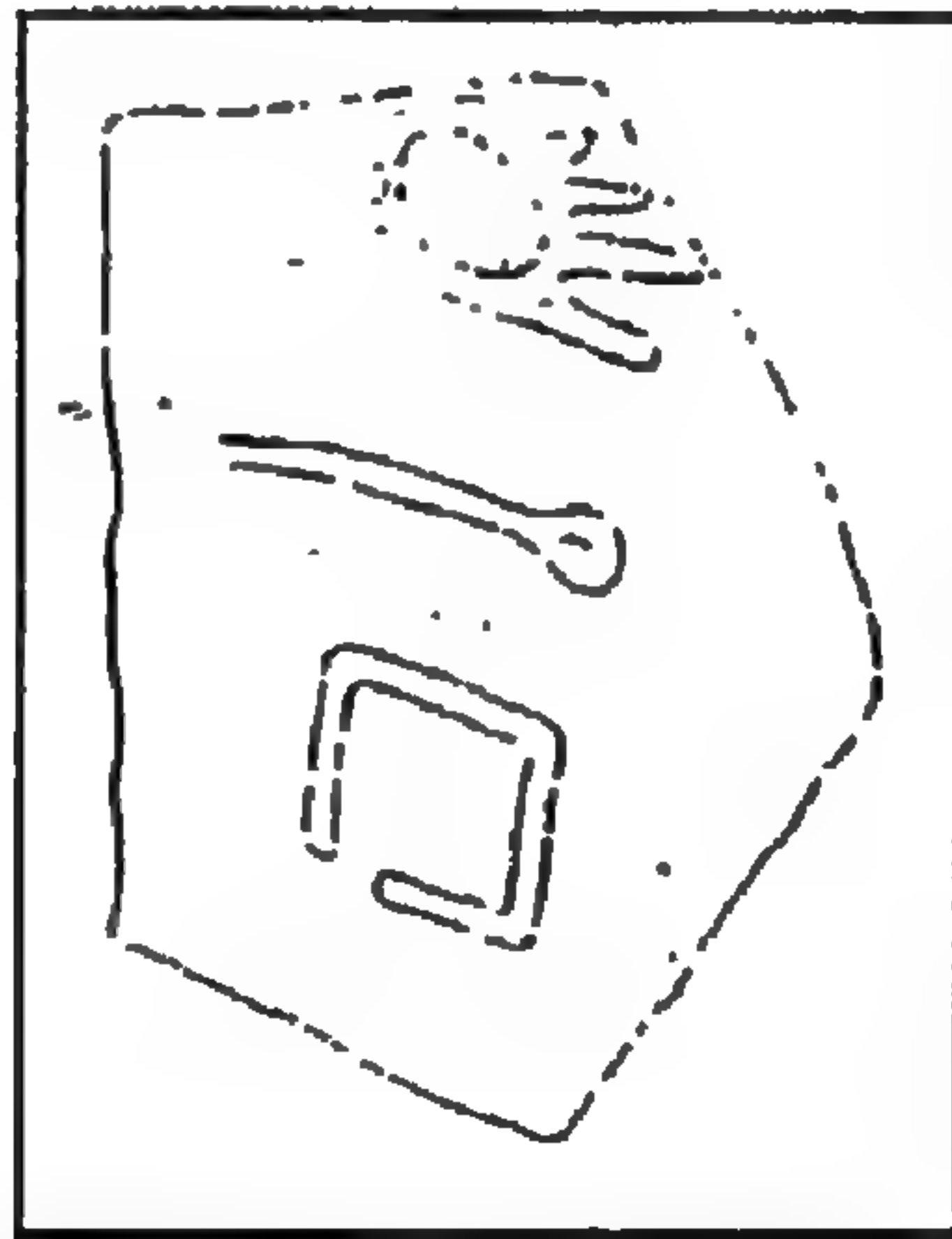


(شكل ١٧ ، ب) في الصورة العليا ، الساميون - سكان سيناء بعلامتهم المميزة كما صورهم المصريون على الآثار المصرية (على جدران مزار مقبرة الأمير خنوم - حتب في بني حسن بالمنيا من عصر الأسرة الثانية عشرة) ، ويتميزون بإطلاق لحاهم ويأرديتهم الطويلة المزركشة ، وهم بذلك يختلفون عن المصريين الذين صوروا أمامهم بالهيئة المصرية المالوفة (حلق اللحية وارتداء النقبة) .

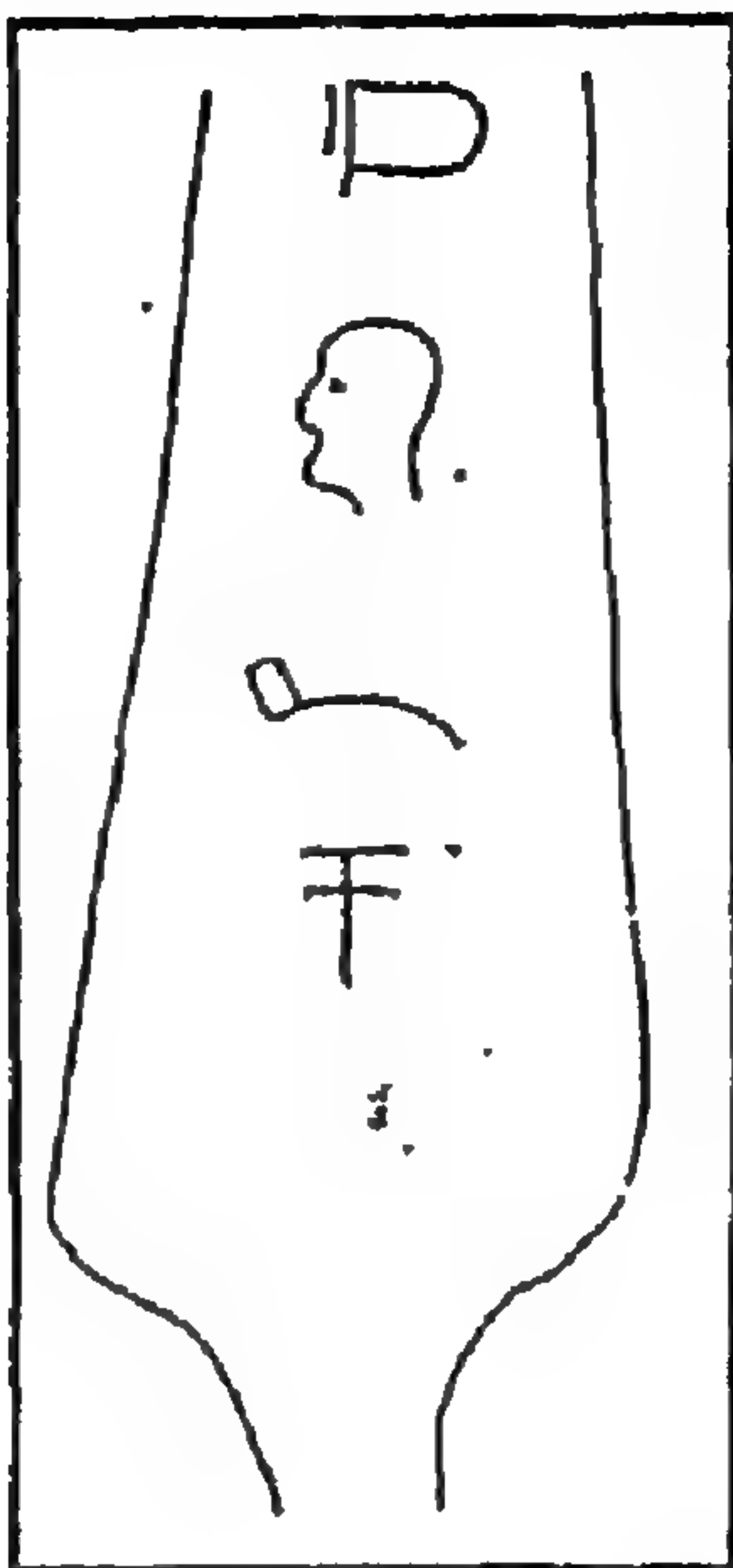
وفي الصورة السفلية يظهر هؤلاء الساميون في رسوم معبد سيرايط الخادم بسيناء ، وقد حلقوا لحاهم ، وارتدوا النقبة المصرية القصيرة ، أي اتبعوا العادات المصرية الدنيوية ، وياتباعهم هذه العادات والعادات الدينية المصرية أيضا (كما يتضح من الأشكال السابقة ٤ ، ٥ ، ٦) تفلقت الحضارة المصرية في ثقافتهم ، وكان في مقدمتها الكتابة المصرية الهيروغليفية التي اشتق هؤلاء الساميون أبجديتهم منها بإرشاد المصريين .



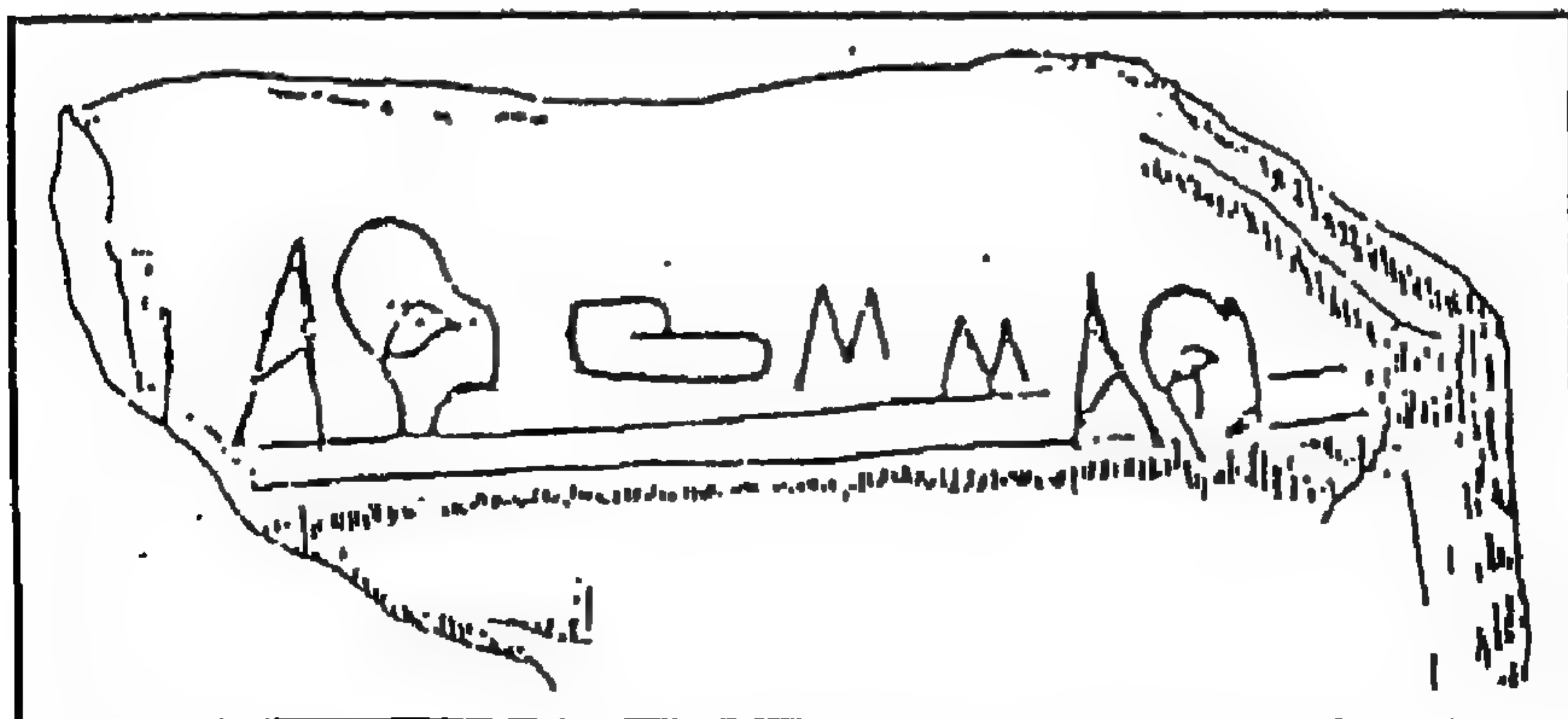
(شكل ٨) النقش السينائي المبكر في وادي "نصيب" المجاور لاسم الفرعون آمون - محات الثالث ، وهو مكتوب بالطريقة الحلزونية ، فالسطر الأول يقرأ من أعلى إلى أسفل " ادا " والثاني من أسفل إلى أعلى " ريس حوت " والثالث من أعلى إلى أسفل " ويعقب [يعقوب] " .



(شكل ٩) نقش شقيقة جازر ، وتقرأ حروقة من أعلى لأسفل " ك ل ب " وربما ينطق " كالب " وهو اسم شخص (من المجموعة الأولى من النقوش الكتفانية المبكرة) .



(شكل ١٠) نقش نعل خنجر لكيش (تل النوير) والحروف عليه تقرأ من أعلى إلى أسفل "ط ر ن ز" وهو من أسماء الأشخاص عند شعب الحوريين (من المجموعة الأولى من النقوش الكنعانية المبكرة) .



(شكل ١١) نقش رقعة شكيم (تل بلاطة) والحروف الظاهرة منه تقرأ من اليسار إلى اليمين "أ ر غ م أ ر" وهو من المجموعة الأولى من النقوش الكنعانية المبكرة .

(شكل ١٢) مراحل اشتقاق حروف الأبجدية الكتنائية المبكرة (ثم الكتنائية المتأخرة) من الأبجدية السينائية

المبكرة .

الرقم الترتيب	الخط	الأبجدية السينائية المبكرة	الكتنائية المبكرة	الاسماء المبكرة للحروف	معاني هذه الاسماء
١	أ	Ⲁ	Ⲁ (11a) Ⲁ (11a)	alp-	ox-head
٢	ب	Ⲃ	Ⲃ (12a) Ⲃ (12a)	bât-	house
٣	ج	Ⲅ	Ⲅ (13a) Ⲅ (13a)	gaml-	throw-stick
٤	د	Ⲇ	Ⲇ (14a) Ⲇ (14a)	di-gg-	fish
٥	هـ	Ⲉ	?	?	?
٦	و	Ⲋ	Ⲋ (15a) Ⲋ (15a)	hō(?)	man calling
٧	ز	Ⲍ	Ⲍ (16a) Ⲍ (16a)	wō(?)	mace
٨	ح	Ⲏ	Ⲏ (17a) Ⲏ (17a)	zē(?)	?
٩	ط	Ⲑ	Ⲑ (18a) Ⲑ (18a)	hē(?)	fence(?)
١٠	ق	Ⲓ	?	hā(?)	hank of yarn
١١	ك	Ⲕ	Ⲕ (19a) Ⲕ (19a)	hē(?)	spindle?
١٢	ل	Ⲗ	Ⲗ (20a) Ⲗ (20a)	yod-	arm
١٣	م	Ⲙ	Ⲙ (21a) Ⲙ (21a)	kapp-	palm
١٤	ن	Ⲛ	Ⲛ (22a) Ⲛ (22a)	lōnd-	ox-goad
١٥	س	Ⲝ	Ⲝ (23a) Ⲝ (23a)	mēm-	water
١٦	ع	Ⲟ	Ⲟ (24a) Ⲟ (24a)	nōh-	snake
١٧	ف	Ⲡ	Ⲡ (25a) Ⲡ (25a)	(lōmk-?)	?
١٨	ق	Ⲣ	Ⲣ (26a) Ⲣ (26a)	ēn-	eye
١٩	ك	Ⲥ	Ⲥ (27a) Ⲥ (27a)	hē(?)	?
٢٠	ل	Ⲧ	Ⲧ (28a) Ⲧ (28a)	pit(?)	corner?
٢١	م	Ⲩ	Ⲩ (29a) Ⲩ (29a)	hā(d-)	plant
٢٢	ن	Ⲭ	?	?	?
٢٣	س	Ⲯ	Ⲯ (30a) Ⲯ (30a)	qu(p-)	?
٢٤	ع	Ⲱ	Ⲱ (31a-31a)	hā'z-	head of man
٢٥	ف	Ⲳ	Ⲳ (32a) Ⲳ (32a)	hānn-	composite bow
٢٦	ق	Ⲵ	?	?	?
٢٧	ك	Ⲷ	Ⲷ (33a) Ⲷ (33a)	hō(?)	owner's mark

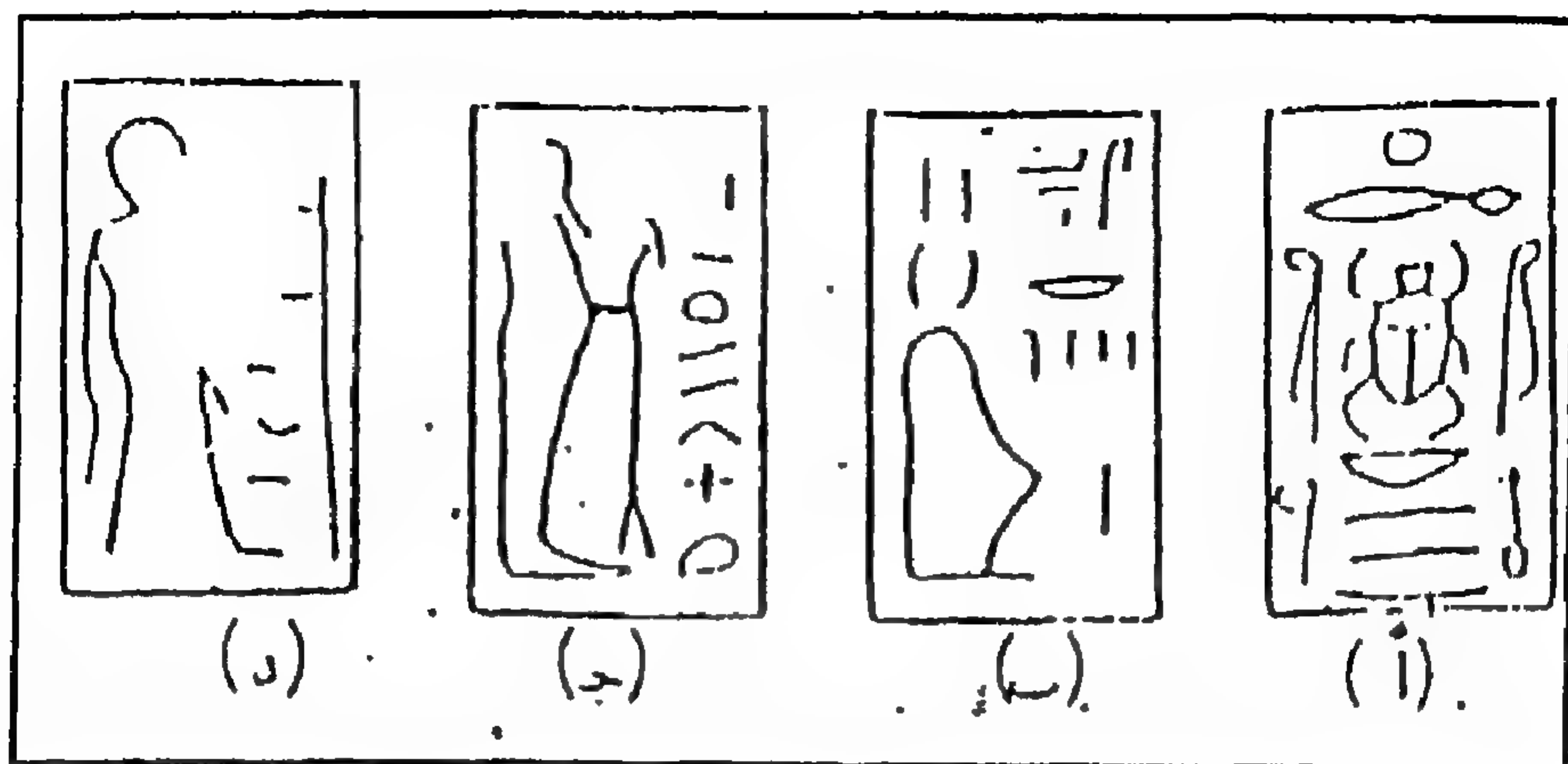
ملاحظة : هذه النقطة مقتبسة من القائمة المنشورة في كتاب (Albright 1969, fig.1) مع تعديل

الحروف الكتنائية المبكرة أرقام ١ ، ١٥ ، ١٦ إلى القرن السادس عشر ق م طبقا لأحدث الدراسات المنشورة

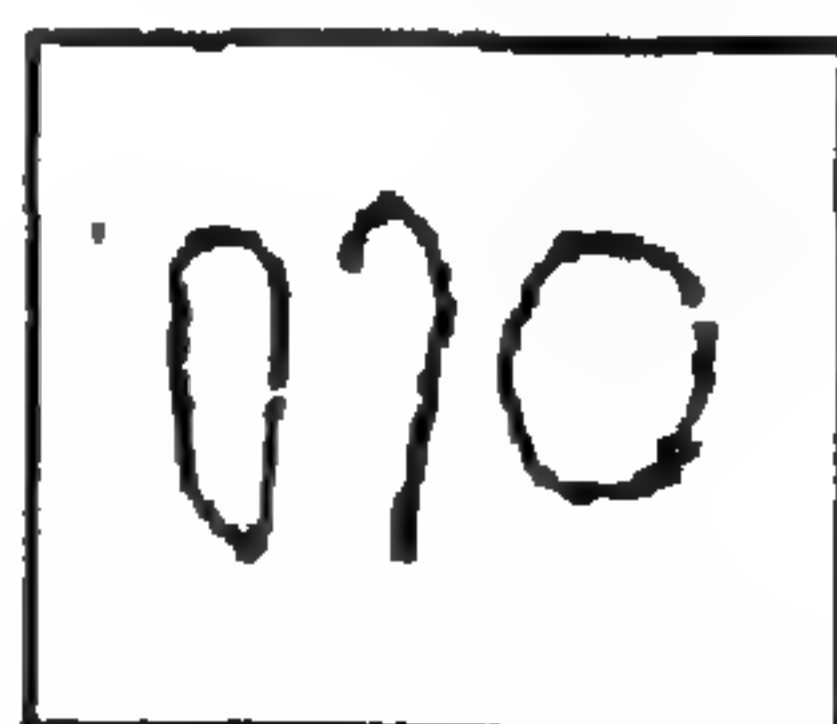
في (Naveh 1987, pp.26-27) .

x هذه العلامة تشير إلى الحروف التي تباعدت أشكالها الكتنائية المبكرة عن الصورة الأصلية للحروف

الظاهرة في السينائية المبكرة .



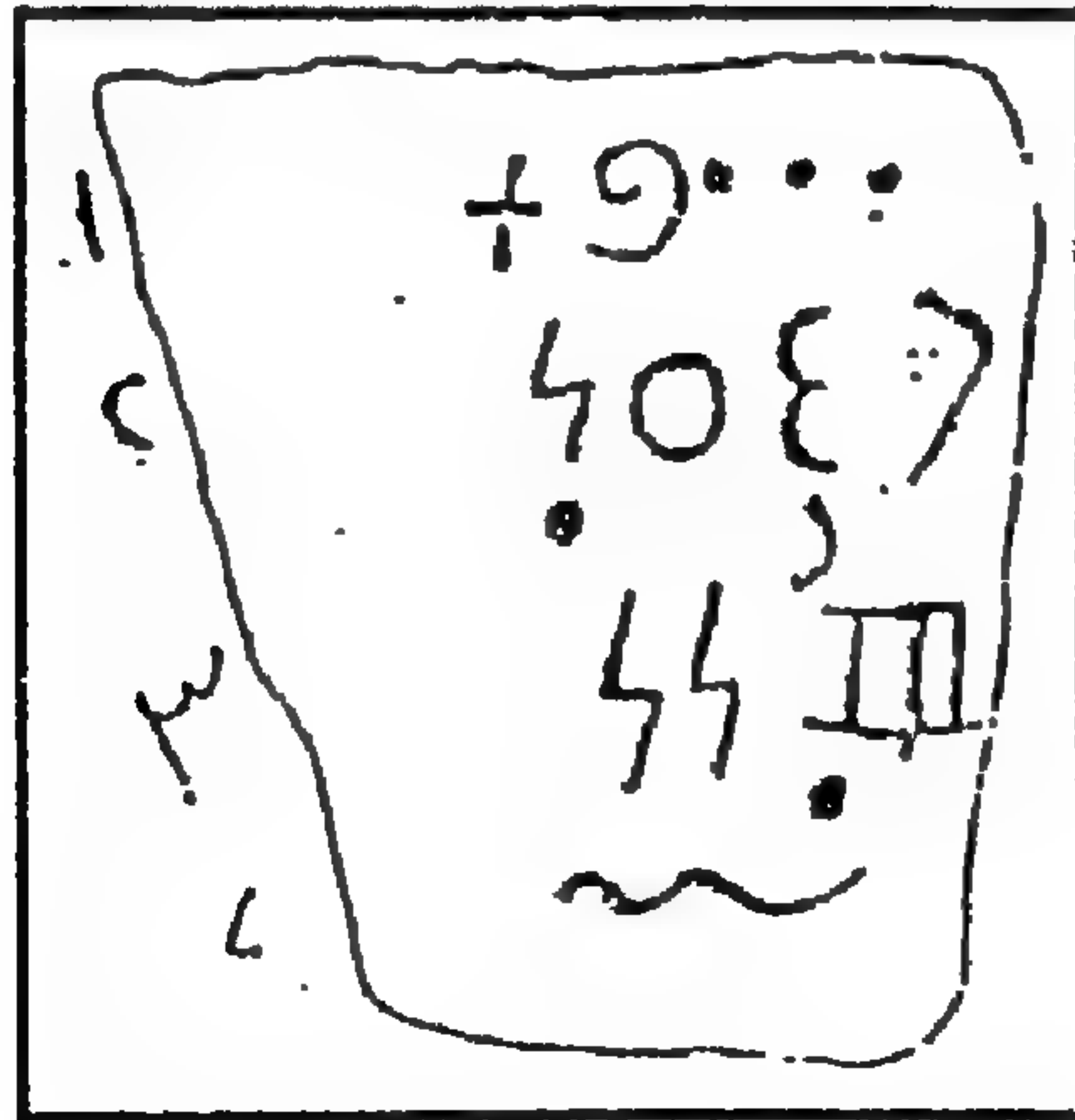
(شكل ١٣) ختم على شكل منشور وجد في تل الدور بقلسطين ، وعلى أحد أوجهه (أ) اسم الفرعون أمنحتب الثاني الذي عاش حوالي ١٤٠٠ ق م ، وعلى وجه آخر (ج) كتابة بروتوسينائية ، ووجود الكتابة البروتوسينائية إلى جانب الكتابة الهيروغليفية ، ورسم الشخص الواقف على نمط الشكل المرسوم على اللوحة البروتوسينائية الموضحة في شكل (٤) بالإضافة إلى وجود هذا الختم في الشام ، يدل على انتقال الكتابة البروتوسينائية إلى الشام منذ عصر مبكر قبل معرفة الفينيقيين للحروف الأبجدية .



(شكل ١٤) نقش تل الحصى ، ويقرأ من اليمين إلى اليسار " ب ل ع " (من المجموعة الثانية من النقوش الكتانية المبكرة) .



(شكل ١٥ أ) نقش وجه شقيقة "بيت شمس" بفلسطين ، وقد كتب بالطريقة الحزونية ، فالسطر الأول يقرأ من اليسار إلى اليمين "ل ع ز ا ح ت (ت) وترجمته : " من أجل هزاء حات " والسطر الثاني يقرأ من اليمين إلى اليسار (ش؟) م ز م هـ ر ا " وترجمته : " (شـ) مزا مهرا " ، والسطر الثالث من اليسار إلى اليمين "ب ي ن ح " ، والسطر الرابع به حرف "م" فقط ، ويكمل السطر الثالث وترجمتها : " أبى ناهوم " ، والسطر الخامس يقرأ من اليمين إلى اليسار "ش ف (ط) " وترجمته : " شاف (ط) " (من المجموعة الثانية من النقوش الكتانية المبكرة) .

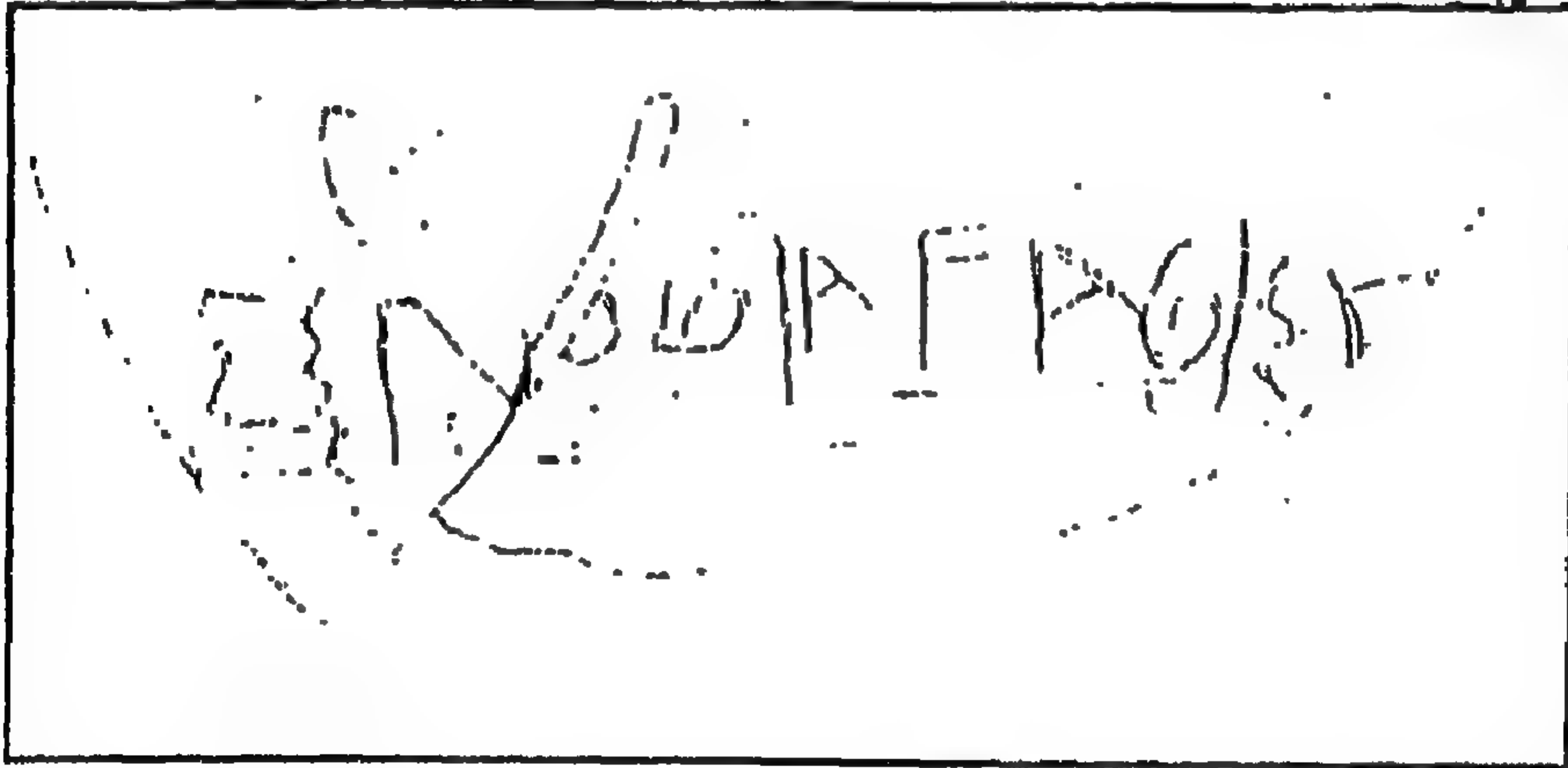


(شكل ١٥ ب) نقش ظهر شقيقة "بيت شمس" ، ويقرأ بالطريقة الحزونية أيضا فالسطر الأول يقرأ من اليمين إلى اليسار "ل ت " ، والسطر الثاني يقرأ من اليسار إلى اليمين "ن ع م / و " ، وترجمة السطرين : " اعط نعمة و " والسطر الثالث يقرأ من اليمين إلى اليسار "ح ن ن " ، والرابع به حرف واحد هو "م"

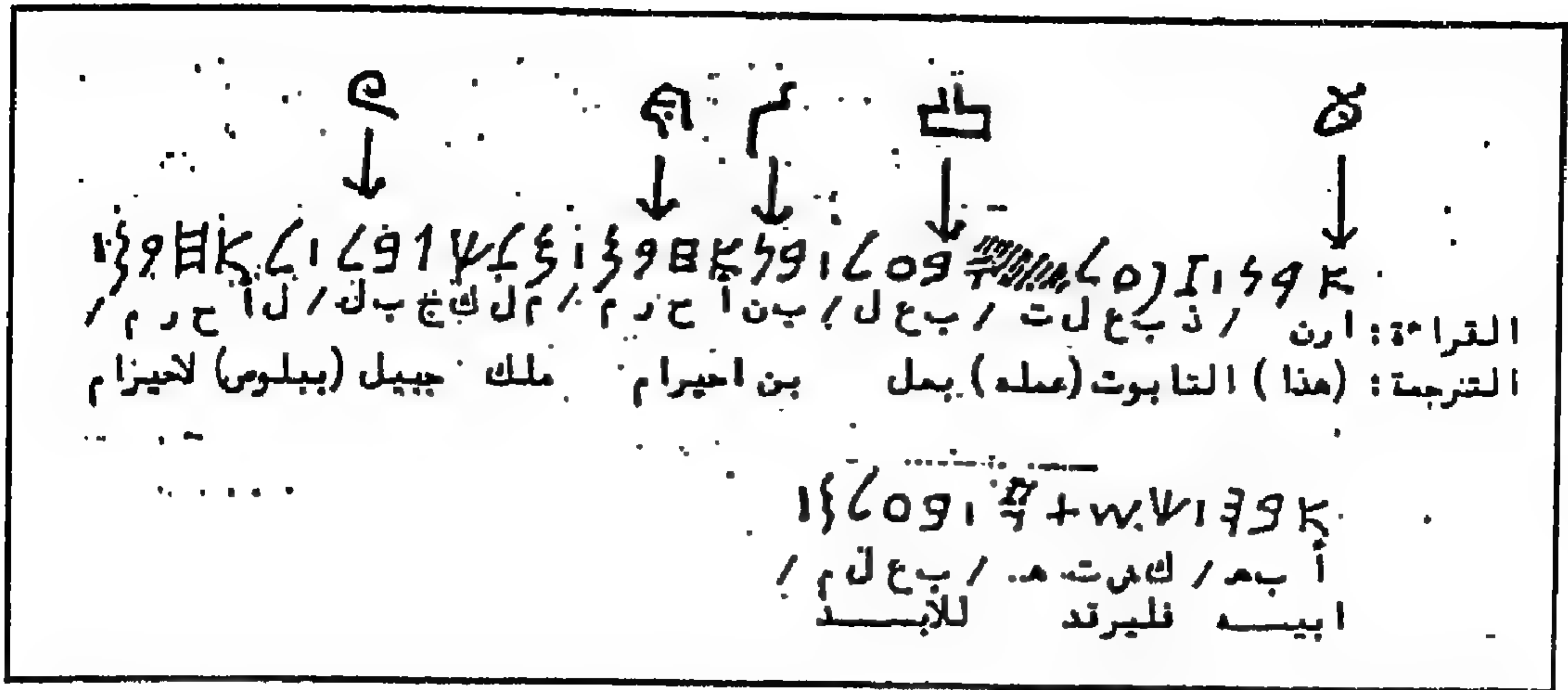
وترجمة السطرين : " وحنانهم " (من المجموعة الثانية من النقوش الكنعانية المبكرة) .



(شكل ١٦) نقش إيريقي لكيش الذي ينتمى إلى المجموعة الثانية من النقوش الكنعانية المبكرة ، ويتميز بظهور خاصية ستستمر في الكتابة الفينيقية فيما بعد وهي القواصل بين الكلمات ، وقد اتخذت في أول الأمر شكل نقط رأسية ، والنقش يقرأ من اليسار " م ت ن / ش ي (ل ر ب) ت ي أ ل ت " ، وترجمته : " متان ، قريان لسبنتي ايلات " .

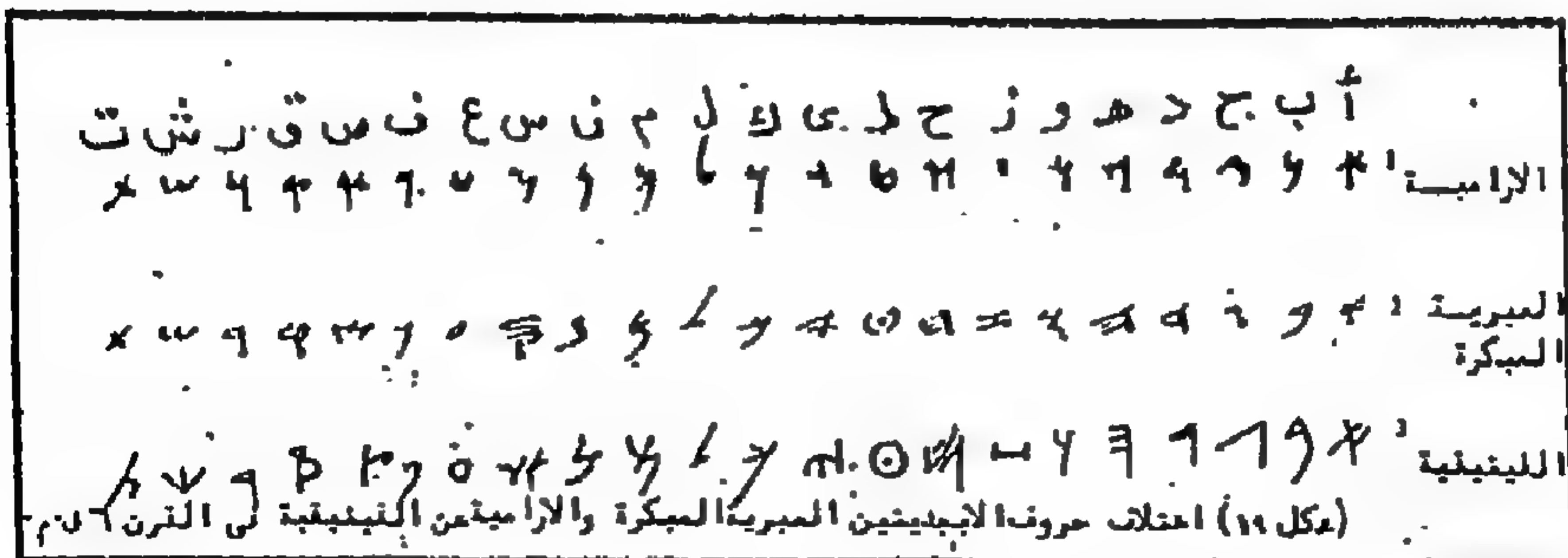


(شكل ١٧) نقش إناء " قبور الوليدة " (في جنوب فلسطين) الذي ينتمى إلى المجموعة الثالثة من النقوش الكنعانية المبكرة ، ويتميز باختفاء الصفة الصورية من الحروف ويظهر القواصل بينها على هيئة خط مستمر والنقش يقرأ من اليسار " ش م ب ع ل / آ ي أ ل / ش ١٠ " وترجمته : " شمي بعل أيا - ايل ١٠ شكل "



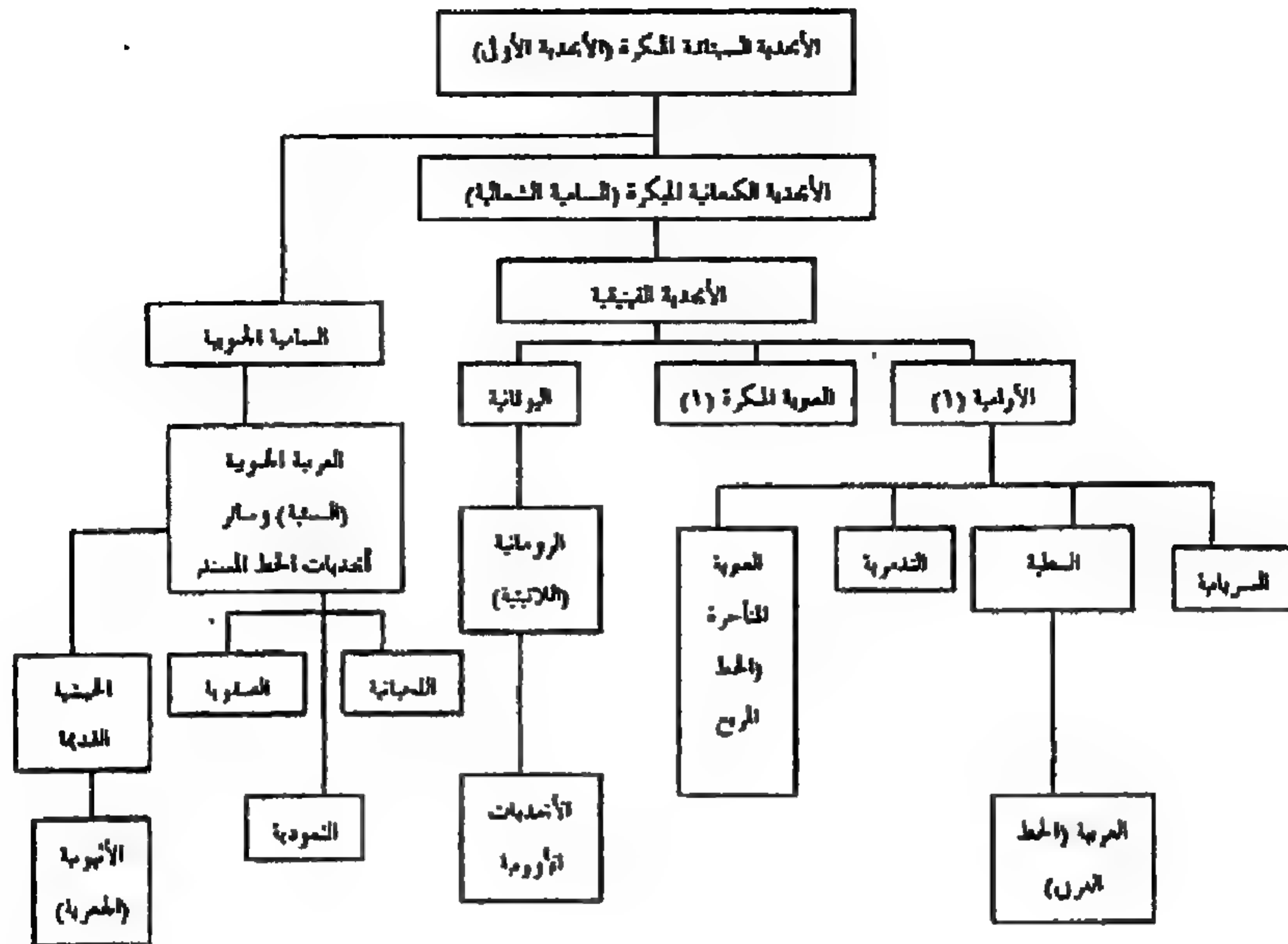
(شكل ١٨) نقش تابوت "أحيرام" ملك بيلوس الذي يعتبر أقدم نقش وجد على الأرض الفينيقية ، وتمثل فيه خصائص الكتابة الفينيقية التي ميزتها طوال العصور ، وهي اكتمال الصفة الخطية والاتجاه الألفي من اليمين إلى اليسار والفواصل بين الكلمات التي على شكل خطوط رأسية .

وقد وضعت فوق بعض الحروف أصولها كما ظهرت بوضوح في الكتابة السينائية المبكرة ، والتي ظلت اسمائها مرتبطة بالحروف الفينيقية رغم زوال الشكل الأصلي للحرف نتيجة لاختصاره وابتعاده تماما عن شكله السينائي .



(شكل ١٩) اختلاف حروف الأبجديتين العبرية المبكرة والأرامية عن الفينيقية في القرن ٦ ق م .

السبت	أرامي (القرن الثامن)	أرامي (القرن التاسع)	نعمري	نبطي	نبطي	عربي قديم	كوفي
أ	𐤀	𐤁	𐤁	𐤁	𐤁	𐤁	𐤁
ب	𐤂	𐤃	𐤃	𐤃	𐤃	𐤃	𐤃
ج	𐤄	𐤅	𐤅	𐤅	𐤅	𐤅	𐤅
د	𐤆	𐤇	𐤇	𐤇	𐤇	𐤇	𐤇
هـ	𐤈	𐤉	𐤉	𐤉	𐤉	𐤉	𐤉
و	𐤊	𐤋	𐤋	𐤋	𐤋	𐤋	𐤋
ز	𐤌	𐤍	𐤍	𐤍	𐤍	𐤍	𐤍
ح	𐤎	𐤏	𐤏	𐤏	𐤏	𐤏	𐤏
ط	𐤐	𐤑	𐤑	𐤑	𐤑	𐤑	𐤑
ي	𐤒	𐤓	𐤓	𐤓	𐤓	𐤓	𐤓
ك	𐤔	𐤕	𐤕	𐤕	𐤕	𐤕	𐤕
ل	𐤖	𐤗	𐤗	𐤗	𐤗	𐤗	𐤗
م	𐤘	𐤙	𐤙	𐤙	𐤙	𐤙	𐤙
ن	𐤚	𐤛	𐤛	𐤛	𐤛	𐤛	𐤛
س	𐤜	𐤝	𐤝	𐤝	𐤝	𐤝	𐤝
ع	𐤞	𐤟	𐤟	𐤟	𐤟	𐤟	𐤟
ف	𐤠	𐤡	𐤡	𐤡	𐤡	𐤡	𐤡
ق	𐤢	𐤣	𐤣	𐤣	𐤣	𐤣	𐤣
ك	𐤤	𐤥	𐤥	𐤥	𐤥	𐤥	𐤥
ل	𐤦	𐤧	𐤧	𐤧	𐤧	𐤧	𐤧
م	𐤨	𐤩	𐤩	𐤩	𐤩	𐤩	𐤩
ن	𐤪	𐤫	𐤫	𐤫	𐤫	𐤫	𐤫
س	𐤬	𐤭	𐤭	𐤭	𐤭	𐤭	𐤭
ع	𐤮	𐤯	𐤯	𐤯	𐤯	𐤯	𐤯
ف	𐤱	𐤲	𐤲	𐤲	𐤲	𐤲	𐤲
ق	𐤴	𐤵	𐤵	𐤵	𐤵	𐤵	𐤵
ك	𐤷	𐤸	𐤸	𐤸	𐤸	𐤸	𐤸
ل	𐤺	𐤻	𐤻	𐤻	𐤻	𐤻	𐤻
م	𐤼	𐤽	𐤽	𐤽	𐤽	𐤽	𐤽
ن	𐤿	𐥀	𐥀	𐥀	𐥀	𐥀	𐥀
س	𐥁	𐥂	𐥂	𐥂	𐥂	𐥂	𐥂
ع	𐥃	𐥄	𐥄	𐥄	𐥄	𐥄	𐥄
ف	𐥅	𐥆	𐥆	𐥆	𐥆	𐥆	𐥆
ق	𐥇	𐥈	𐥈	𐥈	𐥈	𐥈	𐥈
ك	𐥉	𐥊	𐥊	𐥊	𐥊	𐥊	𐥊
ل	𐥋	𐥌	𐥌	𐥌	𐥌	𐥌	𐥌
م	𐥍	𐥎	𐥎	𐥎	𐥎	𐥎	𐥎
ن	𐥏	𐥐	𐥐	𐥐	𐥐	𐥐	𐥐
س	𐥑	𐥒	𐥒	𐥒	𐥒	𐥒	𐥒
ع	𐥓	𐥔	𐥔	𐥔	𐥔	𐥔	𐥔
ف	𐥕	𐥖	𐥖	𐥖	𐥖	𐥖	𐥖
ق	𐥗	𐥘	𐥘	𐥘	𐥘	𐥘	𐥘
ك	𐥙	𐥚	𐥚	𐥚	𐥚	𐥚	𐥚
ل	𐥛	𐥜	𐥜	𐥜	𐥜	𐥜	𐥜
م	𐥝	𐥞	𐥞	𐥞	𐥞	𐥞	𐥞
ن	𐥟	𐥠	𐥠	𐥠	𐥠	𐥠	𐥠
س	𐥡	𐥢	𐥢	𐥢	𐥢	𐥢	𐥢
ع	𐥣	𐥤	𐥤	𐥤	𐥤	𐥤	𐥤
ف	𐥥	𐥦	𐥦	𐥦	𐥦	𐥦	𐥦
ق	𐥧	𐥨	𐥨	𐥨	𐥨	𐥨	𐥨
ك	𐥩	𐥪	𐥪	𐥪	𐥪	𐥪	𐥪
ل	𐥫	𐥬	𐥬	𐥬	𐥬	𐥬	𐥬
م	𐥭	𐥮	𐥮	𐥮	𐥮	𐥮	𐥮
ن	𐥯	𐥰	𐥰	𐥰	𐥰	𐥰	𐥰
س	𐥱	𐥲	𐥲	𐥲	𐥲	𐥲	𐥲
ع	𐥳	𐥴	𐥴	𐥴	𐥴	𐥴	𐥴
ف	𐥵	𐥶	𐥶	𐥶	𐥶	𐥶	𐥶
ق	𐥷	𐥸	𐥸	𐥸	𐥸	𐥸	𐥸
ك	𐥹	𐥺	𐥺	𐥺	𐥺	𐥺	𐥺
ل	𐥻	𐥼	𐥼	𐥼	𐥼	𐥼	𐥼
م	𐥽	𐥾	𐥾	𐥾	𐥾	𐥾	𐥾
ن	𐥿	𐦀	𐦀	𐦀	𐦀	𐦀	𐦀
س	𐦁	𐦂	𐦂	𐦂	𐦂	𐦂	𐦂
ع	𐦃	𐦄	𐦄	𐦄	𐦄	𐦄	𐦄
ف	𐦅	𐦆	𐦆	𐦆	𐦆	𐦆	𐦆
ق	𐦇	𐦈	𐦈	𐦈	𐦈	𐦈	𐦈
ك	𐦉	𐦊	𐦊	𐦊	𐦊	𐦊	𐦊
ل	𐦋	𐦌	𐦌	𐦌	𐦌	𐦌	𐦌
م	𐦍	𐦎	𐦎	𐦎	𐦎	𐦎	𐦎
ن	𐦏	𐦐	𐦐	𐦐	𐦐	𐦐	𐦐
س	𐦑	𐦒	𐦒	𐦒	𐦒	𐦒	𐦒
ع	𐦓	𐦔	𐦔	𐦔	𐦔	𐦔	𐦔
ف	𐦕	𐦖	𐦖	𐦖	𐦖	𐦖	𐦖
ق	𐦗	𐦘	𐦘	𐦘	𐦘	𐦘	𐦘
ك	𐦙	𐦚	𐦚	𐦚	𐦚	𐦚	𐦚
ل	𐦛	𐦜	𐦜	𐦜	𐦜	𐦜	𐦜
م	𐦝	𐦞	𐦞	𐦞	𐦞	𐦞	𐦞
ن	𐦟	𐦠	𐦠	𐦠	𐦠	𐦠	𐦠
س	𐦡	𐦢	𐦢	𐦢	𐦢	𐦢	𐦢
ع	𐦣	𐦤	𐦤	𐦤	𐦤	𐦤	𐦤
ف	𐦥	𐦦	𐦦	𐦦	𐦦	𐦦	𐦦
ق	𐦧	𐦨	𐦨	𐦨	𐦨	𐦨	𐦨
ك	𐦩	𐦪	𐦪	𐦪	𐦪	𐦪	𐦪
ل	𐦫	𐦬	𐦬	𐦬	𐦬	𐦬	𐦬
م	𐦭	𐦮	𐦮	𐦮	𐦮	𐦮	𐦮
ن	𐦯	𐦰	𐦰	𐦰	𐦰	𐦰	𐦰
س	𐦱	𐦲	𐦲	𐦲	𐦲	𐦲	𐦲
ع	𐦳	𐦴	𐦴	𐦴	𐦴	𐦴	𐦴
ف	𐦵	𐦶	𐦶	𐦶	𐦶	𐦶	𐦶
ق	𐦷	𐦸	𐦸	𐦸	𐦸	𐦸	𐦸
ك	𐦹	𐦺	𐦺	𐦺	𐦺	𐦺	𐦺
ل	𐦻	𐦼	𐦼	𐦼	𐦼	𐦼	𐦼
م	𐦽	𐦾	𐦾	𐦾	𐦾	𐦾	𐦾
ن	𐦿	𐧀	𐧀	𐧀	𐧀	𐧀	𐧀
س	𐧁	𐧂	𐧂	𐧂	𐧂	𐧂	𐧂
ع	𐧃	𐧄	𐧄	𐧄	𐧄	𐧄	𐧄
ف	𐧅	𐧆	𐧆	𐧆	𐧆	𐧆	𐧆
ق	𐧇	𐧈	𐧈	𐧈	𐧈	𐧈	𐧈
ك	𐧉	𐧊	𐧊	𐧊	𐧊	𐧊	𐧊
ل	𐧋	𐧌	𐧌	𐧌	𐧌	𐧌	𐧌
م	𐧍	𐧎	𐧎	𐧎	𐧎	𐧎	𐧎
ن	𐧏	𐧐	𐧐	𐧐	𐧐	𐧐	𐧐
س	𐧑	𐧒	𐧒	𐧒	𐧒	𐧒	𐧒
ع	𐧓	𐧔	𐧔	𐧔	𐧔	𐧔	𐧔
ف	𐧕	𐧖	𐧖	𐧖	𐧖	𐧖	𐧖
ق	𐧗	𐧘	𐧘	𐧘	𐧘	𐧘	𐧘
ك	𐧙	𐧚	𐧚	𐧚	𐧚	𐧚	𐧚
ل	𐧛	𐧜	𐧜	𐧜	𐧜	𐧜	𐧜
م	𐧝	𐧞	𐧞	𐧞	𐧞	𐧞	𐧞
ن	𐧟	𐧠	𐧠	𐧠	𐧠	𐧠	𐧠
س	𐧡	𐧢	𐧢	𐧢	𐧢	𐧢	𐧢
ع	𐧣	𐧤	𐧤	𐧤	𐧤	𐧤	𐧤
ف	𐧥	𐧦	𐧦	𐧦	𐧦	𐧦	𐧦
ق	𐧧	𐧨	𐧨	𐧨	𐧨	𐧨	𐧨
ك	𐧩	𐧪	𐧪	𐧪	𐧪	𐧪	𐧪
ل	𐧫	𐧬	𐧬	𐧬	𐧬	𐧬	𐧬
م	𐧭	𐧮	𐧮	𐧮	𐧮	𐧮	𐧮
ن	𐧯	𐧰	𐧰	𐧰	𐧰	𐧰	𐧰
س	𐧱	𐧲	𐧲	𐧲	𐧲	𐧲	𐧲
ع	𐧳	𐧴	𐧴	𐧴	𐧴	𐧴	𐧴
ف	𐧵	𐧶	𐧶	𐧶	𐧶	𐧶	𐧶
ق	𐧷	𐧸	𐧸	𐧸	𐧸	𐧸	𐧸
ك	𐧹	𐧺	𐧺	𐧺	𐧺	𐧺	𐧺
ل	𐧻	𐧼	𐧼	𐧼	𐧼	𐧼	𐧼
م	𐧽	𐧾	𐧾	𐧾	𐧾	𐧾	𐧾
ن	𐧿	𐨀	𐨀	𐨀	𐨀	𐨀	𐨀
س	𐨁	𐨂	𐨂	𐨂	𐨂	𐨂	𐨂
ع	𐨃	𐨄	𐨄	𐨄	𐨄	𐨄	𐨄
ف	𐨅	𐨆	𐨆	𐨆	𐨆	𐨆	𐨆
ق	𐨇	𐨈	𐨈	𐨈	𐨈	𐨈	𐨈
ك	𐨉	𐨊	𐨊	𐨊	𐨊	𐨊	𐨊
ل	𐨋	𐨌	𐨌	𐨌	𐨌	𐨌	𐨌
م	𐨍	𐨎	𐨎	𐨎	𐨎	𐨎	𐨎
ن	𐨏	𐨐	𐨐	𐨐	𐨐	𐨐	𐨐
س	𐨑	𐨒	𐨒	𐨒	𐨒	𐨒	𐨒
ع	𐨓	𐨔	𐨔	𐨔	𐨔	𐨔	𐨔
ف	𐨕	𐨖	𐨖	𐨖	𐨖	𐨖	𐨖
ق	𐨗	𐨘	𐨘	𐨘	𐨘	𐨘	𐨘
ك	𐨙	𐨚	𐨚	𐨚	𐨚	𐨚	𐨚
ل	𐨛	𐨜	𐨜	𐨜	𐨜	𐨜	𐨜
م	𐨝	𐨞	𐨞	𐨞	𐨞	𐨞	𐨞
ن	𐨟	𐨠	𐨠	𐨠	𐨠	𐨠	𐨠
س	𐨡	𐨢	𐨢	𐨢	𐨢	𐨢	𐨢
ع	𐨣	𐨤	𐨤	𐨤	𐨤	𐨤	𐨤
ف	𐨥	𐨦	𐨦	𐨦	𐨦	𐨦	𐨦
ق	𐨧	𐨨	𐨨	𐨨	𐨨	𐨨	𐨨
ك	𐨩	𐨪	𐨪	𐨪	𐨪	𐨪	𐨪
ل	𐨫	𐨬	𐨬	𐨬	𐨬	𐨬	𐨬
م	𐨭	𐨮	𐨮	𐨮	𐨮	𐨮	𐨮
ن	𐨯	𐨰	𐨰	𐨰	𐨰	𐨰	𐨰
س	𐨱	𐨲	𐨲	𐨲	𐨲	𐨲	𐨲
ع	𐨳	𐨴	𐨴	𐨴	𐨴	𐨴	𐨴
ف	𐨵	𐨶	𐨶	𐨶	𐨶	𐨶	𐨶
ق	𐨷	𐨸	𐨸	𐨸	𐨸	𐨸	𐨸
ك	𐨹	𐨺	𐨺	𐨺	𐨺	𐨺	𐨺
ل	𐨻	𐨼	𐨼	𐨼	𐨼	𐨼	𐨼
م	𐨽	𐨾	𐨾	𐨾	𐨾	𐨾	𐨾
ن	𐨿	𐨀	𐨀	𐨀	𐨀	𐨀	𐨀
س	𐨁	𐨂	𐨂	𐨂	𐨂	𐨂	𐨂
ع	𐨃	𐨄	𐨄	𐨄	𐨄	𐨄	𐨄
ف	𐨅	𐨆	𐨆	𐨆	𐨆	𐨆	𐨆
ق	𐨇	𐨈	𐨈	𐨈	𐨈	𐨈	𐨈
ك	𐨉	𐨊	𐨊	𐨊	𐨊	𐨊	𐨊
ل							



(شكل ٢٣) شجرة الأبجديات القديمة والحديثة التي تفرعت من الأبجدية السينائية المبكرة ، وانتشرت في حوض البحر المتوسط والجزيرة العربية والحبشة عبر القرون (وكذلك في إيران والهند ، وإن كنا لم نوضح أبجديات هذين البلدين في الرسم) . ويتضح فيها أن الأبجديات التي لم تقدر ، وتعتبر اليوم من تراث حضارة مصر الفرعونية في الحضارة الإنسانية هي بحسب اتساع انتشارها : الأبجديات الأوروبية ، ثم الأبجدية العربية ، ثم الإثيوبية ، ثم العبرية المتأخرة (الخط المربع) ، ثم السريانية .

(١) هناك رأي سائد فيما مضى مؤداه أن الأبجديتين الآرامية والعبرية المبكرة اشتقتا من الأبجدية السامية الشمالية مباشرة وليس من الفينيقية (Jensen 1958, p.286) ولكن الرأي الموضح هنا هو الأحدث (Naveh 1987, p. 53) .

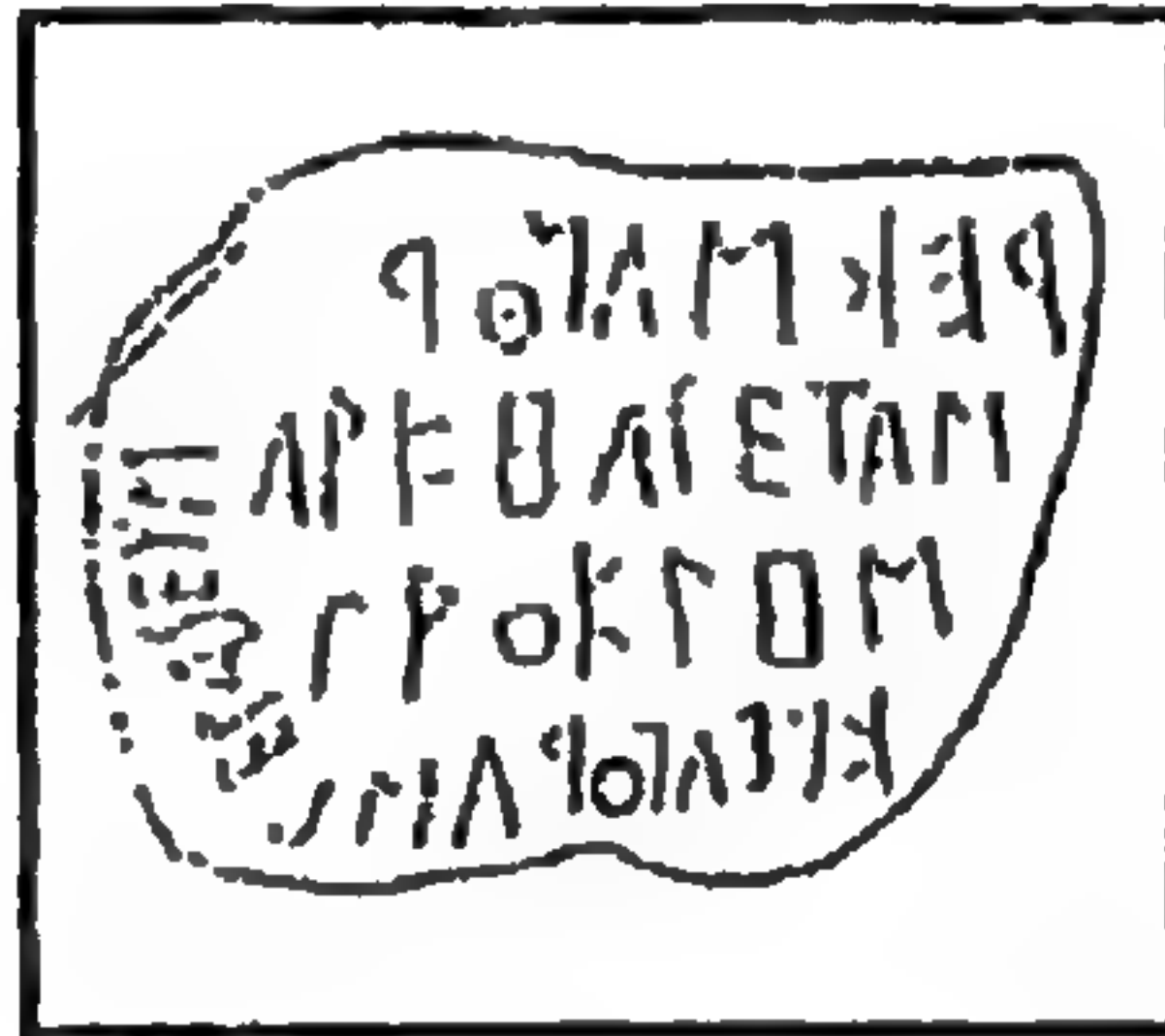
(٢) تجمع الأبجديات الثلاث (الحيانية والثمودية والصقوية) أحيانا تحت مسمى واحد هو " الأبجديات العربية الشمالية " .



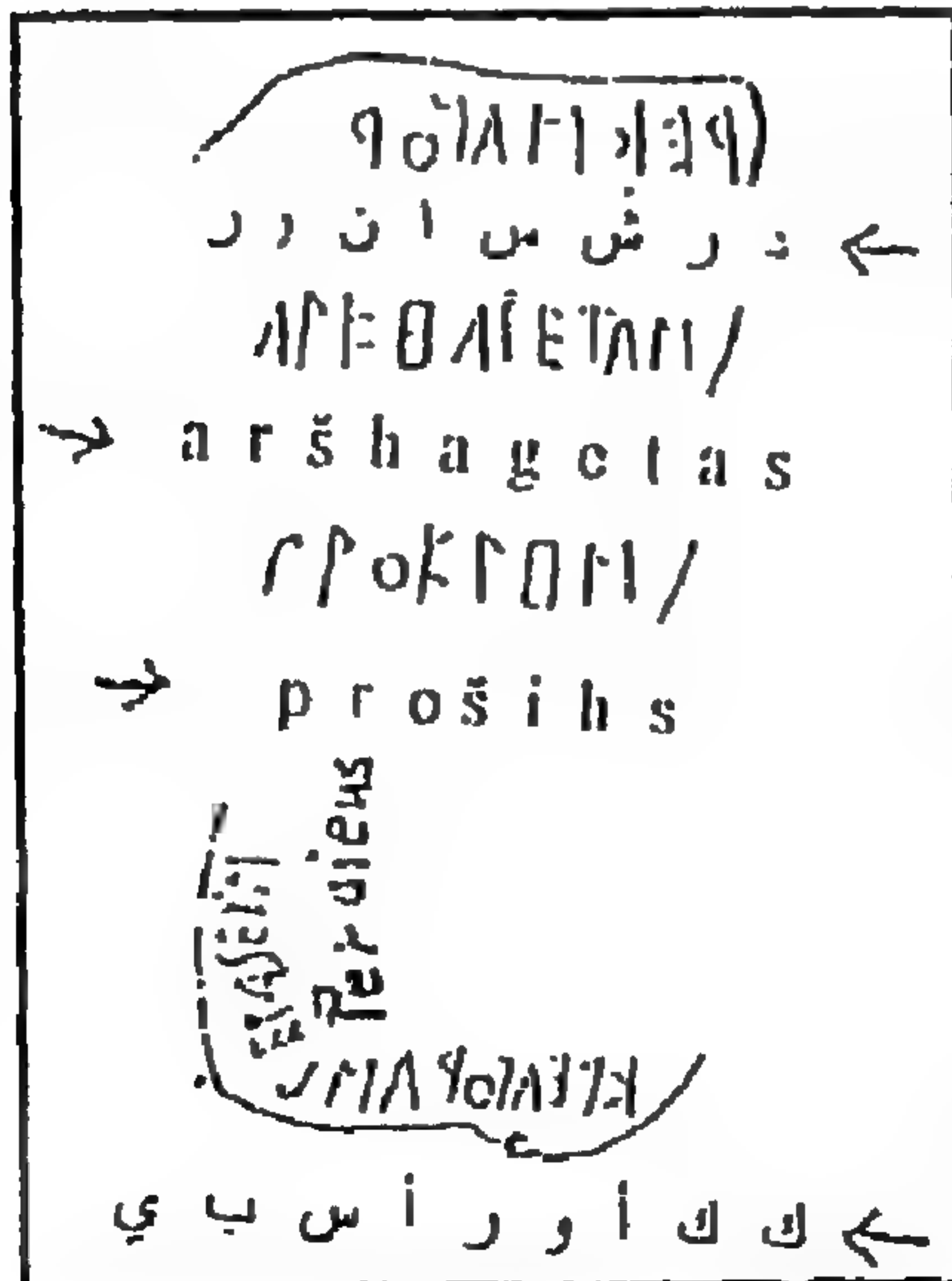
القراءة : ك س / ش م ع / ب ن ل ا ...

الترجمة : كأس / شمع / بن ...

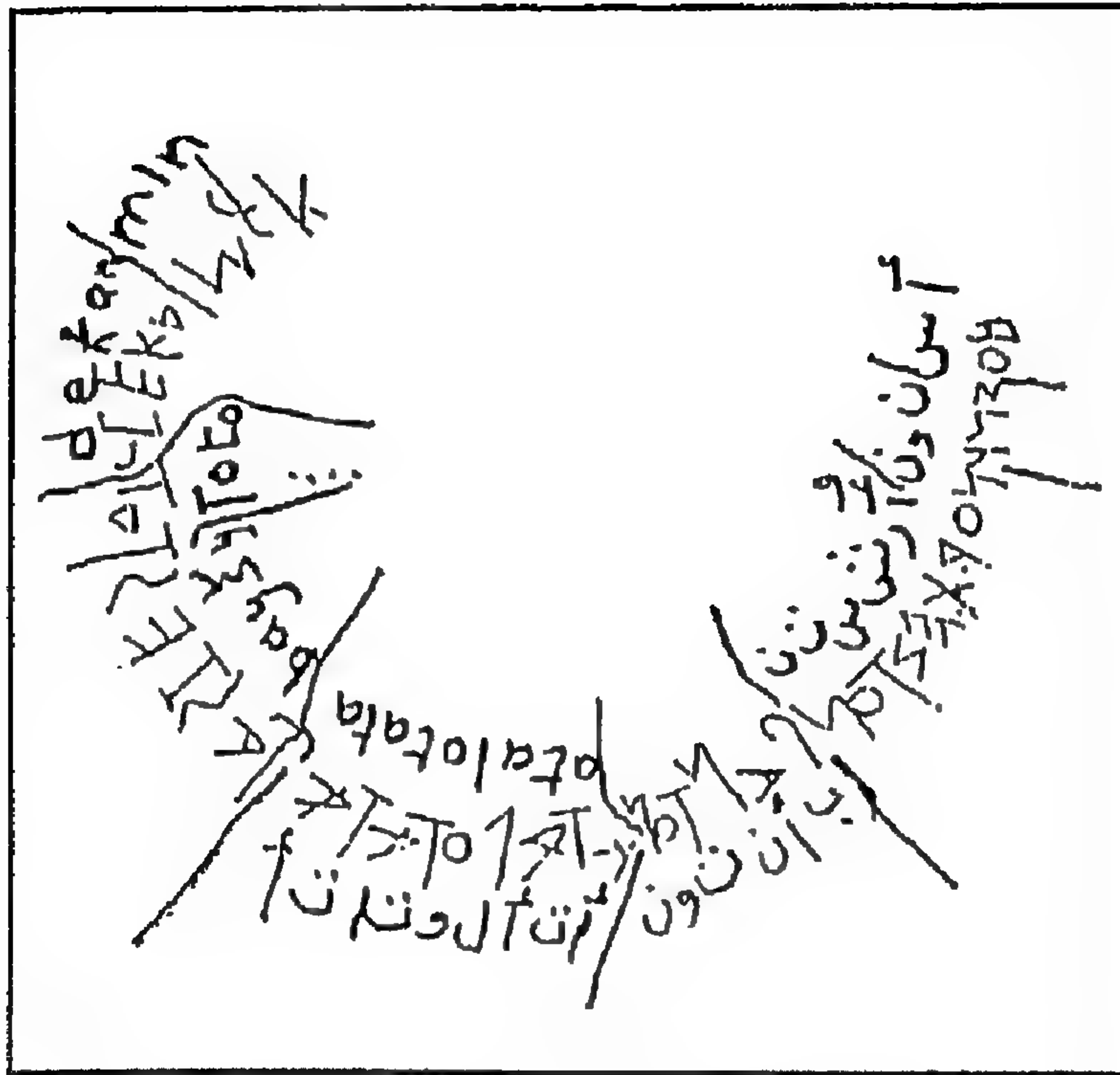
(شكل ٢٤) نقش كتوسوس في جزيرة كريت ، وهو نقش كتعاني يرجع للقرن ١١ ق م ، تظهر فيه الشرطة الرأسية كفاصل بين الكلمات كما يظهر فيه الاتجاه من اليمين إلى اليسار .



(شكل ٢٥) نقش جزيرة ثيرا بشكله الأصلي الكامل .



(شكل ٢٥ ب) تفصيل نقش جزيرة ثيرا ، وقد تمت تجزئته لتوضيح الطريقة الحزونية التي اتبعت في كتابته ، وقد وضعت قراءته أسفل السطور بالحروف العربية للسطور التي تتجه كتابتها من اليمين إلى اليسار ، وبالحروف اللاتينية للسطور التي تتجه كتابتها من اليسار إلى اليمين .



(شكل ٢٦) نقش إناء Dipylon من أثينا ، وهو أقدم نقش يوناني على الأرض اليونانية نفسها ، ويرجع إلى أواخر القرن الثامن ق م ، وقد كتبت قراءته بكل من الحروف العربية واللاتينية تبعاً لاتجاه الحروف .
ترجمة النص : من يؤدي الرقص أكثر رشاقة ، فسوف يتسلم هذا (الإناء - الكأس) .

	تسمية الحرف		شكل الحرف				
	باليونانية	بالفينيقية	يونا	فينا	فينا	فينا	فينا
1	الف	الفا	Α	ΑΑ	ΑΑ	ΑΑ	Α
2	بيت	بيتا	Β	ΒΒ	Β	ΒΒ	Β
3	جيميل	جاما	Γ	ΓΓ	Γ	ΓΓ	Γ
4	دالت	ديلتا	Δ	ΔΔ	Δ	ΔΔ	Δ
5	هي	ايبيلون	Ε	ΕΕ	Ε	ΕΕ	Ε
6	راو	ايبيلون	Υ	ΥΥ	ΥΥ	ΥΥ	Υ
7	زين	دزيتا	Ζ	ΖΖ	Ζ	ΖΖ	Ζ
8	سبط	الطرية ايتا	Η	ΗΗ	Η	ΗΗ	Η
9	طيط	تيتا	Θ	ΘΘ	ΘΘ	ΘΘ	Θ
10	يد	يوتا	Ι	ΙΙ	Ι	ΙΙ	Ι
11	كف	كاي	Κ	ΚΚ	Κ	ΚΚ	Κ
12	لاميد	لامدا	Λ	ΛΛ	Λ	ΛΛ	Λ
13	ميم	مي	Μ	ΜΜ	Μ	ΜΜ	Μ
14	نون	ني	Ν	ΝΝ	Ν	ΝΝ	Ν
15	سامل	كسي	Ξ	ΞΞ	Ξ	ΞΞ	Ξ
16	عين	ميرون (ميترون)	Ο	ΟΟ	Ο	ΟΟ	Ο
17	بي	بي	Π	ΠΠ	Π	ΠΠ	Π
18	صادي	مجي	Ρ	ΡΡ	Ρ	ΡΡ	Ρ
19	قرف	كوبا	Σ	ΣΣ	Σ	ΣΣ	Σ
20	ريش	رو	Τ	ΤΤ	Τ	ΤΤ	Τ
21	شين	سيمفا	Υ	ΥΥ	Υ	ΥΥ	Υ
22	قاو	تاو	Φ	ΦΦ	Φ	ΦΦ	Φ
23	—	فد	Χ	ΧΧ	Χ	ΧΧ	Χ
24	—	حني	Ψ	ΨΨ	Ψ	ΨΨ	Ψ
25	—	بي زوي	Ω	ΩΩ	Ω	ΩΩ	Ω
26	—	اوسينا (موني)	Ϟ	ϞϞ	Ϟ	ϞϞ	Ϟ

(شكل ٢٧)

جدول يوضح

التشابه بين

الحروف الأبجدية

اليونانية وحروف

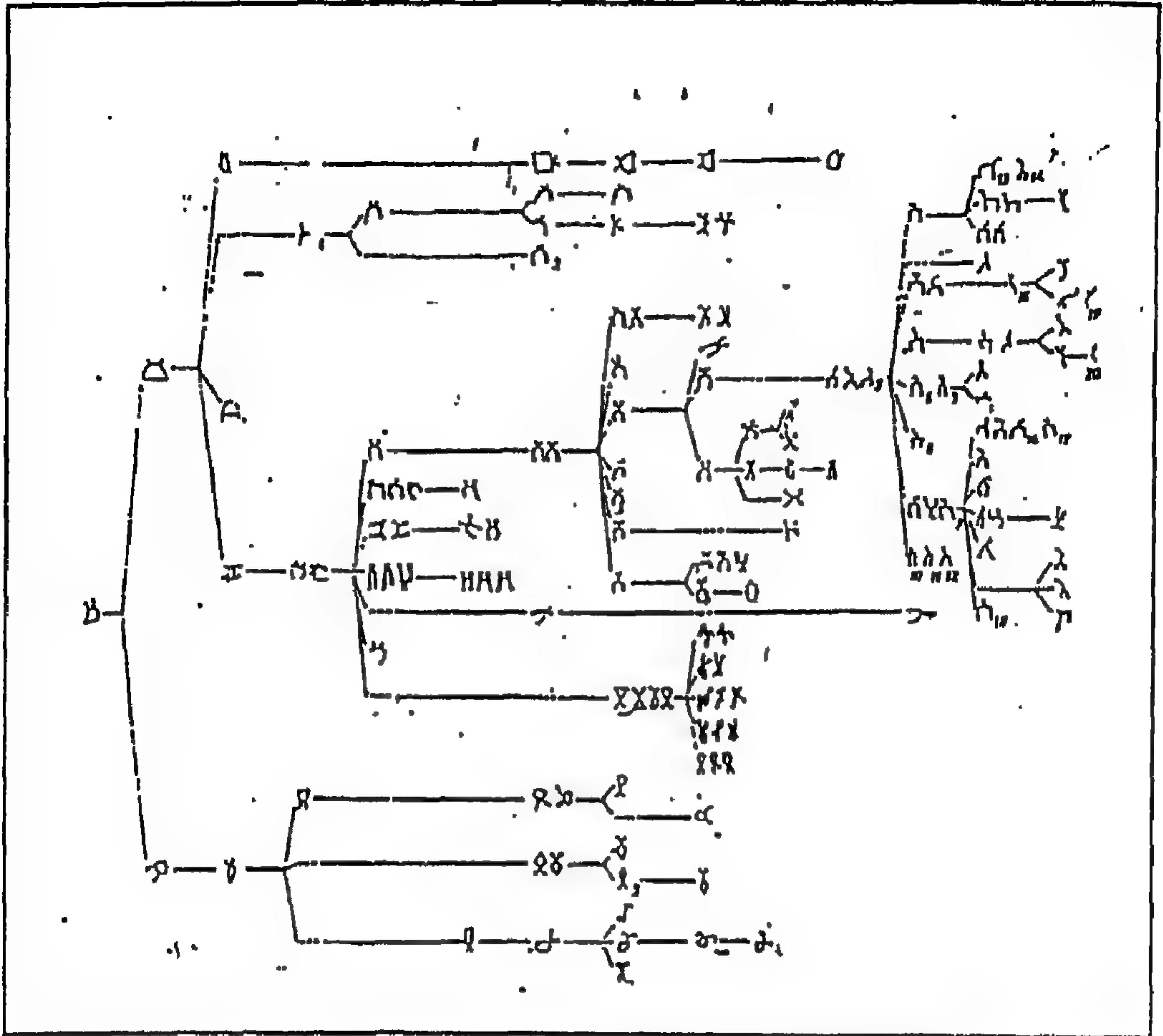
الأبجدية الفينيقية

ومراحل تطور

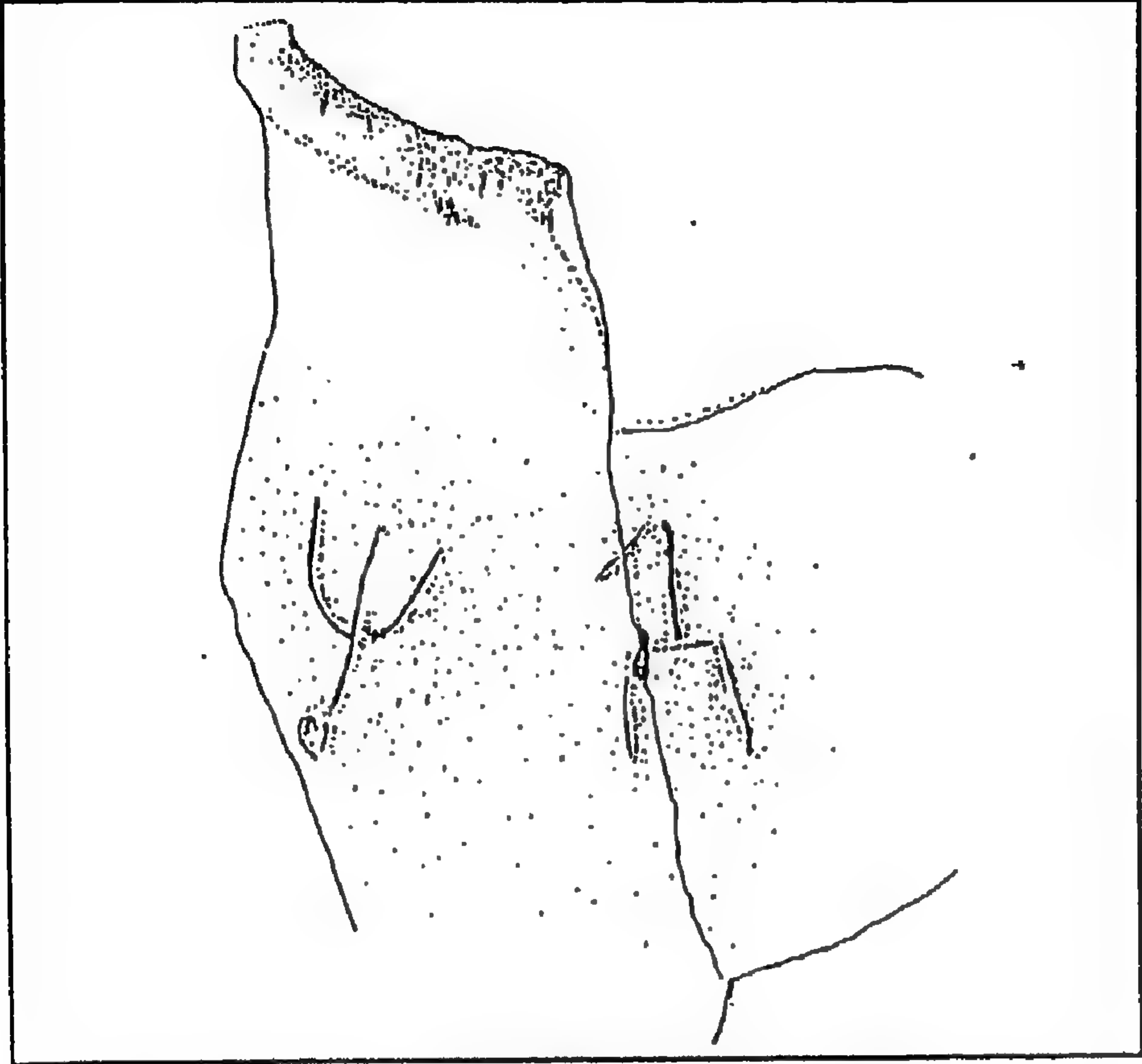
الأبجدية اليونانية

حتى المرحلة

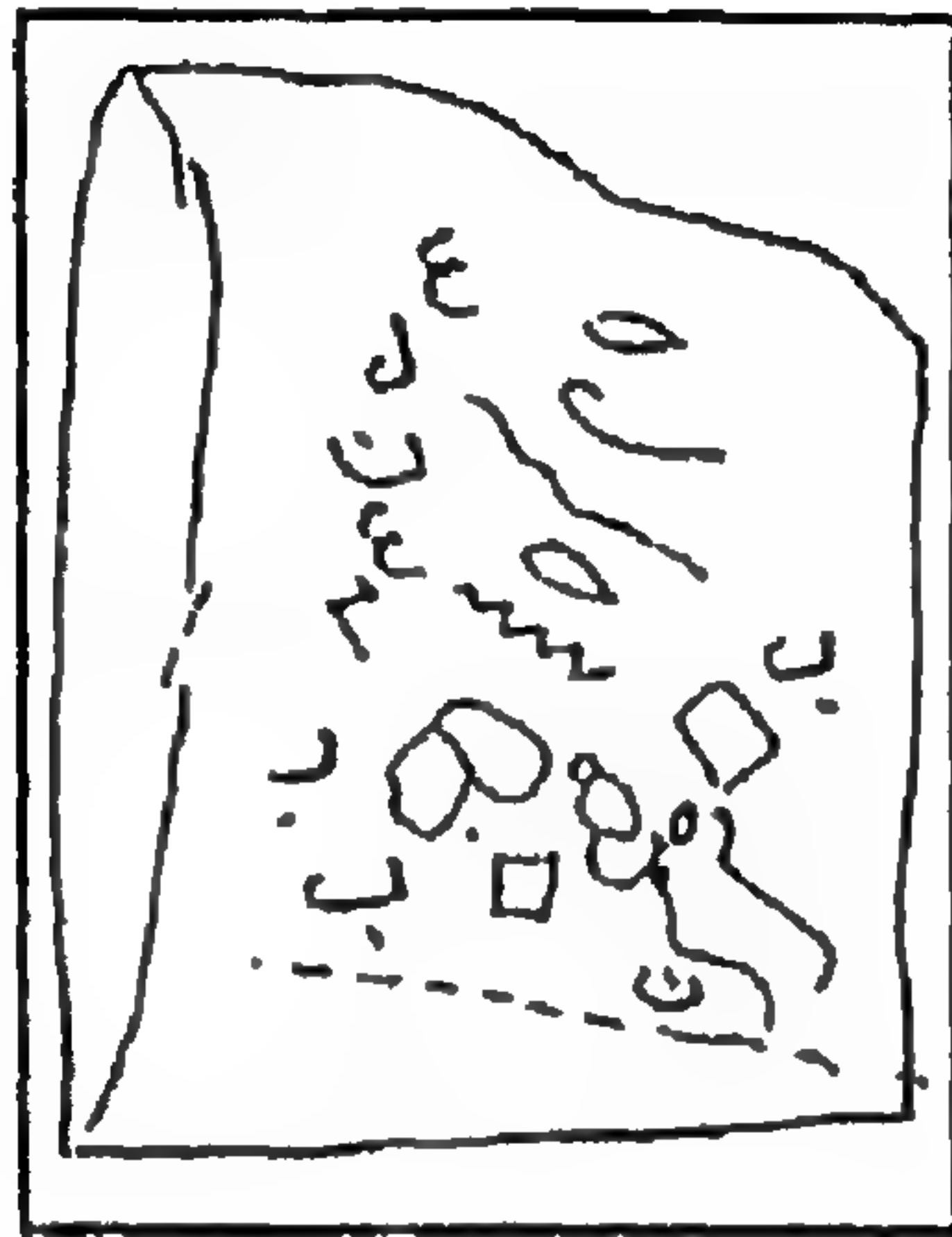
الكلاسيكية.



(شكل ٢٨) مراحل تطور حرف الالف البروتوسينائي إلى حرف الالف العربي الجنوبي (في الخط المسند)
 كما وردت في النقوش المبكرة على منحور اليمن ، وهي من أدلة انتقال الأبجدية البروتوسينائية نحو الجنوب
 واشتقاق الأبجدية السامية الجنوبية منها .



(شكل ٢٩) نقش على بقايا جرة وجدت في تل الخليفة بالقرب من مدينة العقبة ، ويظهر فيه حرفان من حروف الخط المسند المبكر ، وهما حرف الالف إلى اليمين ، وحرف الحاء أو الصاد المقلوب إلى اليسار ، ويدل وجود هذا النقش في هذه المنطقة بالإضافة إلى وجود حروف سينائية مبكرة في شمال اليمن (شكل ٢٨) على أن انتقال السينائية المبكرة إلى اليمن حدث عبر الطريق التجارى البحرى الذى كان يمتد من جنوب اليمن نحو الشمال مارا بالمناطق المحيطة بمدينة العقبة ومنتها في قرعة الغريس عند مدينة غزة في فلسطين .



من أجل
نعمه
(قريبان)
رب
الانصاب
(أو النقب)
(المتقين)
من المعانين
أو الفيروز

(شكل ٣٢) نقش سينائي مبكر يظهر فيه الاتجاه العازوني للكتابة الذي ميز النقوش السبئية المبكرة .

الترجمة	الدلالة الصوتية (النطق)	رقم السطر
لمى عشت (اسم شخص)	ل ح ي / [ع ث ت / و]	١
وهلك امر (اسم شخص)	[هـ ل ك ا م] / ر / ب	٢
أبناء عم مهر	ن / ع [م ع هـ ر / ا]	٣
بي حموم	ب ن / ح ي م	٤
كاهن (الإله) "إيل -	ا ر ح و / ا ل م	٥
مقة (المقة) "والإله ذات	ق هـ / و ذ ت / ح	٦
حميم و (الإله) سامع	م ي م / و س م	٧
ذو ظبية	ع / ذ ظ ب ي ت	٨
و (الإله) "عشر سامع"	و ع ث ت ر / س م	٩
كرسوا	ع / هـ ق ن ي / س	١٠
(الإله) سامع ذو ظبية	م ع / ذ ظ ب ي ت	١١
عم ذوا (اسم شخص)	ا ع م / ذ ر ا / و	١٢
وأولادها	و ل د هـ م ي / و	١٣
وأملأتهما (أو عبيدهم)	ق ن ي هـ م ي / ا	١٤

1 ← 𐤀𐤁𐤁𐤁𐤁𐤁𐤁
 2 → 𐤁𐤁𐤁𐤁𐤁𐤁𐤁
 3 ← 𐤁𐤁𐤁𐤁𐤁𐤁𐤁
 4 → 𐤁𐤁𐤁𐤁𐤁𐤁𐤁
 5 ← 𐤁𐤁𐤁𐤁𐤁𐤁𐤁
 6 → 𐤁𐤁𐤁𐤁𐤁𐤁𐤁
 7 ← 𐤁𐤁𐤁𐤁𐤁𐤁𐤁
 8 → 𐤁𐤁𐤁𐤁𐤁𐤁𐤁
 9 ← 𐤁𐤁𐤁𐤁𐤁𐤁𐤁
 10 → 𐤁𐤁𐤁𐤁𐤁𐤁𐤁
 11 ← 𐤁𐤁𐤁𐤁𐤁𐤁𐤁
 12 → 𐤁𐤁𐤁𐤁𐤁𐤁𐤁
 13 ← 𐤁𐤁𐤁𐤁𐤁𐤁𐤁
 14 → 𐤁𐤁𐤁𐤁𐤁𐤁𐤁

(شكل ٣٣) نموذج لحروف الكتابة السبئية المبكرة (الخط المسند) في نقش محفور على لوحة من لثمر
 محفوظة الآن في متحف قسم التاريخ بكلية الآداب بجدّة ، وقد اتبعت الطريقة الحزنونية في كتابة الأسطر
 (السطر الأول يبدأ من اليمين والثاني من اليسار والثالث من اليمين وهكذا كما تشير الأسهم) . والكتابة
 السبئية المبكرة تشبه في ذلك اتجاهات بعض النقوش البروتوسينائية (شكل ٣١) مما يدل على اشتقاق الخط
 المسند من الخط البروتوسينائي وبجوار النص وضحت قراءته (الدلالة الصوتية أو النطق) وترجمته سطرًا
 سطرًا .

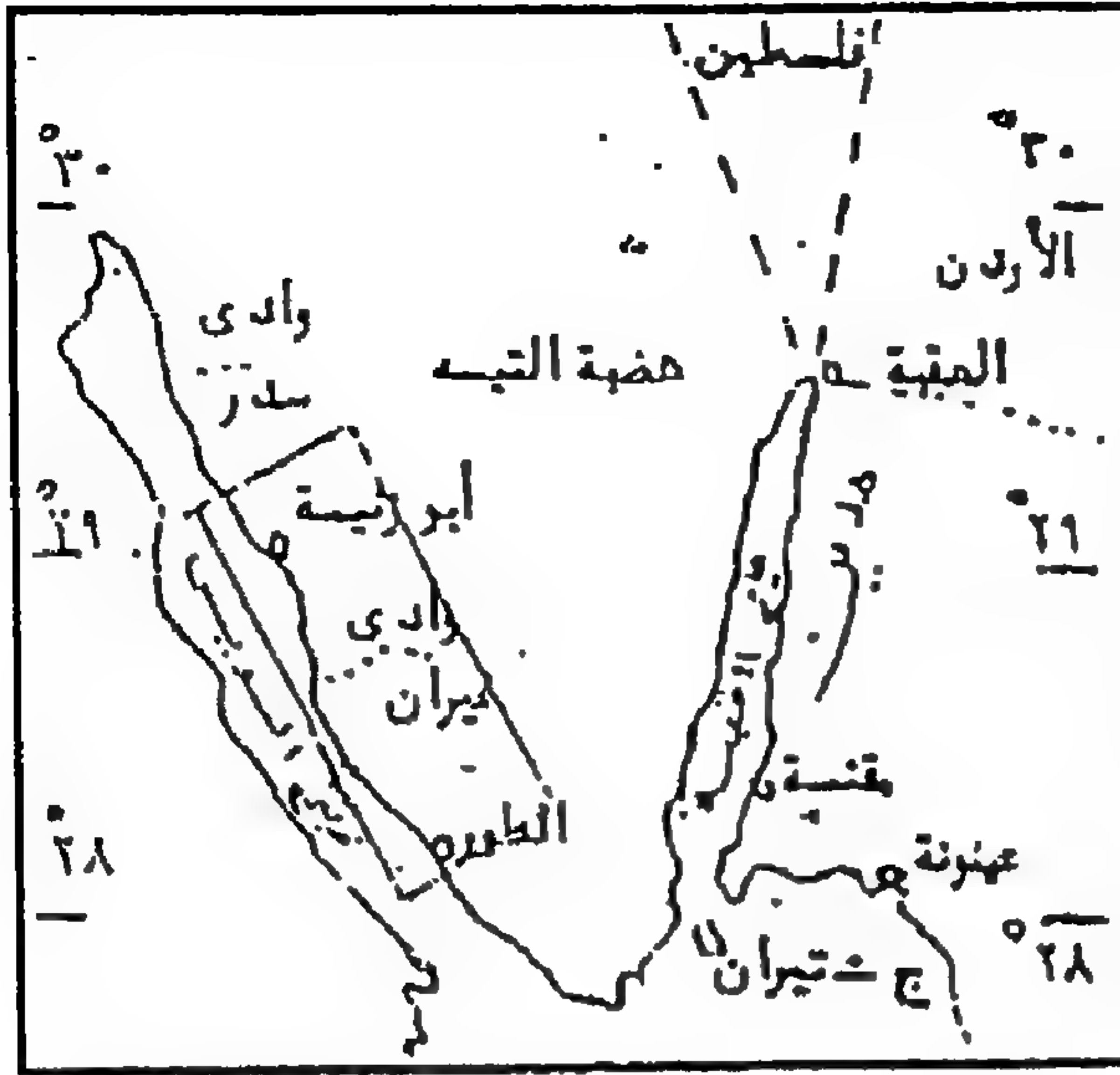
الأبجدية السينائية المبكرة (البروتوسينائية)	الأبجدية السامية الجنوبية المبكرة (الخط المسند)
א	א (Jamme)
ב	ב
ג	ג
ד	ד (Jamme)
ה	ה (Jamme)
ו	ו
ז	ז (used for y)
ח	ח
ט	ט (Jamme)
י	י (orig. w)
כ	כ
ל	ל (Jamme)
מ	מ (tu) מ (du)
נ	נ
ס	ס
ע	ע (Jamme)
פ	פ
צ	צ
ק	ק (Jamme)
ר	ר
ש	ש
ת	ת (Jamme)
י	י

(شكل ٣٤)
جدول يوضح
اشتقاق حروف
الأبجدية
السامية الجنوبية
المبكرة (الخط
المسند) من
الأبجدية
السينائية المبكرة
(البروتوسينائية)

ቀረ	ቀረ	ቀረ	ቀረ	ቀረ
qĩĩĩ	qĩĩĩ	qĩĩĩ	qĩĩĩ	qĩĩĩ
ከረ	ከረ	ከረ	ከረ	ከረ
hĩĩĩ	hĩĩĩ	hĩĩĩ	hĩĩĩ	hĩĩĩ
ከረ	ከረ	ከረ	ከረ	ከረ
kĩĩĩ	kĩĩĩ	kĩĩĩ	kĩĩĩ	kĩĩĩ
ገረ	ገረ	ገረ	ገረ	ገረ
gĩĩĩ	gĩĩĩ	gĩĩĩ	gĩĩĩ	gĩĩĩ

(شكل ٢٨) يوضح طريقة إضافة زيادات إلى شكل الحرف الساكن الواحد في الأبجدية الأثيوبية لتكوين

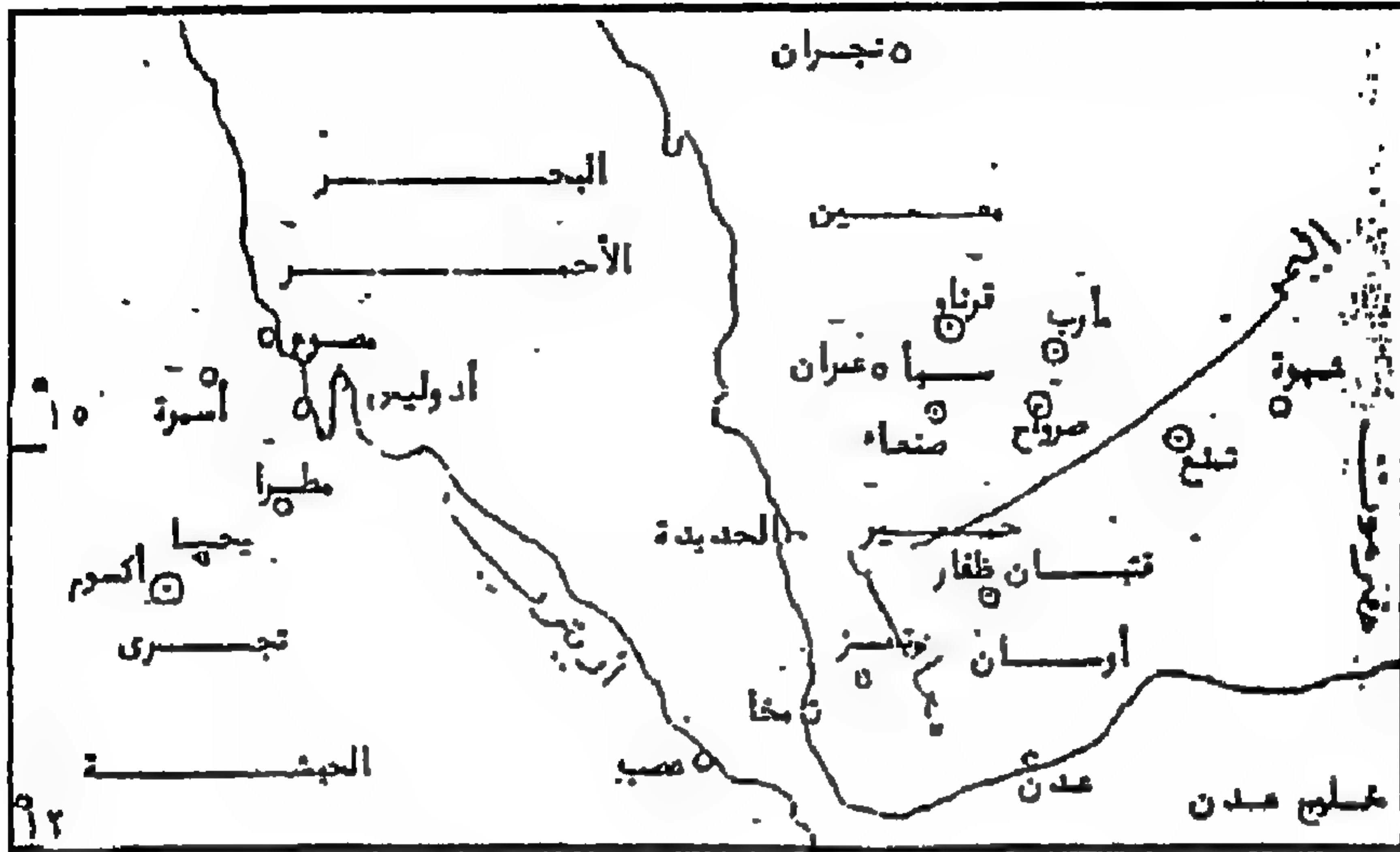
عدة حروف متحركة منه .



(خريطة رقم ١ (أ)) شبه جزيرة سيناء ، والمستعيل الموضح عليها هو المرسوم في خريطة ١ (ب)* ، وهي لتوضيح موقع منطقة سراييط الخادم ، حيث نشأت الأبجدية السينائية المبكرة .



(خريطة رقم ١ ب)



(خريطة رقم ٤) انتشار الأبجدية السبئية في بلاد الحبشة ، والخريطة توضح موقع مدينة مارب عاصمة دولة سبا ومواقع مدينة أكسوم التي أسس فيها السبائيون دولة نقلوا إليها حضارتهم التي لم يتبق منها بمرور القرنين سوى الكتابة (الأبجدية) السبئية التي تطورت إلى الكتابة (الأبجدية) الحبشية القديمة ، ثم إلى الكتابة (الأبجدية) الأثيوبية الجعزية .

– المواقع الموضحة بدائرة داخلها نقطة ① تشير إلى أسماء العواصم القديمة .

دراسة علمية حول مخطوطة الخلفاء الأربعة للإمام إسماعيل بن محمد التيمى

مقدمة

أحمد الله ، وأشهد أن لا إله إلا هو وحده لا شريك له ، وأن محمدا عبده ورسوله ...
وبعد ...

فإن لكتاب " الخلفاء الأربعة " للإمام إسماعيل التيمى أهمية بالغة ، نظرا لتناوله فترة تاريخية لاكتها السنة شتى ، ولعبت الأهواء فيها دورا خطيرا فى توجيه الروايات . ولكن الإمام إسماعيل انتقى روايات هذا الكتاب ودعمها بالأسانيد وفق منهج المحدثين ، الذين ينتمى الإمام إسماعيل إلى مدرستهم .

وقد أبدى اهتماما بالغا فى أن يتبع منهج أهل السنة والجماعة ، فيما وقع بين صحابة الرسول ص من خلافات وفتن ، وأنفرد بمعلومات أتعبنى البحث فى أن أعزوها إلى مصادرها ، منها ما نوه عن مصادرها ، ولكنها فقدت فاحتفظ بها كتاب الخلفاء الأربعة .

والإمام إسماعيل التيمى مؤلف كتاب الخلفاء الأربعة إمام من أئمة المسلمين ، وهو من شيوخ السمعانى صاحب الأنساب ، ومن شيوخ أبى طاهر السلفى ، وأبى موسى المدينى ، وأبى قاسم بن عساكر صاحب " تاريخ دمشق " المشهور " بتاريخ ابن عساكر " .

وقد تناولت في هذا البحث عصر الإمام إسماعيل التيمي وما اشتمل عليه من دراسة الحياة السياسية والحياة الاجتماعية والحياة العلمية .

وتناولت شخصية الإمام إسماعيل التيمي وكيفية طلبه للعلم والشيوخ الذين علموه ، وذكر التلاميذ الذين تعلموا على يديه ، كما تناولت ثقافته المتنوعة ، وتناولت أيضا مؤلفاته العلمية في شتى المجالات ثم ختمت بوفاته .

وقمت بدراسة المخطوطة " الخلفاء الأربعة " وما اشتملت عليه من تسمية الكتاب وصحة نسبته إلى الإمام إسماعيل التيمي ، والمنهج الذي سلكه في كتابته ، ومصادره التي استقى منها مادته العلمية .

كذلك عالجت أهمية الكتاب بسبب تعرضه لفترة الفتنة المعروفة ، وتناولها بطريقة بعيدة عن الاتهامات ، قربية كل القرب من منهج أهل السنة والجماعة في أحداث تلك الفترة ، واحتوائه على نصوص من كتاب السنة للقاسم ابن محمد الذي فقد . ثم تناولت وصفا للمخطوطة المعتمدة في التحقيق وصفا دقيقا كنسخة فريدة ليس لها نسخة أخرى تقويها أو تعضدها .

عصر المؤلف

الحياة السياسية :

عاش الإمام إسماعيل الأصبهاني ما بين عام ٤٥٧ هـ وعام ٥٣٥ هـ ، وقضى أكثر أيامه في إيران ، وتوفي بها ، وكانت تلك الفترة في ظل الخلافة العباسية ، وتحت سيطرة الدولة السلجوقية ، التي بسطت نفوذها على إيران موطن الإمام إسماعيل ، وكان مؤسسها القائد "سلجوق بن تلق" ، ظهرت محاولة السلاجقة نتيجة الفرار من الموت على يد ملك الترك "بيغو" (١) أو أنها ظهرت نتيجة هجرتهم من تركستان إلى ما وراء النهر بسبب ازدحام ديارهم وضيق مراعيهم (٢) .

اعتنق السلاجقة الإسلام بحماس بالغ ، ملك منهم قرارة النفوس والأرواح ، واجتاحوا بجموعهم الكثيفة إيران والجزيرة وسوريا وآسيا الصغرى ، واستطاعوا بذلك أن يوحّدوا البلاد الإسلامية الآسيوية ، وأن يجعلوها تحت حكم واحد ، ودفعوا البيزنطيين إلى ما وراء حدودهم ، وأنشأوا جيلا من المحاربين المخلصين (٣) . وكان هدفهم إنقاذ الدولة العباسية ، رجاء أن

يدركوها فى ساعاتها الأخيرة ، فصح رجائهم ، واستطاعوا أن يوحنوها مرة ثانية تحت حكم واحد بدلاً من مجموعة النويات المشتتة المبعثرة(٤) .

بعد تولى " ألب أرسلان " أمر السلاجقة بعامين كان ميلاد الإمام الحافظ إسماعيل بن محمد الأصبهاني ، وذلك فى عزة وقوة سلطان الدولة السلجوقية ، وسيرتهم فى الناس حسنة ، وكان ألب أرسلان شغوفا بالرعية باراً بأهله كثير الصدقات(٥) . حتى ليقال أنه كان يوزع على الفقراء فى نهاية شهر رمضان كثيراً من المال ، وكان محباً لدراسة التاريخ ، يستمع فى شغف ومتعة إلى ما يقرأ له من سير الملوك الغابرين ، وإلى الكتب التى تكشف الغامض من أخلاقهم وقوانينهم وأساليب إدارتهم(٦) .

لقد نشأ الإمام إسماعيل الأصبهاني فى بيئة زخوت بالعلم والعلماء ، تحت قيادة السلطان ألب أرسلان ، الذى هيا الجو السياسى الذى خدم الدولة من الداخل وخاصة العلم والعلماء ، حيث أمر وزيره نظام الملك أن يبنى أماكن للعلماء ، وأعطاهم النفقات الكافية لهم ، ليتفرغوا لطلب العلم(٧) .

كما كان الوزير نظام الملك يكرم الأدباء ، ويقرب الفضلاء والعلماء ، ولا يضمن ببذل جهوده فى نشر الدين والتعليم ، وتأسيسه للمدرسة النظامية الشهيرة ببغداد ، وقد ضمت كثيراً من الأساتذة والمدرسين(٨) .

وكما اهتم السلطان " ألب أرسلان " بالسياسة الداخلية للدولة فقد اهتم أيضاً بالسياسة الخارجية . فاستطاع بسياسته الاستيلاء على فارس سنة ٤٥٩ هـ(٩) . ثم توجه إلى "كرمان" ومنها إلى " مرو " بعد أن استوثق من رسوخ حكم السلاجقة فى إيران والعراق ، وظل مشغولاً بتحقيق الأهداف السياسية .

ثم سار لغزو ملك الروم " رومانوس " الذى أراد غزو بلاد الشام فالتقى به ألب أرسلان فى " ملاذكرد " سنة ٤٦٤ هـ وتمكن السلطان ألب أرسلان بجيشه أن يتغلب على " رومانوس " ووقع أسيراً فى يد جنود السلطان ألب أرسلان(١٠) . ولكن السلطان أطلق سراح الإمبراطور " رومانوس " لقاء فدية كبيرة وعقد معه معاهدة تسرى شروطها مدة خمسين عاماً(١١) .

وتولى أمر الدولة السلجوقية السلطان ملكشاه وأقر الوزير نظام الملك على الوزارة(١٢) . ثم صرف أمره إلى توسعة رقعة الدولة السلجوقية ، وإصلاح الشئون الداخلية والخارجية ، وجعل نظام الملك ساعده الأيمن ، يدبر له الأمور ، وإذا تيسر له شئ من فراغ الوقت قضاه فى

الإشراف على المدارس الكثيرة التي بناها في بغداد وأصفهان ، مستمعا إلى حديث الصفوة من العلماء والفضلاء ، أو مشغلا بآلئف رسالته الكبيرة عن تاريخ الحكم وفن الحكومة^(١٣). هذه الأمور تكشف لنا أن عصر السلطان ملكشاه عصر رواج للعلم والعلماء ، رواج للعلوم المذهبية والأدبية بخاصة ، وعصر انطلاق للحركة المدرسية في الإسلام ، وكانت طبيعة الظروف السياسية العامة وقتئذ تتطلب تلك السياسة التعليمية . وقد ساعد كل هذا على تهيئة الظروف الملائمة لمثل الإمام إسماعيل وغيره من العلماء ، لكي يصل إلى المرتبة العلمية التي توصل إليها ، فقام بأصفهان أكثر من ثلاثين سنة قبل الخمسمائة يعلم الناس فنون العلم^(١٤).

كانت سيرة السلطان ملكشاه العدل ، وسيرته الإنصاف والفضل ، ولم يتوجه إلى إقليم إلا فتحه ، ولما توجه إلى " الشام " و " إنطاكية " بلغ إلى حد " قسطنطينية " ووضع في النواحي التي فتحها من الروم خمسين منبرا إسلاميا ، وعاد إلى " الري " وقصد فتح " سمرقند " ولم تزد مدة هذه الأعمال على شهرين^(١٥) .

وبسط السلطان ملكشاه نفوذ السلاجقة على هذا الإقليم ، ثم لم يلبث أن خضع له والى " كشغر " فامتد نفوذ السلاجقة شرقا كما امتد غربا^(١٦) .

وفي عام ٤٨٢ هـ هاجم السلطان ملكشاه " بخارى " حتى ضمها إليه ثم حاصر " سمرقند " واستولى عليها بعد قليل ، ثم ألحق بها مدينة " أوردجند أو أوزكند " ^(١٧) . وأصبحت الدولة السلجوقية في عهد السلطان ملكشاه ووزيره نظام الملك مصدر رعب ، يهدد العالم المسيحي ويخيفه ، بسبب ما احتلت دولته من الاتساع ، من أقصى بلاد الترك ، إلى أقصى بلاد اليمن وراسله الملوك من سائر البلاد والأقطار حتى ملوك الروم والخزر واللاق ، وكانت دولته صارمة^(١٨).

ثم لم يلبث السلطان ملكشاه أن توفي في شوال من عام ٤٨٥ هـ ، ومن قبله بشهر وأيام قتل نظام الملك على يد أحد أتباع الحسن بن الصباح .

وخلف السلطان ملكشاه من الأولاد " بركيارق ومحمد وسنجر ومحمود " وهو أصغرهم^(١٩). وبدأ التنافس على النفوذ والسلطان بعد موت ملكشاه ، مما أدى إلى الصراع المسلح ، وإحراز النصر ، ووقوع الهزيمة بينهم ، مما أدى إلى التفكك والضعف ، وتقسيمها إلى دويلات ، حتى تولى السلطان سنجر بن ملكشاه السلطة في عام ٥١٣ هـ ، واعترف به الخليفة العباسي سلطانا على السلاجقة ، وأصبح بلا منازع ، له الكلمة العليا ، وبسط نفوذه

على أكثر أجزاء إيران والعراق ، وصارت تضرب له السكة في أقاليم ما وراء النهر ، وخراسان وطبرستان ، وكرمان وسجستان ، وأصفهان وهمدان والري وأذربيجان وأرمينية وبغداد ، والموصل وديار بكر وديار ربيعة والشام والحرمين^(٢٠) . وامتاز عصر السلطان " سنجر " من ناحيته الأدبية والعلمية بكثير من البهاء ، الذي امتاز به عصر السلطان ألب أرسلان وملكشاه ، فقد ازداد عدد الأدباء الإيرانيين من كتاب النثر والشعر ، وتم خلاله تأليف عدد من أمهات الكتب العربية التي أخرجتها إيران^(٢١) . مما أعطى انطبعا عن أن النصف الأخير من حياة الإمام إسماعيل الأصبهاني لم يحرم من اهتمام السلطان " سنجر " بالعلم والعلماء ، مما ساعد على وجود الحركة العلمية الدائبة عند الإمام إسماعيل في التأليف ، وإملاء المجالس ، وعقد مجالس الفتوى . وقد ألف الإمام إسماعيل كتابه " سير السلف " في عصر السلطان سنجر كما جاء بنسخة الكتاب الموجودة بمكتبة نواب سيد محمد علي حسن خان بندوق العلماء بلكنو - الهند بالورقة الثانية أنه أملاه يوم الثلاثاء السابع من شوال سنة إحدى وعشرين وخمسمائة .

الحياة الاجتماعية :

اتسم عصر السلاجقة بعدم الاستقرار ، وذلك قبل مولد الإمام إسماعيل الأصبهاني ، وذلك في بادئ أمرهم ، فقد غلب عليهم طابع التنقل والارتحال ، وذلك قبل سيطرتهم على إيران ، وما جاورهم من البلاد الإسلامية . ولما أصبحت في أيديهم مقاليد الأمور تركوا أثارا واضحة في الحياة الاجتماعية ، ففي عهد السلاطين الأوائل " طغرل بك " و " ألب أرسلان " و " ملكشاه " استقرت الأوضاع إلى حد ما ، وبعدها حدث الاضطراب بين الأخوين " بركيارق ومحمد " ولدى " ملكشاه " نزاعا على العرش ، وبعدها جاء عهد السلطان " سنجر " وحمل معه بعض الاستقرار حتى وفاة الإمام إسماعيل الأصبهاني ، في سنة ٥٢٥ هـ . ونظرا لحاجة السلاجقة إلى إقامة دولة على أسس قوية ، احتاجوا إلى كثير من الموظفين للاستعانة بهم في مختلف شئون الدولة فعملوا على تشجيع الصناع والإكثار من اختيار الموظفين ، وحفلت كل مدينة بعدد من الفئات أو الطوائف كطائفة العظماء ، وطائفة الصناع وطائفة الموظفين ، وطائفة التجار ، وطائفة أبناء القبائل السلجوقية^(٢٢) .

لقد ساعدت الحياة الاجتماعية في إيران على نشر العلم وإخراج العلماء ، وسار نظام سيرة حسنة عادلة ، فأسقط المكوس والضرائب وأزال لعن الأشاعرة من المناابر^(٢٣) ، وشجع

على تعمير المدن وإصلاح البلاد وشيد كثيرا من المساجد والمدارس^(٢٤) . وكان السلطان ألب أرسلان يجلب العلماء ويأخذ برأيهم ، وصار إحسان السلطان ملكشاه بين أهل العلم ميراثا يأخذونه بقدر الفرائض ويؤمنون به من النوائب والعوارض^(٢٥) . وكان للسلطان ألب أرسلان إمام وفقيه ، لا يقطع أمرا بغير رأيه^(٢٦) .

ازدهرت الحياة الاجتماعية بفضل سياسة الوزير نظام الملك ، لأنه أوصى حكام الأقاليم بالعدل بين أفراد الرعية ، وعدم إرهابهم بالضرائب والامتناع عن أخذها من المعسر^(٢٧) . وكان يطمئن بنفسه على الضعفاء والعجزة والفتوى ، وأقام كثيرا من مؤسسات البر والخير في بغداد وأصفهان ، وسائر أقطار وأطراف البلاد ، وأوقف على هذه المؤسسات الخيرية مزارع وضياعا عامرة وأسواقا ومستلزمات نافعة^(٢٨) .

الحياة العلمية :

أحاط حكام السلاجقة أنفسهم بطائفة من العلماء ، وشجعوا المشتغلين بالعلم ، وأجزلوا لهم المكافآت ، وأكثروا لهم من بناء المدارس وخزائن الكتب الملحقة بها ، ومساكن الطلبة ، ووقفوا عليها الأوقاف الكبيرة ومن وجد في بلدة قد تميز وتبحر في العلم ، بنى له نظام الملك مدرسة ، ووقف عليها وقفا ، وجعل فيها دار كتب^(٢٩) .

وكان السلطان ألب أرسلان وملكشاه والوزير نظام الملك يجالسون العلماء ، ويتفقون عليهم الأموال ، وقد اتخذوا منهم الفقهاء والأئمة ، كالسلطان ألب أرسلان جعل له إماما وفقيها هو محمد بن عبد الملك البخاري الحنفي^(٣٠) . كما كانوا يحيون مجالسة العلماء وكان نظام الملك ملجأ العلماء ، فمن رأى الانتفاع بعلمه أغناه ورتب له ما يكفيه حتى ينقطع إلى إفادة العلم ونشره ، وتدريس الفضل وذكره ، وربما سيره إلى إقليم خال من العلم ليحلى به عاطله ، ويحيى به حقه ويميت باطله^(٣١) .

وفي القرن السادس الذي أدرك نصفه الأول إسماعيل الأصبهاني قد تزايد الاهتمام بالمدارس وإنشائها ، التي تسيبت في رواج اللغة العربية ، وخدمة الدين ، ونشر العلوم الدينية وكان على الدارسين قراءة الكتب التي تتناول مجال العلوم الدينية بشتى فروعها ، مما يتطلب منهم إطلاعا كافيا في ميدان اللغة والأدب ، مما أدى ذلك إلى ازدياد معرفة الدارسين باللغة العربية ، فقويت وقوى أدبها وعظم أثرها ونفوذها في الأدب الفارسي^(٣٢) .

فقد كانت مدارس السنة تفوق مدارس الشيعة بمراحل ، وكانت كل مجموعة منها وقفا على فرقة خاصة كالشافعية أو الحنفية وأمثالها ، فكانت المدارس النظامية من أهم مدارس أهل السنة في عهد السلاجقة ، وعين نظام الملك راتبا ثابتا للطلاب^(٣٣) . وأوقف الأموال الكثيرة لتغطية رواتبهم ورواتب الفقهاء^(٣٤) . وأنفق على المباني بسخاء^(٣٥) . وامتت المدارس النظامية ببغداد ونيسابور والبصرة ، وأصفهان وبلخ وهراة ويزد والموصل^(٣٦) . ولهذه البلاد في أمر هذه المدارس شرف عظيم وفخر مخلص^(٣٧) .

ولقد كان عصر الإمام إسماعيل الأصفهاني عصر رواج للعلوم المذهبية والأدبية ، وعصر انطلاق للحركة المدرسية في الإسلام ، وكانت بطبيعة الظروف السياسية العامة وقتئذ تتطلب تلك السياسة التعليمية ، كما أن التعليم في هذه المدارس كان امتدادا لحركة التعليم في المساجد ، فقد استمرت المساجد في أداء وظيفتها التعليمية في العصر السلجوقي . وأملى الإمام إسماعيل في مسجد أصفهان ما يقرب من ثلاثة آلاف مجلس علم^(٣٨) . وكان يحضر مجلس إمامته الأئمة الحفاظ والمسننون^(٣٩) .

وقد تأثرت طائفة السلطان وأعوانه من الوزراء بهذا الرقي العلمي ، فكان السلطان ألب أرسلان كثيرا ما يقرأ عليه تواريخ الملوك وأدابهم وأحكام الشريعة^(٤٠) . وأملى نظام الملك الحديث ببغداد وخراسان وغيرهما^(٤١) .

كما كان للسلطان محمود بن محمد بن ملكشاه ت ٥٢٥ هـ معرفة بالشعر والنحو والتاريخ وكان قوى المعرفة بالعربية ، حافظا للأشعار والأمثال ، عارفا بالتواريخ والسير ، شديد الميل إلى أهل العلم والخير^(٤٢) .

وفي ظل هذه الحركة التعليمية النشطة ترعرع العلم ، ووجد طائفة من جهابذة العلماء من الرجال والنساء . استفاد منهم الإمام إسماعيل ، وتكونت شخصيته المتميزة الجامعة بين الحديث والفقه والتفسير واللغة ، كما أفادته هذه الحركة العلمية في نشر علمه ، واستفاد الناس منه ، ومما يعطى أيضا عصر الإمام إسماعيل الأصفهاني صفة الحركة التعليمية النشطة ظهور المؤلفات العلمية في شتى العلوم ، فكان للإمام إسماعيل نصيب طيب في هذه المؤلفات فآلف في الحديث والتفسير والتوحيد والتاريخ والسير ، وقد راجت العلوم الشرعية والعلوم العقلية في عصر الإمام إسماعيل ، مما كان لها أكبر الأثر في حياته العلمية ، وقد شارك فيها وأسهم بمؤلفات كثيرة ، فكان صاحب المصنفات الحسنة في العلوم الشرعية^(٤٣) .

حياة المؤلف

شخصية الإمام إسماعيل

هو الإمام الحافظ قوام السنة أبو القاسم إسماعيل بن محمد بن الفضل بن علي التيمي^(٤٤)، ثم الطلحي^(٤٥) الأصبهاني المتوفى سنة خمسمائة وخمس وثلاثين من الهجرة النبوية^(٤٦)، ويلقب بألقاب متعددة، فيلقب بقوام السنة وقوام الدين والجوزي.

كانت مدينة أصفهان مسقط رأس الإمام إسماعيل، وقد نسب إليها في تاسع شوال سنة سبع وخمسين وأربع مائة من الهجرة النبوية^(٤٧).

نشأ الإمام إسماعيل في بيئة علمية، ودرج في بيت علم يتسم أهله بالصلاح والورع، وقد حمل القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، وسمع العلم وحرص عليه وعلى مجالسه، وكان أبوه قد أرسله بعد أن ترعرع لسماع الحديث الشريف من العائمة الواقعة المسندة أم الفتح عائشة الوركانية ت ٤٤٦ هـ قال عنها الإمام إسماعيل: وهي أول من سمعت منه الحديث، فبعثني أبي إليها وكانت زاهدة^(٤٨).

طلبه للعلم:

بدأ الإمام إسماعيل سماع العلم وهو صبي فقال عن نفسه: "سمعت من عائشة الوركانية"^(٤٩) وأنا ابن أربع سنين^(٥٠). وكان والده من العلماء الحاملين كتاب الله، ولقد عرف بالصلاح والورع والزهد والأمانة.

وقال الإمام الذهبي: وأقدم سماع الإمام إسماعيل من محمد بن عمر الطهراني صاحب ابن منده في سنة سبع وستين وأربعمائة وهو ابن عشر سنين^(٥١).

نشأ الإمام إسماعيل في بيت علم ونشأ على العلم والتعلم، وقراءة القرآن وسماع الحديث وتعلم الفقه والتفسير والسير واللغة والأدب، عارفاً بالمتون والأسانيد^(٥٢). فقد شُبَّ على العلم واجتهد فيه حملاً وأداء حتى توفاه الله.

مضى الإمام إسماعيل على سنن المحدثين من قبله فرحل في طلب العلم ولم يكتف بالأخذ عن الشيوخ بأصفهان، بل كانت له رحلات كثيرة إلى بغداد ونيسابور، ثم عاد إلى بغداد مرة أخرى، والري وقزوين ومكة، وعاد إلى أصفهان حتى آخر عمره^(٥٣)، مشغلاً بالتحديث والإملاء والتصنيف والعبادة^(٥٤).

شيوخه :

أكثر الإمام إسماعيل من الشيوخ الذين سمع منهم ، وأخذ عنهم سواء كان ذلك ببلده أصبهان أم البلدان الأخرى التي رحل إليها وأخذ عن علمائها ، وكان لمشيخته الأولى أثر في توجيهه هذه الوجهة في تلقى الحديث والتصدي لدراسته وحفظه . وقد زاد عدد شيوخه الذين حصلت لهم على ترجمة تزيد على السبعين شيخا ، أذكر منهم عددا على سبيل المثال وليس الحصر ، مثل :

إبراهيم بن محمد بن إبراهيم الأصبهاني ت ٤٨١ هـ ، وأحمد بن الحسن ابن أحمد البغدادي المقرئ ت ٤٨٨ هـ ، وأحمد بن عبد الرحمن الهمداني الزكواني ت ٤٨٤ هـ ، وأحمد بن الحسن الطريثي ت ٤٩٧ هـ ، وأحمد بن علي بن عبد الله بن عمر بن خلف الشيرازي مسند وقته ت ٤٨٧ هـ ، وأحمد بن عبد الله بن عمر الأسواري ت ٤٩٦ هـ ، وأسعد بن مسعود بن علي العتبي النيسابوري ت ٤٩٤ هـ ، وجعفر بن يحيى بن إبراهيم التميمي المكي ابن الحكاك ت ٤٨٥ هـ ، والحسن بن أحمد بن محمد السمرقندي ت ٤٩١ هـ ، وعبد الله بن يوسف الجرجاني ت ٤٨٩ هـ ، وعبد الواحد بن إسماعيل بن أحمد بن محمد الروياني الطبري ت ٥٠١ هـ ، وعلي بن محمد بن شعيب الشيباني الأنباري ت ٤٧٨ هـ ، ومحمد بن إبراهيم ابن علي بن أحمد القزويني ، ومحمد بن أحمد بن عبد الباقي الربيعي الموصلی ت ٤٩٤ هـ^(٥٥) ، كما كان يحضر مجلس نظام الملك الحسن بن علي بن الوزير^(٥٦) . إن إحصاء شيوخ الإمام إسماعيل والحديث عنهم يحتاج إلى استقصاء واسع ، لأنهم من الكثرة بمكان ، وقد اكتفيت بما ذكرت .

تلامذته :

إن اشتغال الإمام إسماعيل بالعلم تحديثا وإملاء ، جعل له بالضرورة تلامذة كثيرة ، من أهم هؤلاء التلاميذ :

أبو طاهر السلفي أحمد بن محمد بن إبراهيم الأصبهاني ت ٥١٦ هـ ، والحسن بن أحمد الهمداني المقرئ ت ٥٦٩ هـ ، وعبد الكريم بن محمد بن منصور المروزي ت ٥٦٢ هـ ، وأبو موسى المديني محمد بن أبي بكر ت ٥٨١ هـ ، وهشام بن عبد الرحيم البغدادي ت ٦٠٦ هـ ، ويحيى بن محمود بن سعد الثقفي ت ٥٨٤ هـ^(٥٧) ، وغيرهم كثير .

كان الإمام إسماعيل عميق الثقافة ، متسع المدارك ، خاليا من الشواغل والأفات فأكثر من الكتابة والتصنيف ، وتطالعنا كتب التراجم والسير بأخبار عن العلوم التي تبحر فيها ، وعن الثقافات التي عرف بها ، فهو عالم بالقراءات والتفسير والحديث والتوحيد والأدب واللغة والنحو والتاريخ والسير والأنساب ، فكان إماما في التفسير واللغة ، وصنف في التفسير والإعراب كتباً بالعربية والفارسية^(٥٨) . وكان فاضلا في معرفة الرجال ، حافظا للحديث ، عارفا بكل علم من علومه ، وتكلم في الجرح والتعديل^(٥٩) .

وصنف في علم التوحيد لكي يبين اعتقاد السلف وأهل السنة ، وجمع دلائل التوحيد ومعرفة الله عز وجل على طريقة السلف الصالح^(٦٠) .

وكان الإمام إسماعيل إماما في اللغة والأدب ، فاضلا في العربية ، ألف كتابا في إعراب القرآن^(٦١) . والمتتبع لمصنفاته التاريخية يجد أنه ضرب بسهم كبير في علم التاريخ والسير والأنساب ، فقد أملى كتابه الضخم " سير السلف " بالمسجد الجامع . مما يعطينا فكرة واضحة عن الإمام إسماعيل أنه كان موسوعة علمية .

أما إذا أردت أن أتحدث عن مهنة الإمام إسماعيل ، فإتني أجد فيه مثال العالم العامل الدؤوب الجاد في تحصيل العلم ، الحريص على جمعه وتطبيقه في المسائل الدينية لاسيما ما يتعلق منها بالأمور الاعتقادية ، ولم أجد بين صفحات كتب التراجم من ذكر له مهنة يمتنها غير العلم والتعلم واشتغاله بهما فله من العلماء الذين لهم ضيعات يأكلون منها ، أو ممن فرض لهم راتبا ، أو مما أوقفت عليه بعض الأوقاف .

لقد نال الإمام إسماعيل مكانة عظيمة بين علماء عصره ، حيث قالوا عنه : " ليس في وقتنا مثله " ^(٦٢) وهو إمام أئمة وقته وأستاذ عصره وقوة أهل السنة في زمانه ، وهو المبعوث على رأس المائة الخامسة^(٦٣) . وكان يعلو على البديهة في مجالس علمه^(٦٤) .

ولقد كان للإمام إسماعيل دور مشرف بوقوفه بجانب طلبة العلم ، فقد أخلى دارا من ملكه لأهل العلم^(٦٥) ، كما كان له مجلس علم في داره بأصبهان ، وكان ممن يضرب به المثل في الصلاح والودع^(٦٦) .

لقد اشتهر بكلامه ومواقفه واعتقاده ، فنقل عنه السمعاني (٦٧) ، والحافظ ابن عساكر في "تاريخ دمشق" (٦٨) ، وابن نقطة في "كتاب التقييد" (٦٩) ، وابن المستوفى في كتاب "تاريخ أربيل" (٧٠) ، والحافظ الذهبي في كتابه "تذكرة الحفاظ" (٧١) ، وكتابه "مختصر العلو" الذي اختصره الألباني (٧٢) والإمام ابن القيم الجوزية في كتابه "اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعتلة والجهمية" (٧٣) .

فقد كانت عقيدته هي عقيدة أهل السنة والجماعة ، عقيدة سلفية بعيدة كل البعد عن علم الجدل والكلام والتأويل ، فكان حسن الاعتقاد جميل الطريقة ، قليل الكلام (٧٤) ، قسوة أهل السنة في زمانه (٧٥) .

مؤلفاته :

كان الإمام إسماعيل من الموفقين في التأليف والتصنيف لعمق ثقافته وسعة مداركه ، فكان ثمار ثقافته كتباً جياداً اشغلت بتصنيفها ، وأكثر كتبه في التفسير والتاريخ ، مشاركاً في علوم القرآن والحديث ، وبجانبها كانت له الأمالى الكثيرة (٧٦) .

التفسير :

- ١- كتاب "الإيضاح في التفسير" أربعة مجلدات مخطوط لم يعرف مكانه (٧٧) .
- ٢- التفسير باللسان الأصهباني ويسمى "الموضح في التفسير" ثلاثة مجلدات لم يعرف مكانه (٧٨) .
- ٣- "الجامع في التفسير" ثلاثون مجلداً مخطوط لم يعرف مكانه (٧٩) .
- ٤- "المعتمد في التفسير" عشر مجلدات مخطوط يوجد منه نسخة بمكتبة "كوبرلي باستانبول" تحت رقم (٢١٣)(٨٠) .
- ٥- "إعراب القرآن" مخطوط ذكره كثير من أصحاب التراجم وهو مفقود (٨١) .

التاريخ :

- ١- "دلائل النبوة" مخطوط بالمكتبة السعيدية بحيدر أباد الدكن (٨٢) . توجد نسخة بمعهد المخطوطات العربية تحت رقم (١٦٢٣ تاريخ) .

- ٢- " سير السلف " وقد تم تحقيقه بمعرفة دار الراية بالسعودية (٨٣) .
- ٣- كتاب " المبعث والمغازي " وهو مجلد كبير (٨٤) ، وبه الجزء الذي يحتوى على " الخلفاء الأربعة " الذي نحن بصدد الدراسة عنه ويشغل الربع الأخير من الكتاب ، وهو بمكتبة (كوبرلى) باستانبول ، ومنه نسخة بمعهد المخطوطات العربية (٧٧٢) تاريخ .

الحديث :

- ١- شرح الجامع الصحيح للإمام البخارى ، مخطوط وهو مفقود (٨٥) .
- ٢- شرح الجامع الصحيح للإمام مسلم مخطوط وهو مفقود (٨٦) .

التوحيد :

- ١- " الحُجَّةُ فى بيان المَحْجَّة " (٨٧) مخطوط بمكتبة " لاله لى " باستانبول ، وقد طبع مؤخرًا بالمملكة العربية السعودية . ومنه ثلاث نسخ بمعهد المخطوطات العربية (٧٥ ، ٧٦ ، ٧٧ توحيد) .
- ٢- " كتاب السنة " (٨٨) ويرجع أنه هو كتاب الحجة فى بيان المحجة السابق الذكر .

الوعظ والإرشاد :

- ١- " الترغيب والترهيب " ، مخطوط بمكتبة المدينة المنورة (٨٩) . وقد طبع مؤخرًا بالمملكة العربية السعودية .
- ٢- " كتاب التذكرة " نحو ثلاثين جزءا (٩٠) ، يوجد منه فصول مستخرجة فى مكتبة (أوغلو) تحت رقم (٨٤٧) ومنه نسخة بمعهد المخطوطات العربية (٩١) .

الأمالى :

- له " الأمالى فى الحديث " جزء منها مجموع (٤١) (ق ٢٤-٣٧) وجزء آخر (ق ١-٨) بدار الكتب الظاهرية (٩٢) .

وله أحاديث مسلسلات مجموع ٣٤ (ق ١٤٦-١٥٠) (٩٣) .

وله " العوالى الموافقات " نسخة ناقصة من آخرها مجموع ١٠٥ (ق ١١٦-١٣٣) (٩٤) .

بعد البحث عن مصنفات الإمام الأصبهاني ومعرفة أماكن بعضها والظن في فقدان البعض الآخر كانت له الأمالى والمجالس التى انتشر فيها علمه ، كالمجالس التى أملاها فى جامع أصبهان قريبا من ثلاث آلاف مجلس ، على حد قول تلميذه أبى موسى المدينى (٩٥) ، وتلميذه أبى سعد السمعانى (٩٦) ، الذى قال عنه : " ما فاتنى من أماليه شئ ، وكان يعلى على فى كل أسبوع يوما مجلسا خاصا فى داره ، وأقرأ فى كل أسبوع يومين " (٩٧) .

وفاته :

قضى الإمام إسماعيل (رحمه الله) حياته فى أجل وأسمى وظيفة ، فظل طيلة عمره بين التعلم والتعليم والتصنيف ، فى خدمة الكتاب والسنة والدفاع عنهما قولاً وعملاً ، حتى وافاه الأجل ، ليبقى حياً بيننا بما تركه من مصنفات وإملايات ومجالس علم كتبت عنه .
توفى الإمام إسماعيل وله من العمر ثمان وسبعون سنة (٩٨) ، فى عشرة ذى الحجة من سنة خمس وثلاثين وخمسمائة ، يوم عيد الأضحى بأصبهان (٩٩) ، وذهب إلى هذا القول تلاميذه الذين سمعوا منه وأدركوه وحضروا جنازته كالإمام أبى سعد السمعانى ، وأبى موسى المدينى (١٠٠) .

دراسة المخطوطة

تسمية الكتاب :

إن كتاب الخلفاء الأربعة تابع لكتاب كبير للإمام إسماعيل الأصبهاني ، وقد جعلناه منفصلاً عنه نظراً إلى أن الكتاب الكبير ، يتحدث عن سيرة النبی محمد ﷺ ، وذكر ذلك الإمام إسماعيل فى أول النسخة المخطوطة حيث قال : " بعد فراغى من كتاب السير اقترحوا على أن أملأ كتاباً مشتملاً على ذكر مولد النبی ﷺ وبيان نشوءه وتربيته إلى حال إرساله وبعثته ، ثم ذكر أحواله فى مغازيه ، وذكر سراياه إلى وقت وفاته ، ثم أتبع ذلك بذكر الخلفاء الأربعة رضى الله عنهم ، وما جرى من الفتوح فى أيامهم ، ففعلت ذلك (١٠١) " . فقد ذكر الإمام إسماعيل اسم هذا الجزء فى مقدمة الكتاب الكبير الذى سماه " المبعث والمغازي " .

بعد أن قمت بدراسة وافية لكتاب المبعث والمغازي بما فيه القسم الذى يتحدث عن الخلفاء الأربعة ، وأطلعت على مراجع متعددة تبين لى صحة نسبة الكتاب إلى المؤلف الإمام إسماعيل

وأن كتاب المبعث والمغازي هو الذي ألفه الإمام إسماعيل (رحمه الله) ويمكن تلخيص ذلك فيما يلي :

- ١- ذكره الإمام ابن الجوزي في كتابه المنتظم ونسبه للإمام إسماعيل (١٠٢) .
- ٢- ذكره شمس الدين السخاوي في كتابه الإعلان بالتوبيخ فقال : فأما السيرة النبوية والمغازي فقد انتدب لجمعها كأبى القاسم التيمي الأصبهاني (١٠٣) ، وذكره أيضا في كتابه "الجواهر والدرر" ضمن كتاب علم التاريخ عند المسلمين لروزنتال ترجمة صالح العلي فقال : وجمع المغازي أبو القاسم التيمي الأصبهاني ، وآخرون (١٠٤) .
- ٣- ذكره الحافظ الذهبي في كتابيه " تذكره الحفاظ " ، و" سير أعلام النبلاء " (١٠٥) .
- ٤- وذكره صاحب هدية العارفين ونسبه للإمام إسماعيل بعنوان المبعث والمغازي (١٠٦) .
- ٥- وذكره صاحب التاريخ العربي والمؤرخون ونسبه للإمام إسماعيل بعنوان "المبعث والمغازي" وقال إنه توجد منه نسخة مخطوطة في كوبريلي في استانبول (١٠٧) وهي النسخة التي اعتمدت عليها في الدراسة .
- ٦- تصريح باسم الكتاب في الورقة الأولى من المخطوط معزوا إلى الإمام إسماعيل في نسخة المخطوط .
- ٧- أسلوب الكتاب المتميز ، فالقارئ في أي كتاب من كتب الإمام إسماعيل المصنفة في التاريخ وغيره يعرف ذلك ، فالإمام إسماعيل حافظ محدث كثيرا ما يستخدم الرواية في كتاباته ، وينقل روايات كثيرة عن الكتب السابقة عليه ، ويملا الكتب بالأحاديث النبوية ويذكر عن شيوخه الذين أخذ عنهم الرواية وغير ذلك .

الداعي لتأليف الكتاب :

الداعي لذلك استجابة لدواعي العلم ، وما اقترحه عليه أهل العلم من أن يملأ كتابا مشتملا على ذكر مولد النبي ﷺ وبيان نشوئه وتربيته وإرساله وبعثته وذكر مغازيه وسراياه إلى وقت وفاته ثم يتبعه بذكر الخلفاء الأربعة وما جرى من فتوح في أيامهم (١٠٨) .

وهذا دأبه في أن يذكر الداعي للتأليف فقد ذكره في كتابنا هذا وفي سير السلف وفي دلائل النبوة .

مادة الكتاب :

مادة الكتاب التي صنعها الإمام إسماعيل هي أيام الخلفاء الأربعة وسيرهم ، بدءا بذكر نسبهم عدا الخليفة الرابع لم يبدأ بنسبه ، بل بدأ بذكر أخبار من سيرته ، ثم يتلو ذلك بالاستخلاف وتولى أمر المسلمين ، ويذكر كثيرا من خطبهم ، ثم ذكر الفتوحات التي تمت في عهدهم ، وذكر جانباً من الكتب التي أرسلوها إلى أمرائهم في مكان ولايتهم ، ويذكر خبر وفاتهم .

ثم ختم الكتاب بذكر فصلين من كتاب السنة للقاسم بن محمد .

الأول : في الحرب التي كانت بين علي بن أبي طالب رضي الله عنه وبين طلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام وأم المؤمنين عائشة رضي الله عنهم ، وقد ذكره باختصار .

والثاني : في القول فيما كان بين علي رضي الله عنه ومعاوية وقد ذكره باختصار أيضا .

ثم ذكر فصلا ثالثا في فضائل معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه .

كما كان يذكر لنا في بعض الأحايين أبياتا من الشعر يستشهد بها في موضعها ، والاستشهاد بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية أمر واضح أيضا في الكتاب ، على أنها تخص الخليفة الذي يتحدث عنه ويعرض لنا سيرته ومنهجه وأسلوبه . وقبل الحديث عن تفصيلات منهج الإمام إسماعيل نذكر أن الفترة التي كتب عنها يتخللها فترة - أي فترة سيدنا عثمان وسيدنا علي رضي الله عنهما - هي من الأهمية بمكان ، لأن كثيرا ممن ينتسبون إلى الإسلام ييغض حتى الخليفة الأول لرسول الله ﷺ ، ويقلب جميع حسناته سيئات .

وإن أحد الذين شاهدوا بأعينهم عدل عمر رضي الله عنه وزهده في متاع الدنيا ، وإنصافه لجميع الناس ، لم يستطع أن يمنع الحقد الذي في فؤاده على الإسلام من أن يدفعه إلى طعنه بالسكين دون أن يسئ إليه ، وفي عصر سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه ضاقت صدورهم بطيبة ذلك الخليفة الذي خلق قلبه من رحمة الله فاخترعوا له ذنوبا ، وما زالوا يكررونها على قلوبهم حتى صدقوها ، وتفننوا في إذاعتها ثم استحلوا سفك دمه الحرام

فى الشهر الحرام . كما أن هذه اليد الأثمة لم ينج منه الإمام على رضى الله عنه أيضا فى عصره .

إن أهمية هذه الفترة جعلت الإمام إسماعيل فى عرضه للأحداث والمواقف يسير فيها على منهج قويم بعيدا عن ترديد الخلافات التى عفى عليها الزمن ، مبينا أن هؤلاء الخلفاء كانوا أسمى أخلاقا وأصدق إخلاصا لله وترفعوا عن خسائس الدنيا ، رغم الأيدى الخبيثة التى عملت على إيجاد الخلاف وتوسيعه .

فقد درأ الإمام إسماعيل عن سيرة هؤلاء الأولين كل ما ألصق بهم من إفك ظلما وعدوانا ، فعرض صورتهم على أنظار الناس نقية صادقة ، تحسن القدوة بهم ، وتطمئن النفوس إلى الخير الذى ساقه الله للبشر على أيديهم .

لقد اعتبر الإمام إسماعيل أن الطعن فى هؤلاء الصحابة طعن فى الدين الذى هم رواته ، وتشويه سيرتهم تشويه للأمانة التى حملوها ، وتشكيك فى جميع الأسس التى قام عليها كيان التشريع فى هذه الملة الحنيفية السمحة .

لقد سلك الإمام إسماعيل فى كثير من كتبه طريقة أهل الحديث وهى ظهور السند فى رواياته ، ولكنه فى هذا الكتاب قليلا ما كان يكتب بطريقة السند وظهوره ، وعندما يظهره كان يجعله فى صلب الكتاب ، وهذا أمر واضح فيه (١٠٩) .

وأحيانا يصرح بأسماء الكتب التى نقل منها بطريقة السند مثل قوله : أخبرنا سعيد بن أحمد الواحدى فى كتابه (١١٠) ، وعندما نقل لنا الرسم الموضح لمواضع القبور الثلاثة ، قبر النبى ﷺ ، وقبر سيدنا أبى بكر رضى الله عنه ، وقبر سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه (١١١) .

وأحيانا يذكر المتن ثم يذكر السند فى نهايته فيقول : أخبرنا بذلك ... (١١٢)

كما يذكر أحيانا القول الراجح فى المسألة بأنه الصحيح والمشهور ، كجلوس فاطمة بعد موت أبيها (١١٣) .

كما راعى الإمام إسماعيل فى عرض سير الخلفاء الأربعة الترتيب على حسب سنهم وتوليهم الخلافة .

كثيرا ما يحذف سند الرواية ويذكر من سمع من النبي ﷺ (١١٤). وكذلك فى الحديث المرفوع للصحابى يذكر الصحابى دون السند الموصول إليه (١١٥).

كثيرا ما يقول : قال أهل التاريخ ونجد من بين هؤلاء الطبرى وخليفة بن خياط والواقدي وابن هشام .

كما يذكر لنا أهل اللغة فى تفسير بعض المفردات اللغوية (١١٦) . كما يذكر لنا تعليق أهل العلم على خطب الخلفاء كخطبة أبى بكر (١١٧) . ويفسر الإمام إسماعيل أسماء البلدان والأماكن أحيانا (١١٨) .

ومن منهج الإمام إسماعيل الاستشهاد بالآيات القرآنية ، والحديث النبوى الشريف والشعر العربى .

كما يذكر لنا بعض الفوائد اللغوية (١١٩) ، ويبين لنا بعض الأماكن من حيث الموقع الجغرافى (١٢٠) ، ويفسر لنا بعض القبائل وبطون العرب (١٢١) .

لقد كان للكتابة التاريخية فى هذا العصر أسلوب خاص ، تمثل فى كتابة الحوليات والتراجم والتواريخ المحلية ، وغلب على المؤرخين مصطلح الحديث والإسناد ، ولم يخرج الإمام إسماعيل عن هذا الإطار ، ويظهر ذلك واضحا فى بعض رواياته فى المخطوط ، وكذلك فى كتابه سير السلف .

كما أنه استعمل فى منهجه طريقة الإسناد الجماعى ، سواء من حفظ شيوخه أو من كتبهم إملاء وغير إملاء .

كما اعتنى الإمام إسماعيل بتاريخ ذكر الوفاة للخلفاء الأربعة ، وتتبع فى كثير من الأحيان الكتابة على نظام الحوليات فيذكر لنا أخبارا وفتوحات وغير ذلك سنة بعد سنة .

لم يبتدع الإمام إسماعيل أسلوبا خاصة للكتابة التاريخية ، وإنما جرى التدوين ضمن الأسلوب المرسل الذى كتب به معظم المؤرخين كتبهم منذ الإمام الطبرى ، والإمام المسعودي ، والخطيب البغدادي ، وأبى نعيم الأصفهاني .

ولقد تميز أسلوبه الأدبى بالسهولة واليسر ، ولم يعن بالصنعة البيانية والألفاظ الصعبة ، بل يختار العبارة المناسبة ، وإن كان لابد من اللغويات فإنه يفسرها آخر الرواية .

كما أن له أسلوبه المتميز في الصياغة التاريخية وكيفية عرضها ، فإنه يختلف عن الموارد التي نقل منها ، وأحيانا يتفق ، وقد دفعه هذا الأمر في أغلب الأحيان إلى إعادة صياغة المادة التاريخية المنقولة عن المؤلفات السابقة عليه بأسلوبه الخاص ، ولم ير في ذلك ضيرا ، طالما قد توخى الدقة والأمانة في نقل معاني الأقاويل لاسيما تلك التي تؤثر في قيمتها إعادة الصياغة .

مصادر الإمام إسماعيل :

اعتمد الإمام إسماعيل على ما رواه بأسانيد عن مشايخ عصره عن طريق السماع ، فينتقل المؤلف أخباره سامعا من هذا وناقلا عن ذلك ، وكذلك عن طريق الإجازة فيما أجاز له مشايخه مثل أبي عمرو بن منده (١٢٢) .

كما اعتمد على نوع آخر من المصادر يعتبر نوع عام ، وهو معروف متداول بين أيدي طلبة العلم على مدى العصور ، كصحيح البخاري وصحيح مسلم وأمثالهما من كتب السنة .

كما اعتمد على نوع ثالث من المصادر ، يتمثل في كتب تتصل بموضوع الكتاب ، منها ما هو متداول ، ومنها ما ليس متداولاً ، كما يبدو أن اطلاع المؤلف على الكتب المصنفة قبله اطلاع واسع ، وأثره في كتبه لا يقل عن أثره في تحصيله الشخصي ، الذي اكتسبه من الرحلات ، ومن صور التحمل التي تلقى بها العلم ودأب في تحصيله ، وكثيرا ما كان التلقى عن المشايخ يصحب بالكتابة والكتب ، وقد أثبت هذا النوع من المصادر في متن الكتاب نفسه ، وتعد طريقة من طرق تسجيل المصادر المنقول منها ، كأن يقول على سبيل المثال : أخبرنا سعيد بن أحمد الواحدى في كتابه " وذكر القاسم بن محمد في كتابه "السنة" (١٢٣) .

أهمية الكتاب :

إن إخراج أى مخطوط إلى حيز الطباعة من كتب علماء الأمة السالفين ، الذين كانوا يتبعون خطة معينة فى التصنيف ، ويلتزمون بما يمكن أن يندرج الآن تحت ما يسمى بالمنهج العلمى ، هذا الإخراج فى ذاته يعد هدفا يجب أن يحرص عليه من يسر الله له أن يعمل فى هذا المجال .

إن استخراج مثل هذه الكتب يلقي الضوء على ماضى الأمة أو ينير السبيل أمام مستقبل أبنائها .

إن هذه الكتب التى ألفها العلماء لا يمكن أن تؤخذ مفردة مبتورة عن نسيجها الذى كانت فيه ، مع إخوانها من كتب كتبها العلماء شكلت بنيانا عقليا متكاملا ، فما من كتاب مخطوط إلا وهو لبنة فى هذا البنيان ، فإذا ما نتابع إخراج تراثنا على الطريقة العلمية الحديثة مطبوعا بمنهجها مفهرسا على طريققتها ، استطعنا أن نصل ما بين حاضرتنا المتوثب وماضينا التليد ، فتبوأنا مكاننا الذى هو لنا والذى حل به أسلافنا فعلموا الدنيا وسبقوا العالم .

ومن أهمية هذا الكتاب أن كثيرا من المراجع التى رجع إليها الإمام إسماعيل واستمد منها مادته التاريخية قد ضاع فيمن ضاع من تراث الإسلام ، ومن هنا يعد كتاب الخلفاء الأربعة وعاء لكثير من النصوص والكتب التى ضاعت وبعثرتها يد الحدثان .

كما تكمن أهميته فى أنه يعكس لنا فترة تاريخية تعكس حالة من حالات الصراع الفكرى الذى كان سائدا خاصة فى فترة خلافة سيدنا عثمان وسيدنا على رضى الله عنهما .

كما أن قيمته تتجلى فى العرض الجيد الذى يحقق مواقف الخلفاء بعد وفاة النبى ﷺ وتبرئتهم مما نسب إليه الملاحدة والمفسدون والمضللون .

إن خروج مثل هذا الكتاب وهو يعرض لنا فترة خلافة كل من الخليفة الثالث والخليفة الرابع لإتحاف القراء ليصحح الكثيرون منهم ما تلقوه من معلومات خاطئة .

ولينجوا من الأفكار الخاطئة التى علقت فى أذهانهم بسبب الكتب التى يتداولونها ، والدروس التى يتلقونها فيتخذون من سيرة الصحابة مثلا عاليا يحتنونها ، وشحنة بل شحنات قوية تدفع بهم إلى الامام ، إلى أفاق العظمة والمجد والسؤدد .

إن الخلفاء الأربعة وطبقتهم من أصحاب رسول الله ﷺ فإنهم جميعا كانوا شموسا طلعت في سماء الإنسانية مرة ، ولا تطمع الإنسانية بأن يطلع في سمائها شمس من طرازهم مرة أخرى إلا إذا عزم المسلمون على أن يرجعوا إلى فطرة الإسلام ويتأدبوا بأدبه من جديد ، فيخلق الله منهم خلقا آخر يعيش للحق والخير ، ويجاهد الباطل والشر ، حتى تعرف الإنسانية طريقها الحقيقي إلى السعادة .

ومما يزيد الكتاب أهمية احتفاظه بكلام القاسم بن محمد صاحب كتاب السنة حول ما حدث بين السيدة عائشة رضي الله عنها وبين الإمام على رضي الله عنه ، وبين على رضي الله عنه وبين معاوية رضي الله عنه .

فقد ذكره القاسم بن محمد في كتابه " السنة " في الحرب التي كانت بين على بن أبي طالب رضي الله عنه ، وبين طلحة والزبير وعائشة رضي الله عنهم ، اختصرته والذي عند أهل العلم فيما فعل أولئك أنهم تقاتلوا على التأويل ، ولم يقصد أحد منهم إلى باطل ، ولا أثر على دينه الذي فارق عليه نبيه ﷺ شيئا من أمر الدنيا ، بل كل مصيب عند نفسه .

أما على رضي الله عنه فرأى أنه إمام ذلك بأنه قد سبقت بيعتهم له ، فلا يجوز لهم عنده الخروج من بيعته إلا بإبانة حجة عليه أنه غير مستحق للخلافة ، وأما طلحة والزبير رضي الله عنهما فإنهما كانا رجلين من أهل الشورى ، اللذين جعل عمر بن الخطاب رضي الله عنهم إليهم الأمر ، ثم رأيا أن لهما نقض البيعة ورد الأمر إلى الأصلح ، وأما عائشة رضي الله عنها فإنها تناولت أنها زوجة رسول الله ﷺ ولها حق الأمومة فحضرت الجماعة لتصلح بينهم وكل أراد الله بما قصد وفكر ، ومن دخل فيما شجر بينهم فقد تعرض لسخط الله عز وجل .

قال : وكان أولئك يقدمون على ما يقدمون عليه بعلم ، وقد عرفوا من حق الله وحق الرسول وحق القرآن ما لا ينازعهم فيه أحد ، وليس لأحد البحث عما فعلوه ، ولا الدخول فيما كان بينهم ، ومن فعل ذلك فقد تعرض لسخط الله .

قال أهل السنة : ومن السنة السكوت عما شجر بين أصحاب الرسول ﷺ ورضي عنهم . ومن كلام القاسم بن محمد فيما كان بين على رضي الله عنه ومعاوية : أما على رضي الله عنه فقد حل في الإسلام خطره وأنزله رسول الله ﷺ منزلته إياه وقدمه وولاه ، فما زال هو

كذلك حتى قبض الله الصديق ، وقام الفاروق فأقره على ما كان عليه وأنزله المرتبة التي كان يستحقها وفوض إليه الأعمال الجليلة ويشكره أهل عمله . ولا طعن عليه الناس في شيء مما تولاه ولا أنكر عمر رضى الله عنه شيئا في سياساته ولا تدبيراته . حتى قبض عمر رضى الله عنه ، وولى بعده عثمان رضى الله عنه فأقره على ما كان عليه زمان الخيفتين ، وزاده حظوة فلا يزداد على الأيام والليالي إلا جلالة . وإن رجلا يرضاه رسول الله ﷺ ثم أبو بكر ثم عمر ثم عثمان رضى الله عنهم الأمين حق والجليل كل الجليل ، فلما كان من قضاء الله في عثمان ما كان وبائع الناس لعلى رضى الله عنه امتنع معاوية من بيعته ، وتآول أن قتلة عثمان في حيزه وفي عسكره ، وأبى على رضى الله عنه قتاله بامتناعه من الدخول فيما دخل فيه الناس ، ورأى معاوية قتاله لكيثونة المتهمين على دم عثمان في ناحيته ، والذي عليه العلماء أن يحملوا أمور القوم على أوائل شأنهم في أن ينكروا محاسنهم ، وسكتوا عما شجر بينهم ، وذلك هو الغرض اللازم لهم ويرون أن كل الدماء طاهرة لهم .

وقد قال النبي ﷺ : بحسب أصحابي القتل ، وروى عن أبي موسى رضى الله عنه عن النبي ﷺ قال : إن أمتي هذه أمة مرحومة ليس عليها في الآخرة عذاب ، إنما عذابها في الدنيا والزلازل والبلايا والفتن .

ومن كلام القاسم بن محمد عن معاوية رضى الله عنه قال : معاوية لا يرد من فضل ولا حلم ولا شرف . وكان من صميم عبد مناف وخالصة قريش وله بأن السيادة في الجاهلية والإسلام ، قدم على رسول الله ﷺ مهاجرا راعيا في الإسلام ، فقبل رسول الله ﷺ هجرته وأكرمه إكرام مثله ، وعرف منزله ، وعظم خطره ، وكان أجل ما كان ، ولقد لحق بالله ، والمسلمون كل يوم من الإيمان والخير في ازدهار ، والله عز وجل رؤوف بالعباد ، انتهى كلام القاسم بن محمد .

وصف المخطوطة :

لم يكن بين أيدينا من نسخ هذا الكتاب في تحقيقنا له سوى مخطوطة واحدة محفوظة بمكتبة (كوبرلى - باستامبول) " برقم ١١٣٨ تاريخ " كتبت خلال القرن السادس - السابع كما هو مدون ببطاقة بيانات المخطوط ، كتبه سبط الإمام إسماعيل ، وهو يحيى بن سعد الثقفى ، المكنى بأبى الفرج ، وقد ثبت ذلك في آخر ورقة من المخطوط .

ولم أعثّر له على نسخ أخرى فى أى مكان . ومدون فى الورقة الأخيرة لأحمد بن يحيى بن محمد بن عمر السهروردى الكاتب تعريفا فى ذى الحجة الحرام المبارك من سنة خمس وعشرين وسبع مائة .

والكتاب كله بلغ عدد [٢٠١ ورقة] بمقياس ١٩ x ١٥ عدد الأسطر ١٦ سطرا أما قسم الخلفاء الذى نحن بصدد تحقيقه فعدد أوراقه [٤٦ ورقة] من الورقة [١٥٥] إلى الورقة الأخيرة [٢٠٠] .

وهى النسخة الوحيدة كما سبق أن ذكرت ، كاملة من المقدمة إلى الخاتمة . جاء فى الورقة الأولى من المخطوط الكبير فى صفحة الغلاف ختمان أحدهما كبير مستدير والآخر صغير مربع .

أما الختم الكبير فمكتوب فيه " هذا ما وهبه الوزير أبو العباس أحمد بن الوزير عبد الله محمد ... بكويرلى ... الله " أما الختم الصغير فغير واضح المعالم .

وقد كتب المخطوط بقلم معتاد الإعجام خال من الضبط ، والعناوين فيه بخط أكبر مما يليها وفى نهاية الكتاب يقول الكاتب : قال الشيخ رحمه الله : هذا آخر ما حضرني ذكره من الزجر عن الخوض ما يهيج الفتنة ويورث الشبهة ، والحث على الاقتداء بالسلف الصالح فى ذلك .

ومكتوب أيضا على لسان كاتبه : آخر كتاب المبعث والمغازي التى صنفها جدى الإمام الحافظ إسماعيل بن محمد بن الفضل قدس الله روحه .

رحم الله من دعا لصاحبه بالجنة ، ولكاتبه سبط المولى يحيى بن محمود بن سعد المكنى بأبى الفرج . الحمد لله وصلواته على سيدنا محمد وآله أجمعين .

الهوامش

- ١- صدر الدين الحسيني : أخبار الدولة السلجوقية ص ٢ .
- ٢- الراوندي : راحة الصدور وآية السرور ، ص ١٤٥ .
- ٣- براون : تاريخ الأدب في إيران ، ترجمة د. إبراهيم الشواربي ص ٢٠٨ .
- ٤- براون : تاريخ الأدب في إيران ، ص ٢٠٧ .
- ٥- بدر الدين العيني : السيف المهند في سيرة الملك المؤيد ، تحقيق فهد شلتوت ص ١٧٢ .
- ٦- براون : تاريخ الأدب في إيران ص ٢٢١ .
- ٧- القزويني : آثار البلاد وأخبار العباد ص ٢١٤ ، ٤١٣ .
- ٨- براون : تاريخ الأدب في إيران ، ص ٢٢٠ .
- ٩- ابن الأثير : الكامل في التاريخ ٥٤/١ .
- ١٠- الراوندي : راحة الصدور وآية السرور ص ١٨٨ ، ١٨٩ .
- ١١- ابن الأثير : الكامل في التاريخ ٦٧/١٠ .
- ١٢- السيوطي : تاريخ الخلفاء ص ٢٨٩ .
- ١٣- براون : تاريخ الأدب في إيران ، ص ٢٢٩ .
- ١٤- القزويني : التدوين في أخبار قزوين ، تحقيق عزيز الله العطوي ٢٠٢/٢ .
- ١٥- صدر الدين الأصفهاني : تاريخ دولة آل سلجوق ص ٥٧ .
- ١٦- الراوندي : راحة الصدور وآية السرور ص ٢٠٢ .
- ١٧- عباس إقبال : تاريخ إيران بعد الإسلام ص ٢٥٠ ، ٢٥٢ .
- ١٨- بدر الدين العيني : السيف المهند ص ١٧٥ .
- ١٩- صدر الدين الحسيني : أخبار الدولة السلجوقية ص ٧٤ .
- ٢٠- عماد الدين الأصفهاني : تاريخ دولة آل سلجوق ص ٤٣ .
- ٢١- براون : تاريخ الأدب في إيران ص ٣٧٣ .
- ٢٢- د. أحمد كمال الدين حلمي : السلاجقة في التاريخ والحضارة ص ٢٠٤ .
- ٢٣- ابن الأثير : الكامل في التاريخ ٢٠٦/١٠ .
- ٢٤- د. عبد النعيم محمد حسنين : سلاجقة إيران والعراق ص ٧٩ .

- ٢٥- عماد الدين الأصفهاني : تاريخ دولة آل سلجوق ص ٦١ .
- ٢٦- الذهبي : محمد بن أحمد بن عثمان : تول الإسلام ٢٧٢/١ .
- ٢٧- عماد الدين الأصفهاني : تاريخ دولة آل سلجوق ص ٧٠ ، ٧١ ، وكارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية ص ٢٨٠ .
- ٢٨- د. حربي أمين سليمان : المؤرخ الإيراني الكبير غياث الدين خواندمير ص ٢٤٨ .
- ٢٩- ابن العماد الحنبلي : شذرات الذهب ٤/٤ .
- ٣٠- الذهبي : محمد بن أحمد بن عثمان : تول الإسلام ٢٧٢/١ .
- ٣١- عماد الدين الأصفهاني : تاريخ دولة آل سلجوق ص ٥٩ .
- ٣٢- د. أحمد كمال الدين حلمي : السلاجقة في التاريخ والحضارة ص ٣٧٣ .
- ٣٣- السبكي : طبقات الشافعية ٣/ ١٣٧ .
- ٣٤- ابن جبير : رحلة ابن جبير ، تحقيق د. حسين نصار ص ٢٨٣ .
- ٣٥- الطرطوسي : سراج الملوك ص ١٢٨ .
- ٣٦- د. أحمد كمال الدين حلمي : السلاجقة في التاريخ والحضارة ص ٣٧٤ ، ٣٧٥ .
- ٣٧- ابن جبير : رحلة ابن جبير ، تحقيق د. حسين نصار ص ٢٨٣ .
- ٣٨- السمعاتي : الأنساب ٣/ ٤٠٨ .
- ٣٩- الداودي : طبقات المفسرين ١/ ١١٢ .
- ٤٠- ابن الأثير : الكامل في التاريخ ١٠/ ٧٥ .
- ٤١- ابن الأثير : الكامل في التاريخ ١٠/ ٢٠٨ .
- ٤٢- ابن العماد الحنبلي : شذرات الذهب ٤/ ٧٦ .
- ٤٣- الصفدي : الوافي بالوفيات ٩/ ٢٠٨ .
- ٤٤- التيمي : نسبة إلى بني تيم ، وهم بطن من بطون قريش من بني مرة بن كعب ، منهم أبو بكر الصديق وطلحة بن عبيد الله وغيرهم من الصحابة رضي الله عنهم أجمعين .
- القلقشندي : نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب ص ١٧٩ .
- ٤٥- الطلحي : نسبة إلى الصحابي الجليل طلحة بن عبيد الله من جهة والدته بنت محمد بن مصعب بن عبد الواحد بن علي بن أحمد بن محمد بن مصعب بن إسحاق بن طلحة بن عبيد الله . الإمام إسماعيل التيمي : " سير السلف الصالحين " الورقة ٨٦ / ب .

٤٦- انظر ترجمته عند السمعاني : الأنساب ٤٠٨/٣ ، ٤٠٩ ، وابن الجوزي : المنتظم ٩٠/١٠ ، وابن نقطة : التقييد ١/ ٢٥٠ ، ٢٥٣ ، والقزويني : التدوين في أخبار قزوين ٢/٣٠١ - ٣٠٣ وابن الأثير : الكامل في التاريخ ٨٠/١١ ، وابن الفوطي : تلخيص معجم الآداب في معجم الألقاب ٤ جـ قسم ٤ ص ٧٦٨ ، والذهبي : تاريخ الإسلام ٢٦/٢٧ - ٢٩ ، وسير أعلام النبلاء ٨٠/٢٠ - ٨١ ، والصفدي : الوافي بالوفيات ٩/٢٠٨ ، ٢١١ ، والأسنوي : طبقات الشافعية ١/ ٣٥٩ - ٣٦١ ، وابن كثير : البداية والنهاية ١٢/٢٣٣ ، والسيوطي : طبقات الحفاظ ص ٤٦٣ ، وطبقات المفسرين ص ٨ ، وبغية الوعاة ص ١٩٩ ، والداودي : طبقات المفسرين ١/١٢٢ - ١٤٤ ، وابن العماد الحنبلي : شذرات الذهب ٤/١٠٥ ، ١٠٦ .

٤٧- القزويني : التدوين في أخبار قزوين ٢/٣٠٣ ، والسمعاني : الأنساب ٣/٤٠٩ ، وابن الفوطي ٤ قسم ٤ ص ٧٦٨ ، والذهبي : تاريخ الإسلام ٢٦/٢٧ ، والصفدي : الوافي بالوفيات ٩/٢١١ ، والسيوطي : طبقات الحفاظ ص ٤٦٣ ، والداودي : طبقات المفسرين ١/١١٢ .

٤٨- الذهبي : سير أعلام النبلاء ١٨/٣٠٢ ، ٣٠٣ .

٤٩- هي عائشة بنت الحسن الوركاني ت ٤٦٦ هـ .

٥٠- الذهبي : تذكرة الحفاظ ٤/٧١ ، وسير أعلام النبلاء ٢٠/٨٢ .

٥١- الذهبي : سير أعلام النبلاء ٢٠/٨١ .

٥٢- الذهبي : تاريخ الإسلام ٢٦/٢٩ ، والياقني : مرآة الجنان ٣/٢٦٣ .

٥٣- ابن نقطة : كتاب التقييد ١/٢٥٢ ، والذهبي : تاريخ الإسلام ٢٦/٢٧ ، والصفدي : الوافي بالوفيات ٩/٢٠٨ ، والسمعاني : الأنساب ٣/٤٠٨ ، ٤٠٩ ، والذهبي : تذكرة الحفاظ ٤/٧١ .

٥٤- الصفدي : الوافي بالوفيات ٩/٢٠٨ .

٥٥- انظر ترجمتهم عند السمعاني : الأنساب ٣/٤٠٩ ، ١٨٩/٦ ، ١٩٠ ، وابن الجوزي : المنتظم ٩/٦٤ والقزويني : التدوين في أخبار قزوين ١/١٤٨ ، والسيكي : طبقات الشافعية ٤/١٠٢ ، والصفدي : الوافي بالوفيات ٩/٢٠٨ ، ١٠٥/٢ ، والذهبي : العبر ٢/٣٤٣ ، ٣/٣٤٦ ، وسير أعلام النبلاء ١٨/٦٢٠ ، ٩/٦٠٥ ، ١٠٣ ، ١٠٠ ، ١٥٨ ، ١٣١ ، ٢٠٢ ، ٨١ ، ١٥٩ ، ٢٦٠ ، ٨١/٢٠ ، والياقني : مرآة الجنان ٣/١٣٣ ، وابن العماد : شذرات الذهب ٣/٢٨٣ ، ٤٠٥ ، ١٧٣ ، ٣٩٤ ، ٣٠٨ ، ٣٧٩ .

٥٦- السمعاني : أنب الإماء والاستماء ص ٩٣ .

٥٧- انظر كثيرا من تلاميذه عند : ابن نقطة : كتاب التقييد ١/٢٥٢ ، وابن المستوفي : تاريخ أربيل ٢/٢١٦ ، والذهبي : سير أعلام النبلاء ٢٠/٨١ ، ٢١/٢٠ ، ١٥٥ ، ١٥٩ ، وتذكرة الحفاظ ٤/٧١ ، والعبر ٣/٦٠ ، ٦١ ، والسيوطي : طبقات الحفاظ ص ٤٦٤ ، وابن العماد الحنبلي : شذرات الذهب ٤/٢٣٩ ، ٢٥٥ .

- ٥٨- الذهبي : تذكرة الحفاظ ٧٢/٤ ، وسير أعلام النبلاء ٨٣/٢ .
- ٥٩- الداودي : طبقات المفسرين ١١٣/١ ، وابن تقي بردي : النجوم الزاهرة ٢٦٧/٥ .
- ٦٠- انظر ما نقله عن الإمام ابن قيم الجوزية في كتاب اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجمهية ص ٦٧ ، ٦٨ ، وكتاب الذهبي الذي اختصره الألباني مختصر العلو ص ٢٨١ ، ٢٨٢ .
- ٦١- السمعاني : الأنساب ٤٠٨/٦٣ ، والسيوطي : طبقات الحفاظ ٤٦٣ ، ٤٦٤ ، والداودي : طبقات المفسرين ١١٣/١ .
- ٦٢- الذهبي : تاريخ الإسلام ٢٨/٢٦ ، ابن العماد : شذرات الذهب ١٠٦/٤ .
- ٦٣- السيوطي : طبقات الحفاظ ٤٦٤ ، والداودي : طبقات المفسرين ١١٣/١ .
- ٦٤- السيوطي : طبقات الحفاظ ٤٦٣ ، ٤٦٤ .
- ٦٥- الذهبي : تذكرة الحفاظ ٧١/٤ ، ٧٢ ، وسير أعلام النبلاء ٨٢/٢٠ .
- ٦٦- الذهبي : سير أعلام النبلاء ٨٥/٢٠ ، والسمعاني : أدب الإملاء والاستملاء ص ٩٢ .
- ٦٧- السمعاني : أدب الإملاء والاستملاء ص ٩٣ .
- ٦٨- ابن عساكر : تاريخ دمشق القسم الأول ، ص ٢١٥ ، ٢١٦ .
- ٦٩- ابن نقطة : التقييد ٢٥٣/١ .
- ٧٠- ابن المستوفي : تاريخ أربل ١٣٧/١ .
- ٧١- الذهبي : تذكرة الحفاظ ٧٥/٤ .
- ٧٢- الذهبي : مختصر العلو ، اختصار الألباني ص ٢٨١ ، ٢٨٢ .
- ٧٣- ابن قيم الجوزية : اجتماع الجيوش الإسلامية ص ٦٧ ، ٦٨ .
- ٧٤- الذهبي : تذكرة الحفاظ ٧٢/٤ .
- ٧٥- الذهبي : العبر ٤٤٧/٢ ، وسير أعلام النبلاء ٨١/٢٠ .
- ٧٦- انظر مؤلفاته عند الذهبي : تذكرة الحفاظ ٧٢/٤ ، وعند السيوطي : طبقات الحفاظ ص ٨ .
- ٧٧- الذهبي : تاريخ الإسلام ٢٩/٢٦ ، السيوطي : طبقات المفسرين ص ٤٦٤ .
- ٧٨- الذهبي : تذكرة الحفاظ ٧٣/٤ ، وحاجي خليفة : كشف الظنون ١٤٠٩/٢ .
- ٧٩- الذهبي : العبر ٤٤٧/٢ ، والسيوطي : طبقات المفسرين ص ٨ ، والبستاني : هدية العارفين ٢١١/٢ .
- ٨٠- الأسنوي : الطبقات ٣٦٠/١ ، وحاجي خليفة ، كشف الظنون ٤٤٢/١ ، ١٧٣٢/٢ .

- ٨١- الذهبى : تاريخ الإسلام ٢٨/٢٦ ، وحاجى خليفة : كشف الظنون ١/١٢٣ .
- ٨٢- الذهبى : تذكرة الحفاظ ٤/٢٧٣ ، والسيوطى : طبقات المفسرين ص ٨ ، والداودى : طبقات المفسرين ١/١١٤ .
- ٨٣- تم نشر هذا الكتاب بتحقيقنا طبعة دار الراجية السعودية سنة ١٩٩٩ .
- ٨٤- الذهبى : تذكرة الحفاظ ٤/٧٣ ، والداودى : طبقات المفسرين ١/١١٤ .
- ٨٥- السيوطى : طبقات المفسرين ص ٨ ، والداودى : طبقات المفسرين ١/١١٤ ، وحاجى خليفة : كشف الظنون ١/٥٥٧ .
- ٨٦- السيوطى : طبقات المفسرين ص ٨ ، والداودى : طبقات المفسرين ١/١١٤ ، وحاجى خليفة : كشف الظنون ١/٥٥٧ .
- ٨٧- حاجى خليفة : كشف الظنون ١/٦٣١ ، والبستانى : هدية العارفين ٢/٢١١ .
- ٨٨- الذهبى : تذكرة الحفاظ ٤/٧٣ ، وسير أعلام النبلاء ٢/٨٤ ، والداودى : طبقات المفسرين ١/١٤٤ ، والبستانى : هدية العارفين ٢/٢١١ .
- ٨٩- الذهبى : تاريخ الإسلام ٢٦/٢٩ ، السيوطى : طبقات المفسرين ص ٨ ، والداودى : طبقات المفسرين ١/١١٤ ، والبستانى : هدية العارفين ٢/٢١١ .
- ٩٠- ابن العماد : شذرات الذهب ٤/١٠٦ ، والزركلى : الأعلام ١/٣٢٢ ، ٣٢٣ .
- ٩١- فهرس التصوف والآداب الشرعية بمعهد المخطوطات العربية ١/١٧٥ .
- ٩٢- فهرس مخطوط دار الكتب الظاهرية ، وضعه محمد ناصر الدين الألبانى ص ١٩٢ .
- ٩٣- عبد الحى الكتانى : فهرس الفهارس ٢/٦٥٧ ، رقم ٣٥٧ .
- ٩٤- الألبانى : محمد ناصر الدين : فهرس مخطوطات دار الكتب الظاهرية ص ١٩٢ .
- ٩٥- الذهبى : تذكرة الحفاظ ٤/٧٢ ، السيوطى : طبقات الحفاظ ، ص ٤٦٤ .
- ٩٦- السمعانى : الأنساب ٣/٤٠٨ ، والذهبى : تاريخ الإسلام ٢٦/٢٩ .
- ٩٧- السمعانى : الأنساب ٣/٤٠٨ .
- ٩٨- الذهبى : دول الإسلام ٢/٥٥ .
- ٩٩- السمعانى : الأنساب ٣/٤٠٩ ، وابن الجوزى : المنتظم ١٠/٩٠ ، وابن نقطة : كتاب التقييد ١/٢٥٢ ، وابن الأثير : الكامل فى التاريخ ١١/٨٠ .
- ١٠٠- الذهبى : تذكرة الحفاظ ٤/٧١ ، والذهبى : سير أعلام النبلاء ٢٠/٨١ .
- ١٠١- الورقة الأولى من مخطوط المبعث والمغازى للإمام إسماعيل التيمى .

- ١٠٢- ابن الجوزى : المتكلم ٩٠/١٠ .
- ١٠٣- السخاوى : الإعلان بالتوبيخ ، تحقيق روزنتال ص ١٥٧ .
- ١٠٤- السخاوى : الجواهر والدر ، ضمن كتاب علم التاريخ عند المسلمين لروزنتال ص ٧٢٨ .
- ١٠٥- الذهبى : تذكرة الحفاظ ٧٣/٤ ، وسير أعلام النبلاء ٨٤/٢٠ .
- ١٠٦- البستاقى : هدية العارفين ٢١١/٢٠ .
- ١٠٧- د. شاکر مصطفى : التاريخ العربى والمؤرخون ١٢٧/٢ .
- ١٠٨- الورقة الأولى من مخطوط المبعث والمغازى للإمام إسماعيل التيمى .
- ١٠٩- انظر ظهر الورقة (٢) وظهر الورقة (١٢) وظهر الورقة (١٦) من المخطوطة .
- ١١٠- انظر ظهر الورقة (٦) من المخطوطة .
- ١١١- انظر هامش الرسم والتخطيط بظهر الورقة (٢) بالمخطوطة .
- ١١٢- انظر ظهر الورقة (٦) من المخطوطة .
- ١١٣- انظر ظهر الورقة (٩) من المخطوطة .
- ١١٤- انظر ظهر الورقة (٢) من المخطوطة .
- ١١٥- انظر ظهر الورقة (٢) من المخطوطة .
- ١١٦- انظر وجه الورقة (٥) ووجه الورقة (٩) وظهر الورقة (١٠) ووجه الورقة (١٣) من المخطوطة .
- ١١٧- انظر ظهر الورقة (٤) من المخطوطة .
- ١١٨- انظر ظهر الورقة (٩) من المخطوطة .
- ١١٩- انظر وجه الورقة (١١) وظهرها ، وظهر الورقة (١٢) من المخطوطة .
- ١٢٠- انظر وجه الورقة (١٢) وظهرها ، والورقة (١٠) من المخطوطة .
- ١٢١- انظر الورقة (٢٩) من المخطوطة .
- ١٢٢- انظر ظهر الورقة (٤٥) من المخطوطة .
- ١٢٣- انظر ظهر الورقة (٦) من المخطوطة ، وكذلك ظهر الورقة (٤٤) .

قائمة المصادر والمراجع

- ١- ابن أبيك : صلاح الدين خليل ت ٧٦٤ هـ : الوافي بالوفيات ، الطبعة الثانية ، دار النشر فرنزشتايد، ١٩٨٢ .
- ٢- ابن الأثير : على بن محمد بن عبد الكريم ت ٦٣٠ هـ : الكامل في التاريخ ، طبعة صادر ، بيروت ١٩٧٩ .
- ٣- د. أحمد كمال الدين حلمي : السلاجقة في التاريخ والحضارة ، طبعة دار البحوث العلمية ، الكويت ١٩٧٥ .
- ٤- الأسنوي : جمال الدين عبد الرحيم ت ٧٧٢ هـ : طبقات الشافعية ، تحقيق عبد الله الحبورى ، طبعة بغداد سنة ١٣٩٠ هـ .
- ٥- الأصفهاني : الفتح بن علي بن محمد البنداري : مختصر تاريخ دولة آل سلجوق ، طبعة دار الافاق الجديدة ، بيروت ١٩٨٠ .
- ٦- براون : إيوار جرنفيل : تاريخ الألب في إيران ، ترجمة د. إبراهيم الشواربي ، مطبعة السعادة ، مصر ١٩٥٤ .
- ٧- البستاني : إسماعيل باشا البغدادي ت ١٣٣٩ هـ : هدية العارفين ، طبعة وكالة المعارف الجليلة استامبول ، ط ٣ لسنة ١٩٥١ م .
- ٨- ابن تقي بردي : جمال الدين أبو المحاسن يوسف ت ٨٧٤ هـ : النجوم الزاهرة ، طبعة دار الكتب المصرية سنة ١٩٢٩ هـ .
- ٩- ابن جبير : محمد بن أحمد ت ٦١٤ هـ : رحلة ابن جبير ، تحقيق د. حسين نصار ، طبعة مكتبة مصر سنة ١٩٩٢ .
- ١٠- ابن الجوزي : أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد ت ٥٢٧ هـ : المنتظم ، طبعة دائرة المعارف العثمانية ، حيدر آباد الدكن ، الهند ١٣٥٧ هـ .
- ١١- حسنين : د. عبد النعيم محمد : سلاجقة إيران والعراق ، طبعة مكتبة النهضة المصرية ، الطبعة الثانية ١٩٧٠ .
- ١٢- الحسيني : صدر الدين أبي الحسن علي بن ناصر بن علي ت ٥٧٥ هـ : أخبار الدولة السلجوقية ، تصحيح محمد إقبال ، من منشورات دار الأفاق الجديدة ، بيروت ١٩٨٤ .
- ١٣- خليفة : حاجي خليفة ت ١٠٦٧ هـ : كشف الظنون في أسامي الكتب والفنون ، طبعة وكالة المعارف الجليلة استامبول سنة ١٩٤١ .
- ١٤- الداودي : محمد بن علي بن أحمد ت ٩٤٢ هـ : طبقات المفسرين ، تحقيق علي محمد عمر ، نشر مكتبة وهبة ، مركز تحقيق التراث بدار الكتب ، بدون تاريخ .

١٥- الذهبى : أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان ٧٤٨ هـ : تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير ، تحقيق لجنة دار الفد العربى ، طبعة دار الفد العربى ، القاهرة ١٩٩٦ .

وتذكرة الحفاظ ، الطبعة الثانية ، دائرة المعارف النظامية ، الهند ١٣٣٣ هـ .

ودول الإسلام ، تحقيق فهم شلتوت ، ومحمد مصطفى إبراهيم ، طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٧٤ .

وسير أعلام النبلاء ، تحقيق شعيب الأرنؤوط ، ومحمد نعيم العرقسوسى ، طبعة مؤسسة الرسالة ، بيروت ١٩٨٥ .

والعبر فى خبر من غير ، تحقيق محمد السعيد بسيونى ، طبعة دار الكتب العلمية ، بيروت ، بدون تاريخ .

١٦- الراوندى : محمد بن على بن سليمان (ت) أوائل القرن السابع : راحة الصدور وآية السرور ، ترجمة إبراهيم أمين الشواربى ، وعبد النعيم حسنين ، وفؤاد الصياد ، طبعة القاهرة ١٩٦٠ .

١٧- السبكى : تاج الدين عبد الوهاب بن على بن عبد الكافى ٧٧١ هـ : طبقات الشافعية الكبرى ، تحقيق د. عبد الفتاح الحلو ، ومحمود محمد الطناحى ، طبعة دار إحياء الكتب العربية ، مصر ١٩٦٤ .

١٨- السخاوى : محمد بن عبد الرحمن ت ٩٠٢ هـ : الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ ، طبعة دار الكتاب العربى ، بيروت ١٣٩٩ هـ .

والجواهر والدرر ، ضمن كتاب علم التاريخ عند المسلمين لروزنثال ، ترجمة صالح العلى ، طبعة مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٩٨٣ .

١٩- سليمان : د. حبيب أمين : المؤرخ الإيرانى خواندمير ، طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٠ .

٢٠- السمعانى : أبو سعد عبد الكريم بن محمد بن منصور التميمى ت ٥٦٢ هـ : أدب الإملاء والإستعلاء ، طبعة دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ١٩٨١ .

والأنساب : طبعة وزارة المعارف ، الهند سنة ١٩٦٣ .

٢١- السيوطى : جلال الدين عبد الرحمن بن أبى بكر ت ٩١١ هـ : بغية الوعاة فى طبقات اللغويين والنحاة ، طبعة مطبعة السعادة ، القاهرة ١٣٢٦ هـ .

وتاريخ الخلفاء ، طبعة دار التراث ، بيروت ١٩٦٩ .

وطبقات الحفاظ ، تحقيق على محمد عمر ، طبعة مطبعة الاستقلال الكبرى القاهرة ، بدون تاريخ .

وطبقات المفسرين ، طبعة ليدن ، بدون تاريخ .

٢٢- الطرطوسى : أبو بكر محمد بن الوليد الأندلسى ت ٥٢٠ هـ : سراج الملوك ، طبعة المطبعة الخيرية ، القاهرة بدون تاريخ .

- ٢٣- عباس إقبال الاستيامي ت ١٣٧٦ هـ : تاريخ إيران بعد الإسلام ، نقله عن الفارسية ، د. محمد علاء الدين منصور ، طبعة دار الثقافة القاهرة ١٩٨٩ .
- ٢٤- ابن عساكر : الحافظ أبو القاسم علي بن الحسن ت ٥٧١ هـ : تاريخ مدينة دمشق ، تحقيق الدكتور شكري فيصل ، طبعة سورية ، بدون تاريخ .
- ٢٥- ابن العماد : أبو الفلاح عبد الحي بن العماد الحنبلي ١٠٨٩ هـ : شذرات الذهب ، طبعة (٢) دار المسيرة ، بيروت ١٩٧٩ .
- ٢٦- العيني : بدر الدين محمود بن أحمد ت ٨٥٥ هـ : السيف المهند في سيرة الملك المؤيد ، تحقيق فهم محمد شلتوت ، مراجعة د. محمد مصطفى زيادة ، طبعة دار الكتاب العربي ، القاهرة ١٩٦٧ .
- ٢٧- ابن الفوطي : أبو الفضل عبد الرازق بن أحمد ت ٧٢٢ هـ : تلخيص مجمع الآداب في معجم الألقاب ، تحقيق د. مصطفى جواد ، طبعة وزارة الثقافة والإرشاد القومي سنة ١٩٦٧ .
- ٢٨- القزويني : زكريا بن محمود ت ٦٨١ هـ : آثار البلاد وأخبار العباد ، طبعة دار صادر ، بيروت بدون تاريخ .
- ٢٩- القزويني : عبد الكريم بن محمد الرافعي من أعلام القرن السادس : التدوين في أخبار قزوين ، تحقيق الشيخ عزيز الله العطاردي ، طبعة دار الكتب العلمية ، بيروت ١٩٨٧ .
- ٣٠- القلقشندي : أحمد بن علي بن أحمد ت ٨٢١ هـ : نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب ، طبعة دار الكتب العلمية ، بيروت ١٩٨٤ .
- ٣١- ابن القيم أبو عبد الله بن أبي بكر ت ٧٥١ هـ : اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية ، طبعة دار الفكر مصر ، سنة ١٤٠١ هـ .
- ٣٢- كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية ، ترجمة نبيه أمين فارس ، ومنير البعلبكي ، طبعة دار العلم للملايين ، بيروت ١٩٦٥ .
- ٣٣- ابن كثير : الحافظ إسماعيل بن عمر ت ٧٧٤ هـ : البداية والنهاية ، تحقيق نخبة من الأساتذة ، طبعة دار الكتب العلمية ، بيروت سنة ١٩٨٥ .
- ٣٤- كحالة : عمر رضا : معجم المؤلفين ، طبعة الترقى بدمشق سنة ١٩٥٧ ، وطبعة مؤسسة الرسالة ، بيروت ١٩٩٣ .
- ٣٥- ابن المستوفي : أبو البركات المبارك بن أحمد اللخمي ت ٦٣٧ هـ : تاريخ أربل ، تحقيق سامي بن السيد الصغار ، من منشورات وزارة الثقافة والإعلام بالعراق سنة ١٩٨٠ .
- ٣٦- ابن نقطة : محمد بن عبد الغني ت ٦٢٩ هـ : التقييد لمعرفة الرواة والسنن والمسانيد ، طبعة دائرة المعارف العثمانية ، بحيدر آباد الدكن ، الهند ١٩٨٣ .
- ٣٧- اليافعي : أبو محمد عبد الله بن أسعد ت ٧٦٨ هـ : مرآة الجنان وعبرة اليقظان ، طبعة بيروت سنة ١٩٧٠ م .

المستوفى والاستيفاء فى العصر السلجوقى

تمهيد :

تعددت الوظائف الإدارية فى الدولة السلجوقية ، ومنها وظيفة المستوفى (١) ، التى تلى مكانته الوزير فى النواوين الحكومية ، ومهمته أشبه بوظيفة وزير المالية فى وقتنا الحاضر . وتشمل إدارته ديوان الاستيفاء والإشراف على تنظيم إيرادات الدولة ومصروفاتها (٢) ، فالمستوفى موظف من موظفى الأموال بالدولة ، وعليه التنبيه على ما فيه مصلحتها من استخراج الأموال ونحو ذلك (٣) .

ومن أهم الخطوات المتبعة فى تعيين المستوفى فى رئاسة ديوان الاستيفاء صدور مرسوم من السلطان القائم فى الحكم يحدد فيه المهام التى يقوم بها المستوفى ، كالمرسوم الصادر "لأبى العلاء صاعد بن حسين المستوفى" فى عهد السلطان "سنجر" (٤) ، والمرسوم الصادر فى شوال سنة ٥٦٣ هـ / ١١٦٧ م ، فى عهد السلطان أرسلان شاه ، بتعيين "نظام كيخسرو بن مجد الدين" فى وظيفة مستوفى (٥) .

أدرك السلاجقة منذ وقت مبكر أن الواجب يحتم عليهم أن يبذلوا جهودهم للمحافظة على مكاسبهم والإبقاء على الصرح الذى شيده ، قرأوا أنهم فى حاجة إلى إقرار نظم إدارية ،

* أستاذ التاريخ الإسلامى والحضارة المساعد بكلية دار العلوم - جامعة المنيا .

والى تعيين موظفين وعمال ينجزون حوائجهم ويتظلمون متطلباتهم ويساعدونهم فى الاحتفاظ بدولتهم الفسيحة ؛ لذا احتفظوا بنفس التشكيلات^(٦) ، كما كانت سائدة فى المشرق الإسلامى ، ولم يستحدثوا وظيفة المستوفى ، بل عرفت قبلهم فى العصر السامانى^(٧) والغزنوى .

وفى حقيقة الأمر فإن السامانيين فى بداية عهدهم استمروا النظم الإدارية ورسوم البلاط من الخلافة العباسية وغيرها من البلاد ونقلوها إلى دواوينهم ، وقد أشار عباس إقبال^(٨) إلى أن الوزير أبا عبد الله محمد بن أحمد الجيهانى وزير الأمير نصر بن أحمد السامانى^(٩) ، أرسل الكتب إلى كل بلاط وديوان لكتفى تنسخ له نسخة مما لديها من مرسوم البلاط والديوان فأرسل إلى بلاد الروم والتركستان والهند والصين والخلافة العباسية وغيرها ، ثم نظر فى تلك النظم وأخذ بأفضلها ، وأمر بأن يسير كل أهل البلاط والديوان فى بخارى وفق تلك المراسيم .

ومن ذلك نستخلص أن ديوان الاستيفاء ونظمه كان خلاصة تجارب سابقة ، وأن الفضل يعود للسامانيين ووزيرهم فى نقله إلى المناطق الشرقية من الخلافة العباسية . وقد انتقلت نفس التشكيلات الإدارية من السامانيين إلى خلفائهم الغزنويين والسلاجقة وملوك خوارزم ، وظلت حتى عهد المغول ، وكانت طبقة المستوفيين تتوارث حفظ وتنفيذ هذه الأوضاع جيلا بعد جيل^(١٠) .

أما عن أشهر المستوفين فى العصر السامانى ، فكان أبو الحسين المزنى ، الذى عمل فى بداية حياته مستوفيا فى ديوان الأمير نوح السامانى ، وأثبت جدارة فائقة فى إدارة أمور الدولة ، وترقى إلى منصب الوزارة بعد استشهاد الوزير أبى الحسن العتبى^(١١) .

كذلك اشتهر عبد الرحمن الخازن صاحب الاستيفاء فى عهد الأمير نوح السامانى ، وهو الذى قام بدور الوساطة والصلح بين هذا الأمير والثائر عليه أبى على سيمجور . وتميز هذا المستوفى بالميل إلى الفكر والثقافة ، فصنف عددا لا بأس به من الكتب من ضمنها كتاب سماه " زيچ الصفائح " فى العلوم الرياضية^(١٢) .

كذلك عرفت وظيفة المستوفى فى العصر البويهى ، إذ عهد عضد الدولة بن بويه^(١٣) إلى مسكويه أبا على الخازن بذلك المنصب ، فسير شئون الديوان على خير وجه ، وألف مناظرات ومحاضرات وتصنيفات فى شتى علوم المعرفة^(١٤) .

أما فى العصر الغزنوى فقد عين السلطان محمود بن سبكتكين فى منصب الاستيفاء أحمد ابن حسن الميمندى ، الذى تدرج فى عدد كبير من الوظائف الديوانية ، فأبدى مهارة فائقة فى إدارة شئون الجند وتنظيم جمع أموال خراسان^(١٥) ، كما عين السلطان محمود فى ديوان الاستيفاء بغزنه^(١٦) ، طاهر المستوفى^(١٧) ، الذى استمر فى الوظائف الديوانية حتى رقى إلى منصب الوزارة فى عهد السلطان مودود^(١٨) .

وفى بعض عهود سلاطين الغزنويين عين مستوفى خاص على الأقاليم الكبرى ، فأُسند السلطان محمود إلى أبى إسحاق مهمة الاستيفاء على إقليم خراسان^(١٩) ، وأُسند السلطان مسعود الغزنوى على بلاد الهند مستوفيا يسمى سعد سليمان ، وعلى خراسان مستوفيا آخر^(٢٠) ، وفى سنة ٤٣٠ هـ / ١٠٣٨-١٠٣٩ م أقر السلطان على غزنة مستوفيا هو أبو منصور المستوفى ، أوكل إليه مهمة إعداد جهاز وقائمة العرس لابنه الصغير مردان شاه الذى لم يتجاوز الثالثة عشر من عمره على ابنة الأمير بكتغدى^(٢١) ، وقد لعب أبو منصور المستوفى هذا دورا بارزا فى حياة السلطان مسعود عندما قرر الذهاب إلى بلاد الهند عقب هزيمته فى موقعة داندانقان أمام السلاجقة ، فقام بتحميل جميع خزائن غزنه وما بها من الذهب والجواهر على جمال فى سرية تامة ونقلها إلى الهند^(٢٢) . وفى عهد السلطان مودود تولى رئاسة ديوان الاستيفاء فترة قصيرة رجل يدعى طاهر المستوفى^(٢٣) ، الذى ترقى بعد ذلك إلى منصب الوزارة .

وممن تولى منصب الاستيفاء فى الدولة الغزنوية أيضا أبو الحسن الخازن فى عهد سبكتكين^(٢٤) وتكين الخازن فى عهد محمود^(٢٥) ، وقد صادره السلطان مسعود وحصل منه على أموال طائلة^(٢٦) ولم تكن هذه الحالة الأولى التى تشدد فيها السلطان على المستوفى ، فقد كان المستوفى دائما موضع محاسبة ويعاقب إذا أخطأ . والأمثلة على ذلك كثيرة منها ما أوقعه السلطان محمود على أحمد بن حسن الميمندى من عقاب فقد صادر أمواله وعزله ، وأغرمه ما قيمته ألف ألف دينار^(٢٧) ، كما عوقب أبا العباس الفضل بن أحمد ، الذى كان يتولى الشئون المالية فى الدولة إلى جانب الوزارة ، نتيجة لعجزه عن دفع المبالغ المعتادة لخزانة الدولة ، وقيل إنه دخل السجن بمحض إرادته ، وظل فيه حتى وفاته سنة ٤٠٤ هـ / ١٠١٣ م^(٢٨) .

١- الشروط الواجب توافرها في المستوفى :

اهتم سلاطين السلجقة بالاحتفاظ بحق تعيين المستوفى في السلطنة ، وكذلك عزله من منصبه ، ولما كان من حق الوزير الأعظم الإشراف على الدواوين باعتباره منفذا لسياسة السلطان السلجوقي ، فإن ديوان الاستيفاء كان من أهم مهامه . ومما يجدر الإشارة إليه أن تعيين المستوفى في منصب رئيس ديوان الاستيفاء ، كان لابد وأن يصدر به مرسوم من السلطان ، وهناك عدد من المراسيم السلطانية منها مرسوم باسم " نظام الدين كنجرو بن مجد الدين " بتاريخ شوال سنة ٥٦٣ هـ / سنة ١١٦٧ م (٢٩) ، ومرسوم آخر أصدره السلطان سنجر باسم " زين الدين أبو العلاء صاعد بن حسين " مستوفيا على مدينة مرو (٣٠) .

وقد حدد هذان المرسومان أهم الشروط الواجب توافرها فيمن يتولى هذا المنصب ، بأن يكون معروفا بحسن السيرة والسداد في الرأي ، على قدر كبير من التدين والخلق الكريم ، عارفا بأسرار المعاملات المالية ونظمها ، لا يفوته ضبط الجزء من حساباتها ، موصوفا بأنواع من الكفاءات والخبرات التامة بالشئون المالية وأصول التعامل بها ، خاصة في أعمال الضرائب وفصل المحاسبات وجلبها وإراجعتها ، عارفا بضبط الخراج والزيادات والعلاوات (٢٥) .

ومن الواضح أن تعيين المستوفى يخضع لنظم معينة من التوقيير والاحترام والخلع السلطانية ، وجلوس المجلس العام تقديرا وتعظيما له ، مع إلزام عمال الوزارة بمراعاة قدر المستوفى واحتشامه ، وإدراك منزلته الكريمة ، وأن يرفعوا إليه في كل شأن يتعلق بديوان الاستيفاء مع توقيير مرسومه ، وذلك بأمر من السلطان نفسه (٣٢) .

هذا بالإضافة إلى ارتباط عمله بالشئون المالية والحسابات وضبط الدخل والمنصرف ، وحفظ القوانين وتسيير الدواوين ، وجمع الضرائب وتنظيم إيرادات الدولة ومصروفاتها ، وتحصيل الخراج لذا كان عليه أن يكون على رأس الديوان ويتولى رئاسته (٣٣) ، وأن عليه تعيين نوابه ومحاسبتهم إذا أخطئوا (٣٤) .

٢- مهام المستوفى واختصاصاته :

تعددت مهام المستوفى واختصاصاته فى الدولة السلجوقية ، فشملت العديد من الأعمال التى أوكلها السلاطين لهم ، ما بين الإشراف على الخراج وتوزيع أرزاق الجند ، ومصاحبة الجيش فى تحركاته ، والقيام بالإنشاءات الخيرية كالمدارس وغيرها ، ومن أولى هذه الاختصاصات الإشراف على خزائن الدولة ، ولذا لقب بالخازن أو خزانه دار ، فقد عرف عن السلاطين السلاجقة أن لهم خزانتين دائماً ، إحداها الخزانة الأصلية ، والأخرى خزانة الإنفاق، وكان معظم المال يوضع فى الخزانة الأصلية ، أما خزانة الإنفاق ففيها الشئ اليسير ولم يكن السلطان يأمر المستوفى بالإنفاق من الخزانة الأصلية إلا إذا ألجأهم الضرورة إلى ذلك (٣٥) .

وقد اشتملت الخزائن فى العصر السلجوقى على العديد من الأشياء القيعة ، مثل السلاح بأنواعه والخيول الأصلية ، والغلمان والجوارى ، بالإضافة إلى الأموال والجواهر والتحف الثمينة وغيرها من الأشياء (٣٦) .

ومن متطلبات منصب المستوفى الوظيفية المحافظة على خزائن الدولة ، وإضافة الأموال إليها ، ففي عهد السلطان ملكشاه (٣٧) قام أبو الرضا المستوفى فى أثناء محاسبة الملك "قاوورد" وحبسه فى خيمة الأمير "سوتكين" بدور بارز عندما دخل عليه مطالباً أياه بمفاتيح الخزائن وعلامات الدفائن ، حتى استخلصهما منه قبل قتله (٣٨) .

وكان من واجب المستوفى الاهتمام بالخزانة فى أثناء تحرك السلاطين من مكان إلى آخر ومصاحبتهم ، حتى يكون تحت يده ما يطلب من أموال ، فترى السلطان ألب أرسلان يهتم أثناء تحركه من خراسان إلى العراق وبالعكس بالاستعانة بأموال خزائنه ، حتى يكمل النقص فى استعدادات جيشه وأرزاق جنده (٣٩) .

وعندما فرض ألب أرسلان على الإمبراطور "رومانوس ديوجين" - عقب انتصاره فى موقعة ملازكرد- دفع جزية كبيرة للمسلمين تقدر بحوالى ٣٦٠ ألف دينار سنوياً ، بالإضافة إلى فدية عن الإمبراطور - الذى أسر فى الحرب - تبلغ مليوناً ونصف المليون دينار ، قدم رسول الإمبراطور بأموال ثاء بثقلها عمال الاستيفاء ، واغتص بحسابها ديوان الاستيفاء من كثرتها (٤٠) .

ويبرز بوضوح دور المستوفى فى الاهتمام بالخزائن وجمع الأموال بها ، وضبط حساباتها عندما قام الخازن فى عهد ملكشاه بجمع عدد كبير من الخزائن على مدى سنتين ، تقدر بأربعين خزنة ، جعل لكل خزنة صنف لا يشبهه الآخر من جميع أنواع الجواهر والأواني الذهبية والفضية والأقمشة الثمينة الملوكة (٤١) .

وفى أثناء الحروب كانت الخزائن تعد هدفا حرييا يسهل الاستيلاء عليه فى حالة الانتصار ويظهر ذلك بوضوح عند هزيمة السلطان سنجر على يد الخطا (٤٢) فإن علاء الدين أوتسر بن محمد خوارزم شاه انتهز الفرصة وبخل مرو عاصمة السلطان عنوة ، واستولى على خزائنه ونقلها إلى خوارزم (٤٣) . فلما أطلق سراح سنجر وعاد إلى الحكم ، زحف على علاء الدولة وأعاد خزائنه ، وقد قيل أنها كانت بنفس الختم السنجرى (٤٤) ، مما يدل على أن السلاطين السلاجقة كانوا يهتمون بخاتهم الخاص على صناديق الأموال والجواهر .

ومن المهام الموكلة للمستوفى ، والتى اضطلع بها وغلبت على غيرها من الاختصاصات مرافقة تحركات الجيوش وتنقلاتهم ، وذلك لتقديم الإنفاق وتوزيع الأرزاق والمرتببات على الجند ، وبناء على ذلك فإن المستوفى لتواجده فى صفوف الجيش فرما يقع أسيرا بين يدي الأعداء ويضطر لعداء نفسه بالأموال ، ففى سلطنة طغرل بن محمد طبر ، قامت الحرب بينه وبين الملك داود عند مدينة همذان (٤٥) ، فأسر صفى الدين المستوفى ، وفدى نفسه بمبلغ مائتى ألف دينار ، وذلك فى رمضان سنة ٥٢٦ هـ / ١١٣١ م (٤٦) .

ومما يؤكد صحة قيام المستوفى ونائبه بمرافقة جيوش السلطان فى تحركاته العسكرية ما حدث فى سنة ٥٥١ هـ / ١١٥٦ م ، من مسيرة رئيس ديوان الاستيفاء رضى الدين أبو سعد الخوافى ، ونائبه كمال الدين أبو الريان فى صحبة جيش السلطان محمد لمحاصرة بغداد فى عهد الخليفة المقتدى لأمر الله العباسى (٤٧) .

ولا يفهم من كلامنا السابق أن اصطحاب المستوفى ونائبه برفقة الجيش كان بغرض المشاركة فى العمليات الحربية والقتال ، وإنما كان بهدف توزيع الأرزاق وترتيب الإنفاق على الجيش وخدماته ، فقد كان يثبت أسماء الجنود فى الجرائد الديوانية ، ويخصص لكل منهم رزقا معلوما ، ففى عهد ملكشاه وزع على قادة الجيش إقطاعات معينة فى سائر بلاد المملكة ، حتى إذا نزلوا بأية ناحية منها كانت نفقاتهم وعلوفه نوابهم معدة مهياة ، وقد بلغ عدد أسمائهم فى الديوان ستة وأربعين ألف فارس ، وانحصرت مهمة المستوفى هنا فى الإشراف على توزيع هذه الأرزاق (٤٨) .

وكثيرا ما غضب قادة الجيوش والأمراء على المستوفى عندما يكون شحيحا بخيلا معهم فى توزيع مؤنتهم وأرزاقهم ، مما يترتب عليه عزله أو قتله ، ففي سلطنة مسعود سنة ٥٣٣ هـ / ١١٣٨ م ، تولى منصب رئاسة الاستيفاء كمال الدين محمد بن على الخازن ، الذى اتصف بالتهور والبخل ، وكان لا يترك الأمراء يتصرفون بحريتهم ، ولا يراعى جانبهم ، ويعطى الجند مؤنا بقدر وحساب ، ومن ثم اشتكى الأمراء للاتابك قراسنقر ، الذى تدخل عند السلطان مسعود ، فدارت الدائرة على كمال الدين وانتهت حياته بالقتل وقطع يده ورأسه وإرسالها إلى الاتابك قراسنقر (٤٩) .

وفى كثير من الأحيان عند تأخر الأرزاق على الجند ، يحدث اضطراب بينهم ، ويصل الأمر إلى الهجوم على الخزانة السلطانية ، كما حدث ذلك فى رئاسة مجد الملك المستوفى ليعوان الاستيفاء فى عهد السلطان بركيارق بن ملكشاه (٥٠) .

ومن اختصاصات المستوفى أيضا تقديم الهبات والعطايا بأمر من السلطان للأمراء والعلماء والرسل ، ففي عهد ملكشاه ، قام أبو سعد محمد بن منصور المستوفى ، بتقديم جائزة سنوية للشاعر أبو جعفر منصور (٥١) ، كما أمر السلطان ملكشاه خازنه بتوزيع العطايا والخلع على ستمائة زعيم من أمراء البلاد ، تقربا ومودة ، مما يدل على امتلاء الخزائن بالأموال فى ذلك الوقت (٥٢) .

وفى بعض أوقات الضعف كان المستوفى يتدخل فى شئون توزيع الميراث فقد قرر مجد الملك القمى المستوفى فى عهد محمود بن ملكشاه وأمه تركان خاتون أن يهب بركيارق من خزانة الدولة مبلغ خمسمائة ألف دينار من ميراث أبيه ، حتى يفك حصار أصفهان ويرحل عنها (٥٣) .

وفى عهد السلطان سنجر قام رئيس ديوان الاستيفاء بتنفيذ أوامر السلطان بتوزيع العطايا ، التى بلغت سبعمائة ألف دينار من العين ، وألف ثوب من الأطلس الأحمر وغيرها من الخيل والخلع ، وكان المستوفى فى ذلك الوقت هو ظهير الدين الخازن (٥٤) .

ومن المهام الموكلة للمستوفى الإشراف على نفقات بناء المؤسسات الخيرية فى الدولة ، كبناء المدارس والأربطة والمساجد وغيرها ، فقد قام شرف الملك أبو سعد محمد بن منصور الخوارزمى المستوفى فى عهد ملكشاه ببناء مدرسة كبيرة فى مدينة مرو ، وأوقف عليها كتباً نفسه ، وبنى أربطة فى المفاوز (٥٥) .

وقد تعدت سلطة المستوفى شرف الملك أبو سعد الإشراف على بناء المؤسسات الخيرية في حاضرة السلطنة ، إلى الإشراف على تشييد مبان في حاضرة الخلافة العباسية نفسها ، فقد قام ببناء مدرسة كبيرة لأصحاب المذهب الحنفي بباب الطاق ببغداد على مقربة من قبر الإمام أبي حنيفة النعمان (٥٦) ، كما أقام مشهدا على القبر ، ولما فرغ المستوفى من تلك العمارة ، دعا العلماء والأعيان لمشاهدة هذه المنشآت المعمارية ، فأنشد الشريف أبو جعفر مسعود المعروف بالبياض الشاعر أبيات منها :

ألم تر أن العلم كان مبيددا فجمعه هذا المغيب في اللحد (٥٧)

ومما يسترعى النظر أن هذا المستوفى وصل إلى درجة كبيرة من الثراء ، والتنعيم في مطعمه ومشربه ومركبه ، حتى أنه كان يشرب ماء خوارزم بأصفهان ، ويزعم أنه يمرئه وأنه عليه نشأ ، وكان يأكل حنطة مرو ببلاد الشام ، ولا يبخل على نفسه بأجود الأطعمة فيجلبها من موطنها الأصلية إلى أى مكان يكون فيه . وفى آخر أيامه ترك العمل فى ديوان الاستيفاء ، ولزم قصره ، فكانوا يرجعون إليه فى بعض أمور الدولة المالية ، حتى توفى فى مدينة أصفهان فى المحرم من سنة ٤٦٤ هـ / ١٠٧١ م (٥٨) .

كذلك قام المستوفى تاج الملك أبو الغنائم المرزبان بن خسرو فى سلطنة ملكشاه ببناء مدرسة بباب أيرز ببغداد فى سنة ٤٨٥ هـ / ١٠٩٢ م - قبل أن يصل إلى منصب الوزارة - خصصها لأصحاب المذهب الشافعى ، وأطلق عليها اسم المدرسة التاجية نسبة إلى اسمه (٥٩) . وقد قيل إن تاج الملك أبو الغنائم ابتاع عدة أماكن كبيرة مثل دار الهمام وما يليها بقصر بنى المأمون ، ودار ختلع أمير الحاج ، لكى يقيم عليها تلك المدرسة ، وقام بتشبيدها وعمارتها شخص يدعى أبو طاهر بن الأسباغى (٦٠) ، وعلى الرغم من أعمال هذا الرجل الخيرية إلا أنه قتل فى عهد بركيارق سنة ٤٨٥ هـ / ١٠٩٢ م نتيجة تدخله فى الصراع القائم بين الأخوين محمود وأمه ترکان خاتون وبركيارق وأمه زبيدة خاتون (٦١) .

أما عزيز الدين أبو نصر أحمد بن حامد المستوفى فى عهد السلطان محمد بن ملكشاه فقد شيد بيمارستانا - مستشفى - متنقلا ، يشتمل على الآلات الطبية والأدوات والخيم والأطباء المرافقين . وكان هذا البيمارستان مخصصا لجند السلطان وقادته ، ويكون المستوفى مسئولا أمام السلطان عن أى نقص فى أدواته وأعماله (٦٢) . ومن جملة أعمال هذا المستوفى المعمارية بناء ملجأ للأيتام فى بغداد ، ورصد الأوقاف عليه وتخصيص من يكفل الأيتام حتى

يبلغوا الحلم ، فقد قام عزيز الدين المستوفى بتقرير نفقة هؤلاء الأيتام فى ديوان الاستيفاء وعمل ما يلزم لتجهيز أماكن إقامتهم ومعيشتهم ، وأحضر المشايخ لتدريسهم الأدب وحفظ القرآن وغيرها من العلوم (٦٣) .

كذلك قام معين الدين أبو نصر بن أحمد الكاش المستوفى فى سلطنة محمود بن محمد بن ملكشاه الذى انتقل إلى خراسان فى بلاط السلطان سنجر ببناء المدارس والأربطة والمؤسسات الخيرية فى عدة أقطار ، وأوقف عليها القرى العامرة والمزارع الوفيرة التى اشترى معظمها من ماله الخاص (٦٤) .

ومن جملة اختصاصات المستوفى أن يكون سفيرا ورسولا من قبل السلطان إلى دار الخلافة ببغداد ، لنقل الهدايا والرسائل ، من ذلك أن أبا سعد محمد بن منصور المستوفى فى عهد السلطان ألب أرسلان فى سنة ٤٥٩ هـ / ١٠٦٦ م قام بحمل هدايا قيمة منها مصحف جليل وياقوتة نادرة للخليفة بالعراق (٦٥) .

ومن مهامه أيضا القيام بتقديم بيانات بالأموال المتوافرة ووجوه إدخالها وإخراجها ، ويظهر هذا بصورة واضحة عند عزل أو تعيين أحد رجالات الدولة كالوالى أو الوزير أو من فى منزلتهم (٦٦) . وعندما أساء السلطان محمد بن ملكشاه الظن بمختص الملك الكاشى ، أمر بمصادرة أمواله وعزله ، وأسند إلى محمد الجوزجاني مهام منصبه ، لذا لابد من جرد هذه الأموال وعدها ، وكتابتها فى سجلات ديوان الاستيفاء (٦٧) .

وفى مقدمة مهام المستوفى واختصاصاته مصادرة أموال المغضوب عليهم من الولاة والوزراء والأمراء ، ومنحه سلطة تقصى الحقائق والتجسس على نوى الأمر فى سنة ٤٧٩ هـ / ١٠٨٦ م ، عهد السلطان ملكشاه إلى مستوفيه بتقصى الحقائق نتيجة لتجمهر عريف الصناع والفعلة ومن معهم من العمال أمام دار الخلافة ، نتيجة لما تعرضوا له من مصادرات من قبل والى مدينة " واسط " المسمى ابن رزق ، وعندما اتضح صدق أقوالهم ، قام المستوفى بمصادرة أموال الوالى ومعاقبته بالعزل عن ولايته ورد مال الصناع إليهم (٦٨) .

كذلك قام صاحب الاستيفاء المسمى أبو القاسم بن الفقيه فى سنة ٥٠٠ هـ / ١١٠٦ م ، بمصادرة أموال وزير بغداد المعزول المسمى بأبى القاسم على بن جهير ، وأحصى ما بداره من أموال وأمتعة ، وأدخلها إلى ديوان الاستيفاء (٦٩) .

وأوكل إلى المستوفى مهمة الإشراف على شراء غلمان السلطان والإشراف على تدريبهم وإعدادهم للمهام المنوطة إليهم ، فقد أمر السلطان سنجر صاحب الاستيفاء المسمى ظهير الدين عبد العزيز بشراء غلام بمبلغ معلوم ففعل (٧٠) .

ومن المهام الرئيسية للمستوفى ونوابه فى الدولة السلجوقية الإشراف على إعداد جهاز العروس ومستلزمات الأفراح ، وإعداد بيت الزوجية ، خاصة إن كان هذا العرس يخص أحد أبناء أو بنات السلطان ، وقد انتقلت هذه المهمة من الدولة الغزنوية إلى السلاجقة ، فإننا نرى قيام أبى منصور المستوفى فى عهد مسعود الغزنوى بتجهيز متطلبات جهاز الأمير مردانشاه على ابنة الأمير بكتغدى ، وإعداد قائمة بجهازهما ، اشتملت على أربعة تيجان ذهبية مرصعة بالجواهر ، وعشرين طبقاً من الذهب فيها فواكه من مختلف أنواع الجواهر ، وعشرين صندوقاً للمغازل من ذهب مرصع بالجواهر ، ومكنسة من الذهب نظمت أليافها باللؤلؤ وغيرها من الأمتعة (٧١) .

وفى العصر السلجوقى قام عزيز الدين المستوفى بإعداد جهاز عرس ابنة السلطان سنجر ابن ملكشاه على السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه (٧٢) .

وعند حدوث خلاف بين العروسين أو وفاة أحدهما كان يخشى من المستوفى الذى قام بإعداد الجهاز لأنه أعلم بما حوى ، فيتعرض للعقاب أو القتل نتيجة لذلك ، فعندما توفيت ابنة سنجر ، طالب أبوها بجهازها ، وما حملت معها من أنواع التحف والجواهر ، فرفض محمود إعادته مرة أخرى ، وخشى من عزيز المستوفى أن يشهد عليه ، لأنه قد أعد هذا الجهاز ، ورتبه وعرف ما حوى من جواهر لا توجد فى كثير من خزائن الملوك ، ومن ثم قبض عليه وأودعه السجن فى قلعة تكرت (٧٣) ، ثم أمر بقتله فى سنة ٥٢٥هـ / ١١٣٠ م (٧٤) .

ومن منطلق الزيجات والمصاهرات التى تمت بين البيت الخلقى والبيت السلجوقى ، فإن نور المستوفى يظهر بصورة واضحة لرافقته للعروس إلى دارها ، فقد كان السلاجقة يبعثون بيناتهم إلى بغداد لإتمام مراسم الزواج وعقد القران ، مع إرسال الهدايا الفاخرة والتحف ، يصحبها قاض القضاة ومستوفى السلطنة ، فقد أرسل السلطان ألب أرسلان مع ابنة الخليفة القائم بأمر الله المسماة سيدة خاتون زوجة السلطان طغرل بك المتوفى ، نفقتها وقيمتها خمسة آلاف دينار ، مع صحبة المستوفى إلى بغداد (٧٥) .

وفى أثناء زواج أرسلان خاتون ابنة ملكشاه بالخليفة العباسى المقتدى بالله ظهر دور مستوفى السلطنة عندما ذهب إلى والدتها ، لكى يستأذن فى اصطحاب العروس إلى دارها الجديدة ، حيث تقدم الوزير نظام الملك الطوسى وأبو سعد المستوفى إلى السيدة ترکان خاتون وكل واحد منهما معه هدايا قيمة ، لتقديمها لوالدة العروس (٧٦) .

ومن الأمور الهامة التى تقع تحت نفوذ واختصاص المستوفى الإشراف على دار ضرب العملة ، حتى يكون على علم بالنفقات العامة ، وكمية العملة الذهبية والفضية فى دار الضرب ، ومتابعة العمال والصناع بها ، والتأكد من قيمة الصرف ، لاستعمال الدنانير الذهبية فى جباية الخراج والضرائب الأخرى (٧٧) .

٣- أشهر من تولوا منصب الاستيفاء ومكانتهم فى الدولة :

اشتهر عدد كبير من المستوفين بعلو الهمة والمكانة الرفيعة فى الدولة السلجوقية منهم "شرف الملك أبو سعد محمد بن منصور الخوارزمى" الذى تولى منصب رئاسة الاستيفاء فى عهد كل من السلطان طغرل وألب أرسلان وجزء من سلطنة ملكشاه ، اتصف بجلالة القدر ، وكان على المذهب الحنفى ، لذا شيد مدرسة فى باب الطاق ببغداد لأصحاب هذا المذهب (٧٨) ، وتمتع بالشراء الفاحش (٧٩) ، وكان مقرباً من الوزير نظام الملك الطوسى مؤيداً منه ، أشار عليه بالمسير إلى نيسابور (٨٠) والمقام بها مع السلطان ملكشاه فى بداية سلطنته ، وذلك سنة ٤٦٥ هـ / ١٠٧٢ م ، وبالفعل نفذ السلطان ووزيره هذه النصيحة فعادت بالخير على الدولة نتيجة لاستخراج أموال كبيرة من قهندز بنيسابور ، استخدمت فى استمالة قلوب الأمراء وقادة الجند (٨١) ، توفى شرف الملك المستوفى فى سنة ٤٩٤ هـ / ١١٠٠ م بعد أن استقال من منصب الاستيفاء بفترة قصيرة (٨٢) .

ومن اشتهر فى منصب الاستيفاء "سعد الملك بن محمد الآبى" ، الذى اتصف بالتدين وحسن التدبير (٨٣) ، عمل بداية حياته كاتباً فى ديوان السلطان محمد طبر (٨٤) ، ثم رفع إلى منصب الاستيفاء (٨٥) ، وانتهت حياته بالتآمر عليه من قبل أعدائه .

وعندما رقى سعد الملك الآبى إلى منصب الوزارة فى سنة ٤٩٨ هـ / ١١٠٤ م أسند السلطان محمد طبر إلى شمس الدين أبى سعد هندو بن محمد بن هندو القمى "منصب رئاسة ديوان الاستيفاء ، ولقبه بزين الملك (٨٧) ، وقد عرف بميله الشديد للمال والإسراف فى جمعه وتحصيله ، ومن ثم جاءت نهايته بالقتل على يد الأمير التوتاشى كاميار (٨٨) .

وممن اشتهر فى عهد السلطان محمد طبر " خطير الملك أبو منصور محمد بن الحسين الميسبذى (٨٩) ، الذى ولد فى بلخ ونشأ فى أصفهان ، وامتناز بحسن الخط ، واستمر فى الأعمال الديوانية قرابة الخمس والأربعون عاما ، منتقلا بين رئاسة عدة دواوين منها ديوان الرسائل وديوان الإشراف وديوان الاستيفاء (٩٠) .

كما تولى ديوان الاستيفاء " مختص الملك أبو النصر أحمد بن فضل بن محمود الكاشى " ، الملقب بمعين الدين نصير الدولة ، الذى عمل فى بداية حياته كاتباً للرسائل ومحرفاً فى ديوان السلطان بركيارق ، وفى سنة ٥٠٠ هـ / ١١٠٦ م أسند إليه منصب ديوان الإنشاء حيث انتزع الوزير سعد الملك الأبى هذا المنصب من يد نصير الملك بئى مؤيد الملك وأسند إليه ، ومنذ ذلك التاريخ دخل مختص الملك الكاشى فى مصاف أصحاب المناصب الديوانية (٩١) .

وتولى " مختص الملك الكاشى " رئاسة الاستيفاء فى عهد السلطان سنجر (٩٢) ، وامتناز بالخبرة الواسعة والأسلوب السليم فى تحصيل الأموال من الرعية ، فجمع أموالاً طائلة وتقرب من رجال الدولة والأمراء بالهدايا والتحف (٩٣) ، وفى نهاية حياته رفع يأمر من السلطان إلى مصاف الوزراء ، الذى استمر فيه حتى قتله (٩٤) .

كذلك اشتهر " معين السارى " مستوفى السلطان طغرل وأرسلان ، وهو يمتاز بحسن الخط والميل إلى الأدب والعلم (٩٥) ، كما اشتهر أبو نصر بن حامد بن محمد بن عبد الله بن على بن محمود بن هبة الله الملقب بعزیز الدين المستوفى - عم العماد الأصفهاني الكاتب - بعلو القدر والرئاسة ، تولى أمر الخزانة للسلطان محمود بن محمد بن ملكشاه (٩٦) ، وقتل فى سنة ٥٢٦ هـ / ١١٣١ م (٩٧) .

وممن اشتهر من المستوفين " كمال الدين محمد بن على الخازن الأزدي " ، الذى عمل فى بداية حياته خازناً للسلطان سنجر ، الذى رفعه إلى مصاف الولاة فعينه على ولاية الري (٩٨) ، وفى عهد السلطان مسعود ارتفع شأنه بإسناد منصب الاستيفاء (٩٩) ، حيث أثبت كفاءة وخبرة كبيرة ، واتصف بالشجاعة والعدل وأزال المكوس ورفع المظالم ، وكشف أشياء كثيرة كانت مستورة يخان فيها ويسرق (١٠٠) ، وفى نهاية حياته حدث خلاف بينه وبين الأمراء والقادة وعلى رأسهم الأمير قراستقر ، ومن ثم انتهت حياة كمال الدين بالقتل فى شوال سنة ٦٣٣ هـ / ١١٣٨ م (١٠١) .

كذلك اشتهر محمد بن عبد الكريم الأنباري الملقب بسديد الدولة بمعرفة كبيرة في تسيير شئون الاستيفاء ، وانفرد بإنشاء المكاتب ، حتى وفاته في سنة ٥٥٨ هـ / ١١٦٢ م في بغداد (١٠٢) .

ولا يفوتنا في نهاية الحديث عن أشهر المستوفين أن نشير إلى أن بعضهم وصل إلى مكانة عالية في الدولة ، ومنزلة رفيعة وازداد نفوذه حتى تمكن من التآمر على الوزراء وإقصائهم من مناصبهم ، فعلى سبيل المثال تمكن مجد الملك القمي المستوفي في عهد بركيارق من إقصاء الوزير مؤيد الملك من منصبه ، والتغلب عليه ، وإبقاء صورة بلا معنى ، لدرجة أنه اشتكى حاله عن طريق كتابة الشعر باللغة الفارسية ، يستعطف السيدة زبيدة خاتون ومستوفيا أن يطلق سراحه من سجنه (١٠٣) .

كما لعب " معين الدين الساوجي " المستوفي في عهد السلطان أرسلان بن طغرل نورا بارزا في التآمر مع الأمير " أمير بن علي بار " حاكم ولاية الري ، ضد الأتابك شمس الدين أيلدكز ، وتمكنا من الدس للأتابك ، لولا تدخل الوزير " فخر الدين الكاشي " وتوضيحه المؤامرة للسلطان ، وبذلك قبض على أمير بن علي بار وأودع قلعة نخجوان ، وعنف المستوفي وأبعده عن مهام منصبه (١٠٤) .

وكثيرا ما قدم المستوفون المشورة والرأي إلى السلاطين ، خاصة إذا ازدادت مكانتهم في الدولة ، وكانوا على درجة من الدهاء والكفاءة في العمل ، فإبنا نرى أن أحد المستوفين في سلطنة مسعود يتدخل في السياسة العامة ، ويوغز صدر السلطان على الخليفة الراشد وينصحه بخلعه وتولية أبو عبد الله محمد بن المستظهر ، وبالفعل يعزل الراشد ويتولى المقتفى لأمر الله في ذي القعدة سنة ٥٢٠ هـ / ١١٣٥ م (١٠٥) .

وفي سنة ٥١٧ هـ / ١١٢٣ م ، قام المستوفي أبو نصر بإيداء الرأي في وزير السلطان محمود بن محمد ، المسمى شمس الدين عثمان نظام الملك ، وتخوف السلطان من مغبة إطلاق سراحه ، خشية أن ينضم إلى عمه السلطان سنجر في خراسان ، وبالفعل يأمر محمود بإعطائه لسيافه عترة الخادم ليقتله (١٠٦) .

٥- المستوفي والعلم والعلماء :

مال عدد كبير من المستوفين إلى العلم والتقرب من العلماء وتشجيع الشعراء والأدباء وبذل الهدايا والأموال لهم ، ومنهم من صنف التصانيف والمؤلفات العلمية ، وصار من المشاهير في فروع المعرفة .

ومن هؤلاء أبو الفوارس الحسين بن علي بن الحسين المعروف بابن الخازن الكاتب الذي امتاز بجمال الخط وحسنه فكتب خمسمائة نسخة من كتاب الله العزيز ، وكتب الشعر ونظمه ، وعاش حتى سنة ٥٠٢ هـ / ١١٠٨ م .

ومن اشتهر بميله للأدب والشعر " أبو الفضل بن الخازن " ، الذي نظم الشعر وأبدع فيه ومن أشعاره :

واقيت منزله فلم أر صاحباً إلا تلقاني بوجه ضاحك
والبشر في وجه الغلام نتيجة لقد مات ضياء وجه المالك
وبخلت جنته وزرت جحيماً فشكرت رضواناً ورأفة مالك

ومن صنف في العلوم المختلفة من المستوفين أبي طاهر الخاتوني مستوفى السيدة جوهر خاتون - زوجة السلطان محمد بن ملكشاه - الذي ألف في التاريخ فصنف كتاب تاريخ آل سلجوق (١٠٩) ، وله شعر جيد مختار حيث تعلم مجموعة من قصائد الشعر تحت عنوان مناقب الشعراء (١١٠) ، كما ألف كتاباً في الصيد أسماه سكارنامه ، أهداه إلى السلطان ملكشاه (١١١) .

كذلك نبغ مستوفى آخر في الشعر والأدب وهو طاهر المستوفى ، الذي نظم قصيدة في الوزير أبو سعد الأبي (١١٢) ، جاء فيها :

أنا في المنزل وحدي وكذلك الشيخ وحده
وسواء كان عندي وسواء كنت عنده (١١٣)

وكذلك شجع بعض المستوفين الشعراء وأجزلوا لهم العطايا ، فارتابوا قصورهم ، ومدحهم في قصائدهم ، ومنهم الشاعر المغربي - شاعر السلطان سنجر - الذي مدح " أبو سعد هندو المستوفى " (١١٤) .

وبرز نور الدين المستوفى في تشجيع الشعراء ، في حياته للشاعر زين الدين الذي نظم رباعية باللغة العربية في مدحه ، في سنة ٥٣٣ هـ / ١١٢٨ م فأكرمه ، وشرفه وألبسه خلعة فاخرة من ثيابه الخاصة (١١٥) ، وقد وصل هذا الشاعر زين الدين إلى مكانة عالية ، وبرع في استخدام اللغة العربية والنظم بها ومعظم قصائده بها ، فقد أنشد قصيدة أخرى في حضرة معين الساوي المستوفى لاقت استحسان الفضلاء والحاضرين جميعاً (١١٦) .

واشتهر من مدينة كاشان عددا ممن تولوا ديوان الاستيفاء ، وامتازوا بالميل إلى الأدب والشعر وحسن الخط وجماله ، من أمثال " حميد الدين بن الحسين المستوفى الكاشانى (١١٧) وحميد الدين الجوهري المستوفى " فى ديوان الاستيفاء ببلاد ما وراء النهر (١١٨) .

ويعتبر مؤيد الدين منتخب الدين بديع أتابك الجوينى ، الذى تولى الاستيفاء ورئاسة ديوان الرسائل ما بين عامى ٥٢٨ هـ / ١١٣٣ م إلى ٥٤٨ هـ / ١١٥٣ م فى عهد السلطان سنجر من العلماء فقد قام بتجميع مجموعة من المراسلات الديوانية فى كتابه " عتبة الكتبة " باللغة الفارسية ، على مدى عشرين عاما ، حوت مراسيم مختلفة فى تعيين الوزراء والمستوفين والمشرفين وولاة الأقاليم ، والمصنف يعتبر قطعة أدبية كبيرة القيمة (١١٩) .

٥- أشهر من تولى الاستيفاء لنساء القصور :

من مظاهر سيادة المرأة السلجوقية امتلاك الإقطاعات والأراضى الزراعية ، واستعانتها بموظفين خصوصيين لإدارة شئون إدارتها مثل موظفى الدولة ، ويأتى على رأس هؤلاء الموظفين المستوفى ومهمته إدارة شئون النساء الخاصة ، وتيسير تعاملاتهن المالية والمحافظة على ممتلكاتهن الخاصة ، وتنظيم أساليب وحجم هذه التعاملات ، والإشراف على دفع رواتب باقى موظفى إدارة هذه الأجهزة ومن أشهر من تولى هذا المنصب تاج الملك أبو الغنائم بن المرزيان (١٢٠) ، الذى تولى الاستيفاء للسيدة ترکان خاتون زوجة السلطان ملكشاه ، ويعتبر من الشخصيات البارزة فى السلطنة ، عين أولا على خزائن السلطان ، والإشراف على دور الحريم السلطانى ، ثم فى وزارة أولاده مستوفيا للإشراف على إدارة أراضيهام وضياعهم (١٢١) .

وعملت السيدة ترکان خاتون على رفع مستوفياها إلى كرسى الوزارة العامة فى سلطنة ابنها محمود بأصفهان ، وأحلت محله فى الاستيفاء موظف آخر هو مجد الملك أبو الفضل القمى المستوفى (١٢٢) ، الذى ما لبث أن انضم إلى معسكر ضررتها ومنافستها على العرش السيدة زبيدة خاتون - زوجة ملكشاه الثانية - وابنها بركيارق ، خوفا من تأمر القادة عليه من أمثال الأمير اينانج بيغو والأمير برسق (١٢٣) ، وذلك بسبب ميل مجد الملك المستوفى لإعطاء بركيارق مبلغا من المال يقدر بخمسمائة ألف دينار من ميراث والده ، لكى يفك الحصار عن أصفهان ويرحل (١٢٤) .

وبناء على ذلك عينت ترکان خاتون فى هذا المنصب مستوفيا ثالثا هو محمد بن منصور أبو سعد المستوفى ، ولكن لم يبق كثيرا فى هذا المنصب فسرعان ما عزل وصودرت أمواله (١٢٥).

كذلك تولى عدد من المستوفين للسيدة زبيدة خاتون ، التى زاد نفوذها واتخذت لنفسها إدارة خاصة لتسير شئونها الإدارية وممتلكاتها وخزانة أموالها ، فعينت الأستاذ على فى الاستيفاء ، وعز الملك أبو عبد الله الحسين بن نظام الملك فى الوزارة ، واستعانت بأخيه الأصغر عبد الرحيم فى منصب الطغراء (١٢٦) .

ومن أوائل المستوفين الذين باشرُوا العمل للسيدة زبيدة خاتون ، " مجد الدولة أبو الفضل القمى " ، الذى استرضى الخاتون ، فارتفع شأنه بفضلها فى الدولة ، وساندته فى كل خطواته الإدارية ، فتمادى فى نفوذه وتجبى لدرجة أنه قبض على الأستاذ على المستوفى ، فى محاولة أن يحل محله فى إدارة الأملاك الخاصة بزبيدة ، وسمل عينه وتولى بدلا منه ، ومن الجدير بالذكر أن نشير إلى أن هذه السيدة كانت إلى جانب مستوفىها مجد الدولة تسانده فى كل صغيرة وكبيرة وتعاونته فى تحركاته ، كما وقفت معه أيضا ضد الوزير مؤيد الملك بن نظام الملك (١٢٧) .

وهناك سيدة ثالثة من نساء القصر السلجوقى ، استعانت بمستوفى خاص فى إدارة شئونها المالية ، هى السيدة جوهر خاتون التى استخدمت كمال الملك السميرمى فى منصب الاستيفاء ، الذى تمكن من الارتقاء بمكانه إلى درجة عالية فى السلطنة ، فقد كان فى بدء حياته يعمل بالزراعة فى أرض الخاتون بمدينة سميرم بأصفهان ، ثم اختاره الوزير محمد العميد الطغرائى نائبا عنه فى إدارة أملاك الخاتون الشخصية ، وعندما لمس فيه الكفاية اتخذه كاتما لأسراره ، وشيئا فشيئا سيطر على عقل السيدة ، بعد أن رأت أنه يفوق الأمراء أمانة وخبرة (١٢٨) ، ومن ثم أسندت إليه شئون أراضيها وأملاكها ، فذاعت ، شهرة كمال الملك السميرمى إلى حد كبير حتى استعان به السلطان محمد ، فأسند إليه منصب الاستيفاء العام فى الدولة السلجوقية (١٢٩) .

وقد لعب كمال الدين السميرمي دورا سياسيا بارزا في تقريب وجهات النظر بين السلطان محمود وعمه السلطان سنجر ، وأنهى الخلاف الناشب بينهما ، فاعترف سنجر بسلطنة محمود في العراق ، فصار هناك سلطتان في الدولة السلجوقية لأول مرة في تاريخها (١٣٠). كذلك تمتع هذا المستوفى بالمكانة والثروة العالية ، لدرجة أن زوجته كانت تخرج للتنزه في موكب كبير من الجوارى يقدر عددهم بمائتي جارية في زى فاخر ، متشحات بالجواهر والمجوهرات ، بالإضافة إلى عدد كبير من الخدم (١٣١) .

استعانت السيدة جوهر خاتون بعدد لا بأس به من الرجال في إدارة أعمالها ، فأنشأت ديوان خاص لإدارتها ، وعينت فيه موفق الدولة أبو طاهر المستوفى ، الذي اتخذ تخلصه من اسمها فنسب إليها وعرف باسم الخاتوني (١٣٢) . ارتفع شأن الخاتوني على جميع موظفي الإدارة ، ولم يمنعه رادع أو مانع من هجاء الوزير أبي منصور المبيذى - وزير محمد طبر - فوصفه بالجهل وعدم الكفاءة ، وهجاه بقوله :

كان حمارا وزيرنا ومضى فما يملك السلطان من خلل (١٣٣)

والملاحظ أن أبا طاهر المستوفى جعل لهذه القصيدة الهجائية عنوانا بارزا هو " قترين الوزير الزير الخنزير " .

وعلى ذلك فإن سيدات القصور السلجوقيات استخدمن في إدارة أملاكهن الخاصة ، والإشراف على أقطاعتهم ، هؤلاء المستوفين الذين تميزوا بالأمانة والخبرة وحسن المعاملة ، وحققوا نجاحات كبيرة في الإدارة .

٦- منصب الاستيفاء خطوة للارتفاع إلى مناصب أعلى في الدولة :

لم يكن منصب صاحب ديوان الاستيفاء هو أعلى المناصب الإدارية التي يرتفع شأن المستوفى ونائبه إليها في الدولة السلجوقية ، فكثيرا ما تخطوه إلى منصب الوزارة سواء في السلطنة أم في الخلافة العباسية نفسها ، فعلى سبيل المثال فإن أبا المعالى النحاس الأصفهاني ، الذي عمل في بداية حياته نائبا " لمحمد بن غيلان " عارض ديوان السلطان ملكشاه ، ثم مستوفيا في عهد السلطان بركيارق ، يصل إلى منصب الوزارة في الخلافة العباسية ببغداد وذلك عندما ذهب إلى صاحب الحلة ، " سيف الدولة صدقه " الذي رشحه لهذا المنصب في خلافة المستظهر بالله (١٣٤) .

أما عن المستوفيين الذى رقوا إلى منصب الوزارة فى داخل السلطنة ، فنجد منهم " سعد الملك بن محمد الأبى فى سلطنة محمد بن ملكشاه " ، الذى عمل فى بداية حياته نائبا وكاتبا ومدير شئون ولى عهد السلطنة ، ثم ارتفع شأنه بالوزارة إلا أنه اتهم بالانتماء إلى طائفة الإسماعيلية ، فأمر السلطان بقتله (١٣٥) .

كذلك ارتفع شأن " خطير الملك أبو منصور اليزدى " من رئاسة ديوان الاستيفاء إلى منصب الوزارة فى عهد السلطان محمود بن محمد ، وقد قيل أنه مكث فى الدواوين وأعمالها ما يقرب من خمسة وأربعين عاما بين ديوان الرسائل والإشراف والاستيفاء (١٣٦) .

ومن الجدير بالذكر أن " شمس الملك عثمان بن نظام الملك " ، الذى تولى فى بداية حياته المناصب الإدارية ورئيس ديوان الاستيفاء فى عهد محمود بن محمد ، وصل إلى دست الوزارة واستمر فيه ، حتى قتل ، وذلك نتيجة لتأمر أعيان العراق عليه وإرسالهم عددا من الشكاوى إلى السلطان سنجر بخراسان يتضررون من ظلم وتعسف الوزير فى جباية الأموال ، ومن ثم خاطب سنجر ابن أخيه محمود فى القضاء على وزيره وقتله (١٣٧) .

وفى عهد السلطان طغرل بن أرسلان ارتفع شأن عزيز الدين المستوفى من رئاسة الديوان إلى منصب الوزارة (١٣٨) ، كذلك كان " نصير الدين المظفر الخوارزمى " مستوفيا فى بلاط السلطان سنجر ، يفتخر ويتباهى بمعرفته التامة بفن الاستيفاء ، حيث عمل فى بداية حياته فى مهمة الإشراف على مطبخ واسطبل السلطان ، ثم رقى إلى الإشراف على جمع وإخراج أموال الولايات ثم تولى ديوان الاستيفاء ومنها أصبح وزيرا للسلطنة (١٣٩) .

وفى بعض الأحيان كان المستوفين يتنازلون عن مناصبهم ، خشية من المؤامرات والدسائس التى تحاك من قبل الوزراء ضدهم ، ويكتفون بالقرب من السلاطين والتودد إليهم ، وفى وزارة الدركزى فى سنة ٥١٨ هـ / ١١٢٤ م ، تنازل عزيز الدين المستوفى عن منصبه فى رئاسة ديوان الاستيفاء ، بسبب عداوة الوزير له ، وفضل الإقامة فى البلاط مستشارا للسلطان محمود بن محمد ، ومن ثم عين صفى الدين أبو القاسم الجنزى مكانه فى الديوان (١٤٠) .

وفى بعض الأحيان عجز بعض الوزراء فى إدارة مهام منصبهم وفشلوا فى تحقيق مهامهم ، ومن ثم يعانوا إلى منصب الاستيفاء من جديد ، ويظهر هذا بصورة واضحة فى حالة

نصير الدين المظفر الخوارزمي ، الذي أعفاه السلطان من الوزارة وأعادته مرة أخرى إلى مهمة الإشراف على جمع الخراج والاستيفاء (١٤١) .

وفي حقيقة الأمر فإن منصب الاستيفاء كان يغرى في كثير من الحالات الأمراء وبعض وزراء الأتابكيات فيتطلعون إليه بشغف ، نظرا للمكاسب المالية الكبيرة التي يحققها صاحب هذه الوظيفة ، وبالتالي يتركون وزارة الأتابكية ويتولون رئاسة ديوان الاستيفاء في عاصمة السلطنة ، فقد قام " بهاء الدين أبو طالب وزير أقيسنقر الأحمديلى " بالتنحي عن منصب الوزارة ، وتولى الاستيفاء للسلطان طغرل في وزارة الدركزىنى (١٤٢) .

والواقع أن منصب الاستيفاء كان خطوة هامة على سلم المناصب الإدارية ، ودعوة للترقى إلى منصب صاحب الولاية أو عامل الولاية ، فقد أسند منصب حاكم الري في عهد السلطان سنجر إلى " معين الدين أبو نصر بن أحمد الكاشى " الذى كان مستوفيا في الديوان ، وبالفعل حقق معين نجاحا كبيرا في إدارة شئون الولاية ، وذلك لأنه صاحب خبرة كبيرة وأسلوب سليم في تحصيل الأموال من الرعية ، فإنه نجح في جمع الأموال والأمتعة والهدايا ، وأرسلها إلى خزانة السلطان ، وجذب إليه نساء القصر والأمراء بإرسال التحف القيمة إليهم (١٤٣) .

كذلك تكرر الأمر مع " كمال الدين محمد " المستوفى ، الذى كان يعمل في بداية حياته خازنا للسلطان سنجر فقد أسند إليه حكم ولاية الري إلا أنه لم يستمر طويلا في هذا المنصب حيث وقع أسيرا في يد السلطان مسعود السلجوقى عند زحفه على تلك المناطق ، ففضى كمال الدين فترة أسيرا في قلعة " سرجاهان " ، ومع معرفة السلطان مسعود بذكائه وقوة شخصيته ، فإنه أمر بإطلاق سراحه ، وإعادةه إلى دواوين الحكومة والرفع من قدره بإسناد منصب الوزارة إليه (١٤٤) .

ونلاحظ أنه بالرغم من انتشار شهرة العديد من الرجال في الأعمال الإدارية ، فإن بعضهم لم يستمر أكثر من فترة وجيزة في منصب الاستيفاء ، وفضلوا الابتعاد نهائيا عن الحياة الإدارية خشية القتل ، فقد مكث " المهذب أبو طالب بن أبو البدر " في الاستيفاء شهرا واحدا ، وأعفاه السلطان وولى بدلا منه الكمال أبو الريان الأصفهاني (١٤٥) .

ومن منطلق الترقى فى الوظائف الإدارية والتطلع إلى المناصب الأعلى ، فإننا نجد أن نواب المستوفى يحتلون مكانة أسيادهم عند وفاتهم ، فقد كان أبو أسعد محمد بن موسى البرادستانى القمى يعمل نائبا للمستوفى فى عهد السلطان ملكشاه فلما توفى شرف الملك المستوفى احتل منصبه ، فوصل بذلك إلى رئاسة ديوان الاستيفاء ، وأطلق عليه لقب مجد الملك (١٤٦) .

٧- معاونو المستوفى :

عين المستوفى نوابا ووكلاء عنه فى إدارة المدن والأقاليم التابعة للسلطنة السلجوقية ، عرف أصحابها باسم وكيل المستوفى أو نائب المستوفى (١٤٧) كما عين فى عاصمة الخلافة موظفا يعرف " بجابى الأموال " مهمته جمع الضرائب والخراج وحملها إلى خزانة السلطان السلجوقى فى عاصمته ، وكثيرا ما قام المستوفى بزيارات تفقدية لنوابه وموظفيه ببغداد للاستطلاع على سير العمل ، وفى سنة ٤٥٩ هـ / ١٠٦٦ م ، قام شرف الملك أبو سعد المستوفى بزيارة بغداد ، والقيام بعدة أعمال خيرية وبناء منشآت معمارية بها (١٤٨) .

وقد وجب على معاونى المستوفى أن يكونوا مثل رئيسهم ، مشهودا لهم بحسن الخلق والسيرة الحسنة وتعام الدين وحفظ القوانين وعلى معرفة بتنظيم الإيرادات والمصروفات (١٤٩) وعليهم أن يتوخوا الحذر ويعملوا بالأمانة والصدق فى ضبط الخراج ، وألا يتركوا للقلم سبيلا إلى الخطأ ، وأن تتسم حساباتهم بالوضوح والدقة ، ليتمكن المستوفى بدوره من إرسال نسخة متقحة إلى ديوان الاستيفاء ، يوضح فيها كيفية سير العمل فى السلطنة بوجه عام ، ويسجل فيها الدخل والمنصرف ، ويتدارك الأمر إذا ما حدث خطأ كتابى (١٥٠) .

ومن أهم نواب المستوفى فى مدن السلطنة ، نائب مدينة مرو ، ونائب مدينة كركان ، الذى صدر بحقهما مناشير بتولية الاستيفاء ، وذلك فى عهد السلطان أرسلان شاه ، أصدر منشور خاص بزين الدين أبى العلاء صاعد بن حسين يوضح فيه أنه نائب للمستوفى فى مدينة مرو ومدنها وقراها ونواحيها ، فيما يتعلق بالأملاك والأموال ، وأنه أنيط إليه بتحصيل الخراج عن عام ٥٤٣ هـ / ١١٤٨ م (١٥١) ، وأطلق له الحرية فى تحصيل ذلك بالأسلوب اللائق ، كما وضح له المنشور الطريقة التى يتبعها فى تنظيم الحسابات وضبطها (١٥٢) .

ومن أشهر نواب المستوفى فى الدولة السلجوقية " على بن الحسين الأردستانى " ، المشهود له بحسن الخط وحسن السمعة ، كثير الأدوات موصوفاً بالثبات ، فكان أوحده عصره (١٥٣) .
كما عمل " مختص الملك الكاشى " نائباً للاستيفاء فى وزارة الخطيبى ، ثم رفع بعد ذلك إلى رئاسة الاستيفاء فى وزارة خطير الملك سنة ٥٠٤ هـ / ١١١٠ (١٥٤) ، مما يوضح أن من حق نائب المستوفى الترقى إلى منصب الاستيفاء وتولى رئاسة الديوان .

وفى عهد السلطان محمد طبر ، عندما حاول محاصرة بغداد سنة ٥٥١ هـ / ١١٥٦ م فى عهد الخليفة المقتفى لأمر الله ، كان رئيس الاستيفاء رضى الدين أبو سعد الخوافى ونائب الاستيفاء كمال الدين أبو الريان (١٥٥) .

كما كان لشرف الملك أبو سعد المستوفى نائباً كبيراً هو أبو غالب البراوستانى (١٥٦) وإلى جانب نواب المستوفى ، كان هناك عدد من الموظفين والعمال للمساعدة ، يأتى فى مقدمتهم موظف يطلق عليه اسم " المعين " ، " والناسخ " وكانت مهمته نسخ التوقيعات والمكاتبات الصادرة والواردة ، " والخازن " ، وهو الكاتب المتولى قبض الفلات وخرزنها وإخراجها وقت الطلب (١٥٧) .

وكان لعزیز الدين أبو حامد المستوفى - فى عهد السلطان سنجر - خازناً لخزانة الأموال أطلق عليه اسم ساجور الخادم الخازن (١٥٨) كذلك كان " شهاب الدين أسعد " كاتباً للاستيفاء أثناء رئاسة كمال الدين السميرمى فى سلطنة محمد (١٥٩) .

٨- العقوبات السياسية :

لم تشفع مكانة المستوفى ومنزلته الرفيعة فى الدولة من محاسبته وإنزال العقاب به إذا أخطأ ، فظهرت عدة حالات تعبر عن استياء السلاطين والوزراء منه ، وقد تراوحت العقوبات ما بين العزل أو السجن أو القتل وفى بعض الأحيان يعاقب المستوفى بمصادرة الأموال والممتلكات، وتصفية مدخراته ، واستنزاف عائلته وثة إربه ، وفى البعض الآخر يكتفى بالعزل من منصبه ، وإبعاده عن المناصب الإدارية .

فمن المستوفيين الذين صودرت أموالهم وأبعدوا عن مناصبهم ، " صفى الدين المستوفى " ، حيث صودر منه مبلغ مائتى ألف دينار (١٦٠) . . . لك فى رمضان سنة ٥٢٦ هـ / ١١٣١ م .

وعندما غضب السلطان محمد على مستوفيه " مختص الملك الكاشي " أمر بعزله وعين بدلا منه الأمير محمد الجوزجاني العميد (١٦١) .

أما عز الدين الأصفهاني المستوفى ، فقد عزل من منصبه وأمر الوزير قوام الدين اندركزيتي بإيداعه السجن ، الذي ظل فيه حتى وفاته ، ولم تجد نفعا الأشعار الاستعطافية التي نظمها وأرسلها لهذا الوزير (١٦٢) .

كذلك كان نصيب " شمس الدين أبو سعد زين الملك هندو بن محمد هندو المستوفى " في عهد محمد بن ملكشاه العزل والإيداع في السجن فترة من الوقت ، ومن منطلق شفقة السلطان بمستوفيه ، فقد عفا عنه وأعادته من جديد إلى منصب الاستيفاء (١٦٣) .

وكان حظ محمد بن منصور أبو سعد المستوفى أفضل حالا من سابقه ، فعندما غضبت عليه السيدة ترکان خاتون وعاقبه ملكشاه بمصادرة أمواله ، فإنه استنجد بالسيدة ترکان خاتون ، موضحا موقفه وأنه خادم في الدولة وأن ماله من بين أيديهم ، حتى رضيت عنه ، فنحاه السلطان عن منصبه ، وبقي بعيدا عن الحكم ، يقيم في منزله بأصفهان ، حتى وفاته سنة ٤٩٤ هـ / ١١٠٠ م (١٦٤) .

وبالرغم من الشروط الواجب توافرها فيمن يتولى منصب الاستيفاء ، وأهمها أن يكون الشخص حسن السيرة سديد الرأي متدينا موصوفا بالكفاءة والخبرة التامة معروفا عنه حسن الفصل بين الخير والشر ، والخبرة الطويلة في أعمال جمع الضرائب والخراج ، إلا أنه كثيرا ما وقعت مغالطات مالية في ديوان الاستيفاء ، سواء كانت بقصد يهدف المستوفى من ورائه الثراء السريع ، أم بدون قصد ، ومن ثم كان السلاطين يواجهون هذه الحالات بالقتل والمصادرة ، مثلما حدث لأبي المحاسن بن أبي الرضا المستوفى الملقب بسيد الرؤساء ، الذي عمل في بلاط ملكشاه وخدم والده طويلا في ديوان الطغراء (١٦٥) .

وعلى ذلك فقد سنحت لبعض رجال البلاط الفرصة بتلقيق التهم والافتراءات على المستوفين ، وراح ضحيتها العديد منهم ، فترى " مجد الملك المستوفى " في عهد السلطان بركيارق يتهم بالتآمر عليه من قادة الجند ، الذي أغروا السلطان بقتله ومصادرة أمواله ، بدون أن يفعل جريمة بينه (١٦٦) .

وفى سنة ٥٠٦ هـ / ١١١٢ م ، عذب وشتق شمس الدين أبو سعد زين الملك هندو المستوفى القمى فى سلطنة محمد بن ملكشاه ، بالرغم من محبة العديد من رجالات البلاط ، ومنهم الشاعر المغربي ، الذى كان من ممدوحيه ، فيقول عنه فى أول القصيدة :

يجئ الآن رستم من مسازندران ويجئ الآن زين الملك من أصفهان (١٦٧)

أما عن سبب قتل زين الملك هندو فهو إتهام بعض رجالات الدولة له بكثرة أخذ الأموال وجمع الثروات والإسائة بالقول فى حق السلطان والخليفة العباسى ، مما أوغر قلب السلطان عليه كما أبدوا استعدادهم بنقل مبلغ كبيراً من أمواله إلى خزانة السلطان ، لذا سلم المستوفى إلى الأمير التونتاش كاميار (١٦٨) ، الذى استخدم الحيلة لجمع الأموال من أهله بإركابه دابة مزينة بالذهب ، زاعماً أن السلطان خلع عليه ورفع من قدره على مال قرره عليه ، فحصل بذلك مبلغاً كبيراً من أقربائه ومن أهل بلده قم ، ثم ما لبث أن صادر هذا المال وسلمه للسياف تاج الدولة الديلمى ، الذى قام بشتقه (١٦٩) .

وفى سنة ٥١٧ هـ / ١١٢٣ م ، تأمر المستوفى أبو نصر على الوزير شمس الدين عثمان ابن نظام الملك ، الذى عمل فى بداية حياته مستوفياً فى ديوان محمود بن ملكشاه ، وحرص السلطان ضده ، واتهمه بكثرة الحرص على جمع المال لنفسه ومصادرة أموال الأغنياء والتجار لصالحه ، ومع تقدم أعيان العراق بالعديد من الشكاوى للسلطان سنجر فى نفس هذا الغرض ، أمر السلطان محمود بتسليم شمس الدين ، إلى السياف عتتر الخادم لقتله ، ولكن لم تلبث الحقيقة أن اتضحت ، وظهرت للعيان ومن ثم نفذ السلطان نفس الشئ فى أبى نصر المستوفى (١٧٠) .

وفى سنة ٥٢٦ هـ / ١١٣١ م قبض الوزير الأنساباذى فى عهد السلطان طغرل بن أرسلان على " أحمد بن حامد بن محمد أبو نصر المستوفى " الملقب بعزیز الدين ، وسلمه إلى بروز الخادم ، الذى أودعه السجن فى قلعة تكریت ، وقام بتعذيبه بوحشية حتى الموت (١٧١) .

ونتيجة لتأمر رجال الجيش وقادته على " كمال الدين محمد الخازن " ، فى عهد السلطان مسعود بن محمد الذى تشدد معهم فى تقديم المؤن والعتاد ، ولم يراع حريتهم ولم يترك لهم مجالاً للتصرف فى أموال الدولة ، فتأمروا ضده مع الأتابك قراستقر ، الذى أصر على قتله وقطع يده اليمنى ، فقام السلطان بتنفيذ رغبة الأتابك وأمر بقطع رأس محمد الخازن ويده ، فى سنة ٥٣٣ هـ / ١١٣٨ م (١٧٢) .

ولا بد أن نشير هنا إلى أن منزلة الوزير كانت أعلى من منزلة المستوفى فى الديوان والوزير الحق فى محاسبة المستوفى وإنزال العقاب به إذا أخطأ أو قصر فى تقديم الأموال ، أو استحوذ على شئ منه كثيراً كان أو قليل ، ففى سنة ٥٣٤ هـ / ١١٣٩ م أنزل الوزير البروجردى العقاب " بثابت بن حميد المستوفى " وأمر بحسبه فى سرداب فى مدينة همذان فى فصل الشتاء دون أن يمنحه ملابس أو أغطية يتدثر بها ، فتوفى المستوفى من شدة البرد ، ومما زاد الأمر سوءاً أن هذا الوزير أمر بمصادرة أموال وممتلكات المستوفى ، وتصفية كل مدخراته ، واستنزف من عائلته قرابة ثلاثمائة ألف دينار ، ولم يترك لأولاده شيئاً (١٧٣) .

ومن منطلق عقاب المستوفين واتهامهم بعدم الأمانة فإننا نجد أن بعض الوزراء كانوا يستنون تهمة اعتناق المذهب الإسماعيلى إليهم كى يتخلصوا من نفوذهم ، لأن تلك التهمة لا تنفع فيها شفاعاة ولا استعطاف ، بل مصير صاحبها القتل لا محالة ، وعلى ذلك اتهم قاضى القضاة عبيد الله الخطيبى وصدر الدين الخجندى حاكم أصفهان ، المستوفى سعد الملك الأبى فى سلطنة غياث الدين محمد طبر ، باعتناق الباطنية ، واتصاله بأحمد بن عطاش (١٧٤) فى قلعة الإسماعيلية بأصفهان ، لذا أمر السلطان بقتله ، وعين بدلاً منه خطير الملك أبو منصور محمد بن الحسين الميذى فى منصب الاستيفاء (١٧٥) .

ومن الملاحظ أن الصراع بين الدولة السلجوقية والإسماعيلية أصحاب الحسن الصباح (١٧٦) ، فى قلعة شاه دن بمدينة أصفهان كان على أشده فى تلك الفترة ، لذا لجأ الشيعة الإسماعيلية إلى القضاء على منافسيهم من رجالات الدولة السلجوقية ، ونرى ذلك بوضوح فى قيامهم بقتل كمال الدين السميرمى فى سنة ٥١٦ هـ / ١١٢٢ م ، الذى عمل مستوفياً للسيدة جوهر خاتون (١٧٧) ووصل إلى منصب الوزارة العامة فى عهد السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه مروراً بمنصب الاستيفاء ، وقد قيل أن هذا الرجل قتل فى السوق العام ببغداد عند المدرسة النظامية على يد عبد أسود (١٧٨) .

٩- ديوان الاستيفاء :

من الدواوين الهامة فى الدولة السلجوقية يطلق عليه اسم ديوان الجبايات أو جباية الأموال، ويتم فيه الاحتفاظ بسجلات يدون فيها قيمة الخراج على المناطق التابعة للدولة والتعديلات التى قد تطرأ عليها ، فهذا الديوان يختص بتنظيم إيرادات الدولة ومصرفاتها ، ويعرف رئيسه

والقائم على شئونه باسم المستوفى ويصدر بتعيينه مرسوما خاصا من السلطان يحدد فيه المهام المنوطة إليه ، وسياسة الدولة العامة .

والمستوفى نواب فى جميع أقاليم ومدن السلطنة ، ويطلق عليهم اسم نواب المستوفى أو وكلاء المستوفى ، يشترط فيهم حسن السيرة والخبرة والمعرفة بأسرار المعاملات وأساليبها (١٧٩) ، كما يعين له نائب فى عاصمة الخلافة العباسية يطلق عليه اسم جابى الأموال .

يقيم صاحب الاستيفاء فى حاضرة السلطنة ، لأن الدواوين الحكومية كانت مركزة فى العاصمة ، والشئون المالية تدار فيها ، لذا كان ديوان الاستيفاء فى مدينة الرى فى عهد السلطان طغرل بك (١٨٠) ، بينما كان ديوان الاستيفاء فى أصفهان فى عهد كل من ملكشاه وفترة حكم محمود وأمه ترکان خاتون ، وبركيارق بعد أن انفرد بالسلطة ، والجزء الأكبر من سلطنة محمد طبر (١٨١) ، ونقلت الدواوين إلى مدينة همذان ومنها ديوان الاستيفاء فى عهد سلطنة محمود بن ملكشاه (١٨٢) ، بينما أقام السلطان سنجر دواوينه فى مدينة مرو بخراسان (١٨٣) .

ومن البديهي أن يشترط فيمن يعين فى منصب رئيس ديوان الاستيفاء أن يكون مقربا من السلطان السلجوقى ، فيصبغ عليه الألقاب التكريمية ، مثل لقب " الأجل الأوحد " سيد الرؤساء ، " وزين الملك " وغيرها من الألقاب ، ومن أفضل الشخصيات التى تولت ديوان الاستيفاء " شرف الملك أبو سعد محمد بن منصور المستوفى " فى عهد السلطان طغرل بك وألب أرسلان وجزء من سلطنة ملكشاه (١٨٤) .

وكان مجد الملك القمى من أفضل من تولى المنصب فى عهد بركيارق (١٨٥) ، وتميز عز الدين الأصفهاني المستوفى فى سلطنة محمد بن ملكشاه (١٨٦) ، كما كان أبو سعد هندو فى سلطنة محمد طبر ، الذى ساءت أحواله وانتهى أمره بالقتل فى سنة ٥٠٦ هـ / ١١١٢ م .

ولرئيس ديوان الاستيفاء وكلاء ونواب فى المدن الكبرى ، وفى الإمكان أن يحتل هذا النائب محل سيده فى هذا المنصب ، فقد تولى أبو الفضل أسعد محمد بن محمد براوستانى القمى نائب المستوفى شرف الملك فى عهد ملكشاه ، محل أستاذه فى الديوان ، وتلقب بلقب مجد

الملك (١٨٧) ، وفى هذا دليل على أهمية هذا المنصب وخطوة للارتقاء إلى أعلى المناصب وارفعا فى الدولة السلجوقية .

وصفوة القول أن المستوفى كانت له حرية العمل مفوضا من السلطان فى إدارة حسابات الدولة ومقابلة الوارد بالمنصرف وضبطه ، وإذا ما وجد اختلالا يعيد ضبط الأمور إلى نصابها ، ذلك لأهمية العامل المالى فى استقرار الأحوال الاقتصادية والسياسية والاجتماعية فى الدولة وتنفيذ سياسة الدولة العامة وتجهيز الجيوش وبناء المنشآت الخيرية ، مع وضع ضوابط كثيرة منها الإمانة لاختيار هؤلاء المستوفين ، وبالرغم من ذلك فقد وجدت العديد من الحالات التى عوقب فيها المستوفى بالسجن والمصادرة أو القتل أو الإعفاء من وظيفته فى الديوان ، وهناك عدد لا بأس به من المستوفين رفعت أقدارهم وارتقوا إلى مناصب أعلى كالوزارة أو حكم أحد الأقاليم السلجوقية .

ولم يصل إلى أيدينا ما يمدنا بمقدار قيمة أجر المستوفى ونوابه ، وهل هو إقطاع أو أجر سنوى أو شهرى .

الهوامش

- ١- كلمة مستوفى من وفى بمعنى الوفاء ضد الفدر ، فيقال وفى بعهده ، وأوفى بمعنى الموافاة التى يكتبها كتاب دواوين الخراج فى حساباتهم فهى مأخوذة من قولك أوفيته حقه ووفيته حقه ووافيته حقه .
- (ابن منظور : لسان العرب ، ج٦ ، ص ٤٨٨٦ ، تحقيق عبد الله على الكبير ، طبعة دار المعارف ، الزبيدى : تاج العروس ، ج١٠ ، ص ٢٩٤ ، المطبعة الخيرية بالجمالية مصر سنة ١٣٠٦ هـ) .
- ٢- الجوينى : عتبة الكتبة ، ص ٤٦ ، بتصحيح واهتمام محمد قزوينى وعباس إقبال ، ١٣٢٩ ، هـ . ش .
- حسن أنورى : ديوان استيفاء درحكومت غزنويان وسلجوقيان ، ص ٣١ ، ٣٢ ، مجلة بررس هاى تاريخى، العدد ٦ لسنة ٨ بهمن اسفند ١٣٥٢ شمارة .
- ٣- الجوينى : عتبة الكتبة ، ص ٤٦ ، ابن ممتى : قوانين الدواوين ، ص ٣٠١ ، تحقيق عزيز سوريال عطية ، الطبعة الأولى ، القاهرة سنة ١٩٩١ م ، فإذا قيل مستوفى الديوان أو رئيس ديوان الاستيفاء فإن ذلك يعنى الشخص المكلف بالإشراف على الشئون المالية ، العارف بأسرار المعاملات وأساليبها ، والخبير بالرسوم وأصولها ، المفوض إليه شئون التدابير التى تتضمن أموال الدولة ، والتى تتعلق بمصالح الجيش ، فهو كاتب وصاحب مجلس فى الديوان ، وهو يطالب المستخدمين بما يجب عليهم رفعه من الحسابات فى أوقاتها ، وينبه متولى الديوان على ما يجب استخراجه من المال فى وقته وحيثه .
- ٤- الجوينى : نفس المصدر السابق ، ص ٤٦ إلى ص ٤٨ .
- السلطان سنجر بن ملكشاه بن ألب أرسلان ، تولى فى بادئ الأمر حكم خراسان لمدة عشرين عاما ، ثم صار سلطانا للسلجقة مدة أربعين عاما وأربعة أشهر ، قامت بينه وبين خوارزم شاه أقتسز عدة حروب ، وأسر هو وزوجته تركان خاتون على يد الخطا .
- (القزوينى : تاريخ كزيده ، ص ١٢٢ ، ١٢٤ ، ترجمة محمود مجروس قشطله ضمن رسالة الماجستير) .
- ٥- عباس إقبال : الوزارة فى عهد السلجقة ، ص ٤٨ ، ترجمة أحمد كمال الدين حلمى ، طبعة الكويت ، سنة ١٩٨٤ م .
- تولى السلطان أرسلان شاه بن طغرل السلطنة عقب وفاة عمه ، وتزوج من ابنة الخليفة العباسى المسماة كرمان خاتون ، وصار الأتابك أيلدكز زوج والدته ومديرا للكله .
- (القزوينى : تاريخ كزيده ، ص ١٤٤) .
- ٦- أحمد كمال الدين حلمى : السلجقة فى التاريخ والحضارة ، ص ٢٠٨ ، ٢٠٩ ، الطبعة الأولى ، الكويت سنة ١٩٧٥ م .

٧- قام الأمير إسماعيل الساماني بإرساء قواعد الحكم في بلاد ما وراء النهر ، واتخذ من مدينة بخارى حاضرة للكه ، واتجه إلى توسيع مملكته بالتوسع في طراز وأغار على الأتراك الوثنيين .

(Cambridge: History of Iran, Vol 4 . p. 137, (Cambridge, 1976)

٨- عباس إقبال : تاريخ إيران بعد الإسلام ، ص ١٦٥ ، ترجمة محمد علاء الدين منصور ، دار الثقافة والنشر والتوزيع .

٩- الأمير نصر بن أحمد بن إسماعيل الساماني ، الذي تولى عرش بخارى وهو طفل صغير وسانده في ذلك والي بخارى أحمد بن محمد بن الليث ، وقام الوزير أبو عبد الله محمد بأمور الملك وضبط المهام حتى بلغ سن الرشد . (ميرخواند : روضة الصفا ، ص ٨٦ ، ترجمة أحمد عبد القادر الشاذلي ، طبعة الدار المصرية للكتاب سنة ١٩٨٨ م) . فقد كان الأمير إسماعيل قد درأ الأخطار الخارجية وأصلح مرافق البلاد ، ووجه حملات للشمال لتأمين حدود البلاد وشيد القصور والرياض .

(Cambridge: History of Iran, Vol 4 . p. 137)

١٠- عباس إقبال : تاريخ إيران بعد الإسلام ، ص ١٦٦ .

١١- خواندمير : دستور الوزراء ، ص ٢١٥ ، ترجمة حربي أمين سليمان ، الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٨٠ م .

١٢- ميرخواند : روضة الصفا ، ص ٩٣ .

يعتبر أبو علي سيجور أحد قادة الجيش الساماني ، انضم إلى كبير الحجاب المسمى تاش ، ضد الأمير نوح الساماني .

(Cambridge: History of Iran, Vol 4 . p. 156)

١٣- عضد الدولة بن بويه : هو أبو شجاع فناخسرو بن ركن الدولة ، تولى الحكم سنة ٣٣٨ هـ / ٩٤٩ م بوصية عمه عماد الدولة على فارس وكرمان .

(ميرخواند : نفس المرجع السابق ، ص ١٨٨) .

١٤- ابن القفطي : أخبار العلماء بأخبار الحكماء ، ص ٢١٧ ، مكتبة المتنبى بالقاهرة .

١٥- خواندمير : دستور الوزراء ، ص ٢٣٦ ، حسن أنورى : ديوان استيفاء برحکومت ، ص ٣٢ .

تدرج أحمد بن الحسن الميمنى في شغل عدة مناصب إدارية قبل أن يصير وزيراً منها جباية الضرائب ورئاسة ديوان الرسائل ، والاستيفاء العام (نظام عقيلي : آثار الوزراء ، ص ١٥٣ ، تهران سنة ١٣٢٧ هـش ، حسن أنورى : نفس المرجع السابق ، ص ٣٢)

Nazim: The life and the time of Mahmoud of Ghazn, p. 134 (Cambridge, 1931).

١٦- غزنة : بفتح أوله وسكون ثانيه ثم نون هكذا يتلفظ بها العامة ، والصحيح عند العلماء غزنين

ويعربونها فيقولون جزنة ، غزنة قصبة الإقليم ، وهي مدينة عظيمة وولاية واسعة في طرف خراسان ، وهي الحد بين خراسان والهند في طريق فيه خيرات واسعة ، إلا أن البرد فيها شديد .

(ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج٤ ، ص ٢٠١ ، طبعة دار صادر بيروت سنة ١٩٨٤ م) .

١٧- كرمانى : نسائم الأسحار من لطائف الأخبار در تاريخ وزراء ، ص ٤٥ ، بتحصيل ومقدمه مير جلال الدين حسين جانجاء دانشگاه ، انتشارات دانشگاه تهران .

١٨- البيهقي : تاريخ البيهقي ، ص ٢٩٠ ، ترجمة يحيى الخشاب وصادق نشأت ، مكتبة الأنجلو المصرية خواندمير : دستور الوزراء ، ص ٢٤٠ .

١٩- العتبي : تاريخ اليميني ، ص ١٠٢ ، بهامش كتاب ابن الأثير : الكامل ، ج١١ ، ج١٢ ، طبعة بولاق سنة ١٩٠٩ م .

١٢- البيهقي : تاريخ البيهقي ، ص ٥٢٩ .

٢١- البيهقي : نفس المصدر السابق ، ص ٥٧٠ .

٢٢- البيهقي : نفس المصدر السابق ، ص ٧٢٦ .

٢٣- كرمانى : نسائم الأسحار ، ص ٤٥ .

٢٤- ميرخواند : روضة الصفا ، ص ١٢٩ .

سبكتكين هو مؤسس الدولة الغزنوية ، وكان في بداية حياته عبداً لأبتيكين ، الذي كان بدوره عبداً لدى نصر بن أحمد الساماني ، الذي أسند إليه قيادة الجيش في عهد نوح بن منصور ، ثم تولى منصب الحجابة في القصر ، فاكسب مكانة عالية ، خاصة في عهد عبد الملك بن نوح .

(Nazim: The life and the time of Mahmud, p. 24.)

(خليل الله خليلي : سلطنة غزنويان ، ص ٢ ، طبعة كابل ١٣٢٣ هـ . ش) .

وقد تمكن سبكتكين عقب عقب وفاة البتيكين من الوصول إلى حكم غزنة سنة ٣٦٦هـ / ٩٧٦ م .

٢٥- الكرديزي : زين الاخبار ، ص ٢٨٩ ، ترجمة عفاف السيد زيدان ، الطبعة الأولى ، القاهرة ، ١٩٨٢ م .

٢٦- الكرديزي : نفس المصدر السابق ، ص ٣٢٠ .

٢٧- خواندمير : دستور الوزراء ، ص ٢٣٧ .

٢٨- نظام عقيلى : آثار الوزراء ، ص ١٥١ ، ١٥٢ .

Nazim: The life and the time of , p. 135.

٢٩- عباس إقبال : الوزارة في عهد السلاجقة ، ص ٤٨ ، ٤٩ .

٣٠- الجويني : عتبة الكتب ، ص ٤٦ إلى ٤٨ .

مرو : مدينة من مرو الشاهجان ، وهي على نهر عظيم ، وتعتبر من أشهر مدن خراسان وهي قصبتها
(ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج ٥ ، ص ١١٢) .

٣١- ابن ممتي : قوانين الدواوين ، ص ٢٠١ ، عباس إقبال : الوزارة ، ص ٤٩ ، ٥٠ .

٣٢- الجويني : عتبة الكتبة ، ص ٤١٨ .

٣٣- ابن ممتي : قوانين الدواوين ، ص ٢٠١ ، أحمد كمال الدين أحمد : السلاجقة ، ص ٢١٠ .

٣٤- الجويني : عتبة الكتبة ، ص ٤٨ ، عباس إقبال : الوزارة ، ص ٥٠ .

٣٥- نظام الملك الطوسي : سياسة نامه ، ص ٢٩٧ ، ترجمة السيد محمد العزاوي ، طبعة دار الرائد
للغربي ، القاهرة سنة ١٩٧٥ م .

٣٦- الحسيني : أخبار الدولة السلجوقية ، ص ١٥٢ ، طبعة لاهور سنة ١٩٣٣ م .

٣٧- ملكشاه هو ابن ألب أرسلان بن جفر بيك بن ميكائيل بن سلجوق ، تولى الحكم عقب وفاة والده ألب
أرسلان مع وجود عدة أخوة أكبر منه ، وذلك بسبب مساندة وجهود الوزير نظام الملك الطوسي له ،
وقد ثار عليه أخوه الأكبر تكش ، وعمه قاورد (القزويني : تاريخ كزیده ، ص ١٠١) .

٣٨- الحسيني : زبدة التواريخ ، ص ١٣٢ ، تحقيق محمد نور الدين ، طبعة دار اقرأ سنة ١٩٨٥ م .

٣٩- نظام الملك الطوسي : سياسة نامه ، هامش ١ ، ص ٢٩٧ .

٤٠- الحسيني : زبدة التواريخ ، ص ١٣٢ .

٤١- ابن أبيك الدواداري : كنز الدرر وجامع الغرر ، ج ٧ ، ص ٢٤٥ ، تحقيق د. سعيد عبد الفتاح
عاشور ، طبعة القاهرة سنة ١٣٩١ هـ / ١٩٧٢ م .

٤٢- الخطا : تنسب دولة القره خانيين إلى مجموعة القبائل التركية الوثنية التي تدين بالبوذية ، قامت على
حدود تركستان في عهد السلاجقة ، واستطاعت أن تثبت أقدامها في تلك المناطق ، وتؤسس لها دولة
في حدود سنة ٥١٨ هـ / ١١٢٤ م ، وقد اتسعت دولتهم فشملت المنطقة ما بين مملكة الخوارزميين في
الغرب ، ومساكن المغول في الشرق ، وأطلق على ملوكهم لقب كورخان .

(نظامي عروضي السمرقندي : جہار مقالہ ، ص ١٠٨ ، طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، سنة
١٩٤٩ م) .

٤٣- خوارزم : خوارزم ليس اسما للمدينة إنما هو اسم للناحية بجملتها فأما القصبة العظمى يقال لها
اليوم الجرجانية ، وأهلها يسمونها كركانج .

(ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ٣٩٥) .

علاء الدين خوارزمشاه محمد بن تكش ، كان أبوه أحد مماليك الملك العادل ألب أرسلان ، استولى على خراسان والعراق العجم وبلاد ما وراء النهر ، وطمع في الاستيلاء على بغداد .

(ابن أبيك الدوادري : كنز الدرر ، ج ٧ ، ص ٢١٧) .

٤٤- الحسيني : أخبار الدولة السلجوقية ، ص ٩٥ ، ٩٦ .

٤٥- همذان : في الإقليم الرابع ، ملولها من جهة الغرب ثلاث وسبعون درجة ، بها المياه العذبة وهوامها طيب ، فتحها المغيرة بن شعبة سنة ٢٤ هـ في خلافة عمر بن الخطاب .

(ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج ٥ ، ص ٤١٠ ، ٤١١) .

٤٦- عماد الدين الأصفهاني : تاريخ دولة آل سلجوق ، ص ١٦١ ، ١٦٢ ، الطبعة الثالثة ، لجنة إحياء التراث .

المقصود بصفي الدين المستوفي هذا والد عماد الدين الأصفهاني ، صاحب كتاب تاريخ دولة آل سلجوق .

٤٧- عماد الدين الأصفهاني : نفس المصدر السابق ، ص ٢٣٣ .

٤٨- الراوندي : راحة الصدور وآية السرور ، ص ٢٠٤ ، ٢٠٥ ، طبعة المجلس الأعلى للفنون والآداب سنة ١٩٦٠ .

نظام الإقطاع الذي اتبعه السلاطين السلاجقة في توزيع الأرزاق على الجند ، نوعان إقطاع وتمليك ويمنح من الأراضي التي ليس لها صاحب ، ولها حق الإقطاع حق التصرف فيه بالبيع والإيجار والتوريث ، والثاني إقطاع استغلال ، وليس لصاحبه إلا حق استغلاله فقط ، ويعود للدولة بعد انتهاء مدة إقطاعه ، وهو الذي يمنح بدلا من الأرزاق .

(الماوردي : الأحكام السلطانية ، ص ١٩٠ - ١٩٢ ، طبعة دار الكتب العلمية بيروت سنة ١٩٨٧ م ، نظام الملك الطوسي : سياست نامه ، ص ٦٧ ، ٧٤ ، ١٢٩) .

٤٩- الراوندي : نفس المصدر السابق ، ص ٣٣٣ ، ٣٣٤ ، نظام عقيلي : آثار البراء ، ص ٢٦٠ ، ٢٦١ .

٥٠- الراوندي : نفس المصدر السابق ، ص ٢٢٤ .

٥١- ابن خلكان : وفيات الأعيان وأنباء الزمان ، ج ٥ ، ص ٤١٤ ، طبعة دار صادر بيروت لبنان سنة ١٩٨٢ م .

٥٢- ابن أبيك الدوادري : كنز الدرر وجامع الغرر ، ج ١ ، ص ٢٤٦ .

٥٣- الراوندي : راحة الصدور ، ص ٢١٨ .

٥٤- الحسيني : أخبار الدولة السلجوقية ، ص ١٢٥ .

- ٥٥- ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج٥ ، ص ٤١٥ .
- ٥٦- ابن الجوزي : المنتظم ، ج١ ، ص ١٢٨ ، الطبعة الأولى ، مطبعة دائرة المعارف العثمانية حيدر أباد الدكن سنة ١٣٥٨ هـ ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج٥ ، ص ١٦٦ ، الطبعة الأولى ، دار الكتب العلمية بيروت - لبنان سنة ١٩٩٢ م .
- ٥٧- ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، ج١٠ ، أحداث سنة ٤٥٩ هـ ، ص ٥٤ ، طبعة دار صادر بيروت سنة ١٩٨٢ م ، ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج٥ ، ص ٤١٥ .
- ٥٨- ابن الجوزي : المنتظم ، ج١ ، ص ١٢٨ ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج٥ ، ص ١٦٦ .
- ٥٩- ابن الأثير : الكامل ، ج١٠ ، أحداث سنة ٤٨٢ هـ ، ص ١٨٠ .
- ٦٠- ابن الجوزي : المنتظم ، ج١ ، ص ٦١ .
- ٦١- ابن الأثير : الكامل ، ج١٠ ، أحداث سنة ٤٨٢ هـ ، ص ٢١٦ .
- ٦٢- عباس إقبال : الوزارة في العهد السلجوقي ، ص ٢٧ .
- ٦٣- عماد الدين الأصفهاني : تاريخ دولة آل سلجوق ، ص ١٢٨ ، ١٢٩ .
- ٦٤- خواندمير : دستور الوزراء ، ص ١٨٢ .
- ٦٥- عماد الدين الأصفهاني : تاريخ دولة آل سلجوق ، ص ٦٢ .
- ٦٦- حسن أنوري : ديوان استيفاء نور حكومت ، ص ٢١ ، ٢٢ .
- ٦٧- عباس إقبال : الوزارة ، ص ٢٥٤ .
- ٦٨- ابن الجوزي : المنتظم ، ج١ ، ص ٢٧ .
- ٦٩- ابن الجوزي : نفس المصدر السابق والجزء ، ص ١٤٩ .
- ٧٠- عماد الدين الأصفهاني : تاريخ دولة ، ص ٢٤٨ ، ٢٥٢ .
- ٧١- البيهقي : تاريخ البيهقي ، ص ٥٧٠ .
- ٧٢- ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج١ ، ص ١٨٨ .
- ٧٣- قلعة تكريت : تقع بين بغداد والموصل ، وهي قلعة حصينة في غرب نهر دجلة ، أول من بنى هذه القلعة سابور بن أردشير بن بابك ، افتتحها العرب في عهد عمر بن الخطاب ، حيث أرسل إليها سعد ابن أبي وقاص جيشا على رأسه عبد الله بن المعتم ، ففتحها عنوة ، (ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج٢ ، ص ٢٨ ، ٣٩) .
- ٧٤- ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج١ ، ص ١٨٩ .
- ٧٥- ابن الجوزي : المنتظم ، ج٨ ، ص ٢٣٤ .

- ٧٦- ابن الجوزي : نفس المصدر السابق ، ج٩ ، ص ٣٦ .
- ٧٧- Miles Gerge: The Numismatic History of Rayy, p 90, (New York, 1938).
- ٧٨- ابن الجوزي : المنتظم ، ج٩ ، ص ١٢٨ ، ابن الأثير : الكامل ، ج١٠ ، أحداث سنة ٤٥٩ هـ ، ص ٥٤ ، ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج٥ ، ص ٤١٤ ، ٤١٥ ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج٥ ، ص ١٦٦ .
- ٧٩- عماد الدين الأصفهاني : تاريخ دولة آل سلجوق ، ص ٢٢ .
- ٨٠- نيسابور : مدينة عظيمة خارجة من الإقليم الرابع إلى الإقليم الخامس ، فتحت في خلافة عمر بن الخطاب .
- (ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج٥ ، ص ٢٣١) .
- ٨١- الحسيني : زبدة التواريخ ، ص ١٢١ ، ١٢٢ .
- ٨٢- ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج٥ ، ص ٤١٥ ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج٥ ، ص ١٦٦ .
- ٨٣- الحسيني : زبدة التواريخ ، ص ١٧٢ .
- ٨٤- خواندمير : دستور الوزراء ، ص ٢٧١ .
- ٨٥- نظام عقيلي : آثار الوزراء ، ص ٢٣١ ، كرمانى : نسائم الأسفار ، ص ٥٤ .
- ٨٦- الراوندى : راحة الصدور ، ص ٢٤٤ ، ٢٤٥ .
- ٨٧- عباس إقبال : الوزارة ، ص ٢٤٩ .
- ٨٨- نظامى عروضى السمرقندى : جہار مقالہ ، ص ١٣٠ ، نظام عقيلي : آثار الوزراء ، ص ٢٣٢ .
- ٨٩- عماد الدين الأصفهاني : تاريخ الدولة ، ص ٩٤ ، الراوندى : راحة الصدور ، ص ٢٢٤ .
- ٩٠- خواندمير : دستور الوزراء ، ص ٢٩٠ ، نظام عقيلي : آثار الوزراء ، ص ٢٣٢ ، كرمانى : نسائم الأسفار ، ص ٥٥ ، ٥٦ .
- ٩١- عباس إقبال : الوزارة ، ص ٢٧٢ ، ٢٧٣ .
- ٩٢- الراوندى : راحة الصدور ، ص ٢٥٥ .
- ٩٣- نظام عقيلي : آثار الوزراء ، ص ٢٥٠ ، ٢٥١ ، كرمانى : نسائم الأسفار ، ص ٨٨ .
- ٩٤- خواندمير : دستور الوزراء ، ص ١٨٢ .
- ٩٥- الراوندى : راحة الصدور ، ص ١٠٠ ، خواندمير : دستور الوزراء ، ص ٢٩٨ .
- ٩٦- عماد الدين الأصفهاني : تاريخ الدولة ، ص ١٢٩ ، ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج١ ، ص ١٨٨ ، ١٨٩ ، كرمانى : نسائم الأسفار ، ص ٧٥ .

- ٩٧- ابن الجوزى : المنتظم ، جـ ١٠ ، ص ٢٨ ، عباس إقبال : الوزارة ، ص ٢٩٢ .
- ٩٨- خواندمير : دستور الوزراء ، ص ٢٩٣ .
- ٩٩- الراوندى : راحة الصدر ، ص ٣٣٣ ، نظام عقيلى : آثار الوزراء ، ص ٢٦٠ ، ٢٦١ .
- ١٠٠- الحسينى : زبدة التواريخ ، هامش ٣ ص ٢١٤ .
- ١٠١- الحسينى : أخبار الدولة السلجوقية ، ص ٢١١ ، ٢١٢ ، ابن الأثير : الكامل ، جـ ١١ ، أحداث سنة ٥٢٣ هـ ، ص ٧٠ .
- ١٠٢- ابن الجوزى : المنتظم ، جـ ١٠ ، ص ٢٠٦ .
- ١٠٣- عماد الدين الأصفهاني : تاريخ الدولة ، ص ٨٤ .
- ١٠٤- خواندمير : دستورالوزراء ، ص ٢٩٨ .
- قلعة نخجوان : بالفتح ثم السكون وجيم مضمومة وآخره نون ، وهى قلعة بأقصى أذربيجان (ياقوت الحموى : معجم البلدان ، جـ ٥ ، ص ٢٧٦) .
- ١٠٥- عماد الدين الأصفهاني : تاريخ دولة آل سلجوق ، ص ١٧٠ .
- ١٠٦- ابن الجوزى : المنتظم ، جـ ٩ ، ص ٢٤٥ ، ٢٤٦ ، خواندمير : دستورالوزراء ، ص ٢٩١ .
- ١٠٧- ابن خلكان : وفيات الأعيان ، جـ ٢ ، ص ١٩٨ .
- ١٠٨- ابن الجوزى : المنتظم ، جـ ٩ ، ص ٢٠٤ .
- ١٠٩- بارتولد : تركستان من الفتح العربى إلى الغزو المغولى ، ص ٩٤ ، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم ، طبعة الكويت سنة ١٩٨١ م .
- ١١٠- براون : تاريخ الأدب فى إيران من الفريوسى إلى السعدى ، ص ٤١١ ، مطبعة السعادة القاهرة سنة ١٩٥٤ م ، بارتولد : تركستان ، ص ٩٤ .
- ١١١- الراوندى : راحة الصدر ، ص ٢٠٥ .
- ١١٢- الباخرزى : دمية القصر وعصرة أهل العصر ، جـ ١ ، ص ٦٥٠ ، تحقيق محمد ألتونجى ، بدون تاريخ .
- ١١٣- الباخرزى : نفس المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ٦٥٠ ، ٦٥١ .
- ١١٤- نظامى عروضى السمرقندى ، جـ ١ ، ص ١٣٠ .
- ١١٥- الراوندى : راحة الصدر ، ص ١٠٣ ، كرماني : نسائم الأسفار ، ص ٧٥ .
- ولقد نبغ مسكوية أبو على الخازن فى الطب فى عهد عضد الدولة البويهى .

- (ابن القفطى : أخبار العلماء بأخبار الحكماء ، ص ٢١٧) .
- ١١٦- الراوندى : راحة الصدور ، ص ١٠٠ .
- ١١٧- محمد عوفى : لباب الألباب ، ج ١ ، ص ١٠٨ ، تصحيح أنوار دبروز أنكليش ، طبعة ليدن سنة ١٩٠٢ م .
- ١١٨- محمد عوفى : نفس المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٢٠٨ .
- ١١٩- الجوينى : عتبة الكتب ، ص ١-١٧٠ .
- ١٢٠- ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ، أحداث سنة ٤٨٥ هـ ، ص ٢١٦ .
- ١٢١- الراوندى : راحة الصدور ، ص ٢٢٣ ، نظام عقيلى : آثار الوزراء ، ص ٢١٦ .
- تركانى خاتون ابنة طمغاج خان بن بغراخان من بنات ملوك الخانية فى تركستان وبلاد ما وراء النهر ، (القزوينى : تاريخ كزنده ، ص ١٠٢) .
- ١٢٢- عماد الدين الأصفهاني : تاريخ الدولة ، ص ٨٥ .
- ١٢٣- الراوندى : راحة الصدور ، ص ٢٢٤ .
- ١٢٤- الحسينى : أخبار الدولة السلجوقية ، ص ٦٧ .
- ١٢٥- ابن الجوزى : المنتظم ، ج ٩ ، ص ١٢٨ .
- ١٢٦- عماد الدين الأصفهاني : تاريخ دولة ، ص ٨٢ ، نظام عقيلى : آثار الوزراء ، ص ٢١٦ .
- الطغراء : كلمة تركية استعملها أصحاب الديوان منذ قيام الدولة السلجوقية ، والطغراء نسبة إلى من يكتب فوق البسملة بالقلم الجلى تتضمن اسم الحاكم وألقابه ، وهى كلمة أعجمية محرفة من الطرة . (ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ٢ ، ص ١٩٠) .
- ١٢٧- الراوندى : راحة الصدور ، ص ٢٢٤ ، أبو المحاسن : النجوم ، ج ٥ ، ص ١٦٠ ، نظام عقيلى : آثار الوزراء ، ص ٢١٨ .
- ١٢٨- كرماني : نسائم الأسفار ، ص ٧٢ ، ٧٣ ، عباس إقبال : الوزارة ، ص ١٥٦ ، ١٥٧ .
- ١٢٩- عماد الدين الأصفهاني : تاريخ دولة ، ص ١٠٧ ، نظام عقيلى : آثار الوزراء ، ص ٢٥٧ .
- ١٣٠- خواندمير : دستورالوزراء ، ص ٢٨٩ .
- ١٣١- ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ، أحداث سنة ٥١٦ هـ ، ص ٦٠١ .
- ١٣٢- الراوندى : راحة الصدور ، ص ٢٠٥ ، نظام عقيلى : آثار الوزراء ، ص ٢٣٥ ، كرماني : نسائم الأسفار ، ص ٧٦ .
- ١٣٣- براون : تاريخ الأدب فى إيران ، ص ٤١١ ، ٤١٢ ، عباس إقبال : الوزارة ، ص ٢٢٤ .

- ١٣٤- خواندمير : دستورالوزراء ، ص ١٩٩ .
- ١٣٥- الراوندى : راحة الصدر ، ص ٢٤٣ ، ٢٤٤ ، نظام عقيلى : آثار الوزراء ، ص ٢٣٢ ، عباس إقبال : الوزارة ، ص ٢٤٧ .
- ١٣٦- الحسينى : أخبار الدولة ، ص ٧٨ ، خواندمير : دستورالوزراء ، ص ٢٩٠ ، عباس إقبال : الوزارة ص ٢٤٧ ، كرماني : نسائم الأسفار ، ص ٥٥ ، ٥٦ .
- ١٣٧- الراوندى : راحة الصدر ، ص ٢٢٤ ، خواندمير : نفس المصدر السابق ، ص ٢٩١ ، نظام عقيلى : آثار الوزراء ، ص ٢٥٨ .
- ١٣٨- الراوندى : نفس المصدر السابق ، ص ٤٦٢ .
- ١٣٩- خواندمير : دستورالوزراء ، ص ٢٨٣ ، كرماني : نسائم الأسفار ، ص ٧٥ .
- ١٤٠- عماد الدين الأصفهاني : تاريخ دولة ، ص ١٣٨ .
- ١٤١- خواندمير : دستور ، ص ٢٨٣ .
- ١٤٢- عماد الدين الأصفهاني : تاريخ دولة ، ص ١٤٩ .
- ١٤٣- خواندمير : دستورالوزراء ، ص ٢٤٨ ، نظام عقيلى : آثار الوزراء ، ص ٢٤٨ .
- ١٤٤- خواندمير : نفس المصدر السابق ، ص ٢٩٢ .
- ١٤٥- عماد الدين الأصفهاني : تاريخ دولة ، ص ١٧٤ .
- ١٤٦- عباس إقبال : الوزارة ص ٨٥ .
- ١٤٧- الجوينى : عتبة الكتبة ، ص ٤٧ .
- ١٤٨- ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ٥ ، ص ٤١٤ .
- ١٤٩- ابن ممتي : قوانين الدواوين ، ص ٣٠١ .
- ١٥٠- عباس إقبال : الوزارة ، ص ٥٠ .
- ١٥١- الجوينى : عتبة الكتبة ، ص ٤٦-٤٨ .
- ١٥٢- عباس إقبال : الوزارة ، ص ٥٠ ، ٥١ .
- ١٥٣- عماد الدين الأصفهاني : تاريخ دولة ، ص ٥٨ .
- ١٥٤- عباس إقبال : الوزارة ، ص ٢٧٣ .
- ١٥٥- عماد الدين الأصفهاني : تاريخ دولة ، ص ٦٢ .
- ١٥٦- ابن ممتي : قوانين الدواوين ، ص ٣٠١ ، ٣٠٢ ، ٣٠٦ .

والخازن هو الذى يحفظ السر ويكتمه ، ويخزن السلع لوقت الحاجة ، وخازن جمع خزنه وهو مسئول الخزن .

١٥٧- الحسينى : أخبار الدولة السلجوقية ، ص ٩٨ ، ٩٩ .

١٥٨- الحسينى : زبدة التواريخ ، هامش ٣ ، ص ١٩٢ .

١٥٩- الحسينى : أخبار الدولة ، ص ١٠٢ .

١٦٠- عباس إقبال : الوزارة ، ص ٢٥٤ ، كرماني : نسائم الأسفار ، ص ٨٨ .

١٦١- خواندمير : دستور الوزراء ، ص ٢٨٧ ، ٢٨٨ .

١٦٢- عماد الدين الأصفهاني : تاريخ بولة ، ص ٩٧ ، عباس إقبال : الوزارة ، ص ٢٤٩ .

١٦٣- ابن الجوزى : المنتظم ، ج ٩ ، ص ١٢٨ .

١٦٤- ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ، أحداث سنة ٤٧٦ هـ ، ص ١٣١ .

١٦٥- عماد الدين الأصفهاني : تاريخ بولة ، ص ٨٥ ، ٨٦ .

١٦٦- نظامى عروضى السمرقندى : جہار مقالہ ، ص ٤١ .

١٦٧- عماد الدين الأصفهاني : تاريخ بولة ، ص ١٠١ ، عباس إقبال : الوزارة ، ص ٢٥٠ .

١٦٨- ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ، أحداث سنة ٥٠٦ هـ ، ص ٤٩٢ .

استمر تاج الدولة الديلمى الذى عذب أبو سعد هندو المستوفى فى منصبه حتى عهد السلطان محمود ، وقد غضب عليه الوزير قوام الدين أنسابادى ، فأمر بشنقه بنفس الطريقة التى اتبعت مع أبى سعد المستوفى .

(عباس إقبال : الوزارة ، هامش ١ ، ص ٢٥٠)

١٦٩- ابن الجوزى : المنتظم ، ج ٩ ، ص ٢٤٥-٢٤٨ ، خواندمير : دستور ، ص ٢٩١ .

١٧٠- ابن الجوزى : نفس المصدر السابق ، ج ١٠ ، ص ٢٨ ، أبو المحاسن : النجوم ، ج ٥ ، ص ٢٤٣ .

١٧١- الراوندى : راحة الصدور ، ص ٣٣٣ ، ٣٣٤ ، الحسينى : زبدة التواريخ ص ٢١٢ ، ٢١٥ ، نظام عقيلى : آثار الوزراء ، ص ٢٦٠ ، ٢٦١ .

١٧٢- ابن الجوزى : المنتظم ، ج ١٠ ، ص ٨٧ .

١٧٣- أحمد بن عطاش : كان أبوه من مقدمى الباطنية ، فر مع أبيه من أصفهان إلى الرى ، كان يعمل سرا من أجل القضية الإسماعيلية .

١٧٤- الراوندى : راحة الصدور ، ص ٢٤٣ ، ٢٤٤ ، الحسينى : زبدة التواريخ ، ص ١٧٢ ، ١٧٣ ، خواندمير : دستور ، ص ٢٧١ ، نظام عقيلى : آثار الوزراء ، ص ٢٣١ .

١٧٥- الحسن الصباح : هو الحسن بن علي بن علي الحميري ، يرجع نسبه إلى قبيلة حمير ، قدم أبوه من اليمن إلى الكوفة ثم إلى قم فالري ، الذي استوطنها ، وولد الحسن الصباح بها ، اعتنق مذهب الشيعة الاثني عشرية ، وتعلم المذهب على يد رجل يطلق عليه اسم مؤمن .

(عطا ملك الجويني : تاريخ جهانكشاي ، ص ١٨٤ ، ١٨٦) .

ترجمة محمد جمال الدين .

١٧٦- عماد الدين الأصفهاني : تاريخ دولة ، ص ١٠٧ .

١٧٧- ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج٢ ، ص ١٩٠ .

١٧٨- عباس إقبال : الوزارة ، ص ٤٨ ، أحمد كمال الدين حلمي : السلاجقة ، ص ٢٠١ .

١٧٩- عماد الدين الأصفهاني : تاريخ دولة آل سلجوق ، ص ١١٧ .

١٨٠- الراوندي : راحة الصدور ، ص ٢٢٠ .

١٨١- عباس إقبال : تاريخ إيران ، ص ٣٠٦ .

١٨٢- الحسيني : زبدة التواريخ ، ص ١٨٤ .

١٨٣- نظامي عروضي السمرقندي : جهار مقاله ، ص ١٠١ .

١٨٤- الراوندي : راحة الصدور ، ص ٢٢٤ .

١٨٥- خواندمير : دستور الوزراء ، ص ٨٧ ، ٨٨ .

١٨٦- نظامي عروضي السمرقندي : جهار مقالة ص ١٣٠ ، نظام عقيلي : آثار الوزراء ، ص ٢٣١ ، ٢٣٢ .

١٨٧- عباس إقبال : الوزارة ، ص ٨٥ .

قائمة المصادر والمراجع

أولاً : المصادر والمراجع العربية :

- ١- ابن الأثير (ت ٦٣٠ هـ / ١٢٣٢ م) : عز الدين أبو الحسن علي بن أبو الكرم محمد " الكامل في التاريخ " ، جـ ١٠ ، جـ ١١ ، طبعة دار صادر بيروت ، سنة ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢ م .
- ٢- أحمد كمال الدين حلمي : " السلاجقة في التاريخ والحضارة " ، الطبعة الأولى ، دار البحوث العلمية ، الكويت سنة ١٣٩٥ هـ / ١٩٧٥ م .
- ٣- ابن أبيك البوادري (ت ٧٣٢ هـ / ١٣٣١ م) : أبو بكر بن عبد الله " كنز الدرر وجامع الغرر " ، الدرر المطلوب في أخبار ملوك بني أيوب ، جـ ٧ ، تحقيق سَعِيد عبد الفتاح عاشور ، طبعة القاهرة ، سنة ١٣٩١ هـ / ١٩٧٢ م .
- ٤- الباخزني (ت ٤٦٧ هـ / ١٠٧٤ م) : علي بن الحسن بن علي بن أبو الطيب " دمية القصر وعصرة أهل العصر " جـ ١ ، تحقيق ودراسة محمد التونجي ، بدون طبعة وتاريخ نشر .
- ٥- ابن الجوزي (ت ٥٩٧ هـ / ١٢٠١ م) : أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد " المنتظم في تاريخ الملوك والأمم " ، جـ ٨ ، جـ ٩ ، جـ ١٠ ، الطبعة الأولى ، مطبعة دائرة المعارف العثمانية بعاصمة حيدر آباد الدكن ١٣٥٨ هـ .
- ٦- ابن خلكان (ت ٦٨١ هـ / ١٢٨٢ م) : أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبو بكر " وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان " ، جـ ١ ، جـ ٢ ، جـ ٣ ، تحقيق إحسان عباس ، طبعة دار صادر بيروت .
- ٧- الزبيدي : محمد مرتضى " تاج العروس " الجزء العاشر ، المطبعة الخيرية ، المنشأة بجمالية مصر سنة ١٣٠٦ هـ .
- ٨- ابن القفطي (ت ٦٤٦ هـ / ١٢٤٨ م) : جمال الدين أبو الحسن علي بن القاضي الأشرف " أخبار العلماء بأخبار الحكماء " ، مكتبة المتنبي بالقاهرة .
- ٩- الماوردي (ت ٤٥٠ هـ / ١٠٥٨ م) : أبو الحسن بن محمد بن حبيب البصري " الأحكام السلطانية والولايات الدينية " ، طبعة دار الكتاب العلمية ، بيروت سنة ١٩٧٨ م .
- ١٠- أبو المحاسن (ت ٨٧٤ هـ / ١٤٦٩ م) : جمال الدين تغري بردي الأتابكي " النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة " ، جـ ٣ ، الطبعة الأولى ، تعليق محمد حسين شمس الدين ، دار الكتب العلمية بيروت سنة ١٩٩٢ م .
- ١١- ابن معاتى (ت ٦٠٦ هـ / ١٢٠٩ م) : الوزير أسعد الأيوبي " كتاب قوانين النوايين " ، تحقيق عزيز سوريال عطية ، الطبعة الأولى ، القاهرة ١٤١١ هـ / ١٩٩١ م .

- ١٢- ابن منظور (ت ٦٣٠ هـ / ١٢٣٢ م) : أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم " لسان العرب " ، ج٦ ، تحقيق عبد الله على الكبير ، ومحمد أحمد حسب الله هاشم الشاذلي ، طبعة دار المعارف .
- ١٣- ياقوت الحموي (ت ٦٢٦ هـ / ١٢٢٩ م) : شهاب الدين أبو عبد الله " معجم البلدان " ، ٥ أجزاء ، طبعة دار صادر بيروت ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٤ م .

ثانيا : المصادر والمراجع الفارسية :

- ١٤- البيهقي (ت ٤٧٠ هـ / ١٠٧٠ م) : أبو الفضل محمد بن حسين " تاريخ البيهقي " ، ترجمة يحيى الخشاب ، وصادق نشأت ، مكتبة الأنجلو المصرية .
- ١٥- الجويني (ت ٦٨٨ هـ / ١٢٨٩ م) : علاء الدين عطا ملك بن نهاء الدين محمد " تاريخ جهانكشاي " ، ترجمة محمد السعيد جمال الدين ضمن كتاب دولة الإسماعيلية في إيران ، طبعة مؤسسة سجل العرب ١٣٨٤ هـ / ١٩٧٥ م .
- ١٦- الجويني (عاش في عهد السلطان سنجر السلجوقي : مؤيد الدولة منتخب الدين بن بديع " عتبة الكتبة " ، مجموعة مراسلات ديوان السلطان سنجر ، بتصحيح واهتمام محمد قزويني وعباس إقبال ، أول مرداد ١٣٢٩ شمس) .
- ١٧- حسن أنوري : " ديوان استيفاء در حكومت غزنويان وسلجوقيان " ، مجلة بررس هاي تاريخي ، العدد ٦ لسنة بهمن اسفند ١٣٥٢ شاره .
- ١٨- الحسيني (ت ٦٢٢ هـ / ١٢٢٥ م) : صدر الدين الحسن علي بن ناصر " أخبار الدولة السلجوقية " ، اعتنى بتصحيحه محمد إقبال ، طبعة لاهور سنة ١٩٣٣ م .
- ١٩- _____ : " زبدة التواريخ المعروف بأخبار الأمراء والملوك السلجوقية " ، الطبعة الأولى ، تحقيق محمد نور الدين ، طبعة دار إقرأ ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م .
- ٢٠- خليل الله خليلي : " سلطنت غزنويان " ، طبعة كابل ١٣٣٣ هـ . ش .
- ٢١- خواندمير (ت ٩٤٢ هـ / ١٥٣٥ م) : غياث الدين بن همام الدين " دستور الوزراء " ، ترجمة حربي أمين سليمان ، الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٨٠ م .
- ٢٢- الراوندي (ت ٥٩٩ هـ / ١٢٠٢ م) : محمد بن علي بن سليمان " راحة الصدور وآية السرور في تاريخ الدولة السلجوقية " ، نقله إلى العربية إبراهيم أمين الشواربي ، وعبد النعيم حسنين ، وفؤاد عبد المعطي الصياد ، طبعة المجلس الأعلى للفنون والآداب سنة ١٩٦٠ م .
- ٢٣- عباس إقبال : " تاريخ إيران بعد الإسلام " ، ترجمة محمد علاء الدين منصور ، دار الثقافة والنشر والتوزيع بالقاهرة .

٢٤- _____ : " الوزارة في عهد السلاجقة " ، ترجمة أحمد كمال الدين حلمي ، طبعة الكويت ١٩٨٤ م .

٢٥- العتبي (ت ٤٢٨ هـ / ١٠٣٦ م) أبو نصر محمد بن عبد الجبار "تاريخ اليميني" ، بهامش كتاب ابن الأثير : " الكامل في التاريخ " ، ج١ ، ج٢ ، طبعة بولاق سنة ١٩٠٩ م .

٢٦- عماد الدين الأصفهاني (ت ٥٩٧ هـ / ١٠١٧ م) : محمد بن محمد بن حامد " تاريخ دولة آل سلجوق " ، الطبعة الثالثة ، تحقيق لجنة إحياء التراث العربي في دار الأفاق الجديدة ، بيروت سنة ١٤٠٠ هـ / ١٩٨٠ م .

٢٧- الكرديزي (ت ١٤٤٢ هـ / ١٠٥٠ م) : أبو سعد عبد الحى بن الضحاک " زين الأخبار " ، ترجمة عفاف السيد زيدان ، الطبعة الأولى ، القاهرة سنة ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢ م .

٢٨- كرماني : " نسائم الأسفار من لطائف الأخبار در تاريخ وزراء " ، بتصحيح ومقدمة مير جلال الدين حسين ، جابجاه دانشگاه انتشارت دانشگاه تهران .

٢٩- القزويني : (ت ٧٥٠ هـ / ١٣٤٩ م) : حمد الله مستوفى " تاريخ كزیده " المعروف بالتاريخ المختار ، ترجمة محمود محمود قشطه ، ضمن رسالة ماجستير مقدمة لكلية الآداب جامعة عين شمس سنة ١٩٦٨ م .

٣٠- محمد عوفى (توفى في النصف الأول من القرن السابع الهجرى / القرن ١٢ الميلادى) : محمد نور الدين " لباب الالباب " ، ج١ ، ج٢ ، تصحيح أدوار دبروز انكليش ، طبعة بريل في مدينة ليدن سنة ١٩٠٢ م .

٣١- ميرخواند (ت ٩٠٣ هـ / ١٤٩٧ م) : محمد بن خاوند شاه " روضة الصفاء في سيرة الأنبياء والملوك والخلفاء " الطبعة الأولى ، ترجمة أحمد عبد القادر الشاذلى ، الادار المصرية للكتاب القاهرة سنة ١٩٨٨ م .

٣٢- نظام عقيلي (توفى في النصف الثانى من القرن التاسع الهجرى . القرن ١٥ الميلادى) : سيف الدين حاجى " آثار الوزراء " ، بتصحيح وتعليق مير جلال الدين حسيني تهران ، ١٣٢٧ هـ . ش .

٣٣- نظام الملك الطوسى (ت ٤٨٥ هـ / ١٠٩٢ م) : الحسن بن اسحق بن العباس " سياست نامه " ، ترجمة وتعليق السيد محمد العزاوى ، طبعة دار الرائد العربى بالقاهرة ١٩٧٥ م .

٣٤- نظامى عروضى السمرقندى (ت ٥٥٠ هـ / ١١٥٥ م) : الحسن بن عمر " جهار مقاله " ، عليه خلاصة حواش العلامة محمد بن عبد الوهاب القزوينى ، ترجمة عبد الوهاب عزام ويحيى الخشاب ، الطبعة الأولى ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ١٣٦٨ هـ / ١٩٤٩ م .

ثالثا : المراجع الأجنبية :

٣٥- بارتولد : " تركستان من الفتح العربى إلى الغزو المغولى " ، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم ،
 طبعة الكويت سنة ١٩٨١ م .

٣٦- براون : " تاريخ الأدب فى إيران من الفردوس إلى السعدى " ، مطبعة السعادة بالقاهرة
 سنة ١٩٥٤م .

37- Cambridge: History of Iran, Vol 4 , (Cambridge, 1975).

38- Miels Gearge: The Numismatic History of Rayy (New York, 1938).

39- Nazim: The Life and the time of Mahmoud of Ghazn, eith of areward by the late sir
 Tomes Arnold, (Cambridge, 1931).

الإرهاب فى عصر الحروب الصليبية

جاء فى لسان العرب لابن منظور أن لفظ رهب بكسر ثانيه يرهب رهبة و رهبا ، أى خاف . و رهب الشئ رهبا و رهبة ، أى خافه (١). ومن هذا الجذر اشتق لفظ أَرهَب بمعنى أخاف، وإرهاب بمعنى إثارة الخوف والفرع ، وقد شاع استخدام اللفظ الأخير فى عصرنا الحديث، بمعنى بث الخوف تحت تأثير التهديد بالقتل والاعتقال غدراً ، وصار مصطلحاً لكل الحركات التى شهدها ويشهدها العالم، للتخلص من الخصوم والأعداء ، وصار مصطلحاً لكل الحركات التى شهدها ويشهدها العالم، للتخلص من الخصوم والأعداء والمخالفين ، عن طريق الاعتقال والقتل غدراً مع سبق الترصّد والإعداد.

وفى إطار هذا المعنى تميز الإرهاب بطابع خاص وصارت له ملامح محددة، منها أنه اتخذ صورة حركات تعبر غالباً عن تنظيم جماعى . وبعبارة أخرى فإن حوادث القتل الفردية الناجمة عن الخلافات الشخصية والتحاسد أو التنافس والرغبة فى الانتقام أو السرقة ... لا تعتبر فى المصطلح الحديث حوادث إرهابية . ومن المعروف أن أول حادث قتل فى تاريخ البشرية كان عندما قتل قابيل - ابن آدم عليه السلام - أخاه هاويل حسداً وسخطاً . ولم يكن قابيل عندما اقترف ذنبه مدفوعاً بقوة خارجية وإنما: ﴿ قَطَّوْعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتَلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ ﴾ (٢). ولا يمكن بمفهومنا الحديث أن نصف قابيل بأنه إرهابى وأن عمله كان إرهابياً، وكذلك عندما

١- ابن منظور لسان العرب ، مادة رهب.

٢- المائدة ، آية ٣٠ .

نقرأ فى الكتب السماوية أن موسى عليه السلام دخل مدينة على حين غفلة من أهلها فوكز بعصاه رجلاً فقضى عليه وقتله ، فإتنا لايمكن أن نعتبر هذا عملاً إرهابياً ، بدليل أن موسى سارع إلى استغفار ربه معاهداً إياه - عز وجل - على ألا يكون «ظهيراً للمجرمين»^(١).

والإرهابى بمفهوما الحديث لايعمل غالباً بمفرده، وإنما تقف وراءه جماعة ، ينتمى إليها ، ويدين بفكرها وأرائها، ويمتثل لأوامرها ويخضع لإرادتها ويرتزق من ورائها. إنها بمثابة الرئاسة التى تخطط له وتحدد له دائرة نشاطه الذى يتصف غالباً بمسحة إجرامية . وفى مقابل كل ذلك فإنها تقدم له الوعود المعسولة ، وتتعهد بمساندته بعد تنفيذ الجريمة التى تحدد له أسلوبها ومكانها وتوقيتها.

وباستعراض العديد من الحركات الإرهابية عبر عصور التاريخ نجد أن معظمها يتمسح بالدين، ويتخذ منه ستاراً يخفى وراءه أهدافاً وتطلعات سياسية أو اجتماعية أو اقتصادية . وكثيراً ما تستخدم بعض المؤسسات الدينية وبنو العبادة مراكز لنشاط الإرهابيين بل ربما ساحة لتنفيذ جرائمهم . فالدين بحكم ما له من سطوة على القلوب والنفوس، صار فى نظر الإرهابيين أصلح حجاب يمكنهم أن يستتروا خلفه لتبرير جرائمهم ضد المجتمع، والتخطيط للتخلص من القوى التى يعتقدون أنها تشكل حاجزاً يحول بينهم وبين تطلعاتهم وأهدافهم الهدامة المستترة . وقد تكون هذه الأهداف التعطش للوصول إلى الحكم لمجرد الرغبة فى فرض السيادة بدعوى الإصلاح ، أو الرغبة فى التحكم فى الثروات لنهب الأموال، أو غير هذا وذاك . وفى جميع الحالات يكون الاغتيال والقتل غدرًا هو السلاح الرهيب الذى يعمل به الإرهابيون لنشر الرعب بين الناس، وإرغامهم على الخضوع لإرادتهم والرضوخ لسيادتهم والاستسلام لأرائهم ، بوصفهم «الأمراء» الذين يمسكون بأيديهم مفاتيح الحياة والموت ويتحكمون فى أبواب الجنة والنار.

وفى ضوء ما سبق يبدو أن الحركة الإرهابية يكون لها عادة ركنان أساسيان :

(أ) رئيس أو جهاز من الرؤساء يدبر ويرسم ويخطط ويوجه ، ويقدم المساعدات ويوفر الإمكانيات ، ويخلق الوعود . وقد يتمثل هذا الجهاز فى حكومة من حكومات الدول التى تتخذ من الإرهاب وسيلة لفرض زعامتها على مجموعة من الدول التى تنافسها فى مجالات السياسة والرئاسة والاقتصاد.

(ب) خلايا مأجورة من الأتباع والعملاء المخدوعين ، يراعى فيهم أن يكونوا فى حالة ضياع فى المجتمع الذى يعيشون فيه ، وهؤلاء تجرى لهم عمليات غسيل مخ- تحت ستار الدين غالباً - لاحتوائهم فكرياً وعقائدياً ، واستثارة مشاعرهم وحماستهم، وتقدم لهم الوعود المعسولة بأنهم هم المرشحون لحكم البلاد والعباد. ويمثل هذا الفريق أداة تنفيذ الجريمة، فيمضى الواحد منهم ليقترف ما يكلف به من عمليات الاغتيال وقتل الأبرياء ، وتخريب المنشآت ، إما رغبة فى الحصول على مكاسب دينية ودنيوية، وإما خوفاً من الوقوع تحت طائلة العقاب من رؤسائه ومحرضيه ، بعد أن تورط معهم وصار فى وضع لاينفع معه الندم ويصعب فيه التراجع عنه والانسحاب منه .

هذان الجهازان هما الركنان الأساسيان لأية حركة إرهابية . وإذا كان الجهاز الأول هو المدبر والمخطط والمحدد للجريمة ، فإن الجهاز الثانى هو التابع المنفذ . وقد تكون الصلات بين هذين الركنين أو الجهازين غير مباشرة ، وإنما تتوسط بينهما حلقات وكوادر أخرى من الدعاة والوسطاء ، وذلك رغبة فى التستر وزيادة فى الحرص والحيلة . ذلك أن رؤساء الحركات الإرهابية والمخططين لها، غالباً ما يكونون على درجة من الجبن والحرص على الحياة بقدر ما يتطلبونه فى العملاء المنفذين للجريمة من جرأة وشجاعة وتضحية وفداء .

* * *

ولم تسلم الدولة الإسلامية عبر عصور التاريخ من ظهور بعض الحركات الإرهابية التى ذهب ضحيتها العديد من الأبرياء والمصلحين ، بل من الصالحين والمجاهدين . وفى هذه الحركات أمعن الإرهابيون فى ارتكاب جرائمهم، مدعين أنهم يعملون لخدمة أهداف يلصقونها بالدين لصقاً زائفاً مفتعلاً ، متناسين قوله تعالى : ﴿ ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين ﴾ (١)، وقوله سبحانه : ﴿ ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق ﴾ (٢)، وقوله عز وجل : ﴿ ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها ﴾ (٣).

وثمة ظاهرة تسترعى نظر المؤرخ اليقظ ، ولاسبيل لإنكارها لأنها حقيقة تاريخية، هى أن معظم الحركات الإرهابية الكبرى التى برزت فى تاريخ الدولة الإسلامية، ونخرت بنيانها فى

١- المائدة، آية ٨٧ .

٢- الإسراء ، آية ٢٢ .

٣- النساء ، آية ٩٣ .

كثير من حلقات التاريخ كان مصدرها بلاد فارس أو إيران الحالية، فمن هذه البلاد صدر العديد من الآراء الهدامة وانطلق الكثير من الدعاوى الباطلة التي تتمسح بالإسلام وتتخذ منه قناعاً تخفى وراءه اتجاهات هي أبعد ما تكون عن جوهر الإسلام وأفاقه . ومن فارس انطلقت هذه الحركات الهدامة إلى كثير من بلاد الدولة الإسلامية - شرقاً وغرباً ، تحاول نشر فكرها عن طريق إثارة الذعر واغتيال المخالفين والمعارضين .

وفى تحليل هذه الظاهرة رأى بعض الباحثين والمفكرين ، أن الفرس - وهم أصحاب سيادة قديمة وحضارة عريقة - صدموا لما حدث فى صدر الدولة الإسلامية من نجاح العرب فى فتح بلادهم وفرض السيادة العربية عليهم . وكان الفرس - قبل الإسلام - يحتقرون العرب ويقللون من شأنهم ، ولا يرون فيهم إلا قبائل بدوية ، لاحضارة ولاجنور لها . وإذا كانت الظروف قد اضطرت الفرس إلى الرضوخ لحكم العرب تحت مظلة الإسلام ، فلا أقل من أن يستغلوا الإسلام لتصحيح الوضع، وإعادة بناء الهرم - من وجهة نظرهم - إلى وضعه الطبيعي، بحيث تكون السيادة للفرس، حتى ولو أدى ذلك إلى هدم العرب والعروبة . وما دامت سيادة العرب - فى نظرهم - ارتبطت بالإسلام ، فليحاول الفرس - وهم قادرون بحكم جنورهم الحضارية - تفسير تعاليم الإسلام تفسيرات دخيلة تتفق وأهدافهم ، واستخراج فرق ومذاهب وطوائف ذات آراء ومعتقدات بعيدة عن روح الإسلام ، لهدم الأمة العربية ونقل السيادة على العالم الإسلامى للفرس .

ومن أبرز المفكرين الذين أدركوا هذه الحقيقة وعبروا عنها تعبيراً دقيقاً ، المؤرخ أحمد بن على المقرئى - شيخ المؤرخين فى القرن التاسع الهجرى، الخامس عشر للميلاد - إذ كتب يقول ما نصه :

[واعلم أن السبب فى خروج أكثر الطوائف عن ديانة الإسلام، أن الفرس كانت من سعة الملك وعلو اليد على جميع الأمم، وجلالة الخطر على أنفسها ، بحيث كانوا يسمون أنفسهم الأحرار والأسیاد، وكانوا يعدون سائر الناس عبيداً لهم] .

[فلما امتحنوا بزوال الدولة عنهم على أيدي العرب - وكانت العرب عند الفرس أقل الأمم خطراً - تعاظمهم الأمر، وتضاعفت عليهم المصيبة، وراموا كيد الإسلام بالمحاربة فى أوقات شتى . وفى كل ذلك يظهر الله الحق . وكان من قائميه (زعماء الحركات الإرهابية) شنقاده، وأشنيس ، والمقنع، وبابك ، وغيرهم... قرأوا أن كيده (كيد الإسلام) على الحيلة أنجع ...] .

وقد حفلت المرحلة النشطة في تاريخ الحروب الصليبية في الشرق الأوسط، وهي الفترة الواقعة بين أواخر القرن الحادي عشر وأواخر القرن الثالث عشر للميلاد ، (الخامس والسابع للهجرة) بالعديد من حوادث القتل والاغتيال ، سواء في الجانبين الإسلامي والمسيحي. ولكن الغالب على هذه الحوادث أنها لم تستند إلى حركات إرهابية أو تنظيمات خططت لها لتحقيق أهداف معينة، وإنما كانت حوادث فردية ، ناجمة عن خصومات شخصية أو منافسات فردية، معظمها حركته أطماع سياسية ، ويستثنى من ذلك جماعة إرهابية كبرى انبعثت من بلاد فارس، وانطلقت إلى العديد من بلاد الشرق الأوسط، لتلعب دوراً خطيراً في عصر الحروب الصليبية . ونعني بهذه الجماعة فرقة الإسماعيلية التي أطلق عليها أيضاً اسم الباطنية واسم الحشيشية .

والإسماعيلية نسبة إلى اسماعيل بن جعفر الصادق . يقول الشهرستاني في كتابه (الملل والنحل) إن من أشهر ألقابهم الباطنية، وإنما لزمهم هذا اللقب لحكمهم بأن لكل ظاهر باطناً، ولكل تنزيل تأويلاً . وبعبارة أخرى، فإنهم استباحوا لأنفسهم تأويل أحكام الشريعة ، فجعلوا لكل حكم من أحكام الشريعة باطناً يتفق وأهدافهم ، ولايحيط به إلا أهل العلم منهم . ويرد المقرئزي على ذلك قائلاً «والحق الذي لا ريب فيه هو أن دين الله تعالى ظاهر لا باطن فيه وجوهر لا سر تحته» .

ولعله من المناسب هنا أن نؤكد عدم الربط بين مصطلحي الشيعة والباطنية ، بمعنى إنه إذا كان الباطنية قد انحرفوا عن المذهب الشيعي ، فليس معنى ذلك أن كل شيعي باطني، وبعبارة أخرى، إذا كان الباطنية قد تفرعوا عن الشيعة إلا أنهم يمثلون جفاحاً متطرفاً ، ليس له من التشيع إلا الاسم والطلاء الخارجي. أما الشيعة المعتدلون فهم أبعد ما يكونون عن سياسة التطرف التي انتهجها الباطنية . ويعبر عن هذه الحقيقة المؤرخ ابن الأثير عندما يشير في حوادث سنة ٥٠١هـ إلى الأمير العربي سيف الدولة صدقة بن منصور بن ديبس ، فيقول ما نصه :

(وقد طعن في اعتقاده ، ونسبه بعض خصومه إلى مذهب الباطنية، وكذب ، وإنما كان مذهب التشيع لا غير) .

وقد برز من رؤساء الباطنية اسم الحسن بن الصباح (ت ٥١٨هـ) الذي وصفه المؤرخون بأنه كان شهماً ، ذكياً ، عالماً بالهندسة والحساب والتجوم. وكان أن ادعى أنه مصدر العرفان، فأول القرآن تأويلاً يتفق وأهدافه السياسية، ونشر دعااته في البلاد والأقاليم . ولم يلبث أن

اشتد ساعده في فارس وبلاد المشرق ، فاستولى على العديد من القلاع والحصون ، منها قلعة اصبهان ، وقلعة الموت من نواحي قزوین ، وقلعة وسنمكرة، وقلعة خالنجان ، وقلعة استوناوند ، وقلعة أردهن ، وقلعة الناظر ، وقلعة الطنبور، وقلعة خلادخان ... وغيرها .

ثم إن الحسن بن الصباح نظم جماعته على درجات ، وجعل نفسه رئيساً للدعوة، وهو ما أطلق عليه اسم (شيخ الجبل) . ويعني في هذه الدرجات تلك الفئة التي أطلق على أفرادها اسم الفداوية، أو الفدائيين ، وهم يمثلون المرتبة الخامسة في درجات التنظيم .. وكان يراعى في اختيار هؤلاء الفدائيين صفات خاصة، أهمها الجرأة والذكاء والمرونة في الحركة . ولم يشترط في الفدائي الإمام بأصول الدين وأحكامه ، أو الدراية بأسرار المذهب وتعاليمه ، وإنما اشترط فيه الطاعة العمياء لرفقائه ، وتنفيذ كل ما يصدر إليه من أوامر وتعليمات خاصة ما يتعلق باغتيال من توكل إليه مهمة اغتيالهم. وبذلك تحولت جماعة الباطنية الاسماعيلية إلى تنظيم إرهابي خطير أثار الذعر في جوف الدولة الإسلامية .

يذكر الرحالة البندقي ماركو بولو (١٢٥٤-١٣٢٤م) أن رئيس الدعوة - شيخ الجبل- أنشأ قرب قلعة الموت- في إقليم قزوین- بستاناً حرص على أن يزوده بكل أوصاف الجنة، من خمر لذة للشاربين ، ولبن لم يتغير طعمه ، وعسل مصفى، وفاكهة مما يشتهون، وحبور عين كأمثال اللؤلؤ المكنون... فإذا وقع الاختيار على أحد الفتية لينخرط في سلك الفداوية ، فإنه يسقى جرعة من مشروب مخدر - لعله من نبات الحشيش- مما جعل اسم الحشيشية يلصق بهذه الجماعة. وعندما يفقد المخدر وعيه ، يُحمل إلى تلك الجنة المصطنعة ، حتى يفيق ، فتترك له حرية الاستمتاع بما في جنته من ألوان المتعة . وبعد عدة أيام يعاد تخديره ليحمل وهو فاقد الوعي إلى موضعه الأول، حتى إذا ما أفاق أخذ يحلم بالعودة إلى الجنة، وعندئذ تقدم له الوعود بإعادته بشرط أن ينفذ جريمة الاغتيال في فلان من خصوم الباطنية. وهكذا يمضي الفدائي لا يلوى على شيء محاولاً تنفيذ الجريمة، ربما دون وعي بأبعادها وأسبابها وعواقبها .

ويذكر المؤرخ ابن الأثير أن شوكة الباطنية أخذت تشتد منذ أيام السلطان السلجوقي ملكشاه (٤٦٥-٤٨٥هـ / ١٠٧٢-١٠٩٢م) . وكان الباطنية قد دعوا مؤذناً مقيماً بأصبهان للدخول في دعوتهم ، فلم يستجب لهم فقتلوه . وعندما أمر نظام الملك- وزير السلطان ملكشاه- بقتل القاتل، انتقم الباطنية باغتيال نظام الملك ، وهو من أعلام رجال السنة البارزين. وقد حزن جمهرة المسلمين حزناً شديداً لمقتل نظام الملك سنة ٤٨٥هـ (١٠٩٢م) «لما كان عليه من حسن الطريقة وأثار العدل والنصفة والإحسان إلى أهل الدين والفقه والقرآن»

على قول ابن القلانسي . أما عن كيفية اغتيال نظام الملك، فقد قتل بنفس الأسلوب الذي شاع بين الباطنية في اغتيال ضحاياهم، إذ يقترب الباطني الإرهابي من فريسته في صورة مستغيث ، حتى إذا ما تمكن منه أخرج سكيناً يخفيه في طيات رداءه وطمعته عدة طعنات حتى يخر قتيلاً. فإذا لم تتم عملية الاغتيال وظهر أن الفريسة ما زالت على قيد الحياة ، برز باطني ثان، وربما ثالث حتى يتم الإجهاز على الضحية .

وهكذا تعرض الباطنية في تلك الفترة الحرجة من تاريخ المسلمين في الشرق الأوسط لعدد من حكام المسلمين وأمرائهم- وبخاصة من أهل السنة- بالاغتيال يذكر المؤرخ ابن الأثير في حوادث سنة ٤٤٠هـ أن الأمير أقمسندر - بهمدان - «كان كثير الغزو إليهم، والقتل فيهم، والتخريب لبلادهم، فوثب عليه جماعة من الاسماعيلية فقتلوه» . ولعل هذا مما جعل الأمراء في ذلك العصر ، يبالغون في الحيطة ولبس الدروع، حتى في ذهابهم إلى الجامع للصلاة ، خوفاً من أن يتعرضوا للاغتيال على أيدي تلك الجماعة الهدامة . من ذلك ما جاء في المصادر المعاصرة عن الأمير بلكابك سرمز، من أمراء السلطان محمد السلجوقي ، إذ «كان كثير الاحتياط من الباطنية ، لا يفارقه لبس الدرع». وعندما أغفل في أحد الأيام لبس درعه «قتله الباطنية» (سنة ٤٩٣ هـ / ١١٠٠م) .

ولم يقف سلاطين السلاجقة- وهم من أهل السنة- موقف المتفرج على نشاط الباطنية، من ذلك أن جاولى سقاووا- حاكم الموصل من قبل السلطان محمد السلجوقي - حارب الباطنية سنة ٤٩٤هـ (١١٠١م) «وقتل خلقاً كثيراً منهم» . وفي نفس تلك السنة «فتك السلطان بركياروق بالباطنية، بعد أن اشتد أمرهم، وقويت شوكتهم، وكثر عددهم وقتلوا جماعة من الأمراء الأكابر...، وصاروا يتهدون من لا يوافقهم بالقتل .. فأشار بعض خواص السلطان عليه أن يفتك بهم قبل أن يعجز عن تلافى أمرهم....».

وفي سنة ٤٩٧هـ (١١٠٤م) أمر السلطان سنجر أحد أمرائه بقتال الباطنية، (فأكثر فيهم القتل والنهب والسبي ، وفعل بهم الأفعال العظيمة...) ، على أنه يبدو أن السلطان سنجر تخوف من الإمعان في معاداة الباطنية، فصالحهم وأمنهم، بعد أن اشترط عليهم «أن لا يبنون حصناً ولا يشترون سلاحاً ولا يدعون أحداً إلى عقبتهم....» وكان أن غضب رعايا السلطان من ذلك الصلح ، مما يدل على استياء جمهور المسلمين من تلك الفرقة الإرهابية الهدامة «فسخط كثير من الناس هذا الأمان وهذا الصلح ونقده على سنجر» .

وكان جمهور الناس على حق في نعتهم على تلك الفرقة الإرهابية إذ تشجع الباطنية في خراسان، وأغاروا في العام التالي - ٤٩٨ هـ / ١١٠٥ م - على عديد من النواحي (وأكثرها القتل في أهلها، والنهب لأموالهم، والسبي لنسائهم حتى اشتد أمرهم، وقويت شوكتهم...) حتى حجاج بيت الله الحرام لم يسلموا من عبث هؤلاء الإرهابيين، مما يدل على إنعدام الوازع الديني عندهم، وبعدهم عن الإسلام وأركانه وروحه وأحكامه، فأغاروا في نفس السنة (٤٩٨ هـ / ١١٠٥ م) على قافلة كبيرة للحجاج (قوضعوا فيهم السيف وقتلوه كيف شاؤوا، وغنموا أموالهم ودوابهم ولم يتركوا شيئاً....)



ثم إن الباطنية الاسماعيلية الذين انطلقت حركتهم الإرهابية من بلاد فارس مدوا نشاطهم إلى مصر وبلاد الشام، وذلك منذ وقت مبكر يرجع إلى أواخر القرن الخامس الهجري، الحادي عشر الميلادي. وفي ذلك الحين كانت تقوم للمذهب الإسماعيلي دولة في مصر، هي الدولة الفاطمية. ومع أنه لا يوجد أي دليل على أن الفاطميين انغمسوا في المسار المنحرف الذي سلكته الباطنية، إلا أن هناك ما يشير إلى أن الباطنية حاولوا توثيق الروابط مع الفاطميين، ربما للحصول على تأييدهم، ففي سنة ٤٧٩ هـ (١٠٨٦ م) «وصل الحسن بن الصباح الاسماعيلي في زى تاجر إلى المستنصر بالله (ال خليفة الفاطمي عندئذ بالقاهرة) وخاطبه في إقامة الدعوة له بخراسان وبلاد العجم». ثم أخذوا يعملون لنشر الدعوة للفاطميين في المشرق، إذ «قصدوا ما وراء النهر، ودعوا إلى طاعة المستنصر بالله العلوي صاحب مصر، فتبعهم جمع كثير، وأظهروا مذاهب أنكرها أهل تلك البلاد».

ومع ذلك فإن الدولة الفاطمية في مصر لم تسلم من شرور الباطنية الذين لم يترددوا سنة ٥١٥ هـ (١١٢١ م) في اغتيال الوزير الأفضل بن بدر الدين الجمالي «صاحب الأمر والحكم بمصر... وكان الاسماعيلية يكرهونه لأسباب منها تضيقه على إمامهم، وتركه ما يجب عندهم سلوكه معهم، ومنها ترك معارضة أهل السنة في اعتقادهم، والنهي عن معارضتهم...». وكان أن انتفض عليه ثلاثة من الإرهابيين الباطنية، وهو في طريقه إلى خزانة السلاح، وطعنوه بالسكاكين في خاصرته «فسقط عن دابته». وبعد ذلك بسنوات قليلة - سنة ٥٢٤ هـ / ١١٣٠ - اغتال الباطنية الخليفة الفاطمي الأمر بأحكام الله صاحب مصر «وثب عليه الباطنية فقتلوه».

أما بلاد الشام فقد تسرب نفوذ الباطنية إليها أيضاً في أواخر القرن الخامس الهجري - الحادى عشر للميلاد- بحيث لم يستهل القرن التالى إلا وكانت لهم سطوة فى تلك البلاد وعندما نقول أواخر القرن الخامس وأوائل القرن السادس للهجرة - الحادى عشر والثانى عشر للميلاد - علينا أن نتذكر أن تلك الفترة تمثل المرحلة التى غزا فيها الصليبيون الغربيون بلاد الشام وأقاموا لأنفسهم مملكة قوية فى بيت المقدس، فضلاً عن بعض الإمارات فى المدن الكبرى، وهكذا جاء استفحال خطر الباطنية فى بلاد الشام فى تلك المرحلة الحرجة ليزيد من سوء الأوضاع التى تعرضت لها الجبهة الإسلامية، مما أضرب بحركة الجهاد الإسلامى أبلغ الضرر.

وقد اتخذ نشاط الباطنية الحشيشية فى بلاد الشام على عصر الحروب الصليبية اتجاهين: أولهما- وهو الاتجاه الرئيسى الذى استهدف مقاومة المذهب السنى واغتيال زعمائه وقادته . وثانيهما - وهو الاتجاه الفرعى وقد استهدف اغتيال بعض الزعماء الصليبيين- لا لأنهم صليبيون، ولكن لأنهم وجدوا فيهم خطراً يهدد- أو على الأقل يعوق- نشاطهم ويقف عقبة فى طريق تحقيق طموحاتهم.

ولم يتحرج الباطنية فى بلاد الشام من محالفة الصليبيين حيناً، أو مساعدة بعض زعماء السنة ضد خصومهم أحياناً ، مما جعل منهم عصابة من الارهابيين المأجورين ، يعملون لحساب هذا الجانب أو ذاك ، وفقاً لما تتطلبه مصالحهم أو لما يعود عليهم من كسب.

واتخذ الباطنية عدة قلاع وحصون ببلاد الشام مراكز لنشاطهم منها حصن القدموس الذى اشتروه سنة ٥٢٧هـ (١١٣٣م) من صاحبه ابن عمرون، وصعدوا إليه ، وقاموا بحرب من يجاورهم من المسلمين والفرنج، وكانوا كلهم يكرهون مجاورتهم . وحصن مصيات (مصيف أو مصياب)، «وكان مملوكاً لبني منقذ- أصحاب شيزر ، فاحتالوا عليه (على صاحبه) ومكروا به حتى صعدوا إليه وقتلوه وملكوا الحصن سنة ٥٣٥هـ (١١٤٠م) ، وفى سنة ٥٢٠ هـ (١١٢٦م) ملكوا بانياس ، «فجلت المحنة واشتد الحال على الفقهاء والعلماء وأهل الدين لاسيما أهل السنة...» وندرك من هذه العبارة الأخيرة أن الباطنية كانوا سوطاً مسلطاً على الدين وأهله، وإن تظاهروا بالتمسح بالدين. ذلك أن الاغتيال كان السلاح الرهيب الذى استغله الباطنية فى التخلص من خصومهم ، مما أثار فى تلك الحقبة جواً من الإرهاب والخوف فى الشام ومصر ، فضلاً عن خراسان وبلاد المشرق.

وقد بلغ من تطرفهم أنهم كانوا يختارون وقت الصلاة لاغتيال ضحاياهم ، مما جعل العديد من الشهداء يتعرضون للقتل في المساجد والجوامع وربما وهم يؤدون الصلاة. من ذلك ما حدث سنة ٤٩٦هـ (١١٠٣م) من اغتيالهم جناح الدولة حسين صاحب حمص ، وكان قد «نزل من القلعة إلى الجامع لصلاة الجمعة ، وحوله خواص أصحابه بالسلاح التام، فلما حصل بموضع مصلاه على رسمه، وثب عليه ثلاثة نفر عجم من الباطنية ، فضربوه بسكاكينهم ، وقتلوه ، وقتلوا معه جماعة من أصحابه ...». وبعد ذلك بثلاث سنوات، قتل خلف بن ملاعب صاحب فامية «قتله قوم من الباطنية».

وزاد من سطوة الباطنية في بلاد الشام في أوائل القرن السادس الهجري- الثاني عشر للميلاد - عطف رضوان ملك حلب عليهم، بعد أن وجد فيهم أداة صالحة للتخلص من خصومه ، ويقول المؤرخ ابن الأثير أنه عندما قتل الباطنية جناح الدولة حسين صاحب حمص ، فإن ذلك «كان بأمر رضوان ورضاه».

ومن ناحية أخرى، استغل طغتكين أتابك دمشق الباطنية في اغتيال المجاهد الكبير مودود أتابك الموصل، الذي أتى إلى الشام نجدة للمسلمين في حربهم ضد الصليبيين . فلما كان يوم الجمعة الأخيرة من شهر ربيع الآخر سنة ٥٠٧هـ (١١١٣م) وبعد أن فرغ مودود من أداء صلاة الجمعة في جامع دمشق وبصحبه طغتكين - اقترب رجل من الباطنية من الأمير مودود «كأنه يدعو له ويتصدق ... وضربه بخنجره أسفل صدره » فقتله . ويقال إن ملك بيت المقدس الصليبي كتب إلى طغتكين بعد مقتل مودود كتاباً جاء فيه : «إن أمة قتلت عميدها ، يوم عيدها (يوم الجمعة) ، في بيت معبودها (المسجد) ، لتحقيق على الله أن يبيدها».

وهكذا مضى الباطنية في تنفيذ مخططهم الإرهابي في بلاد الشام فذهب ضحيتهم جماعة من خيرة المجاهدين في وقت كان المسلمون في حاجة ماسة إلى جهودهم، الأمر الذي أثار استياء جمهرة المسلمين- وخاصة من أهل السنة- بالشام ، وما كاد رضوان صاحب حلب يموت سنة ٥٠٧هـ (١١١٣م) ، حتى استثار أهل حلب ابنه وخليفته- ألب أرسلان، الملقب بالأخرس - ضد الباطنية. وكان أن أمر ألب أرسلان بالإيقاع بهم في حلب، مما أدى إلى مقتل مقدمهم أبي طاهر الصائغ ، هو وجماعة من أعيانهم، في حين فر الباقون «فمنهم من قصد الفرنج، وتفرقوا في البلاد» .

وهولاء الباطنية الذين فروا من حلب عقب وفاة رضوان سنة ٥٠٧هـ (١١١٣م) ، واتجهوا إلى الصليبيين صاروا عوناً لهم ضد المسلمين وأداة في أيديهم لاغتيال قادة حركة الجهاد

الإسلامي. يذكر المؤرخ ابن الأثير أن الباطنية عندما ازداد نفوذهم في دمشق، راسلوا الفرنج، سنة ٥٢٣ هـ (١١٢٩م) ليسلموا دمشق للصليبيين مقابل تنازل هؤلاء الأخيرين عن مدينة صور للباطنية. ولكن تاج الملوك بوري صاحب دمشق اكتشف المؤامرة، فقتل المزدقاني زعيم الباطنية بدمشق، وعلق رأسه على قلعة المدينة، وأخذ يطارد الباطنية حتى قتل منهم ستة آلاف، وقد أثار ذلك الوضع مخاوف اسماعيل الباطني والي بانياس، «فراسل الفرنج، وبذل لهم تسليم بانياس والانتقال إلى بلادهم (لاجئاً)، فأجابوه، فسلم القلعة إليهم، وانتقل هو ومن معه من أصحابه إلى بلادهم، ولقوا شدة وذلة وهواناً...».

وهكذا تحقق أكثر من تحالف بين الباطنية والصليبيين في بلاد الشام في تلك الحقبة، ضد الخصم المشترك، معثلاً في أمراء المسلمين وقادتهم من أهل السنة. ولا أدل على قوة الرابطة بين الباطنية في الشام والصليبيين في تلك المرحلة، من مدى تأثر الصليبيين وغضبهم لمقتل المزدقاني زعيم الباطنية في دمشق، إذ كانوا يبنون عليه آمالاً كباراً في الاستيلاء على هذه المدينة. لذلك ما كانوا يسمعون خبر مقتله حتى «تأسفوا على دمشق حيث لم يتم لهم ملكها...».

ونخرج مما سبق بنتيجة واضحة، هي أن هؤلاء الإرهابيين الذين تمسحوا بالدين كانوا أبعد ما يكونون عن الإخلاص للدين. لقد اتخذوا الإسلام ستاراً يخفون من ورائه سياستهم الإجرامية في اغتيال الأبرياء، وسفك دماء المجاهدين، والتخلص من المعارضين لهم. ولا مانع لديهم من تسليم البلاد وأهلها إلى الغزاة المعتدين، من الصليبيين الغربيين.

ولم يغفر الباطنية لتاج الملوك بوري صاحب دمشق قتل زعيمهم المزدقاني، فدبروا مؤامرة لاغتياله سنة ٥٢٦ هـ (١١٣٢م) «وجرحوه جرحين، برأ أحدهما، وبقي الآخر حتى اشتد عليه، وتوفي بسببه بعد قليل...».

ومضى الباطنية في سياستهم الإرهابية، بحيث يضيق المقام عن ذكر كافة ضحاياهم من الأبرياء. وفي النصف الأخير من القرن السادس الهجري - الثاني عشر للميلاد - لم يسلم صلاح الدين الأيوبي - بطل الجهاد الذي وهب نفسه لتخليص قلب العالم الإسلامي من خطر الغزاة - من محاولة اغتياله على أيدي تلك الفرقة الإرهابية التي ادعت نسبتها إلى الإسلام. وقد حدث سنة ٥٦٩ هـ / ١١٧٣م أن دبر جماعة من أتباع الدولة الفاطمية في مصر مؤامرة لاغتيال صلاح الدين. ولما وجدوا أنهم في حاجة إلى مساعدة خارجية، بادروا بالاتصال

بالفرنج في الشام وصقلية ، كما كاتبوا سنان مقدم الحشيشية في الشام ليبعث إليهم أحد رجاله المدربين لاغتيال صلاح الدين ويثب عليهم مكيدة وصيلة» ، ولكن صلاح الدين اكتشف المؤامرة وتخلص من مدبريها .

ولم يصرف الباطنية نظرهم عن صلاح الدين بعد ذلك، أصروا على اغتياله. فبينما كان صلاح الدين يخوض معركته الضارية ضد الصليبيين في بلاد الشام، إذا به يفاجئ وهو يحاصر قلعة إعران سنة ٥٧١هـ (١١٧٥م) بأحد الباطنية يثب عليه، «فضربه بسكين في رأسه فجرحه ، ولولا أن المغفر الزرد كان تحت القلنسوة لقتله». وتعاقب بعد ذلك ثلاثة من الباطنية - الواحد بعد الآخر - يهاجمون صلاح الدين، ولكنهم قتلوا جميعاً، وركب صلاح الدين إلى خيمته كالذئور لا يصدق بنجاته».

ولم تكن هذه المحاولة الأخيرة لاغتيال صلاح الدين على أيدي الباطنية، إذ تعددت محاولاتهم ، لا لسبب سوى أن صلاح الدين سنى يشكل عقبة في وجه نشاطهم . ومن ناحية أخرى فإن صلاح الدين لم يغفر للباطنية عدوانهم، فهاجم حصونهم بالشام، وحاصر قلعة مصياف - وهي أعظم حصونهم وأحصن قلاعهم- فنصب عليها المجانيق ، حتى توسط شهاب الدين الحارمي - خال صلاح الدين فرحل عنهم». ويبدو أن صلاح الدين كان راغباً عندئذ في توجيه كل طاقته ضد خصومه من الصليبيين ، ولنا أن نتخيل صورة التاريخ لو كان هؤلاء الإرهابيون قد نجحوا في تنفيذ خططهم التي استهدفت قتل صلاح الدين. فلو تحقق ذلك ، ما كانت حطين، وما كان استرداد «بيت المقدس» على الأقل في تلك المرحلة - من الغزاة الغربيين، ولتعرض المسلمون في الشرق الأدنى لمزيد من الضربات ، نتيجة لأعمال عصابة من المجرمين يدعون الانتماء إلى الإسلام .

وفي تلك الأثناء ، كان هؤلاء الملاحدة من الإرهابيين يواصلون نشاطهم الهدام في المشرق الإسلامي. ولم تتوقف هجماتهم العدوانية على قوافل الحجاج ، فانقضوا على قافلة لهم سنة ٥٥٢هـ (١١٥٧م) وأبادوهم ، وقتل منهم من الأئمة والعلماء والزهاد والصلحاء جمع كثير . وكانت مصيبة عظيمة عمت بلاد الإسلام وخصت خراسان، ولم يبق بلد إلا وفيه مآثم ...» ولم يستسلم سلاطين السلاجقة أمام خطر الباطنية ، فاستمروا يواصلون جهودهم لمطاردة الإرهابيين والعمل لاستئصال شأفتهم. وساعدهم في جهودهم عامة الناس والأهالي الذين كانوا «يكرهون مجاورتهم».

ومنذ أواخر القرن السادس وأوائل السابع للهجرة (الثاني عشر والثالث عشر للميلاد) أخذ تيار تلك الجماعة الإرهابية يضمحل ، بعد أن لمسوا أنهم مكروهون من كافة الناس، وأن المجتمع الإسلامي ضاق بجرائمهم ذرعاً.

وكفى أن الناس أحسوا بأن أولئك الإرهابيين حرموهم من نعمة الأمن التي هي أساس بقاء أى مجتمع ، والتي تعتبر من أبرز خصائص المجتمع الإسلامي.

وكان أن اضطر الباطنية إلى التراجع والعودة إلى طريق الله ونبذ الإرهاب ، وكان ذلك فى الوقت الذى أخذت أعدادهم تتناقص مما أضعف من قوة نشاطهم . وفى سنة ٦٠٨ هـ (١٢١١م) أعلن مقدم الباطنية التوبة وأظهر الانتقال عن فعل المحرمات وإستحلالها ، وأمر بإقامة الصلوات وشرائع الإسلام ببلادهم من خراسان والشام. وأرسل مقدمهم رسالاً إلى الخليفة وغيره من ملوك الإسلام يخبرهم بذلك، وأرسل والدته إلى الحج ، فأكرمت ببغداد إكراماً عظيماً وكذلك بطريق مكة ...».

وإذا كانت قد تلبقت للباطنية بعض الحصون ببلاد الشام حتى منتصف القرن السابع الهجرى- الثالث عشر للميلاد- فإن السلطان الظاهر بيبرس- سلطان دولة المماليك (٦٥٨-٦٧٦ هـ / ١٢٦٠-١٢٧٧م) استولى على تلك الحصون واحداً بعد آخر ، وبذلك عادت ممتلكات الباطنية إلى رحاب الإسلام الحق «فأقيمت هناك الجمعة وترضى عن الصحابة بها ، وعفيت المنكرات منها، وأظهرت شرائع الإسلام وشعائره»، على قول المؤرخ المقرئى.

وهكذا انطوت صفحة قاتمة من صفحات الإرهاب التى لوّث التاريخ الإسلامى فى عصر الحروب الصليبية.

لقد اتضح أن أعضاء الحركات الإرهابية الذين يستترون خلف رداء الإسلام هم أشد خطراً على الإسلام من خصومه . إنهم وباء يصيب المجتمع ، يجتاح البلاد ويعصف بالعديد من أبرياء العباد...

ومن الواضح أن الصعوبة الكبرى التى واجهتها وتواجهها الحركات الإرهابية هى افتقارها إلى ركيزة تستند إليها من أهالى البلاد، فالإنسان النقى النفس يرفض الغدر وينفر بطبيعته من ظاهرة اغتيال الأبرياء وسفك دماء الأمنين. وتشهد هذه المشاعر وتقوى فى ظل الأديار السماوية التى نهت جميعاً عن ظاهرة قتل الإنسان أخيه الإنسان دون ذنب جناه .

هناك أركان أساسية لاستقرار المجتمع البشرى وازدهار الحضارة الإنسانية ، أهمها الإحساس بالأمن والطمأنينة مما يحقق للمجتمع والفرد قدراً من الاستقرار وهدوء البال يمكنه من العمل والإنتاج من جهة ، والاستمتاع بما هياه الله له من أسباب المتعة الحلال من جهة أخرى . لذلك رفض الناس فى كل زمان ومكان ظاهرة الإرهاب ، ولم يروا فى الإرهابيين إلا أعداء لله وللنشر . ولم ينفع الإرهابيين تمسحهم بالدين ومحاولتهم التستر خلفه ، وإنما كانت الصخرة التى تحطمت عليها حركاتهم الإرهابية عبر العصور هى عدم وجود ركيزة من أهل البلاد تبارك- أو على الأقل- تقر جرائمهم فى حق البلاد والعباد. ومهما يشيع الإرهابيون من زعر وخوف ، فبهم فى نظر المجتمع عصابة من الأشرار المخربين الذين جلبوا على الشر والغدر، والتعطش لسفك دماء الأبرياء وهؤلاء «مأواهم النار وبئس مئوى الظالمين» .

الشيخ عز الدين القسام رائد الحركة الوطنية الفلسطينية المسلحة

نشأة الشيخ القسام:

هو عز الدين عبد القادر القسام ولد في عام ١٨٨٣ في إحدى قرى قضاء اللاذقية شمال سوريا تسمى «جبل» يرجع نسبة إلى أسرة الكيلاني المعروفة بنزعتها الدينية الغيورة لدرجة التزمّت ، تلقى تعليمه الديني الأولى في تلك الأسرة فحفظ ثلثي القرآن الكريم واطلع على التفاسير المختلفة للأحاديث النبوية الشريفة ولم يكد يبلغ الرابعة عشرة من عمره حتى انتقل إلى القاهرة ليلتحق بالجامع الأزهر والدراسة به على يد كوكبة من أبرز العلماء في مقدمتهم الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده .

ومما لا شك فيه أن عز الدين القسام في هذه المرحلة من صباه تأثر إلى حد بعيد بالاتجاهات الوطنية التي سادت مصر آنذاك ضد الاحتلال البريطاني، وقد اصطبغ بالصبغة التي سادت معظم الطبقة المتوسطة من المثقفين المصريين وهي النبوغ في الخطابة هذا بالإضافة إلى تحصيله العلمي الفزير وحسن معشره وطيب أخلاقه ، وبعد أن انتهى القسام من دراسته في الأزهر عاد إلى سوريا واشتغل بالوعظ والإرشاد في جامع السلطان إبراهيم أدهم لفترة طويلة أصقلت من مواهبه الشخصية وأكسبته خبرة بأفئدة البشر وطبائعهم^(١) .

* مدرس بكلية الآداب - جامعة جنوب الوادي .

لم يكتف القسام في سوريا بنشر العلم بل شارك في حركة الجهاد التي اندلعت في كافة ربوع بلاد الشام أثر اتفاقيات التقسيم بين الدول الاستعمارية في عام ١٩٢٠ وكان كثيره من أبناء سوريا يأمل تحقيق أهداف الحركة الوطنية العربية التي تحالفت مع الحلفاء في ظروف الحرب العالمية الأولى غير أن تراجع الحلفاء عن وعودهم وقيام كل من بريطانيا وفرنسا بتقسيم منطقة المشرق العربي بينهما أدى بطبيعة الحال إلى رنود فعل وطنية في سوريا بوجه عام وعلى الأخص في الأجزاء الشمالية واشتعل هذا الجزء بحركات ثورية ابتداء من عام ١٩١٩ لمواجهة قوات الاحتلال الفرنسي ، وسارع القسام بالانضمام لصفوف الثوار وشارك في قيادة حرب العصابات مع «عمر البيطار» في جبل صهيون .

في هذه الفترة أخذت منطقة جبل العلويين تشهد قيام ثورة كبيرة بقيادة الشيخ «صالح العلي» ١٩٢٠-١٩٢١ فانضم القسام مع بعض إخوانه من قرية (جبله) من أمثال «محمد الحنفى» و«علي الحاج عبيد» إلى هذه الثورة وظلوا يحاربون في صفوفها وقد أبلوا بلاء حسنا وكان لهم الفضل في استمرار عنف ثورة جبل العلويين لدرجة أن السلطة العسكرية الفرنسية أرسلت رسولا إلى القسام يعده بتولية منصب القضاء وبذل العطاء له إذا ما تخلى عن مؤازرته للثورة ولكن القسام رد الرسول خائبا . وبعد أن تمكنت القوات الفرنسية من إخماد ثورة جبل العلويين حكم عليه الديوان العرفي في اللازقية بالإعدام^(٢).

اضطر عز الدين القسام ورفيقاه إلى الاختفاء مع مجموعة من الذين صدرت ضدهم أحكام بالإعدام ومن جهتها تابعت السلطات الفرنسية ملاحقة المحكوم عليهم، عندئذ لم يجد القسام بداً من مغادرة المنطقة الشمالية التي سيطر عليها الفرنسيون في سرية تامة إلى المنطقة الجنوبية (فلسطين) والتي تحت السيطرة الإنجليزية ، ويقول ابنه الشيخ القسام نقلاً عن والدها إنه أحاط لجوءه مع زميليه بالكتمان الشديد حيث كانوا يختبئون نهاراً ويسرون ليلاً حتى وصلوا الأراضي الفلسطينية عن طريق «رأس الناقورة» بعد رحلة شاقة زحفاً على البطون فوصلوها وكأنهم هياكل عظيمة من شدة المتاعب التي صادفتهم^(٣) واستقر بهم المقام في حيفا في ٢٥ / ٢ / ١٩٢٢م.

كانت حيفا عندما هبط إليها الشيخ القسام سريعة النمو في عمرانها فهي مرفأ فلسطين الأول وأقرب مدنها إلى لبنان وبيروت ودمشق وهي بلدة مختلطة ومتعددة الأقوام والجنسيات هذا إلى جانب أنها قاعدة من قواعد التهويد مما أسبغ عليها حساسية خاصة ، ويبدو أن

وجود الزعيم الوطنى السورى الشيخ «كامل القصاب» فى حيفا أنذ من بين الأسباب التى جعلت القسم يتخذ منها مقراً ومقاماً إذ أن «القصاب» كان يعمل مديراً للمدرسة الإسلامية الأهلية التى أسستها الجمعية الإسلامية فى حيفا وقد تمكن القسم نظراً لمؤهلاته العلمية وخبرته فى التدريس ومساعدة الشيخ القصاب من الحصول على وظيفة مدرس فى تلك المدرسة^(٤) وإلى جانب وظيفته الرسمية فى المدرسة الإسلامية قام بالتدريس مجاناً فى جامع النصر.

لم يكن حكم الإعدام الذى صدر ضد الشيخ القسم واجوئه إلى فلسطين ليحول دون احتفاظه بمبادئه الوطنية بل أن وصوله إلى فلسطين حيث الاستعمار البريطانى قد زاد من قناعته الثورية ضد الاستعمار^(٥) من هنا رأى أن يتخذ لنفسه منهجا قام بتنفيذه دون إثارة الشبهات حوله فابتدأ أولاً فى نطاق المدرسة التى عمل بها انطلاقاً من اعتقاده بأهمية توعية العناصر الطلابية الشابة بالكفاح المقبل وأدرك القسم بثاقب بصره أن الطلاب أكثر من غيرهم فهما لما يريد ، وأعمق وعياً لمخططات الاستعمار البريطانى الذى أراد فصل فلسطين عن بقية بلاد الشام وتهويدها ، وهكذا شرع القسم فى تأسيس حلقات سرية من المخلصين له وذلك للإعداد النفسى للثورة وكانت تلك الحلقات فى ازدياد مستمر^(٦).

تزايدت مشاعر القسم القلقة مع تزايد الأخطار الصهيونية التى تعرضت لها البلاد والتى كان من أبرزها دخول المستوطنين الصهاينة بأعداد هائلة، ففي عام ١٩٢٤ دخل إلى أرض فلسطين ١٢,٨٥٦ من العنصر الصهيونى، ثم ازداد العدد العام التالى ١٩٢٥ إلى ٣٣,٨٠١ وبذلك أصبح عددهم ١٢١,٧٢٥ بعد أن كانوا عام ١٩١٨ حوالى ٥٦ ألف فقط. كما ازدادت مساحة الأراضى التى أصبحت فى حوزتهم من ٤٢٠,٥٠٠ دونم عام ١٩١٤ إلى ما يقرب من ٩٠٠,٠٠٠ دونم حتى بداية عام ١٩٢٥ كما ارتفع عدد المستوطنات اليهودية من ٤٧ إلى ٩٦ خلال هذه الفترة^(٧) وكان كل ذلك بتسهيل من المندوب السامى البريطانى الصهيونى الأصل «هربرت صموئيل» .

استمر القسم يركز فى دروسه على الروح والأخلاق الوطنية السليمة وكان سبيله إلى ذلك انتقاء العناصر الوطنية بإحساسه الغريزى إذ كان يراقب المصلين وهو يخطب فيهم فوق المنبر ويدعو من يتوسم فيه الخير والاستعداد لزيارته فى منزله ثم تتكرر تلك الزيارات إلى أن ينخرط هذا التلميذ فى مجموعة سرية صغيرة لايزيد عددها من خمسة أفراد^(٨) وعن طريق تلك الخلايا العنقودية بدأ فى ممارسة ما كانت نفسه تصبو إليه وهو تكوين عصابات إيمانية

ثورية مدربة شروطها الأساسية أن يقتنى العضو السلاح على نفقته الخاصة وأن يتبرع بما يستطيع للعصبة التي ينتمى إليها^(٩).

ولم يكد الشيخ القسام يشعر بأن دعوته بدأت تؤتى أكلها بين قطاعات الشباب حتى أخذ يشجعهم سراً على تأسيس جمعية لهم أطلق عليها جمعية الشبان المسلمين (فى حيفا) ولما اشتد ساعد تلك الجمعية أسرع بالانضمام إليها^(١٠) ليتخذ من عضويته فيها ستاراً لتغطية أعماله الوطنية من الإعداد والتنظيم^(١١). وتذكر ابنة عز الدين القسام نقلاً عن والدها أنه استطاع من خلال جمعية الشبان المسلمين إلى أن يضيف إلى مهمتها الدينية مهمة أخرى اجتماعية قد يفتقد إليه المجتمع العشائري فى جنوب بلاد الشام حينذاك مثل تقديم العون للمحتاجين وإمداد المرضى بالعلاج على نفقتها الخاصة والاحتفال بالمناسبات الدينية والاجتماعية . وقد نجح القسام فى أن يضم إلى جمعيته أكبر عدد من الشباب حتى وصل عدد أعضائها إلى ٦٠٠ عضو خلال عامين فقط ، فكان يوكل إلى كل مجموعة أو عصبة بعض المهام الإدارية والواجبات العامة وحتى لاتخرج تلك التكاليفات عن نطاق السرية وتصل إلى عيون السلطة البريطانية أو العصابة الصهيونية ، وكانت الأوامر تدون على جدران الجمعية أو المساجد التي يخطب فيها وذلك على شكل رموز^(١٢) ومن هنا يمكن أن نقول إن هذا الشيخ الأزهرى فطن مبكراً إلى أهمية التخطيط لحرب العصابات التي تعتمد اعتماداً كلياً على الكتمان، وكان يردد دائماً قول الرسول الكريم «استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان» كما فطن أيضاً إلى أهمية الشفرة أو الرموز فى إبلاغ ما تعدّه القيادة العليا لهذا التنظيم إلى أفراد الخلايا القسامية المتناثرة.

أدى النجاح الذى حققته جمعية الشبان المسلمين فى حيفا إلى الدفع بكثير من الشباب المسلم فى بقية المدن الفلسطينية إلى تكوين جمعيات على غرارها وكانت مدينة نابلس من أسبق المدن فى هذا المجال وتكثرت جهود مجموعة من أولئك الشباب كان من بينهم «محمد عزّة دروزة» إلى وضع دستور لجمعية الشبان المسلمين بها ودعوة جميع طوائف الأمة لمناصرة الجمعية^(١٣) ثم تلى تلك الخطوة إنشاء جمعيات مماثلة فى كافة مدن فلسطين.

بدأ نطاق دعوة القسام يتسع منذ عام ١٩٢٩ عندما عُين مأثوناً شرعياً من قبل المحكمة الشرعية فكان يخرج إلى القرى ويحضر حفلات الأعراس مما هيا له فرصة لدراسة نفسية الجماهير وكان يتصل بسائر طبقات الشعب لا فرق بين متدين وغيره إيماناً منه بأن إصلاح

المستهترين أولى من إصلاح غيرهم وكان هذا الأسلوب قد جعله محل انتقاد من قبل بعض الشخصيات بل أدى في كثير من الأحيان إلى عقد مناظرات بينه وبين أصحاب الرأي المعارض مثل «صالح الحوراني» ، وكان القسام في دعوته للثورة الوطنية الفلسطينية يتكتم ما يعده من إجراءات أو استعدادات للوقوف في وجه الصهيونية ومنع إقامة وطن قومي يهودي ولم يبيع به إلا لأشخاص قلائل بعد دراسة مستفيضة لهؤلاء الأشخاص قد تطول لعدة سنوات ومن هذا المنطلق ظل يعمل بكل الوسائل لتأسيس نواة صالحة من عرب فلسطين لكي يهيئهم في الوقت المناسب للانطلاق نحو الثورة^(١٤). أدرك القسام أن نشاطه يجب ألا يقتصر على المدرسة التي يعمل بها أو الجمعية التي ينتسب إليها ذلك أنه لابد من توعية الجماهير داخل أماكن تجمعات تصطبغ بالصبغة الدينية الشرعية فلم يكن أمامه سبيل إلا حصوله على وظيفة إمام لأحد المساجد في حيفا وهو مسجد النصر^(١٥) ووضع برنامجاً لذلك يقوم على إلقاء دروس يومية عقب كل صلاة بالإضافة إلى خطبة أيام الجمعة ، وأخذ القسام رويداً رويداً يكتسب شهرة واسعة بين سكان حيفا بشكل عام ، وفي هذه الفترة كان قد تم إنشاء أكبر مسجد فيها وهو جامع الاستقلال فسعى حتى انتقل إليه^(١٦) ليصبح في استطاعته الاتصال بأكبر قدر من المصلين.

كانت الفترة السابقة من عام ١٩٢٢-١٩٢٦ بمثابة مرحلة التجهيز والإعداد في تاريخ التنظيم القسامي إذ اقتصرت على إجراء دراسات ميدانية لما يجري في الساحة الفلسطينية كأساس لابد منه قبل التخطيط الثوري ولاشك أن تجارب القسام السابقة في الثورات السورية قد أكسبته الكثير من الخبرة فأدرك أهمية العمل السري في نجاح أي تنظيم، وتقول ابنة القسام إن والدها اتفق مع بعض المخلصين من أصدقائه على حمل راية الثورة وتعاهدوا على أن يقدموا حياتهم فداء على مذبح الوطن ليعطوا لأبناء أمتهم درساً بليغاً في التضحية ، فكان ينتقى أصحابه من أهل الدين والعقيدة الصحيحة ويقوم بتدريبهم في رحلات ليلية كما كانوا يقومون برحلات استطلاعية يتمرنون في أثناءها على إصابة الهدف^(١٧).

ومما لاشك فيه أن الشيخ القسام «رغم تعليمه الديني الذي يبتعد كل البعد عن التكتيك العسكري إلا أنه كان واسع الأفق خلقت منه أحداث شمال بلاد الشام قائداً عسكرياً متمرساً على فنون حرب العصابات فكان يقسم إخوانه إلى وحدات عسكرية منظمة ، وحدة خاصة بشراء السلاح ووحدة أخرى للتدريب العسكري ووحدة للتجسس على الإنجليز والصهيونية

ووحدة للدعاية للثورة في المساجد والمجتمعات ووحدة للاتصالات السياسية وهذا كله رغم إمكانياته المحدودة ورغم مراقبة السلطة لكافة تحركاته هو وأعوانه (١٨).

كانت جموع الفلاحين تزداد في حيفا بعد تزايد عمليات الطرد الجماعية التي تقوم بها السلطة البريطانية أو نتيجة اغتصاب الشرازم الصهيونية لأراضي الفلسطينيين ولاشك أن هذه الطبقة كانت أكثر من غيرها استعداداً للتضحية والعمل، ولقد أدرك القسم هذه الحقيقة فأخذ يكثر من الاتصال بهم داخل المسجد فيحدثهم ويستمع إلى شكاواهم ويحس بالأمهم ويتردد عليهم في أحيائهم التي اتخذوها مستقراً لهم وكانت هذه الأحياء تتألف في أغلب الأحيان من أكواخ من التيك والخشب (١٩) ثم جعل من بيته مدرسة ليلية خاصة يستقبل فيها تلك الطبقات بهدف تعليمهم وتوعيتهم (٢٠).

تعتبر الفترة من ١٩٢٦-١٩٢٨ هي بداية المرحلة الثانية في تاريخ التنظيم القسامي إذ بدأ القسم في تنظيم أولئك الأوائل من الذين استجابوا للدعوة وكان في مقدمتهم : العبد قاسم، محمد زعروره ، محمد صالح ، و خليل محمد عيسى (٢١) ثم تزايد عدد التنظيم القسامي بعد انضمام أكثر من أربعين شخصاً يرتبطون ببعض عن طريق حلقات محدودة العدد على كل حلقة أو مجموعة نقيب يقوم على قيادتهم وتوجيههم، وكل خلية من تلك الخلايا لاتعرف غيرها من الخلايا السرية التي تنتمي إلى التنظيم ، وكان على كل من يتطوع أو يشترك في إحدى هذه الخلايا الثورية أن يدفع اشتراكاً شهرياً بحسب طاقته على ألا يقل عن عشرة قروش (٢٢) وحتى يزيد القسم من دخل التنظيم في هذه المرحلة فقد أعلن قبوله للتبرعات، وبدأت تفد إليه طوائف الشعب الفلسطيني تعد له العون رغم شظف العيش بين أغلبية السكان.

كان التنظيم القسامي في خلال هذه الفترة ينمو ببطء وسط إجراءات بالغة من الحذر والسرية وقد اقتصر نشاط القسم فيها على كسب الأنصار وإعدادهم عقائدياً وتدريبهم على استعمال السلاح في السر (٢٣) ولعل هناك من الحوادث المواكبة لتلك الفترة ما جعل القسم وأعوانه يعمدون لاستعمال النفس الطويل إذ شهدت السنوات الثلاث ١٩٢٦-١٩٢٨ تراجعاً في الهجرة الصهيونية وفي انتقال الأراضي العربية لليهود إذ بينما كان عدد المهاجرين الصهاينة عام ١٩٢٥ قد بلغ ٢٣,٨٠١ إذ به يتناقص في عام ١٩٢٦ إلى ١٣,٠٨١ ثم انخفض فجأة عام ١٩٢٧ إلى ٢٧١٣ ثم في العام التالي ١٩٢٨ إلى ٢١٧٨ (٢٤) ولعل هذه الظاهرة أدت إلى التفاؤل بزوال الخطر الصهيوني وخاصة أن أعداداً كبيرة منهم بدأت في

مفادرة فلسطين، وكان من الطبيعي أن يرافق هذا التراجع في أعداد المهاجرين تراجعاً في عمليات انتقال الأراضي العربية إلى اليهود لدرجة أن البعض أصبح يعتقد أن فكرة إنشاء وطن قومي يهودي توشك على الفشل^(٢٥) لهذا سارعت الحركة الصهيونية إلى التحرك في داخل فلسطين وخارجها لنقض الجمود الذي أصيبت به فتعمدت افتعال أحداث داخل فلسطين بهدف جذب اهتمام يهود العالم وكان سبيلها إلى ذلك العنصرية الدينية ففي النصف الثاني من عام ١٩٢٨ قام الصهاينة بنصب ستار عند حائط المبكى مخالفين بذلك العرف المتبع، هذا الإجراء أدى إلى اندلاع توتر بين أوساط المسلمين وحرصت الحكومة البريطانية من جانبها على تصعيد تلك الأزمة بوسائل غير مباشرة وشهدت البلاد حملات متبادلة من خلال بيانات الاحتجاج التي تنشر في الجرائد وامتد هذا الصراع خارج فلسطين أخذاً شكل تأليب القوى الصهيونية العالمية لمناصرة إخوانهم وتخليصهم من براثن العرب، ولقد أثمرت هذه الادعاءات لتحقيق بعض أهداف الصهيونية إذ استؤنفت الهجرة من جديد ففي عام ١٩٢٩ دخل إلى فلسطين ٥٢٤٩ كما استؤنفت عمليات الاستقراز فانفجر الموقف في أغسطس (آب) ١٩٢٩ م .

كان من نتيجة استئناف نشاط الحركة الصهيونية منذ أواخر ١٩٢٨ واستمرار الاستقرازات الاقتصادية والدينية أن ساد البلاد جواً من التوتر دفع بعض أعضاء التنظيم القسامي إلى مطالبة القسام بضرورة البدء في مرحلة العمل المسلح ضد تلك الأخطار المتزايدة، غير أن القسام الذي امتاز بعمق الفكر والتريث رفض الاشتراك العلني في ثورة ١٩٢٩ وذلك لاقتناعه بأن حجم الاستعدادات التي اتخذت حتى ذلك الوقت لم تكن كافية لإعلان الثورة إذ أن التنظيم لا يزال محدوداً من حيث التدريب والعدد والتمويل، ومع ذلك فقد شارك بعض أعضاء التنظيم في ثورة ١٩٢٩ بصورة انفرادية^(٢٦).

لما كان القسام يسعى جاهداً لنشر دعوته الثورية في سائر أنحاء فلسطين فقد طلب من الحاج «أمين الحسيني» رئيس المجلس الإسلامي الأعلى حينذاك أن يعينه واعظاً مستقلاً ليستطيع الاتصال بجميع طوائف الشعب غير أن الحاج أمين اعتذر له معللاً ذلك بالسير في طريق الحل السياسي^(٢٧) ويبدو أن فريقاً ممن يميلون إلى فكرة الحل السياسي ولا يؤيدون الثورة العنيفة قد بدعوا يروجون لتلك النظرية مما دعى القسام إلى إلقاء اللوم عليهم وأخذ عليهم تهاونهم في الدعوة للجهاد بل حملهم مسئولية الوضع السيئ الذي يكتنف الأراضي الفلسطينية. وكان في كل مناسبة يردد آيات من كتاب الله تتعلق بالقتال والاستشهاد^(٢٨).

كانت معظم الدول العربية حثثذ مهمومة إما بمشاكل الاستعمار الجديد أو بالإرهاصات الدولية التى من شأنها الارتباط فى فلك إحدى المعسكرات الداخلة فى نطاق الحرب العالمية الثانية والتى بدأت نذرها على الأبواب مبكرا ومن هذا المنطلق لم يعول هذا المناضل الثورى كثيراً على أية معونات من الدول العربية وكان يؤمن بأن عرب فلسطين إذا شاعوا أن يحيا فى بلادهم ويصدوا عنها الخطر الصهيونى فعليهم الاعتماد على أنفسهم غير منتظرين أن تهبط عليهم النجدات من السماء أو تأتى إليهم من وراء الحدود^(٢٩) من هنا تجاوزت شهرة القسام حدود مدينة حيفا إلى القرى المجاورة مما جعل العديد من قاطنيها يواظب على صلاة الجمعة فى مسجد الاستقلال ولما رأت السلطة البريطانية هذا التأثير الواضح من القسام على نفوس مستمعيه وشكها الدائم فى مشاركة بعض أفراد التنظيم القسامى فى ثورة ١٩٢٩ فقد وضعت تحت المراقبة^(٣٠).

بدأ الشيخ القسام يحدد مساعيه لدى المحكمة الشرعية التابعة للمجلس الإسلامى لتعيينه مأثوناً شرعياً لعقود الزواج بين قرى شمال فلسطين ليتخذ من تلك الوظيفة وسيلة للاتصال بالطبقات الشعبية وقد نجح القسام فى مسعاه وأخذ يتردد باستمرار على تلك القرى تحت ستار إتمام عقود النكاح وكان يركز فى أحاديثه بين جموع الفلاحين على أخطار الخلافات العائلية المتوارثة منذ الحكم العثمانى والتى كانت تزكيتها حكومة الانتداب البريطانى وتعمل على الاستزادة منها وتعميقها بهدف تصدع الجبهة الداخلية وكثيراً ما يتطرق به الحديث إلى أخطار بيع الأرض والهجرة والصهيونية ولقد نجح القسام فى تحقيق أهدافه فى أوساط تلك الطبقات الشعبية بما أوتى من موهبة فى حسن الحديث وقوة التأثير^(٣١).

تزايدت شكوك السلطة البريطانية تجاه القسام فى هذه الفترة ولذلك حاولت بطرق غير مباشرة تحديد نشاطاته فعرضت عليه الانتقال إلى القدس ليعمل بوظيفة مدرس فى دار المعلمات براتب قدره ٢٥ دينار وهو من أعلى الرواتب حينذاك هذا بالإضافة إلى امتيازات سكنية مجانية وتعليم بناته الثلاثة فى نفس المعهد^(٣٢) غير أن القسام اعتذر عن عدم قبول هذا العرض بطريقة لبقة ليتمكن من الاستمرار فى المهمة التى نذر نفسه من أجلها.

صدقت توقعات القسام بالنسبة للثورة الشعبية العارمة إذ سرعان ما تخاذلت القيادات التقليدية أمام لجان التحقيق البريطانية فرحبت بما أسمته بريطانيا بالكتاب الأبيض وما جاء فى هذا الكتاب من بنود رغم افتئاتها على حقوق الفلسطينيين ومع ذلك فقد تراجعت بريطانيا

عن تحقيق هذه المكاسب الضئيلة بالنسبة للشعب الفلسطيني وكان رد الفعل أن هيأت للحركة الصهيونية استئناف نشاطها بتقديم مزيد من الامتيازات الاقتصادية وفتح أبواب البلاد عن آخرها للهجرة الصهيونية وانتقال الأراضي إليهم فأصبحوا يملكون في عام ١٩٢١ ما يزيد على ١,٠٥٨,٥٠٠ دونم معظمها في أخصب الأراضي كما ازداد عددهم إلى ١٧٤,٦٠٦ ، كما قامت السلطة البريطانية في عام ١٩٢١ بتسليح المستوطنات الصهيونية التي ارتفع عددها إلى ١١٠ مستوطنة^(٣٢).

كان من الطبيعي أن يزداد عدد الفلاحين المطرودين من أراضيهم نتيجة اغتصاب الصهاينة لتلك الأراضي وكانت حيفا هي الملجأ والملاذ لأولئك العاطلين عن العمل ولم يكن بوسعهم إلا الانضمام للتنظيم القسامي باعتباره التنظيم الثوري الحقيقي وبرز من بين صفوف هؤلاء الفلاحين نماذج ثورية أقضت مضجع السلطة العسكرية البريطانية مثل الشيخ «فرحان السعدى» وهو من قرية «المزار» بقضاء «جنين» والذي شارك في كل المظاهرات الوطنية السابقة كما شارك أيضا في ثورة ١٩٢٩ مما جعل السلطة البريطانية تحكم عليه بالسجن لمدة ثلاثة أعوام قضى بعضها في سجن (عكا) والبعض الآخر في سجن نور شمس وبعد خروجه انتقل إلى حيفا حيث اتصل بالقسام وانضم إلى حركته^(٣٤) وكذلك «يوسف سعيد أبو درة» من قرية «سبلة الحارثية» قضاء جنين وقد هاجر إلى حيفا وعمل في دائرة السكة الحديد وتعرف على القسام وتلمذ على يديه ودخل في تنظيمه^(٣٥).

لما اتسعت دائرة القطاعات التي أخذ يعمل فيها القسام وقام بإعادة تنظيم الخلايا الثورية بهدف تشكيل اللجان المتخصصة فقسم أتباعه إلى مجموعات رئيسية تتفرع إلى حلقات صغيرة وكان من بين هذه التقسيمات الرئيسية: الوحدات العسكرية والتي انبعثت منها وحدة لشراء الأسلحة ومن قادتها البارزين الشيخ حسن الباير والشيخ نمر السعدى ووحدة للتدريب العسكري يشرف عليها عدد من نوى الخبرة من أمثال محمد أبو العيون^(٣٦). كما كانت هناك وحدة للتجسس على اليهود والإنجليز لمعرفة خططهم السرية ومن أفرادها الشيخ ناجى أبو زيد مع مجموعة أخرى من العمال الذين يعملون في الدوائر الحكومية وخاصة البوليس ، كما كان قسم منهم يعمل مع اليهود للوقوف على نشاطهم السرى بالإضافة إلى وحدات خاصة للدعاية في المساجد والمجتمعات وأوكل هذه المهمة لعدد من العلماء .

وكان الشيخ «كامل القصاب» أستاذه الحميم وصديقه القديم موجهاً ومستشاراً في هذه التنظيمات كما أسس الشيخ القسام وحدات خاصة للاتصالات الخارجية والسياسية ومن أبرز

رجالها الشيخ «محمود سالم المخزومي» والذي روى لصباحي ياسين أن عدد الذين أعدمهم القسم للقيادات الجهادية وصل إلى ٢٠٠ شخص أشرف أكثرهم على خلايا رئيسية للحركة القسامية^(٢٧) أما التمويل فقد أنشأ له وحدة خاصة تقوم بجمع الاشتراكات والتبرعات وقد استمر القسم عند حسن ثقة الناس به . ويشترط على العضو الذي يتم التحاقه بالتنظيم ضرورة تديره السلاح على حسابه الخاص^(٢٨) وقد ضرب القسم مثلاً عملياً في التوضحية عندما وكل عنه أحد أقاربه في قرية (جبله) لبيع أملاكه الخاصة وخصص أثمانها لشراء الأسلحة وكان الشيخ القسم يشتري بعض هذه الأسلحة من تركيا عن طريق بعض الموردين وتذكر ابنة القسم أن أحد هؤلاء الموردين كان صحفى من بولونيا التقى بها أثناء المؤتمر النسائي العربى في القاهرة عام ١٩٣٨ وتعرف عليها وأكد لها أنه كان من بين الذين عملوا على تهريب السلاح للحركة القسامية حيث كان يتم تسليمها في المناطق الجبلية الشمالية من فلسطين^(٢٩).

لم يكن نضال القيادات التقليدية الفلسطينية يتجاوز حدود تقديم الاحتجاجات إلى فخامة المندوب السامى البريطانى أو الدعوة إلى الإضراب على أكثر تقدير عند اكتشاف أية أعمال خطيرة للعناصر الصهيونية بينما استطاع التنظيم القسامى رغم قلة عدده أن يقوم بتشكيل عصيانات ثورية من الفلاحين لمهاجمة المستوطنات الصهيونية منذ عام ١٩٣٠ وكانت أخطار الصهيونية قد تفاقمت ابتداء من مطلع عام ١٩٣٣ إذ قفز عدد اليهود في نهايته إلى ٣٢٦,٣٠٠ هذا عدا آلاف الصهاينة الذين كان يتم تهريبهم كما تم في نفس العام اغتصاب ما يقرب من ١٥٠,٠٠٠ دونم من أجود الأراضى العربية وكان طبيعياً أن يواكب هذا الاغتصاب في الأرض إجلاء الفلاحين واستخدام العنف والتصفية الجسدية ضد الكثير منهم^(٤٠).

بعد اضطرابات عام ١٩٢٩ حدث انقسام داخلى في التنظيم القسامى إذ انشق عليه بعضاً من إخوان القسم كان على رأسهم «إبراهيم الكبير» المعروف بـ «خليل محمد عيسى» وذلك نتيجة لعاملين «العامل الأول»: هو أنهم رأوا أن الوقت قد حان لإعلان الثورة بينما يرى القسم أن الإعداد للثورة لم يكن قد اكتمل بعد «أما العامل الثانى» فهو رغبة المنشقين في جباية الأموال اللازمة للثورة من الشعب بكل الوسائل الممكنة بينما كان القسم يصر على عدم فرض أية مبالغ نقدية تزيد من الحالة المادية المتدهورة لجماهير الشعب الفلسطينى ، رغم هذا الانشقاق الداخلى إلا أن ثمة روح من الود والتراحم كانت تسود بين كل من الأصل والفرع وإن دل ذلك على شئ فإنما يدل على مدى تقدير أولئك الثوار لرسالتهم حتى وإن اختلفوا في الوسائل والتفاصيل بل ظل المنشقون بعد ذلك يعملون سراً ضمن مخطط القسم الثورى.

انتقلت الحركة الثورية القسامية فى السنوات التى تلت عام ١٩٢٩ إلى مرحلة جديدة من النضال ضد الصهيونية وضد الإمبريالية المتمثلة فى الكيان البريطانى ولعل زعيم التنظيم رأى أن الوقت يسمح الآن بالعمل العلنى ولكنه حرص فى نفس الوقت على اتخاذ الصفة الفردية حتى لا ينكشف أمر أعوانه من المجاهدين والثوار. وشهد عام ١٩٣٣ موجة من التهويد حل فيها الصهاينة محل العمال والفلاحين العرب من دوائر الحكومة مما أدى بمجموعة من التنظيم القسامى إلى التعبير عن شعور السخط تجاه سياسة التهويد بأسلوب عملى إذ تمكن فى ذات العام أحد أعضاء التنظيم ويدعى «أحمد الغلاينى» من صنع قنابل ألغام فى معمله فى حيفا وسلم بعضها منها إلى زميل له يدعى «صالح أحمد طه» فذهب مع بعض إخوانه ووضعوا إحدى هذه القنابل فى مسكن به أربعة حراس من اليهود فى مستوطنة «نهلال» الواقعة بين حيفا والناصرية فقتلت اثنين وجرح الآخرين ، كما قامت مجموعة أخرى مكونة من الشيخ «أحمد التوبة ومصطفى على أحمد» برفقتهم الشيخ صالح طه أيضا بمهاجمة المستوطنات الصهيونية فى منطقة «مرج بن عامر» وعلى الرغم من اكتشاف السلطة البريطانية لتلك الحركة الفدائية واعتقال أفرادها لمدة تسعة أشهر وإعدام «مصطفى على أحمد» والحكم على أحمد الغلاينى بخمسة عشر عاما من السجن^(١١) إلا أن الحركة القسامية لم توقف نشاطها الفدائى ضد المستوطنات اليهودية حيث قامت مجموعة من أفراد التنظيم بأعمال فردية ليلية سريعة كان من بينها شن هجوم على مستوطنة «العفولة» وقتل مختارها اليهودى، كما تعرضت مستوطنة «عتليت» لهجوم آخر وكذلك السيارات التى كانت تنقل العمال اليهود إلى المستوطنات القريبة من قرية «الياجور»^(١٢).

وفى بداية عام ١٩٣٤ شعر القسام بأن ثمة مزيد من الخطر يهدد الحركة الوطنية الفلسطينية وذلك إثر الصراع العائلى الذى أصاب القيادات التقليدية على رئاسة اللجنة التنفيذية التى من المفترض أنها تشكلت من أجل انتزاع الحقوق الفلسطينية السلبية من السلطة البريطانية ومن شرائم الصهيونية، ثم لم تلبث تلك القيادات أن انشغلت بمهزلة انتخابات البلدية وتبادل الاتهامات والانصراف إلى تشكيل تكتلات حزبية عائلية بعيدة عن جماهير الشعب وأدرك القسام أن هذا الانقسام قد استنزف جزءاً كبيراً من طاقة الشعب التى كان من الواجب توجيهها لمقاومة الانتداب البريطانى وعصابات اليهود، ومما زاد فى قلقه ما كانت تقوم به تلك القيادات من تقارب مع السلطات البريطانية فى صورة التماسات تقليدية

واعتبر أن ذلك مضيعة للوقت لاتستفيد منه إلا الحركة الصهيونية لاسيما أن مزيدا من الهجرة الصهيونية قد عرفت طريقها إلى داخل البلاد إذ بلغ عدد اليهود الذين وصلوا في نفس العام ١٩٣٤ إلى ٤٣,٣٥٩ مهاجرا . وفي المقابل فإن القسم كان يرى أن جموعاً جديدة من الفلاحين قد طردت من أراضيها بعد أن تمكن اليهود من شراء ١٦٠,٠٠٠ دونم بل بلغ الأمر بالصهاينة إلى حد الاعتداء العلني على بعض العمال العرب لحرمانهم من فرص العمل القليلة المتبقية أمامهم (٤٣).

إزاء هذا الوضع المتردى أخذ عن الدين القسم يكثف نشاطه الثوري في اتجاهين متوازيين الأول هو تأليب الرأي العام وتعبئة طاقات الأهالي ضد الاستعمار والصهيونية بكافة السبل والوسائل المشروعة وغير المشروعة ، أما الاتجاه الثاني فهو الكفاح المسلح ضد ما أسماه المارقين وعصابات الكفر والإلحاد . وشهد عام ١٩٣٥ أحداثاً مؤسفة في داخل الأراضي الفلسطينية مما أدى إلى تفاقم الحالة بوجه عام منها استخدام الصهيونية للفتيات اليهوديات في التأثير على بعض شباب العرب والتلويح بورقة الجنس في سبيل جذب هؤلاء إليهم واغتصاب المزيد من الأراضي الفلسطينية أو الانضمام إليهم والعمل في صفوفه بإغرائهم بشتى الوسائل المادية ، وتعهد القسم أن يذهب مع مجموعة من رفاقه إلى المدن الفلسطينية المطلة على البحر المتوسط والتي عن طريقها يتم تهريب اليهود ليلقى بالنزول على الوقود المشتعل وكان من نتيجة تلك السياسة إضراب جميع العمال في مدينة يافا عن الطعام كرد فعل لقيام السلطة البريطانية بطرد بعض إخوانهم من العمل (٤٤) وذلك في ٥ مارس ١٩٣٥م.

بدأت الاستفزازات الصهيونية والبريطانية ضد الحركة الوطنية الفلسطينية تتخذ الشكل العلني الصريح وذلك بوضع العراقيل أمام الحجاج المسلمين والمسيحيين الراغبين في زيارة الأماكن المقدسة ومنعهم بالقوة من الوصول إليها وإمعاناً في الاستخفاف من تقاليد سكان البلاد وعقائدهم وإيمان الصهيونية العالمية بما للجنس الناعم اليهودي من أثر فعال في صراع يقوم في الكثير منه على الأسس الدينية والأخلاقية فقد لجأت تلك العصابات إلى تهريب كثير من اليهوديات في زى مسلمات عن طريق جسر يصل بين البحر الميت وسوريا كما اتخذت من طريق (مخاضتى أم الشرب والمقدسة) الواقعتين بأريحا سبيلاً للتسلل إلى البلاد لاسيما أن المتسللات كن يجدن المساعدة من أبناء جلدتهم في مستعمرة «غور الصافي» بعد أن تقوم اللنشآت بحملهم إليها (٤٥).

كانت المقاومة السلبية لقيادات فلسطين التقليدية كما سبق القول - سبباً غير مباشر فى الجهر بالحركة القسامية بل ورميها بعدم الشرعية من قبل هذه القيادات التى اكتفت بالولولة والعيول والوقوف موقف المتفرج من تدنيس الأرض والعقيدة ففى بيان لمكتب الحزب العربى الفلسطينى جاء فيه «لقد أم فلسطين لحضور حفلات (المكابياد) الرياضية هذه السنة عشرات الألوف من اليهود وأخذوا يستعرضون قواهم العسكرية المتسترة بستار الرياضة البدنية ... واليوم وقد انتهت حفلاتهم فقد أخذت جموعهم تجوس خلال الديار وانتشروا فى كل مكان وظهروا للناس بعادات تردت فيها الأخلاق الرياضية وتصرفات تنهى عنها الأديان السماوية وأماتوا لثام الحياء فى هذه البلاد المقدسة، وما قصدوا من ذلك إلا غزو الأخلاق العربية والفضائل الإسلامية كما غزوا الأراضى المقدسة»^(٤٦).

لم يعد أمام التنظيم القسامى إلا تكثيف جهوده فى مواصلة العمل الفدائى المسلح ضد كل ما هو معادى للحركة الوطنية الصادقة وقوبلت قرارات الاحتجاج والتتديد التى أصدرتها القيادات الرسمية الفلسطينية بالمزيد من الضربات المؤثرة فى جسد الكيان الصهيونى ولم يبال القساميون بالتشنجات المعادية ممن أثروا الاستكانة والاستسلام والصاق الصفات المشينة بهم وساروا فى الطريق الذى رسمه لهم زعيمهم حتى التحمت بهم كافة طوائف الشعب الفلسطينى وقد ازداد وعى أولئك البسطاء بمدى أهمية استرجاع حقوقهم الاقتصادية والانخراط فى العمل السياسى المنظم تحت مظلة القسم أيضاً لمواجهة تلك الأحزاب الهزيلة التى تشكلت ولم يكن لها من هدف سوى استعطاف المنسوب السامى البريطانى لمباركة تنظيماتها التى عبرت فقط عن رغبات فى تصفية الخلافات العائلية القديمة وجاء أول تعبير عن الاحتجاج الوطنى ضد الإمبريالية فى شكل إضراب للسائقين فى كافة المدن الفلسطينية الرئيسية والتى أصيبت بالشلل نتيجة توقف المواصلات وعلى الرغم من انعدام وجود رابطة أو هيئة يجتمع تحت لوائها تلك الطائفة المهنية إلا أن دقة التوقيت الذى أعلن فيه الإضراب يشير إلى وجود قيادات على وعى كبير بالعمل الثورى هى التى تخطط وتوجه هذه الانتفاضات^(٤٧) وأشارت أصابع الاتهام إلى الشيخ القسام.

لم يكن فلاحو فلسطين أقل وعياً من بقية الطوائف الشعبية بحقوقهم السياسية ورأوا أن الموقف الوطنى يحتم عليهم - إزاء هذا الصراع الحزبى - الانضواء تحت راية واحدة تعمل من أجل صالحهم. وتقول جريدة «مرآة الشرق» «أن هناك حركة بين الفلاحين ترمى إلى استبدال

الأحزاب السياسية الحاضرة بهيئة وطنية مستقلة وقالت إن هناك أكثر من ألف فلاح سيجتمعون قريباً في «بيت جبرين» بالقرب من الخليل ... وأن هؤلاء الفلاحين يعتزمون تشكيل حزب جديد إذا رفض الزعماء تأييد خطتهم ... كما أن هناك بعض الفلاحين من نابلس وجنين وطولكرم قرروا تكوين حزب للفلاحين باسم «حزب الزراعة» للدفاع عن مصالحهم^(٤٨).

وفي خلال الأشهر الأخيرة من عام ١٩٣٥ شهدت المناطق الشمالية من فلسطين مزيداً من عمليات الكفاح المسلح في صورة فردية وتركز معظم تلك العمليات في منطقة المثلث العربي جنين- نابلس - طولكرم حيث تكررت حوادث اغتيالات الضباط الإنجليز ونسف القطارات^(٤٩) وقد أشار التقرير السنوي لحكومة الانتداب لعام ١٩٣٥ إلى أن الحكومة كان لديها شك كبير في أن لعصابة الشيخ القسام علاقة بالأعمال الإرهابية التي حدثت خلال السنوات السابقة^(٥٠). وكان القسام يهدف من وراء تصعيد عملياته الفردية تهيئة الجماهير الشعبية وإعدادها لمساندة الثورة عند إعلانها هذا من جهة ومن جهة ثانية لإحراج القيادات الفلسطينية ودفعها للتخلص من سياستها السلبية في مقاومة الاستعمار.

لقد ظل القسام مقتنعا بضرورة توجيه كل الصفوف وتوجيه كل الطاقات لمكافحة العدو وفي سبيل ذلك كان يجرى الكثير من المناظرات مع مؤيدي سياسة الملاينة والمهادنة وكان من أبرزهم الشيخ صالح الحوراني الذي لم يكن يؤمن بالثورة^(٥١) أما بالنسبة للحاج أمين الحسيني فقد ظل القسام يقدر أهمية الدور الذي يمكن أن يلعبه في مقاومة الاستعمار خاصة أنه أصبح بعد عام ١٩٣٣ ووفاء موسى كاظم وفشل راجب النشاشيبي في انتخابات بلدية القدس وتشكيل الحزب العربي الفلسطيني هو الرجل الأول من الناحية الفعلية وأنه القادر على تحريك البلاد كلها ناحية الكفاح العملي ولذلك كان القسام يسعى دائماً لدى الحاج أمين لإقناعه بأن يلقي بثقله إلى جانب الحركة الوطنية بشكل عملي وكان من بين هذه المساعي محاولاته لإقناعه بتخصيص قسماً من ميزانية «الأوقاف الإسلامية» الضخمة والتي كانت تزيد عن نصف مليون جنيه لإعداد الشعب للجهاد على اعتبار أن ذلك أفضل من إنفاقها على تشييد الأبنية (مثل فندق الأوقاف بالقدس) وتزيين المساجد حتى وإن وصل الأمر إلى المسجد الأقصى^(٥٢).

أدرك القسام أن مهمته في الإعداد والتهيئة قد نجحت إلى حد كبير وخاصة في الأجزاء الشمالية من فلسطين وأن سكانها على استعداد للتضحية ونظراً لأنه كان يؤمن بالثورة

الشاملة وأن الحاج أمين الحسيني له من المكانة في نفوس الأهالي في القطاعين الأوسط والجنوبي من فلسطين فقد سعى لديه للقيام بتهيئة النفوس في تلك المناطق للثورة وأرسل القسم أحد إخوانه وهو «محمود سالم المخزومي» إلى الحاج أمين ليخبره بعزمه عن القيام بثورة في فلسطين للقضاء على فكرة إنشاء وطن قومي لليهود غير أن الحاج أمين أجاب بئن الوقت لم يحن بعد لمثل هذا العمل وأن الجهود السياسية التي تبذل تكفى لحصول عرب فلسطين على حقهم (٥٣).

لاشك أن موقف الحاج أمين الحسيني المهادن للإنجليز الرافض لدعوة الشيخ القسم كان له ما يبرره وهو خوفه من إقالته من منصبه الإفتاء ورئاسة المجلس الإسلامي الأعلى إذا ما أبدى اعتراضاً على السياسة البريطانية ، وهذان المنصبان من أهم ركائز نفوذ الحاج أمين والمحافظة عليهما يتطلب عدم مواجهة الإنجليز والاكتفاء بالمساومة عن طريق الاحتجاجات والاتصالات ولم يكن القسم وحده هو الذي طلب من الحاج أمين الحسيني هذا المطلب ولكن طالبه أيضاً بعض الشباب الفلسطينيين الذين كونوا تنظيمًا سرّيًا موازي للتنظيم القسمي ورفض الحسيني أيضاً مطلبهم بنفس الحجة (٥٤).

ومهما يكن من الأمر فإن الموقف السلبي للحاج أمين لم يثن القسم عن مواصلة نشاطه في المناطق الشمالية وكان يبعث ببعض رفاقه من قادة الخلايا الثورية إلى مسقط رأسهم ليعبثوا السكان معنوياً ويقوموا بتوجيه وتدريب أعضاء التنظيم في تلك المناطق، وظل هذا التوسع القسمي شمالاً حتى مدينة صفد وتقول نشرة فلسطين الدورية أن أحد أفراد التنظيم ويدعى «عبد الله الأصبح» وهو من قرية «الجاعونة» شرق صفد قد تولى قيادة الفدائيين في هذا الجزء (٥٥) كما توسع القسم في تدبير الأسلحة لدرجة أصبحت تكفى ألف مقاتل هذا بالإضافة إلى الأسلحة التي اشتراها أفراد آخرون من خارج التنظيم وتبرعوا بها للفدائيين وتذكر بعض المصادر أنه توفر لزعيم الحركة ما يقرب من ٨٠٠ عضو للاشتراك في الثورة إلى جانب ٢٠٠ آخرين من العناصر القيادية في الخلايا العنقودية (٥٦).

ازدادت الانقسامات العائلية تفاقمًا منذ عام ١٩٣٥ ومما زاد الأمر سوءاً حملات الاتهام المتبادلة بين أفراد هذه الأسر ومن جهة ثانية واصل الصهاينة عمليات إجلاء الفلاحين عن أراضيهم بالقوة وازداد أعداد العرب المعدمين ويقول Jeffries إنه كان في مدينة حيفا وحدها نحو ١١,٠٠٠ من العرب الذين يعيشون في ٢٥٠٠ من أكواخ التلك أي بمعدل أكثر من أربعة

أفراد في الكوخ الواحد وكذلك كان الحال في يافا وبقية المدن، وازدادت المخاوف العربية بعد انعقاد المؤتمر الصهيوني التاسع عشر في مدينة لوسيرن Lucerne في شهر آب ١٩٣٥ وأعلن أن فلسطين هي البلد الوحيد المفتوح للهجرة اليهودية على أوسع نطاق وأن المنظمة الصهيونية سوف تركز جميع طاقات الشعب اليهودي لإعادة توسيع توطينه والإسراع فيه^(٥٧).

ولكى توضع توصيات المؤتمر اليهودي موضع التنفيذ فقد وصل إلى فلسطين خلال هذا العام وبموجب الأنونات الحكومية ٦١,٨٥٤ صهيونياً عدا آلاف المهريين وبذلك أصبح مجموعهم ٣٥٥,١٥٧ أي ما يعادل ٢٧,١٪ من مجموع السكان^(٥٨) كما ازدادت عمليات بيع الأراضي هذا إلى جانب تعاظم الخطر الاقتصادي حيث تزايدت المؤسسات الاقتصادية الصهيونية التي كان عددها في عام ١٩٣٣ حوالي ٢٣٨٨ مؤسسة يعمل بها ١٠,٥٩٥ مستخدماً وقفز هذا العدد إلى ٢٥,٨٣٠ مستخدماً يعملون في ٤٦١٥ مؤسسة^(٥٩).

من جهتها لم تكتف السلطة البريطانية بالتأييد المادي والمعنوي للعصابات الصهيونية بل راحت تسعى جاهدة لإمدادهم بالأسلحة سراً وكانت الطامة الكبرى بالنسبة للعرب حينما اكتشف هذا المخطط في ١٦ / ١٠ / ١٩٣٥م ليزيد من مشاعر السخط^(٦٠) إذ كان من بين هذه الأسلحة ٨٠٠ بندقية و ٤٠٠,٠٠٠ خرطوشة^(٦١). وكان القسام ينتظر أن تحرك هذه الأحداث القيادات الفلسطينية فتبادر إلى اتخاذ مواقف وطنية عملية غير أنها اكتفت بشن الحملات الصحفية في الداخل واستجداء العون من بعض الدول الشقيقة كمصر التي كانت تنن تحت وطأة الاستعمار البريطاني^(٦٢) فلم تملك إلا تقديم الاحتجاجات لدى المنسوب السامي البريطاني.

لم تسفر جهود القيادات الفلسطينية للرد على حادث تهريب الأسلحة لليهود إلا على موافقة الجانب البريطاني على تنظيم إضراب عام وذلك يوم ٢٦ / ١٠ / ١٩٣٥م^(٦٣) مما أدى إلى إصابة القسام بخيبة أمل جديدة لاسيما بعد أن لمس ترددهم في إقراره، وكان من نتيجة هذا الوضع المتروكي وازدياد قناعته بضرورة الإسراع في التصدي لتلك الأخطار قبل وقوع المزيد أو فوات الأوان خاصة وأن القساميين أصبحوا في بؤرة المراقبة من قبل السلطات البريطانية، ولاشك أن اكتشاف حادث تهريب الأسلحة لليهود دفع بالقسام إلى البدء في عمليات الاستتار بين صفوف التنظيم فأعاد توزيع الأدوار بحيث أبقى قسماً منهم في حيفا وأرسل قسماً آخر إلى القرى الشمالية ليقوموا بإنذار الناس وتبئيرهم لدعم الثورة عند نشوبها، وفي الذكرى

السنوية لوعد بلفور في ٢ / ١١ / ١٩٣٥ م كان يتوقع القسام على الأقل حدوث إضراب مماثل للإضراب السابق ولكن شيئاً من ذلك لم يحدث بعد أن رفض رؤساء الأحزاب الفلسطينية هذا الإجراء.

واصلت جماعة القسام أعمالها الفدائية وبالذات في المناطق الشمالية من فلسطين فتمكنوا في ٧ / ١١ / ١٩٣٥ من قتل أحد أفراد البوليس البريطاني برتبة (جاويش) وتعمدت السلطة الإعلان فيما بعد إلى أن مقتله جاء على يد أحد اللصوص أثر تعقبه لمجموعة منهم من أجل السرقة في هضاب الناصرة^(٦٤) حيث دأبت السلطة على وصف الأعمال الفدائية بأنها أعمال قرصنة ونهب، وقد اضطر هذا الحادث الأجهزة المعنية في البوليس إلى تكثيف أعمال المراقبة والتجسس ووظفت بعض الخونة كعيون لها راحت تدسهم في صفوف القساميين من أمثال «حليم بسطة» و«أحمد نايف» ، وقد أحس القسام بمدى خطورة اكتشاف التنظيم وإلقاء القبض على أعضائه فأسرع في خطته لإعلان البدء في تفجير الثورة المسلحة وأعلن حالة الطوارئ في صفوف إخوانه وطلب منهم توديع أهاليهم وعقد خلال يومي ١٠ ، ١١ من نوفمبر (تشرين الثاني) عام ١٩٣٥ عدة اجتماعات في أماكن مختلفة كان أحدها في بستان «يوسف الزيباوي» وآخر في منزل «محمود سالم المخزومي» حيث تقرر الخروج إلى القدس الشمالية لبدء العمليات الجماعية^(٦٥) كما ترك القسام رسالة لصديقه الأوفى وخليفته في حيفا «رشيد الحاج إبراهيم» يقول له فيها «إني واثق من نفسي وأن صوتي سيجد صداه في كل مكان عند أول صيحة ، ونستودعك الله راجين من المولى أن يوفقنا في أعمالنا في سبيل الوطن»^(٦٦).

الجهر بالحركة الفدائية القسامية :

كان أتباع القسام قد باع كل منهم حلى زوجته وبناته بالإضافة إلى بعض الأثاث واشتروا بأثمانها رصاصاً لبنادقهم وقصدوا الجبال القريبة من حرس الأسطول البريطاني ومن معسكرات الإنجليز وهذا دليل على أن هؤلاء القوم كانوا يدركون مصيرهم وأن بغيتهم هي الشهادة في سبيل الله^(٦٧) ويؤثر عن رجال القسام أن كل واحد منهم كان يحمل في جيبه نسخة من القرآن الكريم الذي اتخذه قنوة لهم^(٦٨) وكان إيمانهم بأن السعادة تكمن في بلوغهم مرتبة الشهادة والانتقال إلى الحياة الأخرى للاستمتاع بما أعده الله للمجاهدين والشهداء من نعيم^(٦٩).

خرجت المجموعة الفدائية الأولى للتنظيم القسامي في يوم ١٢ / ١١ / ١٩٣٥ م وكانت تقدر بحوالي ٢٥ شخصاً يرأسهم القسام نفسه فتوجهوا إلى منطقة جنين التي تم اختيارها

منطلقاً لأعمالهم الثورية وذلك لطبيعتها الجبلية ذات المسالك الوعرة ولاكتسائها بالأحراش الكثيفة ثم إلى جانب ذلك كله مدى ما يتمتع به القسام من تأييد شعبي في قرى هذه المنطقة.

وكان القسام قد عين لكل منهم مهمة خاصة في منطقة معينة وبعد وصولهم انتشر قسم منهم في يعبد، اليامون، برقين، كفردان، فقوعة، وصندلة وذلك لإبلاغ الأهالي بالمشاركة في العمليات الفدائية في الوقت المحدد الذي سيعلم عنه. أما القسام فقد تركز مع مجموعة من أصحابه في إحدى المغارات القريبة من قرية فقوعة وهم، يوسف عبدالله، مصطفى الزياوي، حنفي عطيه أحمد، حمد بوقاسم خلف، نمر السعدى، داود الخطاب، محمود الزرعيني، أسعد المفلح، أحمد جابر، محمد يوسف، محمد الطحولى، ومعرف جابري وكان مع كل واحد من المجاهدين بندقية ومبلغ ضئيل من المال لشراء ما يقيم أوده، وقد روى سكان قرية «يعبد» حيث كان القسام يربط مع جماعة بالقرب منها «أنهم لم يسألوهم أو يطلبوا منهم شيئاً في يوم من الأيام وأنهم كانوا بالنهار يأوون إلى كهوفهم يصلون ويقرءون القرآن وفي الليل يخرجون إلى القتال»^(٧٠) ولم ينس القسام حتى وهو في ميدان القتال أن يبصر الأهالي بأخطار العصابات الصهيونية فتقول جريدة فلسطين إنه ألقى على أهالي قرية فقوعة خطبة تحدث فيها عن تهريب اليهود للسلاح^(٧١).

وفي يوم ١٤ / ١١ وبينما كان «محمود سالم» و«يوسف الزياوي» يقومان بالمراقبة والحراسة وإذا بدورية بوليس يهودية قادمة من مستوطنة «عين حارود» بهدف البحث عن آثار مجهولين شنوا هجوماً في الليلة السابقة على المستوطنة ولما أصبحت الدورية قريبة من مكان المجاهدين سارع «محمد سالم» بإطلاق النار على الدورية فأصاب منها أحد أفرادها وهو برتبة جاويش وفر الباقون وتمكنوا من الوصول إلى أقرب مركز للبوليس بالمنطقة وقد أرسل المركز مجموعة من الجنود اليهود لتمشيط الموقع بهدف الوصول إلى قاتل الجاويش ولكنهم اصطدموا مع مجموعة من المجاهدين القساميين عند قرية «البارد» وأسفر هذا الاصطدام عن استشهاد «محمد الطحولى» ومقتل اثنين من البوليس^(٧٢).

أدى هذا الحادث إلى تطور خطير في الحركة القسامية إذ اضطرت السلطة البريطانية إلى الإسراع في اتخاذ المزيد من التدابير العسكرية وبدأت بمراقبة المنطقة مراقبة دقيقة بغرض تحديد البؤرة التي يتمركز بها المجاهدون وكانت مجموعة من المباحث بقيادة أحمد نايف قد نجحت في تعقب القسام ومجموعته التي كان قد اضطر في أعقاب الأحداث الأخيرة إلى

الانتقال من قرية «فقوعة» إلى قرية الشيخ «زيد» عبر المنعطفات الجبلية وقد وصلها في يوم ١٩ / ١١ / ١٩٣٥م ولم تتوان السلطة البريطانية في تجريد قوة كبيرة تقدر ما بين ٤٠٠ إلى ٦٠٠ جندي وأحكمت حصاراً شديداً حول قرى المنطقة بهدف الحيلولة دون وصول أية نجادات للمجاهدين^(٧٣) .

وبدت المنطقة وكأنها ساحة حرب^(٧٤) وفي صباح اليوم التالي ٢٠ / ١١ / ١٩٣٥م وبمساعدة الطائرات الاستكشافية في القوات البريطانية بدأت معركة حامية استمرت إلى ما بعد الظهر وتصف جريدة كوكب الشرق تلك الحرب الخاطفة بين القسام وأعوانه من جهة والقوات البريطانية من جهة ثانية فتقول «زحفت قوات هائلة من البوليس العربى والبوليس الإنجليزى إلى قرية يعبد ثم أخذت تصعد إلى أطراف الجبال وقممها وتحيط بالمكان من كل الجهات وكان الضباط والجنود يلتفتون هنا وهناك خوفاً من أن يفاجئوا بالرصاص.. وبعد أن أتموا الاحتياطات رتب القائد الإنجليزى خطة الهجوم فى ثلاثة صفوف طويلة من أفراد البوليس العرب فى الأمام وجعل الجنود الإنجليز وراءهم... وفوجئ الثوار بإطلاق الرصاص عليهم بشدة من أعالي القمم وهم فى الوادى، وقد بلغ ما أطلقه الجنود من رصاص فى الدقيقة الواحدة ما يقرب من ستمائة رصاصة^(٧٥)».

كان القسام شديد الحرص على عدم إراقة الدماء العربية بيد عربية مهما تكن الظروف والملابسات فلما رأى أن الجند العرب الملحقين بالقوات البريطانية هى التى تحارب جماعات القسام برز من بين الأحرار غير مبال بالخطر المحدق به منادياً أبناء جليلته بالتقهقر خلف صفوف الإنجليز وارتفع صوت القسام مردداً «يا أبناء العرب اتقوا الله فى وطنكم وأنفسكم لانريد أن نطلق الرصاص عليكم .. يا أبناء العرب إنكم تصوبون الرصاص إلى صدوركم وإلى بلادكم وتبيعون شرفكم بثمن بخس»^(٧٦) ويبدو أن هؤلاء الجنود العرب إما استجابوا لتلك العاطفة العربية أو خشوا أن يقعوا صرعى فى المعركة الدائرة فبدؤوا يتقهقرون مما اضطر القائد البريطانى أن يأمر أتباعه بالتقدم، واشتد إطلاق الرصاص بين الطرفين وسقط من المعسكر البريطانى جندي قتيلاً وأصيب ستة آخرون بجراح ، وظل القسام يحمس إخوانه بالتكبير والنداء بعدم الاستسلام حتى وهو فى ظل الرصاص المنهمر وتهديد العدو له بالاستسلام وقد أجاب على ذلك بأتنا لن نستسلم وأن هذا الجهاد فى سبيل الله والوطن والتفت إلى زملائه قائلاً «موتوا شهداء»^(٧٧) وبعد قتال شرس استمر عدة ساعات انتهت

المعركة باستشهاد عز الدين القسام مع أربعة من رفاقه وهم : يوسف عبدالله ، مصطفى الزياوي، حنفي عطية أحمد وحمد بوقاسم خلف، كما جرح نمر السعدى وأسعد كلش وحسن الباير (٧٨).

يرى التقرير السنوى لحكومة الانتداب لعام ١٩٣٥ أنه فى القتال الذى دار بين القوات البريطانية وعصابة الشيخ القسام قتل أربعة وتم أسر خمسة آخرون ثم قبض على أحد أفراد العصابة بعد ذلك ، وأن العصابة كانت مسلحة تسليحاً جيداً بالسلاح والذخيرة (٧٩) وقد أثارت هذه المعركة عواطف عرب فلسطين وألهبت مشاعرهم فقابلوها بمظاهر جياشة من التهليل والتكبير ، وخشيت السلطة من أن يتحول تظاهر الجماهير إلى اضطراب يخل بالأمن فسلمت جثث الشهداء لنوهم وأغمضت عينها عن الاحتفال بدفنتهم (٨٠) ومما يذكر أن جنود السلطة البريطانية وهم يفتشون ملابس الشهيد القسام وجدوا حجاباً فى عمامته كتب به هذا النص «أعوذ بالله من كيد الشيطان الرجيم فى كل ما أنا عازم عليه ، أعوذ بعزة الله وقدرته على قدرة الكافر وآلاته النارية وما يقدرون ، أعوذ بالله وقدرته من كل قدرة تعاديني، سبحانك رب العزة عما تصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين» (٨١).

تحولت جنازة القسام إلى عرس وطنى قصده آلاف المواطنين وراحت الصحافة الوطنية تدلى بدلوها فى رثاء فقيده العروبة والثورة وأغلقت مدينة حيفا فى ذلك اليوم حدادا على الشهداء وبعد انتهائها من صلاة الغائب على أرواحهم الطاهرة فى المسجد الكبير انقلبت الجنازة إلى مظاهرة وطنية هاجمت فيها الجموع دائرة الشرطة فحطمتها كما حطمت نوافذ المحطة وأصيب عدد من رجال الشرطة الإنجليز ولولا أن جنود البوليس البريطانيين التزموا الصمت لتطور الأمر إلى درجة كبيرة (٨٢) وأبت الجماهير إلا أن تشيع جثمان الشهيد القسام إلى مثواه الأخير فى قرية «الياجور» التى تبعد عن حيفا نحو عشرة كيلو مترات سائرة على الأقدام تحمل نعش الشهيد (٨٣)، وفى الخامس من يناير سنة ١٩٣٦ احتفلت «حيفا» بتأيينه وتأيين رفاقه بمناسبة مرور أربعين يوماً على استشهادهم احتفالاً وطنياً رائعاً، وساهم شعراء العروبة فى تلك المناسبة وقد وقف صادق عرنوس متحدثاً وشاعر فقال:

من شاء فليأخذ عن القسام	أنموذج الجندى فى الإسلام
وليتخذه إذا أراد تخلصاً	من ذلة الموروث خير إمام
ترك الكلام ورصفه لهواته	وبضاعة الضعفاء محض كلام

أو ما ترى زعمائنا قد اتخموه ال أذان قولا أيما اتخام
كنا نظن حقيقة ما جبروا فإذا به ومما من الأوهام^(٨٤)

وتحوّلت فروع جمعية الشبان المسلمين إلى مكان لتقبل العزاء في شهداء الوطنية وتوالت برقيات العزاء والتنديد بالاستعمار من كافة الدول العربية مع التمنيات للشعب الفلسطيني برأب الصداع والتكتل والصمود^(٨٥).

وكان من المدهش حقاً أن بعض المؤسسات الدينية ووجهاء القوم من القيادات التقليدية الفلسطينية الذين ناصبوا القسام العداء في حياته وكانوا يدسون له لدى السلطة البريطانية راحوا يتباكون عليه بعد مماته وتسابقوا من أجل تقديم العون لأسر الشهداء وهم ينعتون الشهيد بالمناضل الثوري بعد أن كان زعيماً لعصابة لا هم لها سوى النهب والسلب والقتل ووصل النفاق ببعض أولئك الزعماء إلى أن نذروا أنفسهم للحركة القسامية فقد قدم المجلس الإسلامي الذي يتزعمه الحاج أمين الحسيني لأسرة القسام عشرة جنيهاً كتعويض عن فقدها لعائلها كما قدم أيضاً خمسة جنيهاً لعائلة كل من الشهداء الآخرين، أما (محمد عزة دروزه) مدير عام أوقاف فلسطين فقد اقترح أن تتبنى إدارة الأوقاف تعليم أبناء الشهداء بمدينة (دار الأيتام) بالمجان^(٨٥) ونشط الحزب العربي الفلسطيني تحت رئاسة جمال الحسيني في جمع التبرعات وإرسال المكاتبات إلى مكاتب الحزب في داخل فلسطين وخارجها يحثها على إرسال تبرعات بأسرع ما يمكن للجنة العليا المختصة بشهداء التنظيم القسامي^(٨٦).

صمم رجال القسام على الثأر لشهداءهم ومواجهة الخونة الذين وشوا بهم عند السلطة وتحقق لهم ذلك قبل إلقاء القبض عليهم فقد تم اغتيال (أحمد نايف)^(٨٧) أما الذين ساعدوا في القبض على المجاهدين أو شهدوا زوراً أثناء محاكمتهم فقد اغتالهم المجاهدون في أوائل عام ١٩٣٧^(٨٨) وكان القساميون قد لجأوا في تلك الفترة إلى سياسة الاغتيال الفردي لإرهاب الجواسيس وسماسة الأراضى فتخلصوا من الكثيرين في مقدمتهم الضابط (حليم بسطة) مدير القلم السياسى في شرملة حيفا ، وكانوا قد هاجموا في بادئ الأمر فلم يصبه هذا الهجوم إلا بجروح ثم أعادوا الكرة وأطلقوا عليه سبع عشرة رصاصة استقرت في جسده ولم يبرحوا المكان حتى تأكدوا إنه أصبح جثة هامدة وانصرفوا دون أن يتعرض لهم أحد أو التعرف على هويتهم^(٨٩) ومن جانبها لجأت إدارة الأمن العام إلى التقليل من شأن الحركة القسامية بين صفوف رجالها واعتقدت أنه بالقضاء على القسام وشر من رفاقه والقبض على

بعض القلول الهاربة تكون هذه الحركة قد انتهت دون مخاوف من أية روح وطنية حتى بين أولئك الذين يمكن أن يطلق عليهم الصف الثانى من القساميين وراحت السلطة تغدق على رجالها الذين اشتركوا فى ملاحقة المجاهدين فى جبال (جنين) وقد رصدت من أجل هذا الغرض مبلغ خمسمائة جنيه (لينال منهم كل واحد بحسب نشاطه فى مقاومة تلك العصاة والقضاء عليها^(٩٠)).

الحركة القسامية بعد استشهاد القسام:

بعد استشهاد عز الدين القسام قامت السلطة البريطانية بتمشيط مواقع الحادث فتم القبض على بعض الجرحى واعتبرتهم من الأسرى وعوملوا معاملة سيئة للغاية فعلى سبيل المثال الشيخ «نمر السعدى» والذي كانت حالته خطيرة، وامتنع الجنود البريطانيون عن تقديم الماء والطعام إليه بل حالوا بينه وبين اتصال أى من نويه أو الجمهور به ولما كان الشيخ «نمر» يعتبر خليفة للشيخ القسام فقد راحت الجماهير تتبع أخباره باهتمام شديد وبالذات ما كان يتحلى به من بسالة نادرة إذ على الرغم من إصابته البالغة الخطورة ونزيفه المستمر فقد ظل يقاوم حتى آخر طلقة من ذخيرته^(٩١) أما الشيخ «فرحان السعدى» وهو أحد مريدى القسام فقد خرج مع جماعة من الأنصار إلى جبال صفد متسللا من مخبئه داخل الأحراش الكثيفة ورابط هناك حتى إذا ما توصلت إليه القوات البريطانية بادر بمنازلتهم نزالا عاتيا وألقى القبض عليه وعلى مجموعة من الذين سلكوا طريق الجهاد على يديه فى الآونة الأخيرة.

وفى ظل الصراع غير المتكافئ بين قوات مدججة بأحدث الأسلحة وجماعات فدائية تسليحها البنادق فقط بينما قلوبهم محشوة بالإيمان كانت الجماهير تترقب ريثما تتجلى المعركة عن مكاسب سياسية ولم يعد للمواطن العادى من اهتمام سوى ما سيتمخض عنه هذا الصراع بعد شهر من استشهاد الزعيم ففى بيان من اللجنة العربية العليا تقول فيه «أن السلطة عندما قبضت على الشيخ فرحان السعدى فى قرية المزار قبضت عليه وعلى عدد من أهالى القرية ومع أن الحكومة أعلنت فى بلاغها بأنها ستقدم الشهيد وجماعته إلى المحكمة العسكرية فإنها قدمت الشهيد وحده وأخذت الجماعة إلى سجن القدس حيث لا يزالون فيه دون محاكمة والسلطة تعذبهم كثيرا بقصد أخذ شئ منهم يشقى الطرق الإرهابية والتعذيب .. والسياسة أحيانا .. ويظهر أن بعض الجماعة صرح ببعض أسماء يقال أن الشهيد كان يعرفهم فقبض على نحو ثلاثين عربيا بموجب أنظمة الطوارئ وحكموا عليهم بالسجن ما بين

٣ إلى ٦ أشهر بتهمة معرفة الشيخ (فرحان السعدى) (٩٢) وكان من الطبيعى أن من يهب روحه فى سبيل الله والوطن أن يتسلح بجرأة منقطعة النظير فقد أعلن هؤلاء الفدائيون أمام المحكمة التى تشكلت لمحاكمتهم برئاسة أحد القضاة البريطانيين أنهم خرجوا لقتال الإنجليز قبل اليهود الذين دنسوا أرضهم الطاهرة (٩٣).

وفى الخامس عشر من أبريل سنة ١٩٣٦ قام جماعة من إخوان القسام وعلى رأسهم (السيد محمود ديراوى) بالهجوم المسلح على سيارات اليهود بطريق نابلس طواكرم وقتلوا ثلاثة منهم وجرحوا آخرين واختفوا عن الأنظار ليعيدوا الكرة من جديد ، وأخذ كل فرد يفكر فى الثورة المسلحة وبدأ إخوان القسام من العلماء يحرضون الشعب على القتال وكان للعالم الشيخ (كامل القصاب) وزملاءه دورا بارزا فى هذا الصدد (٩٤).

راحت السلطة البريطانية - كما رأينا سابقا- تلقى القبض جزافا على المواطنين سواء من كان ينتمى إلى التنظيم القسامى من عدمه دون تفرقة ووجهت إليهم التهم الكاذبة بعد إلقاءهم فى السجون وتعذيبهم بشتى الوسائل وذلك لإجبارهم على انتزاع اعترافات تشفى غليلهم ، وإزاء هذا التعذيب الوحشى كان بعض البسطاء يضطر إلى الادعاء بمعرفة بعض أعضاء التنظيم كى ينجو مما هو فيه ويذكر (أحمد الشقيرى) أنه كان من بين المحامين الذين حاولوا الدفاع عن هؤلاء البسطاء الذى يصفهم بأنهم من الكادحين المنفيين إلى حيفا ومنهم الحمال والبقال المتجول والعامل (٩٥).

ومهما يكن من الأمر فإن التنظيم القسامى كحركة ثورية منظمة لم ينته بمجرد قضاء السلطات البريطانية السريع على قائد التنظيم وبعض إخوانه واعتقال عدد آخر منهم فى أعقاب معركة غير متكافئة ذلك أن عددا من إخوان القسام الذين لم يشاركوا فى المعركة الأخيرة من أمثال (معروف حجازى وتوفيق الزبيرى وناجى أبوزيد) قد تمكنوا من الإفلات من الحصار المضروب عليهم وقاموا مع بقية أعضاء التنظيم الذين لم يكتشف أمرهم بإتمام المهمة الوطنية الثورية التى رسمها لهم القسام (٩٦) ولاشك أن استمرار أتباع القسام فى تلك المهمة الانتحارية كان من أبرز العلامات لهذه المنظمة الثورية التى يصفها «إميل الغورى» بأنها أخطر منظمة سرية وأعظم حركة فدائية عرفها تاريخ الحركة الوطنية الفلسطينية (٩٧) ذلك أن الحركة القسامية منذ بداية التفكير فى إنشائها اعتمدت على التخطيط المنظم البعيد عن الارتجال كما أن من أهم خصائص هذه الحركة هى اهتمامها بالطبقات الكادحة فى الوقت

الذى ظلت فيه هذه الطبقات موضع الإهمال المتعمد بل وقع عليها الظلم والاستغلال من قبل القيادات الوجيية التى كانت تنظر إلى جماهير الشعب على أنها مناطق نفوذ تتقاسمها هذه الجهات فيما بينها حتى أن حزب الاستقلال الذى اعتبر أكثر الأحزاب تنظيما ظل عاجزا عن الوصول إلى التشكيلات الحزبية الفعلية وذلك لعدم اتصاله بالجماهير محافظة من زعمائه على نقائهم الطبقي واكتفت هذه الجهات بالصراخ والعويل واستجداء ضغط السلطة البريطانية على العصابات الصهيونية كي تتوقف عن اعتداءاتها المستمرة وليس أدل على ذلك من وقوفها مكتوفة الأيدي أمام الاستيلاء على شرق الأردن وفتح أبوابها للهجرة وشراء الأراضى^(٩٨) مثلما حدث فى الحركة القسامية وتراجع هذا المخطط الاستعماري الجديد كما لم يحرك هؤلاء ساكنا بعد انطفاء جذوة الشعلة القسامية وتعاظم الخطر الصهيوني وهم الذين ذرفوا عليه الدموع الساخنة أمام جماهيرهم ولم يكلفوا أنفسهم مشقة الرد على الحاخام اليهودي «عميثيل» الذى قال على الملأ إن فلسطين لا تتسع لشعبين وأن اليهود لا يقبلون أن يشاركهم أحد فى ملكيتها ولذلك على العرب أن يرحلوا منها^(٩٩) بل الأدهى من ذلك كله أن هؤلاء الزعماء غضوا الطرف عما لحق بأعراضهم فى سبيل مصالحهم الشخصية ، وما حدث فى قرية صفورية من أعمال الناصرة لهو خير دليل على ذلك حيث اعتدى خمسة عشر جنديا بريطانيا على عفاف فتاة عربية صغيرة لا يتجاوز عمرها عشر سنوات وفضوا بكارتها بالإكراه ثم تعاقبوا عليها حتى مزقوا جسدها وانتهت بهم وحشيتهم إلى موت الفتاة وللأسف جاءت صيحات الاستنكار لهذا الحادث الإجرامى من شعب مصر الشقيق^(١٠٠) الذى ظل يواسى إخوانه الفلسطينيين على طول الخط.

كان من بين الآثار الهامة التى ترتبت على ثورة الشيخ القسام المسلحة إنها وضعت بنور الإيمان الوطنى الصحيح الذى كان مبعثه القلب والعقيدة لا البرامج الحزبية والمشادات العقائدية فاستيقظت فلسطين على استشهادها ، وعلى الرغم من أن المعركة لم تستمر وقتا طويلا لكن لاشك أن أثرها الروحى كان أكبر من أثرها الكمى وضرب القسام للجماهير القوة الحسنة والأسوة الصالحة إذ خرج بنفسه فى أول معركة ليحيى فى النفوس روح الثورية ، كان ما فعله القسام أبلغ رد على سياسة زعماء فلسطين إذ ثقف ونظم وقاتل حتى مات شهيدا غير متطلع لجاه أو زعامة ، كما أن المنهج والطريق الذى رسمه القسام ظل شبيحا يخيف تلك الزعامات لأنه لا يكشفها فقط بل يهددها بفقدان هذه الزعامة ومن هنا حرص وجهاء القوم على

أن يديروا ظهورهم للجو المتوتر الذى تولد عن بدء المقاومة فضلا عن أنهم لم يشاركوا فى جنازة الشهيد على الرغم من أن «أكرم زعيترة» وهو من أبرز وجهاء حزب الاستقلال دعا زملاءه إلى الاشتراك فى تشييع الجنازة إلا أنهم صموا أذانهم عن تلك الدعوة حتى برقيات التعزية التى أرسلوها جاءت باردة باهتة ، مع أنهم تباكوا على القسم بعد وفاته ونعتوه بالألقاب الثورية الرنانة إلا أنهم سرعان ما اجتمعوا بالمنسوب السامى البريطانى قبل مضى أسبوع واحد على استشهاد الزعيم وقدموا له مذكرة جددوا فيها مطالب البلاد فى صورة استجداء^(١٠١).

وعلى كل حال فإن استشهاد القسم أدى بكل من القيادات التقليدية وال جماهير الكادحة إلى السير فى طريقين متوازيين أخذ كل واحد منهما يعمل على ضم الآخر إليه فالقيادات التقليدية وقد رفضت الحركة الثورية القسامية وامتنعت عن الاشتراك فى تشييع الجنازة ثم لقائها بالمنسوب السامى بعد موته بقليل أرادت أن تنبه السلطات إلى التدهور السريع الذى يمكن أن يطرأ على البلاد إذا لم ترد بريطانيا على المطالب التى قدمت إليها أما جماهير الفلسطينيين فقد ظلت متمسكة بالمنهج القسامى وصار الناس ينتظرون إلى القسم وإخوانه نظرة تقدير واحترام وبالذات فى الأوساط القروية التى ساد فيها الحقد على السياسة البريطانية وأخذت تبد استعدادها للتجاوب مع أى نداء للثورة^(١٠٢) كما أن العمال فى المدن بلغت حالتهم جدا لا يمكن السكوت عليه إذ حاولوا القيام بمظاهرات فى يافا بعد استشهاد القسم غير أن السلطات رفضت منحهم إذن للقيام بالتظاهر مما اضطر «جمعية العمال العرب» أن ترد على ذلك ببيان أصدرته فى ٦ / ١٢ / ١٩٣٦م قالت فيه (إنه إذا لم تقم الحكومة بحل المشكلة فإن الأيام المقبلة ستضطرننا إلى إطعام العمال خبزا أو رصاصا)^(١٠٣) ومن ناحية أخرى فقد كانت جماهير الشعب الفلسطينى تراقب ما يجرى فى مصر حيث بدأت الانتفاضات الجماهيرية منذ ديسمبر سنة ١٩٣٢ على شكل مظاهرات اجتاحت القاهرة وغيرها من المدن الكبرى أدت إلى مصادمات مع قوات الأمن وسقوط قتلى وجرحى وإضراب عام فى القاهرة أجبر الأحزاب على تأليف جبهة وطنية فى ١٠ / ١٢ / ١٩٣٥ طالبت بإعادة دستور ١٩٢٣ والاعتراف عمليا باستقلال مصر^(١٠٤).

فى الوقت الذى سارع فيه القساميون إلى إعادة تنظيم أنفسهم من جديد إذا بالعناصر المثقفة فى المدن تبدى رفضها لما تقوم به القيادات التى ما تزال تلهث وراء السلطات

البريطانية من أجل الحصول على تنازلات بسيطة لتحقيق للحركة الوطنية أهدافها الأساسية ومن ثم ظهرت تشكيلات جديدة في المدن الكبيرة بقيادة عناصر شبائية سارت على درب التنظيم القسامي من حيث إيمانها بضرورة التخلص من العناصر البريطانية والصهيونية وكان من أبرزهم «أكرم زعتير» على رأس كتلة نابلس وحمدي الحسيني وميشيل متري من زعماء جمعية «العمال العرب» في يافا ، وفي قلقيلية تشكلت لجنة من الشباب الثوري وفي طولكرم تولى سليم عبد الرحمن وقادة الكشافة العرب زعامة كتلة جديدة أخرى ، وفي حيفا تولى «عاطف نور الله» حركة مماثلة ، وكان يساند هذه الكتلة عزة دروزة وعجاج نويهض من زعماء حزب الاستقلال ، وقد اتهمت هذه الكتل بارتكابها أعمال التحريض السياسي ضد كل من السلطات البريطانية والصهيونية بل حملت سلطات الانتداب زعماء تلك الأحزاب مسئولية الامتناع عن دفع الضرائب وإثارة الاضطرابات (١٠٥).

انتهز الشباب الوطني الذي تأثر بالمنهج القسامي فرصة الذكرى السنوية لاحتلال القوات البريطانية لمدينة القدس والتي تصادف يوم ٩ / ١٢ / ١٩٣٥ ، فعقدوا اجتماعا وطنيا في يافا تحدث فيه «محمد عزة دروزة» وميشيل متري وجورج مطر وحمدي الحسيني وعيسى السفري اكرام زعتير وعجاج نويهض وأصدروا في أعقاب المؤتمر بيانا حملوا فيه السلطات البريطانية مسئولية ما حدث بفلسطين من نكبات وأعلنوا فيه تأييدها لأي حركة ترمى إلى مكافحة الاستعمار في الأقطار العربية والاستعانة بجيران فلسطين العرب من أجل تأليف جبهة واحدة ضد الاستعمار البريطاني (١٠٦).

لاشك أن استشهاد القسام كان بداية لمرحلة جديدة من الكفاح الوطني السياسي ضد الإمبريالية وهو وإن لم يتخذ الصفة الثورية الفدائية إلا أنها تعتبر خطوة من أجل حصول الفلسطينيين على بعض حقوقهم السياسية والتشريعية ولم تكن انتفاضة ١٩٣٦ إلا باكورة تلك الأعمال التي خرجت من تحت عباءة الشيخ القسام الذي أزعج السلطة المنتدبة حتى بعد وفاته إذا استدعى مدير المطبوعات أصحاب الصحف ورؤساء تحريرها وحظر عليهم كتابة أي شيء عن القسام وهدد بمحاكمتهم وتعطيل صحفهم ولكن السلطة رأت أن روح القسام انتشرت سريعا في الشعب كله خلال الإضراب الكبير الذي حدث بعد استشهاديه بعدة أشهر والذي دام ستة أشهر كاملة ، ويبدو أن السلطات البريطانية في فلسطين قد أحست بخطورة الوضع ولهذا حاولت إقناع الزعماء بإمكانية دراسة مطالبهم وذلك لمساعدتهم في الاحتفاظ بما يملكون

من نفوذ وخوفا من أن يؤدي ذلك إلى عدم إمكانية تهدئة الحالة الحاضرة بالوسائل المعتدلة التي اقترحها المنسوب السامي البريطاني والتي كانت في معظمها مبادئ عامة حول إعادة فكرة تشكيل المجلس التشريعي (١٠٧).

والذي يستوقف المرء في دعوة الشيخ القسام أنها اقتصرت على طبقتي العمال والفلاحين فلم تتجاوزهم إلى الأتندية والضباط وحرص على أن تكون حركة دينية خالصة من الشوائب ويرى البعض أن القسام كان بعيد النظر في ذلك حيث أن هاتين الطبقتين هما أخلص الطبقات وأكثرهما انقيادا واستعدادا للبذل والتضحية (١٠٨).

هناك قضية هامة بالنسبة للحركة القسامية وهو عبارة عن سؤال يطرح نفسه دائما هل حركة الشيخ القسام ارتبطت بحزب معين من عدمه وهناك اختلافات في هذا الشأن فيذكر البعض أن القسام كان منتسبا إلى حزب الاستقلال في حيفا وأنه كان على صلة وثيقة ببعض أركانه (١٠٩) بينما ذكرت مصادر الهيئة العربية العليا أن القسام كان عضوا في لجنة الحزب العربي التنفيذية وأنه كان أكثر رجال هذا الحزب اتصالا بالمفتى وتعاون معه وأنه انصرف إلى حركته بناء على اتفاق مع رجال الحركة الوطنية وتأييدهم له (١١٠) وأشارت مصادر أخرى إلى أن القسام لم يكن مؤمنا بأي حزب ولم يكن مرتبطا بأي جهة على الإطلاق (١١١).

ومهما يكن الأمر فإن المدقق في شخصية عز الدين القسام وما مرت به هذه الشخصية من أطوار تاريخية ليصعب معه القول ارتباطه بأي من الأحزاب القائمة، ومن الطبيعي أن يكون للقسام علاقات طيبة بغالبية تلك الأحزاب إلا أن الاختلاف بينه وبين بعض القادة كان نابعا من استخدام الوسائل التي يمكن بشأنها تحرير الأرض الفلسطينية وأوجه إنفاق أموال الأوقاف الإسلامية التي يرى القسام أن تسليح المجاهدين عن طريقها هو أجدي للمسلمين وأنفع من إنفاقها على تزيين وترميم المساجد حتى وإن كان المسجد الأقصى نفسه .

وكان على رأس هؤلاء الذين اختلف معهم القسام الحاج «أمين الحسيني» رئيس المجلس الأعلى الإسلامي الذي يكن له كل تقدير واحترام باعتباره أحد الرموز الإسلامية الهامة والذي كان يرى القسام أنه بإمكانه أن يوجه فصائل الفلسطينيين وقواهم الثورية المتباينة إلى الوجهة الصحيحة ، إلا أن عوامل اليأس والإحباط التي تجمعت لدى القسام من موقف الحاج «أمين الحسيني» دفعته لإلقاء آخر ورقة كان يحتفظ بها في جعبته وذلك عندما أرسل إليه أحد إخوانه «محمود سالم» الملقب بأبي أحمد القسامي ينبئه عن عزمه بالقيام بثورة في فلسطين للقضاء

على فكرة إنشاء وطن قومي لليهود وكان ذلك قبل نشوب الثورة القسامية بأشهر قليلة وكان الوسيط بين رسول القسام والحاج أمين الحسيني هو الشيخ «موسى العزراوى» أحد أعوان الحاج أمين ، وجاءت إجابة مفتى فلسطين بأن الوقت لم يحن بعد لمثل هذا العمل ويبدو أن الحسيني قد فطن إلى أن القسام بدأ يرفع راية العصيان ضده بل يمكنه أن يكون أداة من أدوات هدم نفوذه في مواجهة السلطة البريطانية . وتذكر ابنة القسام- أنه إزاء هذا الاختلاف في الرأي بين المفتى والشيخ القسام لجأ المفتى إلى خلع الشيخ عز الدين من وظيفة المأذونية وتجريده من بعض الامتيازات الأخرى التي حصل عليها في الأونة الأخيرة (١١٢). مثل مجانية التعليم لأبناء القسام وذلك قبيل الثورة بأيام قليلة.

كان ثمة تناقص واضح يمنع التقاء الحركة القسامية بغيرها من الحركات الوطنية الأخرى إذ أن الحركة الأولى تقوم على فكرة الجهاد المسلح ضد الاحتلال وأن القوة وحدها هي التي عن طريقها يمكن إخراج بريطانيا والقضاء على شرانم اليهود ومن هنا لم تكن الحركة القسامية نابعة من حزب معين بل كانت منبثقة من إحساس عميق من رجال القسام - وكلهم من الفلاحين والعمال- بالخطر الذي يهدد حياتهم من جراء استمرار الهجرة الصهيونية المتدفقة ، وأن الوسائل السلمية والطرق المشروعة لم تعد تجدى فتىلا، وذلك حال الإنجليز أن تقوم في فلسطين ثورة وطنية ضدهم وراعهم أيضا ما خلف استشهاد القسام من أثر في نفوس أهالي فلسطين فعادت بريطانيا إلى سياسة تهدئة الأوضاع وأعلنت في ٢١ ديسمبر سنة ١٩٣٥ عن عزمها على إشراك العرب في الإدارة والتشريع ووضعت مشروع تأليف مجلس تشريعى يضم مختلف طبقات الشعب الفلسطينى.

الهوامش

١- من حديث للسيدة ميمنة عز الدين القسم ابنة صاحب الدراسة للباحث في مدينة «تعز» بجمهورية اليمن الشمالية وقد جرى هذا الحديث في معهد المعلمين العام في ٢٥ مارس عام ١٩٨٢ ، وكانت صاحبة الحديث تشغل منصب ، موجهة في إدارة التفتيش العام بإدارة التربية والتعليم بمدينة الزرقا بالأردن. ومبعوث من قبل وزارة التربية والتعليم الأردنية إلى وزارة المعارف بالجمهورية العربية اليمنية وتقول السيدة ميمنة أنها من مواليد ١٩٢٠ وكان عمرها وقت استشهاد والدها في عام ١٩٣٥ خمسة عشرة عاما.

* تتنسب فصائل عز الدين القسم وهو الجناح العسكري في حركة حماس الفلسطينية إلى صاحب الدراسة الشيخ عز الدين القسم وقد بدأت هذه الحركة في مواجهة الحركة الصهيونية منذ عام ١٩٦٧ تحت زعامة الشيخ أحمد ياسين وحتى اليوم.

٢- صبحى ياسين : الثورة العربية الكبرى في فلسطين ، من ١٩٣٦-١٩٣٩ ص ١٩-٢٠ دار الهنا للطباعة.

٣- من حديث ميمنة القسم للباحث .

٤- الهيئة العربية العليا لفلسطين العربية ، نشرة فلسطين ، العدد ٩٤ ، كانون الثاني ١٩٦٩ ، ص ١٧ .

٥- أحمد طربين: محاضرات في تاريخ قضية فلسطين منذ نشأة الحركة الصهيونية حتى نشوب الثورة الكبرى سنة ١٩٣٦ ، ص ٨٩ ، القاهرة معهد الدراسات العربية العليا ١٩٥٩م.

٦- صبحى ياسين : المرجع السابق، ص ٢٠ .

7- Government of Palastint: Asurvey of palestine, vol 1. p. 141-142 .

٨- صبحى ياسين : المرجع السابق ص ٢١ .

٩- المرجع السابق ، ص ٢٠ .

١٠- نشرة فلسطين ، العدد ٩٤ ، ص ١٧ .

١١- صبحى ياسين : المرجع السابق ص ٢١ .

١٢- من حديث ميمنة القسم للباحث.

١٣- دار الوثائق : مضابط مجلس الوزراء ، وزارة الحربية ، ملف رقم ١٧٦ ، وثائق المقاومة الفلسطينية العربية ضد الاحتلال البريطاني والصهيوني ص ٩-١٠ .

عة عيسى الحلبي بمصر سنة

- ١٦- نشرة فلسطين - العدد ٩٤ ص ١٧ .
- ١٧- من حديث ميمنة القسم للباحث.
- ١٨- صبحى ياسين : المرجع السابق، ص ٢٣ .
- ١٩- عبد الكريم الكرمي: كفاح عرب فلسطين ، ص ٥٩ ، دمشق ١٩٦٤ .
- ٢٠- صبحى ياسين : نظرية العمل لاسترداد فلسطين ، ص ٧٧ ، القاهرة ١٩٦٤ .
- ٢١- خليل محمد عيسى (الملقب بأبى إبراهيم الكبير) مقال فى نشرة الثورة الفلسطينية (فتح) تحت عنوان «الثورة الفلسطينية الكبرى» ص ٢٥ ، ٢٦ دمشق ١٩٦٩ .
- ٢٢- فيما يلى أسماء البارزين من أتباع عز الدين القسم: الشيخ محمد الحنفى والشيخ على الحاج عبيد (جيلة / سوريا) عطية أحمد عوض (قرية الشيخ قرب حيفا) يوسف الزياوى (الزيب / حيفا) محمد الحنفى أحمد (مصر) حسن البايير (برقين) فرحان السعدى (المزار) نمر السعدى (شفا عمرو) صالح طه - أحمد التوية- نايف المصلح- أبو محمود الصفورى- على إبراهيم زعروره (صفورية) محمود سالم المخزومي (قرية زرعين) ناجى أبوزيد (حيفا) يوسف أبودرة (السيلة الحارثية) محمد الصالح- عبد الفتاح أبو عبدالله (سيلة الظهر) عارف الحمدان (قضاء جنين) محمد الطحولى (حلاول) محمد الخالدى وأخوه خالد (حيفا) أحمد جابر (حيفا) السيد عرب بدوى (قضاء جنين) السيد أبو على مزراوى (المزرعة / القدس) عبدالله يوسف (قرية عرابة) الشيخ عبدالله (كفروان) معروف حجازى (قرية يعبد) توفيق الزيرى (عرابة) محمود ديراوى (دير أبو ظعيف) نايف الزغبى (قرية سويلم) محمد أبو حصب (قباطية) عبد القادر على (عرعة) خليل محمد عيسى (شفا عمرو) حسنين حمادة (اجزم) عبدالله عقلية (قرية عبلين) محمد العبد موسى (كوكب أبو الهيجاء) الشيخ سليمان ؟ (سمسم / غزة) السيد سرور برهم (حيفا) رشيد عبيد الشيخ (طيرة / حيفا) محمود الخضرى (؟) داود خطاب (؟) .
- ٢٣- صبحى ياسين : المرجع السابق ، ص ٢٤ ، ٢٥ .
- ٢٤- دار الوثائق - جامعة الدول العربية ، الهجرة اليهودية إلى فلسطين ص ٢٠ ، ٢١ .
- ٢٥- كريستوفر سايكس : مفارق الطرق إلى إسرائيل ، ص ٢٥٥ ، ترجمة خيرى حماد، دار الكاتب العربى، بيروت ١٩٦٦ .
- ٢٦- عرفات حجازى: أرض الثورات فلسطين ص ٥٤ ، بيروت سنة ١٩٥٩ .
- ٢٧- صبحى ياسين : المرجع السابق ، ص ٢١ .
- ٢٨- الرابطة العربية ، ص ٢٤ ، السنة الأولى، العدد ١٧ ، فى ١٦ سبتمبر ١٩٣٦ م.
- ٢٩- جريدة الأنوار : ص ١٢ ، العدد ٦٠٩ ، ٦ آب (أغسطس) ١٩٦١ مقال بقلم عجاج نويهض .

- ٣٠- اميل الغوري : فلسطين عبر ستون عاماً، ص٢٥٠ ، دار النهار، بيروت ١٩٧٣ .
- ٣١- د. عبد الوهاب الكيلالي: تاريخ فلسطين الحديث، ص٢٩٣ ، بيروت ١٩٧٣ .
- ٣٢- من حديث ابنة القسم للباحث .
- ٣٣- دار الوثائق : وثائق عابدين، وزارة الخارجية ، ملف رقم ٣ ، بوسيه (ب) تقرير الحالة في فلسطين من ١٩٢٩ إلى ١٩٣١ .
- ٣٤- نشرة فلسطين ، العدد ٧ ص١٥ ، سنة ١٩٦١ .
- ٣٥- المصدر السابق، العدد ٩، ص٢٢ ، ١٩٦١ .
- ٣٦- خليل محمد عيسى: المرجع السابق، ص٢٤ ، ٢٥ .
- ٣٧- صبحي ياسين : المصدر السابق، ص٢٣ .
- ٣٨- عبد الكريم الكرمي: المرجع السابق، ص١٠٦ .
- ٣٩- من حديث ميمنة القسم للباحث .
- ٤٠- دار الوثائق : مجلس الوزراء ، وزارة الحربية / ملف رقم ٣٥ / ح ، خطاب من بعض شباب فلسطين إلى صاحب الجلالة في مصر يناشده فيه التدخل من أجل إنقاذ «أرض الانبياء» عن الحالة في فلسطين من ١٩٢٢-١٩٣٢ .
- ٤١- صبحي ياسين : المرجع السابق ، ص٢٦ .
- ٤٢- عبد الكريم الكرمي: المرجع السابق ، ص١٠٧-١٠٨ .
- ٤٣- دار الوثائق : مضابط مجلس الوزراء ، محفظة رقم ٤٥ / ج . وزارة الخارجية / شئون فلسطين ، عن الحالة الراهنة في فلسطين ١٩٣٤-١٩٣٥ .
- ٤٤- جريدة كوكب الشرق / السنة (١١) عدد ٢٠٣٥ ، ٩ مارس ١٩٣٥ .
- ٤٥- المصدر السابق : القدس في ٨ أبريل ١٩٣٥ .
- ٤٦- دار الوثائق ، وثائق عابدين ، تقارير، تقرير من مكتب الحزب العربي الفلسطيني في ١٥ أبريل ١٩٣٥ .
- ٤٧- المصدر السابق : اخراب السائقين في ٤ أغسطس سنة ١٩٣٥ .
- ٤٨- جريدة مرآة الشرق: العدد ٢٧١ السنة الرابعة ، ٥ أغسطس ١٩٣٥ القدس، تحت عنوان «حزب للفلاحين الفلسطينيين».
- ٤٩- صالح مسعود أبو يصير : جهاد شعب فلسطين خلال نصف قرن ، ص١٧٧ ، دار الفتح بيروت ١٩٦٨ .

- ٥١- صبحى ياسين : المرجع السابق ، ص ٢١ .
- ٥٢- المصدر السابق ، نفس الصفحة .
- ٥٣- المصدر السابق ، ص ٢٢ .
- ٥٤- إميل القورى، المرجع السابق ، ص ٢٣٨ ، ٢٣٩ .
- ٥٥- نشرة فلسطين : الإعداد ٦٥ ، ٦٦ ، ص ٥٩ ، أشهر تموز وأب ١٩٦٦ .
- ٥٦- صبحى ياسين : نظرية العمل لاسترداد فلسطين ، ص ٧٩ .
- ٥٧- Jeffries : Palestine, the Reality p. 651 .
- ٥٨- Survey of Palestine , vol . 7 , p. 141-142 .
- ٥٩- عيسى السفري: فلسطين العربية بين الانتداب والصهيونية ، ص ٢٥٥ ، الكتابان الأول والثاني ، ترجمة عبد الوهاب الكيالى ، بيروت سنة ١٩٦٥ م.
- ٦٠- جريدة شئون فلسطين ، ص ٤٧ ، العدد ٦ ، بيروت ، يناير ١٩٧٢ م.
- ٦١- بريارة كالكاس : ثورة ١٩٣٦ ، ص ٣٥٨ ، مقال فى كتاب «تهويد فلسطين» إعداد إبراهيم أبو لغد ترجمة أسعد رزوق، مركز الأبحاث الفلسطينية ١٩٧٢ .
- ٦٢- دار الوثائق : وثائق عابدين، ملف (١) ، فلسطين ١٩٣٥ ، بيان إلى العالمين العربى والإسلامى من جمال الحسينى رئيس الحزب العربى الفلسطينى.
- ٦٣- خليل السكاكيني: كذا أنا يا دنيا (يوميات خليل السكاكيني) ص ٢٧ ، أعدها للنشر هالة السكاكيني، القدس ١٩٥٥ م.
- ٦٤- عمر أبو النصر : المرجع السابق ، ص ٢٧٢ .
- ٦٥- من حديث ميمنة القسم للباحث .
- ٦٦- عبد الكريم الكرمى: المرجع السابق، ص ١٠٨ .
- ٦٧- اللجنة الفلسطينية العليا بالقاهرة ، المرجع السابق ، ص ٥١ .
- ٦٨- الرابطة العربية ، مقال بقلم عبد الله مخلص ، ص ٢٢ ، السنة الأولى، العدد (٢٤) فى ٤ نوفمبر سنة ١٩٣٦ .
- ٦٩- المرجع السابق، مقال بقلم أمين سعيد ، ص ٢٤ ، السنة الثانية ، العدد ٩٦ ، فى ٢٠ أبريل سنة ١٩٣٨ .
- ٧٠- المرجع السابق : ص ٢٩ ، السنة الأولى ، عدد ١٧ ، ٦ سبتمبر ١٩٣٦ م.
- ٧١- جريدة فلسطين: يا قا ، ١ / ٢ / ١٩٣٦ م.
- ٧٢- نشرة فلسطين (الهيئة العربية العليا لفلسطين) العدد ٩٤ ، ص ١٩ سنة ١٩٣٥ .

- ٧٣- صبحى ياسين : الثورة العربية الكبرى فى فلسطين ، ص٢٧-٢٨ .
- ٧٤- جريدة فلسطين ، يافا ٢٠ / ١ / ١٩٣٥ .
- ٧٥- جريدة كوكب الشرق، غرة رمضان ١٣٥٤ هـ / ٢٧ نوفمبر سنة ١٩٣٥ ، مقال تحت عنوان ثورة فلسطين الدامية كيف وقعت ومن هو زعيمها .
- ٧٦- نفس المصدر السابق.
- ٧٧- ناجى غلوش : المقاومة العربية فى فلسطين ، ص١٠٢ ، من ١٩١٧ إلى ١٩٤٨ ، بيروت ١٩٦٧ .
- ٧٨- أكرم زعيتر: القضية الفلسطينية، ص٩٨ ، القاهرة ١٩٥٥ .
- تقول جريدة كوكب الشرق أنه قتل شاب من قرية (يعبد) يدعى أحمد الشيخ سعيد لم يكن من جماعة المجاهدين وهو فلاح كان يسكن بيتاً مجاور للمعركة ... كوكب الشرق، المرجع السابق، نفس الصفحة.
- ٧٩- Hymson K. A. in; Palestine under the Mandate (1920-1948) p. 6 London 1950 .
- ٨٠- جريدة الأنوار : نوفمبر ١٩٣٥ .
- ٨١- كوكب الشرق، ص١١ فى ٢٩ نوفمبر سنة ١٩٣٥ .
- تم محاكمة الأسرى فى ١٦ / ١٠ / ١٩٣٦ وهم : أحمد الحاج عبد الرحمن وحسن باير وعمرابى بدوى بالسجن ١٤ سنة مع الأشغال الشاقة - أسعد المفلح ونمر السعدى وداود الخطاب ومعروف الحاج جابر بالسجن سنتين. تنفى جريدة كوكب الشرق مزاعم السلطة البريطانية بشأن وجود مثل هذا الحجاب ولكن ابنة الشيخ القسام تؤكد نقلاً عن الشيخ فرحان السعدى أن والدها كان من أشد المؤمنين بالغيبيات وبالقضاء والقدر ومن هنا لاتستبعد وجود مثل هذا الحجاب إلى جانب حملة لنسخة من القرآن الكريم بصفة دائمة- حديث ميمنة القسام للباحث.
- ٨٢- جريدة فلسطين : يافا ص١٨ ، ديسمبر سنة ١٩٣٥ .
- ٨٣- اللجنة الفلسطينية العربية، القاهرة، ص١٢ (عن ثورة فلسطين) سنة ١٩٣٦ .
- ٨٤- كوكب الشرق ، المرجع السابق ، ص١١ برقية من بولة مصطفى باشا النحاس رئيس وزراء مصر إلى جمعية الشبان المسلمين بحيفا .
- ٨٥- المصدر السابق ، نفس الصفحة.
- ٨٦- كوكب الشرق ، ص٩ ، ٢١ ديسمبر سنة ١٩٣٥ ، مقال تحت عنوان (مساعدة عائلات الشهداء) .
- ٨٧- مجل العرب ، ص٢٥ ، العدد ٤٥ ، القدس سنة ١٩٣٦ .
- ٨٨- اللجنة العربية الفلسطينية بمصر، ص٦ ، بيان إلى العالم الإسلامى عن حالة المعتقلين بسجن عكا.
- ٨٩- جريدة الثورة الفلسطينية (فتح) ص١٤ دمشق سنة ١٩٦٩ .

- ٩٠- كوكب الشرق ، ص ٩ ، ٢١ ديسمبر سنة ١٩٣٥ مقال تحت عنوان (مكافأة ذبح الشهداء) .
- ٩١- كوكب الشرق ، المصدر السابق، ص ١١ .
- ٩٢- دار الوثائق ، القضية الفلسطينية، محفظة رقم ٥٨٦ من بيان اللجنة العربية العليا بتاريخ ١٦ / ١ / ١٩٣٧ م.
- ٩٣- جريدة لسان العرب، ص ٥ سنة ١٩٥٢ .
- ٩٤- عمر أبو النصر وآخرون ، المرجع السابق ص ٢٧٣-٢٧٥ .
- ٩٥- أحمد الشقيري: ٤٠ عاما في الحياة العربية والدولية، ج ١ ، ص ١٩٩-٢٠٤ ، دار العودة ، بيروت ١٩٧٣ .
- ٩٦- صبحي ياسين : الثورة العربية الكبرى في فلسطين، ص ٢٨- ٢٩ .
- ٩٧- إميل النوري: المرجع السابق ، ص ٢٤٨ .
- ٩٨- وثائق عابدين : شئون فلسطين ، تقرير رقم (١) بيان إلى العالمين العرب والإسلامي من الحزب العربي الفلسطيني برئاسة جمال الحسيني .
- ٩٩- جريدة الرابطة العربية ، ١٨ رمضان ١٣٥٥ ، ٢ ديسمبر ١٩٣٦ ، ص ٨٧ ، السنة الأولى، العدد ٢٨ .
- ١٠٠- دار الوثائق ، وثائق عابدين تقارير ، تقرير رقم ١ عن القضية الفلسطينية من ١٩٣٧ - ١٩٤٨ مقال بعنوان فلسطين تحترق فانتبهوا أيها المسلمون (لجنة مساعدة فلسطين) دار الإخوان .
- ١٠١- Hymson A. M; Palestine under the Mandate (1920-1948) p. 215 , London 1950 .
- ١٠٢- فسم ، سيتون وليامز : بريطانيا والدول العربية ، ترجمة د. أحمد عبد الرحيم مصطفى ص ١٤٨ ، مكتبة الأنجلو المصرية سنة ١٩٧٥ .
- ١٠٣- نشرة المكتب العربي: مشكلة فلسطين ج ٢ ، ص ١٣٨ ، القدس سنة ١٩٤٦ .
- ١٠٤- جريدة المقطم ، ٢٣ / ١٢ / ١٩٣٥ .
- ١٠٥- د. عبد الوهاب الكيالي : المرجع السابق ص ٢٩٧ .
- ١٠٦- المقطم ، ١١ / ١٢ / ١٩٣٥ .
- ١٠٧- د. الكيالي : المصدر السابق ، ص ٩٦ .
- ١٠٨- أمين سعيد : المرجع السابق، ص ٦٥ .
- ١٠٩- سعدى بسيوسر : الصهيونية نقد وتحليل ، ص ١٧٣ ، حلب ١٩٥٧ .
- ١١٠- ناجي غلوش : المرجع السابق، ص ١٣٢ .
- ١١١- نجيب صدقة : قضية فلسطين ، ص ٦٥ الطبعة الأولى، دار الكاتب ، بيروت سنة ١٩٤٦ .
- ١١٢- من حديث ابنة الشيخ القسام للباحث.

مصادر البحث

أولا : الوثائق :

- ١- جامعة الدول العربية ، الوثائق العربية فى قضية فلسطين ، المجموعة الأولى ١٩١٥-١٩٤٦ ، القاهرة ١٩٥٦ .
- ٢- الوثائق القومية : وثائق عابدين، تقارير ، تقرير رقم (١) عن القضية الفلسطينية ١٩٢٧-١٩٤٨ .
- ٣- دار الوثائق : تقارير، تقرير من مكتب الحزب العربى الفلسطينى فى ١٥ أبريل ١٩٣٥ .
- ٤- دار الوثائق : عابدين ، شئون فلسطين ، الفترة من ١٩٣٢-١٩٤٧ .
- ٥- دار الوثائق : وثائق عابدين القضية الفلسطينية، محفظة رقم ٥٨٦ بيان اللجنة العربية العليا فى ١٦ / ١ / ١٩٣٧ .
- ٦- دار الوثائق ، وثائق عابدين، ملف رقم (١) عن فلسطين سنة ١٩٣٥ .
- ٧- دار الوثائق : مضابط مجلس الوزراء، محفظة رقم ٤٥ / ج (وزارة الخارجية) شئون فلسطين ، عن الحالة الراهنة فى فلسطين ١٩٢٤-١٩٣٥ .
- ٨- دار الوثائق : مضابط مجلس الوزراء ، وزارة الحربية ، ملف رقم ٣٥ / ج الحالة فى فلسطين ١٩٢٢-١٩٣٥ .
- ٩- دار الوثائق : مضابط مجلس الوزراء، وزارة الحربية، ملف رقم ١٥٦ عن المقاومة الفلسطينية العربية ضد الاحتلال البريطانى والصهيونى .
- ١٠- دار الوثائق : وثائق عابدين، وزارة الخارجية ملف رقم (٢) نوسيه (ب) من عام ١٩٢٩-١٩٣٦ .

ثانيا: المراجع العربية :

- ١- أحمد الشقيرى: أربعون عاما فى الحياة العربية والدولية، ج ١ ، دار العودة بيروت، ١٩٧٣ .
- ٢- أحمد طربين : محاضرات فى قضية فلسطين من نشأة الحركة الصهيونية حتى نشوب الثورة الكبرى سنة ١٩٣٦ ، معهد الدراسات العربية العليا سنة ١٩٥٩ .
- ٣- اكرم زعيتر : القضية الفلسطينية، القاهرة ١٩٥٥ .
- ٤- اميل الغورى : فلسطين عبر ستون عاماً ، دار النهار، بيروت سنة ١٩٧٣ .

- ٥- أمين سعيد: ثورات العرب في القرن العشرين ، القاهرة، مطبعة عيسى الحلبي بمصر سنة ١٩٣٥ .
- ٦- بربارة كلكاس : ثورة ١٩٣٦، مقال في كتاب «تهويد فلسطين» إعداد إبراهيم أبو لغد ، ترجمة اسعد رزوق، مركز الأبحاث سنة ١٩٧٢ .
- ٧- خليل السكاكيني : كذا أنا يا دنيا، يوميات خليل السكاكيني، أعدتها للنشر هالة السكاكيني ، القدس سنة ١٩٥٥ .
- ٨- خليل محمد عيسى: الثورة الفلسطينية الكبرى (مقال في نشرة الثورة الفلسطينية) في دمشق ١٩٦٩ .
- ٩- سعدى بسيسو : الصهيونية ، نقد وتحليل، حلب سنة ١٩٥٧ .
- ١٠- صالح مسعود أبو يصير : جهاد شعب فلسطين خلال نصف قرن، دار الفتح بيروت سنة ١٩٦٨ .
- ١١- صبحى ياسين : أ- الثورة العربية الكبرى في فلسطين (١٩٣٦-١٩٣٩) دار الهنا للطباعة.
ب- نظرية العمل لاسترداد فلسطين ، دار المعرفة ، القاهرة ١٩٦٤ .
- ١٢- عبد الكريم الكرمي: كفاح عرب فلسطين الحديث، بيروت ، سنة ١٩٦٤ .
- ١٣- عبد الوهاب الكيالي: تاريخ فلسطين ، بيروت سنة ١٩٧٣ .
- ١٤- عرفات حجازي : أرض الثورات فلسطين ، بيروت سنة ١٩٥٩ .
- ١٥- عمر أبو النصر وآخرون: جهاد فلسطين العربية ، بيروت سنة ١٩٣٦ .
- ١٦- عيسى السفري : فلسطين العربية بين الانتداب والصهيونية ، ترجمة عبد الوهاب الكيالي، بيروت ١٩٦٥ .
- ١٧- ف.م. سيتون وليامز : بريطانيا والدول العربية ، ترجمة د. أحمد عبد الرحيم مصطفى مكتبة الأنجلو المصرية.
- ١٨- كريستوفر سايكس : مفارق الطرق إلى إسرائيل ، ترجمة خيرى حماد، دار الكاتب العربى بيروت سنة ١٩٦٦ .
- ١٩- محمد صادق عرنوس : صوت الشعر في قضية فلسطين ، القاهرة ١٩٣٦ .
- ٢٠- ناجى غلوش: المقاومة العربية في فلسطين ، ١٩١٧-١٩٤٨ ، بيروت ١٩٦٧ .
- ٢١- نجيب صدقة : قضية فلسطين ط ١ ، دار الكاتب ، بيروت سنة ١٩٤٦ .

ثالثا : المراجع الأجنبية:

- 1- Government of Palestine: A Survey of Palestine, prepared in December 1945 and January 1946 for the Anglo American Commisson of inquiry , 2 vols.
- 2- Hymson , A. M: Palestine under the Mandate (1920-1948) London 1950 .
- 3- Jeffires , J. M. N : Palestine the Reality , London 1939 .
- 4- Report By His Majests government on the Adiminstration of Palestine and Trans - Jordan for the Year 1935 .

رابعا : الدوريات :

- ١- الأنوار عدد ٦٩ ، آب (أغسطس) ١٩٦١ .
- ٢- جريدة فلسطين (يافا) ، نوفمبر سنة ١٩٣٥ ، ديسمبر ١٩٣٥ ، مارس ١٩٣٦ .
- ٣- الرابطة العربي سبتمبر ١٩٣٦-نوفمبر ١٩٣٦ - أبريل ١٩٣٨ .
- ٤- شئون فلسطين : يناير سنة ١٩٧٢ .
- ٥- كوكب الشرق : مارس ١٩٣٥ - أغسطس ١٩٣٥ - نوفمبر ١٩٣٥ .
- ٦- مجلة العرب : العدد ٤٥ ، القدس سنة ١٩٣٦ .
- ٧- مرآة الشرق : اغسطس سنة ١٩٣٥ .
- ٨- نشرة فلسطين : (الهيئة العربية العليا) ١٩٣٥- تموز وأب سنة ١٩٦٦ .

خامسا : الأحاديث الشخصية:

- حديث شخصى مع السيدة ميمنة عز الدين القسام وذلك فى مبنى معهد المعلمين العام بتعز
بجمهورية اليمن الشمالية (الجمهورية العربية اليمنية) فى عام ١٩٨٢ .

مدينة الري في تاريخها السياسي من

العصر العباسي الثاني حتى سقوط بغداد

ملخص البحث

إن مدينة الري تعد واحدة من المدن الفارسية القديمة التي تمتاز بعراقة تاريخها الحضاري القديم، فقد كانت من مراكز الحضارة والثقافة القديمة عند الفرس، وظلت محافظة على هذا التراث متمسكة به، وفي العصر الإسلامي فتحت هذه المدينة ولكن بعد محاولات قام بها الفاتحون.

أما مدينة الري في الوقت الحاضر فليس لها شأن يذكر، فقد أفل نجمها وانطفأ نورها الحضاري، وتحولت إلى قرية متواضعة بسيطة معظم سكانها من الفقراء، وقد سلبت أضواء هذه المدينة العريقة مدينة طهران العاصمة الحالية لجمهورية إيران، التي أنشأت على بعد (٨) كيلو مترات من مدينة الري. وفي مدينة الري ضريح يسمى شاه عبد العظيم، وهو من أحفاد الإمام الحسن بن علي بن أبي طالب ويعتبر من المزارات الهامة في جمهورية إيران.

لقد استفادت مدينة الري في الإسلام من الرصيد الحضاري الذي كانت تمتلكه، فقد كان لهذه المدينة دور سياسي واقتصادي وثقافي واضح في العصر العباسي مع ما مرت به من عوائق، ويعود الفضل في ذلك إلى موقعها الجغرافي الهام والمميز في النواحي الاقتصادية والسياسية والعسكرية، لذلك حرصت كل القوى التي ظهرت على الساحة

السياسية السيطرة على هذه المدينة، وكان هذا النشاط السياسى والعسكرى فى السيطرة على مدينة الرى متزامنا مع ضعف الخلافة العباسية، فإن ضعف الخلافة قد أفسح المجال أمام هذه القوى على التنافس فى السيطرة على مدينة الرى.

لذلك فإننا نلاحظ من سير الأحداث، أن التاريخ السياسى لمدينة الرى ، لاسيما فى العصر العباسى الثانى، يمتاز بعدم الاستقرار، فقد مرت على مدينة الرى فترات ذات طابع سياسى مضطرب وغير مستقر يمتاز بأحداث سياسية سريعة الحدوث متلاحقة متشابهة فى أسباب حدوثها حتى إنك لا تكاد تميز بين عدوان وآخر على مدينة الرى من حيث الأسباب والدوافع.

وربما كانت بداية هذا الاضطراب وعدم الاستقرار فى تاريخ مدينة الرى فى أواخر العهد الطاهرى، فقد أساء نواب الطاهريين على مدينة الرى إلى أهلها واعتدوا على أملاكهم ، فاستعان أعيانها بالعلويين ولم يتردد العلويون فى قبول هذه الدعوة، وقد قاد هذه الحركة الحسن بن زيد بن محمد الطالبى، واستطاع العلويون بسط نفوذهم على الرى وأعمالها.

ولما انتهى العهد الطاهرى جاء السامانيون وتمكنوا من إخضاع مدينة الرى لنفوذهم لاسيما بعد أن ضعف النفوذ العلوى على الرى. لكثرة الصراعات والمنافسات بين القوى ، ويبدو أن السامانيين عجزوا عن الاحتفاظ بسيطرتهم على الرى، فقد استطاع (أسفار بن شيرويه) المتمرّد على السامانيين انتزاع مدينة الرى من أيديهم.

وظلت مدينة الرى بعد ذلك تتجاذبها القوى إلى أن جاء البويهيون الذين تمكنوا من بسط نفوذهم على بلاد فارس ومدينة الرى وأعمالها بعد حروب تكاد تكون مستمرة خاضوها ضد السامانيين والقوى المناوئة الأخرى، وامتد نفوذ البويهيين من بغداد العاصمة إلى سائر مدن العراق، لاسيما فى عهد الأخوة الثلاثة وهم: ركن الدولة الذى يحكم مدينة الرى وأعمالها وعماد الدولة على بلاد فارس ومعز الدولة على بغداد.

وقد زال النفوذ البويهى عن الرى بسبب الصراعات التى وقعت بين أبناء البيت البويهى الحاكم ، وقد هيا هذا الوضع الظروف لمجيئ الغزنويين وسيطرتهم على مدينة الرى وسائر أعمالها.

أن الفساد الإدارى الذى مارسه نواب السلطان مسعود الغزنوى على الرى كان سببا فى الإسراع بضياع النفوذ الغزنوى عن مدينة الرى، ولم تنفع المحاولات التى بذلها السلطان مسعود لعلاج هذا الفساد .

هذا المناخ السياسى المضطرب غير المتوازن الذى يخيم على مدينة الرى قد أفسح المجال أمام الأتراك السلاجقة فى عهد السلطان طغرل بك من السيطرة على مدينة الرى، ولكن الصراعات المتكررة بين الأتراك أنفسهم، بالإضافة إلى القوى الطامعة فى السيطرة على مدينة الرى، نجم عنه إضعاف نفوذ الأتراك، وقد حبيت هذه الأجواء للدولة الخوارزمية الفتية القوية غزو مدينة الرى ثم السيطرة عليها.

وأخيراً فإن مدينة الرى لم تسلم من خطر المغول التتار، شأنها فى ذلك شأن سائر المدن المجاورة لها والبعيدة عنها، فقد لحق بها الدمار من جراء هجمات التتار المتكررة ، فتضررت بذلك حياتها السياسية والاقتصادية والثقافية، فكان لذلك تأثير واضح على النشاط الحضارى لمدينة الرى.

وفىما يتعلق بالمصادر التى استعنا بها فى تحقيق هذا البحث ، فجميعها مصادر تاريخية، لعل من أبرزها وأهمها بالنسبة لهذا البحث كتاب (تجارب الأمم) لابن مسكويه والكتاب المذيل عليه ، لأبى شجاع ظهير الدين الروذراورى ، فقد عُرِضَتُ الأحداث فى هذين الكتابين بدقة وبتفصيل أكثر من المصادر الأخرى؛ ومن المصادر التاريخية التى أفادتنا كثيراً : كتاب (تاريخ البيهقى) ، لأبى الفضل محمد بن حسين البيهقى، من أهل خراسان ولد فى سنة ٣٨٥هـ/ ٩٩٥م، وكان يعمل كاتباً للسلطان مسعود الغزنوى، فهو الذى يحرر الرسائل المتبادلة بين السلطان مسعود وبين نوابه على مدينة الرى، فكان معاصراً وقريباً من الأحداث ، لذلك فإن ما حرره من رسائل تعتبر وثائق وشاهد عيان على الأحداث إبان هذه الفترة من تاريخ مدينة الرى. وأخيراً كتاب (الكامل فى التاريخ)، لابن الأثير الذى ظل ملازماً لنا بأحداثه التاريخية الهامة طوال الفترة الزمنية المقررة لهذا البحث ، فأفدنا منها كثيراً.

مدينة الري في تاريخها السياسي من العصر العباسي الثاني حتى سقوط بغداد

مدينة الري من المدن الفارسية القديمة والعريقة ، حتى أن التاريخ لم يدرك على وجه التحديد بداية بنائها ، وقد وصل إليها الفتح الإسلامي ودخلت في الإسلام ولكن بعد محاولات عديدة من الفاتحين حتى تم إخضاعها . وقد تأثرت مدينة الري بالأحداث السياسية المحيطة بها ، وقد تفاعلت معها وكان لها الدور الفاعل .

ولم تعد مدينة الري في الوقت الحاضر ذات قيمة سياسية أو ثقافية كما كانت في الفترة التي نريد أن نتحدث عنها ، فقد أقل نجمها وحلت محلها مدينة طهران العاصمة الحالية لجمهورية إيران ، والتي تبعد عنها بحوالى (٨) كيلو مترات .

وحديثنا عن مدينة الري كما جاء في عنوان هذه الدراسة، يبدأ من العصر العباسي الثاني وحتى سقوط بغداد في سنة (٦٥٦هـ / ١٢٥٨م)، وقد خصصت هذه الدراسة للجانب السياسي لهذه المدينة.

وكما هو معلوم ومتعارف عليه عند المؤرخين أن العصر العباسي الثاني يبدأ بعهد الواثق ، أبوجعفر هارون بن المعتصم (٢٢٧-٢٣٢هـ / ٨٤٢-٨٤٧م) ، ثم الخلفاء الذين أعقبوه، وهو عصر يتميز بالضعف والتعزق والانقسام في جسم الدولة العباسية بسبب ضعف الخلفاء العباسيين وتسلمت العناصر الأجنبية.

هذا الوضع السياسي السيئ المتهالك الذي يعيشه الخلفاء آنذاك، كان له انعكاساته الإيجابية عند العناصر المناوئة للخلافة والتي تختلف معها سياسيا وفكريا ومذهبيا ، فراحت تحيك المؤامرات وتؤلب الأقاليم وتحرك المعارضين، فعمت الفوضى السياسية والعسكرية في هذه الولايات والمدن، لاسيما البعيدة عن مقر الخلافة. وقد تأثرت مدينة الري بهذا المناخ السياسي والمذهبي والثقافي المضطرب فراحت تتفاعل معه فكان لها الدور الواضح والفعال ، وهذا ما سوف نرصده ونبحثه في هذه الدراسة وما تتضمنه من أحداث .

النزاع بين الطاهرية والزيدية في السيطرة على الري وحوادث أخرى:

عندما تولى هارون الواثق الخلافة، كانت مدينة الري وخراسان وكرمان وطبرستان والسواد وما والاها يتولاها عبدالله بن طاهر^(١) وكان على درجة كبيرة من الكفاءة في القيادة

والإدارة، فقد ضبطت هذه الولايات ، وكان على مقدار ما يقدمه من خراج فى كل عام لمدينة الرى وسائر هذه المدن يصل إلى ٤٨ ألف ألف درهم أى ما يساوى ٤٨ مليون درهم . ولما توفى الوالى عبدالله بن طاهر فى سنة (٢٣٠هـ / ٨٤٤م) أسند الواثق أمر هذه الولايات بما فيها مدينة الرى إلى ابنه طاهر^(٢).

وعند وفاة الواثق تولى بعده أخوه المتوكل، جعفر بن المعتصم فى سنة (٢٣٢هـ - ٢٤٧ / ٨٤٧-٨٦١م)، وقد أحدث المتوكل تغييرات إدارية ، وفى سنة (٢٣٥هـ / ٨٤٩م) قسم الولايات الإسلامية بين أبنائه الثلاثة، وهم : محمد المنتصر بالله وطلحة المعتز بالله، وإبراهيم المؤيد بالله، فكان نصيب طلحة مدينة الرى وطبرستان وخراسان وأرمينية وأذربيجان وكور فارس^(٢).

وكان العامل على مدينة الرى إبان هذه الفترة، السرى بن معاذ الشيبانى، وكان تعيين العمال يتم ضمن إدارة الأمير طلحة المعتز بالله وهو المسئول عن هذه الجهات تحت مظلة الإدارة الكلية للخليفة المتوكل، وقد توفى عامل الرى فى سنة (٢٤٦هـ / ٨٦٠م) ودفن بمدينة الرى^(٤).

وكثيرا ما كانت مدينة الرى تتعرض إلى بعض الكوارث المدمرة ، مثل الزلازل وفى سنة (٢٤١هـ / ٨٥٥م)، ضربت مدينة الرى زلازل مدمرة راح ضحيتها العديد من الناس، ولانستبعد أن يكون لمثل هذه الزلازل والكوارث آثارها السلبية على الوضع السياسى والاجتماعى لهذه المدينة^(٥).

بداية ضعف النفوذ العباسى على مدينة الرى وظهور الحركات الانفصالية:

حركة الحسن بن زيد بن محمد الطالبى^(١):

كانت بداية حركة الحسن بن زيد فى مطلع سنة (٢٥٠هـ - ٨٦٤م) وهو من سكان مدينة الرى، وكانت مدينة الرى تتأثر كثيرا بالأوضاع السياسية المحيطة بها التى تمر بها المنطقة، فى طبرستان وخراسان والديلم، وقد تهيأت الظروف فى مدينة الرى لهذه الثورة، وذلك لما كان من استبداد الأمراء الطاهريين ومن ينوب عنهم فى هذه المقاطعات والمدن، ومن أمثلة ذلك ما كانوا يقومون به من اعتداءات متكررة على حقوق الناس السياسية والاجتماعية والاقتصادية؛ من مزارع وأراضٍ^(٧).

هذه الأوضاع السيئة أثارت حفيظة الأعيان وأهل الرأي في هذه المدينة، وأثارت غضبهم على هؤلاء العمال، فتحرك هؤلاء الأعيان، وكان يمثلهم: محمد وجعفر ، وهما أبناء (رستم إخوان) طلبا مساعدة العلويين؛ وهم الأعداء التقليديون للعباسيين وسبب توجيههم للعلويين هو إعطاء هذه الحركة صفة وثقلا شرعيا حتى تكسب التأييد من العامة والخاصة.(٨)

وهكذا فإنهما إتصلا بمحمد بن إبراهيم ؛ أحد الطالبين، وكان يسكن بطبرستان يدعونه ويبايعونه على الثورة ضد هؤلاء العمال المستبدين، ولكن محمد بعد أن فكر في الأمر اعتذر عن قبول هذه الدعوة ، حيث لم يجد في نفسه الهمة والعزيمة للقيام بمثل هذا الأمر وتحمل هذه المسئولية ، لكنه أرشدهما إلى غيره من العلويين ، فقال لهما : (لكنى أدلكم على رجل منا هو أقوم بهذا الأمر منى) (٩).

أرشداهم إلى الحسن بن زيد سالف الذكر، وهو من العلويين، فحملوا إليه رسالة من محمد ابن إبراهيم يدعونه فيها المجيئ إلى طبرستان حتى يتيسر لهم التخطيط بهدوء لهذه الثورة ، فقدم إليهم الحسن بن زيد من الري، وكان للحسن من الطموح والتطلع السياسى ما دفعه لقبول مثل هذه الدعوة دون تردد، بل والترحيب لها (١٠).

وقد قامت هذه الثورة بقيادة الحسن بن زيد ، وكتب لها النجاح لأنها قامت على أسس مدروسة ولأن التهيق الكبير الذى قد صاحبها شمل القاعدة من العامة والخاصة في هذه المدن، وما تم من تلاحم كبير بين المدن الثلاث وهى : الري وطبرستان والديلم، وهذا الموقف المتعاون المتحد مع هذه الثورة يعطينا مؤشرا واضحا عن مدى غضب العامة والخاصة وكراهيتهم للعمال الطاهريين (١١).

وقد تمكن الحسن بن زيد بعد معارك عنيفة وطاحنة مع سليمان بن عبدالله بن طاهر ونوابه على هذه المدن من طرد عمال الخليفة المستعين عن هذه المدن، وعين عليها عمالا من أتباعه . أما مدينة الري فإنه بعث إليها واحدا من أهل بيته لينوب عنه ويذكر الطبرى وكذلك ابن الأثير، أن اسمه حسن بن زيد أيضا ، ولكن حسن هذا ترك مدينة الري، وأناب عنه أحد العلويين، واسمه محمد بن جعفر (١٢).

وكانت الخطبة والدعاء في مدينة الري للحسن بن زيد الذى اتخذ من طبرستان مقرا لحكومته ، ولكن محمد بن جعفر لم يكن مؤهلا للحكم والقيادة وإدارة المدينة، فقد أساء إلى جماعات من أهل خراسان كانت تسكن مدينة الري، ولانعرف على وجه الدقة لماذا تعرض لهم بالإساءة ، ويحتمل أنهم كانوا متعاطفين مع بنى طاهر حكام خراسان(١٣).

كما أساء في ذات الوقت إلى أهل مدينة الرى على حد قول ابن الأثير، يقول : (ظهرت منه أمور كرمها أهل الرى) ^(١٤). هذه الأوضاع التى تمر بها مدينة الرى قد لفتت انتباه الطاهريين، فأسرع محمد بن طاهر بن عبدالله بن طاهر وبعث قائده، محمد بن ميكال ، على رأس قوة عسكرية تمكن بها من احتلال مدينة الرى، فعادت المدينة إلى النفوذ الطاهرى، ولكن الحسن بن زيد - وهو ليس بحسن بن زيد الذى ترك مدينة الرى - لم يتوان فقد أعد جيشا بقيادة شخص يقال له (واجن) ^(١٥)، والتقى الجيشان، فكان النصر حليف القائد (واجن) وقتل القائد محمد بن ميكال، وعادت الرى مرة أخرى إلى نفوذ الحسن بن زيد ^(١٦).

وهكذا استطاع الحسن بن زيد فى أواخر سنة (٢٥٥هـ) أن يحقق هذا النجاح الكبير ويخضع هذه المنطقة لنفوذه ، ويمكننا القول: أن من نتائج هذه الثورة التى أججها الحسن بن زيد أبعاد ثلاثة : سياسية ودينية واجتماعية.

ففى الجانب السياسى، شمل نفوذ العلويين بقيادة الحسن بن زيد فى هذه المناطق مدينة الرى وطبرستان والديلم ^(١٧)، وعلى المسار الروحى الدينى فإن أكثر أهل طبرستان قد اعتنقت المذهب الشيعى الزيدى الذى أسسه الحسن بن زيد، وقد انتشر المذهب الزيدى بمدينة الرى أيضا ^(١٨). ومن نتائج هذه الثورة على الصعيد الاجتماعى، أن العلويين أصبحوا يشكلون طبقة مميزة فى المجتمع لاسيما فى مدينة الرى ^(١٩).

إلا أن نفوذ الحسن بن زيد السياسى والعسكرى قد أثار حفيظة الأمراء الطاهريين ، فقرروا التخلص من نفوذ الطالبين ليس فقط من الرى وإنما من جميع المدن التى يسيطر عليها الحسن بن زيد ، فقد تمكنوا من السيطرة على طبرستان واعتقال الحسن بن زيد مع جماعة من زعماء العلويين، مثل إدريس بن موسى بن عبدالله الذى يتصل نسبه بعلى بن أبى طالب، وأعاد الطاهريون نفوذهم على سائر المدن، ولكن الحسن بن زيد تمكن من الهرب ^(٢٠).

ويذكر المسعودى أن هناك حركة أخرى قام بها العلويون بمدينة الرى، قام بها أحمد بن عيسى بن حسن بن على ، الذى يتصل نسبه بعلى بن أبى طالب، وقد ظهرت هذه الحركة بعد القضاء على حركة الحسن بن زيد، وكان أحمد بن عيسى يدعو إلى الرضا من آل محمد، وقد اصطدم مع محمد بن طاهر فانهزم الأمير الطاهرى إلى بغداد ^(٢١).

وفى عهد الخليفة المعتز، وهو الزبير بن جعفر المتوكل، كان المتولى على مدينة الرى موسى ابن بغا ، وقد اجتهد موسى بن بغا فى محاربة الحسن بن زيد ^(٢٢)، وفى ذات الوقت كان

للأتراك نفوذ قوى وتسلط على الخلافة العباسية منذ عهد المعتصم ، فأصبح الخليفة معهم مسلوب الإرادة لاحول له ولا قوة والأمر كله بيد الأتراك، وكان ييدهم عزل وتولية الخلفاء وإذا لزم الأمر- فى بعض الأحيان- عمدوا إلى قتله كما صنعوا مع الخليفة المعتز فى سنة (٢٥٥هـ / ٨٦٨م) ، فلما أحست قبيحة وهى أم المعتز أن ابنها فى خطر استنجدت بموسى بن بغا أمير مدينة الرى، ولكن موسى وصل بعد فوات الأوان، إذ أجهز عليه الأتراك وقتلوه وبائعوا المهتدى بالله، وهو محمد بن هارون الواثق بن المعتصم، وبأشر أعماله فقد أمر موسى ابن بغا بالعودة إلى مدينة الرى ولكن موسى رفض الذهاب متعللا بأن جنوده يرفضون الذهاب ويصررون على البقاء فى سامراء، ولكن الحقيقة أن موسى كان يضمر الشر فكان ينوى الايقاع بالخليفة، فقد وصلت عساكره إلى العراق فى مطلع سنة (٢٥٦هـ / ٨٦٩م) ، فاعتقلوا الخليفة المهتدى ونهبوا أمواله^(٢٣). وفى هذه الفترة التى تتحدث عنها ظهر صاحب الزنج، واسمه على بن محمد بن عبد الرحيم، ويقول أنه من قرية ورزنين من أعمال الرى، ويدعى أن نسيه يتصل بعلى بن أبى طالب^(٢٤).

وقد تمكن الحسن بن زيد العلوى الهارب من الطاهريين أن يكون له الأتباع ويستجمع قوته زمن الخليفة العباسى المعتمد على الله، وهو أحمد بن جعفر المتوكل، فتمكن الحسن من السيطرة على خراسان وجرها من بنى طاهر^(٢٥)، كما استولى على طبرستان وتحصن بها، ومنها أخذ يشن هجماته على المدن المجاورة ، وفى سنة (٢٥٦هـ / ٨٦٩م) توجه نحو الرى واستولى عليها فى شهر رمضان من هذه السنة، ولكنه عاد أدراجه إلى طبرستان بعد أن علم باستعداد موسى بن بغا لمحاربته^(٢٦)، وقد تم لموسى بالفعل السيطرة على مدينة الرى فى شوال^(٢٧).

وفى سنة (٢٥٧هـ / ٨٧٠م) عاد الحسن مرة أخرى إلى الرى، وقد كان الأمير عليها من قبل الخلافة العباسية، عبد العزيز بن دلف ، فلما علم بقدوم الحسن بن زيد واستعداده التام للحرب والنزال، تركها فى الحال ودخل الحسن المدينة وعين قائده القاسم بن القاسم بن على العلوى عاملا عليها، وكان أهل الرى يكرهونه لعلمهم بسوء أخلاقه ، فمن ضمن ما قام به من أعمال، إقتلعه لأبواب المدينة الحديدية وبعثه بها إلى الحسن بن زيد ، وظل أميرا على مدينة الرى من قبل الحسن لمدة ثلاث سنوات^(٢٨).

إن تعاظم نفوذ الحسن بن زيد باستيلائه على المدن الفارسية قد سبب انزعاجا للسلطة العباسية ، فأخذت تفكر فى إقتلعه والتخلص منه، وفى سنة (٢٥٨هـ / ٨٧١م) توجه إليه موسى بن بغا على رأس قوة عسكرية وتمكن من طرده من بعض المدن التى كان يسيطر

عليها^(٢٩). وفي سنة (٢٥٩هـ / ٨٧١م) أرسلت الخلافة العباسية يعقوب بن ليث الصفار الذي تمكن من احتلال مدينة طبرستان ومدينة الري، فانهزم على أثرها الحسن بن زيد ، وقد عين يعقوب على الري شخصاً يدعى (الصلاني) ^(٣٠).

وقد أجرى الخليفة العباسي المعتمد تقسيمات إدارية في الدولة الإسلامية في سنة (٢٦١هـ / ٨٧٤م) بين ابنيه : جعفر ولي عهده الملقب بالمفوض إلى الله، فقد ولاه على الأجزاء الغربية من الخلافة ، وبين ابنه الثاني أبي أحمد ولقبه الناصر لدين الله وولاه مشرق الدولة الإسلامية، ومن ضمن ولاياتها مدينة الري^(٣١).

ويبدو أن حركات الحسن بن زيد لم تتوقف ، فقد قام بمحاولات لإعادة نفوذه ، ففي سنة (٢٦١هـ / ٨٧٥م) استطاع استرجاع مدينة طبرستان من أصحاب يعقوب بن ليث الصفار^(٣٢). إلا أن مدينة الري كانت تحت النفوذ العباسي وأميرها (الصلاني) الذي توفي سنة (٢٦٢هـ / ٨٧٥م) وعين مكانه شخصاً يدعى (كيفلغ) ^(٣٣). ثم عزل عنها وعين مكانه (خطا لحجور) . وفي عهد الخليفة المعتمد تغلب (إساتكين) على الشرطة ، وهو أحد القادة في مدينة سجستان ، ولما قوى نفوذه توجه إلى الري واحتلها في سنة (٢٦٦هـ / ٨٧٩م) وطرد عنها عاملها (خطا لحجور) ^(٣٤).

وقد توفي الحسن بن زيد العلوي المتولي على طبرستان في سنة (٢٧٣هـ / ٨٨٣م)، وخلفه أخوة محمد بن زيد على السلطة ، وقد جرت بينه وبين (إتكوكتين) : أو (إرلزيكيس) كما يسميه ابن كثير في البداية والنهاية، وهو المتولي على قزوین، جرت بينهما منافسة في السيطرة على مدينة الري، ودار بينهما قتال عنيف في سنة (٢٧٢هـ / ٨٧٥م) تغلب فيه (إتكوكتين) واحتل مدينة الري، وثبت نفوذه على سائر المدن المجاورة ووزع عليها عماله ^(٣٥). وأخذ من أهل مدينة الري مائة ألف دينار غرامة، ربما لموقفهم العدائي منه أثناء نزاعه مع محمد بن زيد ^(٣٦).

وفي ذات الوقت كانت لرافع بن الليث الصفار تحركات في المنطقة، فقد قوى نفوذه، فوضع يده على بعض القرى الهامة التابعة لمدينة الري رغم احتجاجات الخليفة العباسي المعتضد، وهو أبو العباس أحمد بن طلحة ^(٣٧)، ولم نر (لأتكوكتين) أي نشاط إزاء هذه الاعتداءات، فكتب الخليفة إلى أحمد بن عبد العزيز بن أبي دلف في سنة (٢٧٩هـ / ٨٩٢م) في إخراج رافع من المدينة، وقد جرت بين الطرفين حروب لأيام عديدة أسفرت عن هزيمة رافع وطرده من البلاد^(٣٨).

أما محمد بن زيد العلوي المتولى على طبرستان ، فقد أصبحت له قوة كبيرة فى سنة (٢٨١هـ / ٨٩١م) ، فقد قام بمحاولات لإعادة نفوذه على مدينة الري، هذه الأوضاع دفعت الخليفة المعتضد إلى الذهاب بنفسه إلى تلك المناطق وزيارة بلاد الجبل، التى تتبع من الناحية الإدارية مدينة الري (٣٩).

وقد أجرى بعض التقسيمات الإدارية فى الدولة الإسلامية، كما صنع بعض أسلافه من خلفاء الدولة العباسية، فقد كان الغرض منها يرتبط بهدفين الأول: سياسى وهو المحافظة على النفوذ العباسى فى تلك المناطق النائية عن مقر الخلافة، والثانى: أراد الخليفة أن يتحاشى حدوث النزاع بين أبنائه بعد وفاته، ففى سنة (٢٨١هـ) ولى ابنه الأمير على الملقب بالمكتفى على مدينة الري وقزوين وزنجان وأبهر وقم وهمدان ونهاوند والكرج (٤٠) ، وقد أناب المكتفى عنه على الكرج ونهاوند أحمد بن عبد العزيز (٤١)، ولم يمكث الأمير على طويلا فى بلاد المشرق، فقد بعث والده المعتضد وزيره عبدالله بن سليمان فى سنة (٢٨٢هـ / ٨٩٢م) يستدعى الأمير على (٤٢)، ولم تكن علاقة المعتضد طيبة بالأمراء الصفاريين، فقد كان غاضبا على الأمير عمرو بن الليث الصفار إلا أنه عفى عنه فى سنة (٢٨٤هـ / ٨٩٧م) وأسند إليه ولاية الري، وبعث إليه بالخلع والهدايا (٤٣).

وبعد موت المعتضد تولى ابنه المكتفى بالله، وهو على بن أحمد الخلافة ، فعين (إغرتمش) التركى عاملا على الري، ولكن هذا كان حاكما ظالما، فقد ساد الظلم فى عهده فأراد أهل مدينة الري التخلص منه، فاجتمع كبارها وأعيانها وقرروا استدعاء محمد بن هارون؛ وكان من قواد رافع بن هرثمة، وقد اكتسب هذا القائد شهرة كبيرة لاسيما بعد قضائه على محمد ابن زيد العلوى أمير طبرستان ، وقد جاء محمد بن هارون إلى مدينة الري بعد مكاتبات سرية جرت بينه وبين البارزين من أهلها، واستطاع التغلب على (إغرتمش) ، وقد أسفرت هذه المعركة عن قتل (إغرتمش) وقتل ابنيه وأخيه (كيغلغ) واحتل ابن هارون المدينة ، إلا أن الخليفة تدارك الموقف بسرعة، فبعث مولاة (خاقان المفلحى) فى سنة (٢٨٩هـ / ٩٠١م) على رأس قوة عسكرية كبيرة لكنها لم تصل إلى مدينة الري ولم نعرف الظروف التى حلت بها ، فبعث الخليفة المكتفى بالله إلى اسماعيل بن على وهو المتولى على بلاد ما وراء النهر، فأُسند إليه إضافة إلى عمله الولاية على الري ومحاربة محمد بن هارون، فتوجه إسماعيل إلى الري وتمكن بعد معارك من هزيمة محمد بن هارون وأحكم سيطرته على الري ، فهرب محمد بن هارون إلى

بلاد الديلم ، فبعث وراءه وتم اعتقاله وسجن في مدينة بخارى ومات في سجنه سنة (٢٩٠هـ / ٩٠٢م) (٤٤).

ولما تولى المقتدر بالله، وهو جعفر بن أحمد الخلافة أسند إلى ابنه الأمير على في سنة (٣٠١هـ / ٩١٢م) ولاية المشرق، وهي تضم : الري وديباوند وقزوين وزنجان وأبهر وأذربيجان (٤٥).

في الحقيقة فإن الضعف الذي أصاب الخلافة العباسية في مدينة بغداد زمن الخليفة المقتدر، من جراء الاضطرابات الداخلية، قد ألقى بظلاله على الولايات الإسلامية سياسيا واقتصاديا ، لاسيما الولايات الشرقية، فقد ضعف ولاؤها للخلافة ، وبعضها استقل بولايته ولم يعد يدفع الخراج للخلافة العباسية ببغداد، كما صنع أحمد بن علي صعلوك، الذي أصبح عاملا على الري بأمر من الأمير الخراساني نصر بن أحمد بن إسماعيل الساماني دون علم الخليفة المقتدر (٤٦). وفي سنة (٣٠٤هـ / ٩١٦م) قام يوسف بن أبي الساج المتولى على أرمينية وأذربيجان ، بهجوم على مدينة الري ، فهرب عاملها أحمد بن علي صعلوك إلى نواحي خراسان فاحتل ابن أبي الساج المدينة، مدعيا أن ما قام به كان بأمر من الوزير على بن عيسى، وزير المقتدر، ولكن بعد التحقيق تبين كذب وزيف يوسف بن أبي الساج، فبعث الخليفة إليه جيشا ولكن أبي الساج تمكن من دحر هذا الجيش، وأسر البارزين من قواده وطيف بهم في شوارع مدينة الري ، فبعث الخليفة جيشا آخر بقيادة مؤنس، فاضطر يوسف بن أبي الساج إلى التسليم وطلب العفو والمصالحة ، حين عرض على القائد مؤنس بأن يستمر في ولايته على الري مقابل أموال يدفعها لبيت المال في كل سنة مقدارها سبعمائة ألف دينار (٤٧)، ولكن الخليفة المقتدر رفض هذا العرض بشدة قائلا: (لو بذل ملء الأرض لما أقره على الري يوما واحدا لإقدامه على التزوير) (٤٨). هذه العبارات تتم عن مدى غضب الخليفة من تصرفات يوسف بن أبي الساج، ورفضه القاطع على تعيينه عاملا على الري.

فلما يئس يوسف بن أبي الساج من الولاية ترك مدينة الري، ولكنه قبل أن يتركها أمر بجباية أهلها لسنة كاملة وهي سنة ٣٠٤هـ وكان ذلك في غضون أيام قلائل لا تتجاوز العشرة، هذا فضلا عن الدمار الذي لحق بالمدينة عند تركه إياها، وقد صدرت أوامر الخليفة بتقليد (وصيفا البكتمرى) أمر الولاية على قزوين ومدينة الري، إلا أن الحروب لم تتوقف بين مؤنس ويوسف بن أبي الساج ، وقد انتهت بأسر ابن أبي الساج وإحضاره إلى بغداد (٤٩).

هذه الحروب قد تسببت في إتلاف خزينة الدولة إلى حد الإفلاس، فقد كلفتها الكثير من الأموال، وقد تسببت حتى في إرباك الجهاز الإداري داخل بغداد، فمن نتائجها عزل الوزير علي بن الفرات في سنة (٢٠٦هـ / ٩١٨م) (٥٠)، ويشرح لنا ابن مسكويه صاحب كتاب تجارب الأمم أسباب العزل، ويقول : إن السبب الرئيسي في عزل الوزير ابن الفرات ، هو تأخره عن دفع رواتب جماعات من الفرسان ، لعدم توفر الأموال بسبب ما قام به يوسف بن أبي الساج من مصادرته لمال الخراج الخاص بمدينة الري، وحال دون وصوله إلى بغداد ، مما أدى إلى تمرد الفرسان، ومن ثم عزل الوزير ابن الفرات ، فالعامل الاقتصادي إذا كان وراء العزل (٥١).

إمارة أحمد ومحمد ابني صعلوك على الري :

إن أحمد بن علي صعلوك ، الهارب إلى نواحي خراسان قد استفاد من هذه الأوضاع ، كما استغل فرصة غياب الجيش العباسي عن الساحة وعن الري فتحرك بجيشه من مدينة قم متوجها نحو الري فغزاها واحتلها إلا أن استنكارات الخليفة العباسي أرغمته على الخروج من المدينة، ولكنه ما لبث أن عاد مرة أخرى واحتلها وأحكم سيطرته عليها، رغم اعتراضات الخليفة، فاضطر الخليفة إلى إرسال جيش، إلا أن أحمد تمكن من دحر هذا الجيش، وقتل قاداته، ثم بعث يطلب من الخليفة أن يقره على الري مقابل أموال يدفعها في كل سنة إلى بيت المال، وكان مقدارها مائة وستين ألف دينار ، فقبل الخليفة هذا العرض مضطرا، ولم تكن هذه الأموال عن الري وحدها، بل تشمل أيضا مدينة قزوین و زنجان و دنهاوند وأبهر ، وهذا دليل على أن الخلافة العباسية تمر في ظروف اقتصادية وسياسية صعبة لقبولها مثل هذا العرض (٥٢).

واستمر أحمد بن علي صعلوك يدفع في كل سنة الأموال المقررة عليه، ففي سنة (٣٠٨هـ / ٩٢٠م) بعث أخاه إلى بغداد حاملاً الأموال والهدايا والتحف إلى الخليفة المقتدر، ليجدد له الولاء بالعهد (٥٣).

أما يوسف بن أبي الساج ، فإنه مكث في السجن حتى سنة (٣١٠هـ / ٩٢٢م) ثم بعد ذلك عفا عنه الخليفة بعد أن توسط له مؤنس، فأطلق سراحه ، وأمر بمكافأته وعقد له على الري وقزوین وأبهر و زنجان وأذربيجان ، وقرر عليه أن يدفع كل عام لبيت المال مبلغ خمسمائة ألف دينار ، ويضاف إلى ذلك دفع رواتب الجند بهذه المدن ، فوافق يوسف بن أبي الساج على ذلك (٥٤). وقد أبرم الخليفة هذه الاتفاقية مع ابن أبي الساج بعد أن قام أحمد بن علي صعلوك

بنقض ما كان معقوداً بينه وبين الخليفة من اتفاق ، فذهب يوسف بن أبي الساج فى سنة (٣١١هـ / ٩٢٣م) إلى الرى وبخلها عنوه ^(٥٥)، وقد قتل أحمد بن على صعلوك أثناء هذا النزاع، وبعث برأسه إلى الخليفة المقتدر ببغداد، وتوجه ابن أبي الساج من الرى إلى همذان، بعد أن خلف على الرى غلامه (مفلح) ولكن أهل الرى ثاروا عليه وعزلوه ، فلحق بابن أبي الساج، وقد مضت سنتان، ولانعرف ما إذا كان أهل الرى قد عينوا عليهم حاكما خلال هذه المدة، ولكن كل ما نعرفه أن ابن أبي الساج عاد إلى مدينة الرى فى جمادى الآخرة سنة (٣١٣هـ / ٩٢٥م) واحتل المدينة وعين عليها غلامه (فاتك) ^(٥٦).

السامانيون ومدينة الرى :

لقد أصبح يوسف بن أبي الساج يتولى نواحى المشرق بما فيها مدينة الرى، وقد طلب منه الخليفة المقتدر فى أواخر سنة (٣١٣هـ) التوجه إلى مدينة هجر بالبحرين لمحاربة أبى طاهر سليمان القرمطى ^(٥٧)، وعند مغادرة ابن أبي الساج كان (فاتك) يتولى أمر الرى، وقد أراد الخليفة المقتدر إبعاد (فاتك) عن مدينة الرى، فكتب المقتدر إلى السعيد نصر بن أحمد السامانى أمير خراسان فى مطلع سنة (٣١٤هـ / ٩٢٦م) بضم الرى إلى ولايته، مما يدل على عدم إخلاص (فاتك) للخلافة العباسية ، فلما وصل كتاب المقتدر إلى السعيد نصر، توجه فى الحال إلى مدينة الرى واحتلها ، فترك (فاتك) المدينة ودخلها السعيد نصر فى جمادى الآخرة من السنة المذكورة ، وأقام بها شهرين ثم تركها بعد أن ولى عليها (سيمجور الدوائى) ، ثم عزله وولى عليها محمد بن على صعلوك أخ أحمد صعلوك الأمير السابق لمدينة الرى، الذى قتل على يد يوسف بن أبي الساج. وهنا ملاحظة جديرة بالانتباه ؛ وهى : أن الأمير السعيد نصر يتمتع بصلاحيات إدارية واسعة حيث أنه يعزل ويعين الولاة على مدينة الرى دون الرجوع إلى الخليفة العباسى وهذا ربما يعطى مؤشرا على مدى ضعف نفوذ الخليفة العباسى فى تلك المناطق، على أية حال استمر محمد بن على صعلوك أميرا على الرى حتى سنة (٣١٦هـ / ٩٢٨م) ، وقد مرض محمد ولما أحس بدنو أجله كاتب العلويين ليسلم إليهم الأمر بمدينة الرى، فبعث إلى الحسن بن القاسم الحسنى الداعى أمير الديلم وإلى قائده (ماكان بن كالى) ، فقدموا المدينة واستلموا السلطة فى سنة (٣١٧هـ / ٩٢٩م) ومات محمد بن على صعلوك بعد هذا التاريخ بقليل ^(٥٨).

وهذا يعنى أن محمد بن على صعلوك قد أخرج مدينة الرى من يد السامانيين المواليين للسلطة العباسية إلى العلويين أعدائهم التقليديين، وقد تولى الحسن بن القاسم الداعى السلطة

بالرى، وقد أظهر العدل والاستقامة فى حكمه للبلاد فأحبه الناس، إلا أن (أسفار بن شيرويه) المتولى على طبرستان من قبل السعيد نصر بن أحمد السامانى أمير خراسان ، لم يدعه بهذا بحكم الرى، فقد جره إلى حروب انتهت بمصرعه، وقد كان للخيانة التى قام بها بعض المقربين دور بارز فى مقتل الحسن الداعى، واستولى على السلطة بمدينة الرى (أسفار بن شيرويه)، وامتد سلطانه على طبرستان وجرجان وزنجان وقزوين وأبهر وقم، وأمر بالدعاء فى هذه المدن لصاحب خراسان ، الأمير السعيد نصر السامانى^(٥٩).

غير أن المسعودى عند حديثه عن هذا الموضوع، لا يرى أن هناك تواطئاً تم بين محمد بن على صعلوك وبين الحسن بن القاسم الحسنى الداعى ضد العباسيين لاحتلال مدينة الرى، وإنما يقول: إن الحسن بن القاسم الداعى أتى على رأس قوة عسكرية معظمها من الديالة يقودها (ماكان بن كالى) الديلمى، فاحتل مدينة الرى وقزوين وزنجان وقم وأبهر، كان ذلك فى سنة (٣١٧هـ) ، ولما علم الخليفة المقتدر بالله بهذا الأمر، كتب إلى السعيد نصر بن أحمد السامانى المتولى على خراسان ، مؤنباً على هذا الإهمال ويطلبه بالإسراع فى إخراج الحسن بن القاسم الداعى من مدينة الرى وسائر المدن الأخرى التى استولى عليها، ومما جاء فى خطابه إلى نصر السامانى قوله : ((إنى ضَمَمْتُكَ المال والدم، فأهملت أمر الرعية ، وأضعفتها وأهملت البلد، حتى نَخَلْتُهُ المبيضة) ؛ يعنى بذلك الحسن الداعى وأتباعه^(٦٠).

وقد قام (ماكان بن كالى) قائد الحسن الداعى بعد ذلك بمحاولات لإعادة نفوذ العلويين إلى الرى ، فقد استغل فرصة غياب (أسفار) عن الرى فانتقض عليها، ولكن (أسفار) تمكن من إعادة نفوذه ، وعلى أثر ذلك هرب (ماكان)^(٦١).

أسفار بن شيرويه يتمرد ويستقل بحكم الرى:

لقد حقق أسفار انتصارات على المتأولين له ، وكان لا يتورع من استعمال المكاييد والحيل فى سبيل القضاء على أعدائه ، فكون له قوة عسكرية ضاربة فى المنطقة، فأصبح مرهوب الجانب، هذه القوة دفعته إلى الاستقلال عن التبعية التى تربطه بالسعيد نصر بن أحمد السامانى أمير خراسان فخرج عن طاعته ، ومن مظاهر طغيانه وغروره وتجبره ، أنه وضع تاجاً على رأسه وعملوا له سريراً من ذهب ليجلس عليه ويمارس أعماله، وتمرد على الخليفة وأعلن الحرب عليه وعلى أمير خراسان نصر السامانى، فبعث الخليفة إليه جيشاً بقيادة هارون بن غريب، وسلك هذا الجيش طريق قزوين ، وقد لقي هذا الجيش مساعدات طيبة من أهل قزوين لكراهيتهم (لأسفار) ، ولكن (أسفار) تمكن من دحر هذا الجيش^(٦٢).

هذا التمرد الذى قام به (أسفار) قد أثار حفيظة الأمير السامانى السعيد نصر، فقام بغزو الرى، وكادت الحرب تقع بين الجانبين لولا توسط مطرف بن محمد الجرجانى وزير (أسفار) ، فقد أشار على (أسفار) الدخول فى طاعة أمير خراسان وبذل المال، فإن قبل وإلا فالحرب، فوافق (أسفار) على هذا الرأى ، أما أمير خراسان فقد تردد أول الأمر ثم قبل بعد ذلك ، وتم الصلح على هذه الشروط ، وقد جبى (أسفار) هذه الأموال من أهل مدينة الرى وأعمالها ، فقرر على كل إنسان ديناراً وحتى المسافرين عابري الطريق لم يسلموا من هذه الضريبة ، فقد جمع من الأموال ما زاد عن المقدار المطلوب، وقد استفاد من هذه الأموال فى تكوين الجيوش ، فزاد بذلك طغيانه وغروره ، وعمد إلى أهل قزوين الذين ساعدوا جيش الخليفة المقتدر وأراد أن ينتقم منهم ، فنكل بهم وقتل الكثير منهم حتى أنهم فروا من منازلهم إلى الصحراء ، وذكروا أنه لما سمع المؤذن يقول : الله أكبر أمر به فألقى من على المنارة إلى الأرض، فهذه الأعمال تشهد على طغيانه وكفره (٦٣).

مرداويج قائد أسفار يستولى على السلطة بالرى:

وقد ولدت هذه الفظائع التى اغترفها (أسفار) الحقد والكراهية لدى الناس، فأرادوا التخلص منه ومن أعوانه ، وقد انفجر ذلك على شكل ثورة قادها مرداويج ؛ أحد كبار القادة فى جيش (أسفار) بالاتفاق مع (ماكان بن كالى) الموجود فى طبرستان ، وقد أيد الجيش هذه الثورة مما ساعد على نجاحها ، وكان جل اعتماد (مرداويج) على الديالة الذين ينتمى إليهم، فكانت أعدادهم كبيرة فى مدينة الرى، وقد انتهت هذه الثورة بمقتل (أسفار) ، وتسلم السلطة (مرداويج) ، وخضعت له جميع المدن التى كانت تحت نفوذ (أسفار) مثل قزوين وهمدان وقم وقاشان وغيرها، وقد بدأ (مرداويج) عهده بالعدل والإحسان إلى أهل مدينة الرى وأعمالها، ولكنه ما لبث أن انقلب فأحل الظلم والطغيان محل العدل والتواضع ، فمن هذه الأعمال السيئة التى قام بها ، مصادرتة أموال بعض التجار، وسار على نهج (أسفار) فى الغرور والتكبر، فقد جلس على أسرة الذهب والفضة وكان يقول: أنا سليمان بن داود ، وعمد إلى التنكيل بأهل الرى ولم يتورع عن قتل النساء وحتى الصبيان والأطفال فى المهد، ووضع الحجاب ، فابتعد عنه الناس خوفاً من بطشه ، وحتى صديقه ورفيقه فى الثورة (ماكان بن كالى) لم يسلم من شره، فقد استولى على جرجان وطبرستان وطرد عنها (ماكان) (٦٤).

ومن الطبيعى أن يهتم (مرداويج) بالناحية العسكرية ، فقد كون له قوة عسكرية كبيرة. وبذل الأموال بسخاء على جنده ليضمن ولائهم، فهذه الأموال التى تدخل خزائن (مرداويج)

كان مصدرها غنائم الحروب، من جراء ما كان يقوم به من غزو جيرانه، فقد هاجم همذان واحتلها وقتل الكثير من أهلها، ونهب أموالهم وسبى نساءهم وأحرق محلاتهم، ولم يتمكن جيش الخليفة المقتدر أن يصنع شيئاً ، فاذعن له أهلها بالطاعة ، كما احتل بلاد الجبل ووصلت جيوشه إلى مدينة حلوان ، ومن جراء هذا الغزو تكدست الأموال في خزائنه (٦٥)، ونظير هذه الأموال لم نجد (لمرداويج) أى اهتمامات تذكر فى النواحي العمرانية التى يستفيد منها العامة والخاصة من أهل مدينة الري، كذلك لم نجد له اهتماماً بالنواحي الاقتصادية ؛ كالزراعة أو الصناعة أو التجارة، بل كان جل اهتمامه منصباً على الناحية العسكرية.

ويلاحظ أن نفوذ (مرداويج) لم يكن قوياً على المدن البعيدة عن مدينة الري، لذلك كانت تتفصل عنه كلما سمحت الظروف بذلك، ففي سنة (٣٢١هـ / ٩٣٣م) قام (مرداويج) بغزو جرجان بهدف إعادتها إلى نفوذه، وكان ذلك بتحريض من وزيره مطرف بن محمد ، وكانت تحت نفوذ السعيد نصر بن أحمد السامانى، وقد اكتشف (مرداويج) فى اللحظة الأخيرة أن وزيره كان يتآمر عليه بتواطئه مع جماعة موالية لنصر السامانى، فاعتقله وأمر بقتله، ولما وجد أنه لا طاقة له بمحاربة السعيد نصر ، كما أنه فى ذات الوقت فى وضع لايمكنه من العودة، اضطر إلى طلب الصلح من السعيد نصر على أن يدفع مقداراً من المال مقابل حماية مدينة الري ودرء الخطر عنها (٦٦).

ومن الأعمال العسكرية التى قام بها (مرداويج)، احتلاله لمدينة إصفهان فى سنة (٣٢١هـ) ومنها توجه إلى مدينة الأهواز (٦٧) فى سنة (٣٢٢هـ / ٩٣٣م) حتى يقطع الطريق أمام عماد الدولة بن بويه (٦٨)، الذى كان ينوى الذهاب إلى الخليفة الراضى بالله، وهو محمد بن جعفر المقتدر ببغداد (٦٩)، ويذكر ابن مسكويه أن الخليفة بعث برسالة إلى (مرداويج) يطلب منه التخلّى عن إصفهان مقابل الاعتراف له بالشرعية لولاية مدينة الري وأعمالها والجبل، فأبدى (مرداويج) الموافقة على طلب الخليفة (٧٠). وفى ذات الوقت طلب الخليفة من قائده محمد بن ياقوت الموجود بمدينة واسط بأن لايدع (مرداويج) يحتل مدينة الأهواز ، فتوجه ياقوت نحو مدينة الأهواز، وهناك دار قتال بين الطرفين أسفر عن هزيمة (مرداويج) وقتله فى هذه المعركة (٧١)، وبهذه الخطة التى رسمها الخليفة الراضى يكون قد فوت الفرصة على (مرداويج) وتخلص منه نهائياً ، بينما يذكر ابن مسكويه أن الأتراك هم الذين قتلوا (مرداويج) وهو فى الحمام (٧٢).

ولابد لنا من الإشارة إلى الأوضاع السياسية التي تقع خارج مدينة الري، لأنها، أي مدينة الري، تتأثر وتتفاعل سياسيا مع جيرانها وحتى مع المدن البعيدة عنها، فما يجري في مدينة الري من أحداث ووقائع يتصل إتصالا وثيقا بالأجواء السياسية المحيطة بها .

ويعلق ابن طباطبا على الوضع السياسي القائم إبان هذه الفترة من خلافة الرازي في سنة (٣٢٢هـ) حيث الإنقسامات والإنفصالات والاستقلالات بحكم الولايات عن الخلافة العباسية، فيقول : أن الخلافة قد ضعف أمرها، فخراسان بيد السامانيين وبلاد فارس يسيطر عليها بنو بويه، ومدينة الري وإصفهان والجبل بيد الحسن بن بويه، والموصل وديار بكر وديار ربيعة بيد الحمدانيين (٧٣)، فكما هو واضح فإن السلطة قد انتزعت من يد الخليفة في هذه المناطق التي أشرنا إليها.

ويذكر ابن الأثير أنه بعد مقتل (مرداويج) استولى على السلطة بالري أخوه (وشمكير بن زيار) (٧٤)، وقد كانت الحروب مع بني بويه الذين أخذ نفوذهم يتنامى ويتعاظم في الأجزاء الشرقية من الخلافة العباسية، ففي سنة (٣٢٧هـ / ٩٣٨م) قام (وشمكير) بغزو مدينة إصفهان ، وكان المتولى عليها أبو الحسن بن بويه، الملقب بركن الدولة ، فتمكن (وشمكير) من احتلال المدينة وطرده بني بويه عنها (٧٥).

وفي أثناء النزاع الدائر ما بين (ماكان بن كالي) المتولى على جرجان وبين الأمير السعيد نصر بن أحمد الساماني أمير خراسان في محرم سنة (٣٢٨هـ / ٩٣٩م)، كان (وشمكير) قد اتخذ موقفا أيد فيه (ماكان بن كالي) ، فقد أمدّه بالمساعدات العسكرية، ولكن القائد الساماني (أبا علي محتاج) استطاع أن يحقق النصر على (ماكان بن كالي) ، فاحتل جرجان، فهرب (ماكان) إلى طبرستان (٧٦). كذلك تمكن ركن الدولة أبو علي الحسن بن بويه من إعادة نفوذه على مدينة إصفهان في سنة (٣٢٨هـ) ، وأخذ ركن الدولة يعمل على احتلال مدينة الري وسائر أعمالها ، ووجد أنه لا يتم له ذلك إلا بالتخلص من (وشمكير)، لذلك فإنه اتصل بأخيه عماد الدولة كي ينسق معه حتى يتم تحقيق هذا الغرض (٧٧)، واتصل ركن الدولة بالقائد الساماني أبي علي محتاج يحرضه على غزو الري، وقد أظهر استعداداه على مساعدته عسكريا، فركن الدولة يريد أن يحقق من وراء ذلك هدفين ، الأول : إضعاف (وشمكير) إذا ما دخل في حرب مع أبي علي محتاج . ثانيا : إذا ما تحقق النصر لأبي علي محتاج واحتل الري فهو لا يشكل خطرا عليهم كما هو الحال مع (وشمكير) ، فضلا عن أن القائد محتاج كان حليفا لهم، وهو في ذات الوقت أضعف من أن يدير السلطة بالري وأعمالها، بالإضافة إلى ما بيده من ولاية خراسان وجرجان ، فهذا سوف يمكن ركن الدولة من تحقيق هدفه، وهو احتلال الري (٧٨).

فأخذ ركن الدولة يحيى الخطة ويديرها حتى أنه أقنع القائد أبا علي محتاج، وربما كانت قناعة أبي علي محتاج بدافع من الرغبة في السيطرة على مدينة الري، فتوجه في سنة (٣٢٩هـ / ٩٤٠م) نحو الري، واستعد (وشمكير) للقائه وطلب من حليفه (ماكان بن كالي) الموجود بطبرستان المساعدة، فلبى طلبه، ودارت بين الطرفين معركة عنيفة أسفرت عن انتصار أبي علي محتاج، وقتل (ماكان بن كالي) وهرب (وشمكير) من الري، ودخل أبو علي محتاج المدينة^(٧٩)، وبعد مضي سنتين من إحتلال الري، عمد أبو علي محتاج إلى المدن المجاورة، مثل همذان وقزوین وقم واحتلها، ووصل إلى مشارف مدينة حلوان^(٨٠).

وقد مات الأمير السعيد نصر بن أحمد الساماني أمير خراسان، في سنة (٣٣١هـ / ٩٤٢م)، فرجع القائد أبو علي محتاج إلى خراسان، فاغتنم (وشمكير) هذه الفرصة وانقض على الري واحتلها، ولكن بنى بويه كانوا له بالمرصاد، وهما ركن الدولة وأخوه عماد الدولة، اللذان كانا يخططان من قبل لإحتلال مدينة الري، فلم يدعاه يهنأ طويلاً بإحتلالها، ومما شجعهما على ذلك ما نمت إلى علمهما من ضعف قدراته العسكرية، لذلك قاما بمباغتته واحتلال المدينة^(٨١).

ولكن الأمير الساماني الجديد وهو نوح بن أحمد بن نصر، الذي خلف أباه على الإمارة، قرر إعادة مدينة الري من بنى بويه، لذلك فقد بعث قائده أبا علي محتاج في سنة (٣٣٢هـ / ٩٤٤م) على رأس قوة عسكرية من العساكر الخراسانية إلى مدينة الري، وقد لجأ (وشمكير) إلى الأمير نوح الساماني، مستأئماً، فأحسن إليه وبألف في إكرامه، أما أبو علي محتاج فإنه خسر المعركة أمام بنى بويه، والسبب الرئيسي في هزيمته خيانة أتباعه^(٨٢).

وفي شهر صفر من سنة ٣٣٣هـ بعث الأمير نوح ب نصر الساماني جيشاً بقيادة (وشمكير) إلى جرجان بقصد احتلالها، وكان يتولاها الحسن بن فيزران، وقد احتلها^(٨٣). وفي ذات الوقت أعد الأمير نوح جيشاً آخر بقيادة أبي علي محتاج لغزو الري، ولما علم ركن الدولة بكثافة أعداد جنوده القادمة، ترك الري فاستولى أبو علي محتاج عليها وعلى منطقة الجبال في شهر رمضان سنة ٣٣٣هـ^(٨٤).

هذا الانتصار الذي حققه القائد أبو علي محتاج، جعل المخاوف والشكوك تساور الأمير نوح الساماني من قائده، فأراد أن يحد من سلطانه، فجعل نفوذه مقتصرًا على الري ومنطقة الجبال فقط بعدما كان نفوذه يمتد إلى خراسان، وقد فطن القائد أبوعلي محتاج إلى نوايا

الأمير نوح ، ولم يكتف الأمير نوح بذلك، بل بعث بشخص إلى مدينة الري وأعطاه صلاحيات واسعة في ممارسة بعض الأعمال داخل مدينة الري، والغرض من ذلك هو الحد من سلطات ونفوذ القائد أبي على محتاج، هذه الشخصية التي أرسلها الأمير نوح قد أساءت كثيرا إلى الجند في تنفيذ معاملاتهم ومطالبهم وتوزيع أرزاقهم ، فتضايقوا منه واتفقوا على طرده من بلادهم، وقد أطلعوا القائد أبا على محتاج على ذلك، وطلبوا منه المساعدة ، ولكنه امتنع فهددوه بالقبض عليه فأجابهم إلى طلبهم^(٨٥).

وهذا العمل يعتبر في حد ذاته تمردا على السلطة السامانية في مدينة الري، وكان لهذا التمرد أبعاد وصلت إلى مدينة خراسان ، فقد قام أهلها باقصاء أميرهم نوح عن السلطة وتعيين عمه إبراهيم بن أحمد بن إسماعيل ، ولكن فوجئ أهل خراسان أن أميرهم إبراهيم لا تتوفر فيه الكفاءة والمقدرة للحكم، وعجز عن إدارة الأمور، وقد أحس الأمير بذلك، فاتفق سرا مع جماعة على خلع نفسه عن الإمارة، هذه الأجواء المضطربة كانت فرصة أمام نوح بن نصر للعودة إلى الإمارة، وقد نجح بالفعل وأعاد نفسه إلى السلطة^(٨٦).

وبعد أن استقرت الأوضاع في خراسان أراد الأمير نوح أن يقتص من قائده الخائن ، أبي على محتاج ، الذي تسبب في حدوث الاضطرابات في مدينة الري، فبعث إليه العساكر لقتاله، فاستعد أبو على محتاج للقتال ، ودارت بينهما معارك طويلة كان آخرها في سنة (٣٣٧هـ / ٩٤٨م)، هذه الحروب ذكرها ابن الأثير، الذي يقول : إنه اعتمد على المصادر الفارسية في نقل هذه الوقائع ولكن دون أن يشير إلى أسماء هذه المصادر^(٨٧).

البويهيون يسيطرون على الري وسائر أعمالها :

لقد استغل ركن الدولة بن بويه هذه الحروب الدائرة بين أبي على محتاج وبين الأمير نوح ابن نصر الساماني، وكان لركن الدولة من القوة ما مكنه من إحتلال مدينة الري وسائر أعمالها، مثل منطقة الجبل وبلاد فارس والأهواز، وأزال عنها النفوذ الخراساني ، فأصبح بنو بويه يشكلون قوة عسكرية كبيرة في مدينة الري وفي باقي المدن^(٨٨). فمدينة الري التي أصبحت وهي في ظل حكم أبي على بن بويه مناوئة للأمير نوح بن نصر الساماني أمير خراسان وما وراء النهر، فحل العداء بين الجانبين، فقد كان ركن الدولة يؤيد الحركات المناوئة للأمير نوح ويساعدها بقصد إضعافه ، من ذلك أنه في شهر رجب سنة (٣٣٦هـ / ٩٤٧م) أيد

حركة محمد بن عبد الرزاق، وهو من المعارضين للأمير نوح، وأمهه بالأموال، وكان محمد قبل خروجه على الأمير نوح يتولى أعمال مدينة طوس وتوابعها؛ وطوس تقع في الشمال الشرقي من إيران^(٨٩).

وأخذ ركن الدولة يعمل على تعزيز نفوذه بمدينة الري وأعمالها، فأسس له قوة عسكرية كبيرة كان الغرض منها المحافظة على حدوده، أو التوسع على حساب جيرانه كلما سمحت الفرصة بذلك. ففي ربيع الأول سنة (٣٣٦هـ) اتفق مع الحسن بن فيزران، الذي كان أميراً على جرجان لاحتلال مدينة طبرستان، وكان يتولاها (وشمكير) أمير الري السابق، فاحتلها وهرب (وشمكير) إلى خراسان طالبا المساعدة لإعادة نفوذه، وقد واصل ركن الدولة غزواته فاحتل مدينة جرجان أيضا^(٩٠).

هذه الانتصارات الناجحة التي حققها ركن الدولة قد أثارت حفيظة السامانيين حكام خراسان وما وراء النهر، فأخذوا يعملون للحد من قوته، فقد بعث الأمير نوح الساماني قائده وصاحب جيوشه، منصور بن قرتكين على رأس قوة عسكرية كبيرة يصحبه (وشمكير)، فاستعد ركن الدولة للقائهم، فطلب المساعدة من أخيه معز الدولة، الذي كان حاكما على بغداد خلال هذه الفترة، وكانت علاقته بأخيه طيبة وثيقة يسودها الاحترام، إلا أن معز الدولة كان مشغولا في حربه مع ناصر الدولة حاكم الموصل، فأضطر إلى طلب المصالحة مع ناصر الدولة حتى يتسنى له إرسال المساعدات إلى أخيه ركن الدولة، فهبأ العساكر وبعثها إلى أخيه، ولكن لم يحدث قتال لأن الجيش الخراساني المتجه صوب الري، توقف عند مدينة جرجان ولم يذهب إلى الري لوقوع خلافات بين القائد منصور بن فراتكين وبين الأمير نوح بن نصر الساماني، وذكرنا أن أسباب هذه الخلافات تتصل بقضايا أسرية، هذه الأوضاع دفعت القائد منصور إلى مصالحة الحسن بن فيزران أمير جرجان السابق وسلمه المدينة^(٩١).

وفي الحقيقة فإن تحرك العساكر الخراسانية لغزو مدينة الري قد شجع أمراء آخرين القيام بغزوها، من ذلك ما قام به المرزبان محمد بن مسافر حاكم أذربيجان فقد قرر غزوها، لاسيما وأن هناك نوافع أخرى قد شجعتة على ذلك منها : أولا- العداء الذي كان بينه وبين معز الدولة أخى ركن الدولة، فقد أهان معز الدولة رسل المرزبان. ثانيا أن عددا من قوات ركن الدولة وأفراد جيشه المنشقين عليه لجأوا إلى المرزبان محمد بن مسافر، وقام هؤلاء القواد المنشقين بتحريض المرزبان محمد وسهلوا له عملية غزو الري، وقالوا: بأن معظم قادة الجيش

بمدينة الري يميلون إليه ؛ أى إلى المرزبان . ثالثا - أن حاكم الموصل ناصر الدولة قد بعث برسالة إلى المرزبان محمد يعده فيها بتقديم المساعدات العسكرية إن هو قام باحتلال الري^(٩٢).

هذه الأمور قد أكدت العزيمة فى نفس المرزبان محمد، على غزو مدينة الري، ولكن يجب أن نتنبه إلى أن المساعدات العسكرية التى يريد ناصر الدولة تقديمها للمرزبان محمد لم تكن لوجه الله أو حبا فى المرزبان، وإنما هذه المساعدات تسيرها مصالح سياسية، فقد أراد ناصر الدولة إلهاء البويهيين فى هذه الحروب حتى يتيسر له تثبيت نفوذه على الموصل وباقى المناطق المجاورة ، وفى ذات الوقت فإن استمرارية هذه الحروب التى يخوضها البويهيون مع جيرانهم سوف تؤدى إلى إضعافهم.

إن المرزبان محمد قد أعد نفسه عسكريا وعزم على الذهاب لغزو مدينة الري، وقبل خروجه أحضر والده وأخاه المدعو (هسودان) ، يستشيرهما فى أمر الغزو، فمنعه والده عن الخروج، ولكن الابن أصر على الذهاب، فودعه الأب وبكى وقال فى توديعه : (يا بنى أين أطلبك بعد يومى هذا ؟ قال : إما فى دار الإمارة بالري وإما بين القتلى)^(٩٣).

وعند وصول جيش المرزبان إلى مشارف مدينة الري لم يكن ركن الدولة فى وضع يمكنه من منازلة المرزبان ، فلجأ إلى الحيلة ريثما يأتیه المدد من أخويه عماد الدولة المتولى على فارس ومعز الدولة المتولى على بغداد، فقد كان ركن الدولة قد طلب منهما المساعدة، لذلك فإنه أظهر للمرزبان التنازل عن بعض المدن، مثل : زنجان وأبهر وقزوین ، وقد انطلقت هذه الحيلة على المرزبان ، ولكن ركن الدولة سرعان ما انقلب على المرزبان ونقض الاتفاق ساعة وصول الإمدادات العسكرية، وبادره بالقتال ، فانهزم جيش المرزبان ووقع أسيرا فى يد ركن الدولة^(٩٤).

ومن الملاحظ أن بنى بويه الأخوة الثلاثة وهم: ركن الدولة ومعز الدولة وعماد الدولة، كانوا متعاونين متحابين مما ساعد على قهر أعدائهم ، ومما يدل على هذا التواد والتواصل بين هؤلاء الإخوة، أن معز الدولة قبل أن يرسل جيوشه إلى أخيه ركن الدولة بمدينة الري، أخذ عهدا من الخليفة العباسى المطيع لله، وهو أبو القاسم الفضل بن جعفر، لأخيه ركن الدولة بأن يجعله أميرا على خراسان وتوابعها إذا ما تم له الانتصار على القوى المعارضة هناك، فوافق الخليفة على هذا الطلب^(٩٥).

أما عماد الدولة المتولى على بلاد فارس ، وكان يقيم بشيراز (٩٦)، فإنه لما أحس بدنو أجله ولم يكن له وريث يرثه، بعث إلى أخيه ركن الدولة فى سنة (٣٣٨هـ / ٩٤٩م) يطلب منه أن يرسل إليه ابنه عضد الدولة ليتولى الأمر بشيراز، وقد تولى عضد الدولة الإمارة بشيراز بعد وفاة عمه (٩٧). وعلى هذا تكون أملاك ركن الدولة فى سنة ٣٣٨هـ تشمل مدينة الري والجبـال وإصفهان وهمدان يضاف إليها شيراز التى يتولاها ابنه عضد الدولة (٩٨).

وفى سنة (٣٣٩هـ / ٩٥٠م) اضطر ركن الدولة ترك مدينة الري والذهاب إلى مدينة شيراز للقيام بتهدة الوضع هناك ، وقد استغل الأمير الخراسانى نوح بن نصر فرصة غياب ركن الدولة عن الري، خاصة وأن نائب ركن الدولة ، وهو على بن كامه كان ضعيفا ، فوصلت الجيوش الخراسانية بقيادة منصور بن قراتكين واحتل المدينة، فهرب على بن كامه إلى مدينة إصفهان ، فدخل القائد منصور المدينة، وقد كان أهل الري يكرهون الخراسانية ، فأمر القائد منصور بتوزيع جنده فى جميع أرجاء المدينة لإحكام سيطرته، ثم عمد إلى بلاد الجبل وقرميسين فاحتلها وأجلى عنها نواب ركن الدولة، كما استولى على همدان (٩٨).

وقد طلب ركن الدولة وهو بشيراز المساعدة من أخيه معز الدولة ، وصلت على وجه السرعة العساكر المؤلفة من الديالة والأتراك والعرب بقيادة (سبكتكين)، وخرجت هذه القوة من بغداد إلى المواقع التى يحتلها القائد الخراسانى منصور، وقد دارت بين الجانبين حروب طويلة تمكنت بعدها الجيوش البويهية من استرجاع بعض المدن، إلا أنها عجزت عن استرجاع مدينة الري (٩٩).

وفى سنة (٣٤٠هـ / ٩٥١م) توفى القائد الخراسانى منصور بن قراتكين، وكان لموته أثر فى إضعاف القوى الدفاعية فى الجيش الخراسانى، وما رافق من ذلك حدوث اضطرابات فى صفوف الجيش، وقد أدى ذلك إلى انسحاب العساكر الخراسانية من مدينة الري إلى مدينة نيسابور ، ولكى يحافظ الأمير الخراسانى نوح بن نصر على وجوده فى مدينة الري ، أرسل على وجه السرعة القائد السابق أبا على محتاج للقيام بأعمال منصور بن قراتكين ، وأقطعه الري وأمره بالإسراع والجد فى المسير (١٠٠)، ولكن ركن الدولة كان أسرع منه فسبقه فى الوصول إلى الري، فأعاد نفوذه عليها وعلى معظم أعمالها، وفى سنة (٣٤١هـ / ٩٥٢م) انتقل ركن الدولة من الري إلى مدينة نسا (١٠١)، وأقام فيها لفترة ، وعمل خلال وجوده على تثبيت نفوذه هناك ثم عاد إلى مدينة الري، واستخلف على جرجان الحسن بن فيزران يساعده فى عمله، على بن كامه (١٠٢).

وكانت الدولة السامانية خلال هذه الفترة تخطط للإيقاع بالبويهيين ، وكانت تتربص بهم الدوائر ، محاولة بذلك القضاء على نفوذهم فى هذه الأقاليم، فلما عاد ركن الدولة إلى الرى توجه (وشمكير) إلى جرجان على رأس قوة عسكرية ، بأمر من الأمير نوح بن نصر السامانى أمير خراسان ، فاحتل جرجان وانهزم عنها الحسن بن فيزران^(١٠٣)، وفى سنة (٣٤٢هـ/ ٩٥٣م) كتب (وشمكير) إلى الأمير نوح يطلب منه المساعدة لغزو الرى، فأمدته بقوة عسكرية من الجيوش الخراسانية يقودها أبوعلى محتاج، وقد أدرك ركن الدولة فداحة هذه الجيوش، إلا أنه استعد للقائهم ، فخرج من المدينة إلى موضع يقال له طبرك ؛ وهو موقع حصين ، فالتقى بالجيوش الخراسانية ، واستطاع الصمود وقد طالت الحرب بينهما وحل فصل الشتاء فسئما القتال واتفقا على الصلح، وقد تبودلت بينهما الرسل فى هذا الصدد، وكان أبوجعفر الخازن العالم الرياضى والفلكى رسولا لركن الدولة، ومن نتائج هذا الصلح التزام ركن الدولة بدفع مائتى ألف دينار فى كل عام للأمير نوح بن نصر السامانى، فانسحبت الجيوش وعاد أبو على محتاج إلى خراسان، ولكن (وشمكير) اتهم القائد أبا على محتاج بالتواطئ مع ركن الدولة ، وكتب إلى الأمير نوح بذلك، فأمر بعزل القائد أبا على عن قيادة الجيوش الخراسانية ، وتولاها أبوسعيد بكر بن مالك ، وبذلك أصبح (وشمكير) بمفرده يواجه جيوش ركن الدولة، فاضطر إلى الانسحاب إلى منطقة تسمى إسفراين فاحتل ركن الدولة مدينة طبرستان^(١٠٤).

أما أبو على محتاج فإنه قدم اعتذاره إلى الأمير نوح وطلب الصفح عنه، ولكن الأمير نوح لم يقبل الاعتذار ، فأحس محتاج بالخطر يهدده لاسيما من أتباع الأمير نوح، فطلب اللجوء إلى الأمير ركن الدولة البويهى، فرحب ركن الدولة ولم يتردد فى قبول لجوئه^(١٠٥). وقد سعى الخليفة العباسى المطيع للتوسط فى الصلح بين ركن الدولة وبين الأمير نوح ، وقد أرسل وفدا لهذا الغرض ، ولما وصل الوفد عند مشارف مدينة حلوان تعرض لقطاع الطرق، وهم من الأكراد يتزعمهم ابن أبى الشوك ، فنهبوا أموالهم وأسروهم ، ثم أطلقوا سراحهم ، فبعث معز الدولة بعساكره وقتك بهؤلاء اللصوص، فأمن الطريق وزال خطرهم^(١٠٦).

ويبدو أن وفد الوساطة لم يذهب إلى خراسان أو الرى، بدليل أنه فى سنة (٣٤٣ - ٩٥٤م) تم الاتفاق بين أبى على محتاج الموجود بالرى فى ضيافة ركن الدولة وبين الخليفة العباسى المطيع لله، على أن يقوم أبو على محتاج بمحاربة السامانيين، وإذا ما تحقق له النصر يكون أميرا على خراسان باسم الخلافة العباسية، فتوجه أبوعلى محتاج نحو خراسان واحتل نيسابور ، وأمر بالخطبة للخليفة المطيع ، ومن بعدها احتل خراسان^(١٠٧).

وفى سنة (٣٤٣هـ) توفى الأمير نوح بن نصر الساماني وخلفه على الإمارة ابنه عبد الملك ابن نوح الساماني الذي كان بمدينة بخارى، وقد صمم الابن على إخراج ابن محتاج من خراسان ، فأعد الجيوش لهذا الغرض وجعل قيادتها بيد بكر بن مالك، فتوجه نحو خراسان، فانهزم ابن محتاج ولجأ إلى مدينة الري عند ركن الدولة، ودخل القائد بكر بن مالك مدينة خراسان، وقد عمل ركن الدولة على تأمين حدوده مع خراسان خوفاً من تحركات الأمير الساماني عبد الملك بن نوح ، لذلك فإنه غزا جرجان واحتلها دون حدوث قتال، وكان بها (وشمكير) فهرب إلى خراسان لاجئاً (١٠٨).

وقد حدث ما كان يتوقعه ركن الدولة، ففي سنة (٣٤٤ هـ / ٩٥٥ م) تحركت العساكر الخراسانية نحو الري لغزوها ، فأسرع وبعث إلى أخيه معز الدولة ليمده بالمساعدات ، فجاءت العساكر من بغداد يقودها الحاجب (سبكتين)، أما الجيوش الخراسانية فإنها تعرضت إلى النهب والسلب عند وصولها مشارف مدينة إصفهان التي كان يتولاها من قبل البويهيين أبو منصور بن ركن الدولة، وعمل ركن الدولة على تجنب المصادم العسكرية، فقد أرسل إلى بكر ابن مالك قائد الجيوش الخراسانية وأقنعه بعدم جدوى هذه الحروب ، فاستصوب رأيه واصطلحاً على ما يلي: أولاً- يتعهد ركن الدولة بدفع مبلغ من المال مقابل ولايته على الري ومنطقة الجبل بأسرها. - ثانياً - يضمن ركن الدولة لبكر بن مالك قائد الجيوش الخراسانية بولاية خراسان، وهذا الشرط الأخير يعطى مؤشراً على أن لركن الدولة أطماع في خراسان ، وقد وافق معز الدولة حاكم بغداد على ذلك ، وبهذه الطريقة تمكن ركن الدولة من أن يصرف عنه القتال، وعمل في ذات الوقت على إفساد العلاقة بين القائد بكر بن مالك وأمير خراسان عبد الملك بن نوح الساماني (١٠٩).

وقد تعرضت مدينة الري وسائر أعمالها في سنة (٣٤٤هـ) إلى وباء عظيم مما أدى إلى انتشار الأمراض والأوبئة فماتت من جراء ذلك أعداد كبيرة من الناس، وكان القائد أبو علي محتاج ضمن ضحايا هذا الوباء (١١٠)، كذلك في سنة (٣٤٦ / ٩٥٧ م) ضرب مدينة الري زلزال عنيف مات على أثره ناس كثير، فلا يستبعد أن لهذه الأوبئة والزلازل آثارها السلبية على الحياة السياسية والاجتماعية في مدينة الري (١١١)

وقد أشرنا من قبل أن أبناء بنو بويه، وهم : ركن الدولة المتولى على الري وأعمالها، وعماد الدولة المتولى على فارس، ومعز الدولة حاكم بغداد، كانت تربطهم علاقة قوية من المودة والمحبة

والاحترام ، فجميعهم كان يسمع ويطيع لعماد الدولة، وهو الأخ الأكبر، ولما مات انتقلت هذه الخصوصية إلى ركن الدولة، حاكم مدينة الري، فكانت سلطاته تمتد حتى خارج نطاق حدوده الجغرافية ، لاسيما في النواحي الروحية والمعنوية ، فكان رجال الدين يخطبون له في مكة المكرمة والمدينة المنورة، يدعون له أولا ثم لأخيه الأصغر معز الدولة (١١٢)، هذا النفوذ السياسى العريض الذى حظى به بنى بويه كان على حساب نفوذ السلطة العباسية الضعيفة المتهاكمة زمن الخليفة الراضى والخلفاء الذين أعقبوه (١١٣).

وفى سنة (٢٤٨ / ٩٥٩م) تمت المصاهرة بين أبناء ركن الدولة وأبناء معز الدولة، فقد ذهب مؤيد الدولة بن ركن الدولة إلى بغداد ليتزوج من ابنة عمه معز الدولة ، ثم يعود بها إلى مدينة السرى (١١٤) . وفيما يتعلق بآل سامان فقد توفى الأمير السامانى عبد الملك بن نوح أمير خراسان فى سنة (٣٥٠ / ٩٦١م) وتولى بعده أخوه منصور بن نوح (١١٥).

وقد كان ركن الدولة دائم اليقظة والحرص فى المحافظة على حدوده ، وفى سنة (٣٥١ / ٩٦٢م) قام بغزو طبرستان ليزيد فى تحصيناته ، وكان يتولاها (وشمكير) ، فرحل عنها إلى جرجان قبل مجيئ ركن الدولة ثم غزا جرجان واحتلها ، وانضمت إليه أعداد كبيرة من جيش (وشمكير) ، بلغ عددها نحو ثلاثة آلاف، وقد أدى ذلك إلى إضعاف قوة (وشمكير) ، وتعاضم قوة ركن الدولة ، فترك (وشمكير) جرجان وذهب إلى منطقة الجبل وتحصن بها ، وكان إلى جانب اهتمام ركن الدولة فى النواحي السياسية والعسكرية، فإنه فى ذات الوقت لم يهمل النواحي الحضارية والعمرانية ، فقد قام بالعمل على تحسين الحياة الاقتصادية بمدينة الري وفى سائر أعمالها (١١٦).

وكانت الدولة السامانية التى تسيطر على خراسان تعمل جاهدة لاستعادة نفوذها على مدينة الري ، فكانت على الدوام تستفز البويهيين ، إلا أن محاولاتها كانت دائما تبوء بالفشل بسبب يقظة ركن الدولة وذكائه ، ومن الأهداف الرئيسية التى تخطط لها الدولة السامانية هو الاحتفاظ بمدينة الري ذات الموقع التجارى الهام وذات الخراج الكبير الذى يشكل موردا هاما تستفيد منه الدولة السامانية (١١٧)، هذا فضلا عن موقعها الهام المتميز فى الجوانب العسكرية والسياسية ، فهى المدخل الرئيسى إلى خراسان، فمن يمتلك مدينة الري فإنه بإمكانه السيطرة على الممرات التجارية والعسكرية لاسيما مع خراسان (١١٨)، وفى رمضان سنة (٣٥٥ / ٩٦٥م) قامت الدولة السامانية بمحاولة لغزو مدينة الري، فخرجت العساكر الخراسانية، وكان

عندها يربو على العشرين ألفا واتجهت صوب الرى، وقد أظهروا أنهم يريدون الجهاد فى سبيل الله ضد الروم ، ولكن وزير ركن الدولة ، أبا الفضل بن العميد حذر الأمير ركن الدولة بسوء نواياهم وعدم صدقهم وقد وصلت هذه الجيوش إلى مدينة الرى ، واجتمعوا بالوزير ابن العميد وطلبوا منه الأموال لينفقوها على الجنود المجاهدين، وخاطبوه بشدة وغلاظة ، فوعدهم بإعداد المال، وقالوا: نحن نريد خراج الرى بأكمله، فنحن غزاة أحق بالمال منكم، وبخل الجند المدينة واعتدوا على أهلها، كل ذلك باسم الدين والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وقد أثاروا الفتنة والفرع بين الناس، ولم يكفهم ذلك، بل عمدوا إلى دار الوزير ابن العميد ونهبوها ، ثم استعدوا لمحاربة الأمير ركن الدولة الذى لم يكن فى وضع يمكنه من القتال ، فلجأ إلى الحيلة معهم وقد نجح فى ذلك وفوت الفرصة عليهم وأبعدهم عن بلاده (١١٩).

وفى أواخر سنة (٣٥٦ هـ / ٩٦٦ م) وأوائل سنة (٣٥٧ هـ / ٩٦٧ م) قام الأمير السامانى منصور بن نوح بمحاولة أخرى لغزو الرى، وكان ذلك بتحريض من أبى على بن الياس، وهو أحد القارين من عضد الدولة بن ركن الدولة الذى كان يتولى كرمان من قبل أبيه، فقد لجأ مستأمنا عند الأمير السامانى منصور بن نوح، فأمنه ما دام عدوا لركن الدولة وابنه عضد الدولة ، وقد حُبب إليه هذا غزو مدينة الرى، وأظهر للأمير منصور أن قادة الرى غير مخلصين لركن الدولة، يضاف إلى ذلك تفشى الرشاوى بين القادة، فوجد الأمير منصور بن نوح أن كلامه مطابقا لكلام (وشمكير) الذى كان يوافيه على الدوام بالتقارير عن الأوضاع بمدينة الرى وأعمالها، فشجعه ذلك على الغزو، فتحركت عساكره بقيادة أبى الحسن محمد بن إبراهيم بن سيمجور الدوائى قائد الجيوش، وطلب فى نفس الوقت من (وشمكير) ومن الحسن بن الفيزران أن يعدوا جيشا ويلحقوا بالجيوش الخراسانية، وقد فوجئ ركن الدولة بهذه الجموع المتجهة إليه، فخاف على أسرته فأجلاهم إلى إصفهان ، واستعد هو للحرب، فطلب من ابنه الموجود بكرمان أن يمدّه بالعساكر ، كما طلب من ابن أخيه بختيار بن معز الدولة حاكم بغداد المساعدة، وقد وصلت على الفور جيوش ابنه عضد الدولة، بينما عساكر بختيار تأخر وصولها ، وكادت الحرب تقع بين الطرفين لولا موت (وشمكير) المفاجئ ، وما ترتب عليه من تمرد الجند فى صفوف العساكر الخراسانية ، هذه الأحداث كفت ركن الدولة شر القتال ، وخلف (وشمكير) على القيادة ابنه (بيستون)، واستطاع الأمير ركن الدولة البويهى بسياسته الرصينة استمالة القائد (بيستون) إلى جانبه واتفقا على الصلح، وقد أمدّه ركن الدولة بالمال والرجال، وفى هذا ما يدل على تحسن العلاقة بينهما (١١٩).

ولقد استغلت بعض العناصر المعارضة لركن الدولة حالة الحرب هذه ، فقامت بالتمرد والعصيان على السلطة المركزية بالرى، ففي طبرستان الخاضعة لنفوذ الرى خلال هذه الفترة، تزعم حركة التمرد فيها شخص يدعى، نوح بن نصر ، إلا أن موته المفاجئ أطفأ هذه الحركة ، وكذلك فى همذان قامت حركة تمرد قادها أحمد بن هارون الهمذاني، ومن غرائب الصدف أن مصيرها كمصير أختها حيث انتهت بموت قائدها، ولكن هذا الموت المفاجئ للقائدين وبنفس الطريقة ليثير الشك والريبة بأن موتهما كان مديراً (١٢٠).

وعلى العموم فإن هذه الحروب التى خاضها ركن الدولة مع الأمراء السامانيين ، والتى كادت أن تكون مستمرة ، كانت لها آثارها السلبية السيئة لاسيما على النواحي الأمنية بمدينة الرى وأعمالها، فقد نشطت حركة قطاع الطرق خلال هذه الحروب على يد شخص يدعى، حسنويه بن الحسين الكردي، فكان يتعرض لقوافل التجار وغيرهم من المسافرين بالتهب والسلب والقتل فى بعض الأحيان، فأصبح خطراً يهدد أمن الطريق، ولما سفت الفرصة لركن الدولة، بعث وزيره الفضل بن العميد فى سنة (٢٥٩هـ / ٩٦٩م) بالمسير إليه، ولكن الوزير مرض ومات بمدينة همذان، فخلفه ابنه أبو الفتح الذى قام بمصالحة حسنويه على مال يأخذه منه ثم عاد إلى الرى (١٢١).

إن المتتبع لسياسة ركن الدولة يلاحظ أنه كان حريصاً على استمرارية السلطة فى البيت البويهى، وكان همه الوحيد أن يكون هذا البيت محتفظاً بالسلطة، من ذلك أنه عارض ابنه عضد الدولة بشدة عندما أراد غزو بغداد والاستيلاء عليها والقبض على ابن عمه عز الدولة بختيار فى سنة (٣٦٤هـ / ٩٧٤م) فقد بعث إليه برسالة شديدة اللهجة يحذره فيها بما يترتب عليه من نتائج وخيمة ربما فيها ضياع ملك بنو بويه إذا ما استمرت هذه الأطماع بينهما (١٢٢).

كذلك لما أحس بدنو أجله جمع أولاده فى سنة (٣٦٦هـ / ٩٧٦م) ووزع الأعمال الإدارية بينهم فى مملكته ليتحاشى حدوث الخلافات بينهم، فقلد ابنه فخر الدولة أبا الحسن همذان وأعمال الجبل، ومؤيد الدولة مدينة الرى وإصفهان وأعمالها، أما عضد الدولة الابن الأكبر، فكان نصيبه كرمان وسائر بلاد فارس . وأوصاهم بأن على الجميع أن يسمع ويطيع أوامر عضد الدولة، فهو الذى يخلفه فى السيادة على جميع هذه المدن (١٢٣). وفى هذه السنة التى نتحدث عنها مات الأمير الساماني منصور بن نوح وتولى الإمارة ابنه نوح (١٢٤).

ويبدو من سير الأحداث أن لعضد الدولة أطماعاً ومصالح سياسية كبيرة، فكان الأمل يحده فى السيطرة على العراق، التى كانت تحت نفوذ ابن عمه عز الدولة بختيار، فقد أرسل

جيوشه إلى العراق واحتل العاصمة بغداد في سنة (٣٦٦ هـ / ٩٧٦ م) ، وطرد منها عز الدولة بختيار وأرغمه على التنازل عن الإمارة ، ولما اكتشف خيانة وزيره أبي الفتح بن العميد اتصل بأخيه مؤيد الدولة وكان أميرا على الري وأمره بسمل عيون أبي الفتح وقطع أنفه، فكان أبو الفتح آخر وزراء أبناء بيت ابن العميد (١٢٥).

كذلك فإن عضد الدولة لم يلتزم بوصايا والده ركن الدولة ، فقد اعتدى على أخيه فخر الدولة واستولى على مملكته في بلاد الجبل، لاثهامه بالتواطؤ مع ابن عمه عز الدولة بختيار (١٢٦). بينما كانت علاقته بأخيه مؤيد الدولة المتولى على الري وأعمالها طيبة، فقد كان مؤيد الدولة متعاوناً مع أخيه عضد الدولة ومما يدل على هذا الوثام والتعاون أنه بعث إليه في سنة (٣٧٠ هـ / ٩٨٠ م) رسولا يجدد له الطاعة والولاء (١٢٧).

وقد حافظ مؤيد الدولة بن ركن الدولة على تطبيق العدل في بلاده بمدينة الري وأعمالها ، فقد اختار القاضي عبد الجبار بن أحمد الموصوف بالعدل ليكون قاضيا على مدينة الري وقزوين وأبهر وزنجان وسهرورد (١٢٨)، وقم، وكان يسمى بقاضي القضاة (١٢٩)، وكان وزير مؤيد الدولة صاحب بن عباد؛ وهو إسماعيل بن أبي الحسن بن عباد بن العباس الطالقاني، وهو الوزير الموصوف بالحكمة والفضل والعدل والأدب، فقد استقامت أمور مؤيد الدولة بمدينة الري بفضل حكمة ودراية هذا الوزير، وقد سمي بالصاحب لطول صحبته لمؤيد الدولة حيث أنها كانت منذ الصبا (١٣٠).

وفي جمادى الآخرة لسنة (٣٧١ هـ / ٩٨١ م) استولى عضد الدولة على جرجان، وكانت تحت حكم (قابوس بن وشمكير) ، وحجته أن قابوس كان متعاوناً مع أخيه فخر الدولة لرفضه تسليم أخيه ، فكان مؤيد الدولة على رأس الجيش الذي احتل جرجان (١٣١). ولكن الأمير الساماني نوح بن منصور بن نوح أمير خراسان لم يدع عضد الدولة وأخاه مؤيد الدولة يحتفظان بجرجان، فقد اتفق مع (قابوس بن وشمكير) ومع فخر الدولة على غزو جرجان ، فخرجت العساكر الخراسانية تحت قيادة حسام الدولة أبي العباس تاش نحو جرجان ، وهناك دار قتال عنيف بين الجانبين، أسفر عن انتصار أمير مدينة الري مؤيد الدولة أخى عضد الدولة ، ولعل من أسباب هذا النصر خيانة القادة الخراسانيين لتواطئهم مع مؤيد الدولة (١٣٢).

وقد امتدت أطماع عضد الدولة الذي يتولى العراق وبلاد فارس إلى أملاك إخوته، فكثيراً ما كان يتدخل في شئون فخر الدولة وحتى حميمه مؤيد الدولة أمير مدينة الري، المتعاون معه

لم يسلم من أطماعه ، فكان يريد أن يجرده من سلطانه على مدينة الرى، إلا أن موت عضد الدولة فى شهر شوال سنة (٣٧٢هـ / ٩٨٢م) وضع حداً لمثل هذه الاعتداءات ، وخلفه على السلطة فى العراق ابنه صمصام الدولة (١٣٣). وفى ذات السنة فى شهر شعبان توفى أخوه مؤيد الدولة أمير مدينة الرى وأعمالها ، ولم يكن له وريث ، فقد سأل وزيره صاحب بن عباد قبل موته عن يكون على مدينة الرى، فلم يفصح بشئ، وعند وفاته طلب الوزير صاحب من فخر الدولة، وهو أخو مؤيد الدولة أن يأتى ليتسلم السلطة، وبذلك أصبح فخر الدولة أميراً على الرى وعلى جميع أعمالها. وكانت العلاقة بين فخر الدولة وبين ابن أخيه صمصام الدولة حاكم بغداد طيبة والتعاون بينهما كان وثيقاً (١٣٤). ولكن هذه الحالة لم تستمر طويلاً، فقد أخذ الخصام والنزاع طريقه بين أبناء عضد الدولة ، لاسيما بين صمصام الدولة حاكم بغداد وبين أخيه شرف الدولة المتولى على بلاد فارس وكرمان والأهواز ، وكان عمهم فخر الدولة المتولى على الرى وأعمالها يميل إلى جانب صمصام الدولة، وقد انتهى هذا النزاع بتغلب شرف الدولة وقام بالاستيلاء على بغداد وأبعد أخاه صمصام الدولة (١٣٥).

أما فخر الدولة فإنه ظل محتفظاً بمدينة الرى وأعمالها، كما ظل محتفظاً بالوزير صاحب ابن عباد، الذى كان وزيراً لأخيه مؤيد الدولة من قبل، فقد بعثه فى سنة (٣٧٧هـ / ٩٨٧م) إلى مدينة طبرستان لتهدئة الوضع هناك، فتمكن الوزير من إعادة الهدوء والاستقرار إلى المدينة، كما عمل على تثبيت نفوذ فخر الدولة هناك، وجعل حدود المدينة آمنة باستيلائه على بعض الحصون المتاخمة (١٣٦)، وفى قزوین المدينة القريبة من الرى ، وهى من أعمالها ، حدث فيها تمرد ضد فخر الدولة، وقاد هذا التمرد عاملها أبو منصور بن كوريكنج ، وقد أنهى فخر الدولة هذا التمرد بون إراقة دماء، وعالجه بحكمة ، ونجح فى إعادة عاملها المتمرد أبو منصور إلى الطاعة والولاء (١٣٧). وفى مدينة الدامغان ؛ وهى من أعمال الرى أيضاً، حدث تمرد قام به المتولى عليها نصر ابن الحسن بن الفيزران فى سنة (٣٧٨هـ / ٩٨٨م) ولكنه عاد إلى الطاعة والولاء بعد ما علم باستعدادات فخر الدولة لقتاله (١٣٨).

وقد قرر فخر الدولة فى سنة (٣٧٩هـ / ٩٨٩م) غزو العراق واحتلالها ، ولعل من الأسباب المشجعة التى دفعته إلى الغزو كما يذكرها ابن الأثير: أولاً - رغبة الوزير صاحب بن عباد السكنى فى بغداد، فإذا كان هذا السبب مقبولاً ، فإنه يدل على مكانة الوزير عند الأمير فخر الدولة . ثانياً- أن الحاشية التى كانت تجالس فخر الدولة حبيت إليه غزو العراق وملك بغداد

وسهلت له هذه العملية. ثالثاً - موت شرف الدولة حاكم بغداد عجل في تنفيذه هذه الخطة فكانت الفرصة مواتية إذا لهذا الغزو ، ولكن جيوش فخر الدولة هزمت عند مشارف مدينة الأهواز على يد بهاء الدولة الذي خلف شرف الدولة على حكم العراق، فعاد جيش فخر الدولة منكسراً إلى مدينة الري، وقد أعقب ذلك تسرب أعداد كبيرة من جيشه بسبب تأخر رواتبهم (١٣٩).

وفي شهر محرم سنة (٣٨٥ هـ / ٩٩٥ م) توفي الوزير صاحب أبو القاسم اسماعيل بن عباد، وقد حزن لموته حتى أهل بغداد (١٤٠)، وامتدح ابن الأثير هذا الوزير، لاسيما فيما يتعلق بمعرفته الواسعة بتحرير الرسائل ، وآرائه السديدة ، وبفضل علمه الواسع باللغة وآدابها ، وكانت له مؤلفات كثيرة ، فكانت مكتبته من الضخامة بمكان حيث أنها تضم أعدادا كبيرة من الكتب في مختلف ميادين المعرفة، ويعلق ابن الأثير على ذلك بقوله : إنهم يحتاجون إلى أربعمئة جمل لنقلها، وقد مات صاحب بن عباد بمدينة الري ، ونقل جثمانه إلى مدينة إصفهان ، ودفن هناك في إحدى قراها عند باب درية (١٤١).

وقد كان صاحب بن عباد مخلصا لفخر الدولة حتى في آخر لحظات حياته، فهذه وصيته للأمير فخر الدولة وهو على فراش الموت تشهد على ذلك إذ يقول : (خدمتك أيها الأمير خدمة استفرغت قدر الوسع وسرت في دولتك سيرة جلبت لك حسن الذكر فإن أجريت الأمور بعدى على نظامها وقررت القواعد على أحكامها نسب ذلك الجميل السابق إليك ونُسيتُ أنا في أثناء مايشئى به عليك ودامت الأحودة الطيبة لك . وإن غيرت ذلك وعدلت عنه كنت أنا المشكور على السيرة السالفة وكنت أنت المذكور بالطريقة الأنفة وقدر في دولتك ما يشيع في المستقبل عنك) (١٤٢).

عند استقرائنا لهذه الوصية نقف على نقطتين رئيسيتين : الأولى تبين مدى إخلاص وحرص الوزير صاحب بن عباد على سلامة الدولة البويهية واستمراريتها، والثانية تتصل بشخص الأمير فخر الدولة، حيث تبين مدى إثارة ووفاء الوزير للأمير فخر الدولة ، فقد أثره على نفسه، وأراد ألا يتصدع هذا البناء القائم على العدل والاستقامة والاستقرار بعد رحيله ، بل أراد أن ينسب هذا الفضل كله إلى الأمير فخر الدولة لا إلى صاحب بن عباد، إنها قمة الأمانة والإخلاص والوفاء .

ولكن لانعرف لماذا لم يحترم الأمير فخر الدولة هذا الإخلاص والوفاء ، فبعد وفاة الوزير أمر بمصادرة جميع أملاكه وأمواله ، ويقول ظهير الدين الروذراورى : (ونقل جميع ما كان في

الدار والخزائن إلى دار فخر الدولة^(١٤٣)، ويعلق ابن الأثير على هذه العلاقة بقوله : (قبح الله خدمة الملوك هذا فعلهم مع من نصح لهم فكيف مع غيره) ^(١٤٤).

وبعد رحيل الوزير صاحب إلى جوار ربه، عثر فخر الدولة على كيس به رقاع لأقوام، أي مستندات كتب عليها مبالغ من المال، تصل إلى مائة وخمسين ألف دينار، هذه الأموال كانت مودعة له عند بعض الأعيان ، وكان بعضها عليها خاتم مؤيد الدولة، فاستدعاهم فخر الدولة وأمرهم بتسليم المال فأحضروه . وقد كان لهذه الحادثة آثارها السلبية على مكانة وأمانة الوزير صاحب بين الناس في مدينة الري، فهناك من اتهمه ورماه بالخيانة، والبعض الآخر قد أحسن الظن به على اعتبار أن هذه الأموال بعضها أمانات مودعة عنده لأبناء مؤيد الدولة لوجود ختم الأمير عليها^(١٤٥).

على كل حال فقد أصبح منصب الوزارة شاغرا الآن مما أقلق الأمير فخر الدولة ، خصوصا وأنه يريد الشروع في مصادرة أتباع صاحب بن عباد فهو يحتاج إلى مشورة الوزير، لذلك فإنه كلف أبا العباس أحمد بن إبراهيم الضبي، الملقب بالكافي الأوحى وهو المرشح للوزارة ، القيام بهذه المصادرة ، وكان المبلغ المراد مصادرته ثلاثين ألف ألف درهم ، فامتنع أبو العباس وتردد. وفي ذات الوقت وصل كتاب لفخر الدولة من أبي على بن حمولة يعرض نفسه للوزارة ويضمن عنها ثمانية آلاف ألف درهم، فأجاب فخر الدولة دون تردد ووافق على طلبه، وبذلك خسر أبو العباس منصب الوزارة ، وقد أئبه أتباعه لعدم امتثاله لأوامر فخر الدولة، عند ذلك أسرع أبو العباس وكتب لفخر الدولة بأنه مستعد لأن يدفع ستة آلاف ألف درهم مقابل إقراره على الوزارة ^(١٤٦).

فأخذ فخر الدولة يوازن بين هذين العرضين ، فوجد أنه لا يستغنى عن الاثنين ، ومن الأصلح والأسلم أن يشركهما في الوزارة ، وقرر على الاثنين عشرة آلاف ألف درهم يدفع كل واحد منهما نصف هذا المبلغ ، وأشركهما في جميع أعمال الوزارة، وقسم العمل بينهما بالتساوي ، حتى التواقيع على المعاملات قسمت بينهما، وقد رضيا بذلك ، وباشرا أعمالهما، فأول عمل قاما به استمرارهما في ملاحقة أتباع الوزير السابق صاحب بن عباد والقبض عليهم ومصادرتهم ، فلم يفلت منهم أحد^(١٤٧).

ومما يثير الانتباه والشك في أن واحد وهو هذا الموقف المتشدد والمتصلب الذي اتخذه الأمير فخر الدولة من وزيره الوفى صاحب بن عباد ومن أتباعه، من الاجتهاد في المصادرة

وبلا هوادة ، ومما يدعو للتساؤل لماذا لم يصنع الأمير ذلك في حياة الوزير صاحب ؟ هل اكتشف خيانة وزيره بعد وفاته ؟ هذا ما لانجده في المصادر التي توصلنا إليها بما يؤيد ذلك.

وقد اعتاد الأمير فخر الدولة أن يشرك السيدة زوجته في بعض القضايا من أعماله، وقد أكسبها ذلك بمرور الوقت خبرة ودراية في القضايا السياسية، ثم أصبحت جميع الأمور السياسية تدار من قبل السيدة زوجة فخر الدولة. هذا الوضع قد أوهم بعض الأمراء بضعف الحياة السياسية بمدينة الري، فدفعتهم أطماعهم إلى غزو مدينة الري في ظل حكم هذه المرأة، ولعل من أبرز هؤلاء الأمراء الطامعين، يعين الدولة أبي القاسم محمد بن سبكتكين أمير خراسان ، فبعث من عنده رسولا يهدد السيدة بالمسير إليها. فعمدت السيدة في الحال إلى مستشارها الفذ المدعو بدر بن حسنويه، وكانت لاتحل ولا تعقد إلا بعد مشورته، تطلب منه الرأي في هذا المأزق ، فأشار عليها بعمل مناورة عسكرية كبيرة عند مجيئ هذا الرسول ، ولما جاء الرسول شاهد بأن عينه هذه الكثافة من الجنود المحتشدة على هيئة صفوف ، فقد أربعه ذلك وعاد إلى يعين الدولة مخبرا إياه بما شاهد في مدينة الري من قوة عسكرية ضخمة . فقد نجحت خطة بدر بن حسنويه، بما قام به من تدبير جعل يعين الدولة أمير خراسان يكف عن نواياه وغير من سياسته العدوانية تجاه مدينة الري فعمد إلى المهادنة في علاقته مع حكام مدينة الري^(١٤٨).

وقد مات فخر الدولة في شهر رجب سنة (٣٨٧هـ / ٩٩٧م) وخلفه على السلطة بمدينة الري وأعمالها ابنه الصغير أبوطالب رستم الملقب بمجد الدولة^(١٤٩)، فكان عمره يوم توليه لا يتجاوز الأربع سنوات ، وبالطبع كانت السيدة والدته هي الوصية عليه، وهي المشرفة على جميع الأمور والقضايا السياسية وإدارة الحكم ، يساعدها الوزيران أبو العباس الضبي وأبو علي بن حمولة. وقد خلف فخر الدولة في خزانته أموالاً كثيرة من الجواهر وغيرها، ولجد الدولة أخ صغير لقبوه بشمس الدولة، وأوكلوا إليه الولاية على همذان وقرميسين إلى حدود العراق^(١٥٠).

هذه الأحداث التي تمر بها مدينة الري قد شجعت بعض القوى الطامعة أن تتحرك من ذلك أن (قابوس بن وشمكير) طمع في الاستيلاء على مدينة جرجان؛ وقد كان (قابوس) من المقربين من آل بويه زمن فخر الدولة، فقد كانت له خدمات ومواقف طيبة للأمير فخر الدولة فأراد الأمير مكافئته بأن يوليه على مدينة جرجان، وهي من أعمال مدينة الري، ولكن الوزير صاحب بن عباد، عدل به عن هذا الرأي . وقد جاءت الفرصة مواتية الآن أمام (قابوس)

فى ظل هذه الظروف السياسية التى تمر بها مدينة الرى، خصوصا وأن أهل جرجان وأعيانها كما يذكر ظهير الدين الروذراورى قد كاتبوا (قابوس) بعد موت فخر الدولة، وكان بنيسابور يدعونه، فتوجه إليهم واحتل جرجان فى سنة (٣٨٨هـ / ٩٩٨م) (١٥١).

ولكن ماذا عن الوضع فى مدينة الرى؟ وما هى ريادة فعل حكامها عند ضياع مدينة جرجان؟ يبدو أن روح الخلافات هى السائدة، فقد لجأت أم مجد الدولة كعادتها إلى مستشارها الخاص بدر بن حسنويه لتأخذ برأيه حيال هذه المشكلة، ولكن تفاقم الخلاف بين الوزيرين وأتباعهما أفسد هذه الخطة، خصوصا وأن الوزير أبى على بن حمولة قد استمال إليه الأتباع بما كان يدفعه إليهم من الأعطيات والأموال والهبات، فكون بذلك قاعدة عريضة من الأنصار، وأعد نفسه لقتال (قابوس بن وشمكير)، حاملا معه خزائن وأموال مدينة الرى بحجة المحافظة عليها من (قابوس) فيما لو تعرضت المدينة للخطر، وقد حبيب إليه أتباعه غزو جرجان ومحاربة (قابوس) قائلين له: (إنا إذا حصلت بجرجان وملكتها كنت أميرا لا وزيرا وكانت الحاجة إليك داعية والأمال بك متعلقة وبعدت عن الحضرة التى أنت فيها مجاذب على المنزلة) (١٥٢).

فخرج الوزير أبو على بن حمولة لقتال (قابوس)، وقد انهزم الوزير ابن حمولة عند أول جولة من القتال، وغنم (قابوس) خزائن وأموال مدينة الرى التى كانت مع الوزير ابن حمولة، وعاد (قابوس) إلى مدينة جرجان وامتنع عن دفع الرسوم والضرائب التى كانت تدفعها جرجان لمدينة الرى. بعد هذه الهزيمة النكراء التى منى بها ابن حمولة الذى عاد إلى مدينة الرى منكسرا خائبا، وقال عند وصوله: (قد خرجت نوبة وهذه نوبة أبى العباس الضبى) على اعتبار أن الأعمال مناصفة بين الوزيرين (١٥٣).

يفهم من هذه الأحداث أن ما قام به الوزير ابن حمولة هو نوع من التمرد والانشقاق والاستقلال عن السلطة بمدينة الرى، وما يؤكد ذلك قول الأتباع لابن حمولة: إنه إذا ما ملك جرجان تصبح أميرا، كذلك فإن هذه الأحداث تظهر مدى استخفاف أبى على بن حمولة بالجهاز الحاكم بمدينة الرى، فعند انكساره أمام (قابوس) فى هذه الحرب التى لم يأخذ إذنا من السلطة فى خوضها، يقول: (قد خرجت نوبة وهذه نوبة أبى العباس) (١٥٤).

لذلك فإن السيدة قررت بعد مشورة بدر بن حسنويه إبعاد الوزير ابن حمولة عن الوزارة والقبض عليه، وقد آل الأمر بعد ذلك إلى قتله، وقد تحرك أتباع ابن حمولة وكادوا يقتلون

الوزير أبى العباس لولا الاتصالات التى أجراها الوزير بكبار قادة الجند الديلمية، ثم تدخل السلطة وقد أسفر ذلك عن الأفراج عنه ، يضاف إلى ذلك أن أتباع ابن حمولة مالوا إليه خاصة عندما علموا بمقتل وزيرهم ابن حمولة ، وهكذا أصبح أبا العباس الضبى الوزير الأوحى بمدينة الرى^(١٥٥).

ويبدو من سياق الأحداث أن أطماع السلطان يمين الدولة محمود الفزنوى بمدينة الرى لم تتوقف ، وإنه كان يراقب مجريات الأحداث عن كثب ويتحين الفرص لاحتلالها ، من ذلك أنه فى سنة ٢٨٨ أو ٢٨٩هـ) بعث إلى السيدة والدة مجد الدولة يطلب منها أن تدفع له خراج مدينة الرى^(١٥٦)، وهذا الخراج يشكل موردا كبيرا فقد خصص له ديوان عرف بديوان الخراج، ولهذا الديوان شأن كبير بمدينة الرى، حتى أن المسموعى كان يطلق عليه اسم دار الخراج^(١٥٧).

ولما امتنعت السيدة بعث إليها السلطان محمود رسولا آخر يهددها ويقول : إنه سوف يرسل إليها ألفين من أفياله لتخريب مدينة الرى، ثم بعد ذلك يحمل ركامها إليه بمدينة غزنة . ولكن السيدة الوالدة أم مؤيد الدولة استقبلت رسول السلطان محمود بوافر التقدير والاحترام وحسن الضيافة ، ثم حملته رسالة ليوصلها إلى سيده السلطان محمود، وهذا نص الرسالة:

(لاشك أن السلطان محمود بطل من أبطال الإسلام . وهو من أقوى الأمراء والحكام ، وقد دانت له أكثر الأنحاء فى إيران وبلاد الهند، ولطالما خشيت سطوته منذ انتقل زوجى إلى جوار ربه وقد انزاح عن قلبى هذا الخوف الذى ملك نواصيه ، لأنى أجد أن السلطان محمودا من أكبر الملوك وأعزهم شرفا، وإن يقدم على محاربة امرأة عجوز مثلى، فأما إذا اختار الحرب والقتال فمن المؤكد أننى لن أتردد عن الطعن والنزال ، فإن وفقنى الله إلى التغلب عليه فسيذكر لى هذا الظفر إلى يوم الدين، وأما إذا فاز بالنصر على فسيتحدث المتحدثون فيقولون : إنه لم يفز إلا على امرأة عجوز ...! إنى ليأخذنى العجب كيف يتيسر له فى مثل هذه الحالة أن يعلن هذا الفوز ، وفى أى صورة يذيعه فى أنحاء ملكه العريض...؟ وقديما قالوا: : (كيف يمكن أن يكون رجلا من نقصت همته عن همة النساء...؟ وإنى لأعرف أن السلطان عاقل حازم، وإن يقدم على مثل هذا الأمر، ومن أجل ذلك فإنى أنعم على أريكة الهدوء والراحة، لياخذنى شئ من الخوف أو الشك فيما ستنتهى إليه عاقبة الأمور).

إنه حقا لخطاب سياسى وأدبى رائع استخدمت فيه السيدة أساليب عديدة، منها الأكبار والرفعة لشخص السلطان محمود، ثم أسلوب المراوغة والمناورة دون الإذلال لنفسها، وبهذا

الأسلوب استطاعت أن تفوت الفرصة على السلطان محمود فامتنع عن قتالها أو التعرض لشيء من أملاكها ، وظل هذا الاحترام متبادلاً طيلة حياة السيدة والدة مجد الدولة (١٥٨).

وقد عملت مدينة الري على تحسين علاقتها مع الخليفة العباسى القادر بالله، وهو أبو العباس أحمد بن إسحق ، لربما الظروف السياسية المضطربة المحيطة بمدينة الري هى التى دفعت الري لمثل هذا التقارب ، ففي سنة (٣٨٨هـ) بعث الأمير مجد الدولة رسولا من عنده إلى الخليفة، فاستقبله الخليفة استقبالا حسنا، وخلع على مجد الدولة بالخلع السلطانية، وعهد له على الري وأعمالها وعقد له لواء. وأراد مجد الدولة من هذا التقارب ضمان صفة الشرعية فى حكمه للري وأعمالها ، فهذه الشرعية ربما تحميه من الطامعين ، لاسيما (شمس المعالى قابوس) الذى أقلق راحة مجد الدولة (١٥٩).

وفيما يتعلق بأمر الوزارة فى مدينة الري ، فقد كان الوزير أبو العباس أحمد الضبى قد عمل على استقرار الوضع بمدينة الري، وقد عمل قدر الإمكان على تحسين علاقته مع المسئولين فى الداخل ومع جيرانه فى الخارج، إلا أن حدة الطبع التى كانت فى الوزير أفسدت عليه هذا التقارب، ويعلق أبوشجاع الروذراوى على ذلك بقوله : (وكانت فى أبى العباس شدة تغلب على طبعه وشح يفسد عليه كثيرا من أمره) ، هذه الصفات التى ذكرها الروذراوى كانت هى السبب وراء ضياع الوزارة من يد أبى العباس (١٦٠).

يضاف إلى ذلك ما كان بينه وبين السيدة والدة مجد الدولة من شك وريبة، خصوصا بعد موت (الإصفيهيد الأكبر) ؛ وهو ابن أخى السيدة، فقد اتهمت الوزير بأن له يداً فى قتله، ولما طلبت منه أن يدفع لها مصاريف العزاء رد قائلاً لرسولها : (لو اشتغلت بما يعطاه الجند المطالبون لكان أولى من تشاغلها بعمل المواتيم للموتى الماضين) ففضبت من رده وأيقنت بأنه هو الذى قتل ابن أخيها ، فقالت : (صدق وكيف يقيم مأتمه من قتله) (١٦١).

وقد أدى ذلك إلى تأزم العلاقة بين الوزير والسيدة والدة مجد الدولة، فخاف الوزير على نفسه من أن تفتك به السيدة ، فقرر ترك مدينة الري، ولكن قبل أن يرحل أراد أن يعرف رأى المستشار الفذ بدر بن حسنويه المتولى على مدينة بروجرد خلال هذه الفترة ولكن بدر بن حسنويه لم يوافق على رأيه، واقترح عليه أن يبقى بمدينة الري ويعمل على تحسين علاقته بالسيدة ، ولكن الوزير لم يأخذ لهذا الرأى، ويبدو أنه واقع تحت تأثير على بن الحسين بن القاسم العارض الملقب الخطير، وكانت له مكانة عند الوزير وموضع ثقته، وهو أحد المتنفذين

فى الجهاز الإدارى ، ولم يكن الوزير يعلم ما يضمه هذا الملقب بالخطر من شر، فترك مدينة الرى بعد أن رتب أموره وحسن نفسه بالأموال (١٦٢).

وعندما ترك الوزير مدينة الرى إلى مدينة بروجرد أصبحت الأجواء من الناحية الإدارية مهياة أمام أبى على الحسين الملقب بالخطر ليتولى الوزارة بمدينة الرى ولو بالقوة، عندها ندم الوزير أبى العباس وحاول العودة إلى مدينة الرى مقابل أن يدفع مائتى ألف دينار للسيدة ولجد الدولة فلم يقبل منه ، وهذا التصرف فيه حماقة من الوزير، فعندما كان فى الوزارة امتنع عن دفع مائتى دينار، والآن يبذل مائتى ألف دينار مقابل العودة فلا يقبل منه (١٦٣)، ولم يعيش الوزير بعد هذه الحادثة طويلا، فقد مات فى سنة (٣٩٢هـ / ١٠٠١م) أى بعد سنة أو أقل من إقصاء نفسه عن الوزارة ، وربما مات كمدا أو أسفا، وقد أوصى قبل موته بأن ينقل جثمانه إلى العراق ليدفن عند مرقد الحسين بن على بن أبى طالب فى مدينة كربلاء طلبا للتبرك (١٦٤).

وقد كان لهذا الاضطراب فى الجهاز الإدارى داخل مدينة الرى وفى منصب الوزارة وهو أعلى الرتب فى هذا الجهاز ، أثاره السيئة والسلبية على العلاقة بين البيت الحاكم، وقد كان للوزير الجديد الحسين بن القاسم الملقب بالخطر دور فعال فى إشعال نار الفتنة، فعمل على زرع الريبة والشك بين السيدة وابنها مجد الدولة، فجعل الأم تخاف ابنها، كما استمال إلى جانبه كبار القواد والمستولين، وعمل على تجريد مجد الدولة من السلطات ، فأصبح شبه معزول لا يملك من السلطة إلا القليل فى ظل حكومة هذا الوزير الملقب بالخطر، فخافت الأم على نفسها من مؤامرات الوزير فهربت إلى القلعة ؛ وهى من ضواحي مدينة الرى، فتبعها الوزير بجواسيسه وعيونه فلما ضيق عليها الخناق اضطرت اللجوء إلى مدينة بروجرد عند مستشارها الخاص بدر بن حسنيه الذى أحسن استقبالها وضيافتها وقدم لها المساعدات ، كما ساعد ابنها الأصغر شمس الدولة ، وقام بإعداد العساكر وقادها بنفسه متوجها نحو الرى ، وقد تمكن بعد معارك طويلة من احتلال الرى سنة (٣٩٧هـ / ١٠٠٦م) فأعاد السلطة إلى السيدة الأم وقبض على مجد الدولة المخلوع ووضع فى السجن، وجعلت السيدة ابنها شمس الدولة هو الحاكم للرى، تشاركه فى الحكم وممارسة السلطة، ولكنها أحست بعد ذلك بتغير ابنها عليها وبأطماعه المتنامية، وكان ذلك بتحريض من الأعداء والهاشمية المحيطة بشمس الدولة، فأبعدته عن السلطة ، وجاءت بابنها المخلوع مجد الدولة وأعادته إلى الحكم، وعاد شمس الدولة إلى مدينة همذان مقر حكمه ، وجعلت جميع الأمور تدار تحت إشرافها

مباشرة، فهي التي تستقبل الرسائل من الأمراء والملوك، وقد أحدثت تغييرا إداريا ، فقد عينت ابن خالها أبا جعفر بن دشمتربار بن كاكويه ليتولى أمر مدينة إصفهان (١٦٥).

وقد طمع شمس الدولة بن فخر الدولة المتولى على همذان بأمالك بدر بن حسنويه، فقام بهجوم خاطف على مدينة بروجرد فى سنة (٤٠٥هـ / ١٠١٤م) واحتلها ، واستولى على الأموال والذخائر التي كانت موجودة فى قلاعها، فاستفاد من هذه الأموال فى تكوين العساكر، فأصبح بذلك قوة عسكرية كبيرة فى المنطقة، وقد دفعه ذلك إلى غزو مدينة الري واحتلالها، وكان بها أخوه مجد الدولة ووالدته، فتركوا مدينة الري ورحلوا (١٦٦) إلى مدينة دنباوند فدخلها شمس الدولة وأذعن أهلها له بالطاعة ، إلا أن شغب الجند وتمردهم جعله يضطر للعودة إلى همذان ، وقبل خروجه استدعى والدته وأخاه للعودة إلى الري وسلمهما السلطة (١٦٧).

وقد تمرد الأتراك بهمذان على شمس الدولة فى سنة (٤١١هـ / ١٠٢٠م) ، فاستنجد بخال والدته أبى جعفر بن كاكويه المتولى على إصفهان ، والسيدة الأم حاكمة مدينة الري هى التى طلبت من ابنها ذلك، فأمدته بالعساكر فتمكن من القضاء على هذا التمرد (١٦٨). ويبدو مما مر ذكره أن المصادر التى رجعنا إليها لم تكن واضحة فى موضوع إبراز الحدود السياسية والعسكرية التى كانت لمدينة الري على المدن المحيطة بها، فهى دائما تقاجتنا بأن حاكم مدينة الري قد عين ابنه أو أخيه على همذان مثلاً أو بروجرد ، دون أدنى توضيح إن كانت هذه المدن تابعة لمدينة الري أم لا؟ مما يوقعنا فى حيرة من أمرنا، وليس أمامنا إلا التسليم.

الغزنويون يسيطرون على مدينة الري :

إن فساد العلاقة بين أبناء البيت البويهى الحاكم فى مدينة الري، حيث لم يكن هناك تقاهم بين الأخويين وأمهما ، قد أفسح المجال للضعف والوهن أن يسرى فى جسم هذه الإمارة، فضلا عن السياسة التى انتهجها مجد الدولة بن فخر الدولة فى سنوات (٤١٧هـ / ١٠٢٦م) وما بعدها ، فقد انشغل عن مهام السلطة بالنساء ومطالعة الكتب ونسخها ، فأفسح المجال بذلك أمام الجند والقادة الذين لم يجدوا رقبيا يحاسبهم إلى التدخل فى شئون السلطة، حتى أصبحت معظم الأمور تقريبا فى أيديهم خصوصا بعد وفاة السيدة والددة مجد الدولة، وكان لوفاتها الأثر البالغ فى ضياع السلطة من يد مجد الدولة (١٦٩).

إن الوضع السياسى المضطرب الضعيف المتهرى الذى تعيشه مدينة الرى، قد خلق مناخا سياسيا غير متوازن مما شجع القوى المجاورة على القيام بالتهام هذا الصيد السهل، وهذا ما صنعه (منوجهر بن قابوس بن وشمكير) المتولى على جرجان وطبرستان ، فقد قام بغزو مدينة الرى والاستيلاء عليها، فلم يكن أمام مجد الدولة إلا طلب النجدة من عدوه التقليدى ، السلطان يمين الدولة محمود بن سبكتكين الغزنوى أمير خراسان وما وراء النهر، فلم يتردد السلطان محمود فبعث عساكره إلى مدينة الرى فتمكنت من حرق الغزاة وهزيمة (منوجهر) ، وأعاد الهدوء والاستقرار إلى المدينة ، إلا أن مساعدات يمين الدولة السلطان محمود لم تكن لوجه إله، وإنما كانت تسيرها أطماعه بمدينة الرى، فضمها إلى أملاكه وأمر باعتقال مجد الدولة، ومما شجعه على ذلك ما وجد عليه مجد الدولة من الإهمال والضعف وعدم الكفاءة فى إدارة شئون البلاد، فوجد أنه أولى من غيره، فأمر بمصادرة جميع الأموال الموجودة فى خزائن مجد الدولة، وكانت قيمة الجواهر فقط خمسمائة ألف دينار، ومن الدنانير ألف ألف دينار، وأمر بتقى مجد الدولة إلى خراسان ، وقد بعث برسالة إلى الخليفة العباسى القادر بالله، يصف له فيها حالة مجد الدولة وفساد السلطة وما آل عليه الوضع بمدينة الرى، وهذا كتبرير لما قام به السلطان يمين الدولة من احتلاله لمدينة الرى(١٧٠).

وفى أثناء وجود السلطان يمين الدولة محمود بمدينة الرى قام بالتكيل بجماعات الباطنية ومحاربتهم وقتل منهم أعدادا كبيرة، كما اعتقل عددا كبيرا من المعتزلة وأحرق كتبهم ونفاهم إلى خراسان، كما أحرق كتباً أخرى فى علم الفلسفة والفلك، ولم يتعرض لكتب الأدب الموجودة فى مكتبات مدينة الرى، وأمر بنقلها إلى مدينة غزنة فاحتاج إلى مائة بعير لحملها (١٤١)، ثم عاد إلى خراسان واستخلف على مدينة الرى ابنه مسعود(١٧٢).

وهكذا ينتهى حكم الديالة وعلى رأسهم الأسرة البويهية من مدينة الرى، وسقط حكم مجد الدولة بن فخر الدولة فى سنة (٤١٩ هـ / ١٠٢٨ م) وقد عمل مسعود بن يمين الدولة محمود على تثبيت نفوذه بالرى، فخاض من أجل ذلك المعارك الكثيرة، ففى سنة (٤٢٠ هـ / ١٠٢٩ م) دارت معارك بينه وبين السالار إبراهيم بن المرزبان بن إسماعيل بن مسوذان بن محمد الديلمى المتولى على سرجهان(١٧٣) وزنجان وأبهر وشهرزور انتصر فيها مسعود (١٧٤).

وكثيرا ما كانت الرى تتعرض لهجمات الترك الغز، وهم أتباع أرسلان بن سلجوق، فقد اجتاحت خراسان وإصفهان والرى وغيرها من المدن ، فكانوا يقومون بعمليات النهب والسلب

والقتل، فلما هجموا على خراسان ذهب الأمير مسعود إليها لمساعدة والده يمين الدولة محمود ابن سبكتكين ، فاستغلت بعض القوى الطامعة بمدينة الري غياب الأمير مسعود فغزوها واستولوا على السلطة، وكان على رأس هؤلاء أبو جعفر بن كاكويه الملقب بعلاء الدولة، وكان للترك الغزنوي بارز في مساعدته ، فأراد الأمير مسعود أن يعيد سلطانه على مدينة الري، فبعث قائده (تاش فراش) في جيش كثيف لمحاربة علاء الدولة أبو جعفر كاكويه (١٧٥)، ولكن القائد (تاش) لم يقو على محاربة الترك الغزنوي، فقد حاصروه ، وظل علاء الدولة كاكويه محتفظاً بمدينة الري، ثم أخذ يتوسع فاستولى على همذان وإصفهان (١٧٦).

وكان الأمير مسعود بن يمين الدولة خلال هذه الفترة مشغولاً في حربه مع بعض العناصر المناوئة في بلاد الهند ، ولما هدأت الأوضاع هناك توجه في الحال إلى مدينة الري وأعمالها وخلصها من نفوذ علاء الدولة كاكويه. ففي سنة (٤٢١هـ / ١٠٣٠م) سير جيشاً إلى همذان فاحتلها وطرد عنها عمال علاء الدولة، وفي خضم هذه المعارك أتته أخبار تنبئ بوفاة والده يمين الدولة محمود ، فاضطر إلى إرجاء حروبه مع علاء الدولة كاكويه (١٧٧)، وكان مسعود هو الابن الأكبر ، إلا أن أباه قد فضل عليه أخاه الأصغر محمد ليتولى العرش وولاه ملك خراسان وما وراء النهر، وقرر الأمير مسعود الذهاب إلى خراسان ، ولكن الثورة المفاجئة التي قام بها أهل إصفهان منعتهم من ذلك ، فتوجه إليهم وقضى على ثورتهم بعنف (١٧٨).

بعد ذلك أراد التوجه إلى خراسان ولكنه فضل الذهاب إلى مدينة الري للاطمئنان على الوضع هناك والتعرف على مدى ولاء أهل الري له، ولما علم أهل الري بقدمه إليهم استعدوا لاستقباله ، فزينوا مدينتهم، ويعلق المؤرخ البيهقي على ذلك، وهو المؤرخ المعاصر لهذه الأحداث والقريب منها بقوله : أنهم زينوا مدينتهم (بأبهى الزينات التي تفوق حد الوصف)، ولم يدخل الأمير مسعود المدينة بل أقام بظاهرها، فخرج إليه أهل الري العامة والخاصة منهم حاملين الهدايا، وهذا يعطينا مؤشراً عن مدى ارتياح معظم أهل مدينة الري لحكم الأمير مسعود . وقد بعث الأمير مسعود بمن يثق بهم من الحاشية إلى مدينة الري ليشاهدوا هذا الاحتفال الذي أعده أهل الري لينقل إليه الخبر بصورة صادقة، وقد شكر الأمير مسعود أهل الري على صنيعهم وأثنى عليهم (١٨٠).

وقبل أن يترك الأمير مسعود مدينة الري أراد أن يجتمع بأعيان أهل الري وكبرائهم ، فأمر بأن يُعد موكب فخيم لاستقبال هؤلاء الأعيان، وكان هذا الموكب يضم بين صفوفه الخيالة

والمشاة المدججين بالسلاح والغلمان ، وكان غرض الأمير مسعود من ذلك، أن يشاهد هؤلاء الأعيان القوة العسكرية التي يمتلكها الأمير، ربما لتزيد في اطمئنانهم وولائهم له. وجاء أعيان ووجوه الري وكان عددهم يتراوح ما بين خمسين إلى ستين رجلا، وبدأ الحفل بخطاب الأمير مسعود يسأل فيه أعيان الري مستفسرا عن رأيهم في سيرته معهم ، وهذا نص الخطاب :

(كيف كانت سيرتنا فيكم هذه المدة لاتخجلوا وأجيبوا بون خوف أو وجل، فقالوا : أمد الله في حياة الأمير، فقد نجونا من جور الديالة وعسفهم ؛ (يعنون بذلك البويهيين) وشملنا اسم هذه الدولة العظيمة أدامها الله ونحن ننام في أمن آمنين على أرواحنا وأموالنا ونسائنا وأولادنا، نأكل في أمن وتنعم في دعة ونعيش في سعة ، رافعين أكف الضراعة إلى المولى سبحانه ليديم ظل رحمة الأمير وعدله علينا إذ لم نكن في شئ من هذا على عهد الديالة)(١٨١).

وقد بعث هذا الرد الذي سمعه من أعيان الري الطمأنينة في نفسه وتأكد له مدى وفائهم وإخلاصهم وولائهم له وقبل أن يترك مدينة الري، أعد شحنة من القربان الأقوياء كان عددهم خمسمائة فارس كحامية ، وعين حسن بن سليمان على رأس هذه الشحنة وليكون عاملا على الري، ولكن الأمير مسعود كآته استصغر هذا العدد، وقد لاحظ أحد مستشاريه الحيرة بادية على وجه الأمير مسعود ، فقال للأمير: (إذا أراد أهل الري الوفاء ، سيأترون بأمر من يسميه مولانا عاملا عليهم وإن هم أرادوا العصيان فلن تنفع معهم كثرة الرجال) فاستصوب الأمير رأيه وقال : (حقا) (١٨٢).

بعد ذلك بعث الأمير مسعود إلى أخيه محمد يعترف له بالملك على خراسان وما وراء النهر وغيرها من الممالك، وإنه قانع بما لديه من الإمارة على الري وأعمالها، ولكنه في ذات الوقت طلب من أخيه أن يقدمه على نفسه في الخطبة على اعتبار أنه الأكبر، فقبل محمد وبعث برسالة إلى مسعود ليؤكد له ذلك، ولكن الأحداث أثبتت أن محمدا لم يكن صادقا في وعده ، فقد نقض الاتفاق ولم يكتف بذلك، بل دفعته أطماعه التوسعية إلى الذهاب إلى الري لمحاربة أخيه، ولكن بعض القادة كان يميل إلى جانب مسعود لشجاعته وخبرته في الحروب، فعمدوا إلى محمد وقيومه وسجنوه ونادوا بشعار مسعود ، وكتبوا إليه يدعونه المجيء في الحال إلى خراسان(١٨٣).

فقرر الأمير مسعود الذهاب إلى خراسان ، وفي ذات الوقت أنته رسالة من الخليفة العباسي القادر بالله ، وكانت تتضمن اعتراف الخليفة بالأمير مسعود سلطانا على جميع

الممالك التي كانت تحت نفوذ أبيه يمين الدولة محمود (١٨٤)، هذه الرسالة شجعتة وبعثت في نفسه الثقة للمضى إلى خراسان ، وعند رحيله من مدينة الري، تجمهر الخاصة والعامة مودعين في موكب كثيف من الجند والحرس (١٨٥).

وعند وصول الأمير مسعود خراسان استقبلته العساكر تهنئة ومن الغريب حقا أنه أمر بقتل القادة الذين أيده وفضلوه على أخيه، واعتبرهم خونه لأنهم غدروا بأخيه، وقد بايعه الناس في شهر ذي القعدة سنة (٤٢١هـ / ١٠٣٠م) ملكا على خراسان وما وراء النهر، فكانت حدود مملكته من خراسان إلى مدينة غزنة وبلاد الهند والسند وكرمان ومكران، بالإضافة إلى مدينة الري وأصفهان وبلاد الجبل، فكانت رسائل الأمراء تأتيه من كل هذه الأقطار المجاورة منها والبعيدة (١٨٦).

ومن الترتيبات والأعمال الإدارية التي وضعها السلطان مسعود بمدينة الري ، أنه عين طاهر دبير الكاتب بمرتبة كتخدا على مدينة الري ونواحيها؛ والكتخدا من أهم الوظائف ، حيث أن صاحبها بيده الإشراف على تدبير الأموال والأعمال في المدينة (١٨٧).

إلا أن ابتعاد السلطان مسعود عن مدينة الري قد هيا الظروف والفرص أمام الطامعين لغزو مدينة الري، ومن هؤلاء الطامعين ، فناخسرو بن مجد الدولة البويهى محاولا بذلك إعادة نفوذ أسلافه البويهيين على مدينة الري، وقد كان فناخسرو أثناء احتلال السلطان يمين الدولة محمود سبكتكين ؛ والد الأمير مسعود لمدينة الري . مختبئاً في موضع يقال له قصران (١٨٨)، وقد احتل فناخسرو المدينة بقوة عسكرية مؤلفة من الديالة والأكراد، ولكن سرعان ما تمكن نائب السلطان مسعود على مدينة الري، حسن بن سليمان من إعادة نفوذه بالقوة ودحر هذه العساكر فانهزم فناخسرو (١٨٩).

ومن الذين طمعوا باحتلال مدينة الري، أبو جعفر علاء الدولة بن كاكويه ، فقد استغل هو الآخر فرصة غياب السلطان مسعود، وانشغاله أول الأمر مع أخيه محمد، وكان علاء الدولة بن كاكويه مستجيراً عند عبد الملك أبي كاليجار بخوزستان، فتوجه ابن كاكويه أول الأمر إلى إصفهان واحتلها ثم احتل همذان ، ومنها إلى الري فاحتلها واحتل ديباوند؛ وهي من أعمال الري، والذي كان يتولى ديباوند أنوشروان بن منوچهر بن قابوس ، فأخذ يعمل هذا على استرجاع مدينته من علاء الدولة بن كاكويه ، فاستعان بالسلطان مسعود الموجود في خراسان، وكتب له يهنئه ويطلب منه العون والمساعدة لمحاربة علاء الدولة، ويشترط مقابل ذلك

إذا ما تحقق له النصر أن يكون عاملا على الرى وأعمالها باسم السلطان مسعود ، يضاف إلى ذلك أن يدفع مبالغ من المال فى كل سنة يتفق عليها ، فوافق السلطان مسعود على هذا العرض وبعث بالعساكر من خراسان لتتضم إلى عساكر أنوشروان ، وبهذه الطريقة استطاع أنوشروان دحر علاء الدولة أبوجعفر بن كاكويه ، فاحتل مدينة الرى ومعظم أعمالها ، وخطب بها للسلطان مسعود (١٩٠).

وفى شهر ذى الحجة من سنة (٤٢٢هـ / ١٠٣٠م) توفى الخليفة العباسى القادر بالله ، وكانت مدة خلافته إحدى وأربعون سنة وأشهرًا ، وخلفه ابنه أبوجعفر عبدالله ، ولقب بالقائم بالله (١٩١).

ويبدو أن اتفاق السلطان مسعود مع أنوشروان قد انتهى فى سنة (٤٢٢هـ) ، بدليل أنه أصدر أمرا بتفويض (تاش فراش) قائد الجيوش الخراسانية الإمارة على الرى وهمدان ومنطقة الجبال (١٩٢). وقد كان (تاش فراش) حروب ووقائع عديدة مع علاء الدولة أبوجعفر بن كاكويه ، تسببت فى حدوث الفوضى والاضطراب وعدم الاستقرار فى هذا الإقليم (١٩٣)، ويحتمل أن هذه الاضطرابات دفعت السلطان مسعود إلى تغيير سياسته مع هذه القوى المناوئة ، فاتبع معهم سياسة اللين والمصالحة، ربما دفعته ظروفه لمثل هذا الأسلوب ، وفى سنة (٤٢٤هـ / ١٠٣٢م) أجرى عدة اتفاقات ودية مع هذه القوى، أولها مع علاء الدولة أبوجعفر بن كاكويه ، فقد اتفق معه على إقراره على إصفهان نظير تعهد علاء الدولة بأن يدفع مبالغ من المال للسلطان مسعود فى كل عام تحدد حسب الوضع الاقتصادى للمدينة. كذلك أجرى مع (منوچهر بن قابوس بن وشمكير) نفس الاتفاق نظير ولايته على جرجان وطبرستان (١٩٤).

كان للأزمات السياسية التى تعرضت لها مدينة الرى إبان هذه الفترة، وهى المتمثلة فى هجمات الطامعين فى الاستيلاء على المدينة أن خلقت جوا سياسيا خائفا غير متوازن وغير مستقر فى مدينة الرى، كانت له آثاره السيئة على الوضع الداخلى بالمدينة ، لاسيما فى الجوانب الإدارية والاجتماعية ، فمن هذه الانحرافات الإدارية ما قام به الحاكم الكتخدا طاهر دبیر ، فقد أهمل أعماله وواجباته وانغمس فى ملذاته الخاصة، من لهو وشرب ومجون، ومظاهر الإسراف والأبهة والطفیان ، فكان يثتر فى مجلسه على الحاضرين الورد فى مواسمه ممزوجا بالدنانير الذهبية والدراهم، وكانت أوانى الشراب المصنوعة من الذهب والفضة تربط بحبال من الحرير وتشد على أوساطهم وهم يرقصون سكارى ثملين والكتخدا طاهر دبیر يتوسط الراقصين ، وكان يضع على رأسه تاج نسيجه من الورد الجورى والياس، هذه الليالى

الحمراء التى يقيمها الكتخدا قد جرفت معها حتى القادة المخلصين للسلطان مسعود ، أمثال القائد الكبير (تاش فراش) فقد انغمس فى هذا اللهو، مما يدل على عدم أمانة هؤلاء المسؤولين فراحوا يعبثون بأموال مدينة الري وينفقونها على ملذاتهم الخاصة دون أدنى مراعاة لحقوق الآخرين من العامة فى مدينة الري (١٩٥).

هذه الأوضاع التى كانت تجرى فى مدينة الري ربما كانت من الأسباب التى شجعت الطامعين فى الاستيلاء على مدينة الري. وقد وصلت أخبار فساد الجهاز الإدارى إلى السلطان مسعود ، فقرر عزل طاهر دبیر، ورشح لهذا المنصب عدداً من الشخصيات ولكن بعد مشاور السلطان مع كبار المسؤولين استقر رأيه على أبى سهل الحموى؛ لما يتصف به من العدل والفضل ، حتى أن السلطان مسعود أثنى عليه وقال: (ولكن أبا سهل الحموى أهل لهذا المنصب فإنه ذو شهامة وكفاية وحنكة وله فى مهام الأمور سابقة) (١٩٦).

وقد أراد السلطان مسعود أن يرسل ابنه الأمير سعيد مع أبى سهل الحموى، ليكون نائباً عنه بمدينة الري، أما الإدارة والحكم فتكون بيد الكتخدا أبى سهل الحموى، وهذا نص خطاب السلطان مسعود للكتخدا :

(فكرنا بالأمس فى أمر الري والجال فرأينا من الصواب أن نبعث معكم ولدنا الأمير سعيد بأبهة فائقة حتى يكون نائباً عنا وتكون كتخداه ، بحيث يكون الحل والعقد والخفض والرفع والأمر والنهى فى يدك ويصغى ولدنا إلى نصحك فتكمل بذلك أسباب الهيبة). وقد رحب أبوسهل الحموى بهذا الرأى ولم يعارضه، إلا أنه اقترح على السلطان أنه إذا كان الهدف الحصول على الهيبة من مجيئ الأمير سعيد، فمن المصلحة أن يؤجل ذلك ريثما يستقر الوضع فى مدينة الري ، وفى ذات الوقت يتم القضاء على القوى المعادية للطامعة بمدينة الري، فوافقه السلطان واستحسن رأيه (١٩٧).

هذا التغيير الإدارى الذى أحدثه السلطان مسعود قد شمل القائد (تاش فراش) بالإضافة إلى الكتخدا السابق طاهر دبیر ، وتقلد أبوسهل الحموى هذا المنصب ، وقد أجرى عدة إصلاحات فى مدينة الري وقد نجح فى ذلك إلى حد كبير ، فكان العدل أساس حكمه، ورفع المظالم والرشاوى والمصادرات التى كانت متفشية زمن الكتخدا طاهر دبیر والقائد (تاش فراش) فأمن الناس على أموالهم وحقوقهم ، فكان لذلك أثاره الطيبة على النواحي الاجتماعية والاقتصادية والسياسية فى مدينة الري، مما أدى إلى استقرار الأوضاع فى هذه المدينة إبان هذه الفترة على الأقل أى فى سنة (٤٢٤هـ / ١٠٣٢م) (١٩٨).

لقد سبق وذكرنا أن السلطان مسعود قد أبرم اتفاقية مع علاء الدولة أبي جعفر بن كاكويه، ولكن علاء الدولة نقض هذا الاتفاق المعقود بينه وبين السلطان مسعود، باعتدائه على العساكر الخراسانية التي كان يقودها أبو سهل الحمدي المسئول عن الري، وقد أدى ذلك إلى حدوث حروب بين الطرفين أسفرت عن هزيمة علاء الدولة ونهب أمواله ونخائره واحتلت إصفهان مقر حكمه ، فهرب علاء الدولة إلى إيدج^(١٩٩) لاجئاً عند الأمير أبي كاليجار^(٢٠٠).

إلا أن علاء الدولة بن كاكويه لم يوقف نشاطه العسكري، فقد عاود تحرشاته في سنة (٤٢٧هـ / ١٠٣٥م) لإعادة نفوذه على إصفهان، ولكن أبا سهل الحمدي كان له بالمرصاد ، ولم يمكنه حتى من اللجوء عند أبي كاليجار ، فانهزم إلى مدينة بروجرد وهناك نهبوا أمواله، ومنها ذهب إلى مدينة الطرم^(٢٠١)، فلم يقبله أميرها السالار لاجئاً^(٢٠٢).

إن عدم الاستقرار في مدينة الري وفي سائر المدن التابعة لسلطان الملك مسعود شمل أيضاً مدينة خراسان وبلاد ما وراء النهر، فأخذت تحاك المؤامرات هذه المرة ضد السلطان مسعود بن محمود أمير خراسان وما وراء النهر، فقد أراد مدبروها الإطاحة بالملك مسعود وإعادة السلطة إلى أخيه محمد ، وأسفرت هذه المؤامرة عن مقتل السلطان مسعود في سنة (٤٣٢هـ / ١٠٤٠م) ، ونابوا بمحمد ملكاً على خراسان وتوابعها ، ولكن هذا الأمر لم يمر بسلام، فقد استطاع (مودود) ؛ وهو أحد أبناء الملك مسعود أن ينتقم لأبيه بعد أن تولى على الأمر، فأمر بقتل عمه محمد وأبناء عمه على وأحمد، وأمر بقتل القادة الكبار الذين دبروا هذه المؤامرة^(٢٠٣).

وقد أثبتت الأحداث بعد ذلك أن خراسان لم تعد قادرة على الاستمرار في القيادة المركزية للولايات التابعة لها بعد مقتل السلطان مسعود، ففي سنة (٤٣٣هـ / ١٠٤١م) تمكن علاء الدولة أبو جعفر بن كاكويه من السيطرة على مدينة الري ، ولم تكن هناك ريدود فعل من السلطة المركزية في خراسان، ولم تستنكر هذا الفعل وهذا دليل على ضعفها وتشتت قوتها، وقد مات علاء الدولة بن كاكويه واستمر أبنائه وهم: ظهير الدين أبو منصور فرامر، وأبو كاليجار كرشاسف، ثم الأخ الأصغر أبوحرب يمارسون سلطانهم على مدينة الري وإصفهان وهمذان^(٢٠٤).

مدينة الري تحت نفوذ السلطان طغرلبيك :

إلا أن القوة المتنامية للسلاجقة إبان هذه الفترة والتي وضع أساسها السلطان ركن الدولة أبوطالب طغرلبيك ، محمد بن ميكائيل بن سلجوق مؤسس الدولة السلجوقية ، وقد امتد نفوذها على معظم المدن الفارسية، كخوارزم وطبرستان وجرجان وكرمان وأعمالها وقزوین وبلاد الجبل، كما وضع حدا لنفوذ أبناء أبي جعفر علاء الدولة ولو لفترة محددة، ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل إن السلطان طغرلبيك قام بغزو مدينة الري في سنة (٤٣٤هـ / ١٠٤٢م) وفتحها واستولى على أعمالها، كما استولى على أموال وضياع أبناء علاء الدولة أبي جعفر (٢٠٥)، وكان يخطب له في جميع هذه المدن بما فيها مدينة الري (٢٠٦)، وينكر الحافظ الذهبي أن طغرلبيك أسرف في القتل حتى تمكن من إخضاع مدينة الري، فلم يبق في المدينة، والكلام للحافظ الذهبي غير ثلاثة آلاف إنسان، وأرى أن هذا الرقم الأخير مبالغ فيه ، فلا يعقل أن يصل القتل إلى هذا الحد ، حتى لم يبق في المدينة غير هذا النفر، فيجوز أنهم فروا من المدينة خوفا من القتل والتكيل فلم يبق في المدينة غير النفر الذين ذكرهم الحافظ الذهبي (٢٠٧).

وقد كانت للسلطان طغرلبيك اهتمامات بالنواحي العمرانية ، فلما استقر الوضع بمدينة الري عمد إلى التعمير، وأول عمل قام به أنه أمر بتجديد بناء مدينة الري، كذلك اهتم بتحسين علاقاته مع جيرانه، لذلك فقد وصلتته من أمير خراسان (كامرو) هدايا قيمة، وهي عبارة عن مركب مصنوع من الذهب، وخزينة لوضع المجوهرات من صنع الصين (٢٠٨).

ولكن ما زال فناخسرو بن مجد الدولة البويهى يحلم في استرجاع مجد آبائه وأجداده ، فقد كان له نشاط ملحوظ خلال هذه الفترة ؛ أى في سنة (٤٣٩هـ / ١٠٤٧م) ، وكان ينوى إعادة مدينة الري، لذلك تحرك بقواته نحو مدينة أمد؛ وهي من أعمال السلطان طغرلبيك ، فاحتلها وقتل عددا من أتباع طغرلبيك، وكان طغرلبيك بمدينة الري فخرج منها لقتال فناخسرو (٢٠٩)، كذلك كانت بين طغرلبيك وبين أبي منصور بن علاء الدولة الذي أعاد نفوذه على إصفهان ، مناوشات في سنة (٤٤٢هـ / ١٠٥٠م) ، فقد حاصره ولما طال الحصار أذن أهل مدينة إصفهان بالطاعة لطغرلبيك وسلموه البلد فدخلها ، وفضل السكن بها ، فنقل مقر حكمه في سنة (٤٤٣هـ / ١٠٥١م) من الري إلى إصفهان (٢١٠). كما قبض على الملك الرحيم؛ وهو آخر ملوك بني بويه وسجنه في القلعة بمدينة الري، ومات في سنة ٤٥١هـ / ١٠٥٩م (٢١١)، وقد اتسع سلطان طغرلبيك حتى وصل إلى بغداد والموصل، وقد توفي طغرلبيك بمدينة الري في سنة (٤٥٥هـ / ١٠٦٣م) (٢١٢).

وبعد موت طغرليك ورثه ابن أخيه ألب أرسلان، واسمه محمد بن داود بن ميكائيل بن سلجوق، وألت إليه السلطة في بغداد وفي غيرها من المدن العراقية، إلا أن موت طغرليك المفاجئ قد خلق جوا سياسيا غير متوازن، لاسيما في الولايات التي تقع في مشرق الخلافة العباسية، وأفسح هذا المناخ المجال أمام القوى الطامعة أن تتحرك للتوسع على حساب القوى الضعيفة، وهذا ما حدث بالفعل، ففي سنة (٤٥٦هـ / ١٠٦٣م) قام شهاب الدولة قتلش بغزو مدينة الري، ولكن السلطان ألب أرسلان حاكم بغداد سبقه في الوصول إليها وتحصن بها، وحدث القتال بين الطرفين عند مشارف مدينة الري انتصر فيه ألب أرسلان وقتل قتلش (٢١٣).

بعد ذلك خرج ألب أرسلان من مدينة الري في ربيع الأول من نفس السنة المذكورة متوجها إلى مدينة أني لمحاربة الروم، هذا إلى جانب ما كان بينه وبين شمس الملك تكين المتولى على بلاد ما وراء النهر من حروب، وقد انتهت بمقتل السلطان ألب أرسلان، وقد أوصى بأن تكون السلطة من بعده لابنه ملكشاه، فتولى السلطة في سنة (٤٦٥هـ / ١٠٧٢م)، وتوجه إلى مدينة الري (٢١٤)، ولكن نلاحظ أن (قاورت بك) عم السلطان ملكشاه المتولى على كرمان كانت له أطماع بالري وأعمالها، فسير جيوشه لاحتلالها، فاصطدم ملكشاه مع عمه ودار قتال بينهما عند مدينة همذان أسفر عن انتصار ملكشاه، فأسر عمه (قاورت) ثم أمر بقتله، وكان للوزير نظام الملك نور بارز في هذا النصر الذي حققه ملكشاه على عمه (٢١٥).

وقد أخذ سلطان ونفوذ ملكشاه يتسع حتى شمل من حد الصين شرقا إلى بلاد الشام غربا، ومن أقصى الشمال إلى اليمن، وكان يخطب له في هذه البلاد الواسعة، وحتى ملوك الروم كانوا يحملون إليه الجزية، واتسم حكمه بالعدل والسيرة الطيبة، وبعد وفاته خلفه ابنه محمود، وهو أصغر من أخيه (بركيارق)، وكان لأم محمود؛ (تركان خاتون) أو زبيدة خاتون نور بارز في وصول ابنها إلى السلطة ولكن (بركيارق) لم يقبل هذه القسمة فأخذ يحيك المؤامرات حتى استطاع إبعاد أخيه وتولى هو السلطة، وذهب إلى الري فوجد زبيدة خاتون أم أخيه فأمر بخنقها وكانت في الحمام، ثم بعد ذلك أخذ نفوذ (بركيارق) يتعاظم، فكان يخطب له في يوم الجمعة في مساجد بغداد، فضلا عن مدينة الري وأعمالها (٢١٦).

وفي سنة (٤٩٦هـ / ١١٠٢م) ظهر على مسرح الأحداث ينال بن أنوشتكين الحسامي، كمنافس خطير (لبركيارق)، وقد استطاع بمساعدة حاكم مدينة إصفهان السلطان محمد من

احتلال مدينة الري، والسلطان محمد هو أخ السلطان بركيارق، ولم تكن العلاقة بينهما طيبة بل اتسمت بالعداء والحروب الطويلة، يذكرها ابن الأثير وغيره من المؤرخين، وقد أراد ينال أن يرد الجميل للسلطان محمد، فأمر أئمة المساجد أن يخطبوا بالري للسلطان محمد، ولم يكن ينال الذي استولى على مدينة الري محبا لأهل الري، فقد أساء إليهم وصادر أموال بعض التجار، ولكن (بركيارق) لم يدعه يهنا بحكم الري فقد غزا الري بقيادة (برسق بن برسق) الذي تمكن من إلحاق الهزيمة بينال، فدخل (بركيارق) مدينة الري وهرب عنها ينال إلى منطقة الجبال وتفرق عنه جنده وأتباعه ولم يبق معه إلا القليل ذهب بهم إلى بغداد، فأكرمه الخليفة العباسي المستظهر بالله أبو العباس أحمد، ولكن بعد ذلك طرد من بغداد لسوء سلوكه مع الناس واعتدائه المتكررة على التجار (٢١٧).

وفي أثناء النزاع الطويل الذي أشرنا إليه والذي دار بين الأخوين، السلطان بركيارق والسلطان محمد في سنة (٤٩٦هـ) استطاع السلطان محمد في نهاية الأمر السيطرة على مدينة الري وطرد عنها نواب وأتباع السلطان (بركيارق)، ثم بعد ذلك تم الصلح بينهما، فكانت المناطق التي تحت نفوذ السلطان محمد هي: كنجة وبلاد أران (٢١٨)، بالإضافة إلى الري وأعمالها (٢١٩)، وبلغ اتساع مملكة السلطان محمد من حد خراسان وما وراء النهر إلى الري وتوابعها، ومات السلطان محمد في سنة (٥١٢هـ / ١١١٨م) وخلفه ابنه السلطان سنجر بن محمد، فقد ورث هذه المملكة وعمل جاهدا للمحافظة عليها وخاض الحروب من أجلها (٢٢٠).

ومن الملاحظ أن معظم هذه النزاعات والحروب كانت تقع بين أبناء البيت الحاكم، في سنة (٥١٣هـ / ١١١٩م)، وقعت خلافات بين السلطان سنجر وبين ابن أخيه السلطان محمود بن أحمد حيث كان السلطان محمود يطمع في السيطرة على مدينة الري، هذه الخلافات قادتهم إلى حدوث صدام عسكري بينهما داخل حدود مدينة الري، وقد هزم السلطان محمود في هذا النزاع، وعمل السلطان سنجر على تحصين حدوده بمدينة الري (٢٢١). وكان آخر هذه الحروب التي خاضها السلطان سنجر في سنة (٥٣٦هـ / ١١٤١م) مع الأتراك الخطا، فاستعد لقتالهم وفوض عنه ابن أخيه مسعود على مدينة الري، ولكن السلطان سنجر انهزم أمام الأتراك الخطا فاستولوا على بلاد ما وراء النهر. أما مدينة الري فإن مسعود تركها وذهب إلى بغداد بعد أن أناب عنه شخص يدعى الأمير عباس، وخلال وجود الأمير مسعود في بغداد استطاع الوصول إلى السلطة، فأصبح حاكما على بغداد (٢٢٢).

أما الأمير عباس فقد استقل بحكم مدينة الري وخرج عن طاعة السلطان مسعود، وقد شجعه أمير خوزستان وبلاد فارس المدعو (بوزابة) على التمرد، وكره الملك مسعود محاربتهم، وربما لم تكن الظروف مهيئة لهذا الغرض، فتصالح معهما في سنة (٥٤٠هـ / ١١٤٥م) (٢٢٣)، وتشير الدلائل إلى أن الأمير عباس قد حكم مدينة الري بالعدل، وأحسن إلى أهلها وتبع جماعات الباطنية فحاصروهم وتكل بهم واضطهدهم وقتل منهم الكثير حتى أن ابن الأثير يقول أنه عمل منارة من جماجمهم، ثم عول على الجيش فأنشأ قوة عسكرية كبيرة ليحتمي بها من العاديات، وفي ذات الوقت فإن هذه القوة الكبيرة أثارت حفيظة الملك مسعود ببغداد وتهيب منها وربما قد يكون هو المقصود والهدف من وراء إنشائها، فأخذ يحترز ويعمل من أجل الحد من هذه القوة أو التخلص من صاحبها، وقد جاءت هذه الفرصة مواتية عندما كان الأمير عباس ببغداد زائراً؛ ولعل الملك مسعود هو الذي استدرجه للقيام بمثل هذه الزيارة، فغدر به وقتله في سنة (٥٤١ / ١١٤٦م) وبذلك عادت مدينة الري مرة أخرى لنفوذ الملك مسعود (٢٢٤).

ولكن نفوذ الملك مسعود على مدينة الري كان ضعيفا بسبب انشغاله في أمور بغداد، ثم أن نائبه على الري الذي لم يعلن عن اسمه، لم يكن على مستوى من الكفاءة، هذه الظروف قد أفسحت المجال أمام القوى الطامعة أن تعاود لتمارس نشاطها من أجل السيطرة على مدينة الري، ومن بين هذه القوى؛ المماليك، يتزعمهم (إيتاخ) أو (إينانج) وهم مماليك السلطان سنجر، فقد استغلوا فرصة انشغال السلطان سنجر في حروبه مع الغز، فتركوا خراسان وتوجهوا نحو مدينة الري، وربما كانت الظروف التي تمر بها مدينة الري قد شجعتهم وساعدتهم لغزو مدينة الري، فاحتلوها في سنة (٥٤٨هـ / ١١٥٣م) (٢٢٥).

ومن الملاحظ أن هذه الفترة التي نتحدث عنها وما بعدها، تعتبر مرحلة مميزة في التاريخ السياسي لمدينة الري، فالري لم تعد القوة المركزية التي تهيمن على الولايات المجاورة لها، إذ أخذت تفقد الكثير من سيطرتها على أعمالها، فلم يعد لها نفوذ على هذه المدن، ويعود ذلك إلى أمرين: الأول يتمثل في اضطراب وضعها الداخلي وعدم استقراره، والثاني ظهور حكام أقوياء في هذه المدن قاموا بقطع هذه التبعية واستقلوا عن مدينة الري، وقد ذهب الأمر ببعضهم أبعد من ذلك، فقد طمعوا بغزو مدينة الري نفسها، وقد قام بذلك حاكم مدينة أرانية (٢٢٦) وأذربيجان المدعو (إيلدكز)، ولم تمنعه الصداقة وصلة الرحم التي كانت بينه وبين

(إيتاخ) حاكم مدينة الري، فقد كان محمد الملقب بالبهلوان وهو ابن (إيلدكز) زوجا لابنه (إيتاخ) ، فقد طمع (إيلدكز) أول الأمر بمدينة همذان ثم عدل عنها إلى مدينة الري لعداوة تولدت بينه وبين صهره (إيتاخ) حاكم مدينة الري ، وقد تطور هذا العداء إلى حدوث صدام عسكري بينهما أسفر عن خسارة (إيتاخ) ، وانتهت هذه الخصومة إلى عقد صلح بينهما ، ، شروطه أن يدفع (إيتاخ) (إيلدكز) في كل سنة مبلغا من المال (٢٢٧). ولكن (إيتاخ) نقض هذا الصلح ووجد أنه مجحف وغير منصف ، فامتنع عن دفع الأموال متعللا بكثرة المصاريف ، فقام (إيلدكز) بغزو مدينة الري فهرب (إيتاخ) إلى قلعة منيعة تعرف بطبرك سنة (٥٦٤هـ / ١١٦٨م) فلم يهدأ بال (إيلدكز) فاستأجر جماعة من المماليك لحقوا به وتمكنوا من قتله، إلا أن (إيلدكز) لم يقيم طويلا في مدينة الري فقد تركها وعاد إلى همذان بعد أن أناب عنه، عمر بن علي، وهو أحد الأتباع المقربين (٢٢٨)، وفي صيف سنة (٥٦٨هـ / ١١٧٢م) مات (إيلدكز) وخلفه على السلطة ابنه محمد الملقب بالبهلوان (٢٢٩).

الدولة الخوارزمية ومدينة الري:

كانت الدولة الخوارزمية تشكل خلال هذه الفترة أكبر قوة في تلك الأقاليم، فنفذها السياسي يشمل مدينة خوارزم ونيسابور ومدن أخرى، وجميعها كانت تحت نفوذ الملك خوارزم شاه، ولكن في سنة (٥٨٨هـ / ١١٩٢م) تحرك أحد سلاطين الأتراك المدعو طغرل بن ألب أرسلان وأراد أن يسترجع ما كان لأبيه وأجداده من سلطان على همذان وكذلك مدينة الري، وكانت الري وهمذان إبان هذه الفترة تحت نفوذ (قتلغ إينانج بن محمد البهلوان) ، فتوجه طغرل نحو همذان فاحتلها ، فهرب (قتلغ) إلى مدينة الري واتصل بالسلطان خوارزم شاه يطلب منه المساعدة لحمايته من طغرل بن ألب أرسلان ، وعلى الفور جاءت عسكر خوارزم شاه إلى مدينة الري، ولكن يبدو أن هذه العساكر لم تأت لتحمي وإنما لتستولي ، فقد طمع خوارزم شاه بمدينة الري، فخاف (قتلغ) على نفسه فهرب إلى قلعة طبرك الحصينة فحاصره خوارزم شاه، ولكنه سأم المقام بالري فلم يمكث طويلا وغادرها بعد أن ترك بها حامية تدير شئونها ، ليتصدى لأخيه سلطان شاه ويمنعه من احتلال مدينة خوارزم ، وقد أدى ذلك إلى حدوث نزاع بين الأخوين، ومن الطبيعي أن يستغل طغرل بن ألب أرسلان هذه الأوضاع فغزى مدينة الري مرة أخرى واحتلها في سنة (٥٩٠هـ / ١١٩٣م) وطرد عنها الحامية العسكرية (٢٣٠).

وعلى أثر ذلك تحرك (قتلغ إينانج) من مخبئه واتصل بالسلطان خوارزم شاه يعتذر له عما بدر منه ويعبر له عن سبب اختبائه عنه، ويطلب منه المساعدة لمحاربة طغرل، وقد أخذ السلطان خوارزم شاه يوازن بين (قتلغ) وبين طغرل، فوجد أن من المصلحة أن يقف إلى جانب (قتلغ) ويساعده عسكرياً ضد طغرل ذي الأطماع السياسية، هذا فضلاً عن العلاقة السيئة التي كانت بينه وبين طغرل، لذلك قبل عذر (قتلغ) وبعث معه قوة عسكرية لمحاربة طغرل، وقد تمكنت هذه القوة من هزيمة طغرل، فخضعت الري وهمدان لتنفيذ السلطان خوارزم شاه، ثم بعد ذلك سلمها بيد (قتلغ إينانج) ، وهذا دليل على أن العلاقة بينهما كانت طيبة، أو ربما أوضاع السلطان خوارزم حتمت عليه أن يفعل ذلك (٢٣١).

ولكن هذه العلاقة الطيبة كان عمرها قصيراً ما دامت هناك أطماع وتجاوزات ومنافسات للوصول إلى السلطة ، فالحامية العسكرية التي سبق أن تركها خوارزم شاه بمدينة الري عادت من جديد إليها، فكانت مصدر إيذاء ومضايقة (لقتلغ إينانج) ، فتصدى لهم ولكنهم كانوا أقوى منه، فخرج من الري ولجأ عند مؤيد الدين، وهو أبو الفضل محمد بن علي بن القصاب البغدادي وزير الخليفة العباسي الناصر لدين الله أبي العباس أحمد بن المستضيئ، الذي كان في زيارة لهذه المدن، وكان على رأس قوة عسكرية أتت بها لإخضاع هذه المدن لطاعة الخليفة، وكان لقاؤه بالوزير عند مدينة ميسان، فآكرمه الوزير وأحسن إليه وزوده بالخيول وما يحتاج إليه الجيش من الخيام، وخلع عليه وعلى من معه من الأمراء، وساروا جميعاً إلى كرمان شاه (٢٣٢)، ومنها إلى همدان وكانت العساكر الخوارزمية بهمدان، فلما علموا بقدوم جيش الخليفة تركوا همدان ورحلوا إلى مدينة الري، فتبعهم الوزير فتركوا الري إلى دامغان وبسطام (٢٣٣) وجرجان ، بينما استقر جند الخليفة بالري (٢٣٤).

وقد وجد (قتلغ إينانج) أنه لا نية للوزير مؤيد الدين أن يدعه وشأنه في حكم الري، فلم يكن أمامه إلا استخدام القوة ولكن الوزير استطاع القضاء على حركته، فهرب (قتلغ إينانج) إلى مدنية أوة (٢٣٥) فمنعته حامية الوزير من دخول المدينة، عند ذلك قرر محاربة الوزير، وأخذ يجمع الأتباع إلا أنها محاولات كانت يائسة إذ استطاع الوزير هزيمته، وقد عمل الوزير بعد ذلك على إحكام سيطرته على مدينة الري وهمدان وباقي المدن المجاورة ولكن الجيوش الخوارزمية لم تدعه فقد كانت له بالمرصاد ، إذ أرسل الملك خوارزم شاه الجيوش لغزو همدان والري، وتمكنت هذه الجيوش من إلحاق الهزيمة بجيش الخليفة الذي يقوده الوزير في سنة

(٥٩٠هـ / ١١٩٣م) بعد حروب دامت بينهما، وكان لموت الوزير مؤيد الدين فرصة طيبة أمام الجيوش الخوارزمية لفرض سيطرتها التامة على همذان والرى وسائر المدن المجاورة (٢٣٦).

ويبدو أن مسلسل الحركات الطامعة في غزو مدينة الرى لم يتوقف ، فكانوا يتحينون الفرص للسيطرة عليها، فقد استقلت جماعة من المماليك التي يطلق عليها الفهلوانية ونفر من الأمراء فرصة غياب الملك خوارزم شاه عن مدينة الرى فوثبوا على السلطة بالرى، ونصبوا عليهم شخصاً يدعى (كوجة) ؛ وهو من أعيان المماليك الفهلوانية ليكون أميراً عليهم ، ثم توجهوا إلى مدينة إصفهان لإخراج الخوارزمية عنها واحتلالها ، إلا أنهم فوجئوا بجيش الخليفة الناصر لدين الله يقوده سيف الدين طغرل قادماً لمحاربة الخوارزمية ، فترى المماليك ينتظرون ما يحدث بين الخوارزمية وجيش الخليفة، وقد فوجئوا بخروج الخوارزمية وتركهم لمدينة إصفهان ، وقد كان المماليك يمتلكون قوة عسكرية كبيرة لها وزنها، فوجد زعيم المماليك (كوجة) أن الفرصة مواتية ليتفاوض مع الخليفة العباسي، وقد تم الاتفاق على أن يحكم (كوجة) مدينة الرى وسواة (٢٣٧) وقم وقاشان وما والاها ، وتكون إصفهان وهمذان وزنجان وقزوين لديوان الخليفة، فوافق الخليفة على هذا الشرط ، وقد بعث الخليفة بالهدايا والخلع توكيدا على حسن العلاقة، كذلك اهتم الأمير (كوجة) بالناحية العسكرية ، لذلك أنشأ قوة كبيرة ليحافظ بها على حدود مدينة الرى وباقي المدن، وتكون رادعا لأعدائه الطامعين (٢٣٨).

ولم يكن السلطان خوارزم شاه غافلاً أو متهاوناً إزاء ما قام به الأمير (كوجة) من تحصينات وأعمال عسكرية استفزازية ، ولكنه كان ينتظر الوقت المناسب، ففي سنة (٥٩٤هـ / ١١٩٧م) قام بغزو مدينة همذان واحتلها ثم أتبعها باحتلال مدينة الرى وأعمالها ، وبعث للخليفة العباسي خطاباً شديداً بالهجة مشفوعاً بالتهديد والوعيد، وكان يطلب من الخليفة أن يعترف بسلطانه على المناطق التي احتلها والخطبة له في بغداد، فلم يستجب له الخليفة ، بل راح يعمل على كسر شوكته وإضعافه ، فاتصل بغياث الدين ملك الغور وغزنة يحرضه على خوارزم شاه، وقد فطن خوارزم شاه لخطط الخليفة، فراح يتصل بالأتراك الخطا يحرضهم ويؤلبهم على غياث الدين، وقد نجح في ذلك وفوت الفرصة على الخليفة وأحبط مخططه (٢٣٩)، وفي ذات الوقت أحكم قبضته على مدينة الرى وهمذان، وأقر على مدينة الرى شخصاً يدعى (مياجق) ، ونتيجة للظرف السياسي المضطرب الذي تمر به الدولة الخوارزمية فقد دفع ذلك (مياجق) إلى التمرد والخروج عن طاعة خوارزم شاه واستقل بحكم الرى في سنة (٥٩٥هـ / ١١٩٨م) (٢٤٠).

ومن الطبيعي أن يحدث مثل هذا التمرد والانفصال والاستقلال بحكم مدينة الري عند بعض العمال، ويعود ذلك نتيجة لأسباب سياسية وجغرافية، وفيما يتصل بالجانب السياسى فإن المدن الخاضعة للنفوذ الخوارزمى لم تكن مستقرة، وولاؤها للدولة الخوارزمية ضعيف ، لذلك فإن السلطان خوارزم شاه منهمك ومشغول للعمل على تأكيد نفوذه على هذه المدن ، هذا الوضع السياسى المتأزم وغير المستقر قد أفسح المجال أمام المسئولين فى مدينة الري إلى التمرد والثورة، هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فهناك العامل الجغرافى المتمثل فى بعد المسافة بين خراسان ومدينة الري .

ومع ما كان يمر به السلطان خوارزم شاه من صعاب إلا أنه استطاع أن يعيد سلطانه على مدينة الري، ولم يتمكن (مياجق) من الإفلات من يد خوارزم شاه وقرر قتله لولا وساطة (أفجة) ؛ أخو (مياجق) وكان من المقربين من السلطان خوارزم شاه^(٢٤١).

أمام هذه الأوضاع فإن الخليفة العباسى الناصر لدين الله ، وهو الضعيف سياسيا وعسكريا، اضطر إلى الإذعان وقبول الشروط التى أملاها عليه خوارزم شاه، إضافة إلى الهدايا والخلع التى بعثها إلى خوارزم شاه وإلى ابنه قطب الدين محمد، وقد توفى خوارزم شاه فى سنة (٥٩٦هـ / ١١٩٩م) وتولى السلطة بعده قطب الدين محمد الذى لقب نفسه بعلاء الدين^(٢٤٢).

مدينة الري والغزو المغولى:

عندما تعرض العالم الإسلامى إلى هجمات المغول التتار المدمرة فى القرن السابع الهجرى الثالث عشر الميلادى، لم تكن مدينة الري فى منأى عن هذا الدمار شأنها فى ذلك شأن باقى المدن الإسلامية، ففي سنة (٦١٧هـ / ١٢٢٠م) تعرضت مدينة الري إلى هجوم بربرى عنيف قام به التتار، ونتج عن ذلك قتل العديد من الرجال والأطفال وسبى النساء واسترقاق الأطفال، هذا فضلا عن اعتدائهم على معالم الحضارة فى مدينة الري فجعلوها خرابا، ومن ثم عينوا عليها حاكما من قبلهم وانتقلوا إلى مدينة همدان^(٢٤٣).

ولكن فى سنة (٦٢٠هـ / ١٢٢٣م) قام غياث الدين؛ وهو أحد أبناء خوارزم شاه، وكان يتولى إصفهان وكرمان، بهجوم مضاد ضد التتار استطاع أن يخلص مدينة الري من أيديهم، وكان غياث الدين بن خوارزم يعتمد كثيرا على خاله (إيغان طائيسى) فى تدبير شئون مملكته،

فكان لا يصدر أمرا إلا بعد مشورته، فهو المستشار الأول، فلما وجد الخال (إيفان طائيسى) أن جميع أمور الإدارة فى يده شجعه ذلك على الاستئثار بالسلطة ، وكان للحاشية دور فعال فى تنفيذ هذه المؤامرة، يضاف إلى ذلك ما قام به الخليفة العباسى الناصر لدين الله من دور مؤيد (إيفان طائيسى) ، فقد اتفق معه سرا بأن يقطع هذه البلاد بما فيها مدينة الرى، ولما علم غياث الدين بخيانه الخال أراد الانتقام منه فجمع الأتباع والمؤيدين وألحق الهزيمة بخاله، فهرب الخال إلى أذربيجان وأخذ غياث الدين بعد ذلك يتحصن فاهتم بالناحية العسكرية فأصبح نفوذه قويا على مدينة الرى وعلى سائر المدن التابعة لمملكته(٢٤٤).

ولكن خطر التتار لم يتوقف وقوتهم لم تضعف فقد قاموا فى مطلع سنة (٦٢١هـ / ١٢٢٤م) بشن هجوم مباغت على مدينة الرى اتسم بالعنف ، فأُسفر عن خسائر كبيرة فى الأرواح والممتلكات ، ثم انتقلوا بعد ذلك إلى المدن المجاورة ، وساعة الهجوم لم يكن غياث الدين موجودا فى المدينة، فقد كان خارج البلاد منذ سنة (٦٢٠هـ / ١٢٢٣م) متجها نحو خراسان بقصد غزوها وتم له احتلالها ، ومنها توجه إلى مدينة شيراز واحتلها واتخذها مقرا لحكمه خاصة بعد ما علم بتدمير مدينة الرى، ومدينة شيراز تقع فى الجنوب الشرقى لإيران وهى ذات موقع تجارى هام(٢٤٥).

وقد عاود التتار هجماتهم على مدينة الرى فى سنة (٦٢٥هـ / ١٢٢٧م)، فتصدى لهم جلال الدين ؛ أخو غياث الدين واشتد القتال بينهما وطالت مدته، إلا أنه انتهى بجلالهم عن الرى(٢٤٦)، ثم عاودوا هجومهم من جديد على المدينة فى سنة (٦٢٨هـ / ١٢٣٠م) وعلى مدينة همذان ، وقد ساعدتهم فى هذه المرة جماعات من أهل الرى من الباطنية الإسماعيلية المعادين للحكم الخوارزمى فى الرى، ودلوهم على مواطن الضعف التى يعانى منها جلال الدين، وأسفرت هجماتهم عن تدمير المدينة مرة أخرى ونهبها، وهكذا ظلت مدينة الرى تعاني من الضعف السياسى وعدم الاستقرار نتيجة لهجمات التتار المتكررة ونتيجة للاضطرابات فى الداخل من جهة أخرى (٢٤٧).

خاتمة البحث

هذه الجولة البحثية التي كانت بدايتها من العصر العباسي الثاني وحتى سقوط بغداد؛ أي من حوالي سنة (٢٣٢-٦٥٦ هـ / ٨٤٦-١٢٥٨ م) كانت فترة مزدهرة بالأحداث السياسية من تاريخ الري، وهذا دليل على أهمية هذه المدينة ذات الموقع الجغرافي المميز ذي الأبعاد الاقتصادية والسياسية والثقافية والعسكرية.

هذه الأحداث السياسية التي مرت بها مدينة الري، كانت عبارة عن سلسلة متصلة متشابهة من الصراعات العسكرية القتالية بين هذه القوى من أجل السيطرة على مدينة الري. هذا المناخ السياسي المتأزم المضطرب وغير المتوازن، جعل مدينة الري في حالة من عدم الاستقرار، وهذا الوضع لم يفسح لأى من هذه القوى المسيطرة على مدينة الري المجال للعمل من أجل النهضة الحضارية في هذه المدينة.

وبحكم موقع مدينة الري الجغرافي فإنها قد تأثرت بهذه الأحداث وتفاعلت معها، فآثرت وتأثرت بها، فقد تأثروا بأفكار ومعتقدات من غزاهم من هذه القوى، لذلك فقد تعددت بها المذاهب والمعتقدات، فهناك أهل السنة على اختلاف مذاهبهم والشيعية والمعتزلة والباطنية، هذه المذاهب كانت عرضة للاضطهاد والتنكيل من قبل القوى المتعاقبة المسيطرة على مدينة الري، فبعض هذه القوى كانت تلجأ إلى اضطهاد من يخالفها في العقيدة والمذهب وتنكل بهم، وهكذا استمر الوضع إبان فترة الاضطراب وعدم الاستقرار السياسي بمدينة الري.

ومع ما كانت تمر به مدينة الري من اضطراب وعدم استقرار إلا أنها أنجبت مجموعة من العلماء ورجال الدين البارزين في عالمنا الإسلامي، فكثيرا ما نقرأ ونسمع بلفظة (الرازي) نسبة إلى مدينة الري.

وباعتقادي أنه لو لم تتعرض مدينة الري لمثل هذا الدمار العسكري والاضطراب السياسي المستمر طوال العصر العباسي الثاني وحتى سقوط بغداد على يد المغول، لظلت مدينة الري محتفظة بدورها الحضاري الريادي إلى يومنا هذا، ولأصبحت هي العاصمة لدولة إيران الحديثة.

الهوامش

- ١- ابن الأثير (أبو الحسن بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم) : الكامل في التاريخ. دار الفكر، بيروت ١٣٩٨م هـ / ١٩٧٨م ج ٥ ص ٢٧٠-٢٧١ ، وانظر ابن خلدون (عبد الرحمن) : تاريخ ابن خلدون ، مكتبة المدينة، بيروت، ١٩٦٧م، مجلد ٣ ص ٥٧٤ .
- ٢- اليعقوبي (أحمد بن يعقوب بن جعفر بن وهب) : تاريخ اليعقوبي، دار بيروت، بيروت ١٣٩٠هـ / ١٩٧٠م، ص ٤٨٠، وانظر ابن الأثير : الكامل ج ٥ ص ٢٧١ .
- ٣- ابن الأثير : الكامل ج ٥ ص ٢٨٤ ، وانظر ابن خلدون : مجلد ٣ ص ٥٨٢، وانظر ابن العبري (غريغوريوس أبي الفتح هارون الماطي) : تاريخ مختصر الدول، بيروت ١٨٩٠م، ص ٢٧٤ .
- ٤- ابن الأثير : الكامل ج ٥ ص ٣٠١ .
- ٥- ابن الأثير : الكامل ج ٥ ، ص ٢٩٦ .
- ٦- هو الحسن بن زيد بن محمد بن إسماعيل بن الحسن بن زيد بن الحسن بن علي بن أبي طالب. انظر الطبري (محمد بن جرير) : تاريخ الأمم والملوك، دار القاموس الحديث، سوريا (بدون تاريخ) ، ج ١١ ص ٩٢ - ٩٣ .
- ٧- الطبري : تاريخ الأمم والملوك، ج ١١ ص ٩٢-٩٣ وانظر ابن الأثير : الكامل ج ٥ ص ٣١٦ .
- ٨- الطبري : ج ١١ ص ٩١-٩٢ ، وانظر ابن الأثير : ج ٥ ص ٣١٦ .
- ٩- ابن الأثير : ج ٥ ص ٣١٦ .
- ١٠- الطبري : ج ١١ ص ٩٢ ، وانظر ابن الأثير : ج ٥ ص ٣١٦ .
- ١١- الطبري : ج ١١ ص ٩٢ ، وانظر ابن الأثير ج ٥ ص ٣١٦ .
- ١٢- الطبري : ج ١١ ص ٩٣ وانظر المقدسي (أبو زيد أحمد بن سهل المطهر بن طاهر) : البدء والتاريخ ، باعتناء كلمان هوار، باريس ١٩١٩، ج ٦، ص ١٢٤ ، وانظر ابن الأثير : ج ٥ ص ٣١٧ .
- ١٣- الطبري ج ١١ ص ٩٣ وانظر المطهر المقدسي، ج ٦ ص ١٢٤ ، وابن الأثير ج ٥ ص ٣١٧ .
- ١٤- ابن الأثير : ج ٥ ص ٣١٧ .
- ١٥- لم تتمكن من معرفة باقي اسمه، غير أن الطبري يذكر أنه من أهل مدينة (اللاز) الطبري : ج ١١ ص ٩٣ ؛ و (اللاز) قرية من أعمال أمل بطيرستان ، ياقوت (أبو عبدالله بن عبدالله) : معجم البلدان، دار صادر، بيروت ١٣٩٧هـ / ١٩٧٢م) مجلده ص ٧ ، بينما يكتفي ابن الأثير بذكر إسم (واجن) فقط دون تعليق ، ابن الأثير : ج ٥ ص ٣١٧ .

- ١٦- الطبرى ج ١١ ص ٩٣ ، وانظر ابن الأثير : ج ٥ ص ٣١٧ .
- ١٧- الطبرى : ج ١١ ص ٩٣ ، وانظر ابن الأثير : ج ٥ ص ٣١٧ .
- ١٨- على مرسى (د. نعمة) : دولة آل زيان فى طبرستان وجرجان وما جاورها، دار الهداية (بدون تاريخ) ص ١٠ .
- ١٩- الطبرى : ج ١١ ص ٩٣ .
- ٢٠- ابن الأثير : ج ٥ ص ٢٢٩ .
- ٢١- المسعودى: مروج الذهب ، ج ٤ ص ٦٩ .
- ٢٢- المسعودى : ج ٤ ص ٩٦ .
- ٢٣- ابن الأثير : ج ٥ ص ٢٤٥ .
- ٢٤- المسعودى: ج ٤ ص ١٠٨ ، وانظر ابن خلدون : مجلد ٣ ص ٦٣٧ .
- ٢٥- ابن خلدون : مجلد ٣ ص ٧١٤ .
- ٢٦- ابن الأثير: ج ٥ ص ٣٦٠-٣٦٤ .
- ٢٧- ابن كثير (أبو الفداء الحافظ) : البداية والنهاية، باعتناء د. أحمد أبو ملح وأخرين ، دار الكتب العلمية ، بيروت ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٧ م) ، مجلد ٦ ص ٢٧ .
- ٢٨- ابن الأثير : ج ٥ ص ٣٦٠-٣٦٤ وانظر ابن خلدون: مجلد ٣ ص ٧١٤ .
- ٢٩- ابن الأثير : ج ٥ ص ٣٦٧ .
- ٣٠- ابن الأثير : ج ٥ ص ٣٧١ .
- ٣١- ابن الأثير: : ج ٦ ص ٢ .
- ٣٢- ابن خلدون : مجلد ٣ ص ٧١٦ .
- ٣٣- ابن الأثير : ج ٦ ص ١٣ .
- ٣٤- ابن الأثير : ج ٦ ص ٢٤ ، وانظر ابن خلدون: مجلد ٣ ص ٧١٨ ، وانظر ابن كثير: البداية مجلد ٦ ج ١١ ص ٤٢ .
- ٣٥- ابن خلدون : مجلد ٣ ص ٦٩٨ .
- ٣٦- ابن كثير: : مجلد ٦ ج ١١ ص ٥٤ .
- ٣٧- ابن خلدون : مجلد ٣ ص ٧٣٠ .
- ٣٨- المسعودى : مروج الذهب، ج ٤ ص ١٥٤ ، وانظر ابن خلدون : مجلد ٣ ص ٧٣٠ .

- ٣٩- المسعودي : ج ٤ ص ١٥٧ .
- ٤٠- المسعودي : ج ٤ ص ١٥٧ ، وانظر ابن الأثير : ج ٦ ص ٧٨ ، وانظر ابن خلدون : مجلد ٣ ص ٧٣٢ .
- ٤١- ابن كثير : البداية : مجلد ٦ ج ١١ ص ٧٥ .
- ٤٢- ابن الأثير : ج ٦ ص ٨٠ ، وانظر ابن خلدون : مجلد ٣ ص ٧٣٤ .
- ٤٣- ابن الأثير : ج ٦ ص ٨٨ .
- ٤٤- ابن الأثير : ج ٦ ص ١٠٤-١٠٧ ، وانظر ابن خلدون : مجلد ٣ ص ٧٤٥-٧٤٦ .
- ٤٥- ابن مسكويه (أبو علي أحمد بن محمد) : تجارب الأمم ، باعتناء > أمديون ، مصر ١٢٣٢هـ / ١٩١٤م ، ج ١ ص ٣٢ ، وانظر ابن الأثير : ج ٦ ص ١٤٤ ، وانظر ابن خلدون : مجلد ٣ ص ٧٧٠ .
- ٤٦- ابن الأثير : ج ٦ ص ١٥٥ .
- ٤٧- ابن مسكويه : ج ١ ص ٤٥-٤٦ ، وانظر ابن الأثير : ج ٦ ص ١٥٥ ، وانظر ابن خلدون : مجلد ٣ ص ٧٧٤ ؛ ٧٧٥ .
- ٤٨- ابن الأثير : ج ٦ ص ١٥٥ .
- ٤٩- ابن مسكويه : ج ١ ص ٤٦-٤٧ .
- ٥٠- ابن الأثير : ج ٦ ص ١٦ ، وانظر ابن خلدون : مجلد ٣ ص ٧٧٧ .
- ٥١- ابن مسكويه : ج ١ ص ٥٦ .
- ٥٢- ابن الأثير : ج ٦ ص ١٥٦ ، وانظر ابن خلدون : مجلد ٣ ص ٧٧٦ .
- ٥٣- ابن الأثير : ج ٦ ص ١٦٦ ، وانظر ابن خلدون : مجلد ٣ ص ٧٧٦ .
- ٥٤- ابن مسكويه : ج ١ ص ٨٢-٨٣ ، وانظر ابن الأثير : ج ٦ ص ١٧١ .
- ٥٥- ابن مسكويه : ج ١ ص ١١٩ ، وانظر ابن الأثير : ج ٦ ص ١٧٥ ، وانظر ابن خلدون : مجلد ٣ ص ٨١٤ .
- ٥٦- ابن مسكويه : ج ١ ص ١١٩ ، وانظر ابن الأثير : ج ٦ ص ١٧٥ .
- ٥٧- ابن الأثير : ج ٦ ص ١٨٥ ، وانظر ابن خلدون : مجلد ٣ ص ٧٨٠ .
- ٥٨- ابن الأثير : ج ٦ ص ١٨٥ ، وانظر ابن خلدون : مجلد ٣ ص ٧٨٠-٧٨١ .
- ٥٩- التتوخي (القاضي أبو علي الحسن بن علي) : نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة ، تحقيق عبود الشالجي المحامي ، ١٣٩١هـ / ١٩٧١م) ج ١ ص ٣٢٤ .
- ٦٠- المسعودي : مروج ، ج ٤ ص ٢٧٩ .
- ٦١- التتوخي : نشوار ، ج ١ ص ٣٢٤ .

- ٦٢- ابن الأثير: ج ٦ ص ١٩٥ .
- ٦٣- ابن مسكويه : ج ٢ ص ١٦١ ، وانظر ابن الأثير : ج ٦ ص ١٩٦ .
- ٦٤- ابن مسكويه : ج ٢ ص ١٦١ ، وانظر القنوخى : نشوار : ج ١ ص ٣٢٤ ، وانظر ابن الأثير: ج ٦ ص ١٩٨ ، وانظر ابن كثير : البداية : مجلد ٦ ج ١١ ص ١١٦ .
- ٦٥- ابن الأثير: ج ٦ ص ٢١٤ .
- ٦٦- ابن الأثير: ج ٦ ص ٢٣٠-٢٣٢ .
- ٦٧- الأهواز أصلها أحواز، فقلبتا الفرس إلى أهواز لأنه ليس فى كلام الفرس حاء . وهى بلدة كبيرة تقع بين البصرة وفارس، تضم مجموعة من المدن، مثل سوق الأهواز ورام هرمز إيذح وعسكر مكرم وتستر وغيرها . انظر ياقوت الحموى : معجم البلدان ، مجلد ١ ص ٢٨٤ .
- ٦٨- بنو بويه : اسم لأسرة كانت تسكن بلاد الديلم من بلاد فارس، وكان ألمع رجالها ثلاثة : وهم : عماد الدولة أبو الحسن على وركن الدولة أبو على الحسن ومعز الدولة أبو الحسين أحمد وهم أولاد أبى شجاع بويه بن فناخسرو بن تمام . وقد اختلف المؤرخون حول المكانة الاجتماعية لهذه الأسرة ، فبعضهم من ينسبهم إلى ملوك ساسان، والبعض الآخر يقول : أنهم من دهماء الناس. انظر ابن خلكان (أحمد بن محمد بن أبى بكر) : وفيات الأعيان . تحقيق د. إحسان عباس، دار الثقافة ، بيروت (بدون تاريخ) ، المجلد ١ ص ٤٠٥ ، وانظر محمود (د. حسن أحمد وأحمد الشريف) : العالم الإسلامى فى العصر العباسى ، دار الفكر العربى ١٩٧٧، ص ٤٩٠ .
- ٦٩- ابن الأثير : ج ٦ ، ص ٢٢٩-٢٣٨ .
- ٧٠- ابن مسكويه : ج ١ ص ٢٦٥ .
- ٧١- ابن الأثير : ج ٦ ص ٢٣٦ .
- ٧٢- ابن مسكويه : ج ١ ص ١٦٢ .
- ٧٣- ابن الطقطقى (محمد بن على بن طباطبا) تاريخ الدولة الإسلامية ، دار صادر، بيروت ١٣٨٠هـ / ١٩٦٠م ص ٢٨٠ ، وانظر ابن خلدون : مجلد ٣ ص ٨٥٤ .
- ٧٤- ابن الأثير : ج ٦ ص ٢٦٧ ، وانظر ابن خلدون : مجلد ٣ ص ٨٥٤ .
- ٧٥- ابن مسكويه : ج ١ ص ٤١١ ، وانظر ابن الأثير : ج ٦ ص ٢٧٠ ، وانظر ابن خلدون : مجلد ٣ ص ٨٥٤ .
- ٧٦- ابن مسكويه : ج ١ ص ٤١١ ، وانظر ابن الأثير : ج ٦ ص ٢٧٢ .
- ٧٧- ابن مسكويه : ج ٢ ص ٤-٥ ، وانظر ابن الأثير : ج ٦ ص ٢٧٣ .

- ٧٨- ابن الأثير: ج ٦ ص ٢٧٨ .
- ٧٩- ابن مسكويه : ج ٢ ص ٦ ، وانظر ابن الأثير: ج ٦ ص ٢٧٨ .
- ٨٠- ابن مسكويه : ج ٢ ص ٦ ، وانظر ابن الأثير : ج ٦ ص ٢٧٨ .
- ٨١- ابن مسكويه : ج ٢ ص ٨ ، وانظر ابن الأثير : ج ٦ ص ٢٨٨ .
- ٨٢- ابن مسكويه : ج ٢ ص ٨ وانظر ابن الأثير : ج ٦ ص ٣١١ .
- ٨٣- ابن الأثير: ج ٦ ص ٣١١ .
- ٨٤- ابن الأثير: ج ٦ ص ٣١٢ .
- ٨٥- ابن الأثير: : ج ٦ ص ٣١٢ .
- ٨٦- ابن مسكويه : ج ٢ ص ١٠٢ ، وانظر ابن الأثير : ج ٦ ص ٣١٩ .
- ٨٧- ابن الأثير : ج ٦ ص ٣٢٠ .
- ٨٨- ابن مسكويه : ج ٢ ص ١٠٨ ، وانظر ابن الأثير : ج ٦ ص ٣٢٤ .
- ٨٩- ابن الأثير : ج ٦ ص ٣٢٦ .
- ٩٠- ابن الأثير: ج ٦ ص ٣٢٨ .
- ٩١- ابن مسكويه : ج ٢ ص ١١٧ ، وانظر ابن الأثير : ج ٦ ص ٣٢٩ .
- ٩٢- ابن مسكويه : ج ٢ ص ١٣٢ ، وانظر ابن الأثير : ج ٦ ص ٣٣٠ .
- ٩٣- ابن مسكويه : ج ٢ ص ١٣٢ ، وانظر ابن الأثير : ج ٦ ص ٣٣٠ .
- ٩٤- ابن مسكويه : ج ٢ ص ١٣٢ ، وانظر ابن الأثير: ج ٦ ص ٣٣٠ .
- ٩٥- شيراز : تقع في الجنوب الشرقي من إيران ، في إقليم بلاد فارس وهي من أكبر مدنه، فهي قصبة هذه البلاد. ياقوت : معجم البلدان مجلد ٣ ص ٢٨٠ .
- ٩٦- ابن الأثير: : ج ٦ ص ٣٣٢ .
- ٩٧- العمري (محمد بن علي بن محمد) : الأنباء في تاريخ الخلفاء، تحقيق د. قاسم السامرائي ، المهدى الهولندي للآثار، القاهرة ١٩٧٣م، ص ١٧٧ .
- ٩٨- ابن مسكويه : ج ٢ ص ١٢٨-١٣٩ ، وانظر ابن الأثير: ج ٦ ص ٣٣٥ .
- ٩٩- ابن مسكويه : ج ٢ ص ١٢٨-١٣٩ ، وانظر ابن الأثير: ج ٦ ص ٣٣٥-٣٣٦ .
- ١٠٠- ابن الأثير: ج ٦ ص ٣٣٨ .
- ١٠١- نسا : مدينة تابعة لولاية خراسان، وذكروا أن المسلمين الفاتحين هم الذين أطلقوا عليها اسم

(نساء) لأنهم لما فتحوها لم يجدوا بها رجالا انظر صفى الدين البغدادي (عبد المؤمن بن عبد الحق) :
مراصد الإطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع ، تحقيق وتعليق على محمد البجاوي، دار إحياء الكتب
العربية ، ١٣٧٣هـ / ١٩٥٤م ج ٢ ص ١٣٦٩ .

١٠٢- ابن الأثير: ج ٦ ص ٣٣٨ .

١٠٣- ابن الأثير: ج ٦ ص ٢٤٢ .

١٠٤- ابن مسكويه : ج ٢ ص ١٥٤ ، وانظر ابن الأثير: ج ٦ ص ٢٤٤ .

١٠٥- ابن مسكويه : ج ٢ ص ١٥٥ ، وانظر ابن الأثير : ج ٦ ص ٢٤٤ .

١٠٦- ابن الأثير: ج ٦ ص ٣٤٥ .

١٠٧- ابن مسكويه : ص ١٥٧ ، وانظر ابن الأثير : ج ٦ ص ٢٤٦ .

١٠٨- ابن مسكويه : ج ٢ ص ١٥٧ ، وانظر ابن الأثير: ج ٦ ، ص ٢٤٧ .

١٠٩- ابن الأثير: ج ٦ ص ٢٤٨ .

١١٠- ابن مسكويه : ج ٢ ص ١٦١ ، وانظر ابن الأثير : ج ٦ ص ٢٤٨ .

١١١- ابن الأثير: ج ٦ ص ٣٥٣ .

١١٢- ابن الأثير: ج ٦ ص ٢٤٧ .

١١٣- ابن الطقطقي : تاريخ الدولة الإسلامية، ص ٢٨٠ .

١١٤- ابن مسكويه : ج ٢ ص ١٦٨ ، وانظر ابن الأثير : ج ٦ ص ٢٥٦ .

١١٥- ابن الأثير: ج ٦ ص ٢٥٩ .

١١٦- ابن الأثير: ج ٧ ص ٢ .

١١٧- ابن الأثير : ج ٧ ص ١٨ .

١١٨- العمري : الأنباء في تاريخ الخلفاء ، ص ٨٩ .

١١٩- ابن مسكويه : ج ٢ ص ٢٢٢-٢٢٣ ، وانظر ابن الأثير : ج ٧ ص ١٨ .

١٢٠- ابن مسكويه : ج ٢ ص ٢٣٢-٢٣٣ وانظر ابن الأثير: ج ٧ ص ٢٣ .

١٢١- ابن الأثير: ج ٧ ص ٢٣ .

١٢٢- ابن مسكويه : ج ٢ ص ٢٧٠-٢٧١ ، وانظر ابن الأثير: ج ٧ ص ٣٧-٣٨ .

١٢٣- ابن الأثير: ج ٧ ص ٦٠-٦١ .

١٢٤- ابن الأثير: ج ٧ ص ٨٠ وانظر الحافظ الذهبي : العبر في أخبار من غير، تحقيق فؤاد سيد، مطبعة

حكومة الكويت ، ١٩٨٤م، ج ٢ ص ٢٤١ .

- ١٢٥- ابن الأثير: ج ٧ ص ٨١ ، وانظر ابن كثير : البداية ج ١١ ، ص ٢٠١ .
- ١٢٦- ابن مسكويه : ج ٢ ص ٣٦٥ وما بعدها ، وانظر ابن الأثير : ج ٧ ص ٨٢-٩٠ .
- ١٢٧- ابن الأثير: ج ٧ ص ١٠١ .
- ١٢٨- ابن الأثير : ج ٧ ص ١٠٣ .
- ١٢٩- سهرورد : مدينة تابعة لمدينة زنجان في منطقة الجبال ، وهي من أعمال مدينة الري ، وكانت من مراكز الثقافة والعلم ، فقد أنجبت الكثير من العلماء كانوا يترددون على بغداد . أنظر ياقوت الحموي ، معجم البلدان مجلد ٢ ص ٢٨٩ .
- ١٣٠- القزويني (عبد الكريم بن محمد الرافعي) : التلويين في أخبار قزوين ، تحقيق عزيز الله العطاردي ، دار الكتب العلمية ، بيروت - لبنان ١٤٠٨هـ / ١٩٨٧م ، ج ٣ ص ١١٩ ، وانظر ابن الأثير: ج ٧ ص ٩٤ .
- ١٣١- الفارقي (أحمد بن يوسف بن علي بن الأزرق) : تاريخ الفارقي ، تحقيق د. بدوي عبد اللطيف عوض ، المطابع الأميرية ، القاهرة ١٣٧٩هـ / ١٩٥٩م ص ٧٠ .
- ١٣٢- ابن الأثير: ج ٧ ص ١٠٨ .
- ١٣٣- ابن الأثير: ج ٧ ص ١٠٨ .
- ١٣٤- أبو شجاع : (محمد بن الحسين الروذراودي) : ذيل تجارب الأمم ، مطبعة التمدن بمصر ١٣٣٤هـ / ١٩١٦م ، ج ٢ ص ٣٩ ، وانظر ابن الأثير : ج ٧ ص ١١٣ .
- ١٣٥- ابن الأثير: ج ٧ ص ١١٧-١١٨ .
- ١٣٦- ابن الأثير: ج ٧ ص ١٢٧-١٣٠ .
- ١٣٧- ابن الأثير: ج ٧ ص ١٣٤ .
- ١٣٨- ابن الأثير: ج ٧ ص ١٣٤ .
- ١٣٩- ابن الأثير ، ج ٧ ص ١٣٦ .
- ١٤٠- ابن الأثير: ج ٧ ص ١٣٩-١٤٠ .
- ١٤١- العمراني : ص ٨٤ .
- ١٤٢- الفارقي : ص ٧٠ ، وانظر ابن الأثير: ج ٧ ص ١٦٩ .
- ١٤٣- أبو شجاع : ذيل تجارب الأمم ج ٣ ص ٢٦١ .
- ١٤٤- أبو شجاع : ج ٣ ص ٢٦١ .
- ١٤٥- ابن الأثير: ج ٧ ص ١٧٠ .

- ١٤٦- أبوشجاع : ج ٢ ص ٢٦٢ .
- ١٤٧- أبوشجاع : ج ٢ ص ٢٦٣ .
- ١٤٨- أبوشجاع : ج ٢ ص ٢٦٤ .
- ١٤٩- أبوشجاع : ج ٢ ص ٢٩١ .
- ١٥٠- العمراني : ص ٨٤ .
- ١٥١- ابن الأثير : ج ٧ ص ١٨٦ .
- ١٥٢- أبوشجاع : ج ٢ ص ٢٩٧ ، وانظر ابن الأثير : ج ٧ ص ١٩١-١٩٣ .
- ١٥٣- أبوشجاع : ج ٢ ص ٢٩٨ .
- ١٥٤- أبوشجاع : ج ٢ ص ٢٩٨ .
- ١٥٥- أبوشجاع : ج ٢ ص ٢٩٨ .
- ١٥٦- أبوشجاع : ج ٢ ص ٢٩٨ .
- ١٥٧- براون (إيوارد روجر أنفيل) : تاريخ الأدب في إيران، ترجمة د. إبراهيم أمين الشواربي ، مطبعة السعادة بمصر ١٣٧٢ هـ / ١٩٥٤ م، ص ١٩٨ .
- ١٥٨- نعمة : دولة آل زيان في طبرستان ص ٧٤ .
- ١٥٩- براون : ص ١٩٨ .
- ١٦٠- أبوشجاع : ج ٢ ص ٢١١ ، وانظر ابن الأثير : ج ٧ هامش ص ١٩٠ ، وانظر ابن كثير : ج ١١ ص ٢٤٦ .
- ١٦١- أبوشجاع : ج ٢ ص ٤٤٩ .
- ١٦٢- أبوشجاع : ج ٢ ص ٤٥٠ ، وانظر ابن الأثير : ج ٧ ص ٢٤٠ .
- ١٦٣- أبوشجاع : ج ٢ ص ٤٥٠ .
- ١٦٤- أبوشجاع : ج ٢ ص ٤٥٢ ، وانظر لابن الأثير : ج ٧ ص ٢٤٠ .
- ١٦٥- أبوشجاع : ج ٢ ص ٤٥٢ .
- ١٦٦- ابن الأثير : ج ٧ ص ٢٣٩ .
- ١٦٧- ابن الأثير : ج ٧ ص ٢٤٠ .
- ١٦٨- ابن الأثير : ج ٧ ص ٢٧٤ .
- ١٦٩- ابن الأثير : ج ٧ ص ٢٣٥ .
- ١٧٠- ابن الأثير : ج ٧ ص ٢٣٥-٢٣٦ .

- ١٧١- ابن الأثير: ج ٧ ص ٢٣٦ ، وانظر البروفيسور رينولد ، أ. نكلسن : تاريخ الأدب العباسي ، ترجمة د. صفاء خلوصي ، منشورات المكتبة الأهلية ، بغداد ١٣٨٧ هـ / ١٩٦٧ م ، ص ٢٨ .
- ١٧٢- ابن الأثير: ج ٧ ص ٢٣٥-٢٣٦ .
- ١٧٣- سرجهان : قلعة تشرف على جبال الديلم، وتحدها من المدن قزوين و زنجان، وهي قلعة وربما اتسعت رقعتها حتى أصبحت مدينة. انظر ياقوت الحموي : مجلد ٣ ص ٢٠٧ .
- ١٧٤- ابن الأثير : ج ٧ ص ٢٣٦ .
- ١٧٥- ابن الأثير : ج ٧ ص ٢٣٨-٢٣٩ .
- ١٧٦- أبو الفضل البيهقي (محمد بن حسين) : تاريخ البيهقي ، ترجمة يحيى خشاب وصادق نشأت ، مكتبة الانجلو المصرية (لا يوجد تاريخ للطبع) ، ص ٦٨ ، وانظر ابن الأثير: ج ٧ ص ٢٣٨-٢٣٩ .
- ١٧٧- أبو الفضل البيهقي: ص ١٦-١٧ ، وانظر ابن الأثير: ج ٧ ص ٢٤٥ .
- ١٧٨- ابن الأثير : ج ٧ ص ٢٤٧ .
- ١٧٩- أبو الفضل البيهقي : ص ١٨ .
- ١٨٠- أبو الفضل البيهقي: ص ١٩ .
- ١٨١- أبو الفضل البيهقي : ص ١٨ .
- ١٨٢- ابن الأثير: ج ٧ ص ٢٤٧ .
- ١٨٣- أبو الفضل البيهقي : ص ١٧ .
- ١٨٤- أبو الفضل البيهقي : ص ٢٤ .
- ١٨٥- أبو الفضل البيهقي : ص ١٦ ، وانظر ابن الأثير : ج ٧ ص ٢٤٧ .
- ١٨٦- أبو الفضل البيهقي : ص ٤١٠ .
- ١٨٧- أبو الفضل البيهقي: ص ٤١٠ .
- ١٨٨- قصران : موضعان حصينان في جبال الري، يأتى إليهما الفارون من السلطة ، انظر ياقوت الحموي: معجم البلدان مجلد ٤ ص ٢٥٣ .
- ١٨٩- ابن الأثير : ج ٧ ص ٢٤٨-٢٤٩ .
- ١٩٠- ابن الأثير: ج ٧ ص ٢٥٤-٢٥٥ .
- ١٩١- ابن الأثير: ج ٧ ص ٢٥٦ .
- ١٩٢- ابن الأثير: ج ٨ ص ٢-٣ .

- ١٩٣- ابن الأثير: ج ٨ ص ٤ .
- ١٩٤- أبو الفضل البيهقي : ص ٤١١ .
- ١٩٥- أبو الفضل : البيهقي : ص ٤١٢ .
- ١٩٦- أبو الفضل البيهقي : ص ٤١٥-٤١٦ .
- ١٩٧- ابن الأثير: ج ٨ ص ٤ .
- ١٩٨- إيدج: بلدة تقع بين خوزستان وإصفهان ، ومناخها شديد البرودة وأكثر إنتاجها من الفواكه . أنظر
ياقوت الحموي : معجم البلدان مجلد ١ ص ٢٨٨ .
- ١٩٩- ابن الأثير : ج ٨ ص ٦ .
- ٢٠٠- الطرم : قلعة حصينة من بلاد فارس؛ وكان الجغرافيون يطلقون على الأجزاء الجنوبية الشرقية من
إيران اسم بلاد فارس، أنظر ياقوت الحموي: معجم البلدان مجلد ٤ ص ٣٢ .
- ٢٠١- ابن الأثير: ج ٨ ص ١٠ .
- ٢٠٢- ابن الأثير: ج ٨ ص ٢٦-٢٧ .
- ٢٠٣- ابن الأثير: ج ٨ ص ٣٠ .
- ٢٠٤- الفارقي: ص ١٥٥ ، وأنظر العمراني : ص ١٨٨ ، وأنظر ابن الأثير : ج ٨ ص ٣٤-٣٥ ، وأنظر ابن
كثير: ج ١٢ ص ٥٤ .
- ٢٠٥- ابن كثير : ج ١٢ ص ٥٤ .
- ٢٠٦- الحافظ الذهبي: العبر ، ج ٢ ص ١٨٤ .
- ٢٠٧- ابن الأثير: ج ٨ ص ٢٤ .
- ٢٠٨- ابن الأثير: ج ٨ ص ٤٦ .
- ٢٠٩- ابن الأثير: ج ٨ ص ٥٤ ، وأنظر ابن كثير : ج ١٢ ص ٦٦ ، وأنظر الحافظ الذهبي: ج ٢ ص ٢٠٣ .
- ٢١٠- ابن الأثير: ج ٨ ص ٨٧ ، وأنظر الحافظ الذهبي : ج ٢ ص ٢٢٦ ، وأنظر براون (إيوارد): تاريخ
الآدب في إيران ص ٢١٣ .
- ٢١١- ابن الأثير: ج ٨ ص ٩٤ ، وأنظر بن العبري (غريغوريوس أبي الفرج بن هارون الملقب) ، تاريخ
مختصر الدول المطبعة الكاثوليكية بيروت ١٨٩٠م، ص ٣٢١ ، وأنظر ابن كثير : ج ١٢ ص ٩٥ .
- ٢١٢- ابن الأثير: ج ٨ ص ٩٨ ، وأنظر ابن كثير : ج ١٢ ص ٩٧ ، وأنظر الحافظ الذهبي : ج ٢
ص ٢٣٨-٢٣٩ .
- ٢١٣- ابن الأثير: ج ٨ ص ٩٩ - ١١٢ - ١١٣ .

- ٢١٤- ابن الأثير: ج ٨ ص ١١٤ .
- ٢١٥- ابن الأثير: ج ٨ ص ١٦٣-١٧٠ ، وانظر ابن كثير: ج ١٢ ص ١٦٧ ، وانظر القلقشندي (أحمد بن عبد الله) : مآثر الإنافة في معالم الخلافة، تحقيق عبد الستار أحمد فراج، مطبعة حكومة الكويت ١٩٨٥م، ج ٢ ص ١٢-١٣ وانظر براون : تاريخ الأدب في إيران ص ٢٧٥ .
- ٢١٦- ابن الأثير: ج ٨ ص ٢١٤-٢١٥ ، وانظر ابن كثير : ج ١٢ ص ١٧٥ .
- ٢١٧- أران : عبارة عن إقليم في إيران ويضم مجموعة من المدن، انظر ياقوت الحموي: معجم البلدان، مجلد ١-٤ ص ١٣٦-٤٨٢ .
- ٢١٨- ابن الأثير: ج ٨ ص ٢١٦-٢١٧ .
- ٢١٩- الفارقي : ص ٢٨٦ .
- ٢٢٠- القلقشندي : ج ٢ ص ٢٥ .
- ٢٢١- ابن الأثير: ج ٩ ص ٢ .
- ٢٢٢- ابن الأثير: ج ٩ ص ١٠ .
- ٢٢٣- ابن الأثير: ج ٩ ص ١٥ ، وانظر ابن كثير : ج ١٢ ص ٢٣٧ .
- ٢٢٤- ابن الأثير : ج ٩ ص ٤١ .
- ٢٢٥- وهو نفس الاسم لإقليم أران الذي مر ذكره .
- ٢٢٦- ابن الأثير : ج ٩ ص ٣٧-٤٧ .
- ٢٢٧- ابن الأثير: ج ٩ ص ١٠٤ .
- ٢٢٨- ابن الأثير: ج ٩ ص ١١٩ .
- ٢٢٩- ابن الأثير: ج ٩ ص ٢٣٠-٢٣١ ، وانظر ابن كثير : ج ١٣ ص ١٠-١١ ، وانظر القلقشندي : مآثر الإنافة في معالم الخلافة ج ٢ ص ٥٨ .
- ٢٣٠- ابن الأثير: ج ٩ ص ٢٣٠-٢٣١ ، وانظر ابن كثير : ج ١٣ ص ١٠-١١ ، وانظر القلقشندي : الأناقة ج ٢ ص ٥٨ .
- ٢٣١- كرمان شاه : من ولايات إيران الكبيرة ، وتضم مجموعة من المدن والقرى ، تحدها من الشمال خراسان ومن الجنوب الشرقي بحر فارس ومكران ، انظر ياقوت الحموي: معجم البلدان مجلد ٤ ص ٤٥٤ .
- ٢٣٢- بسطام : مدينة والبعض يقول أنها قرية تتبع ولاية قومن وهي على الطريق إلى نيسابور . انظر ياقوت الحموي: معجم البلدان، مجلد ١ ص ٤٢١ .

٢٣٣- ابن الأثير: ج ٩ ص ٢٣٢ ، وانظر ابن كثير: ج ١٣ ص ١٢ ، وانظر الحافظ الذهبي: ج ٤ ص ٢٧٩-٢٨٠ .

٢٣٤- ابن الأثير: ج ٩ ص ٢٣٢ .

٢٣٥- أوه: قرية تقع بين زنجان وهمدان: انظر ياقوت الحموي: مجلد ١ ص ٢٨٣ .

٢٣٦- ابن الأثير: ج ٩ ص ٢٣٤ .

٢٣٧- ساوه: كانت مدينة جميلة تقع في وسط الطريق بين الري وهمدان، حيث أنها تبعد عن كل من المدينتين ٩٠ ميلا ، انظر ياقوت الحموي: مجلد ٢ ص ١٧٩ .

٢٣٨- ابن الأثير: ج ٩ ص ٢٤١ .

٢٣٩- ابن الأثير: ج ٩ ص ٢٤١ .

٢٤٠- ابن الأثير: ج ٩ ص ٢٤٨ .

٢٤١- ابن الأثير: ج ٩ ص ٢٤٨-٢٥٠ ، وانظر ابن كثير: ج ١٣ ص ٢٥ .

٢٤٢- ابن الأثير: ج ٩ ص ٢٣٥-٢٤٥ ، وانظر ابن كثير: ج ١٣ ص ٩٤ .

٢٤٣- ابن الأثير: ج ٩ ص ٢٥١ .

٢٤٤- ابن الأثير: ج ٩ ص ٢٥٢-٢٥٣ ، وانظر ابن كثير: ج ١٣ ص ١١٢ .

٢٤٥- ابن الأثير: ج ٩ ص ٢٧٦ ، وانظر ابن كثير: ج ١٣ ص ١٢٦-١٣٢ .

٢٤٦- ابن الأثير: ج ٩ ص ٢٨٣ ، وانظر ابن كثير: ج ١٣ ص ١٣٧ .

قائمة بأسماء المصادر والمراجع

- ابن الاثير: (أبو الحسن بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم) :
الكامل فى التاريخ، دار الفكر بيروت ١٣٩٨هـ / ١٩٧٨م.
- براون (إيوارد روجر أنفيل) :
تاريخ الأدب فى إيران، ترجمة د. إبراهيم أمين الشواربى ، مطبعة السعادة بمصر
١٣٧٣هـ / ١٩٥٤م.
- التنوخى: (القاضى أبى على الحسين بن على) :
نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة ، تحقيق عبود الشالجي المحامى ، ١٣٩١هـ / ١٩٧١م .
الحافظ الذهبى:
العبر فى أخبار من غبر ، تحقيق فؤاد سيد ، مطبعة حكومة الكويت ١٩٨٤م.
- ابن خلدون (عبد الرحمن) :
تاريخ ابن خلدون ، مكتبة المدينة ، بيروت ١٩٦٧م.
- ابن خلكان (أحمد بن محمد بن أبى بكر) :
وفيات الأعيان ، تحقيق د. إحسان عباس ، دار الثقافة بيروت (بدون تاريخ) .
البروفيسور رينولد . أ. نكلسن :
تاريخ الأدب العباسى، ترجمة د. صفاء خلوصى، منشورات المكتبة الأهلية ، بغداد ١٣٨٧هـ / ١٩٦٧م.
- أبوشجاع ظهير الدين (محمد بن الحسين الروذراوى) :
ذيل تجارب الأمم ، مطبعة التمدن بمصر ، ١٣٣٤هـ / ١٩١٦م.
- صفى الدين البغدادى (عبد المؤمن بن عبد الحق) :
مراصد الإطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، تحقيق وتعليق على محمد البجاوى، دار
إحياء الكتب العربية ، ١٣٧٣هـ / ١٩٥٤م.
- الطبرى (محمد بن جرير) :
تاريخ الأمم والملوك ، دار القاموس الحديث ، سوريا (بدون تاريخ) .

ابن الطقطقى (محمد بن على بن طباطبا):

تاريخ الدولة الإسلامية، دار صادر، بيروت ١٣٨٠هـ / ١٩٦٠م.

ابن العبرى (غريغوريوس أبى الفتح بن هارون المالى):

تارى مختصر الدول، بيروت ١٨٩٠م.

على مرسى (د. نعمة) :

دولة آل زيان فى طبرستان وجرجان وما جاورها، دار الهداية (بدون تاريخ) .

العمري (محمد بن على بن محمد) :

الأنباء فى تاريخ الخلفاء ، تحقيق د. قاسم السامرائى، المعهد الهولندى للآثار ، القاهرة ١٩٧٣م.

الفارقى (أحمد بن يوسف بن على بن الأزرق):

تاريخ الفارقى ، تحقيق د. بدوى عبد اللطيف عوض، المطابع الأميرية، القاهرة ١٣٧٩هـ / ١٩٥٩م.

أبو الفضل البيهقى (محمد بن حسين) :

تاريخ البيهقى، ترجمة د. يحيى خشاب وصادق نشأت ، مكتبة الأنجلو المصرية.

القزوينى (عبد الكريم بن محمد الراقعى) :

التدوين فى أخبار قزوين ، تحقيق عزيز الله العطاردى ، دار الكتب العلمية بيروت - لبنان ١٤٠٨هـ / ١٩٨٧م.

القلقشندى (أحمد بن عبد الله) :

مآثر الإنافة فى معالم الخلافة، تحقيق عبد الستار أحمد فراج ، مطبعة حكومة الكويت، ١٩٨٥م.

ابن كثير (أبو الفداء الحافظ) :

البداية والنهاية، باعتناء د. أحمد أبو ملحم وآخرين، دار الكتب العلمية بيروت ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م.

محمود (د. حسن أحمد ود. أحمد الشريف) :

العالم الإسلامى فى العصر العباسى ، دار الفكر العربى ١٩٧٧م.

المسعودي (أبو الحسن علي بن الحسين بن علي) :

مروج الذهب ومعادن الجوهر، دار الأندلس ، بيروت ١٣٩٣هـ / ١٩٧٣م.

المقدسي (أبو زيد أحمد بن سهل المطهر بن طاهر) :

البدء والتاريخ ، باعثناء كلمان هوار، باريس ١٩١٩م.

ابن مسكويه (أبي علي أحمد بن محمد) :

تجارب الأمم، باعثناء أمدرود ، مصر ١٣٣٢هـ / ١٩١٤م.

ياقوت الحموي (أبو عبدالله بن عبدالله) :

معجم البلدان، دار صادر ، بيروت ١٣٩٧هـ / ١٩٧٣م.

اليقطيني (أحمد بن يعقوب بن جعفر بن وهب):

تاريخ اليعقوبي ، دار بيروت ، بيروت ١٣٩٠هـ / ١٩٧٠م.

العلاقات الفينيقية المغاربية في شمال إفريقيا

حتى يتسنى لنا تقييم العلاقات الفينيقية المغاربية من خلال ما كتبه المؤرخون الكلاسيكيون الإغريق والرومان، وما أسفرت عليه نتائج التنقيبات الأثرية وكذا نصوص النقوش الكتابية ، لابد أن نركز على علاقة قرطاجة وهي المدينة الهامة التي آلت إليها السيادة في الحوض الغربي للبحر المتوسط بعد تأسيسها وتطورها ، ذلك لأن المستوطنات التي سبقتها كانت قد أسست من قبل تجار من بسطاء عامة الشعب كانوا لا يفكرون في الاستقرار في الحوض الغربي للبحر المتوسط بعد انتهاء مهمتهم التجارية المتمثلة في جلب المواد المصنعة ومبادلتها عن طريق المقايضة^(١)، ومقابل ذلك الحصول على المواد الخام، لاسيما معادن الحديد والرصاص والقصدير من شبه جزيرة إيبيريا وكذا المواد الأولية الأخرى التي كانوا يحصلون عليها من المغرب القديم مثل الملح وريش النعام وجلود الحيوانات والعاج. وكانت الوساطة التجارية بين حوضي البحر المتوسط هي مهمتهم الوحيدة^(٢).

أما مدينة قرطاجة فقد أسستها أميرة - تدعى عليسا - تنتمي إلى أسرة ملكية بمدينة صور، وقد جاءت بحاشيتها منذ الوهلة الأولى بهدف الاستقرار، ولا يستبعد أن يكون المكان الذي أسست فيه مدينة قرطاجة والمتمثل في خليج شمال تونس قد تعرف عليه الفينيقيون الأوائل وتبينوا مكانته الاستراتيجية في المنطقة، ولم يكن تأسيسها هناك اعتباطيا كما يعتقد البعض^(٣). ومع ذلك ، فإن الباحث يقف عاجزا أمام بداية ونوعية العلاقات الفينيقية المغاربية الباكرة في غرب المتوسط ، فيما عدا بعض الإشارات التاريخية البسيطة التي يغلب عليها الأسلوب الأسطوري في كثير من الأحيان^(٤).

وهكذا يمكن أن نقسم العلاقات القرطاجية - الليبية إلى مرحلتين أساسيتين ، أولهما تبدأ منذ نشأة قرطاجة وتستمر حتى القرن الخامس ق.م ، وثانيهما تمتد من هذا التاريخ وحتى تهديم مدينة قرطاجة سنة ١٤٦ ق.م.

أولاً : العلاقات التي تمتد منذ البدء وحتى القرن الخامس قبل الميلاد:

لعل أول إشارة إلى تلك العلاقات تكمن فيما ذكره المؤرخ الإغريقي تيمى (Timée) والتي نقلها عنه فيما بعد جويستان (Justin) في مختصر تروقي بومبي (Troque- Pompée) ويستفاد من هذه الكتابات أو ما عرفت بأسطورة عليسا (Elissa) أن المغاربة القدماء كانوا في بداية الأمر قد رحبوا بالتجار الفينيقيين الذين وفدوا إلى بلادهم وذلك نظرا لأهدافهم السلمية التي كانت لا تتعدى إنشاء مراكز تجارية تتم فيها المبادلات^(٥).

ونظرا لهوية الفينيقيين السلمية، فقد قبلوا دفع ضريبة مالية سنوية للمغاربة القدماء عربونا للصدقة وإعطائهم الأمان وريعا للمكان الذي أسست فيه المدينة^(٦). وقد دام ذلك الوفاق أو الاتفاق إن صح هذا التعبير بداية من تأسيس قرطاجة وحتى القرن الخامس ق.م تقريبا وهي الفترة التي تنقلب فيها قرطاجة إلى دولة مهيمنة على الحوض الغربي للبحر المتوسط^(٧).

وبتقادم الزمن آلت بعض المراكز الفينيقية إلى مستوطنات ومدن قارة لها حرية السيادة في نطاق المنظومة العامة القرطاجية، وقد تجمع حولها المغاربة لتسويق بضائعهم المحلية المتمثلة في جلود الحيوانات وريش النعام والذهب وبعض المعادن الأخرى غير المصنعة، وبالمقابل كانوا يبتاعون من التجار الفينيقيين كل أنواع الزينة والعطور والأواني المصنعة الزجاجية والمعدنية وكذا الخزفية وكل ذلك كان يتم عن طريق المقايضة^(٨). وباستقرار الفينيقيين والمغاربة في أماكن قارة بدأ التفكير في استغلال المناطق الصالحة للزراعة والقريبة من أماكن الاستقرار. وهكذا استغلت كامل السهول الموجودة في رأس بونة شمال تونس وسهول شمال غرب تونس والشرق الجزائري، ثم سهول المغرب الأقصى الواقعة حول مستوطنة ليكسوس (Lixus)^(٩).

أما الجانب الثاني الذي يبرز لنا ذلك الامتزاج فيتمثل في الجانب الديني لاسيما في عبادة كل من المغاربة والقرطاجيين للإلهين بعل حمون وتانيت بنى بعل ، وتعتبر هذه الأخيرة عند بعض المؤرخين إلهة مغربية تقابل الإلهة عشتار السامية في شرق المتوسط^(١٠). كذلك يستدل من وجود رسوم الكباش الذي يحمل على رأسه دائرة تشير إلى قرص الشمس والتي وجدت في الرسوم الصخرية وكذا رسوم الخراف والثيران التي وجدت في بعض أنصاب قرطاجة

وسيرتا وحدرومات (سوسة) على مدى استمرار العبادة المغربية القيمة العائدة إلى فترة ما قبل التاريخ وتعايشها مع العبادة السامية وهي ظاهرة تدل على الامتزاج الدينى بين القرطاجيين والمغاربة القدماء^(١١). ولعل من بين مظاهر الامتزاج الأخرى الفينيقيّة المغربية تشير إلى مظاهر الدفن ونوعية المقابر والهياكل الجنائزية التي وجدت بالقبور الحجرية كالحوانيت والدولن التي وجدت معظمها في مجال التأثير القرطاجي البوني، والعنصر الهام الذي يساعدنا على معرفة ذلك الامتزاج هو وجود الكسر والأواني الفخارية المغربية-البونية منتشرة في تلك المواقع الأثرية لاسيما في كل من جيجل (إيجيلجلي Igilgili) وتيبازة بالجزائر وليكسوس بالمغرب الأقصى^(١٢).

وقد استفاد المغاربة من الفينيقيين في صناعة الخزف، سواء باستعمال بولاب الخزاف أو في تطوير الرسوم الهندسية التي تبدو على الأنية الفخارية، علما وأنه كان يغلب على رسوم الأنية الفخارية المغربية قبل ذلك محاكاة الطبيعة، ثم تطورت بعد ذلك، فأصبحت بفضل القادمين الجدد تتخذ خطوطا وأشكالا هندسية وفقا لما كان سائدا في فخاريات شرقي المتوسط وحتى شكلها ومظهرها قد تحسنا. وبذلك أصبحت الأواني المغربية الفخارية تضاهي تلك الأجنبية المعاصرة لها والموجودة في كل من بلاد الإغريق وشرقي المتوسط^(١٣).

وعلى ضوء الملاحظات السابقة يتبين لنا بأن العلاقات الفينيقيّة المغربية كانت علاقات سلمية اقتصادية دينية استفاد منها المغاربة في الخروج من عزلتهم التي كانوا يعانونها في جزيرة المغرب منذ فترة ما قبل التاريخ. كذلك عرف المغاربة بفضل احتكاكهم بالفينيقيين نظام الاستقرار وتأسيس القرى والمدن وزراعة بعض الأشجار مثل الكروم، والتين والرمان وتلقيح أشجار الزيتون البري التي كانت موجودة ببلادهم.

هذا إلى جانب أخذهم حروف الكتابة البونية التي كانت سببا في دخولهم إلى الفترة التاريخية وكذا النظام السياسي المتمثل في نظام السوفيت (Suffète) أي القضاة الحاكمين^(١٤).

وقد استمرت علاقة سياسة المصالح المتبادلة خلال القرون الأولى من تأسيس مدينة قرطاجة، غير أنه في بداية القرن السادس قبل الميلاد وأمام الزحف الإغريقي نحو الحوض الغربي للبحر المتوسط ومنافستهم للقرطاجيين، عملت قرطاجة على تجنيد المرتزقة من أبناء المناطق التي كانت تتعامل معها، ولاغرو في ذلك أن يكون ضمن الجيش المرتزق أبناء المغاربة الذين كانت بلادهم تمتد على كامل شواطئ البحر المتوسط الجنوبيّة^(١٥).

وقد أخلص المغاربة فى بداية الأمر فى تعاملهم مع القرطاجيين ووقوفهم إلى جانبهم فى كل المعارك التى خاضوها ضد الإغريق سواء أكان ذلك فى كورسيكا (معركة أاليا - Alalia) سنة ٥٣٥ ق.م وذلك ضمن الاتحاد الإيتروسكى - القرطاجى، وحتى فى صقلية نفسها. كما وقفوا معهم ضد الزحف الإغريقى غرب برقة (Cyrène) بليبيا (١٦).

ولم تبدأ العلاقات القرطاجية المغربية فى التدهور إلا منذ القرن الخامس ق.م وكان لذلك التدهور أسبابه الخاصة التى سنتطرق إليها فى الصفحات الآتية:

ثانيا : العلاقات اللاحقة للقرن الخامس ق.م وحتى سقوط قرطاجة:

عُملت قرطاجة منذ القرن الخامس ق.م على تغيير سياستها الإفريقية وكان السبب فى ذلك راجعا إلى هزيمتها لأول مرة أمام الإغريق فى معركة هميرا (Himira) سنة ٤٨٠ ق.م . وقد انعكس ذلك التغيير على علاقتها مع المغاربة حيث حاولت بعد تلك الهزيمة أن تعيد النظر فى سياستها الاقتصادية المعتمدة على التجارة عبر سواحل المتوسط وربط حوضه الغربى بالشرقى، غير أن ظهور الإغريق فى كل من صقلية وقرينة بليبيا ومنافستهم لها بحيث أصبحوا يمثلون حاجزا يحول دون اتصال تجارها بشرقى المتوسط (١٧). وكان على قرطاجة أمام هذه الوضعية الجديدة كما أشرت إلى ذلك أنفا أن تعيد النظر فى كل شئ يتعلق بسياستها فى الحوض الغربى للبحر المتوسط وأن لاتعتمد على التجارة وحدها ، بل لابد أن تعطى للزراعة مكانتها اللائقة . وهنا بدأ ما عرف فى سياستها بالاتجاه الإفريقى (١٨). وقد لاح ذلك واضحا فى تجهيزها وإرسالها لرحلة خميلكان (Himilcon) إلى جزر كاسيتريدس وكورنوال فى جنوب بريطانيا شمالا، وكذا رحلة حنون (Honnon) الاستكشافية فى نهاية القرن الخامس إلى أواسط جنوب غرب إفريقيا، بحثا عن مناطق أخرى فى السواحل الإفريقية على المحيط الأطلسى يمكن اللجوء إليها عند الضرورة (١٩).

وفى هذا الصدد يذكر المؤرخ الإغريقى بوليبيوس (Polybius) بأن السيادة القرطاجية قبل الحرب البونية الأولى كانت تمتد على كامل البحر الداخلى وذلك ابتداء من معبد الفلين بخليج السيرت الكبير شرقا حتى أعمدة هرقل (مضيق جبل طارق الحالى) على المحيط الأطلسى غربا (٢٠).

كذلك لم تقف قرطاجة عند هذا الحد فى علاقاتها مع حلفائها المغاربة ، بل أساعت إليهم بقطع الضريبة السنوية التى كانت تدفعها لهم وذلك منذ نشأتها (٢١). وأكثر من ذلك أصبحت

قرطاجة تفرض على المغاربة ضرائب جديدة لتمويل الحرب التي أصبحت تخوضها ضد المدن الإغريقية وتجند المرتزقة من أبنائهم لمواجهة الموقف فى صقلية.

غير أن قرطاجة باتباعها لتلك السياسة كانت قد أساءت إلى حلفائها المغاربة وفتحت أعينهم على التمرد والعصيان ضدها وتغيير نظرتهم لها حيث أنهم أصبحوا يعتبرونها شوكة غريبة فى جسمهم ولاتهمها بالدرجة الأولى إلا مصلحة أرستقراطيتها التى امتدت يدها لأراضى المغاربة تقيم لهم المزارع بغية تعويض ما خسروه فى صقلية^(٢٢).

وتشير الكتابات التاريخية إلى أنه منذ القرن الخامس ق.م حتى نهاية الحرب البونية الثانية بمعركة زاما (Zama) ٢٠١ ق.م . كانت قرطاجة قد عملت على ابتلاع كثير من الأراضى المغاربية ووضعتها تحت يد أرستقراطيتها وكان ذلك على حساب المغاربة القدماء، ولم تكتف قرطاجة بالشريط الساحلى بل تسربت إلى الداخل تقيم المزارع لأرستقراطيتها التى باتت مهددة فى صقلية^(٢٣).

بناء على ما سبق أصبح المغاربة ينتهزون فرص الأزمات الصعبة التى تمر بها قرطاجة ليتمرّدوا عليها، وقد ظهر ذلك واضحا فى عدة مناسبات نذكر منها :

١- تدمير المغاربة مرة أولى وذلك سنة ٣٩٦ ق.م حيث حاولوا التصدى للقرطاجيين محاولين فى ذلك استغلال ضعفهم بعد هزيمة القائد خميلكون (Himilcon) أمام أسوار مدينة سيراكوزة (Syracuse) الإغريقية بجزيرة صقلية وفرار القائد خميلكون صحبة الضباط الذين هم من أصل قرطاجى وترك الجنود المرتزقة تحت ضربات الأعداء ، وحول هذا التدمير يذكر المؤرخ ديودور الصقلى (Diodore de Sicile) الذى نقل لنا أنباء هذا التدمير بأن تعداد المغاربة الذين طوقوا مدينة قرطاجة حينذاك كان حوالى ٢٠ ألف رجل^(٢٤)، ومن جهته يؤكد المؤرخ الفرنسى ج. كامبس (G. Camps) بأن العدد الذى أورده ديودور قد لا يكون مبالغا فيه، ذلك لأن تعداد المغاربة الذين يقطنون مدينة قرطاجة أو بالقرب منها وكذا العبيد الذين هم بداخلها يجعل العدد يفوق ذلك^(٢٥).

٢- تدمير المغاربة مرة ثانية وذلك سنة ٣٧٩ ق.م كما يذكر ديودور الصقلى الذى هو مصدرنا فى هذا الموضوع وذلك باستغلالهم فرصة الاضطرابات السياسية التى حدثت داخل مدينة قرطاجة من جراء اجتياح مرض الطاعون لها غير أنهم لم يفلحوا فى الاستيلاء عليها^(٢٦).

٣- أما التذمر الثالث فقد حدث فيما بين سنة ٣١٠-٣٠٧ ق.م وذلك أثناء غزو القائد الإغريقى أجاتوكليس (Agathoclés) لبلاد المغرب القديم وقد انضم إليه منذ الوهلة الأولى قائد نوميدي يدعى إيلماس (Ailymas) برجاله إلا أنه عدل عن ذلك فيما بعد لأسباب مجهولة! (٢٧). هل يعود ذلك إلى أن بقية القبائل الليبية - النوميديّة عارضته فى ذلك ؟ أم أنه أدرك بعد انضمامه إلى القائد الإغريقى، بأن هذا الأخير قد دخل فى مغامرة مع قرطاجة قد لايسطيع تسجيل الانتصار عليها؟.

وما نعرفه هو أن ديودور الصقلى لم يشر إلى الأسباب الحقيقية التى جعلت إيلماس يتراجع عن مناصرة القائد الإغريقى، كما أنه لم يشر إلى هوية شخصية إيلماس نفسها! هل كان أميرا أو رئيس قبيلة ؟

ويذهب ج. كامبس إلى أن إيلماس كان أحد رؤساء قبائل الماسيل وهو من أجداد ماسينيسا (٢٨).

ويصف بوليبيوس إيلماس بأنه ملك ليبي (٢٩). غير أن الغموضبقى يسود شخصية إيلماس .

وبشأن حملة القائد أجاتوكليس لبلاد المغرب القديم يشير ديودور الصقلى فى مكان آخر من مكتبته التاريخية إلى أن المغاربة انقسموا فيما بينهم بين التأييد والمعارضة ، فبينما أيدت بعض القبائل الليبية القائد الإغريقى المغامر الذى نقل الحرب إلى شمال أفريقيا وقلب الهزيمة فى صقلية إلى نصر فى شمال أفريقيا بحيث غامر فى البحر ونزل شمال شرق قرطاجة ثم حاصرها وأرغمها على التفاوض معه بعد إقدام سكانها على التضحية بحوالى ٤٠٠ طفل من أبنائهم، بغية إرضاء الآلهة التى اعتقد عرافوها وكهنتها بأنها غضبت عليهم، نرى فى الطرف الآخر بعض القبائل المغاربية التى بقيت مترددة ترقب نتائج تلك الأحداث ، ولعل هذا ما جعل إيلماس يعدل عن مناصرة القائد الإغريقى (٣٠).

٤- كذلك استغل المغاربة القدماء محاولة أحد القادة القرطاجيين واسمه حنون (Hannon) للاستيلاء على الحكم فى مدينة قرطاجة مستعينا فى ذلك ببعض الليبيين من سكانها، وقد ناصره فى ذلك ملك المور حسب رواية ديودور الذى لا يذكر اسم هذا الملك المورى وحتى المملكة التى كان يحكمها . وقد علق المؤرخ س. جزيل (St. Gsell) على ذلك بقوله بأن قرطاجة كانت تخرج فى كل مرة منتصرة وتوسع أراضيها على حساب السكان المحليين عقابا لهم. ذلك لأنها

أصبحت لا تثق فيهم، كما أن حصانة سورها الذي كان يعتقد ما بين سبخة أريانة وبحيرة تونس إضافة إلى مرتفع بيرصة جعلها تكون مدينة محمية تصمد في وجه كل من يحاول اقتحامها (٣١).

هـ- أما التدمير المشهور في العلاقات البونية المغاربية والذي عرفه بعض المؤرخين بالثورة الاجتماعية لاسيما في مرحلته الأخيرة فيتمثل في مشاركة المغاربة القدماء فيما يعرف بتمرد الجنود المرتزقة (Révolte des Mercenaires)، والذي اندلع في نهاية الحرب البونية الأولى ٢٤١-٢٢٧ ق.م ولا تهمنا هنا أسباب وتفاصيل هذا العصيان والشخصيات التي قادته بقدر ما يهمنا مشاركة القرى والمدن الليبية والنوميديّة، لاسيما بعدما عمدت قرطاجة إلى العقاب الجماعي لكل من له صلة بذلك العصيان سواء أكان من الجنود المرتزقة الذين كان أحد قادتهم ليبى يدعى ماطوس (Mathos) (٣٢)، أو من سكان القرى والمدن المغاربية التي تعاطفت معهم في بداية الأمر ثم انضموا إليهم في المرحلة الأخيرة من ذلك التمرد بعد أن استغاثوا بها وبذلك انقلب التمرد إلى ما يشبه الثورة الاجتماعية. وعلى ذلك الأساس عمدت قرطاجة إلى فرض ضرائب مجحفة على السكان الليبيين والنوميين الذين انضموا إلى المرتزقة وذلك بهدف تسديد الديون التي خرجت معبأة بها تجاه الرومان والمتملة في ضريبة المنتصر على المنهزم وقدرها ٢٢٠٠ تالنت إضافة إلى محاولة جمع أجور المرتزقة الذين كانت تمنحهم أثناء الحرب بأنه بعد انتصارها ستسدد لهم كامل أجورهم وعلف خيولهم وبوابهم.

وحتى تتصدى قرطاجة بكل قوة إلى ثورة الجيش المرتزق فوضت الأمر إلى قادتها العسكريين وعلى رأسهم املكار برقة والد حنبعل. وقد حمل هذا الأخير على فلول المرتزقة بعد أن بلغ تعدادهم حوالي ٧٠ ألف في حرب عرفت في تاريخ المغرب القديم بالحرب غير المغتفرة (La guerre inexpiable) فحاصروهم في عدة مناطق وقضى عليهم، ثم عاقب كامل القرى والمدن التي تعاونت معهم، وعلى ضوء ذلك اجتاحت كامل المنطقة الشمالية الواقعة على الحدود التونسية الجزائرية الحالية حتى اقترب من مدينة تبسة ثم سار نحو مدينة سيرتا، وعاد بعد ذلك محملا بالغنائم التي استولى عليها عنوة (٣٣).

وبعد عودته إلى قرطاجة بقليل عاد من جديد فاجتاز بجيوشه بلاد المغرب وعبر أعمدة هرقل (مضيق جبل طارق الحالي) إلى شبه جزيرة ايبيريا بهدف تجديد قوة الدولة القرطاجية هناك في إسبانيا بعيدا عن أعين الدولة الرومانية (٣٤). وبعد وفاة املكار قتلًا من قبل الأيبيريين

تولى القيادة بعده صهره صدربعل (Hasdrubal) الذى شيد مدينة قرطاجنة (Carthagène) وبعد قتل هذا الأخير تعلق الجيش القرطاجى بحنبل وذلك لما يتصف به من جرأة ومعاودة للرومان رغم صغر سنه فقد قبل القيادة وعمره لايتجاوز ٢٦ سنة وبعد إعادة تنظيم جيشه أعلن عن بداية الحرب البونية الثانية ٢١٨ ق.م وذلك بمهاجمته لمدينة صغيثم (Sagonte) الموالية للرومان. وقد تسلق حنبل فى فصل الشتاء بجيشه سلسلة جبال البيرينى والألب ، ثم دخل إلى إيطاليا من الشمال ورغم محاولة الرومان المستمرة للتصدى له وإعاقته عن الوصول إلى هدفه استطاع أن يؤثر بواسطة اتباعه لأسلوب سياسة فرق تسد أن يضمن كامل شمال إيطاليا إلى جانبه ويفرد روما ثم يشعرها بالخطر الداهم الذى قد يزعزع أسوارها.

وتجدر الإشارة إلى أن المغاربة فى كامل هذه الفترة كانوا يشكلون زهرة الجيش المرتزق القرطاجى (٣٥).

غير أن المصادر هنا تصمت عن نوعية العلاقات التى سادت بين القرطاجيين وأتباعهم من المغاربة بعد إخماد ثورة الجيش المرتزق هل كان عمل أولئك الجنود فى الجيش القرطاجى ناتجا عن طواعية وحسن نية ؟ أم أن قرطاجنة بعد إخمادها لتمرد الجيش المرتزق وما ترتب عنه من انضمام بعض المدن النوميديية إلى جانب المرتزقة جعلها تفرض التجنيد الإجبارى على رعاياها؟

هذا ما لا نستطيع التثبت منه لنقص الوثائق فيما عدا الإشارة إلى الحرب التى دارت بين قرطاجنة والملك غايا (Gaia) وذلك بعد استيلاء هذا الأخير على بعض المدن التى كانت تابعة للدولة القرطاجية وكان ذلك حوالى ٢١٣ ق.م وكذلك الحرب مع سيفاقص ملك نوميديا الغربية التى سبقت بداية الحرب البونية الثانية وسرعان ما تراجعت قرطاجنة عن تلك الحرب وحسنت علاقتها مع الملك المازسىلى وذلك بهدف ضمان استمرار الاتصال بجيوشها فى شبه جزيرة إيبيريا (٣٦). وفى هذا المضمار يأتى تزويج الأميرة القرطاجية سفونيسبة (Sophonisbe) من الملك سيفاقص بعد أن كان ماسينيسا قد وعد بالتزويج منها قبل ذلك عندما كان يحارب ضمن الجيش القرطاجى فى شبه جزيرة إيبيريا ، ولذلك اعتبر هذا الزواج سياسيا أكثر منه عاطفيا.

نستخلص من كل ما سبق بأن قرطاجنة فى أخريات أيامها كانت تسلك فى علاقتها مع المغاربة القدماء سياسة مسك العصا من الوسط، وذلك من بين الأسباب التى جعلت بعض حلفائها المغاربة يتخلون عنها وينقلبون ضدها فى كثير من الأحيان وأكثر من ذلك يرتضى

البعض منهم فى أحضان أعدائها وهو ما جعلها لقمة سائغة بالنسبة للرومان وقد أساءت للمغاربة بسياستها تلك. هذا من جهة ومن جهة أخرى، فإن روما كانت دولة فى مستهل شبابها تطبق نظاما انضباطيا بين مواطنيها لا يقل صرامة عن التنظيم الذى كان سائدا قبل ذلك فى مدينة اسبارطة ببلاد الإغريق وكان الهدف من كل ذلك هو جعل البحر المتوسط بحيرة رومانية وإيجاد مستعمرات لجنودها وعبيدها فى مناطق أخرى خارج شبه جزيرة إيطاليا قصد التخفيف على مدينة روما التى كانت تعج بالطبقات الاجتماعية المتصارعة على السلطة . السياسة والاقتصاد، إضافة إلى العبيد والجنود المتقاعدين الذين أصبحوا يشكلون خطرا عليها.

الهوامش

- 1- Hérodote Histoire, CXCVI, éd. France Maspero, Paris 1980, p. 261.
- 2- Donald Harden, The Phonicians, éd. Thames and Hudson, London 1963, p. 63.
- 3- G.G. La Peyre et A. Pellegrin, Carthage panique, éd Payot, Paris, 1942, p. 9 et suiv.
- 4- Justin Histoire, T. 2, Livre 19, trad. Jules Pierrot, Paris 1833, p. 35 ;
 - وهو الذي نقل لنا أسطورة عليسة واتفاقية شروط بناء مدينة قرطاجه بينها وبين حيرياس Hyrbas ملك الليبيين إلخ.
- 5- St Gsell, Histoire Ancienne de l'Afrique du Nord, T.I, éd. Hachette, Paris 1913-1928., pp. 468-509.
- 6- P. Cintas, Manuel D'Archéologie Punique, T. I, éd. A et J. Picard, 1970, p. 11 et suiv.
- 7- St. Gsell H. A. A. N. T. I, p. 460 ; M. GHAKI, Recherches sur les rapports entre les Phénico - Numides (thèse de III cycle, Paris 1979) p. 118.
- 8- Hérodote, Op. cit., p. 261.
- 9- P. Cintas, Manuel d' Archéologie punique, T.I, pp. 12-19 ; M. Tarradell, Lixus, Institut, Muley El- Hasan tetuan 1959, p. 41 ; Plin l' Ancien XIX, 63.
- 10- P. Cintas, le Signe de Tanit dans archéologie vivante, vol - 1 N°2, Décembre 1968, et Février 1969, pp. 4-10.
- 11- M. H. Fantar, les Phéniciens en Algérie, en Tunisie et en Libye, Dossiers Histoire et archéologie, N°132. Novembre 1988, pp. 92-95.
- 12- P. Cintas, Fouilles Punique à Tipasa, R. Af. XCII, 1948, pp. 263-330.
- 13- G. Camps, Monuments et rites funéraire, Protohistoriques, A. M. G., Paris 1961, p. 95
- 14- S. Moscati, L'épupée des Phéniciens, éd Fayard, Paris 1971, p. 251-253 ;
 - محمد الصغير غانم، المملكة النوميدية والحضارة البونية، مطبعة . دار الأمة الجزائر ١٩٩٨، ص ٢١٠ .
- 15- J. Desanges, Recherches sur l'activité des Méditerranéens aux confins de l'Afrique Diffusion de Boccard, 1978, pp. VIII IX.
- 16- Hérodote Histoire, 168, p. 251. B.H; Warmington, Histoire et civilisation de carthage, éd. Payot, Paris 1961, p. 53.
- 17- Harden op. cit., p. 163 ; Hérodote, W. CXL II.
- 18- St Gsell. H. A.A. N. T. II, p. 112.
- 19- F. Decret, Carthage ou l'empire de la mer, éd du Sud 1977, p. 123 et suiv; Desenges op. cit., pp. 39-85.
- 20- Polybuis, III, 30, 2.

- 21- G. et C. Picard , vie et mort de Carthage, éd Picard, Paris 1970 , p. 89 .
- 22- C. Nicolet , Rome et la conquête du monde Méditerranéen 2 / Genèse d'un empire, Paris 1978, p. 601 .
- 23- B. H. Warmington, Carthage, éd. penguin Books, 1964 , pp. 57-87 ; F. Decret et M. Fanatar , l'Afrique du Nord dans l'Antiquité, Payot, Paris 1981, pp. 66-67 .
- 24- Diodore de Sicile XIV , 77 éd. old Father 1933 , 1967 .
- 25- G. Camps, Massinissa au les débuts de l'histoire, imprimerie officielle, Alger 1961, p. 35 .
- 26- Diodore de Sicile XV- 24 .
- 27- Diodore de Sicile XX, 17-1 .
- 28- G. Camps Op . cit., p. 117 .
- 29- Polybius , I, 69-6 .
- 30- G. Walter , la Destruction de Carthage , éd Albin Michel, Paris 1947 , pp. 94-116 ; Diodore de Sicile, XIX et XX .
- 31- St Gsell, Histoire Ancienne de l'Afrique du Nord, T. I, pp. 303-304 ;
- في الحقيقة أن قرطاجة كانت محاطة بثلاثة أسوار يتمثل السور الأول في مجموعة من الأوتاد مصطفة على كامل السور ، ويتمثل السور الثاني في الخندق الذي كان يحميها هو الآخر. أما السور الثالث فيتمثل في الجدار السميكة الذي هو عبارة عن ثكنة عسكرية في جانبه الداخلي . انظر محمد الصغير غانم، التواجد الفينيقي- البوني في الجزائر، رسالة الدكتوراه النور الثالث/ نوقشت بمعهد التاريخ جامعة الجزائر المركزية سنة ١٩٨١ من ص ٩١-٩٧ .
- 32- Polybe , I, 70-88 ; Diodore XXV, 2 ; G Walter. Op. cit ., pp. 237-254 .
- تمثل قادة المرتزقة في القائد ماطوس الليبي وكذا أسبانديوس الذي كان عبدا رومانيا فر من الجيش الروماني والتحق بالجيش القرطاجي . أما الثالث فكان من أصل غالي اشتهر بالخطابة وإلهاب المشاعر داخل صفوف المرتزقة.
- 33- St. Gsell , II A. A. N. T. 5 , pp. 179-180 ; Tissot , Géographie comparée de la province romaine d' Afrique T. I, Paris 1884 , pp. 545-548 .
- 34- Polybe, I, 70, Diodore XXV, 2.
- يلاحظ بأن أسيرة البرقيين كانت تعارض اتفاقية نهاية الحرب البونية الأولى، لاسيما القائد أملكار الذي بقي في صقلية بعد نهاية الحرب يعسكر في جبل إريكس يلقى الرومان بحرب العصابات .
- 35- Salah - Eddine Tlatli , la Carthage Punique librairie d'Amérique et d'orient, Paris 1978 , pp. 282-283 .
- 36- Titelive XXIV , 13 , p. 583 ;
- محمد الصغير غانم، المملكة التوميديّة والحضارة البونية مطبعة. دار الأمة للنشر والتوزيع، الجزائر ١٩٩٨، ص ٥٩-٦٠ .

المنطلقات الحضارية في سلطنة المماليك

٦٤٨-٩٢٢هـ / ١٢٥٠-١٥١٦م

إن فاعلية الحياة في حكم السلاطين المماليك كانت ظاهرة مشتركة بين الحكام المماليك المسلمين وبين عامة الناس في مصر والشام، حيث ارتكز هيكل البناء فيها على ثلاث زوايا متساوية حددت قواعد العمل الحضاري في سلطنة المماليك وهي الجهاد الإسلامي، والإبداع العلمي، ونظام الوقف.

وقد تفاعل العمل المستمر المشترك بين المماليك وعامة الناس في هذه المسارات الثلاثة دون تفضيل، أو تمييز أو تعدد. ففي «الجهاد الإسلامي» شكل المماليك العسكر الرسمي الذي حقق الانتصارات العظيمة ضد المغول في عين جالوت سنة ٦٥٨هـ / ١٢٦٠م، وفي شقحب سنة ٧٠٢هـ / ١٣٠٣م ليسجل تاريخ بلاد الشام صفحة رائعة في انتصارات المسلمين على الأعداء الطامعين في البلاد. وكذلك يذهب الفضل في هذه الانتصارات الحاسمة أيضاً لعامة الناس من المتطوعة المصريين والشاميين، الذين بذلوا الأرواح، حيث لم يملكوا الأموال، في سبيل الإسلام والأرض والعرض.

وقاد الفقهاء والعلماء المسلمون راية الجهاد في توحيد صفوف هؤلاء المتطوعة من أهل البلاد، فكان ابن دقيق العيد في عين جالوت، وأحمد ابن تيمية في شقحب على رأس المتطوعة من عامة الناس المصريين والشاميين من كافة المدن والضواحي. وهكذا يرجع الفضل في هذه الانتصارات الإسلامية ضد المغول للمماليك كما هو لأهل البلاد في مصر والشام.

ولم يقتصر الجهاد الإسلامى بين المماليك وأهل البلاد على مواجهة المغول فى أكثر من أربعة حروب كبيرة فى القرون السابع والثامن والتاسع الهجرية/ الثالث عشر ، والرابع عشر، والخامس عشر الميلادية، حيث إن هذا الجهاد الإسلامى المشترك شمل كذلك هدف التخلص من الاحتلال الصليبي فى مدن ساحل الشام، فأحرز الفرسان المماليك والمتطوعة المصريين والشاميين أجمل الانتصارات الحربية الإسلامية ضد الصليبيين فى عهد الظاهر بيبرس البندقدارى (٦٥٨-٦٧٦هـ / ١٢٦٠-١٢٧٧م) عندما حقق تحرير إنطاكية من قبضة الصليبيين لتعود مرة أخرى إسلامية التاريخ والحضارة. ثم تولى السلطان المنصور قلاوون (٦٧٨-٦٨٩هـ / ١٢٨٠-١٢٩٠م) ليسجل بقيادته أروع صفحات الجهاد الإسلامى فى هزيمة الصليبيين، وطردهم من المرقب وطرابلس وعندما تولى السلطنة الأشرف خليل بن قلاوون (٦٨٩-٦٩٣هـ / ١٢٩٠-١٢٩٤م) توج هذا الجهاد الإسلامى العظيم فى فتح عكا، آخر معقل صليبي فى بلاد الشام، سنة ٦٩٠هـ / ١٢٩١م.

وأخيرا جاء الناصر محمد بن قلاوون فى فترة حكمه الثالثة (٧٠٩-٧٤١هـ / ١٣٠٩-١٣٤٠م) ليظهر جزيرة أرواد فى البحر الأبيض المتوسط من القراصنة الصليبيين الاستيطارية ليضمن حماية السواحل المصرية والشامية من اعتداءاتهم الوحشية المتكررة، وابتدأ فى عهده مرحلة الازدهار الاقتصادى، والعلاقات الدبلوماسية، والتفوق العلمى، والعتاء الوقفى، والرخاء المعيشى، والتقدم العمرانى. وهكذا ازدهر المجتمع الإسلامى فى مصر والشام فى ظل حكم السلاطين المماليك فى القرنين الثامن والتاسع الهجريين / الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين .

أما فى محور «الإبداع العلمى» فإن ذخائر المكتبات العالمية والعربية من مصادر مخطوطة ومطبوعة وموسوعات، وقواميس دونت فى عصر المماليك فى مصر والشام دليل واضح وقاطع على دور هؤلاء فى مجال الإبداع الفكرى. فكما كان النويرى فى موسوعة «نهاية الأرب فى فنون الأدب»، والمقرئى فى حواشيه «السلوك لمعرفة دول الملوك»، والقلقشندي فى موسوعة «صبح الأعشى فى صناعة الإنشاء»، وابن حجر العسقلانى فى تراجم «الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة»، والسخاوى فى تراجم «الضوء اللامع لأهل القرن التاسع» وغيرهم كثيرون يمثلون نخبة الإبداع العلمى لأهل مصر وبلاد الشام، كذلك كان ابن تغرى بردى فى «النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة»، وابن إياس فى «بدائع الزهور فى وقائع الدهور»، وابن أبيك الدوادارى فى «كنز الدرر وجامع الغرر» يمثلون نخبة الإبداع العلمى للمماليك.

لقد كتب هؤلاء المؤرخون الممالك الذين عرفوا في ذلك العصر باسم «أولاد الناس» الصوليات الطويلة، والمؤرخات الموثقة في تاريخ الدولة الإسلامية في مصر والشام والحجاز. وكانوا حريصين على إبراز كافة الجوانب الحضارية في المجتمع، مفضلين الاشتغال بهذه الأعمال الخالدة بالقلم دون السيف. لقد وثق هؤلاء تاريخ هذه البقاع التاريخية من منطق الدين الإسلامي الذي احتضن عقولهم، وملك أرواحهم، وقوى عزائمهم، وتوج أهدافهم، فاجتهدوا في تجسيد انتمايتهم الكلى للإسلام عقيدة وحضارة. كما كان هؤلاء المؤرخون من أختيار الكتاب المسلمين تدويناً وعرضاً وتحليلاً، وهذا البذل العلمى المشترك عند المصريين والشاميين والممالك يؤكد عمق الوازع الإسلامى فى هذه الأرض على مدى حقبة زمنية طويلة زادت عن قرنين ونصف قرن.

أما الركيزة الثالثة فى هذه النظرية التى تنطلق من مفهوم الانصهار الإسلامى بين الممالك وأهل البلاد فهى «نظام الوقف» أو عطاء الخير الذى بذل فيه غالبية السلاطين والأمراء الممالك الأموال الطائلة لإنشاء الجوامع والمساجد، والبيمارستانات، والمدارس، والخانقافات، والزوايا، والأربطة، وبور السبيل لتربية الأيتام، إلى جانب منشآت السقاية والرواية فى كافة أنحاء الأقاليم.

ومن ناحية أخرى كان للأغنياء من المصريين والشاميين دور كبير فى إنشاء الكثير من هذه المنشآت الدينية، والعلمية، والاجتماعية، فعمل الجميع من أجل تشييد ودعم هذه المؤسسات الخيرية خدمة لعامة الناس، ولا تزال هذه المنشآت الوقفية العظيمة شاهداً حياً وبرهاناً خالداً على هذا البذل المادى الكبير فى مصر وبلاد الشام. لقد خصص الممالك وأغنياء مصر والشام الأموال الطائلة لهذا النشاط الدينى والتعليمى والاجتماعى، فجاءت هذه المؤسسات الوقفية آيات فنية رائعة فى مضممار العمارة الإسلامية، والعطاء العلمى، والعمل الخيرى، وكان المستفيد الأول من هذه المؤسسات الوقفية عامة الناس فى مصر وبلاد الشام.

وهكذا كان «الإسلام» هو القاسم المشترك بين الممالك على شتى طوائفهم، وأعراقهم، ولغاتهم، وثقافتهم، كما كان بوتقة انصهار بين الممالك وأهالى البلاد فى مصر والشام. لقد كان الممالك مسلمين بكل ما تعنيه هذه الصفة من عطاء لاحدود له تطبيقاً لمبادئ الإسلام وأخلاقه. وبهذا تظل أعمال «الجهاد الإسلامى، والإبداع العلمى ونظام الوقف» وثيقة خالدة تتضمن جميع الإنجازات المملوكية والمصرية الشامية المشتركة لتصبح سلطنة الممالك إسلامية

فى تحويل مبادئ العقيدة إلى أعمال خالدة، وأهداف إنسانية وثقها المعاصرون، ويصبح الماليك والمصريون والشاميون إخوة تجمعهم رابطة الإسلام. وبهذه الرابطة شكلوا بنيانا شامخا برزت آثاره فى أعمال كبيرة خلدها التاريخ، وسجلتها الوثائق والحجج الشرعية، وأبرزتها مداخل المنشآت الوقفية التى لا حصر لها فى مصر والشام والتى لاتزال موجودة حتى يومنا هذا شاهدا حيا على فوبان كل الاختلافات فى بوتقة الإسلام.

لقد كانت مصر والشام فى عصر سلاطين الماليك إسلامية عقيدة ومنهاج حياة، وكان الحكام الماليك وعامة الناس المصريون والشاميون مسلمين روحا وسلوكا ، وكان الهدف المشترك هو خدمة الإسلام جهادا وتعميرا . كما كان التوق للشهادة فى سبيل الله تعالى والإسلام هدفا مأمولا سعى له الماليك، وتسابق إليه عامة الناس، فكانت دولة إسلامية، وحكاما مسلمين ، وشعوبا إسلامية جمعت بينهم العقيدة السمحاء كلمة وعملا ومقصدا .

وهكذا تبرز لنا المعرفة التاريخية الموثقة فى حيثيات صفحات الجهاد الإسلامى، والدروس المستقاة من مواجهات الانتصار والهزيمة لتدعم جذع الارتباط بالأرض، وتكون هذه المعرفة درعا واقيا لدرء أخطار المستقبل ، وإدراك أهمية الارتكاز على عاملى العقيدة والعلم فى أى بناء حضارى إنسانى على مر العصور .

أما فى محور الإبداع العلمى فإن الثقافة المعرفية تظهر فى إطار الإدراك العقلى الواعى لما وراء الحوادث، والربط بين الوقائع ، والقدرة على فهم الأسباب المباشرة وغير المباشرة لكل ما يحدث، بل ما يمكن أن يترتب على الحادثة من نتائج إيجابية وسلبية، وظواهر تبرز عبر فترات الزمن . بل إن القدرة على استيعاب الإبداع العلمى فى التاريخ الإسلامى تشكل عاملا حيويا مهما فى فهم كافة مجريات الأمور التلقائية والمخطط لها . وحيث إن مجالات الإبداع العلمى فى التاريخ الإسلامى واسعة، وشاملة ومتشعبة ، فإنه يستحيل على إنسان واحد الإلمام بها مهما ملك من قدرات عقلية وجسمانية . وبالتالي تبقى عملية الإلمام بجزء معين من مجالات الإبداع العلمى مهمة ضمن مسئوليات من يملكون قدرة البحث والاستقصاء فى مجريات حوادث العصر ومداخلاته، وعليه تظهر إلى النور تلك الإنجازات الإنسانية الكبيرة التى تمت فى عصر الماليك. ومن المؤكد أن مثل هذا العمل البحثى يعتبر قاعدة علمية أساسية تحرص عليها الدول ذات الاهتمامات العلمية.

وقد أظهرت ثمار فعالية هذه العوامل المؤسسية لقيام سلطنة الماليك فى الصور الحضارية التى شهدتها المجتمع الإسلامى فى ظل حكم الماليك. وتأتى المدارس على رأس هذه العطاءات الحضارية، وقد كانت فى عمارتها وعلومها حضارية بديعة لهذه الحقبة التاريخية.

ويعود تاريخ إنشاء المدارس في مصر بالتحديد النقيض إلى أيام السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب، حيث بنى لكل من الطائفتين الشافعية والحنفية مدرسة بمدينة مصر^(١) . ومن ثم بدأت قافلة التعليم تسير بعدد ضئيل من المدارس، وينضم إلى القافلة بين فترة وأخرى مدرسة وثانية، إلى أن أصبح بمصر مع بداية حكم السلاطين المماليك عدد كبير من المدارس، ففدت مصر مركزاً حضارياً للعلم ونشر التعليم ، ولا أدل على ذلك التفوق والتقدم في مجال الحياة العلمية والتعليمية من أن الكانم من طوائف التكرور^(٢) لما وصلوا إلى مصر سنة «بضع وأربعين وستمائة»^(٣) قاصدين الحج دفعوا للقاضي علم الدين بن رشيق مالا بنى به مدرسة للمالكية ، وهي بخط حمام الريش . ولما انتهى بناؤها درس بها القاضي ابن رشيق فعرفت باسمه وصار لها في بلاد التكرور سرحة عظيمة ، وكانوا يرسلون لها الأموال في أغلب السنين^(٤).

ولاشك في أن طوائف التكرور أدهشها ما كان في مصر في ذلك الحين، من المدارس العديدة، فأرادوا المشاركة في بناء هذا الصرح التعليمي بالإسهام في بناء مدرسة لتدريس الدين الإسلامي وما يتفرع منه من علوم مختلفة .

ويذكر القلقشندي ارتباط عدد من السلاطين المماليك بعدد من المدارس التي ازدهر بها العصر المملوكي، فقد بنى الظاهر بيبرس المدرسة الظاهرية ، وأنشأ المنصور قلون المدرسة المنصورية، وشيد الناصر محمد المدرسة الناصرية^(٥)، وأسس الناصر حسن بن الناصر محمد مدرسته العظمى ، كما أقام ابن أخيه الأشرف شعبان بن حسين المدرسة الأشرفية ، وبنى الظاهر برقوق مدرسته الظاهرية^(٦)، «وفي خلال ذلك ابتنى أكابر الأمراء وغيرهم من المدارس ما ملا الأخطاء وشحنها»^(٧)، وبمقارنة قول القلقشندي هذا بما سبق أن ذكره عن المدارس أيام الدولة الفاطمية ثم الدولة الأيوبية^(٨) يتضح لنا تمام الوضوح أن العصر المملوكي كان بحق العصر الذهبي في انتشار التعليم نتيجة هذا الإقبال الكبير على إنشاء المدارس، والذي اشترك فيه السلاطين والأمراء والأغنياء على حد سواء ، حتى كثرت المدارس وتعددت بشكل كبير لفت أنظار مؤرخي العصر المملوكي فسجلت أقلامهم هذه الميزة الفريدة التي امتاز بها العصر المملوكي.

ولاشك أن الهدف الأساسي من وراء سياسة الإكثار من المدارس أيام حكم سلاطين المماليك هو خدمة الدين الإسلامي وما يتفرع عنه من مختلف العلوم العقائدية والتشريعية. وقد

كان وجود العلماء والفقهاء والقضاة في مصر في العصر المملوكي بأعداد كبيرة ، مع تعمق في مختلف الدراسات العقائدية والاجتماعية عاملا مشجعا لأصحاب السلطة ، ومحبي العلم والتعليم ، والمقتدرين لإنشاء المدارس على مختلف أنواعها، وقد كان من نتيجة ذلك تلك العلاقة الوثيقة والرابطة القوية بين الحكام المماليك من ناحية، وبين طبقة العلماء والفقهاء والقضاة والمتعلمين من ناحية أخرى ، وليس هناك ما هو أكثر فعالية من هذه الرابطة القوية بين هذين الطرفين المتناقضين لإقتناع الشعب بمختلف فئاته وطبقاته على تقبل الوضع السياسي والرضا بحكم المماليك الدخلاء . بالإضافة إلى ذلك أمعن مؤسسوا هذه المدارس في الصرف على بنائها ، وتوفير الأساتذة الأكفاء ، وما يلزم من مواد وأدوات لتدريس مختلف العلوم العقائدية والأدبية والعلمية، ولكن رغم تباينها عن مدارس الدولة الأيوبية في الفخامة العمرانية والتقدم العلمي إلا أن كل هذه المدارس تتفق في المظاهر المشتركة والأهداف الواحدة، من ذلك أن جميع ما أنشئ من مدارس أيام الدولة الأيوبية وفي العهد المملوكي كان يعتمد في الصرف عليه على نظام الوقف الذي كان يمثل مصدرا شرعيا ثابتا للصرف والإنفاق على هذه المدارس^(٩).

وبفضل نظام الوقف استطاعت خمس وسبعون مدرسة أن تؤدي وظائفها التعليمية بانتظام في القرن الخامس عشر . وكان المدرسون في هذه المدارس يختارون بعناية كبيرة، ويتم تعيينهم من قبل السلطان^(١٠).

وقد كان جميع مؤسسي هذه المدارس من السلاطين والوزراء والأمراء والأغنياء والعلماء المقتدرين ، ومن ثم كانت لديهم الإمكانيات الاقتصادية الوفيرة لوقف مختلف الأنواع من الأملاك والعقارات وغير ذلك من الأجزاء ومن جملة ما يوقف على هذه المدارس عدد كبير من القرى^(١١)، والضيايع^(١٢)، والنواحي^(١٣)، والحمامات^(١٤)، والفنادق^(١٥)، والخوانيت^(١٦)، والأملاك^(١٧)، والأراضي^(١٨).

أما عن أوقاف المدرسة الناصرية فيذكر النويري أنه حين «حصل الشروع في عمارتها، وعين له من الأملاك السلطانية ما يوقف عليها، وكان المعين لذلك قاضى القضاة زين الدين المالكي ، وهو يومئذ ناظر الأملاك السلطانية، التي ورثها السلطان عن والده وإخوانه والمبتاعة من أجر أملاكه، وكانت أجرتها في كل شهر بالقاهرة وظواهرها خاصة تزيد على ثمانية عشر ألف درهم . ولما عزم السلطان على الحركة إلى الشام للقاء غازان وضربه عند طروقه الشام، وقف القبة والمدرسة، ووقف على مصالحهما من أملاكه ما يذكر، وذلك في الثاني والعشرين من ذي الحجة سنة ثمان وتسعين وستمائة قبل استقلاله ركابه الشريف إلى الشام بيومين»^(١٩).

ثم أخذ النويرى بعد ذلك يعدد ما تم وقفه على المدرسة الناصرية من قيساريات وقاعات وحوانيت وحمامات وخانات وغير ذلك من المباني ، وكلها تدر الإيجارات الوفيرة ، حيث يستغل كل ذلك للصرف على تعمير المدرسة ومرتببات أرباب الوظائف الدينية، والتعليمية، والخدمات المختلفة (٢٠). وكان جملة ما تدره هذه الأوقاف ربعا ثابتا للمدرسة الناصرية يزيد على (٨٤٠٢) درهم فى السنة (٢١). كما يشير المقرئى إلى أوقاف المدرسة الناصرية بقوله : «وقف على هذه المدرسة قيسارية أمير على بخط الشرايشين من القاهرة، والربع الذى يعلوها وكان يعرف بالدهيشة ، ووقف عليها أيضا حوانيت بخط باب الزهومة من القاهرة ، ودار الطعم خارج مدينة دمشق» (٢٢).

لم يقتصر حبس الأوقاف على المدارس وقبابها عند الانتهاء من البناء فقط، بل كان يعمل على زيادة الأوقاف فى فترات لاحقة ، كما كان جائزا أن تتم هذه الزيادة فى الأوقاف على يد شخص آخر غير الواقف الأصلي، من ذلك أن الأشرف خليل بعد أن تولى زمام الحكم بعد وفاة والده المنصور قلاوون أوقف فى شعبان سنة ٦٩٠ هـ / ١٢٩١ م على القبة المنصورية التى بناها والده بين القصرين من قرى عكا الكابرة وقل الميشوح وكردانة، ومن ساحل صور معركة وصريفين . وأوقف على المدرسة الأشرفية بجوار السيدة نفيسة قرية الفرخ من عكا، وقرية شعر عمر وقرية الحمراء، ومن ساحل صور قرية طبرينة (٢٣).

وكان بعض الفضلاء يوقفون الأوقاف الجليلة على مدارس وجوامع لاتنسب إليهم، فصاحب حماة إسماعيل بن على الأيوبى المعروف بالملك المؤيد عماد الدين أبى الفداء، كان له وقف على جامع ابن طولون وهو خان كامل بحوانيته فى دمشق، وسبق أن ذكرنا أن جامع ابن طولون كان مخصصا فيه مكانا للدرس له وظيفة المدرسة (٢٤). ويؤكد المقرئى فى مواقع متفرقة من كتابه المواعظ والاعتبار على أن الأوقاف كانت العمود الفقرى لذلك الهيكل التعليمى القائم على تلك المدارس الكثيرة، وبدون ذلك الريع الثابت الشرعى الذى تدره الأوقاف لا يمكن لأى مدرسة أن تعارس وظائفها، أو تحقق الهدف الذى تم تشييدها من أجله. وقد شهد العصر المملوكى إنشاء ثلاث مدارس تجمدت فيها الحياة التعليمية بسبب عدم توفر ذلك الشريان الاقتصادى (٢٥). ومن ريع الأوقاف هذا كان يصرف فى بعض الأحيان للفقهاء المقيمين فى المدرسة معلوم يعيشون منه (٢٦)، وكان هذا المعلوم هو مصدر الرزق الوحيد لبعض الفقهاء، ومن ناحية أخرى كان هو السبب الوحيد أحيانا لبقاء هذه المدارس وعدم وصول الخراب إليها (٢٧).

كما كان يصرف من ريع الوقف هذا مرتبات للطلبة^(٢٨)، كل هذا يؤكد أن الأوقاف كانت هي القلب الذي يعمل على استمرار الحياة التعليمية في هذه المدارس بانتظام وبدون تغيير، وبدونها تصبح هذه الأماكن خراباً لا منفعة من ورائها، ففي المدرسة الناصرية كان واجب على الناظر أن «يصرف لكل واحد من المدرسين والمعيدية وطلبتة والداعي عنده والنقيب في كل شهر من شهور الأهلة ألف درهم نقرة، ومن ذلك ما يختص به المدرس عن التدريس مائتي درهم، والمعيدون والطلبة والداعي والنقيب ما يراه من التسوية والتفضيل»^(٢٩)، ويلاحظ أن المرتبات التي تصرف للطلبة الدارسين على أيدي فقهاء المذاهب الإسلامية الأربعة تختلف من طائفة إلى طائفة، كما كانت قيمة هذه المرتبات من أسباب جذب الطلبة نحو أحد المذاهب دون غيره، مثال ذلك ما يذكره المقرئ أنه في «سنة سبع وستين وسبع مائة جدد الأمير يلغا العمري الخاصكي درسا بجامع ابن طولون فيه سبعة مدرسين للحنفية، وقرر لكل فقيه من الطلبة في الشهر أربعين درهما وإردب قمح فانتقل جماعة من الشافعية إلى مذهب الحنفية»^(٣٠).

إلى جانب ما كان يحصل عليه أرباب الوظائف من مرتبات منتظمة كانت توزع عليهم الخيرات المختلفة في المناسبات الدينية حيث يقطع ذلك من ريع الأوقاف كما جاء في وصف المدرسة الحجازية: «وجعلت على هذه الجهات عدة أوقاف جلييلة يصرف منها لأرباب الوظائف المعاليم السنوية، وكان يفرق فيهم كل سنة أيام عيد الفطر الكعك والخشكناك، وفي عيد الأضحى اللحم، وفي شهر رمضان يطبخ لهم الطعام»^(٣١). أما في المدرسة الناصرية فإنه «جعل للناظر أيضا أن يصرف من ريع الوقف إذا فضل عن المرتب المعين فيه، في ليالى الجمع والأعياد والمواسم وشهر رمضان، ما يراه في التوسعة عليهم، فإن تعذر الصرف لجهة من الجهات عاد الصرف إلى ما فيها، فإن تعذر صرف ذلك للفقراء والمساكين من المسلمين أينما كانوا وحيثما وجبوا»^(٣٢).

وبذلت بعض المدارس عناية كبيرة لتوفير بيوت لسكنى الطلبة فالمقرئ في كلامه عن المدرسة الصاحبية البهائية يصف التشاحن والتنافس بين الطلبة بهدف الفوز بالسكن في أحد بيوتها التي أعدتها لإقامة الطلبة، بل ويقبل الطالب منهم مشاركة آخرين في نفس البيت، ولعل في هذا كناية لما وفرته هذه البيوت الداخلية من راحة ورفاهية للطلاب لكي يتمكنوا من مواصلة دراستهم براحة نفسية، مطمئنين إلى أماكن إيوائهم واستقرارهم «وكانت من أجل مدارس الدنيا، وأعظم مدرسة بعصر يتنافس الناس من طلبة العلم في النزول بها، ويتشاحنون في سكنى بيوتها حتى يصير البيت الواحد من بيوتها يسكن فيه الاثنان من طلبة العلم والثلاثة»^(٣٣).

أما المدرسة الظاهرية التي أنشأها الظاهر بيبرس سنة ٦٦٢هـ / ١٢٦٣م فقد كان للناس في سكناها رغبة عظيمة ويتنافسون فيها تنافسا يرتفعون فيه إلى الحكام^(٣٤)، وهذا دليل على جودة المساكن التي توفرها المدارس للطلبة .

يستفاد من ذلك كله أنه وجدت في هذه المدارس مساكن للطلبة والمدرسين ليعيشوا فيها، وتكون المقر الدائم لإقامتهم حتى ينهون دراستهم، إلى جانب ما كان يصرف لهم من مرتبات يتعيشون منها. وقد عمرت هذه المدارس بالمدرسين والمعيدین والطلبة والمباشرين والفراشين ، إلى جانب وجود إمام ومؤذن لإقامة الصلوات الخمس، وقد كان لكل هؤلاء الرواتب الثابتة^(٣٥).

بالإضافة إلى ما كانت تؤديه هذه المدارس من وظائف علمية وتعليمية، فإنها كانت تستخدم أيضا لإقامة الشعائر الدينية، وإقامة الصلوات الخمس، أي أماكن للعبادة ومراكز للوعظ والإرشاد التهذيبي^(٣٦)، ويستدل على ذلك من قول المقرئ في كلامه عن المدرسة الصالحية: «فلما كان في يوم الجمعة حادى عشر من ربيع الأول سنة ثلاثين وسبعمائة رتب الأمير جمال الدين أقوش المعروف بنائب الكرك جمال الدين الغزاوى خطيبا بإيوان الشافعية من هذه المدرسة، وجعل له في كل شهر خمسين درهما، ووقف عليه وعلى مؤذنين وقفًا جاريا فاستمرت الخطبة هناك إلى يومنا هذا»^(٣٧). كما أشار الناصر محمد في وصية الوقف الخاصة بالمدرسة الناصرية إلى ضرورة وجود الأئمة والمؤذنين والقراء لإقامة الصلوات الخمس، فقد جاء في شروط وصية الوقف : «وجعل للناظر أن يرتب بالقبة المذكورة إماما يؤم المسلمين في الصلوات الخمس ، ويفعل ما يفعله الأئمة على ما يراه الناظر من المذهب، ويؤدى إليه اجتهاده ، ويصرف له في كل شهر بالحلال ثمانين درهما أو ما يقوم مقامها»^(٣٨)، واشترط على الناظر أن يرتب بالقبة شيخا لقراء الحديث النبوى ، ويصرف له من ريع الوقف في كل شهر ثلاثين درهما نقرة، ويرتب بالمدرسة من القراء الحافظين لكتاب الله العزيز خمسة وعشرين نفرا، ويصرف لهم في كل شهر خمسمائة درهم . ومن المؤذنين ثمانية في القبة والمدرسة لإعلان الأذان وإقامة الصلوات والتسبيح، ويصرف للثنتين الرئيسيين في كل شهر مائتى درهم وثلاثين درهما نقرة، ويصرف للستة الباقين في كل شهر مائة درهم وخمسين درهما^(٣٩)، وكان الحصول على منصب في أحد المدارس هدف الكثيرين من القضاة ورجال الدولة، فيشتد التنافس والخلاف بينهم طمعا في هذه المناصب المدرسية ، سواء التدريس أو النظر أو الإشراف فإن وفق أحدهم في الحصول على إحدى الوظائف اجتهد في جعلها وراثية لأبنائه من بعده ، ثم أحفاده وذريتهم ، أى يتم ربطها بشخصيات إحدى الأسر، وهذا

الاحتكار الوظيفي الأسرى يظهر واضحا فى كتاب وقف المدرسة الناصرية ، فحين رتب قاضى القضاة زين الدين المالكى كتاب الوقف هذا «جعل النظر فيه على الوقف والمدرسة والقبة لنفسه أيام حياته، ثم من بعده للأرشد فالأرشد من أولاده وأولادهم وذريتهم ، ثم من بعدهم لقاضى القضاة المالكى، وشرط أيضا التدريس فى إيوان المالكية لنفسه ولأولاده من بعده..» وكتب الكتاب ووقع الإشهاد على السلطان فيه لذلك «(٤٠).

وعلى ذلك يمكن أن نسأل إلى أى حد استطاع القاضى زين الدين أن ينجح فى تنفيذ تخطيطه هذا ومواجهة تيار التنافس الوظيفي الذى اتسم به العصر المملوكى تشير الحوادث إلى أن شهاب الدين أحمد بن عبادة تضايق من تدبير قاضى القضاة زين الدين المالكى وانفراده وأولاده بوظيفتى النظر والتدريس، وكان قد سبق أن ناشد القاضى زين الدين أن يجعله مشرفا على تنفيذ وصية شروط الوقف فلم يمكنه من ذلك ، لذلك كله عمل شهاب الدين أحمد على تغيير كتاب الوقف، وأخذ يغرى الناصر محمد بأن يجعل وظيفة النظر لعتيقه الطواشى شجاع الدين عنبر اللالا بدلا من قاضى القضاة زين الدين، وما زال يلح عليه حتى نجح فى إقناعه ، وأوكلت وظيفة النظر إلى الطواشى شجاع الدين «وجعل له أن يتناول من ريع الوقف المذكور فى كل شهر ثلاثمائة درهم نقرة مدة حياته، وجعل لمن يؤول النظر إليه بعده فى كل شهر مائتى درهم، وأبطل الكتاب الأول وثبت الكتاب الثانى» (٤١).

ويوضح هذا مدى أثر التطلعات الشخصية والتيارات الفردية فى تولية المناصب دون النظر إلى عواقب ذلك ونتائجه على المصلحة العامة، وقد حدث ذلك مع وظيفة النظر إذ يبدو أن من تولوها لم يكن كفى للقيام بأعباء هذا المنصب، وأهملت شروط الواقف حيث «حصل الخروج فيها عن شرط واقفها فى كثير من أموالها، وأحصر المرتب عن شرط الواقف مع توفر المال وزيادة عن كفاية الشروط . وإنما ظهر ذلك عند وفاة ناظرها الطواشى شجاع الدين فى سنة أربع وعشرين وسبعمائة وظهر كتاب الوقف ولعل الناظر المذكور لم يفعل ذلك عن علم وإطلاع على الشروط، وإنما فعله عن إغفال وإهمال وجهل وعدم احتقال بإمعان النظر فيما أسند إليه ، واعتمد فيه عليه» (٤٢).

وهذا يؤكد ما سبق مناقشته من حدوث العواقب الوخيمة فى حالة عدم وجود الشخصية المناسبة فى المنصب الحساس، حيث أهملت شروط الواقف، وبالتالي تضرر أرباب الوظائف من القضاة والعلماء والفقهاء والأعيان والمدرسين وغيرهم، «فلما أسند النظر إلى أهله ، وانتهى إلى من يتحرى الصواب فى قوله وفعله، أجرى الأمور فيها على شرط واقفها ، وصرف

أموالها فى وجوه مصارفها ، وما عدل عن شرط الواقف ولا خرج: ولا اعتمد ما يترتب عليه فيه إذا خرج»^(٤٣).

كذلك كان من غير المستحب أن يعمل السلطان على منع الناظر من تنفيذ شروط الواقف، حيث إن بقاء الناظر فى وظيفة النظر كان مرتبطاً بتقييده بشروط وصية الواقف . بالإضافة إلى أنه كان من المتعارف عليه بيع هذه الوظائف من قبل أصحاب الاستحقاق ، مثلما تم بيع وظيفة مشيخة الحديث فى الكاملية بمبلغ ستين ديناراً ، دون أدنى اهتمام بأن يعهد بها لمن تؤهله علومه للقيام بالتزاماتها ومسئولياتها فى التهذيب والتعليم. وتذكر المصادر المملوكية أنه كان يحدث فى بعض الأحيان أن يقوم المدرس بوظيفة النظر فى أوقاف المدرسة إلى جانب قيامه بوظيفة التدريس، من ذلك ما حدث فى المدرسة الناصرية بالقرافة حيث «رتب بها مدرساً يدرس الفقه على مذهب الشافعى، وجعل له فى كل شهر من المعلوم عند التدريس أربعين ديناراً. وعن معلوم النظر فى أوقاف المدرسة عشرة دنانير، ورتب له من الخبز فى كل يوم ستين رطلاً بالمصرى ، وراويتين من ماء النيل»^(٤٤).

ومن ناحية أخرى يظهر واضحاً فى نسخة توقيع بتدريس المدرسة الصلاحية الناصرية كتب لقاضى القضاة تقي الدين ابن قاضى القضاة تاج الدين ابن بنت الأعرز- إن هذه الوظيفة توكل لمن تؤهله أخلاقه وسمعته وعلمه للقيام بمسئولية هذا المنصب، حيث يتم تعيينه بأمر سلطانى لينشر علمه بين طلاب المعرفة ويكون ذلك قبوة لعلماء عصره^(٤٥).

وإذا حدث وتنامى إلى سمع السلطان فشل المدرس الذى عينه فى القيام بأعباء مسئولياته كاملة، فإنه يتم إحضار هذا المدرس بين يدى السلطان للتحقيق فى الأمر^(٤٦). وكان المدرس يقوم بتدريس العلوم الشرعية من التفسير والحديث والفقه والنحو والتصريف وغير ذلك ، ويأتى من بعده المعيد الذى يعيد ما سبق أن شرحه المدرس، لكى يفهمه الطلبة^(٤٧). وكان لزاماً على المدرس أن يعامل الطلبة وكأنهم أبناؤه^(٤٨).

ويلاحظ ارتباط هذه المدارس بالمذاهب الإسلامية الأربعة فيختص بعضها للفقهاء الشافعية، وبعضها للفقهاء المالكية، وبعضها للحنفية^(٤٩). وفى بعض الأحيان يكون فى مدرسة واحدة درس للطائفة الشافعية ، ودرس للطائفة الحنفية^(٥٠). كما وجدت مدارس بها دروساً أربعة لطوائف الفقهاء الأربعة، مثلما وجد فى المدرسة الناصرية من تدريس المذاهب الأربعة على يد كبار الفقهاء ومعهم المعيدون والطلاب كل مجموعة فى إيوان، المالكية فى الإيوان القبلى،

والشافعية فى الإيوان البحرى، والحنفية فى الإيوان الشرقى، والحنابلة فى الإيوان الغربى، ويراعى تحديد عدد المعيدىين والطلبة حسب أوامر الناظر^(٥١). وعنى بعض المدارس بتدريس علم الطب مثل المدرسة المنصورية^(٥٢). ووجد من أهل الدين والعلم من إذا بنى مدرسة، وانتهى منها، ووقف عليها الأوقاف الجليلة، باشر التدريس بها بنفسه^(٥٣)، فالشيخ هبة الله ابن على بن السديد الإسنائى مجد الدين (ت سنة ٧٠٩هـ / ١٣٠٩م) تولى التدريس فى مدرسته التى أنشأها فى بلدة إسنا ووقف عليها بساتينته، وكان يعمل للطلبة فيها طعاما طيبا^(٥٤). وإلى جانب ما كانت تؤديه بعض المدارس من منافع تتفق مع كونها عبادة ودرس، كانت تقوم أيضا بوظيفة الخانقاة، حيث تصبح مقرا لإيواء الصوفية، وممارسة وظيفة التصوف، واستضافة الواردين من الفقراء^(٥٥). فالمدرسة المهندارية التى بناها الأمير شهاب الدين أحمد بن أقوش العزيزى المهندار ونقيب الجيوش فى سنة ٧٢٥هـ / ١٣٢٥م «جعلها مدرسة وخانقاة»^(٥٦)، والمدرسة الجمالية التى بناها الأمير الوزير علاء الدين مغلطاي الجمالى سنة ٧٣٠هـ / ١٣٣٠م «جعلها مدرسة للحنفية وخانقاة للصوفية»^(٥٧).

واحتوى عدد من المدارس على مكاتب سبيل تقام بجانبها معونة للأيتام والمحتاجين، حيث يكون هدفها تعليم أيتام المسلمين، وتجرى لهم الجرايات والكسوة^(٥٨). وعادة تلحق مكاتب السبيل هذه إما بالمدارس، أو بالمساجد، أو غير ذلك من المؤسسات الدينية والتعليمية. وقد يكون السبب فى عدم قيام مراكز تعليم الأيتام هذه مستقلة بذاتها هو الخوف من اندثارها وسرعة وصول الخراب إليها، ولذا كانت تلحق بهذه المؤسسات الكبيرة القادرة على تمويلها وإمدادها بالمدرسين والطعام والكتب، وغير ذلك مما تحتاجه لتواصل مسيرتها فى تعليم الأيتام وحسن توجيههم. فالمدرسة الحجازية مثلا قد أقيم بجوارها مكتب للسبيل يضم عددا من أيتام المسلمين^(٥٩)، مع مؤدب يعلمهم القرآن الكريم، ويوزع عليهم فى كل يوم لكل واحد منهم خمسة أرغفة من الخبز، ومبلغ من المال، بالإضافة إلى كسوتى الشتاء والصيف^(٦٠).

وقد اجتهد على أن يتوفر فى هذه المدارس مؤدب أطفال تكون مهمته توجيه وتعليم الأطفال الأيتام فى مكاتب السبيل^(٦١)، وكان بعض الخيرين يبنى مكتبا للأيتام قائما بذاته دون أن يلحقه بمدرسة، من ذلك أن محمد بن الصاحب (ت سنة ٧٠٧هـ / ١٣٠٧م) «بنى مكتبا بالقرافة، وشرط فى كتاب وقفه أن ألواح الصبيان إذا غسلت يصب على قبره»^(٦٢) وقد يكون السبب وراء بناء هذا المكتب مستقلا بذاته هو عدم توفر المال لبناء مؤسسة كبيرة يلحق بها، فاكفى الواقف بإنشاء هذا المكتب لتعليم الأيتام طلبا للثواب والرحمة.

ودرج فى كثير من الأحيان على أن تلحق بالمدرسة قبة يدفن فيها الواقف صاحب المدرسة أو يبنى له قبراً فى أحد جوانبها (٦٣)، فالمقرئى فى وصفه للمدرسة الناصرية التى أنشأها الناصر محمد، يذكر «وأنشأ بجوار هذه المدرسة من داخل بابها قبة جليلة... فلما مات ابنه أنوك من الخاتون طغاي فى يوم الجمعة سابع عشر ربيع الأول سنة إحدى وأربعين وسبعمائة وعمره ثمانى عشرة سنة دفنه بهذه القبة وعمل عليها وقفاً يختص بها...» (٦٤).

أما المدرسة الحجازية التى شيدها خوند نتر الحجازية ابنة الناصر محمد وزوجة الأمير بكتمر الحجازى- فيذكر- المقرئى أنه قد «أنشأت بجوارها قبة من داخلها لتدفن تحتها، ورتبت بشباك هذه القبة عدة قراء يتناوبون قراءة القرآن الكريم ليلاً ونهاراً، وأنشأت بها مناراً عالياً من حجارة ليؤذن عليه» (٦٥). وحين توفيت خوند نتر الحجازية دفنت بهذه القبة فأخذ «يجلس بها عدة من الطواشية، ولا يمكنون أحداً من عبور القبة التى فيها قبر خوند الحجازية إلا القراء فقط وقت قراتهم خاصة» (٦٦).

كذلك يذكر المقرئى عن شمس الدين شاكر بن عزيز المعروف بابن البقرى مؤسس المدرسة البقرية أنه «دفن بمدرسته هذه وقبره بها تحت قبة فى غاية الحسن» (٦٧). بالإضافة إلى ذلك كان بعض الفضلاء المقتدرين يعملون على وقف دروس قرآنية فى الترب طلباً للرحمة والمغفرة (٦٨). وهكذا كان من المستحب دفن صاحب المدرسة أو أبنائه فى المدرسة بعد وفاته . ولعل السبب أنها مكان للدرس، وذكر الله، وتفسير الشريعة الإسلامية، إلى جانب كونها مكان عبادة وتعبد . من ذلك أن الأمير الكبير سيف الدين الجاى دفن فى مدرسته المعروفة باسمه «مدرسة الجاى» (٦٩).

كما دفن السلطان الأشرف شعبان بن حسين بن محمد بن قلاوون فى مدرسة أمه المعروفة باسم مدرسة أم السلطان ، وذلك بعد قتله (٧٠). ودفن الأمير سيف الدين إينال اليوسفى بعد وفاته فى سنة ٧٩٤هـ / ١٣٩٢ م خارج باب النصر، حتى انتهت عمارة مدرسته، مدرسة إينال ، فنقل إليها ودفن فيها (٧١).

ويفهم من كلام المقرئى فى وصفه لهذه المدرسة أن الهدف من بنائها أن تكون مقراً يدفن فيها صاحبها ، حيث يذكر : «ولم يعمل فيها سوى قراء يتناوبون قراءة القرآن على قبره» (٧٢). ولعل الواقف صاحب المدرسة حين يوصى بأن يدفن فى مدرسته يرجو دعاء الشيوخ العلماء والمدرسين والمعידين والطلبة ترحماً عليه وطلب المغفرة له .

إلى جانب ذلك ضمت معظم هذه المدارس خزانة كتب بها أمهات الكتب في مختلف العلوم^(٧٣). واحتوت بعض المدارس على كتب تكون من جملة الموقوف للتعليم في هذه المدارس^(٧٤)، فالمدرسة الفاضلية وقف بها جملة عظيمة من الكتب في سائر العلوم، يقال إنها كانت مائة ألف مجلد^(٧٥).

أما المدرسة الحمودية التي أنشأها الأمير جمال الدين محمود بن على الاستادار سنة ٧٩٧هـ / ١٣٩٥م فقد «عمل فيها خزانة كتب لا يعرف اليوم بديار مصر ولا الشام مثلها، وهي باقية إلى اليوم لا يخرج لأحد منها كتاب إلا أن يكون في المدرسة، وبهذه الخزانة كتب الإسلام من كل فن»^(٧٦). وكان من المعتاد أن يعين لإخزانة الكتب في المدرسة مشرفاً يتولى العناية بها والاهتمام بما فيها، من كتب ومراقبة الإعارة ففي المدرسة الناصرية مثلاً: «شاهداً لخزانة الكتب، يحفظ ما فيها من الكتب، ويضبط ما يؤخذ منها للاشتغال بها، بحيث لا تخرج الكتب من المدرسة، ويصرف له في كل شهر ثلاثين درهماً، أو ما يقوم مقامها من النقود»^(٧٧).

وهذه النظرة السريعة إلى بعض ما أنشئ من مدارس أيام الدولة المملوكية - هي خير دليل على أسباب قيام هذه المؤسسات، والهدف من تأسيسها، وكيفية قيامها في تأدية وظائفها، ولابأس من تركيز هذه الدراسة حول مدارس عصر الناصر محمد بن قلاوون، خاصة وأن المصادر المملوكية تكاد تجمع على أن هذا العصر كان يعد بحق العصر الذهبي للعمارة المملوكية، حيث ازدهر بعدد هائل لمختلف أنواع العمائر، وكان يصرف ببذخ على تشييدها، ويتقانى في ضخامة بنائها، وجودة زينتها، والإنفاق في سبيل ذلك بغير حساب.

ونستشهد على ذلك كله بقول ابن حجر العسقلاني في ترجمته للناصر محمد حيث يقول: «وبنى في سلطنته من الجوامع والمدارس والخوانق الشيء الكثير جداً»^(٧٨).

الهوامش

- ١- المقرئى ، الخطط ، ج ٢ ، ص ٣٦٣ .
- ٢- عن العلاقة بين سلطنة المماليك والسودان الغربى انظر عاشور ، العصر المماليكى فى مصر والشام ، ص ٢٤٢-٢٤٥ (الطبعة الاولى ، ١٩٦٥م) .
- ٣- المقرئى ، الخطط ، ج ٢ ، ص ٣٦٥ .
- ٤- المقرئى ، الخطط ، ج ٢ ، ص ٣٦٥ .
- ٥- المقرئى ، السلوك ، ج ١ ، ص ٩٥١-٩٥٢ .
- ٦- القلقشندى ، صبيح الأعشى ، ج ٢ ، ص ٣٦٣-٣٦٤ .
- ٧- القلقشندى ، صبيح الأعشى ، ج ٢ ، ص ٣٦٤ .
- ٨- القلقشندى ، صبيح الأعشى ، ج ٢ ، ص ٣٦٣-٣٦٢ .
- ٩- أبو الفدا ، مختصر ، ج ٤ ص ١٣٣ ، ابن حجر ، الدرر ، ج ٤ ، ص ٥٠ ، المقرئى ، الخطط ، ج ٢ ، ص ٣٦٣-٣٦٤ ، ٣٦٦ ، ٣٦٨ ، ٣٨٢ ، ٣٨٣ ، ٣٨٧ ، ٣٨٨ ، ٣٩٢ ، ٣٩٣ ، ٣٩٤ ، ٣٩٧ ، ٣٩٨ ، ٤٠٠ ، ٤٠١ ، ٤٠٢ ، ٤٠٤ ؛ ابن تفرى بردى ، المنهل ، ج ١ ، ص ٣٩٢-٣٩٣ .
- ١٠- ابن إياس ، بدائع ، ج ٣ ، ص ٤٢ ، ٩٥ ، ١٠٤ ، ١٠٥ .
- ١١- المقرئى ، الخطط ج ٢ ، ص ٣٦٤ .
- ١٢- المقرئى ، الخطط ج ٢ ، ص ٣٦٤ .
- ١٣- المقرئى ، الخطط ج ٢ ، ص ٣٦٤ .
- ١٤- المقرئى ، الخطط ج ٢ ، ص ٣٦٤ ، ٣٧٨ .
- ١٥- المقرئى ، الخطط ج ٢ ، ص ٣٦٦ .
- ١٦- المقرئى ، الخطط ج ٢ ، ص ٣٧٤ .
- ١٧- المقرئى ، الخطط ج ٢ ، ص ٣٧٤ .
- ١٨- المقرئى ، الخطط ج ٢ ، ص ٣٨٢ .
- ١٩- النويرى ، نهاية ، ج ٣٠ ورقة ٣٩٩ ؛ انظر أيضا المقرئى ، السلوك ، ج ١ ، ص ٩٥١-٩٥٢ ؛ ابن تفرى بردى ، النجوم ، ج ٨ ، ص ٢٠٨-٢١١ .
- ٢٠- النويرى ، نهاية ، ج ٣٠ ، ورقة ٢٤١ ب.

- ٢١- النويرى ، نهاية ، ج ٣٠ ، ورقة ١٢٤١ .
- ٢٢- المقرئى ، الخطط ، ج ٢ ، ص ٢٨٢ ، انظر أيضا المقرئى ، السلوك ، ج ١ ، ص ٩٥١-٩٥٢ .
- ٢٣- المقرئى ، السلوك ، ج ١ ، ص ٧٦٩ .
- ٢٤- ابن حجر ، الدرر ، ج ١ ، ص ٣٩٩ .
- ٢٥- المقرئى ، الخطط ، ج ٢ ، ص ٣٦٨ ، ٣٦٩ ، ٣٧٠ ، ٤٠١ .
- ٢٦- المقرئى ، الخطط ج ٢ ، ص ٣٦٤ .
- ٢٧- المقرئى ، الخطط ج ٢ ، ص ٣٦٤ .
- ٢٨- المقرئى ، الخطط ج ٢ ، ص ٣٦٥ .
- ٢٩- النويرى ، نهاية ، ج ٣٠ ورقة ٢٤٠ ب .
- ٣٠- المقرئى ، الخطط ج ٢ ، ص ٣٦٩ .
- ٣١- المقرئى ، الخطط ج ٢ ، ص ٣٨٢ .
- ٣٢- النويرى ، نهاية ، ج ٣٠ ، ورقة ٢٤١ ب- ٢٤٢ .
- ٣٣- المقرئى ، الخطط ، ج ٢ ، ص ٣٧١ .
- ٣٤- المقرئى ، الخطط ، ج ٢ ، ص ٣٧٩ .
- ٣٥- المقرئى ، الخطط ج ٢ ، ص ٤٠٠ ، ٤٠٢ ، ٤٠٤ .
- ٣٦- المقرئى ، الخطط ج ٢ ، ص ٣٧٤ ، ٣٩٤ .
- ٣٧- المقرئى ، الخطط ، ج ٢ ، ص ٣٧٤ .
- ٣٨- النويرى ، نهاية ، ج ٣٠ ، ورقة ١٢٤٠ .
- ٣٩- النويرى ، نهاية ، ج ٣٠ ، ورقة ١٢٤٠ أ .
- ٤٠- النويرى ، نهاية ، ج ٣٠ ، ورقة ١٢٣٩ .
- ٤١- النويرى ، نهاية ، ج ٣٠ ، ورقة ١٢٣٩ ب .
- ٤٢- النويرى ، نهاية ، ج ٣٠ ، ورقة ١٢٣٩ ب .
- ٤٣- النويرى ، نهاية ، ج ٣٠ ، ورقة ١٢٤٠ .
- ٤٤- المقرئى ، الخطط ، ج ٢ ، ص ٤٠٠ .

- ٤٥- القلقشندي ، صبيح الأعشى ، ج ١١ ، ص ٢٣١-٢٣٤ ، قارن ص ٢٣٦-٢٣٩ ، ٢٣٩-٢٤١ .
- ٤٦- ابن تغري بردي ، حوادث ، ورقة ١٢ أ ، تبر ، ص ٢١٩ .
- ٤٧- القلقشندي ، صبيح الأعشى ، ج ٥ ، ص ٤٦٤ .
- ٤٨- القلقشندي ، صبيح الأعشى ، ج ١١ ، ص ٢٤٧ .
- ٤٩- المقرئزي ، الخطط ، ج ٢ ، ص ٣٦٢ ، ٣٦٤ ، ٣٦٥ ، ٣٦٦ ، ٣٦٩ ، ٣٧١ ، ٣٧٣ ، ٣٧٩ .
- ٥٠- المقرئزي ، الخطط ، ج ٢ ، ص ٣٦٩ .
- ٥١- النويري ، نهاية ، ج ٢٠ ، ورقة ٢٤٠ ب .
- ٥٢- المقرئزي ، الخطط ، ج ٢ ، ص ٣٧٤ .
- ٥٣- ابن حجر ، الدرر ، ج ٥ ، ص ١٧٦ .
- ٥٤- ابن حجر ، الدرر ، ج ٥ ، ص ١٧٦ ، ابن تغري بردي ، المنهل ، ج ١ ، ص ٣٩٢-٣٩٣ .
- ٥٥- ابن العماد ، الشذرات ، ج ٦ ص ١٤٢-١٤٣ : المقرئزي ، الخطط ، ج ٢ ، ص ٣٩٢ ، ٣٩٣ ، ٣٩٤ ، ٣٩٨ ، ٤٠١ .
- ٥٦- المقرئزي ، الخطط ، ج ٢ ، ص ٣٩٩ .
- ٥٧- المقرئزي ، الخطط ، ج ٢ ، ص ٣٩٢ .
- ٥٨- المقرئزي ، الخطط ، ج ٢ ، ص ٣٦٨ ، ٣٦٩ ، ٣٧٩ ، ٣٨٢ ، ٣٨٨ ، ٣٩١ ، ٣٩٤ .
- ٥٩- المقرئزي ، الخطط ، ج ٢ ، ص ٣٨٢ .
- ٦٠- المقرئزي ، الخطط ، ج ٢ ، ص ٣٨٢ .
- ٦١- المقرئزي ، الخطط ، ج ٢ ، ص ٤٠١ .
- ٦٢- ابن حجر ، الدرر ، ج ٤ ، ص ٣٢٢ .
- ٦٣- المقرئزي ، الخطط ، ج ٢ ، ص ٣٨٢ ، ٣٨٣ ، ٣٩١ ، ٣٩٩ ، ٤٠٠ ، ٤٠١ .
- ٦٤- المقرئزي ، الخطط ، ج ٢ ، ص ٣٨٢ .
- ٦٥- المقرئزي ، الخطط ، ج ٢ ، ص ٣٨٢ .
- ٦٦- المقرئزي ، الخطط ، ج ٢ ، ص ٣٨٣ .
- ٦٧- المقرئزي ، الخطط ، ج ٢ ، ص ٣٩١ .
- ٦٨- المقرئزي ، الخطط ، ج ٢ ، ص ١٦٥ .

- ٦٩- المقرئى ، الخطط، ج ٢ ، ص ٣٩٩ .
- ٧٠- المقرئى ، الخطط ، ج ٢ ، ص ٤٠٠ .
- ٧١- المقرئى ، الخطط، ج ٢ ، ص ٤٠١ .
- ٧٢- المقرئى ، الخطط ، ج ٢ ، ص ٤٠١ .
- ٧٣- المقرئى ، الخطط ، ج ٢ ، ص ٣٧١ ، ٣٧٩ ، ٣٨٢-٣٨٣ ، ٣٨٧ ، ٣٩٢ ، ٣٩٤ - ٣٩٥ ، ٣٩٩ ، ٤٠١ .
- ٧٤- المقرئى، الخطط، ج ٢ ، ص ٣٦٦ .
- ٧٥- المقرئى، الخطط، ج ٢، ص ٣٧٩ .
- ٧٦- المقرئى ، الخطط، ج ٢، ص ٣٩٥ .
- ٧٧- النويرى، نهاية، ج ٣٠ ، ورقة ١٢٤١.
- ٧٨- ابن حجر ، الدرر، ج ٤ ، ص ٢٦٤ .

المصادر والمراجع

ابن إياس محمد بن أحمد (ت ٩٣٠هـ / ١٥٢٤م)

١- بدائع الزهور فى وقائع الدهور، ٣ أجزاء ، القاهرة، ١٨٩٢-١٨٩٦م.

ابن بطوطة محمد بن عبدالله (ت ٧٧٩هـ / ١٣٧٧م)

٢- تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار «رحلة بن بطوطة»، تحقيق د. على المنتصر الكنانى ، الطبعة الأولى، بيروت ، ١٩٧٥م.

ابن تغرى بردى أبو المحاسن يوسف (ت ٨٧٤هـ / ١٤٧٠م)

٣- حوادث الدهور فى مدى الأيام والشهور، جزءان، تحقيق : ويليام بوبر، لوس أنجلوس، ١٩٣٠-١٩٤٢م.

٤- المنهل الصافى ، والمستوفى بعد الوافى، الجزء الأول، القاهرة، ١٩٥٦م.

٥- مورد اللطافة فى من ولى السلطنة والخلافة ، بإشراف ، ج.د. كارليل، طبعة أوروبا، ١٧٩٢م.

٦- النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة، ١٢ جزء، القاهرة، ١٩٢٩-١٩٥٦م.

ابن حبيب : الحسن بن عمر (ت ٧٧٩هـ / ١٣٧٧م)

٧- تذكرة النبىه فى أيام المنصور وبنيه، تحقيق : محمد محمد أمين، مراجعة : سعيد عبد الفتاح عاشور ، القاهرة، ١٩٧٧م.

ابن حجر : أحمد على (ت ٨٥٢هـ / ١٤٤٩م)

٨- الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة، ٥ أجزاء ، القاهرة ، ١٩٦٦م.

٩- إنباء الغمر فى أبناء العمر، جزءان ، حيدر آباد ، ١٩٦٧م.

١٠- فتح البارى بشرح صحيح البارى، ١٣ جزء ، القاهرة، ١٣١٩هـ / ١٩٠٩م.

الحجى: حياة ناصر

١١- التعليم فى مصر زمن الممالك، ضمن كتاب: التربية العربية الإسلامية: المؤسسات والممارسات ، الجزء الثالث، ١٩٩٠م، مؤسسة آل البيت، المجمع الملكى لبحوث الحضارة الإسلامية، الأردن.

١٢- أسواق القاهرة فى القرنين الثامن والتاسع الهجريين / الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين، ضمن كتاب ، بحوث ودراسات فى التاريخ العربى، مهداة إلى أ.د. نور الدين حاطوم بمناسبة بلوغه السبعين من عمره، دار شمال للطباعة والنشر دمشق، ١٩٩٢م.

١٣- العلاقات بين سلطنة المماليك والممالك الأسبانية في القرنين الثامن والتاسع الهجريين / الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين (حائز على جائزة معرض الكتاب المقامة من مؤسسة الكويت للتقدم العلمي عام ١٩٨١م).

١٤- السلطان الناصر محمد بن قلاوون ونظام الوقف في عهده مع تحقيق ونشر وثيقة وقف سرياقوس، الكويت، ١٩٨٣م.

١٥- السياسة الصليبية للملك القديس لويس التاسع، الطبعة الأولى، الكويت، ١٩٨٤م.

١٦- أحوال العامة في حكم المماليك ٦٨٧-٧٨٤ هـ / ١٢٧٩-١٣٨٢م دراسة في الجوانب السياسية والاقتصادية والاجتماعية، الطبعة الأولى، الكويت، ١٩٨٤م، والطبعة الثانية في عام ١٩٩٤م.

١٧- دراسات في تاريخ سلطنة المماليك في مصر والشام، الطبعة الأولى، الكويت، ١٩٨٦م.

١٨- صور من الحضارة العربية الإسلامية في سلطنة المماليك، الطبعة الأولى، الكويت، ١٩٩٢م.

١٩- أنماط من الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية في سلطنة المماليك في القرنين الثامن والتاسع الهجريين / الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين، الطبعة الأولى، منشورات جامعة الكويت، ١٩٩٥م.

٢٠- صفحات من تاريخ الكويت في ظل الاحتلال العراقي أغسطس ١٩٩٠ - فبراير ١٩٩١م (دراسة وثائقية تاريخية)، الطبعة الأولى، مؤسسة الكويت للتقدم العلمي، الكويت، ١٩٩٥م.

الواداري : أبوبكر بن عبدالله بن أيك (معاصر للناصر محمد بن قلاوون)

٢١- كنز الدرر وجامع الغرر، ج ٨ الدرة التركية في أخبار الدولة التركية، تحقيق: و. هاريمان، القاهرة، ١٩٧١م.

٢٢- كنز الدرر وجامع الغرر، ج ٩ الدر الفاخر في سيرة الملك الناصر، تحقيق: ه. ر. رومر، القاهرة، ١٩٦٠م.

الذهبي شمس الدين محمد بن أحمد الشافعي (ت ٧٤٨ هـ / ١٣٤٨م) .

٢٣- العبر في خبر من غير، ٥ أجزاء، الكويت (١٩٦٠-١٩٦٦م).

٢٤- خلاصة تهذيب الكامل في أسماء الرجال، تحقيق: أ.أ. الخزرجي، القاهرة، ١٣٢٢ هـ / ١٩٠٤م.

٢٥- كتاب دول الإسلام، جزآن ، حيدر آباد، ١٣٢٧ هـ / ١٩١٨ م.

زيتير شتين

٢٦- تاريخ سلاطين الممالك ، نشرة كارل ف ، زيتير شتين ليدن، ١٩١٩ م.

السبكي : تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب (ت ٧٧١ هـ / ١٣٧٠ م) .

٢٧- معيد النعم ومبيد النقم ، الطبعة الأولى، بيروت ، ١٩٨٣ م.

السخاوي: شمس الدين محمد بن عبد الرحمن (ت ٩٠٢ هـ / ١٤٩٧ م)

٢٨- الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، ١٢ جزأ، القاهرة، ١٣٥٢-١٣٥٥ هـ / ١٩٣٤-١٩٣٦ م.

٢٩- التبر المسبوك فى ذيل السلوك ، القاهرة، ١٨٩٦ م.

السيوطى : جلال الدين عبد الرحمن بن أبى بكر (ت ٩١١ هـ / ١٥٠٥ م) .

٣٠- حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة، جزآن ، تحقيق : م . أ . إبراهيم ، القاهرة، ١٩٦٧-١٩٦٨ م.

٣١- تاريخ الخلفاء ، تحقيق : م.م . عبد الحميد، القاهرة ، ١٩٦٤ م.

ابن شاكر محمد بن أحمد الكتبى (ت ٧٦٤ هـ / ١٣٩٣ م).

٣٢- عيون التواريخ، الجزآن، ٢٠، ٢١ ، تحقيق : فيصل السامر، نبيلة عبد المنعم داود، الطبعة الأولى، بغداد ، ١٩٨٤ م.

عاشور : سعيد عبد الفتاح :

٣٣- العصر المملوكى فى مصر والشام، القاهرة، ١٩٦٥ م.

٣٤- مصر فى عصر دولة المماليك البحرية، القاهرة، ١٩٥٩ م.

٣٥- مصر فى العصور الوسطى من الفتح العربى إلى الفتح العثمانى، القاهرة، ١٩٧٠ م.

٣٦- المجتمع المصرى فى عصر سلاطين الممالك، القاهرة، ١٩٦٢ م.

ابن عبد الظاهر : محيى الدين أبو الفضل عبدالله (ت ٦٩٢ هـ / ١٢٩٢ م)

٣٧- تشرىف الأيام والعصور فى سيرة الملك المنصور، تحقيق: م. كامل، القاهرة، ١٩٦١ م.

٣٨- الروض الزاهر فى سيرة الملك الظاهر، تحقيق : عبد العزيز الخويطر، الرياض .

٣٩- الألفاظ الخفية من السيرة الشريفة السلطانية الأشرفية، لبيزج ، ١٩٠٢م.

أبو الفدا : إسماعيل بن علي (ت ٧٣٢هـ / ١٣٣١م)

٤٠- المختصر في أخبار البشر ، ٤ أجزاء ، القاهرة، ١٣٢٥هـ / ١٩٠٧م.

٤١- تقويم البلدان ، تحقيق :م . رينود ، م. سلان، باريس ، ١٨٤٠م.

ابن الفرات : محمد بن عبد الرحيم (ت ٨٠٧هـ / ١٤٠٥م)

٤٢- تاريخ الدول والملوك ، جزء ٨ ، تحقيق : قسطنطين زريق وآخرين، بيروت، ١٩٣٩م.

ابن أبي الفخائل : مفضل

٤٣- النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد ، ج ٢، ٣، تحقيق: أ. بلوشيه ، باريس ١٩٢٨م.

القلقشندى: أحمد بن علي (ت ٨٢١هـ / ١٤١٨م)

٤٤- مآثر الأناقة في معالم الخلافة ، ٣ أجزاء ، تحقيق: عبد الستار أحمد فراج، الكويت، ١٩٦٤م.

٤٥- صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، ١٤ جزء، القاهرة ١٩١٣-١٩٢٢م.

المقريزى : أحمد بن علي (ت ٨٤٥هـ / ١٤٤٢م)

٤٦- البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب، تحقيق:م . عابدين، القاهرة، ١٩٦١م.

٤٧- إغاة الأمة بكشف الغمة، حمص ، ١٩٥٦م.

٤٨- الإلمام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الإسلام ، القاهرة، ١٨٩٥م.

٤٩- المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار «الخطط المقرية» ، جزآن، القاهرة، ١٨٥٣م.

٥٠- كتاب السلوك لمعرفة نول الملوك ، ج ١، ٢، تحقيق : محمد مصطفى زيادة ، ج ٢، ٤، تحقيق : سعيد عبد الفتاح عاشور ، القاهرة، ١٩٣٩-١٩٧١م.

النويرى : أحمد بن عبد الوهاب (ت ٧٣٢هـ / ١٣٣٢م)

٥١- نهاية الأرب في فنون الأدب ، ٣٠ جزء ، تحقيق : د. محمد عبد الهادى شعيرة، د. محمد مصطفى زيادة، القاهرة، ١٩٢٣-١٩٩٠م.

مخطوط، دار الكتب المصرية، ٥٤٩ معارف عامة، الأجزاء ٢٦-٣٠ .

معايير الحضارة العربية الإسلامية للغرب الأوروبي

تعددت المعايير التي سلكتها الحضارة العربية الإسلامية في وصولها إلى الغرب الأوروبي، فكانت هناك ثلاثة معايير رئيسية، تمثلت في الأندلس وصقلية والحروب الصليبية ومعبرين مساعدين هما التجارة والترجمة. واختلفت هذه المعايير فيما بينها من حيث النشاط وكمية المنقول الحضاري والثقافي، وإن نظرة فاحصة للمنقول من عناصر الحضارة العربية الإسلامية والطريق الذي عبرته يستدل منها بأن الأندلس كان الجسر الرئيسي في عملية انتقال الحضارة العربية إلى الغرب الأوروبي وذلك لأن الاحتكاك الأوروبي بالعرب استمر مع المشرق والأندلس فترة ثمانية قرون بينما استمر مع صقلية ثلاثة قرون فقط، وتأتي أهمية الحروب الصليبية باعتبارها وسيلة ساعدت على نقل الحضارة العربية الإسلامية إلى الغرب الأوروبي وهنا برزت أهمية التجارة ثم الترجمة كعاملين مساعدين، أثرا إلى درجة كبيرة في نقل الكثير من معالم هذه الحضارة إلى الغرب الأوروبي كذلك، وفيما يلي عرض لأهمية كل معبر من هذه المعايير :

أولا : معايير رئيسية :

١- الأندلس :

فتح المسلمون إسبانيا عام (٩٢هـ / ٧١١م) وحرروها من حكم القوط البرابرة، ولم يكفهم فتحها حتى أخذوا يمارسون نشاطهم الحضاري، فأقاموا حضارة بين ربوعها كانت

* أستاذ التاريخ الإسلامي المشارك - قسم العلوم الاجتماعية - كلية الآداب - جامعة البحرين.

امتدادا طبيعيا للحضارة الإسلامية في المشرق ، فأكثروا من المنشآت ووطدوا ودعموا الصلات التجارية بين الأمم، ثم شرعوا يتفرغون لرعاية العلوم والآداب وينشئون المدارس ودور العلم التي ظلت زمنا طويلا مراكز الإشعاع الثقافي في أوروبا ، وقد بهر أهل الأندلس من النصارى بهذه الحضارة إلى حد دفعهم إلى تعلم اللغة العربية . وعثر على قصيدة لمؤلف مجهول تقوم حواشيها على قصة سيدنا يوسف عليه السلام ، لذا سموها قصيدة يوسف وهذه القصيدة مكتوبة بحروف عربية ، على الرغم من أن كلماتها إسبانية وهي مثال لما عرف في إسبانيا والبرتغال باسم الأدب الجميادي Literature Aljamida وهي كلمة مشتقة من العجمة -Aja-ma ، وكان يستعملها في أول الأمر الأسبان الذين كانوا يتكلمون العربية، ويحرصون عليها حتى بعد أن أخذوا يكتبون بالأسبانية ، ثم استعملها الموريسكيون الذين كانوا يكتبون الألفاظ الأسبانية بحروف عربية^(١) وهذا اللون من الكتابة يدل على شدة تعلق الأسبان بلغتهم بعد أن غلبهم المسلمون على أمرهم.

وإذا كانت اللغة العربية قد أثرت بمفرداتها في اللغة الأوروبية فإن ميدان الأدب فاق ميدان اللغة والألفاظ إذ صار للشعر العربي سحره الخاص في أوروبا، ففي الشعر كان الشعر العربي يهتم بالقافية ويلتزم بها في حين لم يكن الشعر الأوروبي الكلاسيكي يعنى بها، وقد لاحظ شعراء أوروبا الجمال الذي تضيفه هذه القوافي على الشعر العربي، فشرعوا يحاكونه إلى أن شاع اتخاذ القوافي في أشعارهم . على أن هذا التأثير في الشعر الأوروبي لم يرق للمتعصبين فأخذوا يحاربون استخدام القوافي في الشعر باعتبارها دخيلة على أشعارهم ، ولم ترد في الشعر الكلاسيكي . ولكن شعراء أوروبا لم يقيموا وزنا لهذه الحرب التي شنها أمثال (فيلاموفيتس) وبقيت القافية إلى اليوم دليلا يشهد على فضل الأدب العربي.

ومن المسائل التي شغلت بال الباحثين المعاصرين مسألة تأثير الشعر العربي الأندلسي في نشأة الشعر الأوروبي الحديث في أسبانيا ، وجنوبي فرنسا خصوصا أن هناك مواد عديدة جديدة تظهر كل يوم لتؤكد هذا التأثير، بل ولتثبت أن الشعر العربي الأندلسي في الموشحات والزجل يعبر عن المرحلة الأولى لنشأة الشعر الأسباني نفسه، وذلك في الخرجة التي تكتب عادة بلغة أجنبية، وكانت في الزجل الأندلسي تكتب باللغة الأسبانية الدارجة أو الرومانسية . فإذا جعلنا من الخرجة أبياتا أسبانية فإنها تصبح بمثابة النموذج الأولي للشعر الأسباني، وبهذا يكسب الشعر الأسباني أكثر من قرنين من الزمان^(٢).

لقد كان الشعر العربي في الأندلس ذا تأثير كبير على أوروبا العصور الوسطى، وكانت هذه الأشعار والموشحات التي عرفت بها إسبانيا تطوراً للشعر الغنائي العربي. لقد كان أدب إسبانيا العصور الوسطى انعكاساً للثقافة الإسلامية التي كانت أقرب إلى طبيعتهم من الحضارة المسيحية (٣).

لقد بقي المسلمون في بلاد الأندلس من ٧١١م إلى عام ١٤٩٢م أي حوالي (٨٧٠) عاماً، وقد استطاع المسلمون خلال هذه الفترة الطويلة أن يؤثروا ويتأثروا بالبيئة الأسبانية في الغرب، وبالبيئة العربية في الشرق، في كافة الأصعدة الحضارية، ولم يكن الفتح العربي لإسبانيا مجرد احتلال عسكري، بل كان حدثاً حضارياً امتزجت خلاله الحضارات والشعوب المتعددة وأدى هذا التمازج إلى ولادة وتطور الحضارة الأندلسية (٤).

وكانت الحضارة الإسلامية في الأندلس تشع من مراكز متعددة مثل قرطبة، وغرناطة، وطليطلة، حيث كان العرب والمغاربة هم الذين يغرسون جذورها وقد عرفهم الأوروبيون باسم الموريسكيين Moriscos, Moros. وكانت غالبية سكان الأندلس من المسيحيين قد تشبعوا بالحضارة العربية نتيجة لروح التسامح الذي تحلى به الحكم الإسلامي، تجاه العلماء من شتى الأجناس، والأديان والذي شجع نزوح طالبي العلم من شتى أنحاء أوروبا إلى الأندلس. ومن هؤلاء كان جبربرت (٩٣٠-١٠٠٣م) الذي تقلد البابوية باسم سيلفستر الثاني، وقام برحلة إلى الأندلس بين عامي ٩٦٠م و٩٦٧م وكان تأثره بالعلوم العربية الإسلامية، التي وجدها هناك عميقاً وخاصة في الرياضيات (٥).

كذلك استفادت الأندلس وغرب أوروبا من الطب العربي الذي شهد تطوراً بارزاً في المشرق، ثم انتقل بواسطة الأطباء والمؤلفات إلى الأندلس. وبرز من المسلمين داخل الأندلس الكثير من الأطباء وفي مقدمتهم بنو زهر، وهي العائلة التي أنجبت عدداً كبيراً من الأطباء المشهورين خلال ستة أجيال متعاقبة. وقطن بنو زهر اشبيلية، القاعدة الأندلسية الشهيرة، واشتهر منهم أبو مروان بن عبد الملك بن زهر المتوفى سنة ١١٦٢م عن عمر يناهز ٧١ عاماً كذلك محمد عبد الملك بن محمد بن زهر المتوفى سنة ١٠٧٨م (٦).

وكان أن أصبحت قرطبة عاصمة الحضارة العربية في الأندلس، وأنشأ حكامها مدارس للطب، والفلسفة والعلوم، والفنون الأخرى، وبذلوا المال في سخاء. وعندما بلغت دولتهم درجة عظيمة من الثراء والتقدم، أرسل عبد الرحمن الثالث (٩١٢-٩٦١م) مبعوثيه لجمع الكتب

واجتذاب العلماء للبحث والدرس، والتأليف، فأصبحت قرطبة موطنًا للعلوم وفيها عدد ضخم من المستشفيات، والأطباء، والصيادلة والكيميائيين وعلماء النبات والفلك، وصارت جامعتها ومكتبتها مراكزًا للعلوم والترجمة^(٧).

وخير ما يعبر عن أثر الحضارة الإسلامية في غرب أوروبا هو ما يرتبط بمعرفة صناعة الورق التي تعلمها مسلمو الأندلس من الشرق الإسلامي وعندهم انتقلت إلى أوروبا، فبدأت هذه الصناعة في إيطاليا، ثم عرفت ألمانيا وإنجلترا، وفرنسا وذلك منذ حوالي سنة ١٣٠٠م. ولم تلبث أن نجحت صناعة الورق نجاحًا كبيرًا في الأندلس، فأخذت تقوم بتصدير الورق إلى المشرق الإسلامي كما نص على ذلك الإدريسي^(٨).

ومن المؤثرات العلمية للأندلس، انتقال نظريات في علم الرياضيات إلى المغرب الأوربي عن طريق مؤلفات المسلمين، ومن المعروف أن قرطبة لم تكن عاصمة سياسية للخلافة فحسب، بل كانت على غرار بغداد مركزًا للبحث العلمي، وإذا كانت بغداد قد أطلق عليها عروس الشرق وأصبحت في عهد الرشيد والمأمون عاصمة الدنيا، فقد أصبحت قرطبة في عهد الناصر والمستنصر عروس الغرب وأيضًا عاصمة الدنيا^(٩).

ومن بين علماء الرياضيات في الأندلس مسلمة المجريطي (المريدي) أمام علماء الرياضيات في الأندلس (المتوفى ٣٩٨هـ / ١٠٠٧م) ومن تلامذته ابن السمع (ت ١٠٢٤م) وابن الصفلاء والكرمانى وأمىة بن أبى الصلت. كذلك من العلماء المسلمين البارزين في الأندلس في الرياضيات والذين أثروا في أوروبا أبو الحسن على بن محمد على القلصاوى، المولود بمدينة بسطة في الأندلس (٨٢٥هـ / ١٤٩١م) ومن كتبه (كشف الأسرار عن علم الفبار) وهو يعتبر أول من استعمل الرموز والإشارات الجبرية واقتبسته عنه غالبية علماء الرياضيات في أوروبا^(١٠).

هذا وقد عرفت أوروبا الأرقام الهندية، عن طريق العرب. لذا فإنها تعرف في أوروبا إلى الآن بالأرقام العربية. ولفظ الصفر كما يلفظه العرب عرفه الأوروبيون، كما نقل المسلمون إلى أوروبا عن طريق الأندلس الكسر العشري الذى استخدموه فى عملياتهم الحسابية.

وفى ميدان الزراعة سجل مسلمو الأندلس أبحاثًا متعددة ومن أشهر المؤلفين فى الفلاحة من الأندلسيين يحيى بن محمد بن العوام، صاحب كتاب الفلاحة وكذلك ابن بصال الذى اعتمد فى الفلاحة على تجاربه الخاصة. ثم ابن الخير الاشبيلى، والحاج الفرناطى، وفى مؤلفات

هؤلاء تحدثوا عن أصول فلاحية الأرض ، وكيفية العمل فى الزراعة والفراسة ، واهتموا اهتماما خاصا بأشجار الفاكهة ، فكتبوا أنواع الفرس ، وطريقة الحفر استعدادا للفرس ومواعيد الفرس، وكان لكتب العرب فى الفلاحة والنباتات أثرها فى تقدم الزراعة فى أوروبا^(١١).

أما عن الدراسات العليا فقد استوعبتها المدارس التى انتقلت فكرتها إلى أوروبا عن طريق المسلمين عبر اتصال الأوروبيين بهم فى الأندلس. وهذا الأمر أصبح الآن فى حكم الحقيقة المؤكدة ، إلا أنه بالرغم من أن المدارس عند المسلمين كانت تدمج التدريس والبحث العلمى، فإن الجامعات التى نشأت فى أوروبا كانت تغلب عليها الصبغة الأكاديمية المدرسية ، ولم تكن تهتم بالبحث العلمى، ولعل ذلك يعود إلى طبيعة بنية المجتمع الأوروبى آنذاك، وإلى غلبة تأثير الفلسفة اليونانية التى انتقلت إلى الأوروبيين ضمن ما انتقل إليهم عن المسلمين^(١٢).

وبدا تأثير الموسيقى العربية واضحا على الموسيقى الأندلسية من خلال الغناء الأسباني الأندلسى المعروف باسم الفلامنكو (Flamenco) وكانت موسيقى الأغاني الأسبانية فى القرون الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر ، قد أثرت بدورها فى نشأة الموسيقى الأوروبية الحديثة. وقد تألق النجم المبدع زرياب فى الأندلس وذاع صيته وذكورت مواهبه ، وترك من المعالم الفنية ما دفع الموسيقى العربية والأسبانية إلى التطور والتجديد، واستطاع زرياب أن يغنى الموسيقى الأندلسية بعشرات الآلات الموسيقية ، فأصبحت لديهم ثروة من الآلات الوترية وآلات النفخ وآلات الإيقاع ، وانتقل الكثير من هذه الآلات إلى الغرب^(١٣).

وهكذا ذاعت شهرة الأندلس برقى ثقافته ، وتقدم علومه بين طالبى العلم فى أوروبا فقصده ، وما سهل عليهم تلقى العلوم العربية دون معرفة باللغة العربية، وإمكانية أخذهم مستعربين أندلسيين يعرفون العربية معرفة جيدة، إضافة لمعرفتهم باللغة اللاتينية، لغة الثقافة والكنيسة^(١٤).

٢- صقلية :

نزل حبيب بن أبى عبيدة، حفيد عقبة بن نافع ، فاتح أفريقيا سنة ١٢٢هـ أرض صقلية ، ومعه ابنه عبد الرحمن ، وفى نيته فتح الجزيرة كلها، غير أن قيام ميسرة السقا بثورة فى أفريقيا اضطره إلى العودة واحبط سعيه فحاول جهودهم عن صقلية، مما أدى إلى تنبيه الروم لمكانة الجزيرة ، وجعلها قاعدة حصينة^(١٥).

ولما اتسعت الدولة الإسلامية وامتدت أطرافها في خلافة عمر بن الخطاب (٦٣٤-٦٤٤م) كانت صقلية وجزء من جنوب إيطاليا ولايتين بيزنطيتين ، وكان الخليفة عمر بن الخطاب يعارض القيام بمخاطرات عسكرية عبر البحار، أو حتى عبر الأنهار الكبيرة ، إلا أن هذه السياسة أعيد النظر فيها ، في عهد الخليفة عثمان بن عفان (٢٣-٣٥هـ) (٦٤٤-٦٥٦م). فلحماية المدن الساحلية التي فتحها المسلمون على ساحل الشام ومصر من خطر غارات البيزنطيين، الذين كانوا يمتلكون أسطولا قويا ، أنشئت قوات بحرية في عهد معاوية بن أبي سفيان، الوالي على بلاد الشام آنذاك ، وعبدالله بن سعد الوالي على مصر، ولم تلبث هذه القوات البحرية أن لعبت دورا هجوميا، ودفاعيا تجاه البيزنطيين في شرق البحر المتوسط^(١٦).

وكان أن استعان أحد أهالي صقلية واسمه فيمن ببني الأغلب، وكان قد ثار على قسطنطين بطريق صقلية ولكن كيف لوالي أفريقيا زياد الله أن ينقض الصلح ؟ لم يجد مخرجا إلا عندما علم بأن لديهم أسرى من المسلمين، وهذا مخالف للصلح ، فجهز أسطولا قوامه مائة مركب، بقيادة أسد بن الفرات وأقلع من سوسة في شهر ربيع الأول سنة ٢١٢هـ / ٨٢٧م. وتتفق المصادر بأن الجيش كان مكونا من أشرف العرب والجند وأهل العلم والبصائر^(١٧) . وتعتبر هذه الحملة من أهم الحملات، رغم إنها لم تحقق أهدافها كاملة بسبب تفشى الوباء بين جند المسلمين، حتى هلك منهم خلق كثير ، كان بينهم قائد الحملة أسد بن الفرات. وتكمن أهمية هذه الحملة في أنها فتحت الباب لمزيد من الحملات، والغزوات البحرية التي تتابعت بعد ذلك ، وكانت تضيف في كل مرة أجزاء جديدة من الجزيرة إلى سابقتها. وكان فتح بلرم سنة ٢١٦هـ / ٨٣١م قد يسر الأمر أمام المسلمين ، لفتح ما بقى من أقاليم الجزيرة . ولما كان ميناء بلرم سهل الاتصال بقواعد المسلمين، على شاطئ أفريقيا فقد أمكن عن طريقه تزويد جيوش المسلمين بالإمداد، والأقوات التي كانت تصلهم بانتظام فتزيد من قدرتهم على القتال^(١٨).

وعندما تم فتح صقلية الإسلامية عين أسد بن الفرات واليا، وقاضيا عليها ثم أصبح الوالي والقاضى شخصيتين متميزتين، والمعتقد أن كثيرا ما كان الجيش ينتخب الوالي، دون أن ينتظر مجئ وال جديد من أفريقيا^(١٩).

وعندما ثبت العرب أقدامهم في صقلية، في القرن التاسع الميلادي اهتموا بوسائل الزراعة، فحفروا الترع والقنوات وشقوا المجارى المعقوفة التي كانت مجهولة قبلهم، كما أدخلوا زراعة

القطن، وقصب السكر. وفي الصناعة استغلوا ثروة الجزيرة الطبيعية ، فاستخرجوا منها الفضة والحديد والنحاس والكبريت وأدخلوا فيها صناعة الحرير^(٢٠).

أما تجارة صقلية فقد اتسع نطاقها ، على أيام العرب، بعد أن بلغت الحضيض في العصر السالف مباشرة، ولم يبق الآن في صقلية من منشآت العرب، سوى القليل النادر، ولكنها تشهد جميعها بالروعة والجمال الأخاذ، ويكفيها ما ذكره الإدريسي في وصف بالرمو على عهد روجر الثاني، أي بعد زوال حكم العرب بقليل، إذ أشاد بقصورها وديورها، ومنتزهاتها، ويبدو الفارق كبيرا، إذا قارنا بين أحوال صقلية من النواحي الثقافية والعمرانية والاقتصادية والاجتماعية عند بداية سيطرة العرب عليها، وبين أحوالها عند نهاية سيطرتهم عليها من جميع النواحي .

وقد نشط علماء صقلية ، فأنتجوا إنتاجا منوعا في الفقه والحديث واللغة، والطب والهندسة والنجوم ، وأشتهر من العلماء في صقلية في زمن ابن حوقل (٢٦٥-٢٩٥هـ / ٩٧٥-١٠٠٤م) ابن أبي خرسان في النحو والقراءات ، وعلى بن حمزة في اللغة والشعر، والبرادعي في الفقه المالكي ، ومحمد بن الحسين المروزي ، وفي القرن الرابع أبو عبدالله محمد بن عيسى بن مطر الذي علم في مسجد الزهري بالسعاط وسافر إلى المشرق وكتب الحديث^(٢١).

إن النهضة العلمية التي شهدتها صقلية بعد انقضاء الحكم الإسلامي على أيدي النورمان كانت بفضل رعاية ملوك النورمان ، ورجالهم للعلماء ، فكانوا يقدقون الأموال عليهم ويعاملونهم بالاحترام ، ويرفعون مراكزهم الاجتماعية في الوظائف والألقاب لإغرائهم بالقدوم إلى صقلية . ويذكر الصفدي أن الملك روجر كان محبا لأهل العلوم الفلسفية^(٢٢) وإن الإدريسي كان يجنّ إليه راكبا بغلة ، فإذا صار عنده تنحى له عن مجلسه فيجلسان معا^(٢٣).

كذلك كان ابنه غليالم الأول وابنه غليالم الثاني، فقد وصفهما ابن جبير . وقال أن لهما الأطباء والمنجمون، وأنهما كثيرا الاعتناء بهم، شديدا الحرص عليهم ومتى ذكر أن طبيبا أو منجما اجتاز ببلده ، أمر الملك بإمساكه وأدار له أرزاق معيشته ، حتى يسلبه وطنه^(٢٤) ومع أن غليالم كما يذكر ابن جبير كان يقرأ ويكتب العربية، ويتخذ لنفسه شعارا إسلاميا ، إلا أن جوارى قصره المسلمات كن يتكتمن إسلامهن ، وإنه كان إذا مر بقصره فسمع ذكر الله، والرسول ، ممن به من النساء والفتيان فإنه يقول لهم (ليذكر كل أحد منكم معبوده ومن يدين به) وفي عبارة (تسكينا لهم) التي ذكرها ابن جبير ، ما يقطع بخوفهم من إعلان عبادتهم، فهم

يدارونه وهو يداريهم ، وهم يحاولون أن يصطنعوه وهو يحاول أن يصطنعهم . وابن جبير يدعو عليه فى مواضع متفرقة من كتابه فيقول (أراح الله المسلمين من ملكته)^(١٥).

والواقع أن الحضارة العربية لم تنته بانتهاك حكم العرب للجزيرة ، وإنما وجدت هذه الحضارة فى ملوك النورمان خير مشجع لها . ومن الواضح أن سبب حماية ملوك النورمان لعرب صقلية ، هو أنهم لمسوا تقدمهم فى الفنون والعلوم والصناعات ، وعرفوا تماما أن تشجيع الجالية العربية فى الجزيرة ، سيعود عليهم بفوائد عظيمة، لذلك نرى روجر الأول (١٠٦١ - ١١٠١م) يشمل العرب برعايته ويحسن المحافظة عليهم ويحميهم، حتى أنه أقبل على كتابة أوامره ومراسيمه باللغة العربية إلى جانب اللاتينية واليونانية^(٢٦).

كذلك اتخذ ملوك النورمان لأنفسهم فى صقلية حراسا من العرب، ارتدوا زيا اختلف عن زى حراسهم من النورمان^(٢٧) ولايوجد شك فى أن الشعر العربى كان يمارس فى بلاط ملوك صقلية النورمان، لكنه لم يسمع عن المدرسة الصقلية فى الشعر، إلا فى عصر الإمبراطور فردريك الثانى فى القرن الثانى عشر ، وهو الإمبراطور الذى أسماه بعض الكتاب (نصف شرقى) ، نظرا لما أحاط به نفسه من مظاهر شرقية عربية، حتى قيل أنه تعلم العربية، وأحاط نفسه بالعلماء والراقصات ، والمغنيات الشرقيات ، وشجع ترجمة الكتب العربية ، كما شجع الجغرافيين والفلكيين والأدباء العرب^(٢٨) ويقول المستشرق المعروف أمارى، إنه لو زادت معرفتنا بالشعر الشعبى العربى فى صقلية ، لأصبح من الممكن أن نكشف عن صلات وثيقة ، بينه وبين الشعر الإيطالى القديم، الذى نشأ فى أواخر العصور الوسطى، وأن الباعث على ممارسة الشعر باللغة العامية فى صقلية ، هو علم أهلها بأخبار العرب، وشعرائهم، وما كانوا يلقونه من تشجيع الأمراء العرب المسلمين ويؤيد ذلك أن الشعر الشعبى المبكر فى إيطاليا يتفق مع الشعر الشعبى فى أسبانيا ، مما يدل على أن المؤثر واحد فى الحالتين^(٢٩).

لذلك كانت إيطاليا سباقة إلى النهضة نتيجة الاتصال المباشر بالتراث العربى الإسلامى، حتى ليذكر (مونتجومرى وات) أن (الطابع الإسلامى كان أقرب إلى الإيطاليين آنذاك ، من الطابع المسيحى) وهذا يعنى أن الوجود الإسلامى السياسى، فى هذه النواحي رغم اندثاره ، إلا أنه ظل يمارس تأثيرا حضاريا على أوروبا، وفى ذلك دليل لايرقى إلى الشك عن الطابع الحضارى للفتوحات الإسلامية^(٣٠).

وقد ترك المسلمون فى الجزيرة كثيرا من عاداتهم ، واثار لغتهم، لاتزال قائمة فى الكثير من الأسماء والأعلام، وكلمة (قلتا) التى تبدأ بها أسماء القلاع هى الكلمة العربية قلعة.

وكان تأثير العرب بعلمهم فى هذه الجزيرة أعظم من تأثيرهم بمبانيهم ، والجانب الأعظم من الألفاظ التى تعبر عن نواحي الحضارة المختلفة، وقد اضطرت جنوة أمام انتشار هذه الألفاظ العربية فى اللغة الإيطالية إلى أن تؤسس فى سنة ١٢٠٧م مدرسة لتعليم العربية^(٣١).

ومن العلماء المسلمين الذين اشتهروا فى صقلية : محمد بن عيسى بن عبد المنعم من أصحاب العلم بالهندسة والنجوم، ويعتبر من الحكماء فى هذين العلمين^(٣٢).

وقد بقيت اللغة العربية شائعة فى الجزيرة ، إلى أواخر القرن التاسع للهجرة، حتى أنها استخدمت لغة التخاطب والكتابة بعد الخروج العربى لمدة طويلة، وأرخوا بالتاريخ الهجرى^(٣٣).

والشعر العربى أثره فى نهضة الشعر الإيطالى، فقد حاكى أهل صقلية العرب فى العناية بالشعر، ومن صقلية انتقلت هذه العناية إلى إيطاليا ، كما أثرت القصص العربية فى الأدب الإيطالى نفسه، ويذهب بعض العلماء إلى أن شاعر إيطاليا الكبير (دانتي) قد أفاد فى روايته (الكوميديا الإلهية) من رسالة الغفران لأبى العلاء المعرى، لأن التراث العربى كان شائعاً فى صقلية ومنها انتقل إلى إيطاليا.

وهكذا نقل النورمانديون عناصر الثقافة العربية إلى إيطاليا وأوروبا. ومنذ القرن العاشر للميلاد ، ظهرت آثار العلوم العربية فى أوروبا ، أثر تسرب معالم الفن والأدب والعلوم العربية ، إلى الحضارة الأوروبية ، فاستخدم الأوروبيون فن هندسة بناء أبراج الكنائس ، بعد أن أخذوه عن المآذن فى مصر والشام ، كما قام معمل الحياكة الذى أسسه المسلمون فى باليرمو ، بإنتاج ملابس ملوك أوروبا. وكانت هذه الملابس تزدان بالزخارف والكتابات العربية ، وفى القرن الثالث عشر للميلاد انتشرت صناعة الحرير على النمط العربى فى مدن إيطاليا، وأصبح الطلب على هذه المنسوجات عظيماً ، بعد أن أصبحت تمثل موضحة العصر فى أوروبا .

والزائر اليوم للمكتبة الكبرى فى الفاتيكان بمدينة روما بإيطاليا، يجد العديد من الكتب من تأليف علماء العرب، وقد أشاد (ديبل) بأثر الحضارة العربية فى صقلية ، فقال : إن العرب حملوا معهم إلى صقلية ، مظاهر فنهم ، وتماذج قناطرهم العالية الجميلة، وفسيفسائهم من الرخام الملون، وصورهم الجميلة، وبهيج صناعاتهم وليدة علمهم، وكانت المصانع العربية مثلاً يحاكيه الزمان فيما بعد^(٣٤).

وأنشأ المسلمون في بلرم مدرسة للطب تعتبر الأولى بين مدارس الطب في أوروبا، ومن هذه المدرسة انتشرت دراسة الطب العربي في إيطاليا ثم في أوروبا، بعد ذلك، كذلك أسس العرب في صقلية مجموعة من الدواوين، بقيت ثلاثة أنواع منها في عهد النورماندين، وتعتبر أثراً من آثار الحياة الديوانية الإسلامية، وهي: ديوان المظالم الذي اقتبسه روجر من المسلمين، وكان عمل هذا الديوان النظر في الشكاوى التي تقدم إليه وإنصاف أصحابها. وديوان الطراز: وهو ديوان إسلامي عرف في الأقطار الإسلامية قديماً، ومهمة هذا الديوان تطريز ملابس الملك، ثم ديوان التحقيق الذي كان يعنى بشئون الأرض وما يتصل بها (٣٥).

٢- الحروب الصليبية :

تمثل الحروب الصليبية في أواخر القرن الحادي عشر الميلادي، رد فعل أوروبي هجومي، على العالم الإسلامي، الذي تحول إلى موقع الدفاع فتوالى الحملات الصليبية على الشرق الإسلامي، ونجحت في تأسيس ممالك أربع في بلاد الشام، وهي إمارة إنطاكية ومطرابلس والرها ومملكة بيت المقدس.

وقد بالغ كتاب القرن التاسع الهجري، ولم يحسنوا التقدير عندما بالغوا بشكل غير عادي في أهمية الحروب الصليبية وبلاد الشام كطريق سلكته الحضارة العربية إلى الغرب الأوروبي. فالصليبيون قصصوا بلاد الشام للحرب، لا لطلب العلوم، وامتازت حياتهم في تلك البلاد، بما تتصف به حياة الجنود عادة من خشونة، فلم يهتموا إلا بتحسين مواقعهم، والدفاع عن كياناتهم والإبقاء على معاقلهم التي أقاموها في الشام، وسط محيط عربي واسع، ولم تتوقف الحرب بينهم وبين العرب المسلمين، إلا بإجلالهم نهائياً في عصر المماليك، وتم إجلالهم نهائياً عن أرض الشام سنة ١٢٩١م، وإذا حدثت هذأت الحرب بين الطرفين لفترات وجيزة من الوقت، فإنها كانت تتوقف لتستأنف من جديد بعد قليل من الزمان ونريد من ذلك أن نصل إلى القول إنه لم تتح للصليبيين في الشرق الحياة الهادئة الضرورية، والمساعدة لممارسة النشاط الفكري والحضاري، ولم تتح لهم فرصة الاتصال السلمي بالعرب، بالقدر الذي أتيحت به لإخوانهم الأوروبيون في الأندلس وصقلية (٣٦).

وصحيح أن الصليبيين تمكنوا من تأسيس عدد من الإمارات القوية في بلاد الشام، بالإضافة إلى مملكة بيت المقدس الشهيرة، ولكن جميع هذه المعاقل الصليبية لم تكن سوى معاقل أو ثكنات حربية متناثرة، وسط محيط من الأعداء، سيطر عليها جو من الفرع والرعب،

لاتستقيم معه بال حال حياة علمية ناضجة ، يضاف إلى ذلك أن عصر الحروب الصليبية امتاز بنوع من الفقر على الصعيد الفكرى، فى المشرق العربى ككل، فتدر الإقبال على الفلسفة ، بوفاة ابن سينا وغيره^(٢٩) ، حتى أن الخليفة العباسى فى بغداد قام بإحراق كتب الفلسفة سنة ٥٤٥هـ / ١١٥١م ومنها كتب ابن سينا نفسه.

وهكذا فإن الحروب الصليبية جاءت غنية بالحوادث المتعددة والوقائع النادرة ولكنها فقيرة بالآثر الحضارى ، الذى بولغ فيه لا سيما فى الغرب، وهو أثر محصور فى الفن والصناعة والتجارة دون العلم، والأدب . أما فى سوريا فقد تركت هذه الحروب حالة من الدمار والخراب، ومما ورثه الشرق عن تلك الحروب، ذكريات التعصب الدينى والنفور بين المسلمين والنصارى، ومن جهة أخرى فإنه علينا أن نذكر أن الفرنجة فى سوريا ، فضلا عن كون ثقافتهم دون ثقافة أعدائهم ، فقد كانوا فى الغالب جماعات عسكرية أجنبية ، تنزل فى القلاع والثكنات وتقتصر صلاتها على عامة الناس من فلاحين وصناع ، دون الطبقة الراقية المفكرة ، زد على ذلك أن التحريات القومية والتعصبات الدينية، والعداوات المتأصلة ، حالت دون تبادل الأفكار والثقافات ولم يكن عند الفرنجة من العلم والفلسفة ما يلقنونه أبناء البلاد .

وكانت سوريا وما ارتبط بمسرحها من حروب صليبية ، ذات أثر فعال فى هذا الميدان ، فالحروب الصليبية صاحبها بعض النشاط الفكرى والحضارى، فظهرت مؤلفات فى التاريخ ، مثل (وليم الصورى) أو فى القانون مثل (حنا الإبلىنى) و(فيليب ناغارى) كما انسابت بعض المصطلحات العربية إلى البلاد الغربية^(٢٨).

كذلك أثرت الحروب الصليبية فى تطور فن الحرب عند الغربيين، لاسيما فيما يتعلق ببناء القلاع ذات الجدران المزدوجة ، هذا بالإضافة إلى ما أدت إليه الحروب الصليبية من تقدم حركات الحصار، واستعمال المجانيق والكباش الهادمة، واستخدام الدروع للفرسان وخيولهم ، وإرسال الرسائل الحربية ، عن طريق الحمام الزاجل، ومن المحتمل أن يكون الشرق العربى إبان الحروب الصليبية ، هو المصدر الذى أخذ عنه الغرب الأوروبى ألعاب المبارزة، التى تشبه كثيراً ألعاب الجريد (التحطيب) عند الشرقيين. كذلك نلاحظ كثرة استعمال الشارات، والرنوك فى الغرب الأوروبى، نتيجة للاتصال بالغرب فى بلاد الشام^(٤١).

إن الاتصال الذى تم بين الأوروبيين وشعوب الشرق، فى عصر الحروب الصليبية أثار عظمة الحضارة العربية الإسلامية، وتقدمها ونضج أصحابها دهشة الغزاة الغربيين. ذلك أن

الصليبيين كان همهم الأول الانتصار ، والاستحواذ على الأراضى الإسلامية، ومع أنهم لم يفكروا فى الاستفادة من الحضارة الإسلامية ، حتى فى إقامة مدارس يعلمون فيها أبنائهم، إلا أنهم تعلموا الشئ الكثير من حضارة المسلمين. من ذلك أنهم دهشوا لبراعة الأطباء العرب المسلمين ، لكنهم لم يفيدوا من ازدهار الطب العربى^(٤٠) إلا بعد مرور أجيال وبعد طردهم من المنطقة.

واكتسب الفرنجة خلال إقامتهم فى بلاد المشرق ، إبان الحروب الصليبية أسواق جديدة، وبخاصة فيما يتعلق بالروائح العطرية والتوابل والخلوى وسواها من محاصيل المناطق الحارة، ثم أن هذه الأسواق الجديدة أدت إلى إنعاش التجارة فى المدن الإيطالية وسواحل البحر المتوسط ، فاشتهرت أنواع البخور، وماء الورد الدمشقى، والروائح العطرية، التى أمتازت بها دمشق . ومن العقاقير الجديدة التى تعرفوا عليها حجر الشب. ثم أن التوابل والقلفل والبهارات وغيرها جرى استعمالها فى الغرب، خلال القرن الثانى عشر الميلادى. وأهم من ذلك كله السكر ، فقد كان الأوروبيون لا يعرفونه من قبل، وكانوا يستخدمون العسل لتحلية أطعمتهم وكان إن عرف الأوروبيون هذا النبات (قصب السكر) الذى أخذ منذ ذلك الحين يلعب دوراً هاماً، فى الحياة الاقتصادية ، وفى تركيب الوصفات الطبية. وكان السكر أول اللذائذ الفاخرة التى أدخلت إلى الغرب، ولم يبلغ درجتها طعام آخر ، ومع السكر دخلت الأشربة غير الكحولية، والماء الذى تخلط فيه بواسطة التقطير خصائص الورد والبنفسج وسواهما من الزهور كذلك دخلت شتى أنواع الحلويات ، أما الأقمشة الموصلية والدمشقية وسواهما فقد ولجت أوروبا من الشرق العربى، كما تدل عليه أسماءها فى اللغات الأوروبية ، محرفة عن العربية^(٤١).

وظل الاحتكاك بين الحضارة الغربية المتخلفة والحضارة الإسلامية المزدهرة فى الشرق حوالى القرنين ، منذ القرن الخامس حتى القرن السابع الهجرى/ منذ القرن الثانى عشر حتى القرن الرابع عشر الميلادى، فتعلم الصليبيون عن طريق الرواية الشفوية الكثير من العلوم.

لقد استحوذ الصليبيون على كثير من كتب المكتبات العربية فتعلموا اقتناء الكتب، وقرأوا القصص العربية منها كلية ودمنة وألف ليلة وليلة وشعر الموشحات ، وتعلم الأوروبيون العادات والتقاليد وبعض القيم الإسلامية، بل إنهم أخذوا عنهم أسلوب اللباس والاكل ، وأخذ كثير من المفردات يتسرب إلى اللغات الأوروبية. وما زال قسم منها حتى الآن^(٤٢) مثل بازار Bazaar وكلمات أخرى مثل Sofa, Lufe مستخدمة فى أوروبا.

وكان تأثير الحروب الصليبية على الغرب فى مجال الفنون والآداب أعمق وأشد، فاهتم الغربيون بلغات العالم الإسلامى، وظهرت الدعوة للعناية بدراسة اللغات الشرقية، وتأثير هذه الحروب الصليبية نشطت دراسة علم التاريخ عند الأوروبيين، وظهرت مؤلفات كثيرة، عن الحروب الصليبية وبيت المقدس، وتناول المؤرخون الدين الإسلامى والحضارة الإسلامية بالدرس والبحث، وأصبح لهذه المنطقة من العالم اهتمام خاص عند المؤرخين، والجغرافيين، ازداد الاهتمام بارتياح تلك المناطق الإسلامية، ووصف الأماكن المقدسة، وبيان الطرق إليها ووضع الصليبيون كل هذه المعلومات والدراسات فى خدمة أغراضهم العسكرية.

وكانت عنايتهم الجغرافية فى أول الأمر قاصرة على سواحل آسيا الغربية، أو الساحل الشرقى لبحر الروم، اعتقاداً منهم أن هذا يعينهم على النصر على المسلمين فى الأراضى المقدسة. فلما خاب أملهم فى هذا الأمر، وفشلوا فى السيطرة عليها، وطرد المسلمين منها بالحرب، انتقلت عنايتهم الجغرافية من ساحل آسيا الغربى إلى قارة آسيا كلها. لقد زادت أطماعهم فزادت مناطق اهتماماتهم، واهتموا اهتماماً شديداً بإيفاد البعثات التبشيرية لعلها تحقق ما عجزت الحروب الصليبية عن تحقيقه^(٤٣).

ونتيجة لعنايتهم الجغرافية أخذ الأوروبيون عن العرب رسم الخرائط على أساس سليم للمعلومات الجغرافية، وولد فى نفوسهم حب الاستطلاع وروح المغامرة وتحمل المشاق كما نقلوا كثيراً من العلوم ولاسيما العلوم الرياضية والطبية.

وليس أدل على تأخر الطب آنذاك فى أوروبا من إرسال صلاح الدين طبيباً الخاص، لمعالجة عدوه قائد الحملة الصليبية الثالثة ريتشارد قلب الأسد. ولعل أبرز ما أخذه الأوروبيون عن المسلمين فى الشرق فن العمارة، فأخذوا يبنون بيوتهم بالأسلوب الشرقى، فكانت تبنى على النمط العربى وتزخرف بأسلوب إسلامى، وبأثاث عربى. وقد انتقلت هذه الأمور إلى معظم مدن أوروبا كالبندقية وغيرها.

وعرف الأوروبيون كثيراً من الحاصلات والصناعات العربية، فعرفوا نباتات السمس. والمشمش، والثوم، والأرز، وصناعة المرايا والملابس القطنية والموسلين (من الموصل)^(٤٤) والمسكوكات. ونقل الأوروبيون أسلوب بناء المستشفيات من الشرق، وقد أسس البابا أنوسنت الثالث فى روما فى أوائل القرن الثالث عشر، مستشفى القديس سيرتوتو تقليداً للمستشفيات فى سوريا، بل وعلى طراز المستشفى النورى (نسبة إلى نور الدين زنكى) فى دمشق لأنه كان مثاراً لإعجاب الأوروبيين^(٤٥).

ونحن حين ننظر إلى الحروب الصليبية نجد أن أوروبا فشلت فى تحقيق كل الأغراض والأطماع التى كانت تراودها ، من وراء هذه الحروب، فلا هى حققت النصر العسكرى على المسلمين، ولا هى استطاعت أن تحتفظ بالأراضى التى استولت عليها، ولا نجحت فى تحرير بيت المقدس من أيدي المسلمين، كل هذه الأهداف لم يتحقق منها شئ.

إنما الذى تحقق نتائج أخرى حضارية لم تكن فى بال هؤلاء الصليبيين، عندما قاموا بغزواتهم للعالم الإسلامى. أن النزاع فى حقيقته بين الشرق والغرب كان نزاعا دينيا حضاريا، إذ كان الصليبيون يتصورون كما لقنهم زعمائهم أن بلاد المسلمين مظلمة ، تسودها روح الجهل والظلم، وتخلو من أى أثر من آثار الحضارة ، وأنهم سيكونون رسل أوروبا لبث حضارة الغرب فى تلك البلاد، وإنقاذ المسيحيين هناك من الاضطهاد . ولكن هؤلاء المخدوعين ما لبثوا أن أفاقوا وأدركوا الحقيقة عندما جاءوا إلى الشرق واتصلوا بالمسلمين ، فقد رأوا حضارة لم تعرفها بلادهم وعرفوا الإسلام على حقيقته ، وعاد كثير منهم إلى أهله يبدى إعجابه بالإسلام، وحضارة المسلمين. إن تأثير الشرق فى تعدين الغرب ، كان عظيما بفعل الحروب الصليبية ، وهذا التأثير كان يشمل كل المجالات . وإننا إذا ما نظرنا إلى تقدم العلاقات التجارية باضطراب بين الغرب والشرق، وإلى ما نشأ عن الاتصال بينهما فى أثناء تلك الحروب، من نمو فى فنون أوروبا وصنائعها ، يتجلى لنا أن الشرقيين هم الذين أخرجوا الغرب من ظلمات التوحش إلى نور الحضارة، وأن هذا التقدم انبثق من خلال ما كانت تستعين به جامعات أوروبا من علوم العرب، وأدابهم فى عصر النهضة الحديثة^(٤٦).

ثانيا : معايير مساعدة:

١- التجارة

لم تكن علاقة العرب المسلمين مع أوروبا علاقة حربية، فالإسلام مشتق من السلام ، لذلك وجدت علاقات سلام وصداقة ، فقد اشتهرت شخصية الرشيد فى أوروبا نتيجة لعلاقته الودية مع إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة شارلمان (٧٦٨-٨١٤م) فقد قامت بين الرجلين صلات ود وصداقة ، وتبادلتهما السفارات والهدايا فى المدة التى بين سنتى ٧٩٧-٨٠٦ هـ ، ولاشك أن المصالح السياسية والتجارية كانت وراء هذا التقارب الودى بين الملكين^(٤٧). وتعبيرا عن تلك العلاقات ، أرسل الرشيد إلى شارلمان فيلا وساعة نقاقة ، وخيمة مطرزة بالقصب ومفاتيح كنيسة القيامة^(٤٨) وبدوره أرسل شارلمان صدقات وهبات إلى فلسطين

فاستعملت في تعمير بعض الكنائس ، وأنشأ منزلاً للحجاج باسمه كما أنشأ مكتبة^(٥١) وهي تدل على الحرية الدينية في فلسطين من ناحية، وتسهيل التجارة بين الشرق وأوروبا من ناحية أخرى.

وكان لشارلمان دور في نمو التجارة الخارجية بينه وبين الشرق، حيث عمل على تنظيم التجارة الداخلية والخارجية، كما نظم الموازين والمقاييس واهتم بالطرق التجارية^(٥٠) وكان التجار يفضلون استخدام الأنهار في نقل تجارتهم. وانتعشت التجارة البحرية كذلك في عهد شارلمان^(٥١) فكانت تتم عن طريق موانئ نانت ، وبوردو عن طريق البحر المتوسط^(٥٢) في بروفانس وسببتمانيا ولم تتوقف إطلاقاً بسبب الفتوحات الإسلامية، بل نمت هذه التجارة وتطورت بين دولة الفرنجة، وبلاد الشرق، وخاصة في فترة الرشيد (١٧٠-١٩٣هـ / ٧٨٦-٨٠٩م) والجاليات المسيحية في مصر والشام وغيرها من بلاد المشرق^(٥٣).

وكانت أهم صادرات الشرق إلى دولة شارلمان ، المنسوجات والأقمشة المزركشة والملونة والملابس الحريرية، والنسيج الأرجواني مثل العباءات الحريرية والمصنوعات الجلدية والروائح العطرية والأعشاب والتوابل^(٥٤).

وساعد هذا النشاط التجاري الواسع بين دولة شارلمان والشرق على ظهور أهمية بعض المدن، بحكم موقعها مثل مينز ومثل نيم Nimes وماجلون وارل وناريون التي كانت جميعها مراكز أساسية لتجارة الشرق^(٥٥).

كذلك قامت علاقات سياسية بين عبد الرحمن الناصر مع ملوك شمال أسبانيا ، وإمبراطور الدولة البيزنطية قسطنطين السابع (٩٠٥-٩٥٩م) وإمبراطور الدولة الرومانية المقدسة أوتو الكبير (٩٣٦-٩٧٣م) فنراه يتبادل الهدايا ، والسفارات معهم، وهذا مظهر التفاهم الدبلوماسي بين الطرفين^(٥٦) ودليل على مكانة الناصر في حوض البحر المتوسط ، إلى درجة جعلت كلا من إمبراطور بيزنطة وأباطرة الدول الغربية يتوسطون لدى خليفة قرطبة في أن يتم التعاون بين بلدانهم، وبينهم وبين حكام الأندلس، ولاشك في أن هذا التعاون يشمل نواحي عدة، إذ يبدأ سياسياً، ثم اقتصادياً ، ثم ثقافياً، ولما كانت الأندلس مزدهرة فكرياً وحضارياً ، فلا بد أن تتجه إليها أنظار الطلاب من كافة أنحاء أوروبا . وهكذا لم يقف نشاط العرب عند حد معين ، إذ تم لهم اجتياز جبال الألب الشمالية، ودخلوا سويسرا ، وامتد نفوذهم من شواطئ بحيرة كنستانس شمالاً إلى جنوة ومرسيليا ونيس جنوباً. كذلك عمل العرب بجانب

نشر تجارتهم على نشر ثقافتهم الإسلامية ، وفي مقدمتها اللغة العربية التي كانت اللغة العالمية، ولغة العلم في العصور الوسطى، حتى إننا لانزال نرى اسم الحى العربى Canton de Sarazins يطلق على أحد أحياء مدينة نيس^(٥٧).

وما أن حل النصف الثانى من القرن العاشر الميلادى حتى كانت التجارة بين أوروبا الغربية والعالم الإسلامى، قد بدأت تنمو فى إطار نمط محدد، أخذ فى الازدياد ، وكان أكثر مظاهر هذه التجارة إثارة للانتباه هى أن عملية نقل السلع عبر البحر الأبيض المتوسط كانت فى أيدي الإيطاليين لا فى أيدي العرب وكان أهالى أمالفي والبندقية أول من شق الطرق عبر البحر المتوسط، لا إلى تونس فحسب بل إلى مصر والشام أيضاً . تبعم بعد ذلك بفترة وجيزة مدينتا بيزة وجنوة اللتان سرعان ما حلتا مكان أمالفي، ربما لأنهما كانتا مينائين أصليح من أمالفي لاستقبال السلع القادمة من الشمال، بل إنه حتى فيما يتعلق بنقل البضائع من المغرب أو من غرب الدولة الإسلامية (أسبانيا وشمال أفريقيا) إلى بلاد الشرق^(٥٨)، فقد شهد نمواً مطردا وسلك طرقا برية أسهمت فى ذلك النماء منها الطريق البرى الذى يعبر جبال البرانس إلى بلاد الفرنج ، وكانت الطرق البرية، لابد أن تعبر هذه الطريق فمن الجزيرة الخضراء إلى إشبيلية إلى بلاد الفرنج أو من مرسية إلى بلنسية إلى غرناطة أو من ملقة إلى قرطبة^(٥٩).

وكل هذه الطرق البرية كانت تسلكها القوافل التجارية، فكانت تمر من معرات جبال البرانس لتلتقى بموانئ جنوب فرنسا الشهيرة بحى بروفانس وسبتمانيا^(٦٠). وهناك الطرق البحرية، فكانت السفن التجارية تفرغ حمولتها فى مرسيليا أو ناربون ، حيث كانت أهم المراكز الرئيسية للتجارة ، ثم تنقل عبر الطرق النهرية فى فرنسا ، كالراين والدانوب ، والسين والرون إلى جميع أنحاء أوروبا^(٦١) ولم تكن هذه هى الطرق البحرية الوحيدة ، فهناك الطريق البحرى عبر ساحل أسبانيا الغربى على المحيط الأطلسى ، وقد استعمل هذا الطريق منذ عهد عبد الرحمن الأوسط^(٦٢) أما الطريق البحرى الأخير فيمر عبر الساحل الشرقى المطل على البحر المتوسط من الجزيرة الخضراء إلى البحر المتوسط لفرنسا .

ومعلوم أن الأندلس لم تنقطع علاقاتها التجارية بأوروبا ، خاصة أن تجارة الرقيق الأبيض المجلوب من أوروبا إلى العالم الإسلامى كانت عن طريق الأندلس^(٦٣).

أما من ناحية التبادل التجارى فقد لعب أهل بلاد الشام الدور الأكبر فى تحمل عبء التجارة فى البحر المتوسط فكانت لهم جاليات متاجرة فى كل موانئ البحر^(٦٤) كما عاشت

جاليات تجارية إيطالية فى المراكز التجارية الكبرى فى مصر والشام. وتحمل أهل الشام النصيب الأكبر من عبء التجارة فى البحر المتوسط، فكانت لهم جاليات تجارية فى كل موانئ هذا البحر، وفى الكثير من البلاد الهامة، فأقامت هذه الجاليات فى ثغور بريطانية وغالة وأسبانيا ، وأيضاً فى الثغور النهرية على الدانوب ^(٦٥). وكان أكبر مركز رئيسى لهم فى مرسيليا ، وانتشروا فى حوض الرون وشمال باريس وكيرمونت وتورلوج ارل. ونشطت حركة التبادل التجارى بين أسبانيا وفرنسا مع بلاد الشام ومصر ، وظلت فرنسا تستورد البردى والتوابل وغيرهما من منتجات الشرق، واحتفظت مرسيليا بأهميتها كميناء ، وكان يرد إليها زيت الزيتون الذى كان ^(٦٦) يستعمل فى الطهى والإنارة ، فكان يستورد بكميات كبيرة من بلاد المغرب خاصة، وكانت السفن تعود محملة بالدقيق والفراء من روسيا ، والرقيق الذى كان يجلبه التجار اليهود لمسلمى الأندلس. وكان المسلمون يعاملونهم أحسن معاملة، كما كانوا يمثلون حلقة الوصل الاقتصادية بين المسلمين والعالم المسيحى ^(٦٧).

ولعبت التجارة دوراً هاماً فى تحضير أوروبا على يد التجار المسلمين ، وما العثور على العملات والنقود الإسلامية فى أماكن مختلفة من أوروبا إلا دليل على تغلغل التجارة الإسلامية فى أوروبا. وقد وجدت النقود الإسلامية مراراً شمال بحر قزوين وبمحاذاة نهر الفولغا ، وفى المنطقة البلطيقية الشرقية، وفى الامتدادات الجنوبية لفنلندا والنرويج والسويد ، وكانت البضائع العربية التى تنقل فى نهر الفولغا تنقل إلى المشتريين فى الشرق الأوسط جلود الحيوانات ، وأسرى سلاف (منها اشتقت الكلمة الإنجليزية Slave) وقطعان وأغنام وسهام وجلود مصنعة خاصة ^(٦٨).

ولربما كانت أعظم خدمة أسداها العرب إلى أوروبا هى تقديم سلع جديدة من بلاد تقع خلف المتوسط، وضمان تدفق مستمر لها، كالبهارات، وكانت معظم هذه السلع باهظة الثمن، وهى كمالية فى غالب الأحيان، على الأقل بالمعايير الأوروبية ، ويبدو أن التكاليف الباهظة للنقل عبر مسافات شاسعة جعلت الاتجار بالسلع الضخمة والثقيلة أو بالسلع الأرخص ثمناً أمراً غير مستحب. وحين توسعت التجارة فى أوروبا على نحو أسرع من انتشار النقود لم يكن من غير المألوف أن تكون المدفوعات بالفلفل والبهارات الشرقية الأخرى ^(٦٩).

وكان وجود العملات والنقود الإسلامية عاملاً من عوامل نشاط التجارة ، وقد سكبت العملة الأندلسية تحت ضغط الحاجة الملحة لاستخدامها فى التجارة التى اتسعت أفاقها فى كل

أرجاء الدولة الإسلامية. ويرجع تاريخ سك النقود الإسلامية في الأندلس إلى موسى بن نصير في سنة ٩٥ هـ / ٧١٣ م . إذ صار يتعامل بها إلى جانب النقود الرومانية القديمة . وسك موسى بعد دخوله طليطلة نقودا عليها نقوش تحمل عبارة التوحيد^(٧٠) كما سكّت عملات على هيئة العملة المستخدمة في الشرق الإسلامي^(٧١) وكان لعبد الرحمن بن معاوية عملة خاصة باسمه، كما كانت له دار لضرب العملة في قرطبة، ولم تختلف هذه العملة عن بلاد الشام، فكانت تشبهها من حيث الشكل والوزن والنقوش، وكانت تصنع من الذهب الخالص^(٧٢).

وللتدليل على وجود الأثر التجاري العربي في الغرب الأوروبي، ما نراه خلال وجود بعض الكلمات ذات الأصل العربي في اللغات الأوروبية مثل كلمة Cheque المأخوذة من كلمة صك العربية وكلمة Magasin المأخوذة من كلمة مخازن العربية، كما نلاحظ في بعض المصنوعات أسماء عربية الأصل، فعلى سبيل المثال، المنسوجات التي كانت تحتل مكانة عالية عند الأوروبيين في العصور الوسطى، إذ أثارت في نفوسهم دهشة عظيمة عندما قارنوا بينها وبين ما كانت تخرجه أنوالهم، وراحوا يتساقطون عن موضع السحر في هذه المنسوجات الإسلامية، أهو في دقة النسيج أم هو في جمال الزخرفة، أم هو التنسيق بين الألوان، أم هو في هذه جميعا^(٧٣) وقد أقبلوا عليها وسموها في لغاتهم بأسمائها العربية سواء كانت هذه الأسماء مستمدة من طبيعتها مثل القماش الذي أطلقوا عليه كلمة Chifon فقد كان في الأصل يشف عما تحته فأخذوا هذه الكلمة، من كلمة شفاف العربية، ومثل كلمة Ricano المشتقة من كلمة رقم العربية، أو كانت هذه الأسماء مستمدة من البلاد التي اشتهرت بها مثل الجراندين Ge-randine التي كانت تنتجها مدينة غرناطة، ومثل كلمة Tabis التابس المأخوذة من كلمة العتايي (قماش من عطابية في بغداد) وهناك أسماء عدد كبير من أسماء الأقمشة أخذها الغرب مثل الشاش، البقرم، الساتين، الموهير، الموصلين (من الموصل)، الدامسكو (من دمشق)، القطن، كما أدخل العرب أيضا الانيلين الذي يعتبر مقوما هاما من مقومات أصبغة النسيج^(٧٤).

وقد لعبت مصر دوراً ريادياً في انتشار التجارة وتبادلها بين الشرق والغرب ففي العهد الفاطمي كان المشرق مركزاً سياسياً وتجارياً وثقافياً مهماً^(٧٥) وكانت مصر تسيطر على مسالك التجارة آنذاك بين الشرق والغرب، فكان الأوروبيون يفتدون إلى مصر لشراء السلع الشرقية، فساهم هذا الاتصال بين الشرق العربي والغرب الأوروبي في نقل الحضارة العربية

الإسلامية إلى أوروبا، لاسيما بعد أن نشطت هذه العلاقات التجارية بين مصر وسوريا والمدن الإيطالية كالبندقية وفلورنسا ، ونابولي ، وجنوة وبيزا وقد نشطت هذه المدن وأقامت علاقات تجارية مع مصر والمشرق وأصبحت هذه المدن تتوقف تجارتها مع سلاطين مصر، وأدى ذلك إلى ثراء التجار، ونقل التراث العربى، واتجاه بعض الأوروبيين إلى تحصيل العلم والمعرفة العربية^(٧٦).

ويكفى أن التجارة كسرت حاجز الخوف عند الأوروبيين، وجعلتهم يطلعون على بلاد جديدة، مما جعلهم يتعرفون على غرائب الكائنات والموجودات ، ومع التجارة كثرت قصص الرحلة والرحالة وهى التى قادت أوروبا إلى الاستكشافات الجغرافية التى قادتهم إلى الأمريكتين^(٧٧).

٢- الترجمة :

هناك وسيلة لابد من تبيانها لأهميتها البالغة فى عملية انتقال المؤثرات الحضارية العربية إلى أوروبا ، وهى حركة الترجمة التى نشطت مع بداية القرن الثالث الهجرى. ذلك أن بداية انتقال العلوم المتطورة من بلاد العرب إلى الغرب كانت فى هذا الوقت بالذات ، فقد ترجمت بعض الكتب فى الكيمياء والطب وأحكام النجوم، من اللغة العربية إلى اليونانية فى القسطنطينية حاضرة الدولة البيزنطية، ولكن المستوى العلمى فى الدولة البيزنطية كان غير مناسب لأن تؤتى هذه الترجمات ثمرتها المنشودة^(٧٨).

عرف الأسبان ما كان للمسلمين من تقدم فى العلوم ومن نظم إدارية وسياسية وتجارية وثقافية ، وكانوا يميلون إلى الأخذ بها، ودراستها والاستفادة منها. وعندما كتب للأسبان الانتصار على العرب فى حربهم الطويلة مع المسلمين التى يسميها كتابهم بحرب الاسترداد وتمكنوا من استعادة طليطلة عام ٤٧٨هـ / ١٠٨٥م، وتقرر مصير الجزيرة بذلك ، أخذ ملوك قشتالة يعملون على رفع مستوى الثقافة بين شعبهم، بنقل كنوز الثقافة الإسلامية إلى لغاتهم، ومن ثم ظهرت فى طليطلة مدرسة المترجمين التى نقلت العلوم الإغريقية وما أضافه العرب إليها من شروح وتعليقات إلى المدارس الأوروبية، وقد نقلت مدارس الترجمة التى نشرت كافة العلوم التطبيقية والبحثية، والعلوم الإنسانية وكانت طليطلة مهدا لهذه الحركة فانتشرت فيها المكتبات التى نقلت إليها من المشرق آلاف المجلدات . وكانت الترجمة تتم من العربية إلى

اللاتينية عبر العبرية، إذ يقوم اليهود بنقل الكتاب إلى العبرية من العربية، ثم يعاد نقله مرة أخرى إلى اللاتينية، وكان ريموندى Raimondo أسقف طليطلة وكبير مستشارى ملوك قشتالة آنذاك هو الذى شجع حركة الترجمة ونقل الكتب العربية إلى اللاتينية، وكان لجهوده تلك، أبعد الأثر فى مصير أوروبا كما يقول رينان ، ثم توالى خلفاؤه من الأساقفة فى تشجيع هذه الحركة والحرب عليها حتى استمرت أكثر من قرن^(٧٩).

إن العدد الكبير من الكتب التى ترجمت من العربية إلى اللاتينية أو الإيطالية أو العبرية، وهى كتب تملأ المكتبات الأوروبية منذ زمن مبكر، تدل على تقدم العلم الإسلامى بجميع فروعِهِ، وفى الأندلس برز الكثير من العلماء الذين اهتموا بالترجمة والتعريب ، منهم جيرارد الكريمنى (١١١٤-١١٨٧م) الذى كان يترجم من العربية إلى اللاتينية، وقد نسب إليه ترجمة واحد وسبعين كتاباً فى مختلف العلوم، ويأتى فى مقدمتهم خلال النصف الأول من القرن الثانى عشر يوحنا الاشبيلى، وكان يترجم من اللغة العربية إلى اللغة اللاتينية^(٨٠) ونقل بعض مولفات ابن سينا (النفوس) و(الطبيعة) ، (ما وراء الطبيعة) وبعض آثار الغزالى (مقاصد الفلسفة) وابن جبرول (ينبوع الحياة) ، وهناك مترجم آخر هو يوحنا الأسباني الفلكى الذى ترجم من العربية إلى اللاتينية بعض كتب أبى معشر الفلكى والفرنمانى عام ١١٣٤م وبعض كتب فى الرياضة للخوارزمى انتقل بفضلها النظام العشرى فى الحساب إلى أوروبا، وبفضل هذه الكتب أيضا عرفت أوروبا (الصفير) فأدخلته فى نظامها العددي، وبذلك استغنت عن الطريقة التى كانت تعتمد على القيم العددية للحروف الأبجدية^(٨١).

ويرى (سيزكين) إن طريق الأندلس كان أحد الأسباب الرئيسية فى انتقال المعرفة عن المسلمين ، إذ أن الترجمة لم تكن الطريق فقط، بل كان الاحتكاك المباشر له أهمية كبرى أيضا كما حدث فى الأندلس.

ويرى (سيزكين) أيضا أن أقدم ما ترجم كان كتابا فى علم الفلك، ومن الطبيعى - من وجهة نظره - ألا ينتظر - أحد منهم فى هذه المرحلة المبكرة أن يستطيعوا ترجمة الكتب النظرية ذات المسائل المعقدة ، فكانت أقدم ترجماتهم تتعلق بالاسطرلاب والهندسة العملية، والجدير بالذكر هنا أن المترجمين لم يجدوا فى كثير من الأحوال اصطلاحات لاتينية مقابلة للاصطلاحات العربية ، مما اضطرهم إلى اقتراض الاصطلاحات العربية كما هى^(٨٢).

وكان أهم ما ترجم من كتب العرب كتب الفلسفة ، وذلك لأن العقلية الأوروبية وقتذاك كانت مشغولة بالمشاكل الفلسفية ، التى تعالج العقيدة أو بمعنى آخر الفلسفة اللاهوتية ، التى عرفت بالفلسفة المدرسية، لأنها كانت تدرس فى المدارس، ومن يقومون بها يسمون المدرسين، وقامت الفلسفة المدرسية على يد القديس أوغسطين (St. Augustin) ^(٨٢)، وكانت هناك دوافع دفعت الأسباب إلى النقل والترجمة عن العرب وتدارس كتبهم منها: الدفاع عن الديانة المسيحية وذلك عن طريق التعرف على آراء العدو ودراستها لمعارضتها ، وإظهار تفوق العقيدة المسيحية عليها من باب اعرف عدوك، ومنها أيضا: الرغبة فى تحصيل العلم والمعرفة ، خاصة أن أسبانيا كانت تعاني من فقر ثقافى شديد وتخلف كبير، وأخيرا: رغبة المغلوب دائما فى تقليد الغالب ^(٨٤) ورغبة الضعيف فى التشبه بالقوى، فقد كان العرب أقوىاء، ولهم الغلبة، ولذا حاولت أوروبا أن تتشبه بالعرب فى ذلك الوقت ^(٨٧).

وقد امتدت الفترة الزمنية لمرحلة الترجمة إلى أواسط القرن الثالث عشر الميلادى ، وتميزت باهتمامها الكبير بترجمات المؤلفات العربية التى تسير على الخط الأرسطاطالى . أما المترجمون فظلوا خليطا من الجنسيات الأوروبية ، مثال ذلك الإنجليزى ميخائيل الاسكتلندى، وميخائيل سكوت ، الذى ترجم عام ١٢٧١م، كتب البطروجى، الذى يتبع خط أرسطو الفكرى ، وفيه شكك المؤلف بنظرية بطليموس فى الفلك التى كانت معتمدة خلال العصور الوسطى، وربما اعتمد على أفكاره العالم المشهور كوبرنيك الذى أجهز على النظرية، وقد طبعت هذه الترجمة فى بولونيا عام ١٤٩٥م ، كما أن المترجم ذاته ترجم كتباً لأرسطو مع شروح وتعليقات عليها لابن سينا ^(٨٦).

وقام الراهب الأسبانى ماركوس بترجمة كتب جالينوس فى الطب إلى اللاتينية من العربية، كما ترجمت تحت إشراف الأسقف جنميث دى رادا عدة كتب إسلامية ، كان فى مقدمتها القرآن الكريم، إضافة إلى بعض المؤلفات الدينية الأخرى ^(٨٧).

وقد نشطت الترجمة حتى بعد سقوط طليطلة عام ١٠٨٥م حيث استمر كثير من المسلمين واليهود المتكلمين بالعربية فى الإقامة بها، وقد أدرك ريموندو الذى كان أسقفا لطيطة من عام ١١٢٥م وحتى وفاته عام ١١٥١م، أن هذا الوضع يتيح فرصة عظيمة لممارسة الترجمة، فعكف على تشجيع الباحثين والعلماء للمجئى إلى طليطلة للمساهمة فى مشروع الترجمة ، لذا اشتهر عدد من التراجمة منهم يومنيك جوند يالفى الذى عمل مع عدد من التراجمة مثل يوحنا الاشبيلى ، وابن داود اللذين كانا من المتكلمين بالعربية ، وكان يومنيك هذا يقوم بانتقاء

الأعمال التي يترجمها، ويعطى النص اللاتيني صيغته النهائية، في حين كان مساعده قد نقلوا إلى اللاتينية الفكرة الأساسية للأصل العربي، ويبدو أن معظم الترجمات في القرن الثاني عشر كانت تتم على هذا النحو^(٨٨).

كذلك أسهمت أجزاء أخرى من أسبانيا في أعمال الترجمة في القرن الثاني عشر فقبل ذلك بقليل ظهر هو جونديسالفى الذى ترجم كتباً علمية بناء على طلب أسقف طرسونة، وهى مدينة صغيرة تقع إلى الغرب من سرقسطة، وعلى الساحل الشرقى من مدينة برشلونة قام بلاتو اليقولى مع إبراهيم بازجية بترجمة كتب فى الهندسة والفلك من العربية إلى اللاتينية^(٨٩).

ويعتبر جوند يسالفى شيخ المترجمين لجهوده الكبيرة فى الترجمة، حيث ألف كتباً نجد فيها لأول مرة آثار الفلسفة الإسلامية، وبدأت عقول ممتازة من الأوروبيين فى قراءة آثار الفلاسفة المسلمين المترجمة حيث بدأت النهضة الحقيقية للفكر الفلسفى الأوروبى، وذلك فى القرن الثالث عشر^(٩٠).

وبلغ الاهتمام بالترجمة من العربية إلى اللاتينية أوجه فى عهد الفونسو العاشر (الملقب بالحكيم) . وفى هذا العصر تناولت أيدى الأسبان كتباً عربية فى الحكم والألفاظ نقل أصحابها فيها حشداً من آراء الفلاسفة المسلمين ومفكرهم.

وترجمت عن العربية كتب فى الألعاب كالشطرنج ، واستعملت الموسيقى الأندلسية فى صياغة الأغاني الأسبانية ، وذاعت بينهم ترجمات لكتب عربية مشرقية فى الحكمة والقصص والأمثال إلى اللغات الأوروبية الحديثة منها: كتاب كليله ودمنة، الذى ترجم إلى الأسبانية سنة ١٢٥١م، ثم إلى اللاتينية ، وكتاب رحلات السندباد الذى انتشر فى أوروبا بعنوان (الرؤساء الحكماء السبعة) وقد ترجم إلى اللاتينية ترجمة لاتزال محفوظة فى العديد من المخطوطات، وقام بطرس الفونسو فى أوائل القرن الثانى عشر الميلادى بترجمة مجموعة من القصص العربية^(٩١).

وبعد أن نشطت حركة الترجمة فى صقلية وأسبانيا أيما نشاط بحكم اتصال هذين البلدين بالعرب وتمرسهم بثقافتهم وأفكارهم ، أخذت تتحول حركة الترجمة إلى مراكز أخرى فى أوروبا ابتداء من القرن الحادى عشر منها إنجلترا وإيطاليا. وكان الطريق يمر عبر صقلية وأسبانيا والمغرب العربى. فمن المعروف أن ما نقله قسطنطين الأفريقى يجاوز السبعين كتاباً عربياً إلى سالرنو ، وذلك عن طريق الترجمة، أو نسبة بعض الكتب إليه منها. على سبيل المثال: كتاب (كامل الصناعة الطبى) لعلى بن موسى المجوسى، الذى ظل متداولاً عند الأطباء

على أنه من مؤلفات قسطنطين الأفريقي إلى أن تمت ترجمة الكتاب الأصلي فلفتت الحقيقة أنظار المشتغلين في هذا الحقل ^(٩٢).

وقد استمر الأوروبيون ينهلون من الكتب العربية ترجمة واقتباسا ، وفي القرن الرابع عشر زاد عدد المشتغلين بالعلوم المترجمة عن العربية، واعتاد كثير منهم تأليف كتب مرجعية ضخمة في مختلف التخصصات ، منها تلخيص للكتب العربية المترجمة ، ولكن هؤلاء الملخصين اعتادوا حذف أسماء العلماء العرب، وذكروا بدلا عنها أسماء علماء الإغريق المشار إليها في المصادر العربية، فقد ذكروا بطليموس وكتابه في الفلك مع أن مصدرهم كان كتاب البتاني ، صحيح أنه أخذ النظام البطليموس ، ولكن كتابه كان يحتوى على اكتشافات مهمة بالمقارنة ببطليموس ^(٩٣).

ويعتبر الفونس الحكيم- وهو نفسه عالم مستتير - من حماة العلم وأهله، ظهر في النصف الثاني من القرن الثاني عشر وأسهم في المجموعة الفلكية الضخمة، وترجم كثيرا من كتب الفلك والنجوم والآلات الفلكية من العربية إلى اللغة القشتالية.

ومن مترجمي ذلك العصر كان ارمينجو Armengand فترجم عن العربية كتابا منسوباً إلى جالينوس والأرجوزة لابن سينا مع شرحها لابن رشد ^(٩٤) ، وتوجد مجموعة أخرى من التراجمة يضيق المقام عن ذكرهم ، لكثرة ما ترجموا ونقلوا من معارف عربية سواء إلى اللغة اللاتينية أو إلى اللغات الأوروبية أو العبرية وبهمنا أن نقف على الأثر الذي خلفته حركة الترجمة هذه في المجتمع الأوروبي في العصور الوسطى. ولعل خير من أفصح عن ذلك الفيلسوف رينان في كتابه الذي مضى على تأليفه أكثر من قرن حول (ابن رشد والرشدية) عندما قال : إن إدخال النصوص العربية في دراسات الغرب الأوروبي، يقسم تاريخ الفلسفة والعلم إلى فترتين مختلفتين بصورة كلية، في الأولى، كان على النفس الإنسانية أن ترضى تطلعاتها إلى المعرفة بتلك البقايا الفقيرة ، المحفوظة في المدارس الرومانية لعصر الانحطاط ، أما الفترة الثانية فقد استفاد الغرب من المؤلفات الأصلية لليونان والعرب ^(٩٥).

لقد أدى الاختلاط بين الغربيين والعرب المسلمين عبر كل الوسائل والطرق التي ذكرت حتى الآن ، إلى اقتباسهم شيئا كثيرا من الحضارة العربية الإسلامية، على مختلف الأصعدة والميادين ، ولاسيما في مجال العلوم الرياضية والفلكية والطبية والصيدلانية والفلسفية والجغرافية ، مما جعل أوروبا تنتقل من مرحلة نومها الطويل عبر قرون عديدة مظلمة، إلى مرحلة أكثر وضوحاً وإشراقاً وتأثيراً في جميع مناحى الحياة العامة بصورة إيجابية ^(٩٦).

الهوامش

- ١- توماس ارثولد الفريد جيوم، تراث الإسلام، ص ٧٢ .
- ٢- عبد الرحمن بدوي، دور العرب في تكفير الفكر الأوروبي، ص ١١ .
- ٣- محمود إسماعيل ، تاريخ الحضارة العربية الإسلامية، ص ٢٥٨ .
- ٤- حسان حلاق ، دراسات في تاريخ الحضارة الإسلامية، ص ٢٦٤ .
- ٥- يوسف محمود، الإنجازات العلمية في الحضارة الإسلامية ص ٢٢٢ .
- ٦- رهاب خضر عكاوي، الموجز في تاريخ الطب عند العرب، ص ٢٢٠، كذلك عامر النجار، في تاريخ الطب في الدولة الإسلامية، ص ١٧٣ .
- ٧- أحمد علي الملا، أثر العلماء المسلمين في الحضارة الأوروبية، ص ١٢٩ .
- ٨- عبد الرحمن بدوي، دور العرب في تكوين الفكر الأوروبي، ص ٢٨ .
- ٩- علي محمد راضي الأندلس والناصر ، ص ٤٠ .
- ١٠- علي عبدالله الدفاع ، تاريخ الرياضيات عند العرب والمسلمين ، ص ٣٠١ .
- ١١- عبد الرحمن بدوي، دور العرب في تكوين الفكر الأوروبي، ص ٤١ .
- ١٢- يوسف محمود، الإنجازات العلمية في الحضارة الإسلامية، ص ٢٢٥ .
- ١٣- عز الدين فراج، فضل علماء المسلمين على الحضارة الأوروبية ص ٢١١، كذلك زنفريد هونكة ، شمس العرب تسطع على الغرب، ص ٤٩٠ .
- ١٤- أحمد بدر ، تاريخ الأندلس (السقوط والتأثير الحضاري) ص ٤٠٢ .
- ١٥- ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج ٥ ص ٨٩ .
- ١٦- د. عزيز أحمد، تاريخ صقلية الإسلامية، ص ٨ .
- ١٧- ابن عذاري ، البيان المغرب في تاريخ أخبار الأندلس والمغرب، ص ٢٥٥ .
- ١٨- د. طه ندا، فصول من تاريخ الحضارة الإسلامية ، ص ١٩٥ .
- ١٩- إحسان عباس، العرب في صقلية، ص ٥٠ .
- ٢٠- سعيد عبد الفتاح عاشور، فضل العرب على الحضارة الأوروبية، ص ٧ .
- ٢١- ابن عذاري ، البيان المغرب، ص ٢٦٤ ، ابن حوقل ، صورة الأرض ، ص ١٢١ .
- ٢٢- الصفدي ، الوافي بالوفيات ، ج ٤ ، ص ٦٥٧ .
- ٢٣- المصدر نفسه ، ص ٦٥٨ .
- ٢٤- ابن جبير ، رحلة ابن جبير ، ص ٢٢٥ .

- ٢٥- المصدر نفسه ، ص ٢٢٠ .
- ٢٦- سعيد عبد الفتاح عاشور ، حضارة وتنظيم أوروبا في العصور الوسطى ، ص ٢٦٢ .
- ٢٧- المصدر نفسه ، ص ٢٦٤ .
- ٢٨- المقرئى ، السلوك ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٢٢٢ .
- ٢٩- جب ، تراث الإسلام ، ص ١٧٤ .
- ٣٠- محمود إسماعيل ، تاريخ الحضارة العربية الإسلامية ، ص ٢٦٠ .
- ٣١- محمد كرد على ، الإسلام والحضارة العربية ، ج ١ ، ص ٢٨٧ .
- ٣٢- القفطى ، أخبار الحكماء ، ص ١٨٩ .
- ٣٣- محمد كرد على ، الإسلام والحضارة العربية ، ج ٢ ، ص ٢٩١ .
- ٣٤- أحمد على الملا ، أثر العلماء المسلمين في الحضارة الأوروبية ، ص ١٢٥ .
- ٣٥- إحسان عباس ، العرب في صقلية ، ص ١٤٧ .
- ٣٦- المدنية الإسلامية وأثرها في الحضارة الأوروبية ، ص ٥٦-٦٠ .
- ٣٧- د. بيكر ، تراث الإسلام ، ص ١٠٦ .
- ٣٨- سعيد عاشور: المدنية الإسلامية ، ص ٥٧-٥٨ .
- ٣٩- بيكر ، تراث الإسلام ، ص ١١٥ .
- ٤٠- توفيق الطويل ، في تراثنا العربى والإسلامى ، ص ١٥٢ .
- ٤١- Hiti , History of the Arabs , pp. 662, 663, 667, 668
- و انظر كذلك : Hiti , The Arabs Short History, pp. 180, 181, 182, 183.
- ٤٢- توماس أرنولد ، تراث الإسلام ، ص ١٠١ .
- ٤٣- طه ندى ، فصول من تاريخ الحضارة الإسلامية ، ص ١٩٢ .
- ٤٤- توماس أرنولد ، تراث الإسلام ، ص ١٠١ .
- ٤٥- المصدر نفسه ، ص ٥٠٠ .
- ٤٦- غوستاف لوبون ، حضارة العرب ، ص ٣٦٧ ، ٣٦٨ ، وانظر كذلك : نجيب العقيقى ، المستشرقون ، ج ١ ، ص ٧-١٨ ، كذلك : فيليب حتى ، موجز الشرق الأدنى ، ص ٢٢٤ .
- ٤٧- أحمد مختار العبادى ، التاريخ العباسى والأندلسى ، ص ٨٩ .
- ٤٨- عبد العزيز سالم ، العصر العباسى الأول ، ج ٢ ، ص ٧١ .
- ٤٩- عبد العزيز الدورى ، العصر العباسى الأول ، ص ١٢٠ .

- ٥٠- سعيد عبد الفتاح عاشور، أوروبا العصور الوسطى، ج ١، ص ٢١٢ .
- ٥١- Lovisseet R. Hist . de France vol III , p. 338 .
- ٥٢- سعيد عبد الفتاح عاشور، النهضة الأوروبية في القرن الثاني عشر، ص ٨٩ .
- ٥٣- Lovisset R. Hist de France vol II . p. 338 , 339 .
- ٥٤- منى حسن محمود ، المسلمون في الأندلس وعلاقاتهم بالفرنجة ، ص ٢١٤ .
- ٥٥- سعيد عبد الفتاح عاشور ، أوروبا العصور الوسطى، ص ٢١٤ .
- ٥٦- أحمد مختار العبادي، في تاريخ المغرب والأندلس، ص ٢١٦ .
- ٥٧- حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام ، ج ٣ ص ٢٤٢ .
- ٥٨- مونتجومري وات ، فضل الإسلام على الحضارة الغربية، ص ٢٠ .
- ٥٩- ياقوت الحموي، معجم البلدان ، ج ٢، ص ٢٦٢ ، ٢٦٤ .
- ٦٠- شكيب أرسلان ، تاريخ غزوات العرب ، ص ٨٨ .
- ٦١- منى حسن محمود، المسلمون في الأندلس، ص ٢٢٥ .
- ٦٢- أحمد مختار العبادي، دراسات في تاريخ المغرب والأندلس ، ص ٢٥١ .
- ٦٣- محمود إسماعيل ، تاريخ الحضارة العربية الإسلامية، ص ٢٦٢ .
- ٦٤- أرشيبالد لويس ، القوى البحرية في البحر المتوسط، ص ١٢٠ .
- ٦٥- منى حسن محمود، المسلمون في الأندلس، وعلاقاتهم بالفرنجة ، ص ٢٢٩ .
- ٦٦- أرشيبالد لويس، القوى البحرية، ص ١٢٠ ، حسين مؤنس ، المسلمون في حوض البحر المتوسط ، ص ٥٢ .
- ٦٧- Pirenne, Mohammed and Charlemagne p. 174 .
- ٦٨- مجموعة مؤلفين، عبقرية الحضارة العربية، منبع الحضارة الأوروبية ، ص ٢٣٧ .
- ٦٩- المصدر نفسه، ص ٣٤٤ .
- ٧٠- منى حسن محمود، المسلمون في الأندلس، ص ٢٣٣ .
- ٧١- عبد الحميد الشرقاوي ، الحالة الاقتصادية في الأندلس في القرن الرابع الهجري، ص ١٣٥ ،
وارشيبالد لويس، القوى البحرية في البحر المتوسط ، ج ١، ص ٢٦١ .
- ٧٢- عبد الرحمن فهمي محمد، دراسة لبعض التحف الإسلامية، ص ١٩٩ .
- ٧٣- أنيس الأبيخ ، بحوث في تاريخ الحضارة العربية الإسلامية، ص ١٧ .
- ٧٤- مجموعة مؤلفين، عبقرية الحضارة العربية، منبع الحضارة الأوروبية ، ص ٢٤٥ .

- ٧٥- عبد المنعم ماجد، تاريخ الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى، ص ٢٩٠ .
- ٧٦- حكمت عبد الكريم فريجات، مدخل إلى تاريخ الحضارة العربية الإسلامية، ص ١٦١ .
- ٧٧- عبد الحليم منتصر، تاريخ العلم و دور العلماء العرب في تقدمه، ص ٢٥٦ .
- ٧٨- فؤاد سيزكين، محاضرات في تاريخ العلوم العربية والإسلامية، مجلد ١، ص ١٢١ .
- ٧٩- محمد عبد الرحمن مرحبا، المرجع في تاريخ العلوم عند العرب، ص ٥٦٨ .
- ٨٠- حسان حلاق ، دراسات في تاريخ الحضارة العربية الإسلامية، ص ٢٧١ .
- ٨١- محمد عبد الرحمن مرحبا ، المرجع في تاريخ العلوم عند العرب ، ص ٥٦٩ .
- ٨٢- فؤاد سيزكين ، محاضرات في تاريخ العلوم العربية والإسلامية، ج ١، ص ١٢١ ، ١٢٢ .
- ٨٣- عبد المنعم ماجد ، تاريخ الحضارة الإسلامية، ص ٢٩١ .
- ٨٤- محمد عبد الرحمن مرحبا، المرجع في تاريخ العلوم عند العرب، ص ٥٧١ .
- ٨٥- رمضان الصباغ ، العلم عند العرب وأثره على الحضارة الأوروبية، ص ٢٩٧ .
- ٨٦- أحمد بدر ، تاريخ الأندلس، ص ٤١٢ .
- ٨٧- المصدر نفسه، ص ٤١٣ .
- ٨٨- مونتجومري وات ، فضل الإسلام على الحضارة الغربية ، ص ٨٤ .
- ٨٩- المصدر نفسه ، ص ٨٥ .
- ٩٠- عبد الرحمن بدوي، دور العرب في تكوين الفكر الأوروبي، ص ٣١ .
- ٩١- المصدر نفسه ، ص ٦٧ .
- ٩٢- فؤاد سيزكين، مصدر سابق، ص ١٢٥ .
- ٩٣- المصدر نفسه، ص ١٢٩ .
- ٩٤- توفيق الطويل، الحضارة الإسلامية والحضارة الأوروبية ، ص ١٦٢ .
- ٩٥- Renan , Averries 1, Averroishne pp; 158, 159 .
- ٩٦- الكسندر، ستيفتش ، تاريخ الكتاب، ترجمة محمد الأرنؤوطي ، ص ٢٤٦ ، عمر الإسكندري وسليم حسن ، تاريخ أوروبا الحديثة وأثار حضارتها، ص ٦٠٥ ، كذلك إبراهيم زعرور وعلى الأحمد، المؤثرات الحضارية العربية الإسلامية في الغرب الأوروبي خلال العصور الوسطى، ص ١٨ .

المصادر والمراجع

أولا : باللغة العربية:

ابن الأثير: أبو الحسن عز الدين علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم، (ت ٦٣٠هـ / ١٢٣٨م).

١- الكامل في التاريخ ، دار صادر، بيروت .

ابن جبير : محمد بن أحمد بن جبير الكنانى الأندلسى المكنى بأبى الحسين.

٢- رحلة ابن جبير ، المسماة : تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار تقديم د. محمد مصطفى زيادة ، دار الكتاب اللبناني ، دار الكتاب المصرى ، القاهرة، بدون تاريخ .

ابن حوقل : أبو القاسم بن حوقل النصيبى (ت ٢٦٧هـ / ٩٧٧م) .

٣- صورة الأرض ، دار مكتبة الحياة ، بيروت ١٩٩٢م.

ابن عذارى : أبو عبدالله محمد المراكشى (ت نهاية القرن السابع الهجرى)

٤- البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب، جزءان، تحقيق ومراجعة ج.س- كولان ولافى برفنسال - دار الثقافة، بيروت .

الايض ، أنيس (دكتور)

٥- بحوث فى تاريخ الحضارة العربية الإسلامية، الطبعة الأولى جروس برس، بيروت ، ١٩٩٤م.

الإسكندرى . عمر وسليم حسن.

٦- تاريخ أوروبا الحديثة أثار حضارتها، دار المعارف ، القاهرة، ١٩١٧م.

أحمد، عزيز (دكتور) .

٧- تاريخ صقلية الإسلامية، ترجمة: د. أمين توفيق الطيبى، الدار العربية للكتاب، بيروت ١٩٨٠م.

إسماعيل ، محمود (دكتور) :

٨- تاريخ الحضارة العربية الإسلامية، الطبعة الثالثة، مكتبة الفلاح للنشر والتوزيع ، الكويت ١٩٩٢م.

الحموى : شهاب الدين ياقوت بن عبدالله الرومى (٦٢٦هـ / ١٢٢٨م) .

٩- معجم البلدان ، دار إحياء التراث ، بيروت ١٩٨٠م.

الدفاع ، على عبدالله (دكتور)

١٠- تاريخ الرياضيات عند العرب والمسلمين، مؤسسة الرسالة ، بيروت

١٩٨١م.

النورى، عبد العزيز (الدكتور).

١١- العصر العباسى الأول، دراسة فى التاريخ السياسى والإدارى والمالى

الطبعة الثانية، دار الطليعة للطباعة و النشر ، بيروت ١٩٨٨م.

ارسلان ، شكيب.

١٢- تاريخ غزوات العرب، القاهرة، ١٣٥٢هـ .

الشرقاوى ، عبد الحميد

١٣- الحالة الاقتصادية فى الأندلس فى القرن الرابع الهجرى، جامعة القاهرة،

١٩٥٠م.

الصباغ ، رمضان (دكتور)

١٤- العلم عند العرب، وأثره على الحضارة الأوروبية ، الطبعة الاولى، دار

الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع ، إسكندرية ، ١٩٩٨م.

الصفدى: صلاح الدين خليل بن أيبك (ت سنة ٧٦٤هـ / ١٣٦٢م) .

١٥- الوافى بالوفيات ، فيسبادن ، ١٩٧١م.

الطويل، توفيق (دكتور) .

١٦- فى تراثنا العربى والإسلامى، سلسلة عالم المعرفة، يصدرها المجلس

الوطنى للثقافة والفنون والآداب، الكويت ١٩٨٥م.

العبادى ، أحمد مختار (الدكتور) .

١٧- فى التاريخ العباسى والأندلسى ، دار النهضة العربية ، بيروت ١٩٧٢م.

١٨- فى تاريخ المغرب والأندلس، مؤسسة الثقافة الجامعية، الإسكندرية.

العقيقى: نجيب.

١٩- المستشرقون ، القاهرة، بنون تاريخ .

الققطى : جمال الدين أبو الحسن على (ت ٦٣٦هـ / ١٢٤٨م)

٢٠- أخبار الحكماء بأخبار الحكماء، القاهرة ١٣٢٦هـ .

المقريزى : تقى الدين أبو العباس أحمد بن على (ت ٨٤٥هـ / ١٤٤١م)

٢١- السلوك لمعرفة دول الملوك ، جزئين ، نشر وتحقيق: د. محمد مصطفى زيادة، لجنة التأليف، والترجمة والنشر، الطبعة الأولى، القاهرة ١٩٣٤ ، الطبعة الثانية ١٩٥٦م، ج ٢ ، تحقيق د. سعيد عبد الفتاح عاشور، القاهرة ١٩٧٠م. ١٩٧٢م.

الملا، أحمد على:

٢٢- أثر العلماء المسلمين فى الحضارة الأوروبية، دار الفكر، الطبعة الثانية، دمشق ١٩٨١م.

النجار، عامر (دكتور)

٢٣- فى تاريخ الطب فى الدولة الإسلامية، دار الهداية ، القاهرة، ١٩٨٦م.

بدر، أحمد (دكتور)

٢٤- تاريخ الأندلس ، التجزؤ- السيادة المغربية، السقوط والتأثير الحضارى مكتبة أطلس، دمشق ١٩٨٣م.

بدوى، عبد الرحمن:

٢٥- نور العرب فى تكوين الفكر الأوروبى، الطبعة الثانية، وكالة المطبوعات ، الكويت، ١٩٧٩م.

توماس أرنولد ، الفريدجيوم:

٢٦- تراث الإسلام ، كتب فصوله : ب ترند، أرنست بيكر، أ.ر. جب، ألفرد جيوم، ١ هـ ، توماس أرنولد، مارتن برجنز، قامت على ترجمته ونشره بالعربية، لجنة الجامعيين لنشر العلم، جزئين، القاهرة ١٩٣٦م.

حتى، فيليب:

٢٧- موجز الشرق الأدنى، ترجمة أنيس فريشة، بيروت، ١٩٧٠ .

حسن : حسن إبراهيم (الدكتور)

٢٨- تاريخ الإسلام السياسى والدينى والثقافى والاجتماعى، ج ٢ ، الطبعة السادسة ، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٦٥م.

خلاق ، حسان (الدكتور)

٢٩- دراسات فى تاريخ الحضارة الإسلامية، دار النهضة العربية، الطبعة الأولى، بيروت ١٩٨٩م.

راضى ، على محمد

٣٠- الأندلس والناصر، دار الكاتب العربى للطباعة والنشر، القاهرة.

زعرور ، إبراهيم (الدكتور) ود. على أحمد

٣١- المؤثرات الحضارية العربية الإسلامية فى الغرب الأوروبى خلال العصور الوسطى، دار المستقبل ، دمشق.

سالم ، السيد عبد العزيز (دكتور)

٣٢- العصر العباسى الأول، دراسات فى تاريخ العرب، ج ٢، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية.

٣٣- تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت ١٩٨١م.

ستيفيتش ، الكسندر

٣٤- تاريخ الكتاب ، ترجمة محمد الأرناؤوط ، سلسلة عالم المعرفة ، يصدرها المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ١٩٩٣م.

سيركين ، فؤاد

٣٥- محاضرات فى تاريخ العلوم العربية والإسلامية ، سلسلة نصوص، ودراسات، المجلد الأول، منشورات تاريخ العلوم العربية الإسلامية، فرانكفورت ١٩٨٤ .

عاشور ، سعيد عبد الفتاح (دكتور)

٣٦- أوروبا العصور الوسطى، ج ١ ، التاريخ السياسى الطبعة السادسة، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة، ١٩٩١م.

٣٧- حضارة ونظم أوروبا فى العصور الوسطى، دار النهضة العربية بيروت ١٩٧٦ .

٣٨- فضل العرب على الحضارة الأوروبية ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٥٧ .

٣٩- النهضة الأوروبية فى القرن الثانى عشر ، ١٩٥٦م.

عباس، إحسان (دكتور)

٤٠- العرب فى صقلية ، دراسة فى التاريخ والآداب، دار الثقافة ، بيروت ١٩٧٥ .

عكاوى ، رحاب خضر (الدكتور)

٤١- الموجز فى تاريخ الطب عند العرب، دار المناهل ، الطبعة الأولى بيروت ١٩٩٥م.

على، محمد كرد

٤٢- الإسلام والحضارة العربية، الطبعة الثالثة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٩٦٨م.

فراج ، عز الدين (دكتور)

٤٣- فضل علماء المسلمين على الحضارة الأوروبية، دار الفكر العربى القاهرة.

فريحات ، حكمت عبد الكريم (الدكتور) وإبراهيم ياسين الخطيب.

٤٤- مدخل إلى تاريخ الحضارة العربية الإسلامية، دار الشروق للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، عمان، ١٩٨٩م.

لوبون، جوستاف

٤٥- حضارة العرب، ترجمة عادل زعيتر ، مطبعة البايى الحلبي القاهرة، ١٩٤٨م.

لويس، ارشيبالد

٤٦- القوى البحرية فى البحر المتوسط ، ترجمة أحمد محمد عيسى ، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٥٠م.

ماجد، عبد المنعم (الدكتور)

٤٧- تاريخ الحضارة الإسلامية فى العصور الوسطى ، مكتبة الأنجلو المصرية، الطبعة الخامسة ، القاهرة ١٩٨٦م.

مؤنس ، حسين (الدكتور)

٤٨- المسلمون فى البحر المتوسط، المجلة التاريخية، تصدرها الجمعية التاريخية المصرية ، المجلد الرابع، ١٩٥١م.

مجموعة من المؤلفين :

٤٩- عبقرية الحضارة العربية، منبع النهضة الأوروبية، ترجمة عبد الكريم، محفوظ، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان ، بنغازي، ١٩٩٠ .

محمد، عبد الرحمن فهمي (الدكتور)

٥٠- دراسة لبعض التحف الإسلامية، حولية كلية الآداب، جامعة القاهرة، مجلد ٢٢ ، العدد ١ ، ١٩٦٠ ، مطبعة جامعة القاهرة ١٩٦٤م.

محمود، منى حسن (دكتورة)

٥١- المسلمون في الأندلس وعلاقتهم بالفرنجة (٩٢-٢٠٦هـ / ٧١٤-٨١٥م) دار الفكر العربي ، القاهرة ١٩٨٦ .

محمود، يوسف

٥٢- دور العرب في تكوين الفكر الأوربي، القاهرة .

مرحبا، محمد عبد الرحمن (دكتور)

٥٣- المرجع في تاريخ العلوم عند العرب ، دار الفيحاء ، طرابلس، ١٩٨٩ .

منتصر ، عبد الحليم (الدكتور)

٥٤- تاريخ العلم ودور العلماء العرب في تقدمه، الطبعة الخامسة، دار المعارف بمصر ١٩٧٣م.

ندا، طه (الدكتور)

٥٥- فصول من تاريخ الحضارة الإسلامية، دار النهضة العربية للطباعة والنشر ، بيروت ١٩٧٣م.

هونكة ، زنفريد

٥٦- شمس العرب تسطع على الغرب، ترجمة فاروق بيضون وآخرون، الطبعة الثالثة، المكتب التجاري للطباعة، والتوزيع والنشر ببيروت، ١٩٧٩م.

وات ، مونتجومري

٥٧- أثر الحضارة العربية الإسلامية على أوروبا، ترجمة : جابر أبي جابر، دمشق وزارة الثقافة ١٩٨١م.

٥٨- فضل الإسلام على الحضارة الغربية ، ترجمة : حسين أحمد أمين، الطبعة الأولى ، مكتبة مديولى ، القاهرة ١٩٨٣م.

ثانيا : باللغة الأجنبية :

59- Hitt , p. k.

History of The Arab , London - 1949 .

60- The Arabs: Short History Prenston 1941 , 1944 .

61- Lovisset History de France Depuis Origines Jusque 1906 .

(Revolution) Paris, 1911 .

Pirenne (Henri).

62- Mohammed and charlemagne.

London 1911 .

63- Averries I, Averrostine, Paris 1862 .

بور سعيد مركز التقاء ثقافات وحضارات الشرق والغرب

نشأة ونمو المدينة :

فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر وبالتحديد فى ٢٥ أبريل ١٨٥٩ أقيم حفل متواضع إيدانا بالبده فى عمليات حفر المدخل الشمالى لقناة السويس ، وقد شهد الحفل جمع من مستخدمى الشركة والمقاول العام وفريق من العمال المصريين، بلغ عددهم فى ذلك اليوم نحو مائة عامل جئ بهم من دمياط والنواحي القريبه منها وألقى دى لسبس خطابا قال فيه : «نضرب أول معول فى الأرض التى ستفتح أبواب الشرق لتجارة الغرب وحضارته»^(١).

وأخذت المدينة تنمو مع سير عمليات الحفر ، وأخذت المباني الحجرية المتعاسكة تتزايد لتحل محل المنشآت الخشبية ، وبدأ وصول القناصل ثم الجرائد المحلية وافتتحت المدارس وشيد البنك العثمانى فرعاً له ببورسعيد (١٨٦٣) ، وصارت بور سعيد مدينة وليدة ، ارتبطت الحياة فيها بالميناء الذى افتتح للملاحة العالمية فى ١٧ نوفمبر ١٨٦٩ . وقد أطلق عليها البعض اسم : «بوابة الشرق» .

وعلى الشاطئ الشرقى (الضفة الآسيوية) أنشئت مدينة جديدة هى بور فؤاد فى عام ١٩٢٦ لسكنى مستخدمى وعمال شركة قناة السويس علاوة على الورش الخاصة بصيانة الوحدات البحرية للشركة . وقد خططت هذه المدينة تخطيطاً حديثاً فشوارعها واسعة ومحاطة بالحدائق الجميلة^(٢).

التركيب السكاني لبورسعيد :

شهدت الفترة من ١٨٥٩ إلى ١٨٦٩ جذبا سكانيا كبيرا وخاصة من الأجانب الذين قدموا بحثا عن الثروة والعمل في هذا الموقع الاستراتيجي الهام وساعد على ذلك سياسة دي لسبس وشركة قناة السويس من جهة وسياسة الخديوي سعيد وإسماعيل من جهة أخرى، فقد فتحو أبواب مصر على مصراعيها للأجانب ، ويذهب الدكتور محمد صبرى (السريونى) فى وصف هذه الحركة «إلى أنها كانت أقرب إلى الغزو منها إلى الهجرة»^(٣).

وعندما أُلغيت السخرة فى حفر القناة ووفد إلى مصر جموع متباينة من العمال الأجانب اضطرب حبل الأمن وكثرت حوادث القتل والسطو ، وتعددت حوادث الاعتداء على الشرطة ومهاجمة مراكز قواته .

وكان وقوع هذه الحوادث بكثرة بين العمال أمرا متوقعا ، إذ كانوا على قدر كبير من التنافر فى الأخلاق والعادات والتقاليد والأمزجة واللغة ، فكان لابد من الصدام. أضف إلى ذلك إن كثيرا منهم كانوا من المتعطلين الذين ضاقت بهم سبل الحياة فى أوطانهم فجاءوا إلى مصر التماسا للرزق فى عمليات حفر القناة ، فكانوا فى حال من الفقر . وقد وصف محافظ الإسكندرية العمال الإيطاليين الذين وفدوا إلى مصر فى أكتوبر ١٨٦٥ بأنهم : «من سفلة الناس»^(٤).

وعند افتتاح قناة السويس ١٨٦٩ بلغ تعداد سكان مدينة بور سعيد حوالى عشرة آلاف نسمة ، وبعد ثمانين عاما فقط أصبحت ثالث مدن القطر المصرى وبلغ عدد سكانها ١٢٥٠٠٠ نسمة^(٥)، وجمعت أخلاطا شتى : يونانيين وفرنسيين وإيطاليين ونمساويين وبريطانيين ومالطيين وهنود وقبارصة علاوة على الشوام والمصريين . وكانت الجالية اليونانية من أكبر الجاليات الأجنبية فى بور سعيد ، وكانوا محل تقدير دي لسبس، حتى أنهم طلبوا منه تعديل اسم بور سعيد إلى : «كاسوس الجديدة»^(٦)، ولكن دي لسبس خشى غضب إسماعيل^(٧).

والجدير بالذكر إن الجاليات الأجنبية وفدت إلى بور سعيد فى ظل نظام التسلط القنصلى والامتيازات الأجنبية ، فاستغلت هذه الامتيازات أسوأ استغلال، كما سارعت الدول لإقامة قنصليات لها فى بور سعيد بلغت ١٤ قنصلية .

أما بالنسبة للمصريين فقد توافدوا من محافظات : دمياط والدقهلية وكفر الشيخ والنوبة والصعيد باحثين عن فرص عمل بالمدينة والميناء الجديدين.

الحى الإفرنجى والحى العربى:

انقسمت المدينة إلى قسمين:

أولاً- الحى الإفرنجى:

ويقع إلى الشرق والشمال الشرقى للمدينة حيث أقام به الأجانب وقد توفرت لهم كافة أسباب الحياة فى ظل الخدمات الممتازة من محلات ومطاعم بأنواعها ومقاهى وفرق موسيقية وكباريهات وخمارات وفنادق وميادين عامة وحدائق ومحلات للعب القمار .. الخ وكان الطراز المعمارى لمنشآت بور سعيد يجمع بين الطابعين العربى والأوروبى ، تحمىها أسقف مائلة ومزودة بالشرفات والفراندات الزجاجية وكذلك مبنى شركة قناة السويس ذى القباب الثلاثة والبواكى والكنائس ذات الطراز القوطى.

التمثال :

كذلك ازدانت المدينة بالتمثال التى تخلد شخصيات فرنسية وأخرى إنجليزية نذكرها حسب ترتيب إقامتها زمنياً، فبعد عودة الإمبراطورة أوجينى لفرنسا عقب حقبات افتتاح قناة السويس (١٨٦٩) أوصت المثال الفرنسى (الإيطالى الأصل) بارتولدى Bartholdi بصنع تمثال ليوضع فى مدخل قناة السويس الشمالى، وانتهى المثال من صنع التمثال الذى بلغ ارتفاعه ٤٦ متراً وهو يمثل سيدة ترمز للحرية وتحمل فى يدها شعلة . وقبل تنفيذ إقامة هذا التمثال قامت الحرب السبعينية بين فرنسا وبروسيا وانتهت بهزيمة فرنسا سنة ١٨٧٠ ودخلت القوات الروسية باريس وأسرت الإمبراطور نابليون الثالث وهربت الإمبراطورة أوجينى ونجلها لويس نابليون إلى إنجلترا وبقي التمثال إلى أن قامت الرابطة «الفرنسية - الأمريكية» بإهدائه إلى الولايات المتحدة الأمريكية، تقديراً وتعبيراً منها لحرية الشعوب، فوضع على قاعدة ارتفاعها ٤٥ متراً عند مدخل ميناء نيويورك على المحيط الأطلسى بارتفاع ٩١ متراً، وفى يوليو ١٨٨٦ (العيد القومى الأمريكى) أزيح الستار عن التمثال فى احتفال هز العالم كله (٨).

تمثال نصفى لى لسبس (١٨٩٥) :

كانت توجد فى وسط ميدان دى لسبس حديقة من الأشجار الكثيفة أقيم فى طرفها الشمالى تمثال نصفى لى لسبس ، وفى ١٦ يونيو ١٨٩٥ حضر جمع غفير من أهالى بور سعيد الحفل الكبير الذى أقيم فى ميدان دى لسبس لإزاحة الستار عن التمثال النصفى لى

لسبس ، وكانت قد تكونت جمعية برئاسة السيد باخو Pacho^(٩)، وقامت هذه الجمعية بجمع الأموال بفرض إقامة هذا التمثال الذي صممه المثال Mantovan، وحضرت ثلاث فرق موسيقية : اليونانية والدولية والليرة، وقد حضر هذا الحفل جميع الشخصيات الرسمية بالمدينة منها قنصل اليونان وإيطاليا إلا إن شخصيات شركة قناة السويس لم تحضر تلك الحفلة وكذلك قنصل فرنسا. وكانت هذه المقاطعة مثار حديث أهالي بور سعيد . ويرجع السبب في تلك المقاطعة أن شركة القناة كان في نيتها إقامة تمثال ضخيم لدى لسبس^(١٠).

تمثال للملكة فيكتوريا (١٨٩٧) :

احتفلت قوات جيش الاحتلال البريطاني سنة ١٨٩٧ بإقامة تمثال الملكة فيكتوريا^(١١)، وذلك بمناسبة العيد الستيني لجلوسها على العرش. وقام بتنظيم هذا الحفل اللورد كرومر (المعتمد البريطاني في مصر) ومعه قنصل بريطانيا في بور سعيد . وقد قاطع هذا الحفل الخديوي عباس حلمي.

وهذا التمثال عبارة عن قاعدة في شكل أربعة أسود تصب مياهها من أفواهها لتسقط بالحوض ، وكان يشرب منه المارة ، حتى عرفت عند أهالي بورسعيد القدامى باسم «سبيل فيكتوريا» وعلى نفس العمود وأعلى الأسود ذكر مناسبة هذا التمثال وسنة إزاحة الستار، ويعلو هذا العمود، تمثال للملكة فيكتوريا، وقد أقيم على رصيف الميناء المطل على شارع فرانسوا جوزيف^(١٢).

تمثال دى لسبس (١٨٩٩) :

قررت الجمعية العمومية لشركة قناة السويس في جلسة ١٨٩٧- بناء على اقتراح الأمير اوجست دارنبرج (Auguste D'Arenberg) - إقامة تمثال في برزخ قناة السويس لفرديناد دى لسبس ، وقد تم التصويت على القروض المطلوبة ، تاركين لمجلس الإدارة اختيار النحات والموقع الذي سيقام فيه التمثال . وستقوم الباخرة Indus بنقل أعضاء مجلس الإدارة والمدعوين على هذه السفينة . وغادرت السفينة اندوس (المذكورة) ميناء مارسيليا في ١٢ نوفمبر ١٨٩٩^(١٣).

وقد تم صنع تمثال دى لسبس من البرونز وتم تدشينه يوم ١٧ نوفمبر ١٨٩٩، بمناسبة العيد الثلاثيني لافتتاح قناة السويس للملاحة العالمية. وبلغ ارتفاعه ٧ أمتار وينصب فوق

قاعدة تجعل ارتفاعه أكثر من عشرة أمتار، وكان إيمانويل فريميه (Fremiet)^(١٤) الذى صنع هذا التمثال ، يتمنى أن يضع عند قاعدته تماثيل نصفية لأربعة خدوات مصريين متعاقبين : سعيد وإسماعيل وتوفيق وعباس، ولكن تم إثنائه عن فكرته حتى لا يفضب المصريين، إن الرجل عظيم ولكن لا يمكن وضع أربعة عواهل عند قدميه^(١٥).

احتفالات إقامة التمثال (١٨٩٩) :

يعتبر هذا الاحتفال العالمى الثانى فى بورسعيد ، بعد الاحتفال العالمى الأول لافتتاح القناة عام (١٨٦٩) وقد بدأت مراسم الاحتفال العالمى الثانى فى التاسعة من صباح السبت ١٧ نوفمبر ١٨٩٩ بإزاحة الستار عن تمثال دى لسبس ، حضره الخديو عباس حلمى الثانى، الذى جاء إلى ميناء بور سعيد على اليخت المحروسة، وهو نفس اليخت الذى استقله الخديوى عند استقباله للملوك والأمراء ببور سعيد عند حفلات الافتتاح . وقد جاءت وفود الوزراء المصريين فى قطار خاص وكذلك المدعوين الأجانب من القاهرة والإسكندرية. هذا علاوة على السفن الحربية الكثيرة التابعة لفرنسا وإنجلترا وإيطاليا والدانمارك . وكان الجسر العائم (Ponton) مغطى بخيام مصرية وبأكثر من ٢٠٠٠ شخص وعمال من كل نقاط القناة ، والأطفال من كل مدارس بور سعيد اصطفوا على السقالات Gradins المدرجات) ، وكان من بين كبار المدعوين الأمير والدمان Waldeman من الدنمارك ، والغازى مختار باشا واللورد كرومر ، والوزير الإيطالى توجينى (Tugini) وسفير فرنسا بمصر Cogordan وسفير اليونان M. Oryparis والوزير الهولندى Vilbos والوزير الألمانى Muller والوزير البرتغالى Zogheb^(١٦) ، كما شهد الاحتفال أسرة دى لسبس^(١٧). وقد ألقى الخديو عباس حلمى الثانى كلمته وفى ١٩ نوفمبر ١٨٩٩ وقلد عباس بيده النيشان المجيدى من الدرجة الأولى للأمير دارنبرج . وفى ٤ ديسمبر دعى الخديوى أفراد عائلة دى لسبس لتناول الغداء بسرارى القبة^(١٨).

هذا ويمثل التمثال دى لسبس وقد ارتدى عباءة فوق بذلته وقبض بيده اليسرى على خريطة مشروعه الضخم، وأشار بيده اليمنى إشارة كلها ثقة وكرم، كأنما يدعو كل قادم إلى الشرق عن طريق القناة بقوله : «تفضل» وقد بدت أسارير وجهه واضحة مطمئنة^(١٩).

دى لسبس وفضيحة قناة باناما:

توفى دى لسبس وهو حزين بعد أن تحطم بسبب فضيحة قناة باناما ، وكان قد بلغ الرابعة والسبعين من عمره حين تم اللجوء إليه ليرأس الشركة العالمية للقناة التى تربط المحيطين

الأطلسى بالباسيفيكي. لقد بدأ مشروع باناما انطلاقاً من خطأ فنى أدى إلى سوء تقدير للميزانية، ثم تحول إلى كارثة بعد وفاة العديد من المهندسين والعمال والفنيين بعد إصابتهم بالحمى الصفراء . ولكنها كانت بالأخص فضيحة مالية وسياسية اتسمت بدفع أموال خلسة من أجل الحصول على قرض . استلزم الأمر توقف الأعمال وإعلان إفلاس الشركة، وقد أفلت دى لسبس من محكمة الجنايات ومن السجن ، على عكس ابنه شارل ادين بالفساد، ولم تعد الصحافة تهتم إلا بالأموال القذرة(٢٠).

وهكذا تحولت قناة باناما من مشروع خاص إلى فضيحة عامة (a public scandle) بعد أن قاضى المساهمون الشركة الفرنسية وعلى رأسها دى لسبس وابنه شارل وأعضاء مجلس إدارتها . وبعد أن حكم عليهم بالسجن وبغرامات فادحة ، الأمر الذى أدى إلى هرب بعضهم وانتحار البعض الآخر ، وأوقف تنفيذ الحكم على دى لسبس لكبر سنه . وواصلت الحكومة الأمريكية الأعمال بمعرفتها ابتداء من عام ١٩٠٤ فأنجزتها فى عام ١٩١٤ وافتتحت رسمياً للملاحة فى ١٥ أغسطس سنة ١٩١٤ (٢١).

ويجب أن نتوقف هنا لنذكر القارئ بأن دى لسبس نجح فى مصر لأنه استعان فى حفرة قناة السويس بأيدي مصرية عن طريق السخرة ، وعندما جاء الخديو إسماعيل طلب من دى لسبس إلغاء السخرة فلجأ دى لسبس بالاتفاق مع الخديو إسماعيل- بقبول تحكيم الإمبراطور نابليون الثالث- فقضى الأخير بتاريخ ٦ يوليو ١٨٦٤ بتعويض هائل يقدمه إسماعيل لـ دى لسبس قدره ٣٨ مليون فرنك مقابل إلغاء السخرة فى حفر قناة السويس (٢٢). هذا المبلغ الضخم علاوة على قيام الشركة ببيع الأراضي المصرية حول القناة والترعة العذبة أعانها على إتمام المشروع .

تمثال الجنود الأستراليين والنيوزيلنديين (١٩٣٢) :

أقيم هذا التمثال لتخليد جنود هذا الجيش الذين ماتوا أثناء الدفاع عن القناة وشبه جزيرة سيناء، وهو عبارة عن تمثال يمثل جندي من الخيالة الخفيفة ، ومعه جواد ، وهو مصنوع من الرخام الأسترالى الصلب بمعرفة حفار ماهر من نوى الشهرة العالمية . وقد وافق مجلس بلدى بورسعيد (٢٣)، على أن يقطع جزءاً من حديقة واصف المطة على الميناء، وفى ٢٢ سبتمبر ١٩٣٢ تم رفع الستار عن الجنود الأستراليين والنيوزيلنديين المشتركين فى الحرب العالمية الأولى ، وأقيم بجوار حديقة كازينو بالاس ، وكانت نفقات إقامة هذا التمثال من

تبرعات جنود هاتين الدولتين تخليداً لذكرى زملائهم الذين ماتوا في الحرب ما بين ١٩١٤ و ١٩١٨^(٢٤). وحضر حفل إزاحة الستار عن التمثال المنسوب السامي البريطاني « السير برس لورين » ورئيس وزراء استراليا السابق السيد / هيوز Hiouz وقائد الجيش البريطاني في مصر ورئيس الوزراء المصري إسماعيل صدقي باشا وسعيد ذو الفقار باشا كبير الأمراء موقداً من قبل الملك فؤاد وقناصل الدول وكثير من سكان بورسعيد^(٢٥).

الاهالي في بور سعيد يقومون بتعطيم التماثيل في بور سعيد (١٩٥٦) :

في أعقاب العدوان الثلاثي (الإسرائيلي البريطاني الفرنسي) عام ١٩٥٦ على بورسعيد ، قام أهالي بورسعيد بنسف تماثيل دى لسبس غداة رحيل القوات المعتدية عن بورسعيد ، ونزعوا العلم البريطاني من يده ، وهو الذي وضعت القوات البريطانية قبل رحيلها ، ثم نزل التمثال يتهاوى فوق إحدى الموائع بالقناة . كذلك قام رجال المقاومة الشعبية بتعطيم تماثيل الجندي المجهول بعد تعطيم تماثيل دى لسبس^(٢٦). ويتهكم أحد الكتاب الفرنسيين^(٢٧) عن هذه الحادثة فيقول : « إن دى لسبس الذي كانت تغطيه الزهور أصبح شيطانا » . ألم يكن هذا المجرم المحاط بالسماصرة والمرايين هو «أسوأ عدو لمصر خلال القرن التاسع وفقاً لتأكيد الدكتور حسين مؤنس عضو لجنة تضم أساتذة جامعيين وكتاباً ومصريين^(٢٨) ، «كان تاريخنا خلال الـ ١٥٠ عاماً الماضية هو تاريخ صراعنا ضد فرنسا وإنجلترا لم يمر عام واحد دون حدوث صراع بيننا وبين الواحدة والأخرى»^(٢٩)، وعلى أي حال فإن تماثيل دى لسبس يقبع الآن في ترسانة بورسعيد البحرية ويثير أزمة ثقافية بين مصر وفرنسا .

ثانياً : حي العرب:

أنشأه العمال المصريون الذين جاؤا لبور سعيد سنة ١٨٦٢ واشتغلوا في المهن الصغيرة كحمالين وباعة وسعاة وسقاين و«بمبوطية» والتي تعنى في الأصل (Boat Man) أي عمال القوارب التي تعمل في البحر للارتزاق من السفن الراسية بالميناء. وقد أخذوا هذه المهنة نقلاً عن التجار اليونانيين الذين كانوا يستقلون القوارب التي تسير في القناة البحرية الصغيرة وكانت تحمل ألواناً مختلفة من الأطعمة والمشروبات والفواكه والملابس وتباع هذه الأنواع المختلفة إلى العمال الذين يعملون في الكراكات حيث تكون في جهات بعيدة عن المراكز الأهلية بالسكان ، وكان يتعذر عليهم أن يحصلوا على حاجياتهم بطريقة منتظمة سهلة . وكان أصحاب هذه القوارب هم بحارتها .

هذا وقد بنى الوافدون الأولون من الأهالي مساكنهم من الأخشاب والحصر ، وكان معظمهم من الفلاحين الذين لا يتحدثون إلا باللغة العربية وفي الحي العربي أو قرية العرب كما كان يطلق عليها في بادئ الأمر، كانت الشوارع ضيقة والمنازل متواضعة يبدو عليها فقر السكان ولكن تنبعث منها روح جذابة تخالف الروح المادية المنبعثة من حي الإفرنج . هنا الشرق بحركته ونشاطه وضجيج حواريه وحوانيته ونداءاته وأطفاله ونسائه وملابسه وألوانه ومشاكله وزحامه وحياته الشرقية الساحرة الحكيمة المعلومة فلسفة وقناعة. فهذا رجل يصلى وهذا طفل يمرح وهذه امرأة تصرخ وتلك حوارى غير مرصوفة يفوح الأطفال في طينها بين قاذورات لانهاية لها وميكروبات خطيرة . كذلك يكثر الباعة المتجولون يبيعون الخضروات والفواكه والمثلجات . ويربط الحمالون حميرهم في عربات «كارو» لنقل الأثاث من مكان لآخر، وفي شارع الجامع التوفيقي^(٣٠) ترى الترام تجره البغال على شريط من (الدكوفيل) كرمز لأخذ الشرق بالمدينة الغربية والتطور المنظر في هدف الحياة الفطرية الأولى لاعتناق مذهب السرعة^(٣١).

وقد حدث قبل افتتاح قناة السويس (١٨٦٩) حريق هائل في قرية العرب أدى إلى دمار كثير من العشش الخشبية الواقعة غرب المدينة وتم إعادة تخطيط قرية العرب بحيث تتكون من مربعات تفصلها شوارع وحارات بحيث تقلل من أخطار الحرائق في حالة حدوثها^(٣٢).

وكان يفصل حي العرب عن حي الإفرنجى أرض فضاء كانت تغمرها المياه في أغلب أوقات السنة، وكان الاتصال بين الحيين يتم بواسطة فلايك . وفي سنة ١٨٨٥ أصبحت تلك المنطقة جافة تماماً، وقامت شركة القناة ببيع أراضي تلك المنطقة ، وعرف هذا الفاصل فيما بعد باسم شارع محمد على ، وقام دى لسبس بتجميع أبناء جزيرة كاسوس في منطقة واحدة عرفت «بحارة الكاشوتيه» في جزء من شرق هذا الشارع^(٣٣).

وعند حدود حي العرب تجد يافطة سوداء كتب عليها بالإنجليزية تحذير للقوات البريطانية بأن هذا هو حي العرب، وهو خارج حدود تحرك القوات البريطانية (Arab Town out of bounds) وبالفعل لم يكن لهم الحق في التحرك داخل المنطقة غرب شارع محمد على .

التعليم في بور سعيد:

أولا : التعليم الأجنبي :

كان للتعليم الأجنبي في بور سعيد دوراً كبيراً في النهضة التعليمية بها. ويمكن تقسيم أنواع المدارس الأجنبية التي قامت بالنشاط التعليمي في بور سعيد إلى الآتى :

١- مدارس الإرساليات الدينية^(٢٤)

إرسالية أخوات الراعى الصالح Soeus du bon pasteur ، وهى من أقدم المدارس وقد افتتحت فى ١٨ أغسطس ١٨٦٢ . وقد ألحق دى لسبس بها مستشفى شركة القناة فى بورسعيد والمبنى عبارة عن سكن للراهبات ومدرسة وملجأ يقبل البنات اليتيمات من أى جنسية وأي دين من ٧ إلى ١٨ سنة وتقوم تلك اليتيمات بأعمال المشغولات اليدوية والتي تعرض للبيع لصالح الأعمال الخيرية لتلك المؤسسة حيث توجد إداراتها ببلدة انجر بفرنسا^(٢٥).

وقد زار الخديو إسماعيل هذه المدارس (١٨٦٩) عند زيارته لمنطقة قناة السويس . وفى سنة ١٨٧٥ بلغ عدد الموجودين بالمدرسة ٣١ فتاة ٩ نمساويات، ٥ مصريات ٩ إيطاليات ، ٤ فرنسيات ، ٣ يونانيات وألمانية واحدة) وكانت دياتتهن : ٢٧ كاثوليكية ٢ أرثوذكسية ، ومسلمة ويهودية (إسرائيلية)^(٢٦). وكان منهج الدراسة معلومات أولية باللغة الفرنسية ومبادئ اللغة الألمانية والإيطالية والإنجليزية بالإضافة إلى دروس الموسيقى، والمعلومات العامة، وكان التعليم بالمجان . أما نفقات المدرسة فكانت تتكفل بها الراهبات من عملهن اليدوى والأطفال ، علاوة على معونة شهرية قدرها ١٠٠ فرنك من إدارة شركة قناة السويس .

وانشأت أيضا مدرسة دينية للبنات - غير اليتيمات - كان بها ٨ طالبات ، ٤ منهن بالداخلية و٤ بالخارجية وكانت الدراسة بها بالمجان ، وأنشأت أيضا مدرسة خارجية بالمصروفات عام ١٨٧٤ وأخرى بالمجان^(٢٧).

وكان يدرس بالأولى ٣٦ طالبة وبالثانية ٨ طالبات وكانت جنسياتهن : فرنسية وإيطالية ومصرية ويونانية ونمساوية ومالطية وبولندية . أما الديانات فكانت موزعة إلى: الكاثوليكية والأرثوذكسية واليهودية . وكان يدرس فى هذه المدارس نفس المناهج التى تدرس بمدرسة الراعى الصالح الدينية للآيتام . وكانت المصاريف الدراسية تتناسب ويدخل أولياء الأمور. وقد حددت المصروفات العادية بعشرين فرنكا شهريا ثم عشرة فرنكات فسبحة فخمسة^(٢٨).

ومنذ أن تأسست شركة قناة السويس، كانت هناك حاجة لإنشاء مدرسة فى منطقة القناة إذ أن السكان يعرفون اللغة الفرنسية لأنها كانت لغة شركة القناة، فتقرر إنشاء مدرسة بها، وقد دخل الفرير بورسعيد فى مارس ١٨٨٧ ، وكان عددهم ثلاثة إخوة.

والتجأ الفرير إلى دير الآباء الفرنسيين سكان . وقد افتتحت المدرسة في مارس وكان ثمانية تلاميذ زاءوا في آخر السنة إلى أربعين ، وضمت الجنسيات الآتية : (١٢) فرنسيون ، ١١ يونانيون ، ١١ نمساويون ، ٤ إيطاليون ، ٣ مالطيون ، ٢ مصريون ، ٢ أتراك ، ١ برتغالي (٣٩). ثم افتتح المدير فصولا مجانية لأبناء العمال، وبعد مدة أصبح العدد ٦٧ بالمجان ، ٦٥ بالمصروفات ولما ضاق المكان بالتلاميذ اتفق المدير مع شركة القناة بالاشتراك مع الحكومة المصرية في ٢٠ فبراير ١٨٨٩ ، بأخذ قطعة من أرض مساحتها ٤٧٠٠م على شارع أوجيني لبناء المدرسة، وتم البناء في سبتمبر ١٨٩٠ وسميت College Saint Marie وكانت تدرس فيها اللغة الفرنسية والإنجليزية والإيطالية والعربية ومبادئ تجارية . وفي عام ١٨٩١ ابتدأت فصول ليلية للتلاميذ الذين يرغبون في تحسين لغتهم الفرنسية.

وبان الحرب العالمية الأولى غادر ستة من الإخوة المدرسة وأقيت عليها القنابل ، ثم عادت إلى نشاطها السابق بعد الحرب، وقد زارها الملك فؤاد عام ١٩٢٤ ، ومنح جائزة للمتفوقين بها (٤٠). هذا ويلاحظ أن المدارس الأجنبية كانت محل عطف ورعاية كل من الخديو سعيد وإسماعيل ومن جاء بعدهم، مما دفع الراهبات للتقدم لإسماعيل سنة ١٨٧٧ بطلب يلتصقن فيه منحهن نصيبا من الحنطة وقد أنشئ هذا الملجأ في النصف الأول من السبعينات (٤١).

وتقدمت للحكومة المصرية سنة ١٨٨٠ للإنفاق منها على الدير الذي أنشأه بيورسعيد لدراسة اللاهوت، وكانت شركة قناة السويس قد منحتهم حوالي ١٠٠٠ فرنك ، وطالبين بأن يكون تحت إشراف الحكومة . وكانت شركة قناة السويس قد طلبت بأن تكون المدرسة تابعة لها نظير دفعها ٥٠ فرنكا شهريا للمساهمة في نفقاتها . فقد قبلت الحكومة المصرية دفع منحة لهم بشرط إشرافها وحدها عليها (٤٢). وكانت محافظة بورسعيد قد طلبت من ديوان المدارس إلحاق يتيمين أوروبيين بيورسعيد بإحدى المدارس الأميرية التابعة للديوان حتى ينالا حظا من التعليم مساعدة لهما وإحسانا من الخديو (٤٣). كما أقيمت مدرسة دينية كاثوليكية باسم «مدرسة الأرض المقدسة الكاثوليكية» Ecole Catholique de la Terre Sainte.

وكان يقوم بالتدريس فيها : اثنان من إخوة الرحمة وكان بها ٧٦ كلهم من البنين كانوا كالاتى: ٢٧ إيطاليا، ١٩ فرنسيا، ١٣ نمساويا ، ٦ يونانيين، ٤ مالطين، ٤ عرب (شوام) ، ٢ أتراك ، ١ يهودى.

وكانت مناهج الدراسة تشمل تعليم اللغات الفرنسية والإيطالية ومواد الجغرافيا والحساب الذى يدرس من واقع الكتب والتاريخ المقدس والقراءة والخط والرسم والتاريخ الدينى (الكتسى) والتاريخ (٤٤).

٢- مدارس الجاليات الأجنبية:

١- مدارس الجالية اليونانية:

كان لتدفق اليونانيين على منطقة قناة السويس- كما سبق الإشارة- وبالأخص مدينة بورسعيد تصحبهم أسرهم ، ولذلك أقام لهم دي لسبس كنيسة فى بورسعيد ومدرسة أيضا لتعليم أبنائهم بها، وقام بتعيين مدرس يونانى لتعليم صغارهم، كل ذلك على نفقة الشركة وكانت هذه الجالية متضامنة، وبفضل الإيرادات التى أتى بها بيع الشموع فى الكنيسة ومن الرسوم التى دفعها التلاميذ ، كونوا صندوقا لمواجهة متطلبات إنشاء المدرسة والكنيسة.

وفى سنة ١٨٦٦ تنازل دي لسبس عن الأرض التى بنيت عليها مدرسة البنات والبنين التى أقيمت لأبناء الجالية اليونانية وذلك عرفانا لما قاموا به من أعمال للشركة وتملكتها الجالية اليونانية بالفعل^(٤٥).

وكان الغرض من التعليم اليونانى فى مصر، هو تعليم اليونانيين اللغة اليونانية والاحتفاظ بثقافة وعادات اليونانيين ، مع تزويدهم بما يؤهلهم للحياة فى مصر^(٤٦) .

ب- مدرسة الجالية الإيطالية:

قامت الجالية الإيطالية بتأسيس مدرسة لها ببورسعيد سنة ١٨٨٩^(٤٧). وقد حظيت هذه المدرسة بمساعدة وتشجيع الحكومة المصرية. كذلك أمدتها جمعية المعارف اليونانية ببورسعيد بالكتب اللازمة لتدريس أبناء الجالية اللغة العربية^(٤٨).

٣- المدارس الخاصة:

قامت الجاليات بإنشاء مدارس خاصة على نفقتهم، وقام بهذا العمل أفراد من رجال الأعمال والتعليم، نتيجة لازدياد أعداد الجاليات الأجنبية فى مصر ، أدى إلى التوسع فى إنشاء المدارس على اختلاف أنواعها لتسد الحاجة ، وكانت المدارس الأجنبية على علاقة طيبة بالسلطات المصرية ، فقد نصب إسماعيل أكبر أبنائه وولى عهده توفيق باشا راعيا للمدارس الحرة المجانية ، وكان يبعث بابنه إبراهيم باشا من وقت لآخر لشهود حفلات توزيع الجوائز فى بعض المدارس الأجنبية . كما شهد ببورسعيد نشأة المدارس الأجنبية العلمانية للبنين والبنات، فقد تم إنشاء المدرسة العلمانية الحديثة للبنين Ecole Laigue pour Garcon فى سنة ١٨٧٣^(٤٩) وكان بها ٣٧ طالبا: ٨ إيطاليين، ٨ عرب ، ٧ نمساويين ، ٥ فرنسيين ، ٣

يونانيين، ٢ مالطيين، وكانت دياناتهم كالاتى : ٣ كاثوليك ، ٧ مسلمين، ٣ أرثوذكس (يونانيين) وكانت الدراسة تشمل الاتى : القراءة والخط والجغرافيا والحساب بالإضافة إلى اللغات: الإنجليزية والفرنسية والإيطالية، وكانت الدراسة مجانية .

أما إيراداتها فكانت تبلغ حوالى ٦٠٠٠ فرنكا كانت تأتى كلها من المحفل الماسونى عن طريق الاكتتاب الاختيارى (التبرعات)^(٥٠). ويذكر البعض أن هناك مدرسة خاصة داخلية للبنات أنشأتها مدام/ شاليه Madame Challet وقد افتتحت أبوابها للدراسة فى عام ١٨٧٣ . وتم فى نفس العام وبفضل جهود ومبادرة من إحدى اللجان التى تكونت برئاسة السيد/ باكير Baker^(٥١)، والسيد / باربازا (Barbaza) ^(٥٢)، والدكتور /كوفيدو Couvidou ، والسيد / لويزيديه Loisesides (تاجر) ، والسيد / مانش Manche^(٥٣)، والسيد / ستافلر Stuffer^(٥٤)والذى قام بجمع الاشتراكات . وأنشئت المدرسة الابتدائية المجانية تحت رعاية الأمير ولى عهد مصر، وهى تشبه مثيلتها فى الإسكندرية والتحق بها عدد كبير من الأطفال الفرنسيين والإيطاليين وكانت هذه المدرسة تقع قبالة لوكاندة سميراميس ، وكانت الدراسة باللغة الفرنسية وبلغ عدد الطلبة فيها سنة ١٨٧٥ خمسة وأربعين تلميذا ، وكان يدير المدرسة إيطالى يدعى أولدرينى Oldrini . وفى عام ١٨٧٦ تم إعداد يانصيب لصالح هذه المدرسة بواسطة لجنة مكونة من زوجات رجال الأعمال^(٥٥).

وحين أتم التلاميذ الدورة الدراسية بهذه المدرسة وحصلوا على درجات جيدة، أتاح لهم ذلك الفوز بوظائف جيدة. وبعد عشر سنوات من هذا التاريخ لم تعد هذه المدرسة قائمة، فقد كانت هذه المدرسة قد شيدت بمبادرة من الماسونية والتى افتتحت محفلها الماسونى فى بورسعيد فى الخامس من نوفمبر سنة ١٨٧٨ ^(٥٦). وهناك مدرسة أخرى علمانية للبنات اسمها: «المدرسة العلمانية الحديثة» Ecole laigue Des Jeunes Filles وقد أنشئت عام ١٨٧٥ ، وبلغ عدد الطالبات بها ٣٢ طالبة جميعهن بالخارجية وكانت مواد الدراسة هى التى تدرس فى التعليم الابتدائى بالإضافة إلى اللغة الفرنسية والحساب والجغرافيا والتاريخ العام والموسيقى وفن الخياطة والدراسة بمصروفات كانت تتراوح بين ٦ و ١٥ فرنكا شهريا .

ومن هنا يتضح أن مدينة بورسعيد قد تميزت بانتشار التعليم العلمانى فيها ، كما يتضح أن مجموع الطالبات بهذه المدارس جميعا كان يفوق عدد الطلبة بها ^(٥٧). كما يلاحظ قلة عدد الطلبة المصريين إلى حد كبير ، فمن بين مجموع الطلاب وعددهم ٢٢٨ كان عدد الطلبة العرب

٢٤ فقط أى بنسبة تزيد قليلا عن ١٠٪ من مجموع الطلاب، منهم سبعة من المسلمين ، وكان نصف هؤلاء الطلبة من البنين والنصف الآخر من البنات .

كما نلاحظ أن نصف هؤلاء الطلبة العرب كانوا من غير المصريين، والأغلب أنهم كانوا من الشوام . وبالنسبة للمصريين فإننا نلاحظ أنهم جميعا من الطالبات ، وكان من بينهن طالبتان مسلمتان فقط . أى أن عدد الطالبات المصريات كان لايتجاوز ٥٪ من عدد الطلبة الأجانب ببورسعيد . ويرجع ذلك إلى أن الدراسة بهذه المدارس كانت باللغات الأجنبية فضلا عن أن الطلبة ملزمون بالتكلم بها طوال نهارهم مع أساتذتهم أو فيما بينهم، حتى بلغت نسبة الطلبة الذين يتلقون علومهم بالفرنسية حوالى ٥٥ ٪ من مجموع الطلبة فى مصر. أضف إلى ذلك أن أحوال الوطنيين الاقتصادية بالمدينة لم تكن تمكنهم من دفع المصاريف المطلوبة بهذه المدارس، فقد كان معظمهم من العاملين فى حمل الفحم وبأجور زهيدة يتقاسمها معهم شيخ الطائفة^(٥٩).

وفى عام ١٨٧٨ أنشئت مدرسة أخرى للبنات بفضل جهود الأخوات جوان Jouane والأنسة / روز Rose التى تحمل دبلوم الثانوية العليا تعاونهم الأخت تريز (Therese) وكانت كريمتا أحد رواد بورسعيد من اللاجئين السياسيين فى الجزائر ، وقد وصل مصر بدعوة من دى لسبس . ودامت مدرسة إخوان جوان هذه ما يقرب من عشرين عاما. وكان موقع هذه المدرسة مكان مطافى بورسعيد حاليا. ومن بين المدارس الحرة التى وجدت ببورسعيد - قبيل الحرب العالمية الأولى- نجد مدرسة مدام تيسيه (Teisser) والتى يصعب تجميع بيانات دقيقة عنها، لأن البيانات المتاحة متناقضة .

ففى أيام عمرها الأولى ضمت بورسعيد مدارس رياضية كان يشرف على تنظيمها وإدارتها فرنسيون وإيطاليون لم تمكث فترة طويلة نذكر منها : صالة رماية أسلحة ، وكان يديرها بروفيسور كورفيزيه (Corvisier) مدرس وأستاذ سلاح الرماية . ومدرسة أخرى للسلاح أنشئت عام ١٩٢٥ على يد السيد / لينون Linon^(٦٠) وتحت إشراف أستاذ السلاح E. Janse^(٦١).

ثانيا : التعليم الوطنى فى بورسعيد:

استمرت مدينة بورسعيد بدون مدرسة أميرية حتى نهاية الثمانينات ، فقد تأسست أول مدرسة تابعة للحكومة ببورسعيد سنة ١٨٨٩م^(٦٢) وقد أدى عدم انتشار التعليم الوطنى

بيورسعيد إلى انتشار الجهل بين الأهالى مما تسبب عنه ظهور طائفة العرضحالجية، وقد قام هؤلاء بانتخاب شيخ عليهم يعرف بشيخ الكتبة أو العرضحالجية . كما أدت كثرة الأجانب إلى الحاجة لوجود ترجمة لإيجاد تفاهم مشترك بين كل من الأجانب والإدارة المصرية والأهالى فظهرت طائفة الترجمة^(٦٣).

واقصر التعليم الوطنى لأبناء بورسعيد على الكتاتيب فقط، ويبدو أن نطاقه قد انحصر فى قرية العرب ببورسعيد حيث انتشر السكان الوطنيين .

وقد ظلت الكتاتيب كما كانت من قرون معاهد التعليم الأولى فى البلاد حيث القرآن الكريم أساس للتعليم بالإضافة إلى تعليم الصبية القراءة والكتابة. ورغم قصورها فقد وفرت جانباً كبيراً من حاجة الأمة إلى التعليم .

وقد وجدت فى بورسعيد فى أواخر الستينات وأوائل السبعينات من القرن التاسع عشر وذلك لأن وجود الكتاتيب يرتبط ارتباطاً وثيقاً بوجود العلماء أو الفقهاء أو المعلمين الذين يقومون بمهمة التعليم فيها. وكان يوجد فى بورسعيد ١٨ عالماً وفقهياً وغيرهم من المشايخ فى منتصف سنة ١٨٧٢ . وقد ارتفع عددهم فى منتصف ١٨٧٨ إلى ٢٣ شخصاً وقد باشروا مهمتهم فى تعليم الصبية من أبناء العرب ببورسعيد . وكان يوجد ثمانية مكاتب لتحفيظ القرآن الكريم ببورسعيد سنة ١٨٧٧ ، وكان بها ٧٧ بما فيهم عدد المعلمين أنفسهم^(٦٤).

وهذه الكتاتيب يمكن أن نطلق عليها اسم (كتاتيب المدن) طبقاً لللائحة رجب ١٢٨٤ والتي كان يكتفى بها تعليم القرآن الكريم والقراءة والكتابة ثم أضيف إليها مادة الحساب قصرته على «باب العدية» أى الأعداد وكان ذلك أهم تجديد فى الكتاتيب . كما قررت اللائحة أن يكتفى فيها بالمؤدبين والعرفاء. على أن يكون تعيينهم من اختصاص ديوان المدارس بالمشاركة مع العمدة وعمد الجهة . وليس هناك ما يؤكد تدخل ديوان المدارس فى تعيين الفقهاء والعرفاء بهذه الكتاتيب ، مما يعنى أن اختيارهم كان قاصراً على العلماء فى بورسعيد ، ويبدو أن ذلك استمر حتى سنة ١٨٧٨ م على الأقل على الرغم من صدور دكرتو فى ١٨٦٩ يجعل كل كتاتيب القطر تحت تفتيش وملاحظة نظارة المعارف العمومية وزاد عدد الكتاتيب فى بورسعيد إلى تسعة مكاتب سنة ١٨٧٨ وكان يدرس بها ٣١٠ تلاميذ وهذا يعنى أن هناك إقبالا من الوطنيين ببورسعيد على تعليم أبنائهم فى هذه المكاتب لعدم وجود مدارس أميرية ولعجزهم عن تعليم أبنائهم بالمدارس الأجنبية بالمدينة أو الرغبة فى تعليم أبنائهم القرآن الكريم^(٦٥).

كما يتضح أن متوسط عدد التلاميذ بكل مكتب من مكاتب بورسعيد يزيد على ٢٤ تلميذا ، فإذا كان السكان العرب بها ٢٨٥٤ شخصا فإن متوسط عدد الأهالي للمكتب الواحد ٤٢٨ شخصا ويكون عدد التلاميذ من كل ألف شخص ببورسعيد . ورغم حداثة بورسعيد فإننا نلاحظ تفوقها في نسبة التلاميذ الذين يتعلمون في الكتاتيب عنها في سائر البلاد . فمثلا بلغت النسبة في القاهرة ٢٦ في الألف وأيضا في الإسكندرية ٢٦ في الألف و ١١ في الألف في مديرية قنا .

ويمكن ترتيب المحافظات والمديريات بنسبة انتشار التعليم فيها وفق الجدول التالي (٦٦):

النسبة	المحافظات والمديريات
٨٠ في الألف	بورسعيد
٧٥ في الألف	الإسماعيلية
٥٢ في الألف	السويس
٤٢ في الألف	دمياط
٣٥ في الألف	المنوفية
٣٤ في الألف	الغربية
٣٢ في الألف	الشرقية
٢٧ في الألف	البحيرة
٢٧ في الألف	القليوبية
٢٦ في الألف	القاهرة
٢٦ في الألف	الإسكندرية
٢٦ في الألف	الدقهلية
٢٥ في الألف	بنى سويف
٢١ في الألف	جرجا
٢٠ في الألف	الجيزة
١٩ في الألف	أسيوط
١٨ في الألف	إسنا

وفى مطلع القرن العشرين (١٩ يونيو ١٩٠١) تم الاحتفال بوضع حجر الأساس لمدرسة الواصفية ببورسعيد بحضور محافظ بورسعيد^(٦٨) وتوات الجمعية الخيرية الإسلامية الصرف عليها وهى مدرسة ثانوية وتهدمت هذه المدرسة فى مارس ١٩٩٧^(٦٩).

محو أمية الجنود وضباط الصف ببورسعيد :

فى سبتمبر ١٨٧٠ صدر أمر كريم إلى ديوان الجهادية بعدم ترقية الضباط الصف الذين يجرى امتحاناتهم لترقيتهم إلا بعد التأكد من معرفتهم القراءة والكتابة.

وتنفيذا لهذا الأمر فقد صدر أمر ناظر الجهادية فى أواخر ديسمبر ١٨٧٢ بضرورة تعليم جميع العساكر بالمحافظة من مستحفظين وبوليس وعساكر الطلبة القراءة والكتابة، وكان رؤساء العساكر هم الذين يقومون بهذا العمل كما تم توزيع بعض الكتب الهجائية على بعض هؤلاء العساكر.

وكان الخديو يهدف إلى تقدم أفراد وصفوف العساكر فى هذا التعليم . ولم يقتصر تعليم العساكر اللغة العربية قراءة وكتابة فقط بل شمل أيضا تعليم الجاوشية البلدية أبناء العرب ببورسعيد اللغة الإيطالية من كتاب مترجم عن اللغة الإيطالية باسم (النخبة الترجمانية فى اللغة التليانية) وقد اتضح أن عدد هؤلاء الجاوشية ٣٢ شخصا منهم ٦ فقط يجيدون القراءة والكتابة و٨ لهم إلمام بها والباقيون أميون^(٧٠). وهذا التعليم وهو (محو الأمية للجنود والشرطة) مازال معمولاً به حتى الآن.

طائفة أهل العلم :

ارتبط ظهور مكاتب تعليم القرآن الكريم ببورسعيد بوجود العلماء وإقامتهم بها، كما أدى إلى ظهور طائفة خاصة بهم هى «طائفة أهل العلم الشريف وحملة القرآن الحنيف»، بل وتعددت الطرق الخاصة بهم. وقد قاموا بانتخاب الشيخ أبى الحسن^(٧١) شيخا على طائفة أهل العلم الشريف وحملة القرآن الكريم . وقد صدقت المحافظة على انتخابه لأهليته وصلاحيته ولياقته بهذه الوظيفة^(٧٢).

كذلك نجد أن الخديو إسماعيل قد أمر بربط ٧٠٠ قرش بالأوقاف لوظيفة معلم اللغة العربية بمدرسة الأوروبيين ببورسعيد ، وأمر بشراء كتب أجرومية قدرى بك للمدارس اليونانية ببورسعيد^(٧٣).

فى أعقاب الاحتلال الإنجليزي لمصر ..

الدعوة لتعلم الإنجليزية ونبذ اللغة الفرنسية :

فى أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر كانت اللغة الإيطالية هى اللغة الأوربية الأولى ذات النفوذ فى مصر ، وبعد الحملة الفرنسية على مصر سنة ١٧٩٨ وانفتاح مصر على أوروبا وإرسال البعثات لفرنسا نمت اللغة الفرنسية وتراجعت أمامها اللغة الإيطالية وفقدت الثقافة الإيطالية مكانتها فى مصر وحلت محلها الثقافة الفرنسية . وبعد الاحتلال البريطانى لمصر ١٨٨٢ كانت هناك دعوة لتعلم اللغة الإنجليزية ونبذ اللغة الفرنسية، وقد قامت سلطات الاحتلال البريطانى بإنشاء ثمانية عشر مدرسة إنجليزية بمصر فى كل من القاهرة والإسكندرية وبورسعيد والسويس^(٧٤).

وعلى الرغم من محاولات سلطات الاحتلال البريطانى إحلال الثقافة الإنجليزية محل الثقافة الفرنسية فإنه لم يستطع أن يقف أمام التعليم الفرنسى فى مصر ، فقد كانت اللغة الفرنسية معروفة فى الأوساط العالية والطبقة الوسطى أيضا، وكانت اللغة الفرنسية رئيسية فى المدارس الإيطالية والفرنسية واليهودية بأعداد مدارسها الكبيرة ، بينما اقتصرَت اللغة الإنجليزية على المدارس الأمريكية والإنجليزية فقط^(٧٥).

ونجد صحيفة المقطم^(٧٦) تندد باللغة الفرنسية ، مستشهدة بأن أهل القطر المصرى وغيره من الأقطار الشرقية من أقاصى الهند واليابان راغبون فى تعلم اللغة الإنجليزية لأنها على حد قولها «لغة أوسع الأمم تجارة وأرقاهم علما وتمدنا وأكثرهم عددا» وتستطرد الصحيفة بقولها «إن الصحف المتفرنسة تندد بنظارة المعارف لأنها زادت عدد معلمى اللغة الإنجليزية، ولو نظرت هذه الجرائد فى حقيقة هذه الزيادة وبينت أسبابها وأثبتت أنها تفوق المطلوب لوجب لها الشكر»^(٧٧).

كما تدعو الصحيفة الشعب المصرى إلى إتقان اللغة الإنجليزية بعد أن تقرر أن تكون من جملة اللغات الرسمية التى يتوقع بها فى المحاكم المختلطة . وأكدت الصحيفة «أن اللغة الإنجليزية قد انتشرت سريعا فى هذا القطر حتى لقد عنى أكثر أبناء الأعيان بتعلمها وصارت مما لا يستغنى عنه فريق كبير من المصريين . وإذا دامت الحال على هذا المنوال فلا تمضى بضع سنين حتى تعم، لذلك فالحكيم من استعد للانتفاع بها قبل أن يسبقه غيره إلى منافعها»^(٧٨).

وعلى أية حال فقد تعاظم التغلغل الثقافى الأجنبى فى بور سعيد ونشط من خلال الحركات النشطة للجمعيات التبشيرية الأجنبية- التى حرصت كما رأينا على افتتاح العديد من المدارس التى توفر تعليمًا يسير على نهج البلدان الأجنبية التى تنتمى إليها هذه الجمعيات. وتعتبر فرنسا وإنجلترا والولايات المتحدة الأمريكية أهم البلدان التى وفدت منها الجمعيات التبشيرية، علاوة على مدارس الأقليات الأجنبية والمدارس الخاصة أيضا.

ولم يقتصر الأمر على التوسع فى إنشاء المدارس الأجنبية وإنما تجاوز ذلك إلى فرض محتوى تعليمى يؤكد تبعية من يمثلونه من الطلاب للثقافة الأجنبية ، ويرتّب على ذلك إضعاف روح الانتماء إلى الوطن وإضعاف الإلحاح بالهوية المتميزة لشعبنا فكان التعليم فى المدارس الفرنسية فيما بين الحربين العالميتين نسخة مطابقة للتعليم الفرنسى، وأن جميع التلاميذ فى هذه المدارس أجانب وسوريين ولبنانيين كانوا يعرفون بشكل جيد شارلمان وجان دارك ولويس الرابع عشر ، فى الوقت الذى يجهلون فيه أبسط المعلومات عن هارون الرشيد أو رمسيس الثانى. وفى كتب التاريخ التى كانوا يدرسونها ، يتعلمون أن سكان بلاد الفال هم أجدادهم^(٨٠).

ولم يهمل الإنجليز أيضا الممارسات الثقافية الرامية إلى تأكيد هيمنتهم فقد طبعوا مدارس التعليم الحديث بطابع الثقافة الأنجلو سكسونية وجعلوا لغة التعليم فى مدارس مصر الحكومية هى اللغة الإنجليزية ، ليكونوا طبقة من المتعلمين تفكر كما يفكرون ويحققون من خلالها مصالحهم السياسية ، وفى مقابل ذلك مارس الفرنسيون هيمنتهم الثقافية بفضل مدارسهم التى تزايد أعدادها وتطابقت مناهجها مع المدارس الفرنسية.

وهكذا أصبح التعليم فى المدارس الحديثة التى تديرها الدولة وتلك التى تخضع للجاليات الأجنبية أداة غزو ثقافى تعمل على تأكيد الانتماء للغرب ومن ثم قبول هيمنته على مقدرات شعبنا^(٨١).

زوال التعليم الأجنبى (١٩٥٦)

تعرضت بورسعيد لعدوان سافر فى عام ١٩٥٦ وهو العدوان الثلاثى (إنجلترا وفرنسا وإسرائيل) وكان ذلك إيذانًا بالقضاء على التعليم الأجنبى فى مصر، ويعترف أحد الكتاب الفرنسيين المعاصرين بقوله «كانت كارثة للنفوذ الثقافى الفرنسى، فقد تم الاستيلاء على

المنشآت الست الخاصة بالبعثة العلمانية التي كانت تعلم عشرة آلاف و ٥٥٠ تلميذا سنويا . وتحولت مدارس اليسيه إلى مدارس «الحرية» مثلما تحولت كليات فيكتوريا الإنجليزية إلى مدارس «النصر» وحرمت هذه المدارس من مدرسيها الفرنسيين وأصبحت تابعة للجنة حكومية^(٨٢).

«في ساعة واحدة يوم ٣١ أكتوبر ١٩٥٦ فقدت فرنسا نفوذا نسجته بأناة خلال قرن ونصف». وعلى ضفاف النيل أصبح اسمها موضع سخيرة وتقوضت حظوتها^(٨٣).

ويمثل القانون رقم ١٦٠ ولائحته التنفيذية الصادرة في ١٧ مارس ١٩٥٩ نهاية التعليم الأجنبي في مصر بشكل عملي.

الصحافة في بورسعيد :

أولاً- الصحافة الأجنبية:

جانب آخر من النشاط الثقافي تمثل في الصحافة الأجنبية في بورسعيد : الفرنسية واليونانية والإيطالية ، وقد شملت مواد إخبارية وتجارية وإعلامية وفنية وسياسية وأدبية . وكانت غالبية الصحف الفرنسية تذكر منها:

١- صحيفة Le Journal du Canal وصدرت عام ١٨٦٧ وطبعت في بورسعيد وكانت تدافع عن مشروع دى لسبس ضد الهجمات التي تشنها الصحافة الإنجليزية على مشروع القناة وكان يديرها الأب مول Le Pere Moll. وذاع صيت هذه الصحيفة فكانت تنشر وتقرأ في العالم أجمع^(٨٤).

٢- صحيفة Journal de Port- Said وقد أصدرها ج باربيير J. Barbier سنة ١٨٧٠ ، وهي صحيفة أسبوعية من أربع صفحات بحجم متوسط، وقد أوقفت بناء على أمر الحكومة المصرية في أواخر فبراير ١٨٧٢ بسبب بعض المقالات السياسية^(٨٥).

٣- صحيفة Le Moniteur de Port- Said وقد أصدرها نفس الناشر : ج باربييه وصدرت في ٢٩ فبراير عام ١٨٧٢^(٨٦).

٤- صحيفة L' Avenir Commerciale de Port - Said : (أى المستقبل التجارى لبورسعيد) وقد أصدرها أ. رو E. Roux في ٢٧ يونيو ١٨٧٣ وظلت تصدر حتى عام ١٨٧٤م^(٨٧).

وقد نشرت هذه الصحيفة نقدا لاذعا للحكومة المصرية إزاء عدم اهتمامها بتعليم المصريين وانتشار الجهل بين أفراد الشعب في عددها الصادر في ٢٨ نوفمبر ١٨٧٤ وأن من واجب الحكومة تنوير الأهالي عن طريق العلم والأدب لمعاونتهم كي يتعاونوا فيما بينهم والوفاء لهم بما يلزم في هذه الحياة من الحق والحرية ، فقد كان ذلك مطمح العقول السليمة من الحكام على مر العصور، مما أدى إلى تأسيس جمعيات خيرية ومؤسسات كان من نتائجها ظهور شخصيات شهيرة ونشأة حكومات قوية وظهور أمم خلد التاريخ ذكرها، وأنه بانتشار العلم والأدب والعدل في الأمم تنهذب الأخلاق وتزداد الثروة وتسعد الشعوب .

وقد حاولت جريدة الوقائع المصرية الرد على ذلك فأشارت إلى جهود الحكومة المصرية للتصدي للجهل وأنها تسعى لتعميم التعليم بالديار المصرية^(٨٨).

٥- جريدة Le Courrier du Port - Saïd (أي رسالة بورسعيد) وقد أصدرها كل من ماريوس بيرير ، ج. سيرير Marius Perrier & J. Serrier وقد صدرت في نوفمبر وظلت تصدر حتى عام ١٨٧٧^(٨٩) وهذه الجريدة شبيهة بجريدة لافونير التي كان يحررها إميل روكس وقد تعهد السيد موريس من تلقاء نفسه بالامتثال لقانون المطبوعات ، وبناء عليه فقد أصدرت الخارجية ترخيصا له بإنشاء المطبعة والجريدة المذكورة ببورسعيد^(٩٠).

وقد اهتمت هذه الجريدة بالشئون التجارية والبحرية، وقد انتقدت الأوضاع في مدينة بورسعيد وبالأخص الأمور الصحية عندما وجهت اللوم لمستخدمي جمرك بورسعيد الذين يلقون المياه القذرة والقانورات من الدور الأعلى بالشارع الخلفي والشوارع المحيطة بمبنى الجمرك مما يسبب روائح كريهة وعفونات مضرّة بالصحة . ونتيجة لهذا النقد طلبت المحافظة من أمين الجمرك وقف ذلك لمنع نشر مثل هذه الأمور بالجريدة وكانت هذه الجريدة الأكثر انتشاراً في بورسعيد وقامت هذه الجريدة أيضا بإصدار كتاب بعنوان «رحلة عبر البرزخ» من تأليف كوفيدو H. Couvidou سنة ١٨٧٥^(٩١).

٦- جريدة لاجور سيروانس ، وقد صدرت عام ١٨٧٦ عن نفس الجريدة السابقة وكان يتولى إصدارها جاك سيرير الفرنسي Jacques Serriere وقد تخصصت هذه الجريدة بالإعلانات الخاصة بمحكمة الإسماعيلية المختلطة ومحكمة الاستئناف المختلطة بالإسكندرية^(٩٢).

٧- جريدة البسفور إيجيپسيان Le Bosphore Egyptien أصدرها ج. سيرير J. Serri- er فقد صدرت في ٤ مارس ١٨٧٨ وكانت أسبوعية ومخصصة لنشر المواد التجارية الأسيية والحوادث الأجنبية فقط وقد ذاعت هذه الجريدة وانتشرت خارج حدود مدينة بورسعيد ووصلت إلى القاهرة وأصبحت هذه الجريدة المحلية التي تصدر في بورسعيد معروفة، مما دعا صاحبها ومحررها إلى أن يجعل اسمها «البسفور المصرى» وكان ذلك سنة ١٨٨٠ (٩٣).

وقد اكتسبت هذه الجريدة شهرة وشعبية في القاهرة وبورسعيد ونتيجة لذلك طلب صاحب الجريدة التصريح له بمعالجة الشئون السياسية والإدارة على صفحات الجريدة وقد أجب لطلبه بشرط مراعاة القوانين الخاصة بالصحافة والطباعة في مصر فيما ينشره من مواد سياسية وغيرها . وبدأت في ذلك اعتبارا من يناير ١٨٨١ . وأدى ذلك إلى الارتفاع بشهرتها مما دعى سيرير إلى الإقامة بالقاهرة بمساعدة أصدقائه ، وأصبحت جريدة البسفور المصرى جريدة يومية بدلا من أسبوعية وأحدثت قدرا كبيرا من الضجة . وقد قام جيرود Giraud - محامى مدير الجريدة- بنشر عدد من المقالات المدوية ، حتى أصبح سكان القاهرة سواء من الأوروبيين أو الوطنيين من عشاقها أو من المفتونين بها، حتى أنهم قاموا بحمل جيرود على الاعناق في شوارع الأزبكية في أحد الأيام^(٩٤) وكانت مقاومة الخديو إسماعيل لصحف الرأى الفرنسية غير مجدية، فكان إذا أقدم على إلغاء صحيفة سرعان ما تظهر أخرى غيرها في الميدان وذلك لما كان لها من امتيازات تكفل لها الحماية سواء في الإنذار أو التعطيل أو الإغلاق النهائي وأجمعت الصحف الفرنسية على تشييع إسماعيل- بعد عزله - أسوأ تشييع وكانت تعبر بذلك عن رأى حكومتها في إسماعيل . وفى عهد توفيق استمرت الصحف الفرنسية في الظهور والازدياد كما استمر سيرير في جهوده في إنشاء صحف جديدة بالإضافة إلى الصحف السابقة فأنشأ صحيفة سياسية هي :

٨- صحيفة بورسعيد جورنال Port - Said Journal لتحل محل جريدة البسفور المصرى التي صدر الأمر بتعطيلها لعييبها في ذات أحد الولاة الأصدقاء . ولقد صدر العدد الأول في ٧ أبريل سنة ١٨٨١ (٩٥). وبعد عام ١٨٨٠ ظهرت صحف كان يديرها بعض الماطيين والإيطاليين^(٩٦).

٩- جريدة الفئار Le Phare والتي صدرت عام ١٨٨٩ ونشرت نعى أقدم بورسعيدى يمتلك فندق باريس الكبرى^(٩٧).

الصحافة اليونانية :

مجلة بروجريه Le Progres الأسبوعية وكانت تصدر باللغة اليونانية وقد توقفت فترة من الوقت ثم عادت إلى الظهور مرة ثانية . وكانت تخصص الصفحتين الأولى والثانية للتحرير باللغة الفرنسية ، أما الصفحتان الثالثة والرابعة فكان التحرير بهما باللغة اليونانية ، ثم انتقلت فيما بعد إلى القاهرة ، وكانت تجارية أدبية ونشر الإعلانات وكان يديرها لازاريدس Lazarides^(٩٨).

الصحافة الإيطالية :

تقدم مأمور قنصلية إيطاليا ببورسعيد في ديسمبر ١٨٦٧ بطلب إلى محافظة بورسعيد برغبة أحد الإيطاليين ويدعى موفتليين الترخيص له بإنشاء جريدة إيطالية تحمل اسم «الموستيك» وأن تكون أسبوعية تختص بنشر الأخبار والشنون التجارية وقد أحيل الأمر إلى محافظ عموم القناة للتحرير للخارجية التي رأت ضرورة مخابرة قنصل عام إيطاليا في ذلك. وقد شرع الإيطالي في إجراءات نشر الجريدة. والصحافة الإيطالية في هذه الفترة لم يكتب لها الازدهار والانتشار، ولم تشهد بورسعيد سوى ظهور صحيفة إيطالية واحدة^(٩٩).

الصحافة الوطنية في بورسعيد :

صدرت أول جريدة مصرية في بورسعيد عام ١٩١٠ وهي جريدة المؤدب كانت تتابع الأخبار والقضايا المحلية، وأفردت صفحات للثقافة والأدب، وتم إنشاء ثلاث مكاتب عامة بالإضافة إلى مكاتب خاصة كان صاحبها ينظم الاستعارة فيها مقابل اشتراكات زهيدة وهو محمد أبو النور الذي أنشأ في الثلاثينات جريدة «المستقبل» ودار نشر تحمل نفس الاسم^(١٠٠). كذلك قامت مجموعة من المثقفين بإصدار نشرة يومية هي «الانتصار» إبان العدوان الثلاثي عام ١٩٥٦ على بورسعيد ، فكانت هذه النشرة اليومية عاملاً هاماً في كسر العزلة الإعلامية، وتضمنت مقالاتها تحليلاً لأبعاد المعركة ومتابعة الأخبار، كما تضمنت إرشادات للتوعية وكشف حيل وأساليب العدو، وتوجيهات إلى أبناء المدينة بالإضافة إلى أشعار تحريضية مباشرة وبسيطة ، وظهرت أغاني السمسرية التي لعبت دوراً هاماً في تلك الفترة في تعبئة الناس بتعبيرها التلقائي ضد الاحتلال^(١٠١).

مراكز أخرى للأنشطة الثقافية في بورسعيد:

تواجدت مراكز متعددة للأنشطة الثقافية في بورسعيد تمثلت في المسرح والسينما والموسيقى والغناء والإذاعة والمتاحف والصالونات الثقافية:

المسرح الأجنبي :

وجد ببورسعيد مسرح بحري متنقل على صندل (Chaland) قبل افتتاح قناة السويس للملاحة العالمية، وكان يسير في القناة البحرية الصغيرة وعليه فرقة من الممثلين الأجانب ، يبدأون التمثيل بدق الطبول واستعمال الناي والصفارات ثم يقومون بتمثيل بعض الروايات الصغيرة^(١٠٢).

كما وجد بمدينة بورسعيد سنة ١٨٧٨م محلات للعزف والتمثيل الهزلي والغناء والبغاء^(١٠٣). وقد ذكر بعض الأجانب الذين زاروا بورسعيد أو نقلوا عن زارها وجود المسرح في المدينة^(١٠٤). وأشار بعضهم إلى أن شركة قناة السويس هي التي قامت بإنشاء المسرح وتحملت نفقات إعداده^(١٠٥).

المسرح الوطني البورسعيدى :

أنشئ في المنزل الكائن بشارع المقدس أول مسرح في بورسعيد ، ويذكر الحسيب الكيال الذي يؤرخ للمسرح في بورسعيد : «ترجع صلتى بفن التمثيل إلى العهد الذي كان فيه نخبة الهواة أمثال توفيق الطيب وحامد الصفطى وطلبة رضوان قد أسسوا سنة ١٩٢٧ فرقة رمسيس تيمنا بفرقة رمسيس للفنان يوسف وهبى، وكان الفن يومئذ مدرسة للتثقيف والترفيه على السواء. وقد أنشئ نادى رمسيس سنة ١٩٢٣ وكان يسمى بالنادى الأهلى، وهو نادى اجتماعى ثقافى خيرى غالبية أعضائه من الموظفين ، وكان مقره بالدور الأول بالمنزل الكائن بشارع الثلاثينى والمقدس^(١٠٦).

ويرجع الفضل في إنشائه للسيد محمد مصطفى علام^(١٠٧) رئيس المستخدمين بمحافظة القناة. وبدأ نشاطه التمثيلى عام ١٩٢٧ بمنزل غندر بشارع أوجينى وفى سنة ١٩٤٠ قدم بعض أعضاء نادى رمسيس استقالاتهم وكونوا ما يعرف بنادى المسرح الذى بدأ نشاطه فى مكان نادى الليرا والذى تم تصفيته أثناء الحرب العالمية الثانية ضمن أملاك الإيطاليين فى بورسعيد واشتهر باسم نادى الجمارك لأن غالبية أعضائه من موظفى الجمارك^(١٠٨).

وقدّمت جماعة التمثيل بنادى رمسيس أهم روائع أمير الشعراء أحمد شوقي (مجنون ليلي) وقد حضرها فؤاد سراج الدين (١٠٩)، وكذلك مسرحية «رصاصة فى القلب» لتوفيق الحكيم. وهكذا نشأت حركة مسرحية فى بورسعيد مواكبة للحركة المسرحية فى القاهرة وسارت فى نفس الطريق حيث قدّمت مسرحيات: سلامة حجازى ويوسف وهبى ونجيب الريحانى وعلى الكسار، حتى أن هناك ممثلين من بورسعيد تخصصوا فى أداء دور هؤلاء النجوم وأصبح ذلك جزءا من التراث المسرحى البورسعيدى. كما قدّمت مسرحيات عالمية وظهر فى فترة متأخرة قبل الثورة مسرحيات محلية تناقش هموم وقضايا محلية، وشهدت المدينة نشاطا ثقافيا من خلال هذه المؤسسات كان يدعى إليها أدباء القاهرة البارزين، واحتلت قضايا التراث مساحات كبيرة من المناقشات (١١٠).

الموسيقى والغناء الأجنبى:

فى أيام الأحادى كان يجتمع نخبة من سكان المدينة فى ميدان دى لسبس (١١١) حيث يستمعون إلى الجوقات الموسيقية التى تعزف أنغامها المختلفة، ويظلون فى ذهاب وإياب حول الميدان يحيون بعضهم بعضا برفع قبعاتهم على الطريقة الأوروبية (١١٢).

كذلك أقيمت حفلات موسيقية فى نفس الميدان (دى لسبس) بواسطة الفرقة الموسيقية الخاصة بالسفينة الحربية المصرية السقا Sakka والتى كانت قد ألفت مرساها فى ميناء بورسعيد، وكان هدفها الوحيد هى تحية تطلقها مدافعها احتفالا وترحيبا بالسفن الحربية المملوكة للدول الأجنبية عند وصولها لميناء بورسعيد، والرد عند رحيلهم بإطلاق مدافع للتحية اللائقة. وكانت هذه الفرقة مكونة من ٤٠ عازفا موسيقيا يقودهم بعصاه مايسترو مصرى، وعلى الرغم من سفر السفينة المصرية السقا من بورسعيد ومفادرتها الميناء، فإن هذا لم يحرم المجتمع البورسعيدى من سماع المعزوفات الموسيقية حيث أنشئت التيرا سانتا Terra Santa بواسطة الأب كابوسان كليمنت Capusan Clement وبعد ذلك بفترة نظمت هذه الفرقة تحت اسم جديد هو «الليرا» Lyra بعد إنذارها والغائها لأنها ساهمت بالعزف فى جنازة أحد الماسونيين (١١٣).

وفى حديقة واصف (١١٤) كان يتوسطها كشك موسيقى مخصص للسيدات والأطفال (١١٥) ويبدو أنه كان هناك أكثر من مكان أو محل لسماع الموسيقى، فإلى جانب كشك الموسيقى كان هناك نادى تقام فيه الاحتفالات، وكان به بيانو فى مكان آخر كانت الموسيقى العسكرية تعزف فيه وكان يحضر لسماعها الأجانب والوطنيون.

الموسيقى والغناء الوطنى:

إن دراسة الفن الشعبى فى بورسعيد والذى يتمثل فى الغناء يعد مدخلا هاما لدراسة عناصر المقاومة لدى الشخصية بورسعيدية ، وهى تبدأ بأغاني «الضمة بورسعيدية» والتي يؤكد شيوخ الغناء فى المدينة أنها بدأت مع حفر قناة السويس ، فبعد يوم من العمل الشاق تحت سياط السخرة والعشرات يتساقطون يوميا أثناء الحفر، وخليط من البشر جاؤا من محافظات مختلفة من مصر لا يكاد أحدهم يعرف الآخر، يواجهون مصيرا مجهولا كانت الذاكرة تأبى أن تستجيب لنداء الأجسام المنهكة لتخلد إلى الراحة ساعتها فقط يتذكرون أنهم بشر وأن لهم ماضى وحياة كانوا يحنون إليها ، يجلسون على أبواب الخيام يقول أحدهم للآخر: «ضم علينا» أى انضم لنا ويبدأون بسرد ذكرياتهم ... الأماكن التي جاؤا منها ثم يغنى كل منهم أغنية من قريته، ويدور الغناء فى الحلقة حسب ترتيب الجالسين . ومع الوقت أخذت أغاني الضمة تكتسب تقاليد الأداء بحيث أصبحت فى النهاية تؤدي كطقس غنائى ، يبدأ أحد الجالسين بافتتاح الغناء الذى يكون عادة إما بموال أو أبيات غزل أشبه بالنسيب ، ثم يأتى الدور على الذى يليه فيغنى مقطع بلحن معين ، ثم يغنى الذى يليه مقطعا آخر على نفس اللحن، وهكذا حتى يصبح دور غناء شارك فيه جميع الجالسين (١١٦).

وبعد ذلك تطور الأمر وكان الجالسون يتبارون فى ارتجال الكلمات وينظمونها فى أبيات مع إيقاع اللحن ويسمى ذلك تطور الأمر وكان الجالسون يتبارون فى إرتجال الكلمات ، وينظمونها فى أبيات، مع إيقاع اللحن ويسمى ذلك : «الدور المقسم».

وقد ورثت الأجيال التالية «الدور المقسم» ليس كمجموعة أغاني وإنما كأغنية واحدة، ولكنها تضم ملامح شتى من مختلف أنحاء مصر.

وشهدت حلقات الضمة فيما بعد غناء التراث الغنائى المصرى والعربى من الموشحات القديمة وشعر التصوف الإسلامى. وكان يستعان بوسائل بدائية قديمة وبسيطة لضبط الإيقاع. وأغاني الضمة تسجل لنا بداية التفاعل بين السكان الجدد الذين وفدوا على بورسعيد من أماكن شتى فانتج مجموع الأصوات صوتا واحدا، خرج به أولئك الناس من الحدود الفردية الضيقة إلى نطاق الجماعة، حيث ظهر الغناء كاستجابة لتفاعل الأفراد فيما بينهم وتفاعلهم مع الواقع المحيط به من ناحية أخرى .

السَّمْسَمِيَّة :

ظهرت آلة السَّمْسَمِيَّة لأول مرة في بورسعيد حوالى الثلاثينات من القرن العشرين واستطاعت هذه الآلة الموسيقية الشعبية البسيطة، أن تطلق فنون الإبداع الشعبى تبلور الوجدان الجماعى لسكان المدينة، وهى تشبه إلى حد كبير آلة الطنبور المنتشرة فى النوبة والصعيد، والتي تطورت بدورها عن آلة الهارب الفرعونية ، ولكنها أصغر حجما من الطنبور وهى تنتسب إلى أبناء النوبة من الوافدين إلى المدينة. لكن مما ساعد على إنتشارها هو بساطتها فى العزف ولها سلم موسيقى غير مدون ، كذلك بساطة الخامات المستخدمة فيها، بحيث يتاح لأى فرد أن يقوم بصنعها باستخدام بعض العصى والأسلاك وطبق معدنى من أطباق الطعام^(١١٧).

وأغاني السَّمْسَمِيَّة تفيض بوصف الحياة اليومية التى تمثل أغاني العمل مساحة كبيرة منها، وهى تعطى المهاجر البورسعيدى من قرى مصر الجسارة فى مواجهة البحر، فهى أحيانا أشبه بترانيم للقتاة مصدر عيشه ، وهو يروض بها البحر، كما يثار لنفسه من خلالها ممن يضعون العقبات أمامه ، فهى أشبه بالتميمة التى كان يحملها الإنسان الأول أو التعويذة التى يتلوها للتغلب على قوى الطبيعة . وتبرز من خلال أغاني السَّمْسَمِيَّة ملامح الشخصية البورسعيدية التى يعتبر البمبوطى والصيد محورين أساسيين فيها .

ويتم غناء السَّمْسَمِيَّة فى جماعات تسمى «الصحبية» ويصاحبها الرقص الذى يتميز باللياقة والرشاقة ويمثل شريحة يوم كامل فى حياة البمبوطى أو الصياد^(١١٨).

كما ظهرت خلال فترة الاحتلال الإنجليزى الأغاني الوطنية التى عبأت الناس ضد الاحتلال والوجود الأجنبى، وربطت ذلك بالملاحقة اليومية له وقطع سبل عيشه .

وتحولت مشاعر الغربة (التى عانى منها جيل الآباء فى أغاني الضمة أحيانا) إلى مشاعر اغتراب لدى جيل الأبناء من فنانى السَّمْسَمِيَّة نتيجة لهذا الاحتلال^(١٢٠).

وليس أبلغ هنا من صوت ابن البلد البورسعيدى وهو يشدو تحت وابل القنابل ليسمعه العالم كله بهذه الأغنية :

«إيدن و بن جوربون وجومولييه

جايين يحاربونا على إيه

هو القتال ده فى أراضيهـم

ولا إحنا خدناه منيهـم»^(١٢١)

السينما :

وجدت ببورسعيد العديد من دور العرض السينمائي الأجنبي والعربي، فعلى سبيل المثال نجد سينما باتيه Pathe والتي أنشأها الأخوان مانولى وبنى تروفيلدس وبعد ذلك أطلق عليها اسم «سينما ماجيستك».

وتوضع محاضر مجلس بلدى بورسعيد^(١٢٢) أن محمد أفندى عثمان صاحب «سينما عثمان» تقدم للمجلس بتصريح له ببناء غرفة تحت البواكى لوضع ماكينة السينما توغراف ، وعرفت بعد ذلك بـ سينما ، ومسرح الكزموغراف المصرى، والتي ظلت تذكرة الدخول لها إلى ما قبل هدمها تقل عن القرش صاغ بعليم واحد ، حتى لاتخضع للضرائب .

وكان الكثير يدخلونها مجانا . وفى أول عهدها كانت تستضيف فرق القاهرة أمثال سلامة حجازى وجورج أبيض ونجيب الريحانى وعلى الكسار وأمين صدقى^(١٢٣).

كذلك نجد أن صالة الفرقة الموسيقية «مارجيتا» تحولت إلى سينما ريو^(١٢٤) وقد تم إنشاء عدد من دور السينما فضلا عن التى أنشأها الأجانب ووصل عدد دور العرض السينمائي ١٥ دارا للعرض^(١٢٥).

الإذاعة :

أنشاء كامل محمود فى فبراير ١٩٣٠ استوديو لأول إذاعة أهلية فى بورسعيد تحت اسم «محطة أمير الصعيد» بلغ تكاليف إنشائها ٢٠٠ جنيه، وهى محطة لها موجة ترددية على الهواء مباشرة وعلى موجة متوسطة طولها ٩٠ كيلو سيكل، وكان يعتمد فى تمويلها على الإعلانات التجارية لمختلف الأنشطة للأفراد والشركات وأيضا للمناسبات والحفلات للمصريين. وكان سعر إذاعة الإعلان قرشين لمرة واحدة، ولمدة دقيقة، وخمسة قروش للإعلان ثلاث مرات منها مرتان خلال فترة المساء والسهرة ، وكان الاشتراك فى تلك الإذاعة بمبلغ عشرة قروش شهريا ، ويمكن للمشاركة الاستماع لاسطوانة واحدة يوميا لأحد مشاهير الطرب والغناء فى ذلك العصر مثل محمد عبد الوهاب وصالح عبد الحى ومنيرة المهدية والأنسة أم كلثوم .

وكانت البرامج اليومية دينية وثقافية وأدبية ورياضية ، ويبدأ إرسال الفترة الصباحية فى السادسة صباحا بتلاوة آيات الذكر الحكيم يليه رأى الدين لأحد العلماء ، وتستمر الفترة الصباحية حتى الثانية بعد الظهر. أما الفترة المسائية وتبدأ فى الخامسة وتنتهى عند منتصف

الليل وتختتم بالسلام الملكى. وكانت هذه الإذاعة تبث إرسالها لمدن القناة الثلاث بالإضافة إلى دمياط . وكانت المذيعه حياة عارف تتولى إذاعة الفترة الصباحية، أما المذيع خليل جويد فيتولى الفترة المسائية.

وفوجئت جميع محطات الإذاعة الأهلية بالقطر المصرى بإصدار من وزارة المواصلات بأن توقف هذه الإذاعات إرسالها فى يوم ٢٩ مايو ١٩٣٤ لتبدأ الإذاعة الحكومية المصرية أول إرسال لها يوم الخميس ٣١ مايو عام ١٩٣٤ بصوت المذيع يقول «هنا القاهرة» (١٢٦).

المتاحف :

رأت البلدية ببورسعيد أن تعمل على إنشاء متحف ببورسعيد تمده مصلحة الآثار بمختلف الآثار المصرية لتكون منه نموذجا مصغرا لآثار مصر عبر العصور الفرعونية والإسلامية والقبطية كما يشمل معرضا للوحات الزيتية من صنع فناني مصر وآخر زراعيًا لمختلف منتجاتها الزراعية (١٢٧).

وعلى ناصية شارع النصر نجد منزل رزق الله وهذا المنزل ارتبط بإنشاء أول متحف فى تاريخ بورسعيد ففى جلسة ٢٠ مايو سنة ١٩٢٢ عرض رئيس المجلس البلدى (المحافظ محمود صدقى بك) رغبة مصلحة الآثار المصرية فى مد المجلس البلدى (بالانتيكات) اللازمة للمتحف المزمع إنشاؤه بالدور الأرضى فى منزل (الخواجه) رزق الله وبجلسة ٨ يوليو ١٩٢٢ وافق أعضاء المجلس البلدى على طبع دليل باللغات : العربية والإنجليزية والفرنسية وبجلسة ٥ مايو سنة ١٩٢٣ المنعقدة برئاسة المحافظ (حسن مظلوم بك) وعلى أثر افتتاح المتحف ثم تعيين لجنة إدارية برئاسة رئيس المجلس سعادة حسن مظلوم بك وعضوية مهندس مصلحة الآثار وأعضاء المجلس البلدى والمسيو سيمونينى والدكتور سكوفيلو وإبراهيم أفندى لهيطة والدكتور على أفندى البحراوى.

وبجلسة ٨ سبتمبر ١٩٢٣ تليت المذكرة التالية (أن كثيرا من السياح يجدون أن أجرة المتحف هى خمسة قروش كثيرة جدا فلا يدخلونه ومن جهة أخرى فإن التراجمة يهملون عمدا إرشاد السياح إلى المتحف لأنهم يفضلون الذهاب بهم إلى المحلات التى تعطى للتراجمة عمولة، فقرر القومسيون أن تخفض أجرة الدخول إلى قرشين ونصف أو ستة بنسات ، وأن تعطى للتراجمة مكافأة) (١٢٨).

ولم يستمر المتحف طويلا فى منزل رزق الله، إذ نقل إلى أول شارع النهضة بمبنى الغرفة التجارية(١٢٩).

الصالونات الثقافية والفنية:

أولا - الأجنبية :

عند تقاطع شارع دى لسبس بشارع فرعون (١٣٠) يقابلنا «مقهى اللوفر» وأعله نادى الجالية الفرنسية، التى كان لها نشاط فى الاحتفالات والندوات والمحاضرات، فنظمت محاضرة لأمين متحف اللوفر بباريس (الأب دو بورجيه) Pere du Bourget عن التاريخ المصرى القديم بصفة عامة والفن المصرى القديم بصفة خاصة ، وكذلك النسيج فى العصر القبطى، وتخلله عرض بالشرائح الزجاجية الملونة عن روائع الفن المصرى القديم ، الموجود بمتحف اللوفر بباريس (١٣١). كذلك نجد نادى الرابطة الفرنسية Alliance L' Francaise ، وكان عميد الجالية الفرنسية طبيب الأسنان د. جوتير (Dr. Gautier) وكان لهذه الرابطة نشاط ثقافى راقى، فكانت تنظم المحاضرات وتقيم المعارض فمثلا فى ٢٠ مارس ١٩٥١ افتتح عبد الهادى غزالى بك(١٣٢) المعرض الخاص بالرسامين الفرنسيين العالميين خلال القرن التاسع عشر . وفى ١٨ ديسمبر ١٩٥٢ ألقى البروفيسور زيوجين (Ziogien) وهو أستاذ محاضر بجامعة الإسكندرية ، محاضرة عن فلسفة الكاتب الفرنسى جان بول سارتر (١٣٣). أما بالنسبة للنشاط الثقافى للجالية الإيطالية ، فنجد أن جمعية «دانتي اليجيرى» ببورسعيد وهى إيطالية قد نظمت محاضرات كان يقوم بإلقائها الدكتور Luigi Duri وهى محاضرات فى ٩ فبراير ١٩٥٢ و ١٢ مايو ١٩٥٢ عن تاريخ بورسعيد(١٣٥).

وبالنسبة للجالية المالطية نجد أن ناديها الثقافى وكان يسمى «بالنادى المالطى» : (Mul- tese Club) وكان يقع بجوار سينما ماجستيك وكان من أشهر نوادى الجاليات الأجنبية فى بورسعيد . وعقدت فيه الندوات الثقافية وفى ٥ أغسطس من كل عام كانت هذه المنطقة تعج بجمع غفير من أبناء الجالية المالطية بالإضافة إلى لفيف من أبناء الجاليات الأخرى الذين يحضرون الاحتفال بالعيد الوطنى المالطى(١٣٦).

ثانياً - الوطنية :

وبالنسبة للنشاط الثقافى الوطنى نجد أن محل الحاج سليمان كان منتدى لأهل الفكر والدين ويضم كوكبة من العلماء والشعراء مثل : الشيخ محمود حلبة وهو الرجل الموسوعى

وعميد الصحافة البورسعيدية والشيخ معوض إبراهيم (كبير مفتشى الوعظ والإرشاد بمنطقة القناة) والأستاذ على الألفى (شاعر القناة) والحاج عبده أبو الخير (من كبار تجار الخضر والفاكهة ببورسعيد) كانوا يلتقون كل يوم لقراءة ومناقشة كتاب من كتب الدين والآداب (١٣٧).

كذلك كانت المقاهى الوطنية أشبه بصالونات ثقافية، فنجد «مقهى الاتحاد» (١٣٨)، قد افتتحه «محمد أفندى» سمي بمقهى الاتحاد نسبة إلى شعار حزب الوفد الذى كان ينادى بوحدة عنصرى الأمة ، من مسلمين وأقباط . وثبت صاحب المقهى صورة كبيرة للزعيم سعد زغلول نظرا لأن أغلب روادها من مؤسسى حزب الوفد . وكان رواد هذا المقهى من رجال الأعمال بالإضافة إلى رجال الفكر والأدب البورسعيدى كشاعر القناة على الألفى ومحمد شردى (مراسل صحيفة المصرى) والأديب عبد الهادى الحديدي. كما كانت مقرا لرؤساء النادي المصرى وعلى رأسهم الحاج عوض فقوسة (١٣٩).

وعلى أية حال يمكن لنا إيجاز الحركة الثقافية الوطنية فى بورسعيد فى الآتى:

أولاً : هذه الحركة الثقافية التى تطورت ونمت داخل المدينة كانت تسير فى راغدين: حركة المثقفين والثقافة الشعبية المحلية، كانتا تهدفان إلى تجسيد أبعاد الشخصية المحلية والقومية فى مواجهة الوجود الأجنبى وتأكيد هويتها .

ثانياً : بروز وتطور شعور المقاومة- نتيجة الوجود الأجنبى- فقد عبر عن نفسه من خلال الفنون الجماعية ذات الاتصال المباشر بالجمهور، أكثر من الفنون الفردية، إذ ظهر المسرح والأغنية الشعبية الجماعية عن باقى الأشكال الثقافية الأخرى.

ثالثاً : ارتبطت حركة المثقفين بإنشاء المؤسسات الثقافية وقد اقتبست أشكال تلك المؤسسات من الجاليات الأوروبية ، وإن كانت ذات مضامين وتوجيهات وطنية فى حين أن الثقافة الشعبية قد خلقت أشكالها الخاصة، فقد لاقت أغانى «الضمة القديمة والسلمسية» إقبالا واسعا ، فى حين أن أغانى «البيانولا» التى كانت منتشرة بالمدينة أثناء وجود الجاليات الأجنبية حتى فى المناطق الشعبية قد اندثرت برحيل الأجانب.

رابعاً: ارتبطت حركة المثقفين بالأبعاد القومية من خلال ارتباطها بالحركة الثقافية فى مصر بشكل عام وبرزت فيها الأبعاد المحلية خلال فترات الحروب وتصاعد المقاومة، فى حين أن الثقافة الشعبية التى جسدت الأبعاد المحلية كانت تبرز فيها الأبعاد القومية خلال تلك الفترات.

خامسا : لم يكن هناك انفصال بين حركة المثقفين وبين الثقافة الشعبية المحلية ومبدعيها ، حيث يوجد مبدعين يمثلون حلقة اتصال بين الجانبين، وتندرج إبداعاتهم بين استيعاب الحركة الثقافية للمثقفين والتعبير التلقائي الشعبي، وهم مؤثرون بدرجة كبيرة داخل المدينة ومنهم عدد من شعراء السمسسية وفنانيها.

العلاقة بين الأجانب والمصريين ببورسعيد:

يتحدث البعض عن صدام- الحضارات - ولكننا نجد في هذه المدينة تعايشاً للحضارتين والثقافتين الأوربية والمصرية ، جنباً إلى جنب على مدى قرن من الزمان- هي فترة الدراسة- فقد أخذت كل واحدة من الأخرى بقدر ما تسمح به العادات والتقاليد.

فقد أقام الأجانب في الحى الإفرنجى ببورسعيد ، وأقام المصريون بقرية العرب ببورسعيد، كما ذكرنا من قبل . وإذا عقدنا مقارنة بين كل من مركز الأجانب والمصريين ببورسعيد ، لوجدنا أن الأجانب قد تمتعوا بكافة الامتيازات وبحماية قناصلهم وتأيدهم. أما المصريون فكانوا في مركز يلى الأجانب الذين توفرت لهم أيضاً كافة أسباب الحياة الكريمة والرفاهية بدرجة أكبر من المصريين.

ولم يكن الأجانب يلتزمون بالقوانين والأوامر والتعليمات ، بينما نجد أن المصريين كانوا أكثر التزاماً. لذلك كان إحساس المصريين في بورسعيد أنهم مواطنون من الدرجة الثانية في الوقت الذى اعتبر الأجانب أن بورسعيد هي بلدهم لما يتمتعون به من مميزات ومكانة اجتماعية وخدمات تفوق ما يتمتع به الوطنيون^(١٤٠).

وكان الوطنى إذا أراد الذهاب لحي الأفرنج يقول لزميله : «أنا طالع حي الأفرنج»، وإذا اتجه لحي العرب يقول: «أنا نازل حي العرب».

ورغم انفصال المدينة إلى حين متميزين- كما سبق وأوضحنا- إلا أنه كانت هناك اتصالات واحتكاكات بين الأجانب والمصريين . فهناك ظاهرة زواج طبيب مستشفى بورسعيد وهو مصرى من فتاة نمساوية طبقاً للشريعة الإسلامية. وقد أثبت الطبيب في طلب الزواج موافقة الزوجة وموافقة أسرتها أيضاً.

كذلك أعلنت إحدى السيدات المسيحيات إسلامها برضاها ورغبتها. ومع ذلك لا يمكن القول أن امتزاج الأجانب والمصريين كان بصورة كبيرة ، فقد ظل المصريون وأبناء العرب يقيمون

فى قرية العرب يمارسون فيها حياتهم وعاداتهم ومعيشتهم كما كانت من قبل فى موطنهم الأصيل، بينما أقام الأجانب فى الحى الأفرنجى وعاشوا حياة شبيهة بحياتهم فى بلادهم الأصلية . وقد ظلت قرية العرب بعاداتها وتقاليدها مثاراً لإعجاب الكثير من الأجانب وخاصة السياح (١٤١).

من جانب آخر نلاحظ كثرة حوادث اعتداء الأجانب على المصريين وأبناء العرب ببورسعيد. ومن أمثلة ذلك تعدى بعض اليونانيين على جمال مصرى وعدم تسديد أجرته وكذلك التعدى على مؤذن مسجد بورسعيد وعلى بعض صغار التجار، وتعدى إيطالى على فتاة مصرية بالسكين . ولم يكن الاتصال بوكلاء القناصل يفيد بشئ لصالح المعتدى عليهم، فضلاً عن عدم معاقبة المعتدين فى ظل نظام الامتيازات الأجنبية والتسلط القنصلى .

وامتدت هذه الاعتداءات فشملت مستخدمى الحكومة المصرية من العسكريين والمدنيين، فحدثت حوادث اعتداء كثيرة من بعض اليونانيين والفرنسيين والإيطاليين وغيرهم على قواصة بورسعيد وعلى غفر السواحل وعلى مستخدمى الجمارك (١٤٢).

كما نجد أن موظفى شركة قناة السويس من الفرنسيين- فى ظل الترف الذى نعموا به- وقد اتسمت تصرفاتهم بالعنجهية والترفع إزاء المصريين (١٤٣).

ظاهرة أخرى تعثرت فى توافد أعداد هائلة من السياح الأجانب على مدينة بورسعيد، وكان بمثابة احتكاك حضارى وثقافى بين الوافدين وأهل المدينة. وهكذا أصبح ثغر بورسعيد ملتقى الأجناس البشرية من مشارق الأرض ومغاربها . فكان الممر الرئيسى ليس فقط لتجارة الشرق والغرب بل أيضاً لحركة الركاب بين الشرق والغرب (خلال فترة الدراسة) (١٤٤).

فالسفر بالسفن كان هو الوسيلة الوحيدة بين القارات حتى منتصف القرن العشرين إلى أن نافست الطائرة السفينة فى حركة نقل الركاب بين الشرق والغرب .

وكانت بورسعيد محطة رئيسية ينزل فيها الركاب من كل الأجناس ، يمضون فيها الليل انتظاراً لعبور سفنهم فى الصباح ، وكان الآلاف من الركاب يستمتعون بقضاء وقتهم فى هذه المدينة التى نافست ميناء نيويورك فى حركة السفن بها طوال العام (١٤٥).

وعندما تقترب السفينة من ميناء بورسعيد يقع نظر الركاب على أول مبنى على ناحية شارع السلطان حسين وشارع كتشنر، وهو مبنى كازينو بورسعيد الفخم ، حيث توفرت فيه

جميع أسباب الراحة. كذلك يطالعهم متجر «سيمون أرزت» وفندق «مارينا بالاس» ومكاتب شركة قناة السويس ذات القباب الثلاث واستراحة ضباط الأسطول البريطانى لشرق البحر المتوسط ومبنى قسم الميناء الجديد ببورسعيد^(١٤٦)، وفندق «أيسترن اكتستشنج» أو البيت الجديد الواقع عند تقابل شارع فؤاد الأول بشارع أوجينى^(١٤٧).

وبعد أن يخرج الركاب من أبواب الجمرك يتجهون إلى شارع الأمير فاروق الذى كان يعرف باسم «شارع التجارة» حيث يجدون أمامهم مكتب التلفراف فيتسابقون إليه لإخطار ذويهم باتجاهاتهم أو بمحمل وصولهم. وبعد ذلك يندسون فى زحام الشوارع. وهنا تجد أصحاب المتاجر وهم ينادون هؤلاء السياح بكل لغات العالم فى أبواق مضخمة للصوت، فهذا صاحب مكتبة يدعو لمكتبته باللغة الفرنسية والإنجليزية والإيطالية والألمانية واليونانية، حسب ما يتوسمه فى جنسية هؤلاء السياح.

وهذا بائع صحف يصيح بأعلى صوته مقارباً لبيع جرائده، وذاك ينادى على أنوات الكتابة وآخر على الملابس وآلات التصوير، وذلك ببيع نظارات مكبرة وهنا مصنوعات شرقية، وهناك صراف يستبدل العملة الأجنبية بعملة محلية. وبعد عبور هذا الضجيج الذى تختلط فيه جميع اللغات تصل إلى تقاطع شارع فاروق بشارع فؤاد الأول حيث توجد مشارب البيرة ومقاهى من الدرجة الأولى يستريح فيها السياح لبعض الوقت ويتناولون شيئاً من المرطبات. وتوجد فى كل هذه المقاهى فرق موسيقية تعزف أحدث الألوار الموسيقية بأشجى الأنغام جذباً للزبائن.

وتتعدد أخلاط السياح، فنجد الهندى السابح فى أحلامه وبجواره الصينى بعيونه الصغيرة البراقة وبجواره اليابانى وبجواره الطالب الأناى فى طريقه إلى جامعات باريس وبرفقتة زميله الطالب الماليزى المبعوث إلى الجامعة الأزهرية بالقاهرة.

كما تجد أيضاً السائح الأمريكى وقد أحاط به الباعة والصيارفة والأدلاء والحمالون وبجواره الأوربى المشدود أمام مناظر الشرق الآخاذة.

هنا يبدأ تعارف الشرقى بمقدمات الحضارة الغربية، ويبدأ تعارف الغربى بمقدمات الحضارة الشرقية، فتتلاشى قوة الصدمة التى تنتج عن الانتقال الفجائى بين الشرق والغرب.

تلك هى خاصة بورسعيد التى تتميز بها عن سائر المدن بعد أن أصبحت محطة أساسية للخطوط الملاحية ولخطوط سفن الركاب على وجه الخصوص^(١٤٨).

وكان ملوك مصر وأمرائها وكبار رجالاتها يفضلون السفر من ميناء بورسعيد عن السفر عن طريق ميناء الإسكندرية. فكانت أول زيارة رسمية للملك الشاب فاروق الأول ببورسعيد في ٢٧ مارس ١٩٣٧ عندما توجه لأوريا ترافقه والدته الملكة نازلي وشقيقاته الأميرات، حيث زار إيطاليا وفرنسا وسويسرا وكان في استقباله ببورسعيد محافظ القناة (محمد السيد شاهين بك) وأعيان بورسعيد^(١٤٩).

العبور الليلي للسفن في قناة السويس:

ظلت قناة السويس منذ افتتاحها للملاحة العالمية (١٨٦٩) وحتى عام ١٨٨٦ تخضع لنظام الملاحة نهاراً فقط، ولكن في عام ١٨٨٦ تم تزويد السفن بكشاف في مقدمتها Projector لينير لها الممر الملاحي ونجحت التجربة وكان ذلك بمثابة ثورة في حركة الملاحة بالقناة، وكان لذلك أثره الفعال اقتصادياً وسياسياً على مجريات الأمور، وتهدئة الصراع بين الشركة وعمالها والحكومة البريطانية بسبب التأخير في عبور السفن فقد كان المعدل الزمني لعبور السفن القناة في عام ١٨٨١ هو ٤٥ ساعة و٥٣ دقيقة، وارتفع إلى ٥٣ ساعة، ٤٦ دقيقة عام ١٨٨٢ بسبب القيود الصحية التي فرضها الحجر الصحي. وكانت السفن تفقد ١٠ ساعات فترة الانتظار الليلي، وهو متوسط الليل في مصر. إلا أنه في عام ١٨٨٦ بعد تطبيق نظام العبور الليلي بلغ المتوسط الزمني لعبور القناة ٢٠ ساعة و٤٢ دقيقة وهذا يمثل نسبة خفض قدرها ٤٢٪ من زمن العبور.

إلا أن هذا العبور السريع أثر في نفس الوقت على أصحاب الحوانيت في بورسعيد، ذلك أن ركاب السفن لم يعودوا في حاجة إلى قضاء الليل في الشرب بالميناء في انتظار العبور بالقناة. كذلك أضر بتجارة البمبوطية وزاد من الحوادث الملاحية لقوارب الأهالي^(١٥٠).

الهوامش

- ١- عبد العزيز الشناوى، السخرة فى حفر قناة السويس (عصر سعيد) ، ص ٥١ .
- ٢- فؤاد فرج ، منطقة قناة السويس ص ٢١٨ .
- ٣- Sabri, M., Bey L'Empire Egyptienne sous Ismail et L'ingerence Anglo francaise. Paris 1933 , p. 207 .
- ٤- عبد العزيز الشناوى، السخرة فى حفر قناة السويس (عصر اسماعيل) ص ٤١٥ .
- ٥- فؤاد فرج، مرجع سابق ص ٢١٨ .
- ٦- قام دى لسبس بتجميع أبناء جزيرة كاسوس اليونانية فى منطقة واحدة عرفت بحارة الكاشوتية فى جزء من شارع محمد على- راجع : ضياء الدين ، بورسعيد ص ١٤٨ .
- ٧- ضياء الدين، بورسعيد ص ٧٨ .
- ٨- ضياء الدين، بورسعيد ص ١٤٧ .
- ٩- مدير جريدة Phar Port Said .
- ١٠- ضياء الدين، المرجع السابق ، ص ١٥٨ .
- ١١- ولدت سنة ١٨١٩ وجلست على العرش ١٨٣٧ وتوفيت ١٩٠١ .
- ١٢- وهى تابعة لشركة المساجيرى ماريتيم الفرنسية.
- ١٣- Charles Roux, L'Isthme et le Canal de Suez t . 2. Paris 1901 . p. 335-336 .
- ١٤- نحات فرنسى (١٨٢٤-١٩١٠) .
- ١٥- روبرت سوليه ، مصر ولع فرنسى ص ٢٦٩ .
- ١٦- Charles Roux, t 2 . Op. cit. pp. 338-341 .
- ١٧- أحمد شفيق باشا، مذكراتى فى نصف قرن ج ٢ سلسلة تاريخ المصريين العدد رقم ٨٤ ، ص ٣١٤-٣١٥ .
- ١٨- المرجع السابق، ص ٣١٦ .
- ١٩- فؤاد فرج، مرجع سبق ذكره ص ص ٢٢٦-٢٢٧ ، وانظر الرسم بملحق الدراسة .
- ٢٠- روبرت سوليه ، مصر ولع فرنسى ص ٢٧٠ .
- ٢١- السيد حسين جلال، قناة السويس والتنافس الاستعماري الأوربي ص ص ٢٣٩-٢٤٣ .
- ٢٢- عبد العزيز الشناوى وجمال يحيى، وثائق وتصوص التاريخ الحديث والمعاصر، دار المعارف، ١٩٦٩ ، ص ٦١١ .

- ٢٣- جلسة مجلس بلدى بور سعيد فى ٢٢ / ٩ / ١٩٣٢ وكان المايجور هندسون (من الجيش الاسترالى).
- ٢٤- ضياء الدين، مرجع سبق ذكره ، ص ١٣٧ .
- ٢٥- المرجع السابق .
- ٢٦- ضياء الدين، الأطلس التاريخى. الطبعة الثالثة ، ص ١٠٥-١٠٦ .
- ٢٧- بيير سوليه ، مصر ولع فرنسى ص ٣١٨ .
- ٢٨- المرجع السابق .
- ٢٩- المرجع السابق .
- ٣٠- يعرف الآن باسم : الثلاثينى أو شارع سعد زغلول .
- ٣١- فؤاد فرج ، منطقة قناة السويس ص ٢٣٥ .
- ٣٢- ضياء الدين، مرجع سبق ذكره ص ٨٨ .
- ٣٣- مرجع سابق ص ١٤٨ .
- ٣٤- إن هذا النوع من التعليم قد بدأ لأغراض دينية بحتة ، حيث كانت البابوية تستهدف نشر نفوذها فى الشرق وفى مصر خاصة وإخضاع الأقلية القبطية الأرثوذكسية فى مصر لرياستها ، وكذلك بذلت الرسائل الدينية البروتستنتية مجهودات كبيرة لتحويل أقباط مصر إلى البروتستنتية (فى القرن التاسع عشر) . راجع جرجس سلامة، تاريخ التعليم الأجنبى فى مصر ص ١٥ .
- ٣٥- ضياء الدين، موسوعة تاريخ بور سعيد ص ٦٥ .
- ٣٦- راجع كل من : أحمد عزت عبد الكريم، تاريخ التعليم فى مصر، القسم الثانى، ص ٨٤٦ ، جرجس سلامة، تاريخ التعليم الأجنبى فى مصر ص ١٢٩ وزين العابدين، بورسعيد ص ٢٤٦-٢٤٧ .
- ٣٧- زين العابدين ، بورسعيد ص ٢٤٧ وأحمد عزت عبد الكريم ، مرجع سبق ذكره ص ٨٤٦ .
- ٣٨- زين العابدين ، بورسعيد ص ٢٤٧-٢٤٨ .
- ٣٩- سلامة جرجس، التعليم الأجنبى فى مصر ص ١٤٤-١٥٤ .
- ٤٠- المرجع السابق ص ١٥٤ .
- ٤١- زين العابدين شمس الدين، بورسعيد ص ٣٤٨ .
- ٤٢- المرجع السابق.
- ٤٣- المرجع السابق ص ٢٤٨-٢٤٩ .
- ٤٤- المرجع السابق ص ٢٤٩ .

- ٤٥- المرجع السابق ص ٢٥٠ .
- ٤٦- جرجس سلامة، تاريخ التعليم الأجنبي في مصر ص ٥٢ .
- ٤٧- زين العابدين شمس الدين، بورسعيد ص ٢٥١ .
- ٤٨- عبد الفتاح تركي وآخرون، تاريخ التعليم في مصر، ص ١٣٢-١٣٣ .
- ٤٩- زين العابدين شمس الدين، بورسعيد ص ٢٥١ .
- ٥٠- المرجع السابق ص ٢٥٢ .
- ٥١- وهو مدير البنك العثماني في بورسعيد .
- ٥٢- وهو يعمل حراف بشركة قناة السويس.
- ٥٣- وكيل ملاحى.
- ٥٤- وكيل مؤسسة اللويدز الألمانية ببورسعيد .
- ٥٥- زوجات السادة كوفيدو وفرنشيس وهاسيه وباينيه رونز برج وراثشيوتي .
- ٥٦- I , Dorini , Eltimsah . pp. 31-32 .
- ٥٧- زين العابدين شمس الدين، بورسعيد ص ٢٥٢-٢٥٣ .
- ٥٨- المرجع السابق ص ٢٥٤ .
- ٥٩- المرجع السابق.
- ٦٠- وهو مدير شركة ليبون الخاصة بالإتارة في بورسعيد .
- ٦١- I. Dorini , Eltimsah, Op. cit , p. 32 .
- ٦٢- أمين سامى ، التعليم في مصر ص ٦٦ ، ٧٩ .
- ٦٣- زين العابدين ، مرجع سبق ذكره ص ٢٥٦ .
- ٦٤- المرجع السابق ص ٢٥٩ .
- ٦٥- المرجع السابق ص ٢٥٩- ٣٦٠ .
- ٦٦- المرجع السابق ص ٣٦٠ .
- ٦٧- أحمد عزت عبد الكريم ، المرجع السابق ص ٣١٧-٣٥٤ .
- ٦٨- حسين واصف باشا الذى نسب إليه اسم المدرسة .
- ٦٩- ضياء الدين حسن القاضي ، بورسعيد ص ١١٩ .

- ٧٠- زين العابدين شمس الدين، بورسعيد من ٣٦٣ (نقلا عن وثائق القلعة) .
- ٧١- وهو إمام جامع القرية ، وهو عالم فاضل .
- ٧٢- زين العابدين شمس الدين، بورسعيد من ٣٦٣ .
- ٧٣- جرجس سلامة ، تاريخ التعليم الأجنبي في مصر من ٢٨ .
- ٧٤- إحصائية وزارة التربية والتعليم عام ٥٧ / ١٩٥٨ الملحق الإضافي ١١٠١ .
- جرجس سلامة ، أثر الاحتلال البريطاني في التعليم القومي في مصر (١٨٨٢-١٩٢٢) ، ص ٢٣٤ .
- ٧٥- R . Gault , the Conflict of French Educational Philosophies in Egypt , pp. 6-8 .
- ٧٦- وهي لسان حال سلطات الاحتلال .
- ٧٧- جريدة المقطم بتاريخ ١٥ يوليو ١٨٩٠ .
- ٧٨- جريدة المقطم في ٢١ نوفمبر ١٨٩٠ .
- ٧٩- عبد الفتاح تركي وآخرون ، تاريخ التعليم في مصر من ١٦٨ .
- ٨٠- المرجع السابق من ١٦٨-١٦٩ .
- ٨١- المرجع السابق من ١٦٩ .
- ٨٢- روبير سوليه ، مصر : ولع فرنسي، ترجمة لطيف فرج . الهيئة المصرية العامة للكتاب من ٢٩١ .
- ٨٣- المرجع السابق من ٢١٩ .
- ٨٤- زين العابدين شمس الدين، بورسعيد من ٣٦٧ .
- ٨٥- I. Dorini , Eltimsah , Port- Said après, L, inauguration du canal du Suez (1869- 1900) , p. 32 .
- ٨٦- زين العابدين شمس الدين، بورسعيد، من ٢٧٠-٣٧١
- ٨٧- I . Dori , Op. cit .
- ٨٨- زين العابدين ، بورسعيد من ٢٧٢-٣٧٣ .
- ٨٩- I. Dori , Op. cit . p. 32 .
- ٩٠- زين العابدين ، بورسعيد من ٣٧٣ .
- ٩١- المرجع السابق جرجس ٣٧٣-٣٧٥ .

- ٩٢- I. Dori , Op. cit. p. 32 .
- ٩٣- زين العابدين شمس الدين، بور سعيد ص٣٧٦-٣٧٧ .
- ٩٤- المرجع السابق ص٣٧٧ .
- ٩٥- المرجع السابق .
- ٩٦- I. Dori, Op. cit. p. 32 .
- ٩٧- Ibid .
- ٩٨- زين العابدين شمس الدين، بورسعيد ص٣٧٩ .
- ٩٩- المرجع السابق ص٣٧٩-٣٨٠ .
- ١٠٠- سهام بيومي ، الثقافة في بورسعيد من المقاومة إلى الانفتاح. مقالة في مجلة المنتدى الفكر
بيورسعيد الكتاب الثالث (مارس ١٩٩٥) إصدار كلية التربية بيورسعيد.
- ١٠١- المرجع السابق ص٥٩ .
- ١٠٢- عبد العزيز الشناوي ، السخرة في عصر إسماعيل .
- ١٠٣- دفتر ٣٧٨ وثائق عابدين رقم ٣٥٩ ، ٣٧٢ ، ٤٠٠ في ٢ ، ١١ ، ٥ صفر سنة ١٢٨٨ هـ - ٨ صفر
سنة ١٢٩٥ هـ .
- ١٠٤- زين العابدين شمس الدين، بور سعيد ص٣٨١ .
- ١٠٥- المرجع السابق ص٣٨١ .
- ١٠٦- حاليا أعلى محل أبوزكري للأسماك .
- ١٠٧- ضياء الدين ، بور سعيد ص١٦٣ .
- ١٠٨- المرجع السابق ص١٢٦ .
- ١٠٩- وزير الداخلية آنذاك.
- ١١٠- سهام بيومي، مرجع سابق ذكره ص٥١-٥٢ .
- ١١١- الآن يسمى ميدان المنشية.
- ١١٢- فؤاد فرج ، منطقة القناة ص٢٣٤-٢٣٥ .
- ١١٣- Lugi Dori, Op. cit. pp. 34-35 .
- ١١٤- نسبة إلى المحافظ حسين واصف .
- ١١٥- ضياء الدين، بورسعيد ص١٣٧ .

- ١١٦- سهام بيومي مرجع سبق ذكره ص ٥٢-٥٣ .
- ١١٧- المرجع السابق ص ٥٣-٥٤ .
- ١١٨- المرجع السابق .
- ١١٩- المرجع السابق ص ٥٤-٥٥ .
- ١٢٠- المرجع السابق ص ٥٥ .
- ١٢١- المرجع السابق ص ٩٥ .
- ١٢٢- محضر مجلس بلدى بيور سعيد بتاريخ ٢٥ يوليو ١٩٢٠ .
- ١٢٣- ضياء الدين ، بورسعيد ، ص ١٥٩ .
- ١٢٤- المرجع السابق ص ١٢٨ .
- ١٢٥- سهام بيومي ، مرجع سبق ذكره ص ٥١ .
- ١٢٦- ضياء الدين ص ١٦٢-١٦٣ .
- ١٢٧- فؤاد فرج ص ٢٤٢ .
- ١٢٨- ضياء الدين ص ١٣٦-١٣٧ .
- ١٢٩- المرجع السابق ص ١٣٧ .
- ١٣٠- راجع أسماء الشوارع القديمة وأسمائها الحالية من البحث.
- ١٣١- ضياء الدين ، مرجع سابق ذكره ص ١٥٩ .
- ١٣٢- محافظ القناة.
- ١٣٣- ضياء الدين ، مرجع سابق ص ١٢٦ .
- ١٣٤- كان والده يعمل مترجما لدى دى لسبس .
- ١٣٥- .

Lugi Dori , Op. cit . p. 28 .

- ١٣٦- ضياء الدين، بورسعيد . مرجع سبق ذكره ص ١١١ .
- ١٣٧- المرجع السابق ص ١٥٩ .
- ١٣٨- كان يقع فى شارع الهلالية .
- ١٣٩- ضياء الدين ، بورسعيد ص ١٦٣ .
- ١٤٠- زين العابدين شمس الدين، بورسعيد ، ص ٩٥-٩٦ .
- ١٤١- المرجع السابق ، ص ٩٩ .

- ١٤٢- المرجع السابق ، ص ٧٦-٧٧ .
- ١٤٣- جاك بيرك ، مصر الإمبريالية والثورة ، ترجمة يوسف شاهين ، ص ٢٣٨ .
- ١٤٤- راجع جدول حركة عبور الركاب عبر قناة السويس في فترة الدراسة في ملحق البحث.
- ١٤٥- بلغت أعداد السفن التي كانت تعبر القناة ٢٠,٠٠٠ سفينة سنوياً .
- ١٤٦- وهو جوازات الميناء حالياً .
- ١٤٧- فؤاد فرج ، منطقة قناة السويس، ص ٢٢٩-٢٣٠ .
- ١٤٨- لمزيد من التفاصيل عن الخطوط الملاحية التي تعبر قناة السويس، راجع للمؤلف كتاب: الصراع الدولي حول استغلال قناة السويس (١٨٦٩-١٨٨٣) الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٥ ، ص ٨٥-١٠٥ .
- ١٤٩- ضياء الدين ، بورسعيد ، ص ١٤٠ .
- ١٥٠- Bullétin Decadaire , No . 532 , 22 September, 1886 .

مراجع البحث

أولاً : المراجع العربية :

- ١- أحمد شفيق باشا، مذكراتى فى نصف قرن (ج٢)، سلسلة تاريخ المصريين، العدد ٨٤، الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- ٢- د. أحمد عزت عبد الكريم ، تاريخ التعليم فى مصر إسماعيل ، مكتبة النصر، القاهرة، ١٩٤٥ .
- ٣- د. السيد حسن جلال ، قناة السويس والتنافس الاستعماري الأوربي (١٨٨٢-١٩٠٤)، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، سلسلة تاريخ المصريين، العدد ٨٠ : ١٩٩٥ .
- ٤- د. السيد حسن جلال ، الصراع الدولى حول استغلال قناة السويس ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٧٩ .
- ٥- جاك بيرك، مصر .. الإمبريالية والثورة ، ترجمة يونس شاهين ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ، ١٩٨٧ .
- ٦- د. جرجس سلامة ، تاريخ التعليم الأجنبي فى مصر ، المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية ، القاهرة، ١٩٦٣ .
- ٧- د. جرجس سلامة ، أثر الاحتلال البريطانى فى التعليم القومى فى مصر (١٨٨٢-١٩٢٢)، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة (ط١) ، ١٩٩٦ . .
- ٨- روبير سوليه ، مصر : ولع فرنسى، ترجمة لطيف فرج، مكتبة الأسرة ، القاهرة ، ١٩٩٩ .
- ٩- د. زين العابدين شمس الدين نجم ، بورسعيد (تاريخها وتطورها منذ نشأتها ١٨٥٩ حتى عام ١٨٨٢)، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٧ .
- ١٠- سهام بيومى، الثقافة فى بورسعيد ، الكتاب الثالث، كلية التربية ببورسعيد ، مارس ١٩٩٥ .
- ١١- ضياء الدين حسن القاضى، موسوعة تاريخ بورسعيد ، ط١ ، مطبعة المستقبل ببورسعيد ، ١٩٩٧ .

١٢- ضياء الدين حسن القاضي ، الأطلس التاريخى لبطولات شعب بورسعيد عام ١٩٥٦ ، ط٣ ، مطبعة المستقبل ببورسعيد .

١٣- د. عبد العزيز محمد الشناوى، السخرة فى حفر قناة السويس (عصر سعيد) منشأة المعارف بالاسكندرية ، ط٣ ، ١٩٦٦ .

١٤- د. عبد العزيز محمد الشناوى، السخرة فى حفر قناة السويس (عصر اسماعيل، ١٩٥٢) .

١٥- د. عبد العزيز محمد الشناوى ، د. جلال يحيى ، وثائق ونصوص - التاريخ الحديث والمعاصر ، دار المعارف ، ١٩٦٩ .

١٦- د. عبد الفتاح إبراهيم تركى وآخرون ، تاريخ التعليم فى مصر، مطبعة جامعة طنطا ، (بدون تاريخ) .

١٧- د. عمر عبد العزيز عمر ، تاريخ مصر الحديث والمعاصر (١٥١٧-١٩١٩) ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية، ١٩٩٧ .

١٨- فؤاد فرج ، منطقة قناة السويس (المجلد الثانى) ، مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر ، ١٩٩٤ .

ثانياً - المراجع أجنبية :

- 1- Charles Roux , L'isthme et la Canal de Suez T.2, Paris 1901 .
- 2- R. Gault , The Conflict of French Educational Philosophies in Egypt.
- 3- Sabri, M. Bey , L'Empire Egyptienne sous Ismail et Ingerence Anglo-Francaise , Paris , 1933 .

ثالثاً : دوريات عربية :

- جريدة المقطم .

رابعاً - دوريات أجنبية :

- 1- Eltimsah , Lugi Dorini , Port Said après L'inauguration du Canal du Sues. (1869-1900) .
- 2- Le Canal De Suez, Bulletin Décadaire de la Compagnie Universlle du Canal Maritime de Suez.

ملاحق البحث

بيان بأسماء شوارع بورسعيد القديمة والأسماء الحديثة

الأسماء القديمة	دلالاتها	الأسماء الحديثة
Rue Des Dames	شارع السيدات	شارع ممفيس
بوليفار دى بورت *	شارع الميناء	شارع فؤاد الأول وحاليا شارع الجمهورية
شارع البولانجيرى	شارع المخابز	شارع القسطنطينية
شارع لاسيرى	شارع ورشة الخشب	شارع رمسيس
شارع دى سيركل	شارع الدائرة أو شارع النادي	شارع فرعون
شارع ارسينال	شارع الترساة	شارع اسماعيل
شارع اوجينى	(امبراطورة فرنسا)	شارع صفية زغلول
دولا ديفيزيون	شارع التفتيش أو القسم	شارع سعيد
شارع بابل	لم يتغير	شارع بابل
شارع التجارة	_____	شارع فاروق وحاليا النهضة
كيه دى نورد	الرصيف الشمالى	شارع دى لسبس وحاليا سعد زغلول
كيه دى سيد	الرصيف الجنوبى	شارع الإسكندر الاكبر
ميدان دى لسبس	_____	ميدان سعد زغلول

* هذا الشارع هو الشارع الرئيسى بالمدينة وأسماء الفرنسيون هكذا ليذكروهم بمدينة مرسيليا .

(حركة الركاب في قناة السويس)

(١٨٧٠-١٩٥٤)

السنة	عدد الركاب	السنة	عدد الركاب	السنة	عدد الركاب
١٨٧٠	٢٦,٧٥٨	١٨٩٨	٢١٩,٥٥٤	١٩٢٦	٢٨٦,٤٣٢
١٨٧١	٤٨,٤٣٢	١٨٩٩	٢٢١,٣٣٢	١٩٢٧	٢٤٠,٣١٨
١٨٧٢	٦٧,٦٤٠	١٩٠٠	٢٨٢,٥١١	١٩٢٨	٢١٧,٧١٨
١٨٧٣	٦٨,٠٣٠	١٩٠١	٢٧٠,٢٢١	١٩٢٩	٢٢٥,٨٥٥
١٨٧٤	٧٣,٥٩٧	١٩٠٢	٢٢٣,٥١٣	١٩٣٠	٢٠٥,٢٠٢
١٨٧٥	٨٤,٤٤٦	١٩٠٣	١٩٦,٠٢٤	١٩٣١	٢٧٠,٦٥٧
١٨٧٦	٧١,٨٤٣	١٩٠٤	٢١٠,٩٨٠	١٩٣٢	٢٦١,٧٧٤
١٨٧٧	٧٢,٨٢٢	١٩٠٥	٢٥٢,٦٩١	١٩٣٣	٢٥٣,٩٤٠
١٨٧٨	٩٩,٢٠٩	١٩٠٦	٢٥٣,٨٨١	١٩٣٤	٢٦٢,١٢٢
١٨٧٩	٨٤,٥١٢	١٩٠٧	٢٤٣,٨٢٦	١٩٣٥	٦٢٥,٤٦٥
١٨٨٠	١٠١,٥٥١	١٩٠٨	٢١٨,٩٦٧	١٩٣٦	٧٨١,٩٢٩
١٨٨١	٩٠,٥٢٤	١٩٠٩	٢١٣,١٢٢	١٩٣٧	٦٩٧,٨٠٠
١٨٨٢	١٣١,٠٦٨	١٩١٠	٢٣٤,٣٢٠	١٩٣٨	٤٧٩,٨٠٢
١٨٨٣	١١٩,١٧٧	١٩١١	٢٧٥,٢٥٩	١٩٣٩	٤١٠,٥٢٣
١٨٨٤	١٥١,٩١٦	١٩١٢	٢٦٦,٤٠٣	١٩٤٠	١٦٧,٨٠٥
١٨٨٥	٢٠٥,٩٥١	١٩١٣	٢٨٢,٢٣٥	١٩٤١	١٤,١٢٤
١٨٨٦	١٧١,٤١١	١٩١٤	٣٩١,٧٧٢	١٩٤٢	٥٩٠
١٨٨٧	١٨٢,٩٩٧	١٩١٥	٢١٠,٥٣٠	١٩٤٣	١٧٣,٢٦٩
١٨٨٨	١٨٣,٨٩٥	١٩١٦	٢٨٣,٠٣٠	١٩٤٤	٤١٨,٨٣٢
١٨٨٩	١٨٠,٥٩٤	١٩١٧	١٤٢,٣١٣	١٩٤٥	٩٨٣,٩٣٧
١٨٩٠	١٦١,٣٥٣	١٩١٨	١٠٥,٩١٤	١٩٤٦	٩٣٢,٠٠٧
١٨٩١	١٩٤,٤٦٧	١٩١٩	٥٢٧,٥٠٢	١٩٤٧	٥٨٧,١٣٥
١٨٩٢	١٨٩,٨٠٩	١٩٢٠	٥٠٠,١٤٧	١٩٤٨	٤٥٤,٨٦٤
١٨٩٣	١٨٦,٤٩٥	١٩٢١	٢٩٥,١٩٩	١٩٤٩	٦١٠,٩٥١
١٨٩٤	١٦٥,٩٨٠	١٩٢٢	٢٧٥,٠٣١	١٩٥٠	٦٦٤,٢٨٤
١٨٩٥	٢١٦,٩٣٨	١٩٢٣	٢٤٦,٣٣١	١٩٥١	٥٨٨,٩٤٧
١٨٩٦	٣٠٨,٢٤٣	١٩٢٤	٢٦٣,٨٦٩	١٩٥٢	٥٧١,٤١٦
١٨٩٧	١٩١,٢١٥	١٩٢٥	٢٦٩,٥٢٢	١٩٥٣	٥٥٤,٠٩٣
				١٩٥٤	٥٣٧,٩٧٦

المصدر كل من :

Paul Raymond , Histoire De la navigation dans le canal de suez . le Caire. 1956, p. 247 .

Hallberg , W. charles ., The Suez Canal . its history and diplomatic importance .

London. 1931 , p. 351 .

الآزمة السياسية اللبنانية عام ١٩٤٣

ظهرت في تاريخ لبنان الحديث أزمات سياسية عديدة ولكن تبقى أزمة عام ١٩٤٣ أهم تلك الأزمات وأبعدها أثرا في تاريخ لبنان .

كان اندلاع نيران الحرب العالمية الثانية سببا في إحداث تغييرات شاملة بالنسبة للوضع في كل من سوريا ولبنان ، فقد عملت فرنسا على تقوية جيش الاحتلال في كل من البلدين، وعينت ويجند قائدا للقوات الفرنسية في منطقة الشرق الأوسط وأطلقت يده حرة في التصرف في شئون المنطقة مما يؤمن مصالح فرنسا .

وكان على المندوب السامي الفرنسي في لبنان أن يأمن جانب الشعبين السوري واللبناني حتى يؤمن موقف فرنسا في المنطقة ولذلك فقد أوقف العمل بالدستور وحكم لبنان حكما مباشرا .

وازداد الموقف تعقيدا بالنسبة لفرنسا بدخول إيطاليا الحرب في يونيو عام ١٩٤٠ بجانب ألمانيا، مما جعل فرنسا تعيد النظر في موقفها سواء داخل أراضيها نفسها أو بالنسبة لدولتي الانتداب - على ضوء هذه التطورات - وكانت التطورات سريعة بالنسبة لفرنسا نفسها، فقد احتل الألمان باريس في الشهر التالي لدخول إيطاليا الحرب وقامت حكومة فيشي الموالية لألمانيا .

وبالرغم من المحنة التي كانت تواجهها فرنسا ومن احتلال أراضيها نفسها أعلن الجنرال منتل هوزو بأنه لن يحدث أى تغيير فى وضع الأراضي الواقعة تحت الانتداب الفرنسى وأن العلم الفرنسى سيظل مرتفعا فى هذه الأراضي وأن فرنسا ستستمر فى تأدية رسالتها فى سوريا ولبنان .

وقد كان لهذا التصريح أثره السيئ فى نفوس شعبى سوريا ولبنان مما قد يؤثر تأثيرا سيئا على موقف الحلفاء فى المنطقة ، خاصة وأن سياسة إنجلترا فى ذلك الوقت كانت ترمى إلى محاولة جذب الشعور الوطنى إلى جانب الحلفاء وتكوين جبهة ضد تغلغل نفوذ دول المحور^(١).

وكانت بداية الخلاف بين إنجلترا وفرنسا (حكومة فيشى^(٢)) بسبب السياسة التي أخذت السلطات الفرنسية تعمل على تنفيذها وهي سياسة معادية فى الوقت نفسه لمصالح إنجلترا. ولم يكن أمام إنجلترا إلا أن تعمل منفردة وبوحى من مصلحتها الخاصة دون النظر إلى أى اعتبار آخر، فأصدر الوزير البريطانى المقيم فى القاهرة فى يوليو ١٩٤٠ تصريحاً استنكر فيه تصريح الجنرال هوزو وأكد فيه أن إنجلترا لن تقف مكتوفة الأيدي إزاء أى تدخل من دول المحور فى سوريا ولبنان، وأوضح الوزير البريطانى فى تصريحه أن سياسة بريطانيا تجاه البلدين هى ترك الحرية التامة لهما فى أن تتخذ الموقف الذى يلائم مصلحتهما دون الإضرار بمصلحة الحلفاء ، بما فى ذلك الاستقلال على ألا تتاح الفرصة لألمانيا لأن تتخذ منها قاعدة لضرب إنجلترا .

وكانت نتيجة هذا الخلاف بين إنجلترا وفرنسا إتاحة الفرصة لزيادة نفوذ الدعاية الموالية لدول المحور ووضع فرنسا فى مركز حرج . وبدأت نظرة الشعب تتبلور وتتقلب من نظرة رهبة واحترام إلى نظرة عدم اكتراث وعداء لدولة احتلته وحجرت على حريته، وفى الوقت نفسه تريد أن تبقى على سلطاتها وهيبتها فى أراض غير أراضيها التي تحتلها فى نفس الوقت سلطات أجنبية^(٣).

وفى ١٨ أبريل عام ١٩٤١ أعلنت حكومة فيشى انسحابها من عصبة الأمم ، وبذلك فقدت فرنسا (الشرعية) حقها (الشرعى) فى أن تكون دولة منتدبة على سوريا ولبنان ، وفى ٢٢ يونيو (حزيران) عام ١٩٤١ وفى غابة كومباين Compiegn وقعت كل من فرنسا وألمانيا الهدنة بعد أن هزمت فرنسا هزيمة منكرة، وتضمنت شروط الهدنة التي قبلتها حكومة بيتان Petain^(٤) عددا من المواد كان أهمها :-

- ١- وقف الأعمال الحربية للقوات الفرنسية اعتبارا من ١١ يوليو .
 - ٢- دخول القوات المتحالفة سوريا ولبنان وتجميع قوات دانتز في نطاق محدد حتى يحين سفرها .
 - ٣- تحتفظ هذه القوات بأسلحتها دون ذخيرة، أما القطع الحربية الثقيلة فتوضع تحت تصرف القوات البريطانية .
 - ٤- لضمان إطلاق سراح الأسرى البريطانيين ستبقى عدد من الضباط الفرنسيين التابعين لفيشي من بينهم دانتز نفسه (٥).
- أثارت شروط الهدنة الجنرال ديغول الذي اعتبر هذه الاتفاقية عملية تسليم بسيطة ومجردة لسوريا ولبنان إلى البريطانيين وأنها لا تتوافق مع المصالح السياسية والعسكرية لفرنسا ، ورفضت التصديق عليها لأنها لم تتضمن أي ذكر لقوات فرنسا الحرة، ولأنها وضعت الأسلحة التي كانت بعدة فيشي بأيدي البريطانيين ولم تسلم للسلطات الديجولية.
- وأسرع ديغول إلى القاهرة في ٢١ يوليو يعلن أنه غير ملتزم باتفاقية الهدنة وأنذر الكابتن لينلتون بفصل قواته بصورة تامة في القوات البريطانية .
- وفي ٢٤ وافقت الحكومة البريطانية على مطالب ديغول فعدلت اتفاقية الهدنة باتفاقية تفسيرية من ٩ بنود أتاححت للضباط الديجوليين مجالا أوسع لعرض وجهة نظرهم أمام قوات فيشي ووضعت الأسلحة المصادرة والقوات الخاصة تحت إمرة كاترو.
- وفي أواخر أغسطس اقترح دانتز إطلاق سراح الضباط البريطانيين ورحل عن البلاد في ٤ سبتمبر ١٩٤١، وما أن انتهت العمليات العسكرية حتى نسي ممثلو فرنسا الحرة وعودهم بإنهاء الانتداب وعمدوا إلى وضع معاهدة قريبة من صيغة الانتداب ووقفت بريطانيا إلى جانب فرنسا رغم إقرارها بحق البلاد بالاستقلال إلا أنها احتفظت لفرنسا الحرة بأحقية التفاوض مع الهيئات المحلية دون غيرها من الجهات الأجنبية الأخرى.
- كذلك كانت تدرك بريطانيا خطورة تبعية لبنان إلى حكومة فيشي وخطورة التواجد الألماني في الشرق خاصة من النواحي الاستراتيجية والعسكرية^(٦)، لذلك حدثت الرغبة المشتركة عند الفرنسيين الأحرار وبريطانيا للتدخل العسكري بمهاجمة لبنان وطرد فيشي منها وإزاحة النفوذ الألماني، في الوقت الذي لم يكن فيه الفرنسيون الأحرار بزعامة ديغول راغبين في ترك المجال لبريطانيا للعمل وحدها .

وفي البداية أعد الفرنسيون خطة للتدخل ولكنهم وجدوا أنها غير ممكنة التطبيق لقلة ما لديهم من قوات فقد أدركوا أن التواطؤ بين فيشي والألمان لم يثر حركة واسعة وسط القوات الفرنسية في الشرق الأدنى وهو أساس الخطة الفرنسية، وأن الذي حدث فقط أن بضع مئات من القوات الخاصة ، وبشكل خاص اجتازت الفرسان الشركس بقيادة الكولونيل كوله Collet الحدود الجنوبية وانضمت للفرنسيين الأحرار في فلسطين التي كانت تحت قيادة الجنرال الفرنسي الديجولي ليجنتيل هم Legentil Homume (٧).

ولذلك ولعدم إمكانية تطبيق المشروع الفرنسي كان لابد من إشراك البريطانيين وتم أخيرا الموافقة على خطة فرنسية- إنجليزية مشتركة يقوم بتنفيذها الجنرال ويلسون Henry Mait- land Wilson (٨)، وفي ٢٥ مايو (آيار) ١٩٤١ أخبر ويفل Wavel وزارة الحربية البريطانية أنه جُهز خطة للعمل في لبنان وسوريا (٩).

وفي ٨ يونيو (حزيران) ١٩٤١ شرعت قوات الحلفاء بغزو لبنان وسوريا ، وكانت في مجموعها مؤلفة من قوات بريطانية مع قوات استرالية وهندية وقوات فرنسية حرة. وفي اليوم نفسه الذي تحركت فيه هذه القوات التي كانت في معظمها بريطانية ، أعلنت الحكومة البريطانية أنه بالرغم من تحذيرها السابق والواضح في أول حزيران فإن حكومة فيشي تابعت سياستها في التعاون مع دول المحور فوضعت المطارات تحت تصرف الألمان ولذلك فإن الحكومة البريطانية لن تتسامح حول هذا العمل ولاستطيع السكوت عنه (١٠).

دامت الحرب حوالي شهر ونصف بدأت في حدود مرجعيون والناقورة وضربت بيروت عدة مرات بقنابل الطائرات ووجه الرئيس نقاش كتابا إلى الجنرال دانتيز يطلب منه إعلان بيروت مدينة مفتوحة كي لا تضرب بالقنابل (١١)، ولم تحدث أية مقاومة خلال الأسبوع الأول فالطابور الساحلي أخذ صور واتجه إلى ما بعدها ، ولكن في ١٦ حزيران قامت قوات فيشي بهجوم معاكس استعادت فيه مرجعيون ولكن ذلك لم يستمر طويلا، فقد استعادت مرجعيون والمناطق المحيطة بها ووصلت نجدات من العراق كما وصلت نجدات أخرى من البحر (١٢).

وزاد من صعوبة موقف دانتز أن المساعدة التي كان بحاجة إليها عن طريق حكومة فيشي كانت محدودة هذا حسب ما يقوله لونج ريج بأن الألمان الذين غزوا روسيا في ٢٢ حزيران ١٩٤١ فقدوا المصلحة في لبنان وسوريا ولذلك ظهر أن المساعدة الألمانية الخارجية غير ممكنة في الوقت الذي أصبحت فيه قوات فرنسا الفيشية ضعيفة نتيجة للخسائر الفايحة التي تعرضت لها .

لقد تأكد لدانتز في ٢٢ حزيران عبث المقاومة فطلب من القنصل الأمريكي في بيروت (فان انجهرت Van Englrt) معرفة شروط الهدنة من بريطانيا ، وفي ٨ تموز (يوليو) ١٩٤١ طلب دانتز وقف إطلاق النار مع القائد البريطاني ويلسون وتسلم شروطه في اليوم التالي ، ولكن هذه الشروط لم تقبل من فيشي على أساس ما جاء فيها من شروط سياسية^(١٢) وأنها لم تقبل للمفاوضة مع رجال فرنسا الحرة وعلى رأسهم ديغول ، وفي ١٥ تموز دخلت جيوش الحلفاء بيروت واحتلت المراكز العسكرية في المدينة.

النتائج السياسية للوجود البريطاني في لبنان عام ١٩٤١:-

في اليوم الذي بدأت فيه القوات العسكرية اجتياح لبنان أسقطت الطائرات منشورين أحدهما بإمضاء الجنرال كاترو Catroux ممثل الجنرال ديغول في القاهرة ، ومما جاء فيه . «بأن فرنسا ذات التقاليد المجيدة تعد بإنهاء عهد الانتداب وضمان الحرية والسيادة للبنانيين» وختم هذا المنشور بالنص التالي «لقد أزفت ساعة عظمى في تاريخكم ، وأن فرنسا بصوت أبنائها الذين يحاربون من أجل حياتها ومن أجل حرية العالم تعلن استقلالكم»^(١٤).

أما المنشور الثاني فقد كان عبارة عن بيان وقعه مايلز لامبسون Milies Lampason السفير البريطاني في القاهرة وجاء فيه «أن حكومة صاحب الجلالة البريطانية فوضته بأن يعلن تأييد ضمان الاستقلال الذي أعطاه الجنرال كاترو Catroux بالنيابة عن الجنرال ديغول واشترائها به»^(١٥).

وكانت بريطانيا ترغب في أن تتم صياغة هذين البيانين في بيان واحد وذلك عندما عرضت الوثيقة الفرنسية على شكل مسودة على مكتب وزارة الخارجية البريطانية بحيث يأتى على شكل ضمان بريطاني لكن ديغول رفض ذلك وأجاب «بأن بريطانيا تستطيع نشر ضمانها بالطريقة التي تناسبها ولكنه لا يحبذ وضع إعلان بريطاني مع الإعلان الفرنسي ويتعجب لماذا تصر قوة أخرى على ضمان وضع دول تابعة للانتداب الفرنسي»^(١٦).

وفي رسالة بعث بها تشرشل إلى ديغول يقول فيها «أنه ليس لإنجلترا مأرب خاصة في الإمبراطورية الفرنسية ، ولا تريد مطلقاً أن تجنى فائدة لها من حالة فرنسا المحزنة، ثم رحب في رسالته بقرار الجنرال ديغول بمنح لبنان الاستقلال ، وأشار إلى الضمانة البريطانية وما فيها من قوة وأبدى حرصه على تجنب كل ما يهدد الاستقرار في المشرق ووجوب صنع كل شيء مستطاع لتحقيق آمال العرب ورغباتهم»^(١٧).

وفى ٢٤ حزيران أصدر الجنرال ديغول أوامره بتعيين الجنرال كاترو Catroux مندوبا ساميا عاما ومفوضا وقائدا عاما فى الشرق وبذلك حل محل الجنرال دانتيز وهذا التعيين كان الهدف منه تثبيت الفرنسيين الأحرار لوجودهم السياسى فى لبنان وإعطائه صورة جديدة تختلف عن ذلك الوجود الذى كان مرتبطا بحكومة فيشى وعلى أساس أن كاترو Catroux يمثل تمثيلا حقيقيا ذلك الوجود الجديد .

ولكن كانت عند الفرنسيين الأحرار ومنهم كاترو Catroux الرغبة فى وضع قواعد معينة تنظم العلاقات الجديدة التى أصبحت قائمة فى لبنان على أثر التواجد البريطانى والمتعلق بالنواحى العسكرية والسياسية ومن أجل ذلك جرت مراسلات بين ديغول وليتلتون Oliver Lyttelton وزير الدولة البريطانى فى مصر، وقد اتفق على تسمية هذه المراسلات باتفاق ديغول ليتلتون، وقد جاءت فيه أمور عسكرية وسياسية وأهم ما جاء فى هذا الاتفاق هو قبول الفرنسيين للتواجد البريطانى مع اعتراف بريطانيا بالوضع الخاص والمميز لفرنسا فى لبنان مع تعهد الدولتين باستقلال لبنان (١٨).

وفى ٨ من يونيو عام ١٩٤١ وأثناء زحف القوات الإنجليزية الفرنسية المشتركة لاحتلال لبنان وتخليصها من حكومة فيشى أعلن الجنرال كاترو قائد قوات فرنسا الحرة انتهاء نظام الانتداب وأن كل شعب مستقل له سيادته وأمامه فرصة العمل أما أن يتحدوا فى دولة واحدة وإما قيام دولتين منفصلتين ، وسوف يكرس هذا الاستقلال بمعاهدة يضمن فيها المصالح المتبادلة . ولكى يعطى الجنرال كاترو بيانه شكلا قويا وسندا يقبله المواطنون فقد أكد بأن الحكومة البريطانية بالاتفاق مع فرنسا الحرة قد ضمنتا للبلدين كافة المزايا التى يتمتع بها العالم الحر الذى يقف بجانبها ، وعلى ذلك فإن الحصار المضروب حول البلدين سوف يرفع (١٩).

وأثبتت الأحداث التى تلت ذلك التصريح أن فرنسا قد تراجعت منذ بداية استقرار جنودها فى لبنان عن الموقف الذى اتخذته فى يونيو وكان على إنجلترا أن تساند سياستها مرة أخرى وتقف فى صف الاستقلال فأعلنت بيانا يؤكد هذا الموقف .

ولم يقتصر أمر إعلان استقلال سوريا ولبنان على الجانب الفرنسى فقط، بل كان على إنجلترا وهى صاحبة القوة أن تثبت وجودها فى أمر جوهرى خطير كهذا ، لذلك سارع السير مايلز لامبسون سفير بريطانيا فى القاهرة فى ٩ يونيو ١٩٤١ بإذاعة بيان باسم الحكومة البريطانية أنها تؤيد وتدعم الاستقلال والتأكيد التى أعلنته فرنسا .

وفى ٢٦ تشرين الثانى (نوفمبر) أعلن كاترو Catroux استقلال لبنان وبعض ما جاء فى هذا الإعلان «أن فرنسا تتعهد بالمحافظة على سلامة لبنان ووحدة أراضيه وأنها ستضمن استقلال البلاد فى إطار مشروع معاهدة ١٩٣٦ ، تلك المعاهدة التى رحب بها اللبنانيون فيما مضى، ثم قام كاترو Catroux بتعيين الفرد نقاش فى أول كانون الأول (ديسمبر) من العام نفسه رئيسا للجمهورية، وكان النقاش قد عين فى هذا المنصب من قبل الجنرال دانتيز، وفى الوقت نفسه تألفت وزارة برئاسة المهندس أحمد الداعوق ، وقد اختلفت هذه الوزارة عن سابقتها بأنها تضمنت منصبا وزاريا للشئون الخارجية وأعطى هذا المنصب لحמיד فرنجيه(٢٠).

ولكنه لم يلبث أن استقال بعد الأزمة الغذائية الحادة فى ٢٢ يوليو ١٩٤٢ لعجزه عن إيجاد حل مرضى لمشكلة الإعاشة أو وقف ارتفاع الأسعار مما أدى إلى إقفال عام للمخازن صباح يوم ١٦ يوليو وحصول اشتباكات فى ذلك النهار وقد وضع بيار الجميل الحكومة أمام خيارين أما أن تجد الطحين أو ترحل وتولى الوزارة سامى الصلح (٢١).

وهكذا اجتمعت مقتضيات الحرب على فرنسا أن تتبع سياسة التأجيل التى لم تقتضيها الشعوب المحلية خاصة بعد إعطاء وعود محدودة بالاستقلال والسيادة ويعتبر البعض أن إعلان ٨ يونيو (جاء فى إعلان ٨ يونيو الموجه إلى أهالى سوريا ولبنان «أنه سوف يتاح لكم أن تشكلوا دولتين مستقلتين أو أن تتحدوا فى دولة واحدة) حول انتهاء الانتداب قد أضاع الفرصة من فرنسا لتعزيز وضعها وإعادةه إلى ما قبل ١٩٣٩ .

ولم يعجب اللبنانيون تمسك فرنسا بمركزها الممتاز أو عودتها إلى تطبيق السياسة السابقة والتى تشير إليها بوضوح تصرفات المندوب السامى بجمع الصلاحيات فى يده خاصة وأن فرنسا ١٩٤١ المنهارة والمنقسمة على نفسها والخارجة من عصبة الأمم هى غير فرنسا ١٩٣٦ التى رضى الشعب اللبناني أن يوقع معها اتفاقية لم توافق عليها هى فى ذلك الوقت .

ولقد اعترفت الدول رسميا ولأول مرة باستقلال لبنان وكان فى مقدمة هذه الدول بريطانيا التى عينت فى فبراير ١٩٤٢ الجنرال سيبيرس وزيرا مفوضا لها فى لبنان وسوريا والذى جعل بيروت مقرا لعمله، كما عينت الولايات المتحدة الأمريكية السيد وود سورت معتمدا سياسيا الذى صرح بعد تقديم أوراق اعتماده الرسمية إلى رئيس الجمهورية الفرد نقاش فى نوفمبر «يمكن لسوريا ولبنان الاعتماد على دعم الولايات المتحدة للحصول على استقلالهم التام»(٢٢).

ثم كان الاعتراف البريطاني السريع باستقلال لبنان خاتمة المطاف في عام ١٩٤١ وقد جاء هذا الاعتراف على شكل رسالة تهنئة من الملك جورج السادس George VI إلى الرئيس اللبناني على أساس أنه رئيس دولة مستقلة بتاريخ ٢٦ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٤١ . وهذا الاستقلال المعلن واعتراف النول به لم يكن يكتمل معناه ما دامت فرنسا تفرض على لبنان قيودا سياسية تمنعه من تحقيق أمانيه .

وفي ٢٩ أبريل ١٩٤٢ بعث كاترو إلى حكومة فرنسا الحرة برقية جاء فيها «الخطوة الوحيدة التي يمكن معالجة الأوضاع بها تتمثل في إعادة الأوضاع الدستورية كما كانت عليه عام ١٩٣٦ بونة إجراء الانتخابات التي يطالب بها سبييرس والتي ستتيح للعملاء والعمال الأجنيى فرصا عديدة للسيطرة على الأحداث » . لذلك رأى كاترو بالعودة لرئاسة اميل إده والمجلس النيابي المكون من ١٢ عضوا فرصة تسمح له بإقرار معاهدة ١٩٣٩ .

أحداث لبنان السياسية عام ١٩٤٢ :

دعمت بريطانيا اعترافها السابق بتعيين الجنرال إدوارد سبييرس Edward Spears كأول وزير بريطاني مفوض لدى الجمهورية اللبنانية والجمهورية السورية في شباط (فبراير) ١٩٤٢ والذي جعل من بيروت مقرا له ، وبقي سبييرس في هذا المنصب حتى كانون الأول (ديسمبر) ١٩٤٤ .

والحقيقة فإن الخطوة البريطانية الأخيرة، الاعتراف الرسمي باستقلال لبنان وتعيين سبييرس، هذه الخطوة أدت إلى دعم الوجود السياسى البريطانى فى لبنان بالإضافة إلى وجودها العسكرى الذى بدأ منذ ٨ يونيو (حزيران) ١٩٤١ ، ثم أضافت إلى خطواتها السابقة خطوة أخرى وهى تعيين ضباط سياسيين فى جميع المناطق اللبنانية مما زاد تأثير الوجود السياسى والعسكرى البريطانى وبالتالي التأثير فى كل الأحداث اللاحقة.

لقد أخذ يبرز شعور عام لدى اللبنانيين بأن الوجود الفرنسى فى لبنان أصبح ضعيفا لذلك أخذ اللبنانيون يتجهون صوب بريطانيا لإنجاز ما تم الوعد به من استقلال خاصة وأن بريطانيا ضمنت تحقيق ذلك فى بيان مايلز لامبسون وفى اعترافها الأخير بهذا الاستقلال(٢٣).

ولكن زاد من اتجاه اللبنانيين نحو بريطانيا أن واقع الحال فى عام ١٩٤٢ بدأ يثبت أن الفرنسيين لم يغيروا شيئا فهم مستمرون فى تعطيل الحياة الدستورية ، ومستمرون فى تعيين

رئيس الجمهورية والمجلس الوزاري في ظل تعطيل الحياة النيابية ، وهذا كله يتنافى مع الاستقلال الذي أعلنوه ولذلك أحاط بالبنانيين شعور بخيبة الأمل ، وفي رأى سيبيرس الوزير البريطاني المفوض في بيروت والذي جاء في رسالة سرية إلى وزير الدولة البريطانية في القاهرة أن خيبة الأمل تلك تعود إلى فتور المهمة عند الرئيس اللبناني نقاش وإدارة المحيطة به وخاصة الوزراء وأيضا إلى النقص الواضح في البرهان على أن لبنان فعلا بلد مستقل وهذا الجانب مرتبط بالشك بحسن نية فرنسا .

وفي ظل هذا الوضع السياسي أخذت تظهر في لبنان قضية إجراء الانتخابات وهذه القضية كانت المحك الرئيسى التى يمكن أن تبين مدى إمكانية صدق النية الفرنسية نحو تحقيق الوعود التى أطلقها الفرنسيون من أجل الاستقلال أو ما يمكن أن يطلق عليه إعادة الحياة الدستورية كهدف نحو تحقيق هذا الاستقلال .

لقد أثارت مسألة الانتخابات خلافا بين المفاهيم الفرنسية والبريطانية ، ففرنسا اعتبرت إجراء انتخابات مبكرة سيؤدى إلى فوز الوطنيين اللبنانيين وفيه إحراج لمركزها ، أما بريطانيا فكانت ترى العكس تماما فإجراء انتخابات ووصول الوطنيين إلى الحكم سيؤدى إلى هدوء الحالة والاتجاه الكامل نحو كسب الحرب كذلك أخذت السلطات الفرنسية تطرح أفكاراً بديلة عن الانتخابات .

أما اللبنانيون ومن طريق أحزابهم السياسية وهيئاتهم الوطنية فقد اعتبروا مسألة الانتخابات على أنها أمرا لا بد منه ، لأنه عن طريق الانتخابات سيتم تشكيل حكومة دستورية تمثل الشعب، وكان أكثر هذه الأحزاب نشاطا في هذا المجال الحزب الدستوري بزعامة بشارة الخورى وحزب النجادة بزعامة جميل عكاوى^(٢٤).

ولما كانت هذه الأحزاب تدرك وجهة النظر البريطانية الداعية إلى إجراء انتخابات مبكرة فقد صاغت مذكرة وذلك في ٤ أبريل (نيسان) ١٩٤٢ وقدمتها إلى الوزير البريطاني المفوض في بيروت وجاء فيها «عدم رضاها عن الحالة السياسية الراهنة في لبنان وطلب العودة إلى الحياة الدستورية القائمة على أساس إجراء انتخابات يتمخض عنها مجلس نيابى وحكومة دستورية ، وقام المفوض بدوره وبحث المسألة مع كاترو Catroux في اليوم نفسه، ويقول الوزير البريطاني المفوض «أنه وجد ما كان يتوقعه وهو أن تحديد موعد للانتخابات قبل نهاية ١٩٤٢ سوف لن يحسن الأحوال السياسية ، لأن ذلك لن يسمح للحكومة بالاستمرار في منصبها وأن أفضل ما يمكن عمله في هذه الحالة هو إيجاد مجلس نواب معين^(٢٥)».

وإذا كانت مسألة الانتخابات هي القضية السياسية المطروحة فإن موضوع مصير الحكومة بدأ يطرح أيضا على بساط البحث والفرنسيون أنفسهم كانوا متاكدين بأن الحكومة في تشكيلها الراهن لن يطول عمرها في الحكم، ولذلك فإن حلها بدا قاب قوسين أو أدنى ، وفي مقابلة مع الوزير البريطاني المفوض أشار رئيس الجمهورية إلى أنه توجد إمكانية وشيكة الحدوث تقوم على أساس تشكيل مجلس وزاري جديد من ستة وزراء فقط (واحد لكل طائفة رئيسية) وأن كاترو Catroux يميل إلى استقالة الوزراء ، ولكنه يرغب في تشكيل وزارة جديدة مع بقاء رئاسته وربط رئيس الجمهورية موضوع التحديد لموعده الانتخابات بتشكيل مثل هذه الحكومة (٢٦).

استمرت ذيول هاتين المسألتين متلازمتين الانتخابات ومصير الحكومة مرتبط بهما كذلك الحالة الاقتصادية التي كانت سائدة في لبنان وبالموضع العسكري العام خارج لبنان وخاصة في الشمال الأفريقي لقد أخذ بشارة الخوري تلك الأثناء يعمل بجهد كبير نحو ملمة صفوف حزبه وكسب المؤيدين له في بيروت وطرابلس ومجموعات أخرى صغيرة كانت قد بدأت تشكل نفسها أو تعيد تشكيل نفسها ، أو تعيد تشكيل صفوفها على أساس أن الانتخابات لابد قادمة أما أميل إده الرئيس السابق وزعيم الكتلة الوطنية، والمنافس الرئيسي لبشارة الخوري، فقد كان يعمل على دفع رئيس الجمهورية نحو تغيير الحكومة وحجته في ذلك أن تلك الحكومة فقدت ثقة البلاد، ويعلق الوزير البريطاني المفوض في تقرير للخارجية البريطانية على ذلك أن إده يؤيد تغيير الوزارة من أجل أن يزيد من نفوذه بوضع أعوانه في الحكومة الجديدة وبذلك يصبح في وضع أفضل للتأثير في مجرى الانتخابات القادمة .

ويضيف التقرير نفسه أن رئيس الجمهورية كان يعكف على وضع أحد بنود قانون الانتخابات موضع التنفيذ والذي يجيز له تعيين ثلث مقاعد مجلس النواب وانتخاب الثلثين عن طريق الاقتراع ، بالرغم من أن الحياة الدستورية كانت معطلة فإنه يميل إلى هذا الاتجاه حتى يقوى من موقفه داخل مجلس النواب القادم ، مع أن الشعور السائد عند الناس في لبنان بأنه لا مجال لأعضاء معينين في مجلس نيابي في دولة مستقلة (٢٧).

ولم تقف تحركات رئيس الجمهورية في هذا المجال عند هذا الحد فقد حاول في ٢٢ أيار (مايو) ١٩٤٢ أن يقنع الضابط السياسي البريطاني سيبيرس Spears بأن الانتخابات في حال إجرائها ستولد اضطرابا شعبيا ولن تقود إلى مجلس نيابي يمثل الشعب بصورة

صحيحة وإجابه سيبيرس Spears، بأن الانتخابات من وجهة النظر البريطانية ضرورية من أجل تنظيم وضع الحكومة وإعطاء صمام أمن للنقد الشعبى،^(٢٨).

أن إجراء الانتخابات فى لبنان وهذا هو رأى الوزير سيبيرس Spears حسب ما جاء فى تقريره ستؤدى إلى زوال نقاش من منصبه لأنه مجرد إجراء مثل تلك الانتخابات - وهو ما تؤيده بريطانيا - سيفقده منصبه الرئاسى لفقدانه التأييد الشعبى شخصيا لضعف فرص انتخابه من قبل مجلس ينتخب بمجموعة من الشعب ومن هنا كان تأييده دائما لمجلس معين بكامله أو أن يعين ثلث أعضاء ذلك المجلس^(٢٩).

وفى صيف عام ١٩٤٢ بدا موقف الحكومة اللبنانية ضعيفا فالرئيس اللبنانى يحاول كسب شعبية شخصية له ووزير الخارجية حميد فرنجية يهدد بالاستقالة لفشله فى نقل الصلاحيات من الفرنسيين إلى الحكومة ومصر العراق والولايات المتحدة لاتعترف باستقلال لبنان .

وفى يوم ١٦ تموز (يوليو) ١٩٤٢ حدث اضطراب شعبى منظم حيث أغلقت الحوانيت وتوقفت المواصلات وجرت مظاهرات قام بها الشباب وحصلت اضطرابات وأطلق البوليس النار ولكن لم تحدث إصابات، وحسب ما جاء فى التقرير البريطانى الذى تعرض لهذا الحادث فإنه لم يتم التوصل إلى فاعليه ولكنه وصف بأنه كان عفويا شعبيا وأن سببه الرئيسى هو السخط الناجم عن النقص فى خدمات التموين اللبنانية خاصة فيما يتعلق بتوزيع الطحين الذى تأخر توزيعه أياما فى بيروت بالإضافة إلى ارتفاع الأسعار فى الأسابيع الأخيرة بشكل لايمكن احتماله^(٣٠).

لقد أدى هذا الحادث إلى سقوط الحكومة فى ٢٣ تموز (يوليو) ١٩٤٢، وفى ٢٧ تموز تشكلت حكومة جديدة برئاسة سامى الصلح صهر رياض الصلح الوطنى اللبنانى المعروف، وكان قبل أن يشكل تلك الوزارة قد اتخذ خطوات كانت أهمها التحقق من أنه مقبول شخصيا من البريطانيين وبعد التأكد من ذلك باشر فى تشكيل الوزارة ، ولكنه وجد أن الرئيس اللبنانى والفرنسيين ثم البريطانيين قد أبدوا اعتراضات على بعض الأشخاص الذين رشحوا للاشتراك فى وزارته وفى النهاية تم التفاهم على إزالة تلك الاعتراضات من الطريق فوضع القائمة التى تشكلت منها الوزارة^(٣١).

وكان استقبال الوزارة فى البلاد محبذا أكثر مما كان متوقعا خاصة شخصية سامى الصلح وفى يوم الجمعة ٢١ تموز تجمهر عدد كبير من الناس فى الجامع الرئيسى لأداء صلاة

الجمعة ، وبعد الصلاة عبروا عن تأييدهم الحار لسامى الصلح ، كما وصله سيل من برقيات التهنية خاصة من طرابلس وجنوب لبنان^(٣٢) .

ومن ناحية أخرى فقد وصل الجنرال ديغول في بداية شهر آب (أغسطس) إلى بيروت، وأثارت زيارته بطبيعة الحال الاهتمام ، وفي أول اجتماع له مع الموظفين الفرنسيين الرسميين، أعاد إلى الأذهان تأكيد استمرار وجود الانتداب على لبنان وأثنى على جهودهم الناجحة في دعم الوجود الفرنسي ، وكان هذا القول من ديغول أول تحد للحكومة الجديدة التي أبدت اعتراضها ولكنها لم تستطع توجيه أى احتجاج رسمى على ذلك لإدراكها أن رئيس الجمهورية لن يوافق على ذلك ، وفي مباحثات أجراها الوزير البريطاني المفوض مع ديغول ، استنتج أن الأخير لا يرغب في وضع تاريخ محدد لإجراء الانتخابات ، ثم ترك ديغول بيروت والحالة السياسية على حالها ولم يحدث حتى نهاية عام ١٩٤٢ ما يدل على تغيير في المواقف الفرنسية^(٣٣).

عودة الحياة الدستورية :

ولكن بمطلع عام ١٩٤٣ رجعت قضية الانتخابات تفرض نفسها، وفي ٢٤ كانون الثاني (يناير) ١٩٤٣ أصدر المسيو هيلو Hellew السكرتير العام في بيروت ، بلاغا رسميا نيابة عن اللجنة الوطنية الفرنسية في لندن جاء فيه بأن اللجنة مصممة على حماية استقلال لبنان وتعتقد بناء على مشاورات أجرتها مع الحكومة البريطانية أن تطور الحالة العسكرية تسمح بإعادة الحياة الدستورية وقد أعطيت الصلاحية إلى الجنرال كاترو Catroux عند عودته بأن يتخذ الخطوات المناسبة لتحقيق ذلك بعد التشاور مع الحكومة اللبنانية ومع الشخصيات المحلية الرئيسية^(٣٤).

وبالرغم من عدم تحديد موعد للانتخابات وعدم معرفة القانون الذي سيتم بواسطته طريقة إجراء تلك الانتخابات فإن النشاط السياسى أخذ يدب في لبنان بأشكال مختلفة وأساليب متعددة لصدور هذا البلاغ .

ففي ٢٦ كانون الثاني حاول رئيس الجمهورية حث رئيس الوزراء سامى الصلح على الاستقالة مع وزرائه على أساس أن تلك الاستقالة ضرورية للمصلحة الوطنية مع بقاءه رئيسا للبلاد وتعيين حكومة محايدة تشرف على الانتخابات ، لكن رئيس الوزارة رفض ذلك وربط استقالته باستقالة رئيس الجمهورية لكنه على استعداد للتخلي عن منصبه إذا طلب منه

سلطات الحلفاء ذلك، وكان رأى الوزير البريطانى المفوض سيبيرس Spears مع رئيس الوزراء فى وجهة نظره فى الوقت الذى تنتظر فيه ما تتمخض عنه المشاورات مع الفرنسيين وأبدى المسيو هيلو وجهة نظر تتفق مع وجهة النظر البريطانية (٢٥).

وعلى صعيد آخر فإن الإعلان عن عودة الحياة الدستورية أدى إلى نشاط سياسى عند الأحزاب المتعددة للتحضير لمعركة الانتخابات وتحاول إثارة الاهتمام الفرنسى أو البريطانى والدوائر الوطنية الممثلة بصورة خاصة فى الكتلة الدستورية فقد كانت تحاول نشر الاعتقاد بأن وصولها للسلطة ينال رضى البريطانيين، وعلى الجانب الآخر فقد تدهور وضع رئيس الوزراء بشكل خطير فالاكليروس المسيحى يقف ضد سياسته ذات الاتجاه الإسلامى والبطريك المارونى يدعم محاولات إقصائه وزعماء الطائفة السنية يعارضونه على أساس أنه فشل فى حماية المصالح الإسلامية (٢٦).

وفى ١٩ شباط (فبراير) عاد كاترو Catroux إلى بيروت وبدأت مشاوراته مع الشخصيات اللبنانية وأخذت الشائعات تنتشر حول ما سيقوم به ، هل سيعيد برلمان عام ١٩٢٩ ، وهل سيتم استبدال الحكومة الحالية بحكومة أخرى يتم تعيينها ؟ وفى أثناء ذلك أدرك كل من الرئيس اللبنانى ورئيس الوزراء أن منصبيهما فى خطر ، ولذلك أرسلوا رسالة مشتركة إلى كاترو Catroux ونسخة منها إلى الوزير البريطانى المفوض سيبيرس Spears يحتجان فيها «على أساس المشاورات التى أجريت مع بعض السياسيين اللبنانيين الذين هم حسب رأيهم (أصحاب مصلحة) ولا يوافقون على إعادة نواب ١٩٢٩ » ، وفى حديث لرئيس الجمهورية قال فيه «أنه كرئيس لدولة أعلن استقلالها فإنه لا يقبل أن يجبر على الاستقالة ولن يفعل ذلك (٢٧).

وبالرغم من تلك المعركة السياسية التى كانت تجرى بين الحكومة اللبنانية وكاترو Catroux فقد بدأت تتضح أهداف كاترو Catroux والطريقة التى سيعالج فيها الأمور الملحة، فبالنسبة للحكومة القائمة فإن هدف كاترو Catroux هو إقناع الرئيس اللبنانى بالاستقالة ويقوم بتعيين وزارة انتقالية قليلة العدد برئاسة فيليب بولص أو أيوب ثابت فى الوقت الذى يدرك فيه كاترو Catroux عدم إيمان غالبية اللبنانيين بالنظام الدستورى القديم والقائم على أساس تعيين ثلاث النواب من قبل رئيس الجمهورية، كذلك وضع حلان أمام كاترو Catroux ، الأول يقوم على إعادة الحياة الدستورية مع نزع تلك الفقرات غير المرغوب فيها فى الدستور، والثانى إيجاد جمعية تأسيسية لسلطات تشريعية مع تحديد دور انعقادها لسنتين وخلال ذلك يتم تعديل الدستور (٢٨).

لقد أصبح واضحاً أن هناك خلافاً بين كاترو Catroux والرئيس اللبناني وأن كاترو Ca-troux سيخطو خطوة مضادة لإيقاف تحركات رئيس الجمهورية وبالتالي لإفشال أهدافه ، كذلك فقد أصبح واضحاً أن الاعتقاد الذي ظهر فترة حول إعادة المجلس النيابي القديم قد تبدد تماماً نتيجة للاعتراضات البريطانية (٣٩).

أما الخطوة التي قام بها كاترو Catroux فقد تمت في ١٨ مارس (آذار) حيث أعاد العمل بالدستور المعطل منذ عام ١٩٣٩ مع استثناء تعيين ثلث الأعضاء من قبل رئيس الجمهورية وعين حكومة انتقالية من ثلاثة أعضاء فيها الدكتور أيوب ثابت رئيساً للدولة والحكومة ويساعده وزيران لإدارة البلاد حتى يتم إجراء الانتخابات في غضون ثلاثة شهور وهما خالد شهاب وجواد بولص ، وقد جاءت هذه الخطوة بالاتفاق الكامل مع السلطات البريطانية والدليل على ذلك صدور بيان عن الوزير البريطاني المفوض سيبيرس Spears في ١٩ آذار (مارس) أعلن فيه ترحيبه بالخطوة الفرنسية وهذا الترحيب أوجد شعوراً بالارتياح بشكل عام لدى الأهالي (٤٠).

ومن المرجح أن الجهود البريطانية أسفرت عن نتائج أولية لمصلحة السياسية البريطانية في المنطقة، ففي آذار (مارس) ١٩٤٣ وقعت الأزمة الحادة بين الرئيس الفرد نقاش وبين المفوض كاترو Catroux وقد أوضح الرئيس اللبناني كيفية اتفاق بريطانيا مع فرنسا من أجل انتخابات نيابية في لبنان رغم أن أجواء الحرب العالمية الثانية كانت لا تزال تسيطر على لبنان والمنطقة كما أن سليم تقلا ، بشارة الخوري ، حبيبى أبوشهلا ، أميل اده حضرا إلى كاترو Ca-troux وقالوا له «باسم الحزبين الممثلين الآن أمامك نؤكد لك يا جنرال أننا مستعدون لأن نتعهد معك ونتعهد لك بتنفيذ برنامجك السياسى بشرط أن تسلمنا الحكم» (٤١).

وبالرغم من الاتفاق البريطانى- الفرنسى غير أن الصراع كان لا يزال قائماً بين السياسيين بدليل أنه بعد عودة كاترو Catroux إلى لبنان كان في مقدمة هدفه استمالة النخبين في سوريا ولبنان بواسطة مستشاريه وأتباعه المخلصين (٤٢).

وعلى ضوء المساومات البريطانية الفرنسية سلم دافيد David مندوب الجنرال كاترو Ca-troux في ١٨ مارس (آذار) ١٩٤٣ رسالة للرئيس الفرد نقاش طلب منه فيها أن يقدم استقالته رسمياً من رئاسة الجمهورية ، ولكن الرئيس النقاش رفض الانصياع لطلب كاترو Catroux وظل رئيساً للجمهورية من الناحية الشكلية إلى الأول من سبتمبر (أيلول) ١٩٤٣ عندما قدم استقالته إلى المجلس النيابي الجديد (٤٣).

وفيما يتعلق بسامى الصلح رئيس الوزراء فقد قدم استقالته بمذكرة احتجاجية لكاترو Ca-troux في ١٥ مارس (آذار) ١٩٤٣ ومهما يكن من أمر فقد اختار كاترو Ca-troux النائب أيوب ثابت رئيسا للجمهورية على أن تكون رئاسته مؤقتة بهدف الإشراف على إجراء الانتخابات النيابية ينبثق عنها مجلس نيابي جديد يتولى بدوره انتخاب رئيس الجمهورية.

وكان الرئيس أيوب ثابت الذي تولى الحكم في ١٨ مارس (آذار) ١٩٤٣ من الأقليات المسيحية البروتستانتية وكان من جملة الأسباب التي أدت إلى اختياره كون كاترو Ca-troux يريد تحقيق أمنية المفوض السابق (بيو) الذي كان يتلطف لإقامة حكم مسيحي برئاسة بروتستانتى على غرار مذهبه (٤٤).

وكان الانطباع الذي كان سائدا في لبنان أن الحكومة الجديدة ذات اتجاه فرنسي، لكنها في نفس الوقت تنال الدعم من السلطات البريطانية وهذا جعلها مقبولة لدى الكثيرين مع وجود بعض الرافضين ، ومع ذلك فقد وجهت الانتقادات إلى سلطات الحلفاء لتنصيبها حكومة من ثلاثة أعضاء كانوا هم أنفسهم مرشحين للمجلس النيابي أو الرئاسة اللبنانية وبعضهم يسهل انقياده للتيار الفرنسي (٤٥).

ورغم أن عهد الرئيس كان قصيرا غير أنه كان مليئا بالاتجاهات الطائفية وبالمشكلات السياسية التي عمقت الهوة بين اللبنانيين، وكذلك أخذت التقارير الواردة من الاقاليم للمفوضية البريطانية في بيروت تشير إلى الانطباع السائد بأن الحكومة المؤقتة برئاسة ثابت ستقترح تأجيل الانتخابات وعلى الأقل لسته شهور وزيادة عدد النواب والتقليل من مناطق الانتخاب ، وأشارت تلك التقارير أيضا إلى إمكانية تدخل أعضاء الحكومة والمستشارين الفرنسيين في الانتخابات والضغط على الناخبين وكان ذلك يثير القلق عند الرأي العام والخوف من عدم حدوث انتخابات نظيفة وخاصة وأن أعضاء الحكومة يرشحون أنفسهم للانتخابات وبذلك أوجدوا الشبهة حولهم لأنه من المؤكد أنهم سيسيطرون استعمال مناصبهم لترجيح كفتهم ، في الوقت الذي أخذ فيه المستشارون الفرنسيون في طرابلس وصيدا يتدخلون وبشكل صارخ في محاولات تشكيل قوائم انتخابية مؤيدة للفرنسيين.

وفي تلك الأثناء وصلت تقارير أخرى إلى بعثة الوزير البريطاني المفوض سيبيرس Spears أشارت إلى اتساع تدخلات رئيس الدولة أيوب ثابت نفسه في تشكيل قوائم الانتخابات في المقاطعات والتي أوضحت أن طموحه للوصول إلى الرئاسة جعله ينفخ في مسالك غير

صحيحة وذلك لتأمين انتخاب نواب يؤيدونه فى ترشيحه النهائى لرئاسة الجمهورية ، كذلك اتجهت جهوده بشكل خاص ضد المرشحين الأعضاء فى الكتلة الدستورية التى تزعمها بشارة الخورى والذى كان يعدّه خصمه القوى فى ترشيحات الرئاسة القادمة ولذلك وضع خطوات معينه لكبح نشاط الخورى وجماعته (٤٦).

ومما لاشك فيه أن قضية الانتخابات كانت تلقى الاهتمام الرئيسى من قبل السلطات البريطانية وهذا الاهتمام جعلها تضغط على الرئيس ثابت لتحمله على الموافقة على إجراء انتخابات مبكرة ، ومما يؤكد ذلك ما ذكره ثابت فى مؤتمر صحفى عقد فى ٢٧ أبريل (نيسان) وذكر فيه «أنه مصمم على مقاومة الضغط البريطانى من أجل انتخابات مبكرة» (٤٧) ومن ثم أجرى الضابط السياسى البريطانى فى ٤ أيار (مايو) محادثات مطولة مع ثابت بين له فيها الأسباب التى تجعل السلطات البريطانية تحبذ إجراء انتخابات مبكرة ، وفى اليوم نفسه تحقق ذلك الضابط من الموضوع من هيلو Helieu ليعرف وجهة النظر الفرنسية فوجده على اتفاق كامل معه فى أن تكون الانتخابات مبكرة ، وبناء على ذلك وجه الوزير البريطانى المفوض رسالة إلى ثابت فى ٥ (مايو) أشار فيها أنه سيقترح على هيلو Helieu وضع تاريخ محدد للانتخابات (٤٨).

لذلك أعطى البطريك المارونى رأيه فى موضوع الانتخابات وهو تأييده لانتخابات مبكرة حسب ما جاء فى الصحف ، وأكد ذلك من خلال زيارة مجاملة قام بها للوزير البريطانى المفوض فى ٦ أيار (مايو) لكنه ربط هذه الموافقة بوجوب أن يقوم المرشحون قبل خوض الانتخابات بالقسم على الإخلاص إلى فكرة استقلال لبنان وعزله عن الدول المجاورة له لكن الوزير البريطانى أجابه بأن ذلك لايتفق مع المبادئ الديمقراطية (٤٩).

والحقيقة فإن نتائج الضغط البريطانى على رئيس الدولة بدأت تظهر نتائجها ، ففى مقابلة تمت مع الوزير البريطانى المفوض ذكر ثابت أنه «إذا طلب منه هيلو Helieu تثبيت أى تاريخ معين لإجراء الانتخابات فإنه سيوافق على ذلك» (٥٠).

والذى كان يبدو فى الأفق السياسى أن فرنسا أصبحت مقتنعة بأن إجراء الانتخابات يجب أن تتم بسرعة والحجة التى كانت تستند إليها فى السابق وخاصة ما يتعلق بالوضع العسكرى العام فى شمال أفريقيا قد تحسن وأصبح فى جانب الحلفاء ، ولم يبق على إعلان موعدها سوى عودة الجنرال كاترو Catroux إلى لبنان كذلك كان قد تدعم موقف الفرنسيين الأحرار

بالاتفاق الذى عقد بين الجنرال ديغول وجيزو^(٥١)، وبالتالى تدعيم هذا الموقف فى لبنان وتم تعيين هيلو فى ٣ حزيران (يونيو) ١٩٤٣ مندوبا ساميا عاما فى لبنان وسوريا بدلا من كاترو Catroux الذى نقل إلى الجزائر كمندوب للشئون الإسلامية، كما تم التفاهم على تشكيل لجنة التحرير الوطنى الفرنسية ومدينة الجزائر مقرا لها^(٥٢).

وكان أول عمل قام به هيلو Helleu بصفته المندوب السامى الفرنسى العام هو إعلامه رئيس الدولة بأن رغبة الجنرال كاترو Caroux أن تجرى الانتخابات فى لبنان فى شهر تموز (يوليو) ووافق رئيس الدولة على أن تجرى الانتخابات فى حوالى ١٠ من ذلك الشهر^(٥٣).

وبدأ بإعداد العدة للانتخابات بتحديد عدد المقاعد النيابية وجعلها ٥٤ مقعدا اثنان وثلاثون منها للطوائف المسيحية واثنان وعشرون للمسلمين وكان هذا التوزيع يشكل إجحافا بحقوق الطائفة الإسلامية^(٥٤).

لقد استقبلت الطائفة الإسلامية هذا المرسوم بغضب، وقدم المفتى كتابا للمندوب السامى جاء فيه أنه يجب أن يقنع الحكومة بإلغائه ، وإذا فشل فى ذلك فإن المسلمين سيحتجون للبريطانيين والأمريكيين والحكومات العربية المجاورة، وسوف يقاطعون الانتخابات، وفعلًا وقعت الشخصيات الإسلامية البارزة مذكرة احتجاج قدمتها لسلطات الحلفاء والحكومات العربية وسلمت نسخة للمفوضية البريطانية فى بيروت^(٥٥). ولهذا فقد زار كاترو مفتى المسلمين واستمع منه عن الإجحاف اللاحق بالمسلمين من جراء هذا المرسوم.

وبالرغم من السخط العنيف الذى واجه فيه المسلمون مرسوم ثابت فقد نشرت الحكومة اللبنانية مرسوما جديدا أعلنت فيه أن الانتخابات ستجرى يوم ٢٦ سبتمبر (أيلول) ، ولتهدئة رأى العام الإسلامى صدر بلاغ رسمى من الحكومة جاء فيه : أن الاستعدادات وضعت لإجراء إحصاء قبل إجراء الانتخابات ، ولكن صدور هذا البلاغ لم يؤد إلى النتيجة التى صدر من أجلها، بل اتهم المسلمون الفرنسيين بأنهم يدعمون المسيحيين من أجل الانفراد بحكم لبنان ولا يعاملونهم على قدم المساواة مع المسيحيين ولذلك فإنهم سيطالبون بتوحيد لبنان مع سوريا فى دولة واحدة.

وإذا كان غير المقبول بالنسبة للمسيحيين فإن الحال الآخر هو إعادة المحافظات الأربع التى أضيفت إلى لبنان عام ١٩٢٠ إلى سوريا ويعود لبنان إلى حدود ما قبل عام ١٩١٤ ويوضع تحت إشراف دولى وبيروت ميناء حر^(٥٦).

وفى تلك الأثناء وبينما كان زعماء المسلمين يقفون بثبات فى معارضتهم للتعديل الأخير فى عدد مقاعد المجلس النيابى، وصل الجنرال كاترو Catroux إلى بيروت واستقبل على الفور رئيس الدولة الدكتور ثابت وأمیل اده وبشارة الخورى، ولكنه لم يستقبل زعيما مسلما، كما تباحث القائم بالأعمال البريطانى فى بيروت مع ثابت فى ٢٩ حزيران (يونيو) حول محتويات مرسوم الانتخابات الجديد فأجابهم بأنه لا يستطيع إلغاء أية فقرة فيه^(٥٧).

واستمرت احتجاجات المسلمين وتركزت منذ ٨ تموز (يوليو) على الحكومة اللبنانية برئاسة ثابت على أساس أنها تجاوزت الصلاحيات التى تسلمتها من الجنرال كاترو Catroux عند تعيينها وتصرفت بطريقة غير شرعية، وذلك بإضافة ١٥٩ ألف مقيم لبنانى خارج لبنان إلى مجموع عدد السكان عند حساب عدد النواب الجديد فى المجلس النيابى حيث أثر ذلك على التوازن بين الطوائف الإسلامية والمسيحية فى الوقت الذى لم يتم فيه التحقق ما إذا كان هؤلاء المهاجرين اللبنانيين يتمشون مع القوانين التى تتعلق بحق الاقتراع اللبنانى^(٥٨).

ولذلك اضطر كاترو Catroux أمام هذه الاحتجاجات وتلك الضغوط أن يستقبل وفدا من وجهاء المسلمين واستدعى رسميا المفتى، وقد جابهه هؤلاء باللوم لأنه لم يجتمع معهم قبل ذلك وقدمت له مطالب تتعلق بعزل الحكومة وحذف التعديل الذى تم على قانون الانتخاب، ومن خلال محادثاته تلك خرج بانطباع وهو أن ثابت اقترف خطأ سياسيا، وهيلو برهن على عجزه فى القيام بواجباته وسماحه بإصدار بيانات مثيرة للجدل ومؤيدة للخلاف مع البريطانيين^(٥٩).

وجه مصطفى النحاس باشا رئيس وزراء مصر رسالة إلى كاترو الذى كان فى زيارة للمنطقة مستفسرا عن السبب الذى دعا إلى تقوية الخلاف الدينى ولاقت نظره إلى المشكلة اللبنانية وضرورة النظر إليها من ناحية علاقة لبنان بالدول العربية وتحقيق الاتفاق التام بين المسلمين والمسيحيين. وتتهم تقارير الخارجية الفرنسية رئيس الوزراء المصرى بالتعصب، وأنه بمحاولته التوفيقية هذه كان يرمى لإنشاء وحدة عربية تلعب مصر فيها دور الزعامة مشيرة إلى أن بعض المسلمين الموجودين فى مصر فى تلك الفترة كانوا يعارضون تفكير رئيس الوزراء المصرى وتستشهد بمحى الدين النصولى ومنير كريدية، راجع حول هذا الموضوع عرائض المسلمين لملك مصر. وفى مساء ١٢ تموز أرسل كاترو Catroux إلى زعماء المسلمين مجموعة من الاقتراحات الجديدة. ووضعت بطريقة ترضى تطلعاتهم وتتضمن ما يلى :-

١- تبني اقتراح مصطفى النحاس باشا رئيس وزراء مصر في تقسيم المقاعد في مجلس النواب بين المسيحيين والمسلمين بنسبة ٢٩-٢٥ .

٢- تعيين سكرتير دولة مسلم جديد توضع بين يديه السلطة التنفيذية ، أما الدكتور ثابت فيصبح اسما للدولة وتقل صلاحياته ويمنع من الوقوف أمام أى مرشح للانتخابات .

٣- يوضع على الرف موضوع المهاجر اللبناني وينظر المجلس النيابي القادم في هذا الموضوع .

٤- تقديم تاريخ الانتخابات إلى آب (أغسطس) (٦٠).

وأمام احتجاجات المسلمين الصارخة وإصرار ثابت على موقفه ، توصل الفرنسيون إلى قرار يقوم على أساس إقالة رئيس الدولة ، الأمر الذي اضطر المنوب السامي الفرنسي جان هيللو Helleu إلى إصدار قرار بإقالة أيوب ثابت من رئاسة الجمهورية وتعيين النائب بترو طراد بدلا منه وذلك في ٢١ تموز (يوليو) ١٩٤٣ ، وكان طراد من طائفة الروم الأرثوذكس وكان تعيينه أيضا بشكل مؤقت وذلك للإشراف على الانتخابات النيابية . وتعيين عبد الله بيهم المسلم السنّي أميناً لسر الدولة وأمين عواد المسيحي الماروني معاوناً لأمين سر الدولة.

وكان على هذه الحكومة أن تضع حلولاً للمسائل الرئيسية التالية:-

١- نسبة المسيحيين إلى المسلمين في مقاعد المجلس النيابي الجديد.

٢- تاريخ الانتخابات .

٣- الإحصاء الرسمي للسكان (٦١).

وأعقب صدور القرار الفرنسي الجديد بإقالة الحكومة السابقة قبول المسلمين للاقتراحات الجديدة التي قدمها كاترو Catroux أخيراً لهم لكنها أثارت معارضة عنيفة من الكليروس المسيحي، ولكن تبين أن كاترو Catroux مصمم على وضع الحال الذي أرتاه ولو بالقوة (٦٢).

باشرت الحكومة الجديدة أعمالها ، لكنها لم تتوصل إلى حل قضية نسبة توزيع المقاعد في المجلس النيابي الجديد وذلك لاختلاف أعضاء الحكومة أنفسهم حول هذا الموضوع، لذلك جرت محاولات للتوفيق بين وجهات النظر المتعارضة وكان آخر تلك المحاولات التي قام بها الفرنسيون والقائمة على أساس الاقتراح المصري الذي اقترحه النحاس باشا ، والذي وافق عليه المسلمون لكن رفضه المسيحيون (٦٣) وتعاون كل من هيللو وسيبيرس الذي زار بطريرك

الموارنة ثم مفتى المسلمين وبعد ذلك أصدر هيللو في ٣١ يوليو مرسوما يجعل عدد نواب المجلس المدعو لعودة تأسيس الدستور ب ٥٥ نائبا بنسبة ٢٥ للمسلمين و ٣٠ للمسيحيين ، على أن يتم إجراء إحصاء في خلال سنتين من تاريخه ، وهذا أدى إلى ظهور المعادلة الشهيرة ٦ للمسيحيين و ٥ للمسلمين .

وينسب الشيخ بشارة الخوري قضية تسوية النسبة الطائفية في المجلس إلى النحاس باشا رئيس وزراء مصر الذي اقنع الجنرال كاتوبها (حقائق لبنانية ص ٢٥٢) أما أئدمون رباط فيرجع الفضل فيه إلى الجنرال سيبيرس^(٦٤).

لقد أدرك الجميع أن ما تم حول قضية نسبة توزيع المقاعد في المجلس النيابي كان عملا قد دبر بين الإنجليز والفرنسيين وتم فرضه من قبلهم، وفي ٤ آب (أغسطس) نشرت الصحف رسالتين متبادلتين بين رئيس الدولة بيترو طراد والبطريرك الماروني، أعطى فيها الأخير موافقته وبركاته للتنظيمات الانتخابية الجديدة ، وفي ٥ آب (أغسطس) نشر مرسوم جاء فيه أن الانتخابات ستجرى في يوم ٢٩ آب أي قبل شهر من التاريخ الذي عينه رئيس الدولة السابق^(٦٥).

على أثر إعلان موعد إجراء الانتخابات دب نشاط واسع في جميع المحافظات اللبنانية، وبدأ تشكيل قوائم المرشحين ، وأخذت تقارير الضباط السياسيين البريطانيين المنتشرين في المناطق اللبنانية تصل إلى المفوضية البريطانية وتغطي الأحداث التي تصاحب هذه المعركة.

ففي موضوع التدخل الفرنسي في تشكيل المرشحين أشار أحد التقارير أنه حدث تدخل عمدت السلطات الفرنسية في صيدا وطرابلس نحو اتخاذ خطوات واسعة في تشكيل قوائم للانتخابات من أولئك الذين يسهل انقيادهم نحو الاتجاه الفرنسي، لذلك وصلت عرائض إلى المسؤولين البريطانيين أعقبتها زيارات لهؤلاء المسؤولين تستفسر عن العمل الذي ستقوم به السلطات البريطانية لمواجهة التدخلات الفرنسية في تشكيل قوائم الانتخابات^(٦٦).

أن النشاط الواسع للمسؤولين الفرنسيين في الانتخابات خاصة فيما يتعلق في تشكيل القوائم وغياب النشاط البريطاني أوجد موجة من الإحباط بين السكان في الوقت الذي بدا الأهالي يشعرون بأن التواجد البريطاني في هذا المجال ليس كافيا لإيجاد أية حرية حقيقية في الانتخابات المقبلة ، وقد جاء في الرسالة المتضمنة لهذا الكلام والمرسلة من الوزير البريطاني السياسي في زحلة يقول التقرير « لا أحد هنا يعتقد اعتقادا كاملا باستقلال لبنان

أو أن الانتخابات ستكون حرة ومن يرغب فى الوصول إلى البرلمان لابد له من دعم فرنسى أو بريطانى وفى بعض الأحوال يمكن التقليل من التأثير الأمريكى، لأن مئات السنين من الهيمنة الأجنبية قتلت الشعور عند اللبنانيون بـ"ثرون القوى الأجنبية على مصالح بلادهم والأشخاص يتابعون أهدافهم القائمة على الأنانية ولتغيير ذلك يحتاج إلى مئات السنين من التربية السياسية"^(٦٧).

ثم ظهر سخط كبير لدى الرأى العام للتدخل الصارخ فى تشكيل القوائم والتي قام بها القسم السياسى فى المنطوية الفرنسية وذلك عن طريق إصدار هذا القسم تعليماته للمستشارين الفرنسيين وخاصة فى صيدا وطرابلس للتدخل المباشر فى الحملة الانتخابية ، فى الوقت الذى أخذ فيه توفيق عواد أحد أعضاء الحكومة الانتقالية يعمل على توجيه الموظفين الرسميين فى منطقته ليعملوا على محاباته وفى هذا إسامة إلى منصبه ^(٦٨).

وقد بدا واضحا الصراع البريطانى الفرنسى من خلال الاستعدادات المكثفة للمرشحين للانتخابات النيابية فبدأت الكتلة الوطنية تنشط فى مختلف المناطق مدعوة من فرنسا ، بينما بدأت بريطانيا تدعم الكتلة الدستورية التى رشحها الشيخ بشارة الخورى، كما اتخذت الانتخابات طابعا آخر هو طابع الصراع بين دعاة العزلة ودعاة الاتحاد العربى، بالإضافة إلى أن الانتخابات اتخذت مظهرا سياسيا طائفيا على أساس أن الكتلتين المتصارعتين كانتا تضمّان من مختلف الطوائف الدينية .

وبدأت الاتهامات المتبادلة تطلق من كلتا الكتلتين فالدستوريين اتهموا أركان الكتلة الوطنية باستسلامهم للفرنسيين وبأنهم ضحوا بمصالح البلاد طمعا بمساعدتهم وأن قوات الأمن الفرنسية سخرت لخدمتهم وأن الأموال وزعت تأمينا لفوز مرشحيهم ، أما الكتلويين فقد اتهموا الدستوريين بأن الإنجليز وعلى رأسهم الوزير البريطانى المفوض سيبيرس Spears لم يدخروا وسيلة إلا استخدموها لإنجاح مرشحي الدستوريين وأن رئيسهم الشيخ بشارة الخورى تناول أموالا طائلة من مصطفى النحاس باشا أثناء وجوده فى مصر للإنفاق على الانتخابات ، وأنه أعطى وعدا مقابل ذلك أن يوجه سياسة لبنان توجيها عربيا^(٦٩) بينما اتهمت اللايدى سبيزر (زوجة الوزير البريطانى المفوض سيبيرس Spears) كلا من المفوض الفرنسى جان هيلو Helleu ومساعدته بـ"غيتز بأنهما تدخلتا فى سير الانتخابات النيابية وعملا على تعبئة رجال الدين المسيحي الموالين لفرنسا ، كما أرسلوا رجال الأمن إلى كافة المناطق

البنانية قبل أسبوع من موعد الانتخابات لإقناع الناخبين وتهديدهم وابتغاع ضمائرهم، غير أن اللابدي سبيرز اعترفت بأن الفرنسيين أنفقوا خمسين مليوناً من الفرنكات على الحملة الانتخابية في حين اتهم زوجها بأنه شوهد يجوب الجبال يحمل أكياساً من الذهب (٧٠).

لكن السلطات البريطانية في لبنان لم تقف مكتوفة الأيدي أمام تلك التدخلات خاصة تلك التي كان يقوم بها ثابت، لذلك اتخذت الخطوات المناسبة لإيصال قلقها إليه حول تدخلاته الصريحة والادعاءات القائلة بأنه ينوي تأجيل موعد الانتخابات وأنه سيزيد من عدد أعضاء المجلس النيابي وإمكانية تغيير المناطق الانتخابية ، ولهذا أعلنت السلطات البريطانية وجهة نظرها حول ذلك (٧١).

كذلك فإن المفوضية البريطانية في بيروت تعد من أسباب المعارضة التي يبديها ثابت نحو المرشحين التابعين لحزب بشارة الخوري تعود في جزء منها إلى اعتقاده بأن اتفاقاً سرياً قد تم بين بشارة الخوري والسلطات البريطانية ، وعلى أساس أن الخوري إذا أصبح رئيساً للجمهورية فإنه سيعمل على ضم لبنان في اتحاد فيدرالي مع دول عربية إسلامية يشجعه البريطانيون ، وهذا يعني أن السلطات البريطانية عقدت صفقة مع الخوري تدعمه في الانتخابات ويضم لبنان إلى ذلك الاتحاد (٧٢).

واستمر التدخل الفرنسي على أشده في الحملة الانتخابية حتى بعد يوم ١٧ آب (أغسطس) وهو آخر يوم لتقديم طلبات الترشيح ، وكان لابد من مواجهة ذلك من قبل السلطات البريطانية حيث قدم الوزير البريطاني المفوض سيبيرس Edward Spears احتجاجاً إلى هيلو Helleu على التدخلات الفاضحة التي كان يقوم بها المسيو بوغيز Boegner والمسيو روزوك Rozek والمستشارين الفرنسيين في صيدا وطرابلس ، وأجاب هيلو Helleu على ذلك بأن أنكر مجموعة التهم الموجهة للفرنسيين ووجه تهماً يقول عنها المفوض البريطاني سيبيرس Edward Spears في تقريره للخارجية البريطانية أنها تهم ضعيفة ضد الضابط السياسي البريطاني في طرابلس، ولكن هيلو Helleu أنهى جوابه بأن وعد الوزير البريطاني المفوض بحجز مستشاريه في بيوتهم حتى نهاية آخر يوم في الانتخابات ، وكان للاحتجاج البريطاني رد فعل آخر بالإضافة إلى جواب هيلو Helleu وهو طلب هيلو Helleu من أعضاء الحكومة الثلاثية أن يكتبوا رسائل يعلنون فيها أنهم لا هم ولا الموظفين التابعين لهم سيتدخلون في الانتخابات (٧٣).

وباقتراب موعد الانتخابات قدمت احتجاجات إلى سلطات الحلفاء تشير إلى الإساءات التي تتم أثناء الحملة الانتخابية وخاصة في منطقة جبل لبنان، كما وصلت من شمال لبنان تلفرافات تحتج على المحاولات الأكيدة التي يقوم بها توفيق عواد والمتعلقة برشوة الإداريين ولهذا فإن التدخل والتحايل كان بدون شك واسعا لكن استطاعت السلطات البريطانية أن تحد من تدخل القوات الفرنسية وقوات الأمن المحلية^(٧٤).

ومن الثابت أن الرشوة تفشت أثناء الانتخابات تفشيا كبيرا، وقد كتب الدكتور مصطفى عز الدين في جريدة النهار عدة مقالات بهذا الصدد تحت عنوان «كيف تستقيم النيابة في لبنان»، أكد فيها انتشار الرشوة مع عدم نفيه وجود وجوه نيابية جديدة^(٧٥). أما صحيفة البيرق الموالية لفرنسا ولاميل إده فقد هاجمت الكتلة الدستورية بسبب ميولها غير اللبنانية، بينما أيدت قائمة الكتلة الوطنية في جبل لبنان لا شئ إلا لأن إرادة الأمة تجلت بأحلى المظاهر في تأييد زعماء هذه الكتلة بالنظر لمبادئهم اللبنانية القديمة الصحيحة على حد قول البيرق^(٧٦).

كما أن الفرنسيين والكتلويين اتهموا الدستوريين بأنهم «مرشحون بريطانيون» بينما ذكرت اللايدى سيبيرز Spears بأن البريطانيين لم يساندوا مرشحا معينا، ولم يتدخلوا بطريقة من الطرق بشؤون الانتخابات ولكنها أضافت بأن القرويين الذين اعتقدوا بأن مرشحيهم الوطنيين كانوا مؤيدين من قبل بريطانيا وأن ذلك لم يسوهم بل ربطوا ما بين الإنجليز وتحقيق آمالهم الوطنية، واعتبرت أن انتشار القوات البريطانية في أنحاء لبنان هي التي أدت إلى حرية اللبنانيين في الانتخابات، بينما لم يعترف الفرنسيون بأنهم كانوا مكروهين حتى في جبل لبنان المسيحي، لكنهم اعتقدوا بأن البريطانيين كانوا وراء ذلك كله، وأن هذه الحملة الاستقلالية كانت مؤامرة بريطانية وأن الوزير البريطاني سيبيرز Spears كان كبير المتآمرين عليهم في البلاد^(٧٧).

ويلاحظ الدبلوماسي لونغريغ Longrigg أن الفرنسيين بذلوا كل ما في وسعهم من أساليب للتأثير على الناخبين في المدن والأرياف وأن عمليات الانتخابات أسفرت عن نجاح أنصار فرنسا في المعقل المارونية مقابل خصومهم في المناطق الأخرى^(٧٨) وفيما يتعلق بنتائج انتخاب الدورة الأولى التي تمت في ٢٩ آب (أغسطس) فقد أسفرت الدورة الأولى عن نجاح مرشحين عديدين، وأن قوائم المرشحين التي دعمت من الفرنسيين في شمال لبنان وجنوبه والبقاع نالت هزيمة قاسية، ومن ناحية أخرى فإن القائمة التي شكلت من قبل المسيو بونغي

لمعارضة جورج ثابت والتي تضمنت اثنان من الرؤساء السابقين الفرد نقاش والدكتور أيوب ثابت ورئيس الوزراء السابق رياض الصلح ثالث فوزا ساحقا ، أما في الجبل فقد حقق ثمانية من سبعة عشر مرشحا أغلبية واضحة منهم سبعة من جماعة أميل اده (الكتلة الوطنية) وواحد وهو كميل شمعون من جماعة بشارة الخوري (الكتلة الدستورية) بينما لم ينجح رئيسا الكتلتين المتنافستين بشارة الخوري وأمیل اده إلا في الدورة الثانية (البالوتاج) ، بعد أن اشتد الصراع بين الكتلتين وكثرت في محافظة جبل لبنان نفقات الانتخابات ولعبت التدخلات الفرنسية والإنجليزية دورها الفاعل ، كما تدفقت عشرات الألوف من الليرات من الجانبين لشراء الأصوات (٧٩). غير أن الانتخابات انتهت بصورة رئيسية بنجاح كاسح ومهم للكتلة الدستورية التي يرأسها بشارة الخوري ضد الكتلة الوطنية التي يرأسها أمیل اده (٨٠).

والواقع أن التنافس الفرنسي- البريطاني لم ينته بانتهاء الانتخابات النيابية إنما استمر وبرز بوضوح في انتخابات رئاسة الجمهورية ، فقد استمرت فرنسا تدعم مرشحها للرئاسة أمیل اده ، بينما قامت بريطانيا بدعم مرشحها بشارة الخوري، غير أن بشارة الخوري نفى هذه التهمة بقوله «أن السلطة الفرنسية أصرت على مخاصمتي ، ولم أجر أي اتصال مباشر بالسلطة البريطانية وكل ما كنت أعرفه أنها لا تنظر إلى أمیل اده بعين الرضى» (٨١)، بينما أكد كمال جنبلاط (٨٢) أنه كان للبريطانيين اليد الطولى في إيصال أعضاء الكتلة الدستورية إلى المجلس النيابي عام ١٩٤٣ ثم إلى الحكم ، وأن الجنرال سبيرس Edward Spears تدخل لدى السفارة البريطانية في بيروت ودوائر الاستخبارات لديها لمناهضة أمیل اده، وأضاف جنبلاط أنه كان بين أعضاء الكتلة الدستورية من اتصفوا بالوطنية الصحيحة والعروبة السليمة، وبعضهم عرف أيضا باتصالاته الأجنبية وعلاقاته المباشرة بدوائر الاستخبارات البريطانية بعد أن كانت لديهم ارتباطات سابقة بالدوائر الفرنسية.

وفي هذا الجو من الصراع السياسي والمحلي والعربي والنولي بدا كل من بشارة الخوري وأمیل اده بممارسة نشاطهما للوصول إلى منصب الرئاسة وبدأت المناورات أولهما لجوء أمیل اده إلى طرح اسم الرئيس بترو طراد ليكون بديلا عنه وعن بشارة الخوري مدعيا أن القبول به ينهي الخلاف بين الموارنة ، غير أن بشارة الخوري رفض هذا الاقتراح ، وراح يجتمع ببعض النواب وبينهم عبد الحميد كرامي وعادل عسييران فأكد لهما استعدادهما للتعاون مع الدول العربية إلى أقصى حد في حال وصوله لرئاسة الجمهورية ، ولكنه رفض اقتراحهما بتوحيد

العلم والجيش والتمثيل الخارجى مع سوريا ، ورأيت فى ذلك تجاوز للحدود فرفضته بكل صراحة » ، فأوضحا له بأن أميل اده قيل اقتراحهما ، فرد بشارة الخورى بأن الوعد شئ والتنفيذ شئ آخر (٨٢).

ثم بعد ذلك تزايدت المناورات السياسية بين القوى الفاعلة ، ففي ١٦ أيلول (سبتمبر) ١٩٤٣ وقبل انتخابات الرئاسة بأيام قليلة، اقترح الجنرال سيبرس Spears على بشارة الخورى بحضور النائب هنرى فرعون الانسحاب لكميل شمعون أو حميد فرنجية أو يوسف اسطفان أو أمين السعد ، ولكن تبين أن هذا الاقتراح كان مجرد مناورة بريطانية انطلقت على الفرنسيين ، وكانت تهدف إلى إجبار فرنسا على القبول ببشارة الخورى (٨٣)، ذلك لأن الفرنسيين ما كانوا ليوافقوا على نجاح كميل شمعون ، وقد أوضح المفوض الفرنسى جان هيللو Helieu لبشارة الخورى «أن كميل شمعون هو خويصة الإنجليز وأنا باسم فرنسا أطلب منك أن ترجع عن تنازلك لمصلحته» (٨٤).

والحقيقة أن المناورات استمرت بين الفرنسيين والبريطانيين واللبنانيين إلى أن اقتنعت فرنسا على مضض بأن وصول بشارة الخورى إلى الحكم يبقى أفضل وأقل خطورة من وصول كميل شمعون و«خويصة الإنجليز» وفي هذا ذكر أميل اده بأن الفرنسيين لم يكونوا معادين للشيخ بشارة الخورى وذلك اعتمادا على ما جاء فى مذكرات الجنرال كاترو Catroux «أن الشيخ بشارة الخورى لم يكن خصما لنا بل بالعكس كان فى جميع أنوار حياته السياسية صديقا مخلصا لفرنسا» (٨٥).

ثم أن بشارة الخورى نفسه ذكر بأنه ما أن اقترب موعد انتخابات الرئاسة حتى زاره موظفان فرنسيان كبيران وعرضا عليه مساعدة المفوض السامى بأصوات النواب الذين ينتمون إلى الموظفين الفرنسيين وتحمل بعض النفقات ، وكان بشارة الخورى حريصا بدوره على استمالة بعض القوى الدينية المارونية ، وقد ذكر سعيد فريجة بأنه مر على منزل بشارة الخورى ورأى أمامه عشرين ظرفا ، فقرأ على الظرف الأول اسم غبطة البطريرك وعلى الثانى اسم أحد المطارنة ، فقال له سعيد فرنجية ألم تنته بعد من الدفع ؟ فأجاب بشارة بأنه جرت العادة أن تدفع لرجال الدين شيئا من المال مقابل إقامة قداس ، ورأى سعيد فريجة أن بشارة الخورى لم ير وسيلة لتحقيق إقناع رؤساء الدين بعدم محاربة ترشيحه للرئاسة أنجح من استعمال المال (٨٦).

ومن جهة ثانية لابد من الإشارة إلى أن رياض الصلح وبعض القوى السياسية الإسلامية لم تكن تؤيد وصول بشارة الخوري للرئاسة الأولى مما دعا سوريا إلى التوسط لإقناع تلك القوى لتأييد بشارة الخوري ، وقد حرص الرئيس السوري شكري القوتلي ورئيس وزرائه سعد الله الجابري- نسيب رياض الصلح- ووزير خارجيته جميل مردم بك على إرسال وفد خاص مؤلف من لطفى الحفار وعفيف الصلح وسواهما إلى بيروت وسبب الحرص السوري على التوسط في هذا الموضوع صادر من وعود بشارة الخوري في القاهرة للوفدين السوري والمصري بأنه سيعمل على تعزيز التعاون العربي إلى أقصى حد، وبالفعل فقد اجتمع لطفى الحفار وعفيف الصلح بكل من رياض الصلح وعبد الحميد كرامي وسامي الصلح وصائب سلام وانتهى الاجتماع بالموافقة على تأييد بشارة الخوري، وكان للموقف السوري أثر واضح في تغيير موقف الزعامات الإسلامية الذين ساهموا في تشكيل جبهة قوية لمساندة الشيخ بشارة الخوري وكان رياض الصلح على رأس هذه الجبهة ، ومن ثم فقد عقد اجتماع ضم بشارة الخوري ورياض الصلح وعبد الحميد كرامي وصائب سلام أعلنوا فيه أن بشارة الخوري هو مرشحهم الوحيد لرئاسة الجمهورية (٨٧).

وقد ذكر بشارة الخوري أن أميل إده استمر في مناوراته حتى آخر لحظة ، فقد اقنع إده رئيس الوزراء الأسبق سامي الصلح بترشيح نفسه لرئاسة الجمهورية في ١٩ أيلول (سبتمبر) ١٩٤٣ ، ورأى بشارة الخوري أن هذه اللعبة سبق أن لعبها أميل إده مع الشيخ محمد الجسر عام ١٩٣٢ غير أن هذه اللعبة فشلت .

واستكمالاً لعملية انتخاب بشارة الخوري للرئاسة فقد اجتمع في منزله في بيروت في ٢٠ أيلول (سبتمبر) ١٩٤٣ أغلبية النواب الموالين، وكتب عبد الحميد كرامي وثيقة بترشيح بشارة للرئاسة ، وكان أول من وقع عليها كرامي نفسه ثم وقع عليها رياض الصلح وصائب سلام. مجيد أرسلان، أحمد الأسعد وغيرهم، وبذلك بدأ بشارة الخوري ليل ٢٠-٢١ يعد الخطاب الرئاسي الذي سيلقيه أثر انتخابه لرئاسة الجمهورية ، واثقا بذلك من نجاحه (٨٨).

و بموجب الدستور اللبناني فكان يجب على المجلس النيابي الجديد أن يجتمع في ٢١ أيلول (سبتمبر) وكانت الأنظار قد بدأت تنصب على من سيكون الرئيس ، وبدأ أن السلطات الفرنسية ستعطي دعمها للدكتور أيوب ثابت والذي تعتبره الزعيم المفضل لدعاه فكرة استقلال لبنان المسيحي، أما بشارة الخوري فبالرغم من أن النتائج العكسية التي حصل عليها في انتخابات الجبل إلا أنه كون رصيذا شعبيا واسعا (٨٩).

وفي ٢١ أيلول (سبتمبر) عقد المجلس النيابي جلسته الأولى التي ترأسها رئيس السن النائب جورج زوين فانتخب المجلس النائب صبرى حماده رئيسا للمجلس النيابي ، ثم بدأ الاقتراع لرئاسة الجمهورية، وبين المرشحين أميل اده وبشارة الخوري وأيوب ثابت والفرد نقاش وبترو طراد والثلاثة الآخرون كان حظهم من الفوز قليلا في البداية فقد ظهر أن الصراع سيكون عنيفا بين اده والخوري ، وكان الدستوريون حلفائهم مقتنعين من الحصول على الانتصار على اده الذي كان معروفا بدعم الفرنسيين له، كذلك فقد أدرك الكثيرون بأنه في حالة هزيمة اده فإنه سيشكل معارضة قوية داخل البرلمان ضد الخوري، ولذلك بدأ البحث عن مرشح آخر للرئاسة وغير حزبي ، لكن هذه الجهود لم تثمر ، وعندما اتفق الوزير البريطاني المفوض وهيللو Helleu كاقترح أخير أن ينسحب كل من اده والخوري وذلك لتجنب نزاع دائم في البرلمان يمكن في النهاية أن يضر بمستقبل البلاد^(٩٠).

وانتهت النتيجة بانتخاب ٤٤ نائبا بشارة الخوري لرئاسة الجمهورية من مجموع الأعضاء البالغ عددهم ٤٧ نائبا ، هذا وقد كشف عن ثلاث ورقات اقتراع بيضاء ، كما غاب عن الجلسة كل من أميل اده وكمال جنبلاط ، أسعد البستاني، جورج عقيل ، أحمد الحسيني، عبد الغنى الخطيب، حبيب تلحوق، وهم نواب الكتلة الوطنية ، كما غاب عنها النائب أيوب ثابت ، أما جورج زوين وأمين السعد فرغم أنهما من الكتلة الوطنية فقد حضرا الجلسة وانتخبا بشارة الخوري^(٩١).

وبذلك تم انتخاب بشارة الخوري رئيسا للجمهورية وقد اعتبر نجاحه انتصارا للقوى الوطنية واعتبر كاترو Catroux أن نجاح بشارة الخوري كان نتيجة للاتفاقات التي تمت بين الزعامات السورية والعربية وليس نتيجة لاتفاق بشارة الخوري مع الزعماء المسلمين واللبنانيين^(٩٢).

مع العلم أن بشارة الخوري قد قرر قبل انتخابه التعاون مع رياض الصلح باعتباره أول أحد العاملين في سبيل استقلال لبنان^(٩٣) بالإضافة إلى هذا الواقع يمكن القول بأن انتخابات الرئاسة أكدت أيضا تبعا للاتجاهات العربية والدولية والتدخلات فيها أن الصراع لم يكن طائفيًا بقدر ما كان سياسيًا ، لاسيما وأن مجموعة من النواب المسلمين أيدوا أميل اده المعروف بتعصبه الطائفي والمعادى للعروبة.

وعلى أي حال فقد استقبل انتخاب الخوري بترحيب كبير من معظم اللبنانيين وانتهى الاعتقاد الذي كان سائدا بأن المجلس النيابي منقسم إلى قسمين متعادلين بين زعامتين متقاربتين ، وتؤكد لدى الجميع بأن الخوري سيدشن سياسة وطنية معتدلة مبنية على التحرر

التدريجى من الهيمنة الفرنسية، وانتخاب الخورى كان معناه أن الهيمنة الفرنسية فى لبنان أصيبت بضربة عنيفة لأنه منذ بدء الحملة الانتخابية فإن المفوضية الفرنسية تداخلت بشكل واضح لمصلحة أميل اده (٩٤).

كذلك فإن انتخاب الخورى أدى إلى ارتياح لدى جميع اللبنانيين ماعدا أولئك الذين رغبوا لأسباب خاصة بهم فى دولة تكون السيادة فيها لفرنسا كما أن الرئيس الخورى، أخذ يعبر فى أحاديثه عن الصداقة وعلاقات الجوار مع البلاد العربية وضرورة التماسك بين الجماعات السياسية فى لبنان واعتبرت أحاديثه تلك دلالة على أن لبنان سيشارك فى مشاريع الوحدة العربية (٩٥).

أما النتيجة المباشرة لانتخاب الخورى فكانت تشكيل وزارة رياض الصلح فى ٢٥ أيلول (سبتمبر) ١٩٤٣ (تم تشكيل الوزارة على النحو التالى رياض الصلح (سنى) رئيسا للوزارة ووزيرا للمالية ، حبيب أبو شهلا (روم أرثوذكس) نائبا لرئيس الوزارة ووزيرا للتربية والعدل، كميل شمعون (مارونى) وزيرا للداخلية والبريد والبرق، سليم نقلا (كاثوليك) وزيرا للخارجية والأشغال ، عادل عسيران (شيعى) وزيرا للاقتصاد ، مجيد أرسلان (درزى) وزيرا للدفاع والصحة ، ولقد تمثلت فيها جميع الطوائف الدينية أكثر مما تمثلت فيها الاتجاهات السياسية، وذكر الرئيس بشارة الخورى من أنه ارتقى اختيار وزيرين من الكتلة الوطنية هما جورج زوين وجبرائيل المر، غير أن أميل اده رفض اشتراكهما فى الحكم (٩٦).

وفى ٧ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٤٣ عقد المجلس النيابى جلسة ألقى فيها رياض الصلح بيانه الوزارى، وقد حرص كل من الوزير البريطانى المفوض Spears وقنصل مصر أحمد رمزى بك على ضرورة هذه الجلسة ، عالج فيه جميع الأمور التى تهم الدولة والمواطنين على السواء لتحريير الدستور من كل النصوص التى تكرس الانتداب الفرنسى وتنظيم الحكم الإدارى والوطنى ليصبح حكما صالحا تبرز فيه حسنة العهد الاستقلالى الدستورى، وتطرق للتعاون مع الدول العربية المجاورة لأن لبنان نوجه عربى كما أشار الصلح فى بيانه إلى أسلوب الحكم فى المستقبل وضرورة تعديل الدستور وإلغاء الطائفية والقضاء على مساوئها لأنها تسمم روح العلاقات بين الجماعات الروحية التى يتألف منه الشعب اللبنانى كما ركز البيان على بعض التعديلات فى السياسة الداخلية والخارجية، ومن أهمها تعديل الدستور على أساس إلغاء تلك الفقرات التى لا تتناسب مع الاستقلال ، واعتبار اللغة العربية هى اللغة الرسمية للبلاد وإصلاح النظام الانتخابى (٩٧).

وكان لهذا البيان أثر كبير على فئات الشعب لأنه أوجد طريقة نحو الاستقلال وتوحيد الصفوف، كما أنه اعتبر بمثابة اتفاق بين المسلمين والمسيحيين على عدد من المبادئ الأساسية^(١٨) وبعد إلقاء البيان الوزاري ناقشه مجموعة من النواب، وحاولت المعارضة المدفوعة من أجل أميل اده عدم وضع برنامج الحكومة للتصويت لكن هذا الاقتراح هزم ووضع البرنامج للتصويت وتمت الموافقة عليه بأغلبية ساحقة بلغت اثنين وخمسين صوتاً ثم انتهت الجلسة بإعطاء الحكومة الثقة^(١٩).

والحقيقة أن الحكومة اللبنانية عقدت عزمها منذ البدء على تقليص النفوذ الفرنسي بتعديل الدستور اللبناني ، بما يضمن استقلال لبنان عن فرنسا فسعى رياض الصلح أولاً إلى صيغ لبنان بالصيغة العربية فأصدر تعميماً وزع على مختلف الدوائر الرسمية طلب فيه استخدام اللغة العربية كلغة رسمية وحيدة للبلاد جاء في تعميم رئيس الوزارة رقم ١٢٥ ما يلي «أرجو من حضراتكم أن تصدروا التعليمات اللازمة إلى جميع الدوائر التابعة لوزارتكم بأن جميع المخابرات والمعاملات بين الدوائر الرسمية يجب أن تحرر من الآن فصاعداً باللغة العربية التي هي لغة البلاد الرسمية وذلك عملاً بالعهد الذي قطعتة الحكومة على نفسها في البيان الوزاري»^(٢٠).

ومما لا شك فيه أن ظهور حكومة وطنية في لبنان كان ضربة قوية للسلطات الفرنسية، ولذلك بدأت المناوشات بين هذه الحكومة وتلك السلطات منذ تشكيلها ، ففي حفلة العشاء التي أقامها الرئيس اللبناني الشيخ بشارة الخوري وحكومته للمندوب السامي ومستشاريه السياسيين ومن ضمنهم المسيو شاتانيو السكرتير العام للمندوبية ، أخبر المسيو هيلو Hel-leu الرئيس بوضوح بأنه لن تتم تنازلات للحكومة اللبنانية حتى يتم إلغاء الانتداب عن طريق عقد معاهدة ، وحدث نقاش مع رئيس الحكومة رياض الصلح الذي ذكر بأن الاستقلال كان قد تم إعلانه ، فأجابوا هيلو Hel-leu بأنه لن يتم تسليم السلطات للحكومة اللبنانية قبل انتهاء الحرب وعقد معاهدة، ثم حدثت مجادلة بين الطرفين وبدأ أن موضوع المعاهدة محور النقاش ، وانتهت المجادلة بدون نتيجة وأصبح الانطباع السائد عند هيلو Hel-leu بأن كلا من رئيس الجمهورية ورئيس الوزراء لن يوقع على معاهدة مع لجنة التحرير الفرنسية تحت أية ظروف^(٢١).

وفي ١٦ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٤٣ أصدر رئيس الوزراء أوامره باستبدال الأوامر العسكرية من اللغة الفرنسية إلى اللغة العربية ، كما تألفت لجنة خاصة لوضع المصطلحات

اللازمة لأفراد الدرك والشرطة باللغة العربية، بالإضافة إلى ذلك فقد قرر رئيس الوزراء فتح مدرسة ليلية لتعليم الموظفين الذين لا يتقنون العربية مبادئ هذه اللغة وكانت أول نتيجة لاستخدام اللغة العربية في المعاملات الحكومية تعطيل عمل المستشارين الفرنسيين الذين لم يعد بوسعهم أن يشتركوا في الإشراف والمراقبة على سير إدارات الدولة كما أدت إلى أنه في ٢١ تشرين الأول (أكتوبر) عارض جان هيلو Helleu استخدام العربية مكان الفرنسية وأن ذلك يعتبر مخالفاً لصك الانتداب ، ومخالفاً لنصوص الدستور اللبناني، كما أن صك الانتداب لا يخول للبنان حق تعديل الدستور منفرداً (١٠٢).

وذلك لأن الانتداب لا يزال موجوداً وأن فرنسا ستستمر في حمل المسؤوليات المعلقة لها من الانتداب ولا يمكن التخلص منه إلا من قبل عصبة الأمم أو تحل محلها هيئة دولية أخرى، ولذلك فإن لجنة التحرير الوطني الفرنسية سوف لن تسمح بأي تعديل في الدستور من جانب الحكومة اللبنانية وتستنكر أية مناقشة لهذا الموضوع في المجلس النيابي ، وأضاف هيلو Helleu في رسالته «بأن لجنة التحرر الوطني الفرنسية على استعداد للبحث مع الحكومة اللبنانية ترتيبات معينة يمكن أن تسهل تطوير لبنان إلى الاستقلال الكامل وأن فرنسا لا تزال مصممة على وضع أسس عامة للعلاقات اللبنانية الفرنسية (١٠٢).

لم توافق الحكومة اللبنانية على ما جاء في رسالة هيلو Helleu وأخذت تتعرض لضغط شديد من قبل المجلس النيابي لفتح باب المناقشة حول تعديل الدستور كجواب عليها، كذلك حاول رئيس الوزراء أن يحث الفرنسيين على سحب تلك الرسالة التي اعتبرت تهديداً للحكومة اللبنانية ، لكن الفرنسيين رفضوا سحبها ، وأعلم المسيو شاتانيو رئيس الحكومة بذلك ، وكرد فعل لهذا الرفض سلمت الحكومة اللبنانية المسيو شاتانيو مذكرة تحوي أربعة مطالب هي:

١- المندوبية الفرنسية في بيروت يجب أن تتحول إلى شعبة دبلوماسية .

٢- يجب أن يحصل لبنان على سيادته الحقيقية.

٣- جميع المطالب والخدمات التي تدار حالياً من قبل المفوضية يجب أن تنتقل إلى الحكومة اللبنانية .

٤- عائدات المصالح المشتركة يجب أن تعطى للحكومة اللبنانية والسورية، وألحقت بهذه المذكرة نسخة من اتفاق حول هذا الموضوع تم مع الحكومة السورية (١٠٤).

كما ذكر الرئيس تقي الدين الصلح بخصوص معارضة المحامين الموارنة الذين يتقنون الفرنسية ويجهلون العربية وسواهم من المنتفعين رفضوا حركات تعريب الدولة لأنهم كانوا ضد الاستقلال وضد إلغاء المحاكم التي يترافعون بها وهؤلاء هم اليسوعيون المؤمنون بالحماية الفرنسية ، وأضاف قائلا «هذه الجرثومة اليسوعية انطفأت بصورة مؤقتة لدى اليسوعيين والمتعصبين غير أنها عادت لتنمو شيئاً فشيئاً بعد اغتيال رياض الصلح : وبالفعل فقد اعتبر البعض أن تعريب لبنان هي مسألة خطيرة وهو أخطر قرار بحق الشعب المسيحي لأنه أعطى الشرعية القومية لمن يريد تعريبه بالقوة» (١٠٥).

وبالرغم من أن السياسة البريطانية كانت مؤيدة للعهد الاستقلالي الأول، غير أن تقريراً بريطانياً صادر في ٢٩ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٤٣ ، كشف عن مدى انتقاده لقرارات من البيان الوزاري لاسيما حول اللغة العربية كلفة رسمية في الدولة، فأشار التقرير إلى أن اللغة الفرنسية لا تقل أهمية عن اللغة العربية وأنه كان من الأفضل عدم تركيز رئيس الوزراء على هذه النقطة بقوة، وأن استخدام اللغة الفرنسية أو عدم استخدامها هو موضوع يجب أن يتم عبر الاتفاق ، ثم أشار التقرير إلى ضرورة الاهتمام بموضوع إحلال الموظفين اللبنانيين مكان الموظفين الفرنسيين ، كما أشار إلى أن وزير العدل يحضر لمشروع إلغاء المحاكم المختلطة ، بينما يحبذ الفرنسيون بقاء هذه المحاكم بسبب ارتباطهم الدولية (١٠٦).

أما فيما يختص بالدستور اللبناني فقد عزم رياض الصلح على تعديله وفاء بتعهداته لاسيما أنه سبق أن أشار في بيانه الوزاري أنه لا بد من تعديله، بحيث يصبح ملائماً كل الملائمة لمعنى الاستقلال وفيه ما يجعل لغير الشعب اللبناني وممثليه الشرعيين مشاورة في تسيير شؤونه (١٠٧).

وكانت الحكومة اللبنانية منذ أواخر تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٤٣ قد أبلغت المفوض السامي الفرنسي هيلو Helleu عزمها على استلام جميع المصالح اللبنانية وتحويل المفوضية الفرنسية إلى بعثة دبلوماسية ، غير أن لجنة الجزائر رفضت تحقيق ذلك ما لم يوقع على اتفاق بين البلدين يحدد العلاقات بينهما (١٠٨).

وفي ٣٠ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٤٣ قامت الحكومة اللبنانية بالرد السامي على رسالة هيلو Helleu وقد صيغ الرد بتعبير معتدله في بدايتها لكنها أنهت بتعبير عنيف واستعملت كلمة السفير بدل المنسوب للتعبير عن منصب هيلو Helleu على أساس أن لبنان دولة مستقلة

، وفي ٥ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٣ ، وجهت اللجنة الوطنية رسالة إلى رئيس الجمهورية اللبنانية تعلمهم أن الفرنسيين لن يسمحوا بإجراء أى تعديل فى الدستور اللبنانى من جانب واحد (١٠٩).

وتلقى الصحافيون اللبنانيون دعوة من مدير قلم المطبوعات الفرنسى للحضور إلى دائرة المطبوعات لإعلامهم بذلك البلاغ ونشره فى صحفهم دون مناقشة سواء فى الاجتماع معه أو على صفحات الصحف (١١٠)، كما أن المسئول العسكرى الفرنسى دافيد David سلم البلاغ نفسه إلى رئيس الوزراء الذى أنكر حق فرنسا فى التدخل فى الشؤون الداخلية اللبنانية ، كما أن بعض الصحف اللبنانية أيضا أشارت إلى حق لبنان بتعديل دستوره (١١١). غير أن مجلس الوزراء أصدر بلاغا بعد ظهر ٥ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٣ ، اعتبر فيه أن تعديل الدستور حق من حقوق السلطات الدستورية اللبنانية وفقا لأحكام المادة ٧٦ وما يليها من الدستور ، ثم قدم مجلس الوزراء للمجلس اللبنانى مشروع تعديل الدستور فى بعض مواد التى تتعارض مع استقلال لبنان (١١٢).

وكان هيلو Helleu قد سافر إلى الجزائر للتشاور وحث رياض الصلح قبل سفره على تأجيل أى عمل إلى ما بعد أسبوعين ، وفى الجزائر تشكلت لجنة مؤلفة من ديجول وماسيغلى Massigli مفوض الشؤون الخارجية وكاترو Catroux وأعطت هيلو Helleu تعليمات «بأن لا يتم بأى حال من الأحوال نقل السلطات والخدمات التى تقوم بها فرنسا فى لبنان على أساس الانتداب حتى تصل فرنسا إلى تنظيم تعاقدى مع لبنان يقوم على أساس معاهدة تنظم العلاقات بين الطرفين بشكل عام» وعندما طلب هيلو Helleu من اللجنة أن تحدد موقفها من شرعية تعديل الدستور اللبنانى من طرف واحد وهو الحكومة اللبنانية والبرلمان اللبنانى ، أجابت اللجنة على ذلك «بأن التعديل لا يتم إلا عن طريق اتفاق مع ممثلين فرنسيين ، ولذلك فإن لجنة التحرير الوطنى الفرنسية لن تعترف بشرعية تلك التعديلات إذا تمت».

وفى طريق عودته حيث وصل إلى القاهرة علم هيلو Helleu بأن المجلس النيابى سيناقش لائحة التعديلات بعد ظهر ذلك اليوم ٨ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٣ ، فاتصل تليفونيا بالحكومة اللبنانية وأعلمها «بأنه سيكون فى بيروت بعد ظهر غد وهو يطلب تأجيل الجلسة حتى يعود لأنه يحمل تعليمات من لجنة التحرير الوطنى الفرنسى تحوى اقتراحات نتيجة اتصالاته معها» .

ومن جهتهم فإن الفرنسيين حاولوا إقناع رياض الصلح بالعدول عن تنفيذ قرار تعديل الدستور ولكنه رفض طلبهم ، فما كان منهم إلا أن حاولوا إقناع ٧١ نائبا بالتغيب عن جلسة تعديل الدستور التي حددت في ٨ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٣ وذلك لتعطيل الجلسة، كما أن المفوضية الفرنسية أظهرت من خلال هذه الممارسات بأنها غير راضية إطلاقا في إنهاء انتدابها عن لبنان ، ورأى كاترو Catroux أن أقصى ما تسمح به المفوضية هو إبدال الانتداب بمعاهدة تستوحى من بنود اتفاقية ١٩٣٦ ، كما سعى بعض كبار الموظفين الفرنسيين في المفوضية الفرنسية مثل بار ودافيد وشانيتيو إلى إقناع بعض النواب بعدم القبول بتعديل الدستور وبممارسة الضغوط عليهم أحيانا^(١١٣).

وفي ٧ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٣ اجتمع ١٢ نائبا في مكتب الرئيس الأسبق أميل اده^(١١٤)، الذي اتصل بمدير الأمن العام غونيه وأخبره أن الجماعة حضروا ، فما كان من غونيه إلا أن طلب منهم عدم حضور جلسة تعديل الدستور، غير أن عددا من النواب رفضوا وأصروا على حضور الجلسة وإقرار التعديل رغم التهديد الفرنسي لهم^(١١٥). والحقيقة أن المجلس النيابي كان في هذه الفترة ينقسم إلى ثلاث مجموعات مجموعة تتصرف بوحى من وطنيتها اللبنانية ، ومجموعة تتصرف بوحى من السياسية الفرنسية ومجموعة ثالثة تتصرف بوحى من السياسة البريطانية ، وقد صرح النائب أحمد الحسينى الموالى لأميل اده بالقول «لا أريد أن استبدل سيذا بسيد ودولة منتدبة عرفناها بدولة منتدبة بريطانية نعرف عنها الشئ الكثير»^(١١٦).

وكان جواب الحكومة اللبنانية على كل ذلك هو انعقاد جلسة مجلس النواب في مساء ٨ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٣ ، وتغيب عنها النواب أيوب ثابت وأحمد الحسينى ودو كالوسيان ، واقترح كل من أميل اده وجورج عقل وأسعد البستاني في بداية الجلسة إحالة مشروع التعديل إلى لجنة خاصة لمراجعته فرفضت الحكومة الاقتراح وأيدها المجلس النيابي في ذلك فانسحب أميل اده من الجلسة قبل مناقشة مشروع التعديل ، ثم أقر ٤٨ نائبا من المجلس المشروع وبالإجماع وتغيب سبعة عن حضور الجلسة. وقد تناول التعديل المواد (١) و ١١ و ٥٢ و ٩٠ و ٩١ و ٩٢ و ٩٥ و ١٠٢، وقضت التعديلات بإلغاء المواد والفقرات المتعلقة بالانتداب والدولة المنتدبة ، كما أنها جعلت اللغة العربية لغة رسمية وحيدة في لبنان^(١١٧).

واعتبر الوزير البريطانى المفوض الجنرال سبيرس Edward Spears أن هذا التعديل هو السبب المباشر للأزمة السياسية اللبنانية ، وعندما وصل هيلو Helleu إلى بيروت في

اليوم التالي علق على ذلك بقوله «سأدرس القرارات وسأأخذ الإجراء المناسب لهذا التحدي»^(١١٨).

وعلى الفور وقع رئيس الجمهورية على مشروع التعديل ونشر في اليوم الثاني في الجريدة الرسمية ليصبح نافذ المفعول^(١١٩) وفي مساء يوم ٩ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٣ تناول هيلو Helleu العشاء مع الوزير البريطاني المفوض الجنرال سبيرس Edward Spears فذكره الأخير «أن يتجنب أى عمل يمكن أن يؤدي إلى اضطرابات عامة أو إجراءات من شأنها أن تؤثر في المجهود الحربي، ووعد هيلو Helleu سبيرس بأنه لن يقدم على أى عمل»^(١٢٠).

فإذا به يصدر قرارا في ١٠ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٣ ، رقم (464 / F.C) علق بموجبه العمل بالدستور اللبناني وحل المجلس النيابي وألغى التعديلات الدستورية، ثم أصدر في اليوم نفسه قرارا ثانيا يحمل الرقم (465 / F.C) عين بموجبه أميل اده رئيسا للجمهورية والحكومة بصفة مؤقتة^(١٢١).

وفي ليل ١٠-١١ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٣ نفذ هيلو Helleu خطته في اعتقال وسجن رئيس الجمهورية ورئيس الوزراء ثم الوزراء ، سليم تقيلا ، كميل شمعون ، عادل عسيران، والنائب عبد الحميد كرامي ونقلوا جميعا إلى قلعة راشيا^(١٢٢)، ويذكر Edward Spears أنه عندما اعتقل الفرنسيون بشارة الخوري اعتقلوا معه نجله ووضعوه في السرداب وأخذوا يوجهون له إهانات كقولهم (ابن الكلب ، ابن الإنجليزى) وقد أكد بشارة الخوري بنفسه هذه الحادثة^(١٢٣).

ولما انتشرت أخبار ذلك أغلقت الحوانيت في بيروت وحدث اضطراب شعبي وأطلق الفرنسيون النار على المتظاهرين ، وفي يوم ١١ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٣ أعلن منع التجوال وفرض الأحكام العرفية، ولما حاول الرئيس أميل اده تشكيل حكومته رفض جميع السياسيين مشاركته الحكم، ولما حاول إشراك بعض المديرين العاملين أعلنوا أيضا رفضهم الاشتراك في الحكم وأصدروا بيانات بهذا الخصوص^(١٢٤).

بينما كان أميل اده لا يستطيع في هذه الفترة الخروج إلى الشوارع إلا بحماية الدبابات والسيارات العسكرية الفرنسية ، ولذا فقد حاول هيلو Helleu تهدئة الأوضاع بإسناد رئاسة الوزراء إلى سامي الصلح- وهو مسلم وابن عم رياض الصلح- غير أنه رفض هذا العرض قائلا «إنى ملتزم بموقف رفاقي وإنى أصر على استقلال البلاد وإخلاء سبيل المعتقلين فوراً»^(١٢٥).

وفي صباح ١٢ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٢ وصل تقرير هيللو Helleu عن الإجراءات التي قام بها إلى لجنة التحرير الوطني الفرنسية في الجزائر وكانت وجهة نظر كاترو Ca-troux أن العمل الذي قام به هيللو Helleu لا يمكن تبريره لاشريعيا ولا سياسيا ولا أخلاقيا ، ولذلك يجب أن يستدعى حالا ، بينما كانت وجهة نظر ديغول هي دعم إجراءات هيللو Helleu. ثم تقرر أن يذهب كاترو Catroux بنفسه إلى لبنان لدراسة الموقف (١٢٥).

وفي ١٢ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٢ اجتمع ٣٤ نائبا في منزل النائب صائب سلام، وقد اتخذوا عدة قرارات لدعم الحكومة واعتبروا أن الدستور اللبناني لا يزال قائما، وأن حكومة أميل اده غير شرعية ، وفي الوقت نفسه عقد مؤتمر وطني في بيروت للبحث فيما يجب اتخاذه، وقد تم انتخاب لجنة تنفيذية لمتابعة الموضوع (تكونت اللجنة التنفيذية على النحو التالي: سليم إدريس، جورج حنا، محمد خالد، حبيب روبير، مصطفى بيضون ، رثيف أبي اللمع، فريد طليع ، إلياس اليفقليني، يوسف عطية ، ميثال فرعون، أحمد الداعوق، نقولا بستلايس ، سليم الحليارة ، سعيد فريحه ، رينيه سرسق ، محسن الدين النصرلي، محمد علي بيهم، إبراهيم الأحذب، عبد الرحمن سحمراني، أمين الحلبي، إيلي خياط ، تقى الدين الصالح، جورج ريس، إبراهيم عودة ، الياس طرابلسي، كمال خير، مصباح بحصيلي، إيلي فارس، سامي عبد الملك، جورج عاقوري، ارتين مابويان) وقد استنكر المؤتمر الإجراءات الاستبدادية الصادرة عن المفوضية لجنة فرنسا، واعتبر أن الحكومة الشرعية هي وحدها دون سواها صاحبة الحق للتكلم والمفاوضة باسم لبنان (١٢٦).

وكان طلاب مدارس جمعية المقاصد الخيرية الإسلامية والجامعة الأمريكية يتظاهرون ضد السلطة الفرنسية ، وقتل منهم الطالب هاني غنور كما جرح ابن وزير تمويل سوريا، ثم قام مفتي الجمهورية اللبنانية محمد توفيق خالد والمطران الماروني اغناطيوس مبارك وصلا إلى منزل Edward Spears وقد طلبا منه الدعم والتأييد ، ثم طلب منه المطران مبارك باسم المسيحيين التدخل المسلح وكان حينذاك يهتز بشئ من السخط والهياج (١٢٧).

كما شاركت المرأة اللبنانية بعدد من المظاهرات منددة بالفرنسيين طالبة من Edward Spears إرسال برقية احتجاج باسم المرأة اللبنانية إلى رئيس وزراء بريطانيا (١٢٨) وذكر كاترو أن جان هيللو Helleu قد وحد لبنان كله ضد فرنسا في ليلة واحدة (١٢٩).

فقد بدأت الحركة الشعبية ضد السلطة الفرنسية في منطقة البسطة في غربي بيروت ثم ما لبثت أن امتدت إلى الجميزة وما جاورها من شرقي العاصمة ثم امتدت إلى عدد من المناطق

اللبنانية ، وبالفعل فقد كانت أحداث ١٩٤٣ فرصة ليحقق اللبنانيون أمانهم خاصة وأن الرأي العام أخذ يتقارب كثيرا وبدأ اللبنانيون ينسجمون ويتوافقون (١٣٠).

ولما كانت فرنسا قد حاولت تثبيت صفوف اللبنانيين على أمل إيجاد حوادث تمكنهم من استمرار انتدابهم ، وكان محمد جميل بيهم قد اقترح في اجتماع المؤتمر الوطني في ١٣ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٣ إرسال وفد من المؤتمرين لمقابلة البطريرك الماروني انطون عويضة لإطلاعه على تطورات الأوضاع قبل أن يتصل به الفرنسيين وعملاتهم ، وبالفعل اتصلوا به الفرنسيون وحاولوا إقناعه بأن حركة المقاومة ليست إلا حركة إسلامية قصدوا بها طغيانهم وإضعاف المسيحيين (١٣١).

ولما شعر الفرنسيون بفشل مساعيهم مع البطريرك الماروني عمدوا إلى بث الفتن الطائفية وبذلوا جهودهم لحصر نطاق الثورة في المناطق الإسلامية (١٣٢)، لتأكيد وجهة نظرهم القائلة بأنها ثورة إسلامية ، ثم بدأت السلطات الفرنسية بث الشائعات المفروضة بين الفئات الإسلامية والمسيحية والتي اتخذت طابعا طائفيا (١٣٣) أما فيما يختص بالصحافة اللبنانية فقد كانت منقسمة إلى عدة اتجاهات سياسية فبعضها مؤيد للفرنسيين والبعض الآخر معاد لهم، وقد كانت صحف البيرق والبشير وصوت الأحرار والشرق وسوريا الصادرتان باللغة الفرنسية تدعم موقف فرنسا وقد تعرضت هذه الصحف لغضب المتظاهرين الذين رموها بالحجارة والقنابل مما اضطرروا إلى الإقفال ، كما قامت السلطات الفرنسية بإقفال أربعين صحيفة وكان هذا أمرا صعبا على اللبنانيين المعادين لفرنسا، ولذا قرر الشباب الوطني اللبناني إصدار صحيفة لاتحمل اسما أو عنوانا سوى علامتى استفهام ؟؟ وكانت لها نور كبير في إزعاج السلطات الفرنسية وتوعية المواطنين ، وعمدت السلطات على تشويه هذه الصحيفة فأصدرت صحيفة مزورة تحمل نفس الاسم وهى علامتان استفهام وكانت تطبعان في المطبعة الكاثوليكية للأباء اليسوعيين باللغة العربية واللغة الفرنسية وتوزع بكثرة فى أنحاء لبنان وكانت تهاجم الحركة الوطنية الشعبية (١٣٤) .

وفى ١٣ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٣ أعلن في الجزائر بأن الإجراء الذى قام به هيلو Helleu اتخذ بدون علم لجنة التحرير الوطنى الفرنسية ، لكنه فى اليوم التالى لهذا الإعلان أخبر هيلو Helleu مؤتمرا صحفيا فى بيروت بأن اللجنة المذكورة هى التى اتخذت القرار وأنه أوضح لديجول بأن الشعب اللبنانى سيقوم باضطرابات إذا نفذ الإجراء المتعلق باعتقال

وسجن رئيس الجمهورية ومجلس الوزارة ولكن الجنرال ديجول طلب منه أن يستمر في ذلك (١٣٥).

وفي الوقت ذاته وجه القائم بأعمال الوزير البريطاني المقيم في الجزائر مذكرة للسلطات الفرنسية هناك جاء فيها «إن الحكومة البريطانية لن توافق على تفاقم الحالة في لبنان وإن تتحمل قيام اضطرابات خطيرة في هذا البلد خلال الحرب ، لأنه في مثل هذه الحالة فإن الحكومة البريطانية مضطرة للتدخل في النهاية بواسطة القوات البريطانية لإعادة النظام» (١٣٦).

وفي اليوم نفسه أيضا تلقى رينيه ماسيغلي R. Massigli وزير الخارجية في اللجنة الوطنية لفرنسا الحرة، مذكرة من روجرز ماكنز R. Makins الوزير البريطاني جاء فيها «أن حكومة صاحب الجلالة لا يمكنها بوجه من الوجوه أن توافق على خطورة الحالة في الشرق ، ولا تهضم وقوع اضطرابات جديدة أثناء الحرب ، والحكومة ترى ضرورة تدخلها عسكريا لإعادة الهدوء إلا إذا سحبت فرنسا مندوبها هيلو Helleu وأطلقت سراح المعتقلين» (١٣٧).

ونلاحظ من خلال هذه المذكرة حدة الصراع والتنافس البريطاني الفرنسي على لبنان ، بحيث وصل إلى إمكانية التدخل العسكري البريطاني، وفي الوقت نفسه كان الجيش التاسع البريطاني قد وزع في لبنان إعلانا هاما جاء فيه أن السلطات البريطانية لا تؤيد اعتقال الحكومة اللبنانية وأن البريطانيين سيحافظون على الوعود التي قدمت عندما انتزعت البلاد من القوات الفيشية (١٣٨).

وفي ١٥ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٣ وصل كاترو Catroux إلى القاهرة واستدعاه الوزير البريطاني المقيم في الشرق الأوسط كاسي Casy والذي كان قد عاد من بيروت لتوه وأخبره بأن الحكومة البريطانية تعتبر أن الحالة في لبنان خطيرة جداً ، وأي تأخير من جانبه في حل المشكلة سيضطر بريطانيا إلى التدخل العسكري، وأجابه كاترو Catroux بأنه لم يقبل أي تدخل أجنبي في موضوع الخلاف الفرنسي اللبناني» (١٣٩).

ومنذ اللحظة التي وصل فيها كاترو Catroux إلى بيروت في ١٦ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٣، تأكد له قوة الرأي العام في لبنان وجدية بريطانيا في تصرفها مع الأزمة، ثم تأكد له هذا الموقف بعد أن اجتمع مع الوزير البريطاني المفوض وبعد مشاورات أجراها مع أصحاب الشأن من الزعماء الدينيين المحليين ووجهائهم ، كذلك فإن أحدا منهم لم يعط جوابا إيجابيا

بأنه على استعداد لدعم أميل اده الرئيس المعين أو يعلن أنه يحبذ ما قام به هيللو حتى البطريك الماروني أبدى معارضته ولم يوافق على الإجراءات الفرنسية الأخيرة ، كل ذلك جعل كاترو Catroux وغيره من أعضاء لجنة التحرر الوطني الفرنسية يدركون في النهاية خطورة الموقف (١١٠).

كما أن إطالة مدة الأزمة أدت إلى التأثير على الأحوال ونفاذ الصبر أخذ يتسع ومظاهر الثورة تزداد وزعماء الفلاحين في البقاع بدؤوا يتسلحون وينظمون أتباعهم وينسقون مع أي انتفاضة تحدث في أي مكان آخر في لبنان، ولاحظت السلطات البريطانية أن اللبنانيين أخذوا يصعدون من حركتهم لإعطاء الذريعة لإجراء تدخل عسكري مضاد ضد الفرنسيين ، فقد استطاع الوزيران اللذان كانا خارج الاعتقال جمع عدد كبير من الأتباع من قرى الجبل وجعلوا من قرية بشامون مقبلاً لهم وأعلن الوزيران فيها أنهما يمثلان الحكومة الشرعية ، في الوقت الذي تابع فيه مجلس النواب اللبناني المنحل عقد جلساته في البيوت الخاصة واعترف بحكومة بشامون ، وأصدر جملة قرارات مهمة من ضمنها إلغاء العلم اللبناني القديم واستبداله بعلم جديد يرمز إلى استقلال لبنان (١١١) .

وفي ١٩ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٣ عاد المعتمد البريطاني كيزي Casey من القاهرة إلى بيروت واجتمع بالجنرال كاترو Catroux وسلمه بحضور الوزير المفوض سيبيرز Ed-waed Spears إنذاراً من بريطانيا والحلفاء تضمن أنه في حالة عدم إنهاء الأزمة فإن الجيش البريطاني مضطر للتدخل العسكري لتوطيد الأمن وإعادة الأوضاع اللبنانية إلى طبيعتها ، وأن حكومة صاحب الجلالة قد أطلقت يد وزير الدولة البريطاني كيزي Casey في حرية التصرف وإعلان الأحكام العرفية في لبنان وتسلم قائد الجيش التاسع مهمة الأمن، وأنه إذا لم يخل سبيل رئيس الجمهورية والوزراء قبل الساعة العاشرة من صباح الاثنين ٢٢ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٣ فإن الجيش البريطاني يتولى هذه المهمة « ونحن نؤكد أن تدخل بريطانيا ليس له هدف خاص أو إبدال نفوذ فرنسا بنفوذ بريطانيا » وفي ٢١ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٣ تسلم سيبيرز Edward Spears برقية من كيزي Casey عالج فيها الموقف اللبناني كما أشار إلى مسؤولية الإنجليز الدولية حيال الوضع الراهن في لبنان (١١٢).

وكانت أجهزة الإعلام الفرنسية قد بدأت تتهم البريطانيين بأنهم يعملون للسيطرة على سوريا ولبنان وأن Edward Spears هو المحرك الأول في المؤامرة البريطانية ورأى

الفرنسيون أنهم إذا تخلصوا من سيبيرز Edward Spears فعندئذ يصبح كل شيء على ما يرام في لبنان، ولهذا فإنهم حاولوا اغتياله ولكنهم فشلوا في تحقيق ذلك ، وذكر كاترو -Ca- troux أن سيبيرز Spears كان طموحا ويود أن يصبح الرجل الأول الذي يكون له الفضل التاريخي في إزاحة فرنسا عن الشرق، لاسيما وأن الشرق العربي كان تحت سيطرة العسكرية، غير أنه لم يرد أن يقلد النازية فيدوس فرنسا علنا ، كما ذكر بانتخابات رئاسة الجمهورية اللبنانية فأوضح بأن سيبيرز Spears ساهم كثيراً في دعم لائحة بشارة الخوري تحت ستار إنقاذ البلاد من الفرنسيين وإعطاء اللبنانيين استقلالهم ، وقد تعهد بشارة الخوري حينئذ بمقابل هذا التأييد أن يسير في ركاب السياسة البريطانية . هذا وقد شعر كاترو بأن الصراع ليس بين الفرنسيين واللبنانيين والدول العربية بقدر ما هو صراع بين الفرنسيين والإنجليز^(١٤٣).

وفي هذه الفترة تسامل ونستون تشرشل W. Churchill رئيس الوزراء البريطاني عن سبب إقدام فرنسا على حركة اعتقال رئيس الجمهورية ومجلس وزرائه ، وكيف يمكن لها أن تفسر رغبتها في إجلاء الألمان عن أراضيها وهي تبشر بالاستعمار في غير بلادها ، ورأى أن الحل يكمن في تدخل بريطاني - أمريكي لحل الأزمة التي خلقت «لنا الفرصة السانحة أمام الرأي العام العالمي لنبحث جدياً أمر ديغول ولنوقفه عند حده ، ورأى تشرشل ضرورة إطلاق سراح رئيس الجمهورية وبقية المعتقلين ، فإذا رفض ديغول هذا الحل نبادر إلى إلغاء اعترافنا باللجنة الوطنية الفرنسية ووقف القوى العسكرية الفرنسية الموجودة في أفريقيا، ولقد أصدرت أوامري للجنرال ويلسون أن يكون على استعداد لفرض النظام والهدوء في لبنان^(١٤٤).

ومنذ ذلك الوقت بدا الموقف البريطاني الحازم يعطى ثماره المرجوة وتأثيره الفاعل حيث أصدرت لجنة التحرير الوطني الفرنسية تعليماتها بإطلاق سراح رئيس الوزراء والوزراء بالإضافة إلى عبد الحميد كرامي، كذلك أعلن بان المسيو Helleu سيستدعى من بيروت وفعلاً تم إطلاق سراح جميع المعتقلين يوم ٢٢ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٢ ، فاستقبلت لبنان ذلك بابتهاج عظيم والعلم الفرنسي الثلاثي الألوان مع شجرة الأرز مزق أرضاً بعد إنزاله عن المباني الحكومية واستبدل بالألوان الوطنية الأحمر - الأبيض - الأحمر مع شجرة الأرز، وفي اليوم نفسه عاد رئيس الجمهورية والوزراء إلى مكاتبهم في المباني الحكومية وزاولوا وظائفهم الرسمية ، وأعيد فتح البرلمان وأعطى رئيس الوزراء أوامره بإنهاء الاضطرابات^(١٤٥).

وعلى ضوء ذلك بدأت الحياة السياسية تعود إلى حالتها السابقة وصدرت نشرة باسم منظمى النجادة والكتائب تطلب من الشعب اللبناني حل الاضراب واستئناف الحياة العادية^(١٤٦).

وفى مساء ذلك اليوم أذاع كاترو Catroux كلمة فى راديو المشرق بين فيها الأسباب التى جعلت لجنة التحرر الوطنى الفرنسية تقوم بإجراءاتها الأخيرة^(١٤٧).

موقف الدول من هذه الأزمة :

كان لعملية الاعتقال أصداء مولية تشكلت فى الاستتكرات والاحتجاجات التى وجهها المحليون وكذلك بالإنذار الأول الذى وجهه سيبيرز إلى هيلو يوم الاعتقال، يذكره بوعده الشفوى وكلام الشرف الذى أكدده خلال الحفلة التى أقيمت على شرف الملك اليوغسلافى ، بأنه سيتجنب كل ما من شأنه أن يعكر الأمن، ثم يضيف قائلاً «وأنا أترك لغيرى الحكم على عملى هذا بأن تعطى وعدا وتنقضه بعد ساعات قليلة ومن العسير أن يتصور المرء إجراءات تعكر الأمن وتعرقل مجهود الحرب فى هذه البلاد أكثر من عملى» .

ولقد جاء موقف الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى الذى أعلن موقفه فى ١٦ نوفمبر مماثلين للموقف البريطانى ، وبالنسبة للأمريكيين فالجدير بالذكر أنهم تعاوتوا مع البريطانيين لإنهاء الأزمة اللبنانية لأن ذلك يضاعف من نفوذهم فى الأوساط اللبنانية خاصة وهم لم يوقعوا على هك الانتداب ، ولهذا فقد وجد الأمريكيون الفرصة سانحة لهم لإبداء معارضتهم للفرنسيين عندما تعرض طلاب الجامعة الأمريكية فى بيروت لنيران الجنود الفرنسيين وجرح منهم أكثر من عشرة طلاب، الأمر الذى أدى إلى إخال جنود أمريكيين إلى بيروت بحجة حماية الجامعة الأمريكية والمفوضية الأمريكية أيضا، وفى منتصف شهر تشرين الثانى (نوفمبر) ١٩٤٣ ، أرسلت الولايات المتحدة الأمريكية مذكرة إلى اللجنة الفرنسية فى الجزائر تضمنت تحذيرات شديدة اللهجة وتهديدات فى حال استمرار التعنت الفرنسى الذى لا يضر بفرنسا ولبنان فحسب ، وإنما بجميع دول الحلفاء الذين لا يريدون الانشغال عن الحرب العالمية الدائرة فى أوروبا وبقية بلدان العالم ، وقد أوضح شابان Chapin المسئول فى وزارة الخارجية الأمريكية ، فى مذكرة لوزارة الخارجية الفرنسية بأن فرنسا تحافظ على مصالحها أكثر وأفضل إذا أعطت الاستقلال للبنان فورا ، عوضا عن إصرارها على الانتداب ، إذ أنها لو اعتمدت سياسة استعمارية فهى لن تنتظر انفجار الجماهير ضدها فحسب ، بل أن الحكومة

الأمريكية ترى أيضا بأن الاضطرابات تضر بمجهود الحلفاء العسكري، خاصة وأن الشعوب تنتظر تحقيق وعود أمريكا الهادفة إلى تقرير مصير تلك الشعوب^(١٤٨) ، ويقول كاترو في هذا الصدد «اتفق الأمريكيون والإنجليز على خطة واحدة ضدنا»^(١٤٩).

أما الاتحاد السوفيتي فقد أبدى تأييده للبنانيين في أزمته لاسيما وأن السوفيات كانوا يعانون من وطأة الاحتلال الألماني لأراضيهم ، بالإضافة إلى تحالفهم - المؤقت - مع الولايات المتحدة وبريطانيا وذلك منذ الهجوم الألماني على الاتحاد السوفيتي في ٢٢ حزيران (يونيو) ١٩٤١ ، وكان لابد من اتخاذ موقف موحد وبالفعل فقد أرسلت حكومة الاتحاد السوفيتي مذكرة لكل من المسؤولين الأمريكيين والبريطانيين أعلنت فيها تأييدها لوجهة نظرهما حيال قضية لبنان وأنها تقف إلى جانب الشعب اللبناني لنيل استقلاله الحقيقي كما طالبت المذكرة بإطلاق سراح المعتقلين^(١٥٠).

أما بالنسبة للموقف العربي من أزمة تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٢ ، فقد استطاعت الدول العربية التحرك لدعم موقف لبنان إما بإيحاءات بريطانية وإما من منطلقات عربية ، فبعد اعتقال رئيس الجمهورية ورئيس الوزراء قامت المظاهرات الصاخبة في سوريا والعراق ومصر وفلسطين^(١٥١).

كما قام تحسين قدرى القائم بالأعمال العراقى فى بيروت بإرسال مذكرة إلى جان هيللو Helleu أكد فيها أن ما قام به يعتبر عملا شاذًا ، وأن العراق حكومة وشعبا يحتج بشدة على العمل الذى قامت به فرنسا فى لبنان^(١٥٢).

أما الملك فاروق ملك مصر فقد أرسل رسالة إلى رئيس الجمهورية تسلمتها الحكومة المؤقتة فى بشامون أيد فيها قضية لبنان ومما قاله فيها «أنتا لوائقون بأن الشعب اللبنانى بالغ فى ظل الكرامة والحرية والشرف ما هو جدير به من سيادة ومجد ، ولست فى حاجة لأن أؤكد لفخامتكم أن الشعب اللبنانى يستطيع أن يعتمد على صداقتنا وصداقة حكومة وشعب مصر فى ساعة الشدة والخرج التى تمر»^(١٥٣).

وفى ١٢ تشرين الثانى (نوفمبر) ١٩٤٢ وهو عيد الجهاد الوطنى فى مصر، ألقى مصطفى النحاس رئيس الوزراء المصرى خطبة ندد فيها بالفرنسيين ، وحيث فيها الحركة اللبنانية الاستقلالية وطالب الدول العربية بدعم القضية اللبنانية ، كما قدم مذكرة إلى الجنرال بيچول قال فيها «فإذا لم تعد الحالة فى لبنان إلى وضعها المنطقى فإن مصر تعيد النظر فى موقفها من فرنسا على ضوء الحوادث الجارية»^(١٥٤).

كما أن الشعب المصري بجميع فئاته لاسيما الفئة المثقفة منه من طلاب الجامعات قد قاموا بتنظيم المظاهرات الصاخبة تأييدا للبنان وتجاوبا مع إخوانهم الطلاب اللبنانيين»^(١٥٥).

وكان الجنرال كاترو Catroux قد وصل إلى القاهرة في ١٥ تشرين (نوفمبر) ورفض في البدء زيارة النحاس باشا، أما مباحثاته مع كيزي Casey المعتمد البريطاني للشرق الأوسط، فقد انتهت إلى إصرار كاترو على استمرار الانتداب الفرنسي وركز على آثام الجنرال سيبيرز الذي ينبغي أن يستدعى إلى بلاده جنبا إلى جنب مع المفوض هيللو Helleu^(١٥٦).

أما فيما يختص بالموقف السوري فقد بدأت حركة مظاهرات واسعة النطاق مؤيدة للبنان ، وكانت الحكومة السورية برئاسة سعد الله الجابري تراقب الوضع اللبناني ثم ما لبثت أن وجهت إنذارا إلى كاترو في ٢١ تشرين الثاني (نوفمبر) طالبت فيه إرجاع الحياة الدستورية إلى ما كانت عليه في لبنان ، وإلا تتحملون وهدكم المسؤوليات.

كما أوبرق الملك عبد العزيز آل سعود ملك السعودية إلى الحكومتين الأمريكية والبريطانية محتجا على سياسة الفرنسيين ، ووقف اليمن وشرقي الأردن إلى جانب لبنان ، وقد أرسل الأمير عبدالله أمير شرقي الأردن رسالة إلى البطريك الماروني أيد فيها لبنان ضد الممارسات الفرنسية ، ونظرا للموقف العربي المؤيد للبنان، اتخذت السلطات الفرنسية قرارا يمنع دخول الصحف العربية إلى لبنان غير أن هذا القرار لم يمنع تسرب بعض الأعداد لاسيما من فلسطين إلى الداخل^(١٥٧).

وكان لابد من حدوث خطوة مهمة كانت السلطات الفرنسية تتردد في أجزائها وهي الاعتراف بشرعية الحكومة اللبنانية بعد إطلاق سراح رئيس الجمهورية وأعضاء حكومته ، وأمام الضغط البريطاني العنيف على لجنة التحرر الوطني الفرنسية لإعطاء اعتراف رسمي بالحكومة اللبنانية ، وفي توصية من الجنرال كاترو لتلك اللجنة ، فإن اللجنة وفي وقت متأخر من مساء يوم ٢٣ تشرين الثاني (نوفمبر) أعطت الصلاحية لكاترو بإبلاغ رئيس الجمهورية بهذا الاعتراف وقد وصله ذلك وبصورة رسمية في صباح يوم ٢٤ تشرين الثاني (نوفمبر)^(١٥٨).

وبعد هذا الاعتراف الرسمي بالحكومة اللبنانية ظهر واضحا قوة موقف الرئيس اللبناني وحكومته، ومع ذلك فقد أبدى المسئولون اللبنانيون رغبتهم في الوفاق وتجنبوا التحريض في تصريحاتهم ، وفي ٢٩ تشرين الثاني (نوفمبر) حدث اجتماع ضم من الجانب اللبناني الرئيس بشارة الخوري ورئيس الوزراء وزير الخارجية ، ومن الجانب الفرنسي الجنرال كاترو والمسيو

بارت Bart المفوض الجديد للبنان، وفي هذا الاجتماع لم يتطرق كاترو إلى موضوع المعاهدة وكان هذا اتجاها جديدا، فقد عبر عن شعوره في إمكانية حل كثير من المسائل بطريقة ودية ، في الوقت الذي يمكن فيه إعطاء فرنسا وضعاً مميزاً وهو ما اعترفت به بريطانيا سابقاً، لكن الرئيس اللبناني ومن معه رفضوا أن يرتبطوا بشئ من هذا مع الفرنسيين وبعد مشاورات مع باقي أعضاء الحكومة اللبنانية توصلت الحكومة اللبنانية إلى نتيجة وهي أن أى اعتراف بذلك سيستغله الفرنسيون إن عاجلاً أو آجلاً^(١٥٩).

وقبل عودة كاترو إلى لبنان والتي تمت في ١٦ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٤٣ وذلك للتفاوض مع الحكومة اللبنانية من أجل تسوية تنهى الأزمة السياسية في لبنان ، حدثت عملية تطهير في الوظائف القيادية الفرنسية في لبنان وقد شملت كل من بوغنز Boegner وبایلين Baelon ، كذلك اجتمع المجلس النيابي في أول ديسمبر للمرة الأولى منذ الأزمة الأخيرة وحضر الاجتماع أربعة وأربعون نائباً وبعد قراءة محاضر الجلسات التي عقدت في خارج قاعة البرلمان أكد رئيس الوزراء أن الحكومة اللبنانية لم تعترف بالانتداب ولن تعترف به ثم قال أمام النواب «لبنان الحق في أن يكون حراً وأن استقلاله قد تأمن من قبل تعهدات الحلفاء وميثاق الأطلنطي»^(١٦٠).

وفي ٢٤ كانون الثاني (يناير) ١٩٤٤ تم توقيع على البرتوكول الخاص بتسليم المصالح المشتركة Interet Communs ، وفي نفس الوقت أوضح الوزير البريطاني أنتوني إيدن بأن الحكومة البريطانية قد اعترفت باستقلال لبنان وسوريا وضمنت هذا الاستقلال وهي لم تفكر قط في التراجع عن هذه الخطوة، كما أوضح له «أنكم أصدقاءنا والفرنسيون هم أيضاً أصدقاءنا وأنه ليكون أدعى بكثير لراحة وزير الخارجية الذي هو أنا أن توافقوا إلى إيجاد حل فيما بينكم للمسائل التي تفرقكم»^(١٦١).

وهذا القول في رأينا يشير إلى أن بريطانيا لن تتدخل للضغط على فرنسا من أجل سحب قواتها من لبنان بل تنتظر من لبنان وفرنسا أن يتفقا معاً على حل هذا الموضوع ، كما أوضح كميل شمعون الوزير اللبناني المفوض في لندن لإيدن وزير الخارجية البريطانية بأن فرنسا تريد أن تفرض على لبنان معاهدة تضمن لها مركزاً ممتازاً في بلاد الشرق، فكرر إيدن مجدداً موقفه السابق مطالباً بإيجاد تسوية بين لبنان وفرنسا .

الهوامش

- ١- محمد كمال الدسوقي : الحرب العالمية الثانية، دار المعارف ، القاهرة، ١٩٦٨ ، ص ١٢٣ .
- ٢- فيشي Vichy مدينة صغيرة قرب باريس اتخذت مقرا لحكومة فيشي ١٩٤٠-١٩٤٤ التي حكمت فرنسا بعد سقوط باريس في الحرب العالمية الثانية والتي ألغى المارشال بيتان .
- 3- George Kirk; The Middle East in The War , Survey of International Affaires, 1939-1946 (London Oxford Universty, Press, 1952, p. 86 .
- ٤- كان بيتان قد تسلم الحكم في ١٧ حزيران (يونيو) ١٩٤٠ بعد استقالة رينو .
- ٥- للإطلاع على النص الكامل لبند الهدنة انظر:
The Bulletin of Internaional News, Vol XVLL, No 13 , June 29 , 1940 ,p. 780.
- ٦- حول هذه الأهمية لبريطانيا راجع:
Winston Churchill ; The Second World War , vol . 5 . (London Cassel and Company Ltd, 1965 . p. 390 .
- ٧- للإطلاع على موقف الفرنسيين الأحرار حول هذا الموضوع: راجع الجنرال ديغول : مذكرات عن الحرب العالمية الثانية ج (١) تعريب خيرى حماد، بغداد مكتبة المنار، ١٩٦٤ ، ص ٢٤ .
- 8- Stephen Hemdy Longrigg; Syria and Lebanon Under Mendate (London Oxford Universty), Press, 1958 , p. 56 .
- ٩- للإطلاع على هذه الخطة راجع . . Churchill Winston , vol , 5 p. 296 .
- 10- The Bulletin of International News: vol XVLL , No 14 , July 13, 1940 , p. 18 .
- ١١- كان الجنرال دانتيز قد عين القاضي الفرد نقاش رئيسا للبلوة ، كما تشكلت وزارة برئاسة أحمد الداعوق ، راجع : بشارة خليل الخوري: الخوري: حقائق لبنانية، ثلاثة أجزاء حريصا ١٩٦٠ / ١٩٦١ الجزء الأول ، ص ٢٣٨ .
- ١٢- حول هذه النجدة وتأثيرها الإيجابي على الحلفاء راجع :
- Albert Hourani ; Syria and Labanon , A Political Eaay (London Oxford Universty, Press, 1945 , p. 239 .
- ١٣- للإطلاع على نص هذه الشروط انظر . George Kirk; Op. cit. p. 314.
- 14- Archives diplomatiques Minstere des Affaires Etrangères Serie . Landres Guerre 1939-1945 . Comite National Francais Symbole (M.A.E) C.N.F. vol 42 . p. 231.

- 15- H. M. Wilson ; Eight Years Overseas 1939 -1947 (London Hatchinson , 1948), pp. 113 114 .
- 16- Archives Diplomatique Minister des Affaires , Etrangeres Series, Repport a La Societe des Nations sur la situation de La Syrie et de Liban. 1945 .
- 17- Winston Churchill ; Op. cit, vol , 3 , p. 297 .
- ١٨- شارل ديغول : مذكراته السياسية ج ٢ ، تعريب وتعليق خيرى حماد ، بيروت ، ١٩٦٤ ، ص ٢٣٩ .
- 19- Archives diplomatique Minster des Affaires Etrangeres Serie . Landres Guerre 1939 - 1945 . Comite National sur La situation de la Syrie et de Liban . 1945 . p. 124 .
- ٢٠- بشارة الخوري : حقائق لبنانية ، ثلاثة أجزاء ، حريصا ١٩٦٠ / ١٩٦١ . الجزء الاول، ص ٢٣٨ .
(في برقية من كاترو إلى ديغول يذكر أن حكومة الداعوق قد تشكلت في ٢ / ١٢ / ١٩٤١ يعاونه
ارثوذكس ، ١ روم كاثوليك ، اقلية بروتستانت ، وتشير البرقية أن الحكومة استقبلت بالترحيب رغم
معارضة تجمع بشارة الخوري والبطريرك لها) .
- 21- Archives diplomatiques Minstere des Affaires Etrangeres Serie .
Landres Guerre 1939-1945 . Comite National Francias Symbole (M.A.E) C. N. F.
vol 40 . p. 53-54 . 75 . et vol 42 . pp. 136-137 .
- 22- Archives diplomatiques Minstere des Affaires Etrangeres Serie .
Landres Guerre 1939-1945 . Comite National Francias Symbole (M.A.E) C. N. F.
vol. 40 , p. 166 .
- 23- Archives diplomatiques Minstere des Affaires Etrangeres Serie .
Landres Guerre 1939-1945 . Comite National Francias Symbole (M.A.E) C. N. F.
vol. 41 . p. 5 de Catroux a Francelib .
- 24- Foreign Offic F.O . 371 / 31471 . E 369 / 207 / 89 Confidential General Spears to
Minister of State (Cairo) Beirut Febraury 26 , 1942 .
- 25- Foreign Office. 371 / 31471 . E . 3331 / 369 / 207 Confidential , Issued by . Syria
to Mission April, 4, 1942 .
- 26- Archives Diplomatique, Ministeres des Affaires , Etrangeres series, Levant Syria
Liban 1920, 1945 .
- 27- Foreign Office . 371 / 31471 . E . 2276 / 207 Confidential , Issued by . Syria to

Mission , No , 9 , April , 1942 .

28- Foreign Office . 371 / 31471 . E . 2691 / 207 . Secret No 10 , Issued by . Syria to Mission , 22 . May . 1942 .

29- F. O . 371 / 31473 . E 3331 / 207 / 89 . Confidential , No , 11 , May . 30 , 1942 .

30- F. O . 371 / 31474 . E 4347 / 207 / 89 . Confidential , No , 16 . July 3, 1942 .

31- F. O . 371 / 31474 . E 4507 / 207 / 89 . Confidential , No , 17 , July . 7 , 1942 .

32- Foreign Office . 371 / 31474 . E . 4507 / 207 No , 8 , Issued by . Syria to Mission , July , 31 . 1942 .

33- Archives diplomatiques Ministère des Affaires Etrangères Serie . Landres Guerre 1939-1945 . Comité National Français Symbole (M.A.E) C.N.F. vol 41 . p. 111 .

34- F. O . 371 / 35174 . E 845 / 27 / 89 , February 16 . 1943 .

35- F. O . 371 / 35147 . E 719 / 27 / 89 , Secret No , 44 , February , 3 , 1943 .

36- Archives diplomatiques Ministère des Affaires Etrangères Serie . Landres Guerre 1939-1945 . Comité National Français Symbole (M.A.E) C.N.F. vol 41 . p. 321 .

37- F. O . 371 / 35175 . E. 300 / 27 / 89 , Secret No, 48, March 3 , 1943 .

38- F. O . 371 / 35176 . E . 1708 / 27 / 89 , Secret No , 49 , March 10 , 1943 .

39- F. O . 371 / 35176 . E . 1589 / 27 / 89 , Secret No, 49 , March 17 , 1943 .

40- Archives diplomatiques Ministère des Affaires Etrangères Serie . Landres Guerre 1939-1945 . Comité National Français Symbole (M.A.E) C.N.F. vol 41 . p. 262.

41- F. O . 371 / 35176 . E, 1708 / 27 / 89 . Secret , No , 49 . March 11, 1943 .

42- Archives diplomatiques Ministère des Affaires Etrangères Serie . Landres Guerre 1939-1945 . Comité National Français Symbole (M.A.E) C.N.F. vol 42 . p. 231 .

43- Ministère des Affaires , Etrangères series, Rapport à la société des Nations sur la situation de la Syrie et de Liban . 1943 . vol . 31 . p. 1231 .

44- Stephen Hemdy Longrigg , op. cit . p. 295 .

45- Edward Spears ; Fulfillment of a Mission Syria and Lebanon , United Empire XXXVI . 1977 . p. 47 .

- 46- F. O. 371 / 35176 . E , 1918 / 27 / 89 . Secret , No , 52 . March 31 , 1943 .
- 47- F. O. 371 / 35177 . E , 2642 / 27 / 89 . Secret , No . 57 . Apr 28, 1943 .
- 48- F. O. 371 / 35177 . E, 2798 / 27 / 89 . Confidential , No , 58 . May 6, , 1943 .
- 49- Edward Spears ; Op. cit. p. 143 .
- 50- F. O. 371 / 35177 . E, 2965 / 27 / 89 . Secret , No , 57 . May 19, 1943 .
- 51- Georg Kirk ; Op. cit, p. 162 .
- 52- Archives diplomatiques Ministere des Affaires Etrangeres Serie . Landres Guerre 1939-1945 . Comite National . vol 31 . p. 1231 .
- 53- Minister des Affaires , Etrangeres series, Repport a la societe des Nations sur la situation de la Syrie et de Liban . 1926- 1950 . vol . 12 . p. 341 .
- ٥٤- بشارة خليل الخوري : حقائق لبنانية ، المصدر السابق ج ١ ، ص ٢٤٦ .
- 55- F. O . 371 / 35177 . E, 3691 / 27 / 89 . Secret , No . 64 . July 6, 1943 .
- ٥٦- محمد جميل بيهم : لبنان بين المشرق والمغرب ١٩٢٠-١٩٦٩ ، بيروت ١٩٦٨ ، ص ١٢٢ .
- ٥٧- كمال صليبي: تاريخ لبنان الحديث ، بيروت ، دار النهار ، ١٩٨٤ ، ص ٢١٧ .
- 58- Archives diplomatiques Ministere des Affaires Etrangeres Serie . Landres Guerre 1920-1945 . vol 2 . p. 321 .
- 59- Archives diplomatiques Ministere des Affaires Etrangeres Serie . Landres Guerre 1939-1945. Comite National Francais Sympole (M. A. E) C. N.F. vol 43. p. 143.
- 60- F. O . 371 / 35179 . E, 4142 / 27 / 89 . Secret , No , 67 . July 14 , 1943 .
- ٦١- بشارة خليل الخوري : حقائق لبنانية ، المصدر السابق . ج ١ ، ص ٢٢٧ .
- 62- F. O . 371 / 35179 . E, 4281 / 27 / 89 . Secret , No , 68 . July 21 , 1943 .
- 63- F. O . 371 / 35179 . E, 4459 / 27 / 89 . Secret , No , 69 . July 20, 1943 .
- 64- Admon : La formation Historique , du Laban Politique et Censtitutionnel . e. Roabbarto . p. 452 .
- 65- F. O . 371 / 35179 . E, 4611 / 27 / 89 . Secret , No , 70 . 1, Augest , 1943 .
- 66- F. O . 371 / 35180 . E, 4990 / 27 / 89 . Secret , No , 62 . 1, Sep , 1943 .
- 67- F. O . 371 / 35175 . E, 845 / 27 / 89 . Secret , No , 45 . Feb, 10 , 1943 .
- 68- F. O . 371 / 35180 . E, 5104 / 27 / 89 . Secret , No , 75 . 1, Sep , 1943 .

- ٦٩- يوسف مزهر : المرجع السابق ، ج ٢ ص ١٠٧٦ .
- ٧٠- اللابدي سبيرز : قصة الاستقلال في سوريا ولبنان ، تعريب منير البعلبكي، بيروت، ١٩٧٤ ، ص ٧٦ .
- 71- F. O . 371 / 35180 . E, 5104 / 27 / 89 . Secret , No , 75 . 1, Sep , 1943 .
- 72- F. O . 371 / 35177 . E, 2484 / 27 / 89 . Secret , No , 56 . 8, April , 1943 .
- 73- F. O . 371 / 35181 . E, 5810 / 27 / 89 . Secret , No , 74 . 1, Sep , 1943 .
- 74- F. O . 371 / 35180 . E, 5104 / 27 / 89 . Secret , No , 75 . 1, Sep , 1943 .
- ٧٥- انظر مقالات الدكتور مصطفى عز الدين في جريدة النهار، العدد ٢٧٨٠ ، ٢٦ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٤٣ ، والعدد ٢٧٨٢ ، ٢٨ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٤٣ ، العدد ٢٧٦٣ ، ٦ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٤٣ .
- ٧٦- البيرق ، العدد ٢٧٦٣ ، ٦ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٤٣ .
- ٧٧- اللابدي سبيرز : المرجع السابق ، ص ٧٨ .
- 78- Stephen Hemdy Longrigg , Op. cit, p. 329 .
- ٧٩- بشارة الخوري: المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٢٥٦ .
- 80- Arab World Political and Diplomatic History 1900 . 1957 , vol 2, 1942, 1952 .
29 August 1943 .
- ٨١- بشارة الخوري : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٢٥٨ .
- ٨٢- كمال جنبلاط (١٩١٧-١٩٧٧) أحد الزعماء السياسيين البارزين في لبنان دخل المجلس النيابي لأول مرة عام ١٩٤٣ ، وفي أول مايو ١٩٤٩ أسس الحزب التقدمي الاشتراكي ، كان أحد زعماء ثورة عام ١٩٥٨ ضد عهد كميل شمعون، ولعب دورا بارزا في كل العهود السياسية ، وتبوأ مناصب وزارية أكثر من مرة، كما لعب دورا فاعلا في أحداث لبنان ١٩٧٥-١٩٧٦ وترأس الحركة الوطنية، له عدة مؤلفات في السياسة والأدب ، اغتيل في ١٦ آذار (مارس) ١٩٧٧ .
- أنظر ، كمال جنبلاط : حقيقة الثورة اللبنانية ، ص ٢١ .
- ٨٢- بشارة الخوري: المرجع السابق، ج ١ ، ص ٢٥٨ .
- ٨٣- يوسف مزهر : المرجع السابق، ج ٢ ، ص ١٠٨٣ .
- 84- Archives diplomatiques Minstere des Affaires Etrangeres Serie . Landres Guerre
1939-1945. Comite National Francais Sympole (M. A. E) C. N.F. vol 43. p. 112.
- 85- G. Cat roux; Op. cit . p. 239 .
- ٨٦- بشارة الخوري : المرجع السابق ج ١ ، ص ٢٦٤ .

- ٨٧- مذكرات سامي الصلح: المرجع السابق، ص ٢٣١ .
- ٨٨- بشارة الخوري : المرجع السابق ، ج ٢، ص ٢٦٥ .
- ٨٩- يوسف مزهر : المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ١٠٨٥ .
- 90- F. O. 371 / 35182 . E, 5567 / 27 / 89 . Secret , No , 76 . 22 , Sep , 1943 .
- ٩١- بشارة الخوري : المرجع السابق ، ج ٤ ص ٢٧ ، ١ .
- 92- A. Williams , Britain and France in the Middle East and North Africa. p. 321 .
- 93- Minister des Affaires , Etrangeres series, Repport a la societe des Nations sur la situation de la Syrie et de Liban . 1939-1945 . vol . p. 212.
- 94- F. O. 371 / 35182 . E, 5700 / 27 / 89 . Secret , No , 77 . 22, Sep , 1943 .
- 95- F.O. 371 / 35182 . E, 5639 / 27 / 89 . Secret , No , 78 . 29 , Sep , 1943 .
- ٩٦- بشارة الخوري : المرجع السابق ج ٢، ص ١٩ .
- ٩٧- راجع نص البيان في، مضبطة الجلسة الثالثة لمجلس النواب اللبناني، ٧ تشرين الأول (أكتوبر ١٩٤٣) ، ص ١١-١٧ ، النهار ، أعداد ٢٧٦٩ ، ٢٧٧٠ ، ٩٨ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٤٣ ، بيار زيادة : مجموعة الوثائق الدبلوماسية والسياسية- لبنان ص ٩١ .
- 98- E, Abouchdid : Thirty Year of Lebanon and Syria 1917- 1947 p. 19 .
- ٩٩- منير تقي : ولادة الاستقلال ص ٣٧ ، محمد جميل بيهم : النزاعات السياسية بلبنان ص ٩٧ .
- ١٠٠- انظر النهار، العدد ٢٧٧٢ ، ١٤ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٤٣ ، والعدد ٢٧٧١ ، ١٢ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٤٣ ، صوت الأحرار العدد ٥٠٥٨ ، ١٤ تشرين الأول (١٩٤٣) .
- 101- F. O. 371 / 35182 . E, 6239 / 27 / 89 . Secret , No , 81 . 20 Oct, 1943 .
- 102- Archives diplomatiques Minstere des Affaires Etrangeres Serie . Landres Guerre 1939-1945 . Comite National Francais Symbole (M.A.E) C.N.F. vol 44 , p. 101 .
- 103- F. O. 371 / 35182 . E, 6239 / 27 / 89 . Secret , No , 82 . 27 , Oct, 1943 .
- 104- Archives diplomatiques Minstere des Affaires Etrangeres Serie . Landres Guerre 1939-1945. Comite National Francais Sympole (M. A. E) C. N.F. vol 44, p. 231.
- ١٠٥- وليد فارس : التعددية في لبنان ، الكسليك ، لبنان، ١٩٦٤ ، ص ١٥٥ .
- 106- F.O. 371 / 35183 . E, 6213 / 27 / 89 . Secret , No , 83 , to Speras . No . E. 6451, in F.O. 371 / 35183 / 89 .

١٠٨- انظر البيان الوزاري في مضبطة الجلسة الثالثة لمجلس النواب اللبناني، في ٧ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٤٣ من ص ١١-١٩ .

١٠٩- بشارة الخوري: المرجع السابق، الجزء الثاني، ص ٢٣ .

110- Archives diplomatiques Minstere des Affaires Etrangeres Serie . Landres
Guerre 1939-1945. Comite National Francais Sympole (M. A. E) C. N.F. vol 44.
p. 111.

111- F. O. 371 / 35183 . E, 6213 / 27 / 89 . Secret , No , 83 . 6 , Nov, 1943 .

١١٢- انظر تعديلات هذه المواد في الدستور اللبناني مع تعديلاته ١٩٦٢، ص ٧-٢٠ ، مضبطة الجلسة الثالثة لمجلس النواب اللبناني ٨ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٣ ص ٤٠-٥٣ ، بشارة الخوري : حقائق لبنانية ص ٢٧-٩٢ .

113- Archives diplomatiques Minstere des Affaires Etrangeres Serie Landres Guerre
1939-1945 , Comite National Francais Symbole (M.A.E) C.N.F. vol 44. p. 331 .

١١٤- من هؤلاء النواب كمال جنبلاط ، عبد الفنى الخطيب، أحمد الحسيني، جورج زوين، جورج عقل، أسعد البستاني، جميل تلحوق، أمين السعد ، جبرائيل المر ، وديع الأشقر.

١١٥- منير تقي : المرجع السابق ، ص ٤٩ .

١١٦- البشير : العدد ٦٩٧٩ ، ١٠ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٣ .

١١٧- انظر تعديلات هذه المواد في الدستور اللبناني مع تعديلاته ١٩٦٢ ، ص ٧-٢٠ ، مضبطة الجلسة الثالثة لمجلس النواب اللبناني ٨ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٣ ص ٤٠-٥٣ .

118- Edward Spears ; Op. cit , p. 173 .

119- E. Rabbath, Op. cit. pp. 459-469. للمزيد من التفاصيل انظر.

120- Edward Spears ; Op. cit . p. 174 .

١٢١- للمزيد من التفاصيل الواقية يوما بيوم من ٧ إلى ٢٤ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٣ انظر :

Kessings Contemporary Archives 1943-1945 . vol , V. pp. 6109-6111, A . W. 11.

Now 1943 , W, B. Fischer, The Middle East. p. 493 .

١٢٢- (للمزيد انظر اللايدي سيبيرز Spears المصدر السابق ص ٨١-٨٤ ، بشارة الخوري ، ج ٢ ،

ص ٣٢-٣٩ ، يوسف مزهر ج ٢ ص ١١٢٨ . Edward Spears : Op. cit . p. 225-229 .

123- Edward Spears ; Op. cit. 228 .

124- E. Rabbath ; Op. cit. p. 94 .

- 125- Archives diplomatiques Ministere des Affaires Etrangeres Serie . Landres
Guerre 1939-1945. Comite National Francais Symbole (M. A. E) C. N.F. vol 44.
p. 261.
- ١٢٦- منير تقي: المرجع السابق ، ص ١٥١ .
- ١٢٧- اللاليدى سيبيرز : المرجع السابق ، ص ٨٥ .
- ١٢٨- انظر نص البرقية . Edward Spears , p. 237 .
- 129- Catroux ; Op. cit p. 414 , Stephen Hemdy Longrigg Op. cit. p. 332 .
- ١٣٠- كمال جنبلاط : حقيقة الثورة ١١١ .
- ١٣١- يوسف مزهر : المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ١١٦٦ .
- ١٣٢- أنيس صائغ : لبنان الطائفي ص ١٥٦ .
- ١٣٣- للمزيد من التفاصيل عن هذه الشائعات انظر ، منير تقي الدين: ولادة الاستقلال ص ١٦٣-١٦٦ ،
يوسف مزهر ج ٢ ص ١١٥٠ .
- ١٣٤- علامة استفهام (؟) العدد ٧ و ٩ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٣ .
- 135- Archives diplomatiques Ministere des Affaires Etrangeres Serie . Landres
Guerre 1939-1945. Comite National Francais Symbole (M. A. E) C. N.F. vol 44.
p. 291.
- 136- Kessings Contemporary Archives 1943-1945 . vol , V, p. 6109, E Spears , pp.
222-223 .
- 137- F. O . 371 / 35195 . E, 7682 / 27 / 89 . Secret , No , 86 . 24 , Nov. 1943 .
- 138- Edward Spears ; Op. cit , p. 266-269 .
- 139- W. Churchill; Memoires sur la deuxieme guerre. T, V, pp. 185-187 .
- 140- Archives diplomatiques Ministere des Affaires Etrangeres Serie . Landres
Guerre 1939-1945. Comite National Francais Symbole (M. A. E) C. N.F. vol 43.
p. 432 .
- 141- F. O . 371 / 35195 . E, 7682 / 27 / 89 . Secret , No , 86 . 24 , Nov, 1943 .
- 142- Catroux ; Op. cit. p . 412 .
- بشارة الخوري المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٤٤٣ .
- 144- Minister des Affaires , Etrangeres series, Repport a la societe des Nations sur la
situation de la Syrie et de Liban . 1945 .

145- F.O. 371 / 35195 . E, 7682 / 27 / 89 . Secret, No , 86 . 27 Nov. 1943 .

١٤٦- بشارة الخوري المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٥٤٢ .

147- Archives diplomatiques Ministère des Affaires Etrangères Serie . Landres
Guerre 1939-1945. Comité National Français Symbole (M. A. E) C. N.F. vol 44.
p. 145.

148- American Foreign Policy Government Printing Office Washington Current Documents, Department of State Washington . 1945 , vol . V. p. 1221 .

149- Archives diplomatiques Ministère des Affaires Etrangères Serie . Landres
Guerre 1939-1945. Comité National Français Symbole (M. A. E) C. N.F. vol 44.
p. 146.

١٥٠- البشير ، العدد ٦٩٨٥ ، ١٧ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٣ .

151- Stephen Hemdy Longrigg: Op. cit, p. 23 .

١٥٢- جورج حنا : من الاحتلال إلى الاستقلال ، ص ٢٠٢-٢٠٥ ومغير تقى الدين : المرجع السابق .
ص ٩٧ .

١٥٣- علامة اسفهام ؟ العدد ٢ ، ١٤ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٣ .

١٥٤- يوسف مزهر : المرجع السابق، ج ٢ ، ص ١١٥٨ ، وجورج حنا : المرجع السابق ، ص ٢٠٢ .

١٥٥- زاهية قنوره : تاريخ العرب الحديث . بيروت ، ١٩٦٩ . ص ٢٩١ .

156- Minister des Affaires , Etrangères series, Report a la société des Nations sur la
situation de la Syrie et de Liban . 1945. vol. p. 331 .

١٥٧- مذكرات سامي الصلح : المرجع السابق، ص ٢١٤ .

158- Stephen Hemdy Longrigg , Op. cit . p. 295 .

159- Albert Hourani , Op. cit . p. 132 .

160- F. O. 371 / 35169 . E, 8000 / 27 / 89 . Secret, No , 88 . 18 , Dec. 1943 .

١٦١- كميل شمعون : المرجع السابق، ص ١١٢ .

الهمداني ومنهجه في كتابة التاريخ

القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي

معظم الذين كتبوا عن حياة أبي محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب الهمداني، من أيام القاضي أبي القاسم صاعد بن أحمد بن صاعد الأندلسي (ت ٤٦٢هـ / ٧٠-١٠م) ، ووزير حلب جمال الدين أبي الحسن علي بن يوسف القفطي (ت ٦٣٦هـ / ١٢٤٨م) ، وياقوت الحموي (ت ٦٢٦هـ / ١٢٢٨م) إلى العصر الحديث لم يذكروا عنه إلا معلومات قليلة^(١).

ويعرف الهمداني بالنسابة^(٢)، وابن الدمينه^(٣) ، ويلقب نفسه لسان اليمن، ويعبر عن نفسه قائلاً : «أبومحمد أو الهمداني»^(٤) كما يعرف بالعبدى^(٥) وبالبكيلى^(٦)، بينما يذكره مسلم اللحي بابن الحائك^(٧). ويعلل القفطي^(٨) هذه التسمية بقوله : «فأما تلقيبه بابن الحائك ، فلم يكن أبوه حائكاً ، ولا أحد من أهله ، ولا فى أهله حائك ، وإنما هذا اللقب لمن يشتهر بقول الشعر، وكان جده سليمان بن عمرو المعروف بابن ذى الدمنة، شاعراً ، فسمى حائكاً لحوكة الشعر...».

ولد أبومحمد الهمداني سنة ٢٨٠هـ / ٨٩٣م فى مدينة صنعاء^(٩)، ويبدو أن أسرة الهمداني تأثرت بعوامل لا تعرف الكثير عنها ، فكانت من أقدم الأسر التى تركت البداوة، وتحضرت ، حيث انتقل بعض منها إلى الكوفة، والبعض الآخر إلى زييد^(١٠). ومارس بعضهم حرفة الصناعة^(١١).

على أن أسرة الهمداني كانت تقطن في المراسي (١٢)، في مواطن قومهم البكيليين الهمدانيين ، ثم انتقل يوسف الجد الثالث للهمداني إلى صنعاء، يقول الهمداني: «سكن صنعاء في آخر عمره، وحمل بها هو وأولاده» (١٣). أما والده فقد كان يعمل في تجارة الذهب والفضة ، وزار بلاداً كثيرة بحكم عمله في التجارة، «فقد دخل الكوفة وبغداد والبصرة وعمان ومصر ومكة» (١٤)، وفي ظل هذه الأسرة عاش الهمداني سنين حياته الأولى في صنعاء ، التي كانت تمثل إحدى منارات الثقافة في أوائل العصر الذهبي للثقافة العربية ، ومن خلال أسرته بدأ أول جسر مع المعرفة . ومن المرجح أن الهمداني شارك أهله في عملهم في نقل الحجاج والتجار إلى مكة ، «فقد كان لهم بصر بالإبل لم يكن لأحد من العرب» (١٥)، ويصف الرحلة وصفاً شائناً بقوله (١٦): «وكننت أنظر إلى التجار إذ حملناهم إلى مكة من صعدة ، ياكلون سفرهم طرية إلى نصف الطريق، ويابسده تدق وتطر إلى مكة».

تلقى الهمداني أولى مراحل تعليمه في صنعاء التي كان مفتوناً بها، حيث افتتح دراسته بعلوم القرآن الكريم والحديث والفقه ، هذه العلوم التي كانت تمثل الركيزة الأساسية في ثقافته، وانعكست على مؤلفاته الموسوعية العديدة. وإذا أردنا أن نقف على ثقافته الواسعة نجد لزماً علينا أن نعرض للخلفية الثقافية في عصره، فقد نشطت رواية الحديث في اليمن منذ مطلع القرن الثاني الهجري / الثامن الميلادي، حتى صار لمدرستها جلة من العلماء من أمثال همام بن منبه بن كامل بن سنسج وأخيه وهب بن منبه (ت ١١٤هـ / ٧٣٢م) (١٧)، الذي كان بارعاً في الروايات ، هذا فضلاً عن تضلعه في اللغات اليونانية والعبرية والسريانية والحميرية. وينسب إليه كتاب الملوك المتوجة من حمير وأخبارهم» (١٨) وكتاب المغازي (١٩)، ويقول وهب بن منبه (٢٠): «.. قرأت من كتب اله اثنتين وسبعين كتاباً».

ومن بين هؤلاء العلماء نذكر معمر بن راشد (ت ١٥٤هـ / ٧٧٠م) وطاوس بن كيسان (ت ١٠٦هـ) الذي قال عنه ابن عباس : «طاوس عالم أهل اليمن» (٢١)، ويصفه الجندی: «أنه كان فقيهاً زاهداً ورعاً محدثاً ، عابداً ناسكاً ، أدرك خمسين من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، صحبهم وأخذ عنهم ..» (٢٢). وأما عبد الرزاق بن همام بن نافع الحميري الصنعاني (ت ٢١٢هـ / ٨٢٧م) ، فهو فقيه أهل اليمن وصنعاء ، ومحدثها ومؤرخها ، وأحد أئمة الأمصار المعنويين ، وله الجامع المشهور في السنن (٢٣)، وهو أقدم من موطأ مالك (٢٤)، ونذكر أيضاً أبا قرّة موسى بن طارق الزبيدي (٢٠٣هـ / ٨١٨م) وكان إماماً كاملاً لمعرفة

السنن والآثار، أخذ العلم عن مالك وأبى حنيفة ومعر، فقد لقيهم جميعاً وروى عنهم^(٢٥)، كما أدرك نافعاً وأخذ عنه القراءة^(٢٦).

والى جانب العلوم الدينية، عكف أبو محمد الهمداني على دراسة الرياضيات والفلك والتجوم والطب والفلسفة، واتخذ من بطليموس القلوذي أستاذاً ومعلماً، ونهل منه حتى بلغ الغاية القصوى^(٢٧)، «وفى مؤلفات الهمداني جُمْلَ حَسَنان من حِسَابِ القِرَآنَاتِ وأوقاتها، ونبذ من علم الطبيعة، وأحكام النجوم، وآراء الأوائل من قدم العالم وحديثه»^(٢٨).

على أننا نستشف من كتابات الهمداني مؤثرات يونانية فنراه يعرض في مقدمة كتبه صفة جزيرة العرب، وكتاب الجوهرتين، والمقالة العاشرة من سرائر الحكمة، ونبذاً من أخبار الإسكندر، ويبدو التأثير اليوناني قوياً، عندما يقول^(٢٩): «قالت الحكماء...» ويقصد بذلك فلاسفة اليونان من أمثال دوثيوس اليوناني، وأرسطوطاليس، وديستوريدس^(٣٠).

وفى حين ينكر صاعد الأندلسي علم الفلسفة على العرب فإنه يخص منهم اثنين اشتهرا به أحدهما الهمداني وذلك حيث يقول: «...وأما علم الفلسفة فلم يمنح الله العرب شيئاً منه، ولا هياً طباعهم للعناية به، ولا أعلم أحداً من صميم العرب شهر به إلا أبا يوسف يعقوب ابن اسحاق الكندي، وأبا محمد الحسن الهمداني». ويذكر أحد المستشرقين المنصفين^(٣١)، أن ما كتبه الهمداني في مؤلفاته، وفكره ونظراته الشمولية، جعله يكتسب صفة الفيلسوف، إلى حد أنه وضع جنباً إلى جنب مع الكندي فيلسوف العرب المشهور.

وعلى الرغم من تآثر الهمداني بحكماء اليونان في علم الفلك والنجوم، فمن المرجح أنه تتلمذ فيه على يد مشاهير المنجمين في اليمن، يتضح ذلك عند ذكره لأبى عصمة المنجم وغيره^(٣٢). وهو أحد شيوخه، وأبى هارون الكباري الحاسب باليمن^(٣٣)، ولاغرو في ذلك فالعرب بصفة عامة وأهل اليمن بخاصة لهم دراية واسعة في هذا المجال، وضربوا بسهم وأفر فيه، فقد نقل لنا صاعدا الأندلسي^(٣٤): «أن ملوك حمير لم يكونوا يستعملون من قوادهم، ولا يصرفون من كفالهم إلا من عرفوا مولده، ووجدوا أدلته من البروج والكواكب موافقة لأدلتهم ومشاكلتها».

أما الجغرافيا فهي التجسيد الأمثل لدى إدراك الهمداني لأهمية البيئة، فقد ارتبطت كتابة التاريخ عنده بالجغرافيا، ولم يكتف بالقراءة والمشاهدة، وإنما أخذ يجمع المعلومات عن الجزيرة العربية من أهلها، وسافر وتجول في أنحائها سعياً وراء المعرفة، ووضع لها مؤلفاً خاصاً أسماه «صفة جزيرة العرب»، وصف فيه المدن والبلاد، وذكر طرقها وشعابها وحاصلاتها وأجوائها، وقيائلها ويطونها، الأمر الذي جعله مؤرخاً وجغرافياً في آن واحد.

والى جانب ذلك كان الهمداني يجيد أكثر من لغة ، كان يجيد لغة حمير، ومما يدعو للدهشة أنه فك رموز الخط المسند، واستتطق الحجارة، وأماط اللثام عن الحضارة العربية القديمة في جنوب جزيرة العرب (٣٥)، هذا فضلاً عن معرفته باللغة اليونانية، وإشاراتة الكثيرة في أكثر من موضع في سرائر الحكمة وصفة جزيرة العرب والجوهرتين والأكليل .

ولم تقف ثقافة الهمداني وإحاطته للكثير من اللغات عند هذا الحد فحسب ، فقد كان يجيد اللغة الفارسية بحذق ، حتى أنه يورد اللفظ الفارسي ومع اللفظ العربي المقابل (٣٦). أما اللغة العربية ، فإن ما وصل إلينا من مؤلفات الهمداني يقيم الدليل على تبحره في اللغة العربية والشعر ، فقد كان شاعراً بارعاً في الوصف ، وذكر السيوطي أن الهمداني ديواناً يقع في ست مجلدات (٣٧)، وفي معظم مؤلفاته يعتبر الشعر سنداً أساسياً للأخبار المروية ، يصفه القفطي (٣٨) بقوله : «الأديب النحوي ، الطيب المنجم الاخباري اللغوي .. نادرة زمانه وفاضل أوانه .. صاحب الكتب الجليلة، لو قام قائل : إنه لم تخرج اليمن مثله لم يزل».

وقد أدرك الهمداني أهمية النقود ، فأرخ لها ، وإن كان هذا الاهتمام لم يعرف على نطاق واسع في ذلك العصر، ويشمل كتاب «الجوهرتين» معلومات قيمة عن النقود في الفترة السابقة للإسلام وفي عصره ، حيث عرض للنقود البيزنطية والفارسية والعربية ودينانير حمير ودراهمها، هذا فضلاً عن الكتابة على الدينار والدرهم ودر السكة في صنعاء وصعده ، والعاملين فيها الذين استقى منهم معلوماته (٣٩). وتعتبر عائلة الهمداني مصدراً من مصادره، فعنها حصل على بعض المعلومات التي ضمنتها كتابه ، فوالده أمده بمعلومات قيمة عن تنظيف القضة (٤٠)، وكان جده الأعلى مسئولاً في عيار ذهب صنعاء، وعنه عرف كيفية اختبار الذهب، وعن تاريخ دار السكة في صنعاء (٤١)، مما حدا بأحد الباحثين (٤٢) ، إلى القول : «... إن هذا الكتاب ينقل لنا في مجال التعدين وصناعة المعادن تقليداً حرفياً أصيلاً ، وحين تلقفت أوروبا في العصور الوسطى مثل هذا التقليد، كان لا يزال حينها على حاله، بل دون تغيير يذكر كما هو شاهد آخر كغيره على توحيد الثقافة الهلينستية (اليونانية والفارسية) والعربية في العصور الوسطى».

وبلغ من شغف الهمداني بالمعرفة أن شد الرحال إلى مكة ، التي كانت حاضرة ثقافية يتردد عليها كبار الشيوخ والعلماء والطلاب، «والرحلة في طلب العلوم ولقاء المشيخة مزيد كمال في التعلم» (٤٣). ويبدو أنه ارتحل إلى مكة في شبيبته ، وأطال فيها الإقامة (٤٤)، يقول

القسطلی: (٤٥) « وأقام بمكة دهرًا طويلاً »، وفي مكة تفتحت له آفاق المعرفة، ونهل من علم علمائها الشيء الكثير، والتقى في مكة بالخضر بن داود سنة ٣٠٧ هـ / ٩١٩ م (٤٦)، وهذا العالم من رواية السيرة عن محمد ابن اسحق (ت ١٥١ هـ / ٧٦٨ م) (٤٧) وألف ابن اسحاق كتاب المغازي، وحفظ لنا ابن هشام (ت ٢١٨ هـ / ٨٢٤ م)، الكثير منه في سيرته، كما اعتمد عليه القاسم بن سلام (ت ٢٢٤ هـ / ٨٢٨ م) في كتابه الأموال، وكذلك المؤرخ المسعودي (ت ٣٤٥ هـ / ٩٥٦ م) (٤٨)، ويعتبر محمد بن اسحاق من أكبر أعلام كتاب المغازي، هذا فضلا عن أن كتابه هذا يعتبر علامة واضحة على طريق تطور التاريخ عند العرب (٤٩)، وقد شهد الشافعي لابن اسحاق فقال: «من أراد أن يتبحر في المغازي فهو عيال على محمد بن اسحق» (٥٠)، وما يجدر ذكره أن الهمداني شغف كثيرا بكتاب المغازي لابن اسحق، وروى كثيرا عنه في إكليه (٥١).

على أن الهمداني وطن نفسه على دراسة التاريخ والأنساب، وتبحر في الأنساب حتى صارت ديدنه وميدانه، «فهي أصل علم الأخبار، ومعدن معرفة السير والأمصار» (٥٢). وينقل صاعد الأندلسي عن الهمداني قوله: «ليس يوصل إلى خبر من أخبار العجم والعرب إلا بالعرب ومنهم .. ومن سكن اليمن فإنه علم أخبار الأمم جميعاً» (٥٣)، أما الجندي (٥٤) فيرى أنه لولا «التاريخ لجهلت الأنساب، واندرست الأحساب، ولم تفرق بين الجهلة وأولى الألباب».

ومن المرجح أن الهمداني اطلع أثناء إقامته في مكة على مؤلفات محمد بن السائب الكلبي (ت ١٤٦ هـ / ٧٦٣ م) في الأنساب وعلى مؤلفات ابنه هشام (ت ٢٠٤ هـ / ٨١٩ م) الذي كان غزير العلم بالأنساب والتاريخ (٥٥)، حتى وصف بأنه أعلم الناس بالأنساب (٥٦). ويعتبر محمد ابن السائب الكلبي وابنه هشام سنداً أصيلاً في الرواية التاريخية عند البلاذري (٥٧)، ونجد نقولاً كثيرة عنهما في كتب الهمداني (٥٨). ويرى الهمداني أن الكلبيين اختصروا أنساب الناس وطرحوا منها بقوله (٥٩): «... وكذلك سبيل نساب العراق والشام يقصرون في أنساب كهلان ومالك بن حمير ليضاهنوا بها عدة الآباء من ولد اسماعيل».

وأما عن شيوخ الهمداني فيعتبر أبونصر محمد بن عبدالله اليهري الحميري من أكابر شيوخ الهمداني، ومصدره في كل ما أورده من أخبار اليمن وأنساب أهله، وقد أشاد الهمداني بذكره، ووصفه شائعاً بقوله (٦٠): «شيخ حمير وناسبها وعلامتها، وحامل سفرها ووارث ما ادخرته ملوك حمير في خزائنها من مكنون علمها، وقارئ مساندها والمحيط بلغاتها». ومن

أشهر مشايخه أيضاً محمد بن عبدالله الأوساني الحميري (٢٧٦ / ٨٨٩ - ٣٦٠ هـ / ٩٧٠ م) (٦١).

لم يكتف الهمداني برحلته العلمية إلى مكة ، بل سار إلى العراق التي تبوأ الذروة الفكرية والعلمية في ذلك الوقت، وغدت مركزاً للعلماء والأدباء والشعراء من كل حذب وصوب، يقول القفطي (٦٢): «وسار إلى العراق ، واجتمع بالعلماء واجتمعوا به». ويبدو أنه اقتنى أثناء وجوده بالعراق، كثيراً من الكتب كنواوين الشعر وكتب التاريخ والأنساب والجغرافيا، والكتب المترجمة عن اليونانية أو الفارسية أو الهندية ، حيث نجد نقولاً كثيرة في كتبه (٦٣)، هذا فضلاً عن توطيد علاقاته بالعلماء، حيث «صحب أهل زمانه من العلماء وراسلهم وكاتبهم» (٦٤)، ومن بين هؤلاء العلماء محمد بن القاسم بن بشار الأنباري وكان يختلف بين صنعاء وبغداد، وهو أحد عيون العلماء باللغة والعربية وأشعار العرب وأيامها ، وكان يكاتب أبا عمر النحوي صاحب ثعلب، وأبا عبدالله الحسين بن خالويه (٦٥).

ولعل هذه المصادر العديدة والمتنوعة من المعارف والثقافات والأسفار والرحلات شكلت فكر وثقافة الهمداني المؤرخ والنسابة ، حتى صار لسان اليمن وأعظم مؤرخيها بلا منافس.

على أية حال عاد الهمداني إلى اليمن بعد رحلته العلمية التي طاف فيها مكة والعراق ، واستقر في مدينة صعده حاضرة الدولة الزيدية طويلاً ، يقول الهمداني (٦٦): «... وقد سكنت بها عشرين سنة ... ، وقرأت بها سجل محمد بن أبان الخنفرى ، المتوارث من الجاهلية ، فمن أخبارهم ما دخل في هذا الكتاب (٦٧)، ومنها ما دخل في كتاب الأيام» (٦٨).

ويبدو أن مرحلة استقرار الهمداني في صعده الطويلة نسبياً، كانت بمثابة محصلة لكل معارفه وإفرازات فكره وثقافته وتوجيه كتابته في تاريخ اليمن، ومن خلالها استطاع أن ينجز كل مؤلفاته الموسوعية العديدة ، والتي تدل على علو كعبه ورجاحة فكره .

ولعله من المفيد أن نعرض للمناخ السياسى في أيام الهمداني ، وأثره سلباً أو إيجاباً على فكره ومنهجه في كتابة التاريخ. والحقيقة أن فكرة التاريخ عند شعب من الشعوب أو أمة من الأمم، ليست في حقيقة أمرها سوى شكل من أشكال فهم هذا الشعب لهويته الذاتية والحضارية (٦٩) فقد شهدت بلاد اليمن منذ أوائل القرن الثالث الهجرى / التاسع الميلادى تمزقاً سياسياً وصراعاً من أجل السلطة عصف بوحدها السياسية (٧٠)، فقد كان لسياسة خلفاء بنى العباس منذ عهد المأمون (١٩٨ / ٨١٣ - ٢١٨ هـ / ٨٣٣ م) في كثرة تولية الولاة

فى اليمن وعزلهم، وعدم اهتمامهم بشئون بلاد اليمن ، أن ساءت أحوال هذه البلاد الاجتماعية والاقتصادية، وأتاح الفرصة للشيعنة فى تلك البلاد فى أن تحقق مطامحها (٧١). فالتغيرات السياسية والدينية التى عاشتها اليمن خلال القرن الثالث الهجرى / التاسع الميلادى كانت تعكس وإلى حد كبير التغيرات الاجتماعية والاقتصادية التى شهدتها اليمن ، وفى حين ساهم الإسلام فى تحرير المنطقة اجتماعياً واقتصادياً ، فإن ظهور المذهب الشيعى فى اليمن فى الربع الأخير من القرن الثالث الهجرى/ التاسع الميلادى ، يجب أن تتم رؤيته داخل إطار التغيرات التى شهدتها المنطقة ، وليس من منطلق المفهوم القبلى الضيق.

عول الخليفة المؤمن على استناد ولاية اليمن سنة ٢٠٢ / ٨١٨م لمحمد بن عبدالله بن زياد (٧٢)، وما لبث ابن زياد أن اختط مدينة زييد سنة ٢٠٤هـ / ٨١٩م ، وعمل على توطيد نفوذه فى جميع أرجاء اليمن (٧٣) . بيد أن هذه الدولة تعرضت لهزات عنيفة ، فى أواخر عهدها ، وخرج الكثير من الأمراء عن طاعتها ، الأمر الذى أدى إلى تطلع بعض الزعامات القبلية فى تأسيس دويلات لها فى نجد اليمن، ومن بينها آل يعفر بن عبد الرحمن الحوالى فى شبام وهى أسرة حميرية (٧٤)، حيث استطاع محمد بن يعفر سنة ٢٥٧هـ / ٨٧٠م أن يؤسس دولة اليعافرة ، عندما ولاء الخليفة العباسى المعتمد الصلاة، وأعمال المعادن، والحرب والخراج، والضياح والصدقات وبيع الضرب، وسائر أبواب الجبايات بصنعاء واليمن ومخاليقها وجميع أعمالها ونواحيها (٧٥). بيد أن ما تعرض له بنو يعفر من انقسام، ساعد على خروج الزعماء المحليين والقبائل عن طاعتهم (٧٦)، ومهد الطريق فى إنجاح الدعوة الاسماعيلية فى اليمن على يد الداعيين على بن الفضل اليماني وأبى القاسم رستم بن الحسين بن فرج بن حوشب سنة ٢٧٠هـ / ٨٨٣م (٧٧). واتسعت مناطق نفوذهما حتى شملت صنعاء وعدن (٧٨). ومع نهاية القرن الثالث الهجرى/ التاسع الميلادى، استطاع الإمام الهادى إلى الحق يحيى بن الحسين تأسيس الدولة الزيدية سنة ٢٨٤هـ / ٨٩٧م فى صنعاء ، وقام بتبشر المذهب الزيدى (٧٩)، وتضافرت لدولته عوامل البقاء والاستمرارية زهاء ألف سنة ونيف (٨٠).

وعندما عجزت الخلافة العباسية فى القرن الثالث الهجرى/ التاسع الميلادى ، عن الاحتفاظ بوحدة البلاد، تجزأت اليمن من جديد، ولكن وفق تجمعات سياسية دينية، تعكس خلفيات اجتماعية اقتصادية ، لامت بصلة لتجمعات المنطقة فى مرحلة ما قبل الإسلام. وكان الصراع من أجل السلطة مع عامل سوء الإدارة من قبل ولاء بنى العباس، وراء تفكك المجتمع اليمنى،

وتتذبذب مواقفه، ومن هنا كثر المتطلعون إلى الحكم والسلطان مثل بنى يعفر فى صنعاء وشبام، وآل المناخى فى المذيخرة^(٨١)، وبلاد الجند^(٨٢)، وآل الضحاك فى حاشد، وآل أبى المفلس فى الدملوه، وآل الكرندى فى المعافر^(٨٣)، محاولة منهم فى السيطرة على مقدرات بلادهم . يقول ابن خلدون^(٨٤): «أن الأوطان الكثيرة القبائل والعصائب قل أن تستحكم فيها دولة والسبب فى ذلك اختلاف الآراء والأهواء، وأن وراء كل رأى منها وهوى عصبية تمنع دونها...».

وفى الوقت الذى كانت رياح التغيير تعصف ببلاد اليمن، تمكن الإمام الهادى يحيى ابن الحسين من السيطرة على شمال اليمن، وتأسيس دولته فى صعده، ولم يفكر فى الاعتراف بالخلافة العباسية، التى لم يصدر عنها ما يدفعه لمخالفتها، والخروج عن طاعتها، وهكذا أفصحت دعوته عن نية أتباع المذهب الشيعى فى المنطقة^(٨٥).

فى ظل هذا المناخ السياسى المفعم بالصراع المرير والتناحر القبلى، واجه الهمدانى حالة التراجع والانكفاء الحضارى، بروح المفكر الثائر، لذلك لجأ إلى التاريخ يستنطقه، ويحث الآخرين على الاعتبار به، ويستشرف حضارة أسلافه التى جعلتهم يكتشفون حكمة الحياة فى هذه الربوع قبل غيرهم ويفيدون بها، ويتجلى ذلك فى شعره الذى يعتز فيه كثيراً بهمدانيته^(٨٦). وفى سنة ٣١٦هـ / ٩٢٨ م أثناء إقامته فى صعده، وقع بينه وبين شعرائها المتتسبين إلى عدنان خصومة لتعصيبهم ضد قبائل اليمن^(٨٧)، فكتب لكل واحد منهم قصيدة، فلما بلغهم قوله، اشتد ذلك عليهم، ونصبوا له, وتآلبوا عليه، ودخلوا على الإمام الناصر لدين الله بن الإمام الهادى- صاحب صعده - وأخبروه أن ابن يعقوب هجا النبى ﷺ فتوعده الإمام الناصر، وكتب إلى الأمير أسعد بن أبى يعفر، وكانت بينهما مودة شديدة، فأمر أسعد ابن أخيه الخطاب عامله على صنعاء، بسجن الهمدانى^(٨٨)، وأشار الهمدانى فى المقالة العاشرة من سرائر الحكمة إلى أن الملوك «غضبت عليه يوم الاثنين ٢٤ شوال سنة ٣١٩هـ، وأدخل السجن وأجريت الأيمان والعهود بالله أن لا يخرج إلا على لوحة ميتاً...»^(٨٩)، وفى موضع آخر يصف لنا سجنه وما جرى عليه وهو يرسف فى القيود الثقالة حتى «نقل من بلد إلى بلد»، وطيف به مصفداً إلى موضع غربة. فلقى من ذلك الأمرين^(٩٠)، وفى ١٧ شعبان سنة ٣٢١هـ أذن بإطلاقه فأطلق، ثم رد إلى السجن ثانية، وبعث به مغرباً مع حفظه أينما وصلوا من قرية سجنوه^(٩١)، ثم «فلت من النهج الذى قصد به له وملك نفسه، وذلك بعد ٦٤٩ يوماً تكون شهوراً تامة ٢١ شهراً و١٩ يوماً»^(٩٢). ويفهم أن الهمدانى هرب من محبسه، بيد أن الهمدانى^(٩٣)، يذكر فى الاكلیل «أن الناصر لما قام آل أبى فطيمة^(٩٤)، مطالبين بإخراج

الهمداني من السجن فتح له ، فرضوا وادعوه ، حتى صبح لهم أن إطلاق الهمداني كان من جهة ابن زياد صاحب زييد» ويبدو أن ابن زياد هذا هو اسحاق بن إبراهيم بن محمد بن زياد الذي كان معاصراً لأسعد ابن أبي يعفر والإمام الناصر لدين الله (٩٥)، وهو الذي ساعد على هروب الهمداني من السجن.

على أننا نشك أن يكون الهمداني أقدم على هجاء النبي ﷺ وإلا فأي ما يدل على هذا الهجاء، هذا فضلاً أن هذا العمل يتنافى مع أخلاقه ودينه وورعه وتقواه واهتمامه بالعلوم الدينية. ومن المرجح أنها مكيدة دبرها له الحاقدون والحاسدون في صعدة ، يدعم ما ذهبنا إليه قول القفطي (٩٦): «... وكان رجلاً محسداً في أهل بلده» وقد يكون وراء هذه التهمة شيء من التعصب القبلي.

ومما لاشك فيه أن قصيدة الدامغة النونية التي رد فيها على قصيدة للكميت بن زيد الأسدي في تفضيله عدنان على قحطان ، «أحدثت له العداوة من النزارية والمقتزرة» (٩٧)، وفتحت عليه أبواب الطعن وسبل الاتهام، وطعنوا في خلقه ورموه بالكذب ، يقول صاحب طبقات الزيدية (٩٨): «أكثر تصانيفه لا يخليها من التعصب لقحطان على عدنان حتى خرج إلى الكذب، وكان مشهوراً بالكذب في الأنساب مع معرفته بها» . ويقول أحد الباحثين (٩٩): «أن الهمداني يثبت حقائق العلم على صحتها ما استطاع في كل ما لا يمس همدانيته ومعنيته ، فإذا لمس العلم هذا الجانب الحساس من الهمداني وجد فيه ضعفاً».

على أية حال أثبت الهمداني حبه واعتزازه بيمينته وحمدانيته ، حتى وقف حياته على كل ما أمكنه من الدراسات المتعلقة والمتصلة باليمن، لعشقه العظيم للمجد السالف، والتغنى بمفاخر الآباء والأجداد (١٠٠)، حتى أنه لم يوجد بين كتاب العرب من جاء بتاريخ حقيقي عن اليمن، وبمعلومات مؤسسة على قواعد أصيلة مثل الهمداني (١٠١). لقد أدرك الهمداني مبررات حكمة التاريخ واستوعب منطق الأجيال، وعرف أن قوة الحاضر لا تنفصل عن حضور الماضي، فالتاريخ ما هو إلا عملية متصلة للتفاعل بين المؤرخ وحقائقه ، وحوار متصل بين ماضيه وحاضره (١٠٢).

أما وقد تعرضنا للعوامل التي أثرت وشكلت شخصية الهمداني، فإنه يبقى علينا أن نتناول منهجه في كتابة التاريخ ، ويجدر بنا أن نبحث في مصادر مادته التاريخية بإيجاز، حتى نقف على منهجه في عرض هذه المادة التاريخية من خلال كتبه : الاكليل ، صفة جزيرة العرب، والجوهرتين ، باعتبارها العمل الأساسي والأكثر أهمية من أعماله الموسوعية المتعددة.

اعتمد الهمداني في استقاء المادة التاريخية على مصادر عديدة أهمها : القرآن الكريم والحديث الشريف ، وقد أشار السخاوي إلى أن البداية الحقيقية لعلم التاريخ عند المسلمين ذات أصل ديني ، بتأثير ما ورد في القرآن الكريم من مادة تاريخية تتناول قصص الأمم الماضية وأخبار الأنبياء ، وغير ذلك (١٠٢) ، هذا فضلا على اعتماده على الشعر وأئمة اللغة وفصحاء البادية ، وكتب المؤرخين السابقين، والروايات الشفوية التي سمعها، ثم ما رآه أو سمعه بنفسه من الأحداث التي دونها . وهكذا يكون الهمداني قد اعتمد على النقل والرواية والدراسة والمشاهدة كمصادر لمعلوماته التاريخية .

على أن الهمداني يشير إلى مصادر دأباً ، بيد أنه يذكر اسم المؤلف أو النسابة الذي نقل عنه دون الإشارة إلى عنوان الكتاب ، مثل قوله (١٠٤) : قال الفيروزي، وقالت الحكماء ، ويقول بعض النسابة (١٠٥) ، وحيناً يشير إلى اسم من سمع منه أو أخبره، فيقول (١٠٦) : «وحدثني محمد بن أحمد الأوساني ، أنه قرأ في مسند بعمران» وخبرني أحمد بن أبي الأغر الشهابي من كتدة، وخبرني مسلمة بن يوسف بن مسلمة الخيواني (١٠٧) . كما يبين الأحداث التي شاهدها بنفسه بقوله (١٠٨)، قال أبو محمد ، وقرأت في مسند قصر ريدة (١٠٩) . وإلى جانب الأحداث السياسية نجده ينقل لنا بعض المعلومات ذات الصبغة الاجتماعية والاقتصادية عندما يقول (١١٠) : «... أنه لما قحط القطر في زمان يوسف عليه السلام، وألحت الجراد، وساعت أحوال اليمن والحجاز ونجد، لأنها أرض معلقة لاسوح فيها ...» ثم يحدثنا عن تاريخ دار السكة في صنعاء وكيفية حساب عيار الذهب ، والأدوات والوسائل اللازمة لذلك، وأماكن التعدين في اليمن (١١١)، ثم يتناول الكتابة على الدينار والدرهم (١١٢).

ومما يجدر ذكره أن الهمداني لم يقتصر على رواية الحدث التاريخي فحسب، بل يعنى بالتحليل أو التفسير لهذا الحدث في إطار العلاقة السببية، فهو يحاول استقصاء الأسباب وتحري الحقائق ، فبعد أن يورد أقوال ابن اسحاق عن زعم أهل التوراة أن السواد في ولد حام عن دعوة دعاها نوح على ابنه حام يعقوب قائلاً (١١٣) : «... وهذا في غاية التناقض أن يسيئ حام ويلعن ولده ، والله يقول : «ولا تزر وازرة زر أخرى» ، وإنما سواد الناس وبياضهم وسمرتهم علة ذكرناها في السيرة من هذا الكتاب.

كما يرى الهمداني أن الكليبيين قد اختصروا أنساب الناس وطرحوا منها، ويعمل ذلك بأن بعضهم حاول إفساد النسب في أيام العصبية في دولة معاوية ليقترب نسب قضاة وكهلان،

على نحو ما أرادت النزارية من إخال هذه القبائل في ولد إبراهيم عليه السلام^(١١٤)، وينقل عن ابن خردادبة من المسالك والممالك بيد أنه يعده من الشعوبية^(١١٥). وقد نقل عن أرسطوطاليس ، وما لبث أن أورد رأيا مخالفا له^(١١٦)، وينقد الهمداني الأخبار بطريقة العقل كتعليقه لانطفاء السراج في الأمكنة التي ينعدم فيها الهواء بقوله^(١١٧): «هذا الحديث فيه زيادة لا تمكن ، لأنهم ذكروا المسلك في المغارة ثم دخولهم منها إلى هوة وأبيات ، فقل بها النسيم، ويعجز بها التنفس .. فإذا انقطع في مثل هذه المغارات العميقة ، .. لا يثبت فيها روح ولا سراج».

على أن هذه الروح النقدية التي يتمتع بها الهمداني لم تظهر بوضوح بين مؤرخي المسلمين إلا في عصر متأخر ، وبخاصة على يد ابن خلدون (ت ٨٠٨هـ / ١٤٠٥م) الذي عاب على المؤرخين عدم مناقشة الحقائق وقبولها دون تمحيص^(١١٨)، فالمؤرخ «محتاج إلى مأخذ متعددة ومعارف متنوعة ، وحسن نظر وتثبت يفضيان بصاحبهما إلى الحق وينكبان به عن المزالات والمغالط»^(١١٩).

تأثر الهمداني كثيراً ببعض الآراء الواردة في الكتب المترجمة عن اليونانية أو الفارسية أو الهندية ، تأثراً دفعه لا للأخذ بها فحسب ، بل إلى احترامه لأصحابها ، فهو بعد أن يورد قول أرسطوطاليس الحكيم في مبتدأ الحرارة في جوف الأرض يعقب عليه بقوله^(١٢٠): «قد أحسن الحكيم فيما فرع، وإن كان قد بنى قوله في مبتدأ الحرارة على غير أصل» ، ثم يسترسل في إيضاح ذلك ، ومن خصائص منهج الهمداني تلك المقارنات التي يعقدها أحياناً هذا فضلاً عن استطراده في تفاصيل حادثة بعينها مثل بلقيس وسليمان بن داود عليه السلام^(١٢١)، وحادثة على بن أبي طالب وحارثة ابن بدر الغداني^(١٢٢).

وقد أدرك الهمداني أهمية دراسة العوامل الجغرافية من أجل معرفة تأثيراتها على مسار التاريخ، فأفرد مؤلفاً من مؤلفاته أسماء «صفة جزيرة العرب»، مما جعله في مصاف فحول الجغرافيين الذين تضلّعوا في هذا العلم^(١٢٣)، هذا فضلاً أن هذا الكتاب يكشف عن وعي تاريخي عميق وقدرة فائقة على تتبع العلاقة السببية بين الظواهر التاريخية والجغرافية ، فهو يربط بين العوامل الاقتصادية والأحوال الاجتماعية في جزيرة العرب بعامة وبلاد اليمن بصفة خاصة . أما كتابة الأكليل فيعتبر بحق مصدراً هاماً من مصادر تاريخ اليمن في جوانبها السياسية والاقتصادية والفكرية ، ومن ناحية أخرى يحوى الكتاب معلومات إضافية عن أنساب القبائل العربية^(١٢٤)، فقد استخدم العرب الأنساب باعتبارها نمطاً من أنماط المعرفة

التاريخية ، ووسيلة القبيلة فى البحث عن هويتها وتأكيد ذاتها ، وتدعيم وجودها الحاضر من خلال ماضيها الحافل بالمآثر والبطولات (١٢٥). وكل من يطالع ما كتبه الهمدانى عن أنساب القبائل اليمنية فى الاكليل وصفة جزيرة العرب، يدرك أن هذا الرجل بلغ شأواً لم يبلغه غيره ممن كتب فى الأنساب ، «فعليه الممول فى أنساب الحميريين» (١٢٦).

عول الهمدانى فى توثيق مادته التاريخية على الاستشهاد بالشعر، حيث ضمن مؤلفاته نماذج من الشعر، أماطت اللثام عن حادثة تاريخية، وتتبع تسلسلها فى وحدة بنيوية متكاملة، وهو بهذا لا يكتفى بأن يكون مؤرخاً ونسابة ، بل يضيف إلى معرفته بالتاريخ والأنساب معرفة وثيقة بالشعر (١٢٧)، هذا فضلاً عن عنايته الفائقة بالمباحث اللغوية مما يدل على تبحره فيها. ولفضل نظراته الشمولية توحد عنده المحيط الجغرافى والفلكى مع المحيط الاجتماعى للإنسان ، فهو يقتش عن الأحداث وتسلسلها الزمنى ولغتها التاريخية التى تحدث عنها الوثائق الأثرية ، لمعرفته الفائقة بالخط المسند (١٢٨). كما أدرك الهمدانى أهمية النقود فأرخ لها وأن كان هذا الاهتمام بعلم النميات لم يعرف على نطاق واسع فى عصره، فقد اشتمل كتاب الجوهريين على معلومات وافرة عن النقود فى الفترة السابقة للإسلام وفى عصره (١٢٩).

على أنه يؤخذ على الهمدانى شدة تعصبه لقحطانيته بعامة ، وهمدانيتها بخاصة شدة قد تحيد به فى بعض الأحيان عن جادة الصواب، فالدارس لكل ما يتصل بحياة الهمدانى، يجد أن تعصبه لقومه المنفذ الواسع لدراسته (١٣٠). ويبدو أن تجربة السجن التى امتحن بها الهمدانى تركت بصماتها على فكره، وأزكت من عصبية لقومه، حتى وقف علمه وخبرته ونتاجه الغزير على دراسة اليمن، وكل ما يتصل به ، وغدت سمة واضحة فى منهجه التاريخى.

أما مؤلفات الهمدانى فتبلغ قرابة بضع وعشرين كتاباً ، وللأسف لم يصلنا مع كثرتها إلا بقية قليلة لاتقاس بما كتبه ، وأكثرها مفقودة ، وقد أورد القاضى محمد بن على الأكوع قائمة بها (١٣١):

١- الاكليل - عشرة أجزاء - (ظهر منه أربعة أجزاء)

الجزء الأول فى المبتدأ وأصول أنساب العرب والعجم ونسب ولد حمير ، وقد طبع هذا الكتاب فى القاهرة سنة ١٩٦٣ تحقيق محمد بن على الأكوع ، والجزء الثانى فى نسب ولد الهميسع ابن حمير ونوادير من أخبارهم، وطبع فى القاهرة ١٩٦٧ تحقيق محمد بن على

الأكوع ، والجزء الثالث فى فضائل اليمن ومناقب قحطان^(١٣٢) (مفقود) ، بينما يتناول الجزء الرابع فى السيرة القديمة من عهد يعرب بن قحطان إلى عهد أبى كرب أسعد الكامل (مفقود) ويتناول الجزء الخامس السيرة الوسطى من عهد أبى كرب إلى عهد ذى نواس (مفقود) والجزء السادس فى السيرة الأخيرة من عهد ذى نواس إلى عهد الإسلام (مفقود) ، والجزء السابع فى التنبيه على الأخبار الباطلة والحكايات المستحيلة^(١٣٣) (مفقود) أما الجزء الثامن فى محافد اليمن ومساندها ، ودفائناتها وقصورها ومراثى حمير والقبوريات ، طبع فى بغداد سنة ١٩٣١ تحقيق الأب انستاس مارى الكرملى ثم فى برنستون سنة ١٩٤٠ بتحقيق نبيه أمين فارس، بينما يتناول الجزء التاسع أمثال حمير وحكمها باللسان الحميرى، وهو مفقود كذلك، أما الجزء العاشر فى معارف همدان وأنسابها وعيون أخبارها، وقد طبع فى القاهرة سنة ١٣٦٨م تحقيق محب الدين الخطيب .

٢- السير والأخبار (مفقود).

٣- صفة جزيرة العرب، وهو من أشهر مؤلفاته بعد الاكليل ، ويحوى معلومات جغرافية مهمة عن بلدان اليمن، وقبائلها ، وجبالها ، وديانها ، وسهولها ، وحصونها، وإنتاجها الزراعى والصناعى، وعاداتها، وقد طبع هذا الكتاب فى مطبعة بريل فى ليدن سنة ١٨٨٤م بتحقيق (د. هـ . مولر D. H. Moller ثم أعاد الشيخ محمد بن عبدالله ابن بلهيد طبعه فى سنة ١٣٧٣هـ / ١٩٥٣ م، ثم قام القاضى محمد بن على الأكوع بنشره وإعادة تحقيقه بإشراف الشيخ حمد الجاسر (بيروت ١٩٨٣) .

٤- المسالك والممالك اليمنية (مفقود) .

٥- اليعسوب (مفقود) وقد ورد ذكره فى الاكليل وصفه جزيرة العرب^(١٣٤).

٦- الأيام (مفقود) وورد ذكره فى الاكليل^(١٣٥).

٧- سرائر الحكمة (طبع منه المقالة العاشرة تحقيق محمد بن على الأكوع (صنعاء دت) .

٨- الزيج (مفقود) ، ذكره القفطى وقال : عليه اعتماد أهل اليمن^(١٣٦).

٩- توحيد الزيج (مفقود).

١٠- القوى فى الطلب (مفقود) ، ذكره صاعد الأندلسى والقفطى^(١٣٧).

١١- الحيوان (مفقود) .

١٢- المطالع والمطارح (توجد منه نسخة خطية فى مكتبة الإسكندرية) .

١٣- الجوهريتان العتيقتان ، حققه الدكتور كريستوفر تول.. ونشره بالسويد سنة ١٩٦٨ ، وأعادت وزارة الإعلام والثقافة اليمنية نشره سنة ١٩٨٥ فى صنعاء بإشراف الدكتور يوسف محمد عبدالله .

١٤- الحرث والحيلة (مفقود) .

١٥- مفاخر اليمن ووقائعها (مفقود) .

١٦- أخبار الإبل (مفقود) .

١٧- أخبار الأوفياء (مفقود) .

١٨- أسماء الشهور والأيام (مفقود) .

١٩- الدامغة ، كما بتحقيقه محمد بن على الأكوع، بيروت (د.ت) .

٢٠- تفسير الدامغة ، تحقيق محمد بن على الأكوع ، بيروت (د.ت) .

٢١- ديوان شعر الهمداني (مفقود) .

٢٢- الوشى المرقوم (مفقود) .

أما عن وفاة الهمداني ، فيكتنفها الغموض، ويلزمنا تحقيق هذا التاريخ لأهميته فى البحث، يحدد صاعد الأندلسي^(١٣٨)، هذه الوفاة فى سنة ٣٣٤هـ / ٩٤٥م، يذكر أنه يوجد بخط أمير الأندلس الحكم المستنصر بالله بن عبدالرحمن الناصر، (ت ٣٦٦هـ / ٩٧٦م) «أن أبا محمد الهمداني توفى بسجن صنعاء فى سنة أربع وثلاثين وثلثمائة» .

وذكر كاتب مقال الهمداني فى دائرة المعارف البريطانية^(١٣٩) أن الوفاة كانت سنة ٣٣٤هـ / ٩٤٥م فى سجن صنعاء . كما قال صاعد الأندلسي، بيد أنه أثار الشك حول وفاته فى هذا التاريخ «... ويقال أنه توفى فى سجن صنعاء سنة ٣٣٤هـ / ٩٤٥م ، ولكنه الآن محل شك وسؤال».

بينما يذكر القفطى أن الهمداني سار فى آخر زمانه إلى ريدة- من البون الأسفل من أرض همدان - وبها قبره وبقية أهله^(١٤٠) بيد أنه لم يحدد القفطى تاريخ الوفاة . أما الأكوع^(١٤١) فيحدد تاريخ الوفاة فى سنة ٣٦٠هـ / ٩٧٣م، وينقل عنه الزركلى^(١٤٢) واعتمد الأكوع فى ذلك على خبر ورد فى الجزء الثانى من الاكليل^(١٤٣)، عن محمد بن عبدالله الأوسانى- شيخ الهمداني- ونصه : «قال أبو محمد بن عبدالله بن سليمان : رويت عن محمد هذا سنة ٣٥٦هـ وهو من عمره فى ٨٠ وكتبت عنه ، وقتل فى سنة ٣٦٠هـ رحمة الله».

وبمناقشة هذه الروايات نرى:

أولاً: أن الهمداني نص في الجزء العاشر من كتاب الاكليل^(١٤٤)، على خروجه من السجن، وبقائه فترة طويلة في صعدته، ضعف خلالها نفوذ الحكام المسيطرين على اليمن، حيث توفي الامام أحمد الناصر بن الإمام الهادي سنة ٣٢٢هـ / ٩٣٣ م، وتوفي الأمير أسعد بن أبي يعفر في سنة ٣٣٢هـ / ٩٤٣ م^(١٤٥)، هذا فضلاً عن ذكره أن سيد همدان في عصره أحمد بن محمد الضحاك - «الذي يمدحه الهمداني، ويقيده أيامه، وهو منه خل وصاحب»^(١٤٦) .. ثم باعد القاسم بن الناصر، فجري بينهما ما ينطق به شعر الهمداني، وقد قتل ابن الضحك القاسم بن الناصر سنة ٣٤٥هـ / ٩٥٦ م، ووقع الخلاف بينهما سنة ٣٤٤هـ / ٩٥٥ م^(١٤٧)، وهذا يدل على أن الهمداني أدرك هذا الزمن، وقال الشعر في تلك الحوادث.

ثانياً: يقول الأكوع^(١٤٨): «جاء في مخطوط بخط جدنا العلامة أحمد بن علي الأكوع، أطلقت عليه «التاريخ المجهول» أنه لما حمل جثمان أسعد بن يعفر من ذمار في رجب سنة تسع وثلاثين وثلثمائة إلى شاهرة ليقبر هناك، وكان توفي سنة ٣٣٢هـ / ٩٤٣ م قال الهمداني يصف تشييع الجثمان :

قد استوى الناس ومات الكمال	وقال صرف الدهر أين الرجال
هذا أبوحسان في نعشه	قوموا انظروا كيف تزول الجبال
يا ناصر الملك بأرائه	بعبدك للملك ليسال طوال

وعلى هذا فإن وفاة الهمداني في الأغلب تكون فيما بعد سنة ٣٤٥هـ / ٩٥٦ م، ولم تكن في سنة ٣٣٤هـ / ٩٤٥ م كما ذكر صاعد الأندلسي، أو في سنة ٣٦٠هـ / ٩٧٢ م كما ذهب الأكوع وتبعه الزركلي، لأن الرواية التي اعتمد عليها الأكوع يفهم منها مقتل محمد بن علي الأوساني - شيخ الهمداني - ولا علاقة لها بوفاة الهمداني .

الهوامش

- ١- الهمداني : الاكليل ، تحقيق محب الدين الخطيب، المطبعة السلفية، القاهرة ١٣٦٨هـ، ج ١٠ مقدمة المحقق : الزركلي ، خير الدين : الأعلام ، بيروت (د.ت) ، ج ٢، ص ١٧٩ .
 - ٢- مؤلف مجهول: تاريخ اليمن في الكوافي والفتن، مخطوط مصور بمعهد المخطوطات العربية رقم (٩٦٨) ، ورقة ١٣٧ ، ١٣٨ : الحجري ، محمد بن أحمد (من علماء القرن الرابع عشر الهجري): مجموع بلدان اليمن وقبائلها ، مخطوط مصور بدار الكتب المصرية ، ميكروفيلم رقم (٢٩٣٨) ، ورقة ١٠٣ ، ١١١ .
 - ٣- ياقوت الحموي : معجم البلدان، طبعة بيروت (د.ت) ، ج ٤ ، مادة (الحسن بن أحمد)، القفطي ، جمال الدين أبي الحسن على بن يوسف (ت ٦٣٤هـ) : أنباء الرواه على أنباء النحاة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة ١٩٨٦، ج ١ ، ص ٣١٤ .
 - ٤- الهمداني : الاكليل ، تحقيق محمد بن علي الأكوخ ، القاهرة ١٩٦٣ ، ج ١ ، ص ١٩ ، ج ١٠ ، ص ١٤ ، ١٧٧ ، صفة جزيرة العرب ، تحقيق محمد بن علي الأكوخ ، بيروت ١٩٨٣ ، ص ٢٩ ، ص ٤٦ ، ص ٤٨ ، ص ٦٦ وكذلك (The New Enc. Britannica , V.5 (Art . Hamdani, al).
 - ٥- نسبة إلى أصله في عبد بن عليان بن أرحب ، (الهمداني: الاكليل ، ج ١٠، ص ١٧٧ وما بعدها، القفطي: أنباء الرواه على أنباء النحاة، ج ١ ، ص ٣١٥ .
 - ٦- بكيل : بالفتح ثم بالكسر ويا ساكنة ، مخلاف باليمن . (ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٢ ، ص ٢٥٧) .
 - ٧- مسلم اللحي ، مسلم بن محمد بن جعفر اللحي (ت حوالي ٥٤٥هـ / ١١٥٠م) : تاريخ مسلم اللحي ، مخطوطة باريس، رقم ٥٩٥٢ ، ج ٤ ، ورقة ٨ .
 - ٨- القفطي : أنباء الرواه ، ج ١ ، ص ٣١٤ .
 - ٩- الهمداني : المقالة العاشرة من سرائر الحكمة، تحقيق محمد بن علي الأكوخ، صنعاء (د.ت) .
 - ١٠- الهمداني : الاكليل ، ج ١٠ ، ص ١٩٥-١٩٨ .
- * زييد واد مشهور من أودية اليمن ، وأما مدينة زييد فقد أنشأها سنة ٢٠٤هـ محمد بن زياد عامل الخليفة المأمون على اليمن، وينسب إلى هذه المدينة جمع كثير من العلماء ، وهي مدينة مدورة الشكل عجيبه الموضع على التصف ما بين البحر والجبل، وفي جنوبها واديها المسمى وادي زييد، (ابن المجاور ، جمال الدين أبو الفتح يوسف بن يعقوب بن محمد الدمشقي ت ٦٩٠هـ) : صفة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجاز، ويسمى تاريخ المستبصر ، نشر أوسكار لوفجرين ، ص ٢٢ ، الخزرجي، أبو الحسن على بن الحسن (ت ٨١٢هـ) : المسجد المسبوك فيمن ولي اليمن من الملوك ، مخطوط بمعهد المخطوطات العربية رقم (٧٣٦) ورقة ١٢٠ ب.

- ١١- حمد الجاسر: صفة جزيرة العرب ، المقدمة ، ص ٨ .
- ١٢- المراهشي : بالفتح جبل معاند ليربط من جهة الشرق، وهو جبل خصيب فيه فاكهة العنب الذي يؤتى أكله في السنة مرتين، وكان مسكن أجداد الهمداني. (الهمداني : الاكليل ، ج ١٠ ، ص ١٩٩ ، صفة جزيرة العرب، ص ١٦١).
- ١٣- الهمداني: الاكليل ، ج ١٠ ، ص ١٩٩ .
- ١٤- الهمداني: صفة جزيرة العرب، ص ٣١٩ .
- ١٥- الهمداني: الاكليل ، ج ١٠ ، ص ١٩٩ .
- ١٦- الهمداني : صفة جزيرة العرب، ص ٣٦٥ .
- ١٧- الهمداني : صفة جزيرة العرب، ص ١٠٣ : الاكليل ، ج ٢ ، ص ٢٣ : ابن سمرة ، عمر بن علي بن سمرة الجعدي (ت ٥٨٦هـ / ١١٩٠م) : طبقات فقهاء اليمن ، تحقيق فؤاد سيد، دار القلم، بيروت (د ت) ص ٥٧ .
- ١٨- الهمداني: صفة جزيرة العرب ، ص ١٠٣ ، حاشية رقم (١) .
- ١٩- ذكر المستشرق كارل فينرش أن هناك بضعة أوراق منه في مكتبة هايدلبرج.
- ٢٠- ابن سمرة : طبقات فقهاء اليمن، ص ٥٧ ، الجندي، بهاء الدين أبو عبدالله محمد بن يوسف الجندي. السكسكي (ت ٧٣٢هـ / ١٢٣٢م) : السلوك في طبقات العلماء والملوك ، تحقيق محمد بن علي الأكرع، بيروت ١٩٨٣، ج ١، ص ١١٤ .
- ٢١- ابن النديم : محمد بن اسحاق (ت ٤١٢هـ / ١٠٢٢م) الفهرست ، القاهرة ١٣٤٨هـ، ص ٣١٨ ، الرازي، أبو العباس أحمد بن عبدالله (ت حوالي ٥٠٠هـ / ١١٠٦م) : تاريخ مدينة صنعاء ، تحقيق عبد الجبار بكار وحسين العمري، دمشق ١٩٧٤ ، ص ٢٩٧ ، ابن سمرة : طبقات فقهاء اليمن، ص ٥٦ ، الجندي : السلوك ، ج ١ ، ص ١٠٤ .
- ٢٢- الجندي : السلوك ، ج ١ ص ١٤٤ ، وراجع : ابن سمرة : طبقات فقهاء اليمن، ص ٦٧-٦٨ .
- ٢٣- ابن سمرة: طبقات فقهاء اليمن، ص ٦٦-٦٧ .
- ٢٤- ابن سمرة : طبقات فقهاء اليمن، ص ٦٦ ، الجندي: السلوك، ج ١ ص ١٤٥ .
- ٢٥- الجندي: السلوك ، ج ١ ، ص ١٥٩ .
- ٢٦- بامخرمة : أبو محمد عبدالله الطيب بن عبدالله (ت ٩٤٧هـ / ١٥٤٠م) تاريخ ثغر عدن ، تحقيق أوسكر لوفجرين ، ليدن ١٩٣٦ ، ج ٢ ، ص ٢٦٠ ، وراجع : الجندي: السلوك ، ج ١ ، ص ١٥٩ .
- ٢٧- محمد بن علي الأكرع : مقدمة المقالة العاشرة من سرائر الحكمة للهمداني، ص ٢١ .
- ٢٨- صاعد الأندلسي، أبو القاسم صاعد بن أحمد بن صاعد الأندلسي (ت ٤٦٢هـ / ١٠٧٠م) : طبقات

- الأمم، تحقيق الدكتور حسين مؤنس، دار المعارف، القاهرة ١٩٩٣، ص ٧٩ .
- ٢٩- الهمداني: صفة جزيرة العرب، ص ٢٩، ص ٦٥، الجوهري: تحقيق الدكتور كريستوفر تول، صنعاء ١٩٨٥، ص ١٠٣، ص ١٠٦ .
- ٣٠- الهمداني: كتاب الجوهري، ص ٩١، ص ١٠٥، المقالة العاشرة، ص ٢٥، ص ٣٦، ص ٥٠ .
- ٣١- كريستوفر تول: مقدمة كتاب الجوهري، ص ٥٤ - ٥٥ وراجع:
- Croken Barbara Eileen : Zabid under the Rasulids of Yemen (626-858 AH / 1229 - 1454 AD) Ph . D. diss., Harvard University . 1990 . pp. 24-26 .
- ٣٢- ذكر الهمداني من أصحاب النجوم أبا عصمة وأبا جنده وابن عاصم وابن المنذر وابن عبدالله وغيرهم. (صفة جزيرة العرب، ص ١٠٤) .
- ٣٣- الهمداني: الاكليل، ج ١٠، ص ٨٤ .
- ٣٤- صاعد الاندلسي: طبقات الأمم، ص ٥٧ .
- ٣٥- Swanson : Historical Considerations in Yemen Vernacular Architecture : Sulahid Dyansy (439-1047) to the modern Period - Ph D. diss., Ohio State University , 1997 . pp. 8-9 .
- ٣٦- الهمداني: كتاب الجوهري، ص ٥٠، ١٢٦ .
- ٣٧- السيوطي، جلال الدين أبو الفضل عبد الرحمن (ت ٩١١هـ / ١٥٠٥م) : بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة ١٩٦٤، ج ١، ص ٤٩٨، ص ٥٣١ .
- ٣٨- القفطي: انباء الرواء على أنباء النحاة، ج ١، ص ٣١٤ .
- ٣٩- الهمداني: الجوهري، ص ٤٢-٤٤، ٥١ .
- ٤٠- كريستوفر تول: مقدمة الجوهري، ص ٥١ .
- ٤١- الهمداني: الجوهري، ص ١٦٥ .
- ٤٢- كريستوفر تول: مقدمة الجوهري، ص ٥٥ .
- Lealan Anderson : Hitistorical Considerations in Yemen, pp. 13-14 .
- ٤٣- ابن خلدون: أبو زيد عبد الرحمن بن محمد (ت ٨٠٨هـ / ١٤٠٥م) مقدمة ابن خلدون، دار ابن خلدون، الإسكندرية (د.ت)، ص ٣٩٩ .
- ٤٤- يذكر الشيخ حمد الجاسر أن ابن فهد نقل عن الخزرجي في كتابه «تاريخ اليمن، فقال: «أن الهمداني ولد بصنعاء، وبها نشأ، ثم ارتحل في شبابه إلى مكة فجاور بها وقتل» (حمد

- الجاسر: مقدمة صفة جزيرة العرب، ص ١٠ .
- ٤٥- القفطى : انباء الرواه ، ج ١ ، ص ٣١٥ .
- ٤٦- الهمداني : تفسير الدامغة ، تحقيق محمد بن على الأكوخ ، بيروت (د.ت) ، ص ٢٩٥ ، وراجع : حمد الجاسر : مقدمة صفة الجزيرة ، ص ١٠ .
- ٤٧- حسين نصار : نشأة التدوين التاريخي عند العرب ، القاهرة ، (د.ت) محمود الحويرى: منهج البحث التاريخي ، القاهرة ١٩٩٩ ، ص ١١٦-١١٧ .
- ٤٨- راجع : ابن هشام ، محمد بن عبد الملك (ت ٢١٨هـ / ٨٢٤م) سيرة ابن هشام ، القاهرة (د.ت) ٤ ج ، ابن سلام ، أبو عبيد القاسم بن سلام (ت ٢٢٤هـ / ٨٢٨م) الأموال ، بيروت ١٩٨١ ، وكذلك : المسعودي، أبو الحسن على بن الحسن (ت ٣٤٦هـ / ٩٥٦م) التنبيه والاشراف ، القاهرة (د.ت) .
- ٤٩- قاسم عبده قاسم : فكرة التاريخ عند المسلمين ، القاهرة ٢٠٠١م، ص ٩٦ .
- ٥٠- أحمد أمين : ضحى الإسلام، القاهرة ١٩٧٩ ، ج ٢ ، ص ٢٢٨-٢٣٢ ، محمود الحويرى: منهج البحث فى التاريخ ، ص ١١٩ .
- ٥١- الهمداني: الاكليل ، ج ١ ص ٢٨ ، ج ٢ ، ص ١٢٧ ، ج ٨ ، ص ٦١-٦٢ ، ج ١٠ ، ص ٢٣ .
- ٥٢- صاعد الأندلسي : طبقات الأمم، ص ٦٠ .
- ٥٣- صاعد الأندلسي : طبقات الأمم ص ٦٠ .
- ٥٤- الجندى: السلوك ، ج ١ ص ٦٣ .
- ٥٥- المسعودي: التنبيه والاشراف ، ص ٧١؛ ابن النديم : الفهرست ، ص ٨٩ .
- ٥٦- ابن قتيبة ، أبو محمد عبدالله بن مسلم (ت ٢٧٦هـ / ٨٨٩م) : المعارف ، تحقيق ثروت عكاشة ، القاهرة ١٩٦٠ ، ص ٥٢٥-٥٣٦ .
- ٥٧- البلاذرى، أبو العباس أحمد بن يحيى بن جابر (ت ٢٧٩ هـ / ٨٩٢م) فتوح البلدان، تحقيق عبدالله أنيس الطباع، بيروت ١٩٨٧ ، الصفحات ٢٤ ، ٤٠ ، ٤٨ ، ٥٦ ، ٧١ ، ٧٣ ، ٩٠ ، ١٠٣ .
- ٥٨- الهمداني، الاكليل ، ج ٨ تحقيق الأب انستاس مارى الكرملى، بغداد ١٩٣١ ، ص ١١٩ ، ١٢٠ ، ج ١٠ ، ص ٣٠ ، ص ٢٢١ ، صفة جزيرة العرب، ص ٨٣ .
- ٥٩- الهمداني : الاكليل ، ج ١٠ ، ص ٢٠ .
- ٦٠- الهمداني : الاكليل ، ج ١ ص ٩ ، ص ٢٠ وراجع : حمد الجاسر: مقدمة صفة جزيرة العرب، ص ١١ .
- ٦١- الهمداني: الاكليل ، ج ٢ ، ص ٢٧١ وراجع حمد الجاسر: مقدمة صفة جزيرة العرب ، ص ١١ .
- ٦٢- القفطى : انباء الرواه ، ج ١ ، ص ٣١٥ .

٦٣- راجع مؤلفات الهمداني : الاكليل ، ج ١ ، ج ٢ ، ج ٨ ، ج ١٠ ، صفة جزيرة العرب ، الجوهرتين ، المقالة العاشرة من سرائر الحكمة .

٦٤- القفطي : انباه الرواء ، ج ١ ص ٣١٥ .

٦٥- القفطي : انباه الرواء ، ج ١ ، ص ٣١٥ .

٦٦- الهمداني : الاكليل ، ج ١ ، ص ٢٧٥ .

٦٧- يقصد به كتاب الاكليل.

٦٨- كتاب الأيام ، من كتب الهمداني المفقودة وذكره في كتاب الاكليل .

٦٩- قاسم عبيد قاسم : فكرة التاريخ ، ص ٧٢ .

٧٠- أحمد بن أحمد بن محمد المطاع : تاريخ اليمن الإسلامي ، تحقيق عبدالله محمد الحبشي ، بيروت ١٩٨٦ . ص ٥٧-٧٠ ، كذلك : حسن خضير أحمد ، قيام الدولة الزيدية في اليمن ، القاهرة ١٩٩٦ ، ص ٢٥-٣٠ .

٧١- ابن عبد المجيد ، تاج الدين عبد الباقي بن عبد المجيد (ت ٧٤٤ هـ / ١٣٤٣ م) : بهجة الزمن في تاريخ اليمن ، تحقيق مصطفى حجازي ، القاهرة ١٩٦٥ ، ص ٢٥-٣٣ : الخزرجي ، أبو الحسن علي ابن الحسن (ت ٨١٢ هـ / ١٤١٠ م) : اليمن في عهد الولاة ، تحقيق راضي داغفوس ، منشورات الجامعة التونسية ١٩٧٩ ، ص ١٠٠-١٠٧ .

٧٢- عمارة اليمنى ، نجم الدين محمد الحكمي (ت ٥٦٩ هـ) : المفيد في تاريخ صنعاء وزيد ، تحقيق محمد بن علي الأكرع ، القاهرة ١٩٦٧ ، ص ٤١ ، ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ، ص ٢٥ .

٧٣- الجندي : السلوك ، ج ١ ، ص ٢٢١ ، حسن خضير : قيام الدولة الزيدية ، ص ٢٨ .

٧٤- شبام : قرية في مخلاف أقيان بن زوعه بن سبأ الأصغر ، وبهما مملكة بني حوال ، ويقال إنها سميت بشبام بن عبدالله رجل من همدان توطنها (الهمداني : صفة جزيرة العرب ، ص ٢١١ ، ص ٢١٢) .

٧٥- محمد بن علي الأكرع : الوثائق السياسية اليمنية من قبيل الاسلام إلى سنة ٣٢٢ هـ ، بغداد ١٩٧٦ ، ص ٢٣٤-٢٣٧ .

٧٦- ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ، ص ٣٥ ، الخزرجي : الكفاية والاعلام ، ص ١١٤ .

٧٧- نشوان الحميري ، أبوسعيد نشوان بن سعيد (ت ٥٧٣ هـ / ١١٧٧ م) : الحور العين ، تحقيق كمال

مصطفى ، بيروت ١٩٨٥ ، ص ٢٥٣ ، ابن الديبع ، عبد الرحمن بن علي بن محمد الشيباني (ت ٩٢٤هـ / ١٥٢٣م) : قرّة العيون في أخبار اليمن الميمون، تحقيق محمد بن علي الأكرع، القاهرة ، ١٣٧٤ هـ، ص ١٨٣-١٨٥ .

٧٨- الهمداني : الاكليل ، ج ١٠ ، ص ٣٥ ، الرازي : تاريخ مدينة صنعاء، ص ٢٦٣ .

٧٩- العلوي ، علي بن محمد بن عبيدالله العباسي (كان معاصراً للإمام الهادي يحيى بن الحسين) : سيرة الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين ، تحقيق الدكتور سهيل زكار، بيروت ١٩٨١ ، ص ٣٦-٤٩ ، وكذلك راجع : يحيى بن الحسين : أنباء الزمن في أخبار اليمن، القاهرة ، (دت) ، ص ٧-٥٣ ، وطبقات الزيدية ص ٢٤-٢٧ .

٨٠- حسن خضيرى أحمد : قيام الدولة الزيدية في اليمن، ص ١٤١ .

٨١- المنيخرة : بضم الميم وفتح الذال وسكون الياء، مدينة ذات أنهار ورياض واسعة من مخلاف جعفر ، وقد اختط هذه المدينة جعفر مولى محمد بن زياد أول المائة الثالثة . (الهمداني: صفة جزيرة العرب، ص ١١٨ - ١١٩) .

٨٢- الجند: بلدة مشهورة في اليمن جنوب صنعاء ، على مسافة سبع مراحل ، وهي مقابلة لمدينة تعز من جهة الشرق (الحجري : مجموع اليمن وقبائلها ، ورقة ٤٢) .

٨٣- الهمداني: صفة جزيرة العرب، ص ١٤٢ ، المعافر هو المخلاف الذي يعرف الآن بالحجرية وهو شمال غربى عدن (الحجري : مجموع بلدان اليمن، ورقة ١٧١) .

٨٤- ابن خلدون : المقدمة ، ص ١١٧ .

٨٥- حسن خضيرى أحمد: قيام الدولة الزيدية في اليمن، ص ٥٦-٥٨ .

٨٦- للهمداني قصيدة تعرف بقصيدة الجار يعتز فيها بهمدانيته وكذلك القصيدة الدامغة النونية ومطلعها:

ألا يا دار هـ لا تنطقيننا فإنا سائلوك فـخبـيرينا

الهمداني : الاكليل ، ج ١ ، ص ٤٢٦ ، ياقوت الحموي، معجم الأدياء ، ج ١ ، ص ٤١٢ وراجع : محمد بن علي الأكرع : مقدمة المقالة العاشرة من سرائر الحكمة، ص ٢١ .

٨٧- ابن فهد المكي: الدر الكمين وذيل العقد الثمين ، مخطوطة (رامبوز الهند) ، ورقة ١٠٢ ، (نقلًا عن الشيخ حمد الجاسر ، مقدمة صفة جزيرة العرب ، ص ١٥) .

٨٨- ابن فهد المكي : الدر الكمين، ورقة ١٠٢ .

٨٩- الهمداني : المقالة العاشرة من سرائر الحكمة، ص ١١١ .

٩٠- نفس المصدر، ص ١١٥ .

- ٩١- نفس المصدر ، ص ١١٦ .
- ٩٢- نفس المصدر ، ص ١١٦ وراجع : حمد الجاسر : مقدمة صفة جزيرة العرب، ص ١٧ وكذلك : محمد ابن علي الأكرع : مقدمة المقالة العاشرة من سرائر الحكمة، ص ٢١ .
- ٩٣- الهمداني: الاكليل ، ج ١ ، ص ٣٣١ .
- ٩٤- الفطيميون : هم ولد سعد بن جاذر بن صبحار بن خولان ، وهم أكثر خولان إجابة، وأبعدهم صيتاً ، وأفرسهم فروسية، وكانت ملوك حمير تميل معهم (الهمداني: الاكليل ، ج ١ ، ص ٣٢٦، ٣٢٧) .
- ٩٥- الجندي: السلوك ، ج ١ ص ٢٣١ ، ابن الديبع : قرّة العيون بآخبار اليمن الميمون، ص ١٧٨، ١٩٩ ، أحمد بن محمد المطاع: تاريخ اليمن الإسلامي، ص ٦٠-٦١ راجع كذلك:
- Croken Barbra : Zabid under the Rasulids of Yemen , pp. 84-87 .
- ٩٦- القفطي : أنباء الرواء، ج ١، ص ٣١٥ .
- ٩٧- نفس المصدر، ص ٣١٨ .
- ٩٨- يحيى بن الحسين : طبقات الزيدية ، ورقة ٢٨ ، ورقة ٦١ .
- ٩٩- محب الدين الخطيب، مقدمة الاكليل ، ج ١٠ .
- ١٠٠- أحمد بن محمد المطاع: تاريخ اليمن الإسلامي، ص ٢٣ .
- ١٠١- Enc. of Islam (art El- Hamdani).
- ١٠٢- ميلاد المقرحى : ملاحظات حول كتابة التاريخ والبحث التاريخي، مجلة البحوث التاريخية، السنة السادسة، العدد الثاني يوليو ١٩٨٤، منشورات جامعة الفاتح ، ليبيا، ص ٤٧٧ .
- ١٠٣- السخاوى ، شمس الدين عبد الرحمن السخاوى (ت ٩٠٢ هـ / ١٤٩٧م) : الإعلان بالتوبيخ لمن نم التاريخ ، القاهرة ١٣٤٩ هـ ، ص ٨٥-٨٦ ، وراجع : قاسم عبده قاسم : فكرة التاريخ عند المسلمين، ص ٢٤ .
- ١٠٤- الهمداني: الاكليل ، ج ١٠، ص ٢٧ ، كتاب الجوهرتين، ص ١٠٥ .
- ١٠٥- نفس المصدر ، ج ١٠ ، ص ١٠٣ .
- ١٠٦- نفس المصدر ج ١٠ ، ص ١٦ .
- ١٠٧- الهمداني: الاكليل ، ج ١٠ ، ص ٢٠ .
- ١٠٨- نفس المصدر ، ج ١ ، ص ٢١ الجوهرتين، ص ١٠٦ .
- ١٠٩- ريده : بفتح الراء وسكون الياء ثم دال وهاء، وهى اليوم أهلة بالسكان والحياة وهى لاتزال سوقا لحاشد ويكيل (الهمداني: صفة جزيرة العرب ص ١١٤، الاكليل ، ج ٢ ، ص ٩٨) .

- ١١٠-الهمداني : الاكليل ، ج ١٠ ، ص ١٤ .
- ١١١- الهمداني: كتاب الجوهرتين ، ص ١٨٥ ، ص ٢٠٠ .
- ١١٢- الهمداني : كتاب الجوهرتين ، ص ٢٢٦ ، ص ٢٢٩ .
- ١١٣- الهمداني: الاكليل ، ج ١ ص ٦٦ ، ص ٨٤ راجع : حمد الجاسر : مقدمة صفة جزيرة العرب ، ص ١٠ .
- ١١٤- الهمداني: الاكليل ، ج ٨ ، ص ١٠١ .
- ١١٥- الهمداني : الاكليل ، ج ١ ، ص ١٣٧ .
- ١١٦- الهمداني: الجوهرتين ، ص ١٠٧ .
- ١١٧- الهمداني: الاكليل ج ٨ ، ص ٢١٢-٢١٨ .
- ١١٨- سيده اسماعيل كاشف : مصادر التاريخ الإسلامي ومناهج البحث فيه ، القاهرة ١٩٦٠ ، ص ٦١ : عبد المنعم ماجد : مقدمة لدراسة التاريخ الإسلامي، القاهرة، ١٩٧١ ، ص ٦٨ .
- ١١٩- ابن خلدون : مقدمة ابن خلدون ص ٧ .
- ١٢٠- الهمداني: الجوهرتين، ص ١٠٦ .
- ١٢١- الهمداني: الاكليل ج ١٠ ، ص ٢٣-٢٥ .
- ١٢٢- نفس المصدر، ج ١٠ ، ص ٤٧-٥٠ .
- ١٢٣- سيده اسماعيل كاشف : مصادر التاريخ الإسلامي ص ٤٢ ، حمد الجاسر : مقدمة صفة جزيرة العرب، ص ١٩ .
- ١٢٤- صاعد الأندلسي : طبقات الأمم، ص ٧٨ .
- ١٢٥- قاسم عبده قاسم : فكرة التاريخ عند المسلمين ، ص ٦٧ .
- ١٢٦- حمد الجاسر: مقدمة صفة جزيرة العرب ص ١٩ .
- ١٢٧- محمد عبد القنى حسن: التاريخ عند المسلمين ، القاهرة ١٩٧٧ ، ص ٢٩-٣٠ .
- ١٢٨- راجع الهمداني : الاكليل ، ج ١٠ ، ص ١٥ ، ص ٦١ ، ص ٢٠ وكذلك :
The historical value of ancient Yemen's , pp. 10-12 .
- ١٢٩- الهمداني: الجوهرتين ، ص ٩٦ .
- ١٣٠- راجع : محب الدين الخطيب : الاكليل ، ج ١٠ ، المقدمة ، كذلك : حمد الجاسر : مقدمة صفة جزيرة العرب ، ص ١٨ .

- ١٣١- محمد بن علي الأكرع، المقالة العاشرة من سرائر الحكمة، ص ٢٢-٢٣ .
- ١٣٢- ذكره القفطي: أنباء الرواء، ج ١ ، ص ٣١٧ .
- ١٣٣- القفطي : أنباء الرواء، ج ١ ص ٣١٧ .
- ١٣٤- الهمداني : الاكليل ، ج ١٠ ، ص ٨٨ ، ص ١١٧ ، صفة جزيرة العرب ، ص ٣٦٥ ، القفطي ، أنباء الرواء ج ١، ص ٣١٦ .
- ١٣٥- الهمداني: الاكليل ، ج ١ ، ص ١٧٠ ، ١٩٩ ، ٢١٦ .
- ١٣٦- القفطي: أنباء الرواء ، ج ١ ، ص ٢١٨ .
- ١٣٧- صاعد الأندلسي : طبقات الأمم ص ٧٨، القفطي : أنباء الرواء ، ص ٣١٧ .
- ١٣٨- صاعد الأندلسي : طبقات الأمم ، ص ٧٩ .
- ١٣٩- (al), The Enc. Britannica (art Hamdani , al).
- ١٤٠- القفطي : أنباء الرواء ، ج ١ ، ص ٣١٥ .
- ١٤١- محمد بن علي الأكرع، : المقالة العاشرة من سرائر الحكمة، ص ٢٣ .
- ١٤٢- الزركلي: الأعلام ، ج ٢ ، ص ١٧٩ .
- ١٤٣- الهمداني: الاكليل ، ج ٢، ص ٢٧١ .
- ١٤٤- الهمداني: الاكليل ، ج ١٠ ، ص ٦٧ ، وراجع : حمد الجاسر : مقدمة صفة جزيرة العرب ، ص ٢٠ .
- ١٤٥- نفس المصدر، ج ١٠ ، ص ٦٧ .
- ١٤٦- نفس المصدر، ج ١٠ ، ص ٦٧ .
- ١٤٧- نفس المصدر ، ج ١٠ ، ص ٦٧ ، وراجع : محمد بن علي الأكرع: المقالة العاشرة، ص ٢٣ .
- ١٤٨- محمد بن علي الأكرع: المقالة العاشرة من سرائر الحكمة، ص ٢٣ .

المصادر والمراجع

أولا : المصادر المخطوطة:

- الحجرى ، محمد بن أحمد (من علماء القرن الرابع عشر الهجرى) : مجموع بلدان اليمن وقبائلها ، مخطوط مصور بدار الكتب المصرية ، ميكروفيلم رقم (٢٩٣٨).
- الخزرجى ، أبو الحسن على بن الحسن (ت ٨١٢ هـ / ١٤١٠م) : العسجد المسبوك فيمن ولى اليمن من الملوك ، مخطوط مصور بمعهد المخطوطات العربية رقم (٧٣٦) .
- مسلم اللجى ، مسلم بن محمد بن جعفر اللجى (المتوفى فى حوالى سنة ٥٤٥ هـ / ١١٥٠م) : «كتاب فيه شئ من أخبار الزيدية فى اليمن، يعرف بتاريخ مسلم اللجى، مخطوطة باريس رقم ٥٩٥٢، ج ٤ .
- مؤلف مجهول : تاريخ اليمن فى الكوافى والفتن، مخطوط مصور بمعهد المخطوطات العربية رقم (٩٦٨) .
- يحيى بن الحسين بن القاسم بن محمد (ت ١١٠٠ هـ / ١٦٨٨م) : الطبقات الزهر فى أعيان العصر، ويعرف باسم طبقات الزيدية الصغرى، مخطوط بمكتبة الجامع الكبير بصنعاء ، توجد صورة من المخطوط بمكتبتى الخاصة.

ثانيا: المصادر المطبوعة:

- بامخرمة > أبو محمد عبد الله الطيب بن عبدالله (ت ٩٤٧ هـ / ١٥٤٠م) : تاريخ ثغر عدن ، تحقيق أوسكر لوفجرين، ليدن ١٩٣٦ .
- البلاذرى، أبو العباس أحمد بن يحيى بن جابر (ت ٢٧٩ هـ / ٨٩٢م) : فتوح البلدان ، تحقيق عبدالله أنيس الطباع ، بيروت ١٩٨٧ .
- الجندى، بهاء الدين أبو عبدالله محمد بن يوسف الجندى السكسكى (ت ٧٣٢ هـ / ١٣٣٢م) :
- السلوك فى طبقات العلماء والملوك، تحقيق محمد بن على الاكوع، بيروت ١٩٨٣ .
- الخزرجى ، أبو الحسن على بن الحسن (ت ٨١٢ هـ / ١٤١٠م) : اليمن فى عهد الولاة، تحقيق راضى دغفوس ، منشورات الجامعة التونسية ١٩٧٩ .
- ابن خلدون ، أبو زيد عبد الرحمن بن محمد (ت ٨٠٨ هـ / ١٤٠٥م) : مقدمة ابن خلدون، دار ابن خلدون، الاسكندرية (د.ت) .

- ابن الديبع ، عبد الرحمن بن علي بن محمد الشيباني (ت ٩٢٤هـ / ١٥٣٣م) قرّة العيون في أخبار اليمن الميمون، تحقيق محمد بن علي الأكوع، القاهرة، ١٣٧٤هـ .
- الرازي ، أبو العباس أحمد بن عبدالله (ت حوالي ٥٠٠هـ / ١١٠٦م) : تاريخ مدينة صنعاء ، تحقيق عبد الجبار زكار وحسين العمري ، دمشق ١٩٧٤ .
- السخاوي، شمس الدين السخاوي (ت ٩٠٢هـ / ١٤٩٧م) : الإعلان بالتوبيخ لمن نم التاريخ، القاهرة ١٣٤٩هـ.
- ابن سلام، أبو عبيد القاسم بن سلام (ت ٢٢٤هـ / ٨٣٨م) : الأموال ، بيروت ١٩٨١ .
- ابن سمرة ، عمر بن علي بن سمرة الجعدي (ت ٥٨٦هـ / ١١٩٠م) : طبقات فقهاء اليمن، تحقيق فؤاد سيد ، بيروت (د.ت) .
- السيوطي، جلال الدين أبو الفضل عبد الرحمن (ت ٩١١هـ / ١٥٠٥م) : بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، القاهرة ١٩٦٤ ، ج ١ .
- صاعد الأندلسي ، القاضي أبو القاسم صاعد بن أحمد بن صاعد الأندلسي (ت ٤٦٢هـ / ١٠٧٠م) طبقات الأمم، تحقيق الدكتور حسين مؤنس ، القاهرة ١٩٩٣ .
- ابن عبد المجيد ، تاج الدين عبد الباقي بن عبد المجيد (٧٤٤هـ / ١٣٤٣م) : بهجة الزمن في تاريخ اليمن، تحقيق مصطفى حجازي، القاهرة ١٩٦٥ .
- العلوي، علي بن محمد بن عبدالله العباسي (كان معاصراً للإمام الهادي يحيى بن الحسين في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي) سيرة الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين ، تحقيق الدكتور سهيل زكار، بيروت ١٩٨١ .
- عمارة اليمنى، نجم الدين محمد الحكمي (ت ٥٦٩هـ / ١١٧٣م) : المفيد في تاريخ صنعاء وزبيد، تحقيق محمد بن علي الأكوع ، القاهرة ١٩٦٧ .
- ابن قتيبة ، أبو محمد عبدالله بن مسلم (٢٧٦هـ / ٨٨٩م) : المعارف ، تحقيق ثروت عكاشه ، مطبعة دار الكتب، القاهرة ١٩٦٠ .
- القفطي ، جمال الدين أبي الحسن علي بن يوسف (ت ٦٢٤هـ / ١٢٢٦م) : أنباء الرواة على أنباء النحاة ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، القاهرة ١٩٨٦ ، ج ١ .

- ابن المجاور ، جمال الدين أبو الفتح يوسف بن يعقوب بن محمد الدمشقي (ت ٦٩٠هـ / ١٢٩١م) : صفة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجاز ، ويسمى تاريخ المستبصر ، نشر أوسكار لوفجرين ، ليدن ١٩٥١ .
- المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين (ت ٣٤٦هـ / ٩٥٦م) : التنبيه والاشراف، دار الصاوي للنشر، القاهرة، (د.ت) .
- ابن النديم ، محمد بن اسحاق (ت ٤١٢هـ / ١٠٢٢م) : الفهرست ، القاهرة ١٣٤٨هـ .
- نشوان الحميري، أبوسعيد نشوان بن سعيد (ت ٥٧٣هـ / ١١٧٧م) الحور العين، تحقيق كمال مصطفى، بيروت ١٩٨٥ .
- ابن هشام ، محمد بن عبد الملك (ت ٢١٨هـ / ٨٣٤م) : السيرة النبوية ويعرف بسيرة ابن هشام ، القاهرة (د.ت) ٤ أجزاء .
- الهمداني ، أبو محمد الحسن أحمد بن يعقوب (ت ٣٣٤هـ / ٩٤٥م) :
 الاكليل ج ١ ، تحقيق محمد بن علي الاكوع، القاهرة ١٩٦٣ .
 الاكليل ج ٢ ، تحقيق محمد بن علي الاكوع، القاهرة ١٩٦٧ .
 الاكليل ج ٨ ، تحقيق الأب انستاس ماري الكرملی، بغداد ١٩٢١ ، تحقيق محمد بن علي الاكوع، دمشق ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩ .
- الهمداني ، الاكليل ج ١٠ ، تحقيق محب الدين الخطيب ، القاهرة ١٣٦٨هـ .
- صفة جزيرة العرب ، تحقيق محمد بن علي الاكوع، طبعة ثالثة ، بيروت ١٩٨٣ .
- كتاب الجوهرتين ، تحقيق الدكتور كريستوفر تول، صنعاء ١٩٨٥ .
- المقالة العاشرة من سرائر الحكمة ، تحقيق محمد بن علي الاكوع ، صنعاء (د.ت) .
- ياقوت الحموي ، شهاب الدين أبو عبد الله الحموي (ت ٦٠٦هـ / ١٢٢٩م) : معجم البلدان، بيروت ١٩٨٤ ، ج ٢ ، ج ٤ .
- معجم الأدباء ، دار صادر ، بيروت (د.ت) ج ١ .
- يحيى بن الحسين بن القاسم بن محمد (ت ١١٠٠هـ / ١٦٨٨م) : أنباء الزمن في أخبار اليمن، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة (د.ت) .

ثالثاً : المراجع العربية:

- أحمد بن أحمد بن محمد المطاع : تاريخ اليمن الإسلامى ، تحقيق عبدالله محمد الحبشى ، بيروت ١٩٨٦ .
- أحمد أمين: ضحى الإسلام ، القاهرة ١٩٧٩ ، ج ٢ .
- حسن خضيرى أحمد : قيام الدولة الزيدية فى اليمن (٢٨٠-٢٩٨هـ / ٨٩٣-٩١١م) ، القاهرة ١٩٩٦ .
- حسين نصار : نشأة التدوين التاريخى عند العرب ، القاهرة (د.ت) .
- حمد الجاسر : مقدمة صفة جزيرة العرب للهمدانى، بيروت ١٩٨٣ .
- خير الدين الزركلى: الأعلام (قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، بيروت (د.ت) ، ج ٢ .
- سيدة اسماعيل كاشف : مصادر التاريخ الإسلامى ومناهج البحث فيه ، القاهرة، ١٩٧٦ .
- قاسم عبده قاسم : فكرة التاريخ عند المسلمين ، قراءة فى التراث التاريخى العربى، القاهرة ٢٠٠١ .
- كريستوفر تول : مقدمة كتاب الجوهرتين للهمدانى، صنعاء ١٩٨٥ .
- محمد عبد الغنى حسن : التاريخ عند المسلمين ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٧٧ .
- محمد بن على الأكوخ الحوالى: مقدمة المقالة العاشرة من سرائر الحكمة للهمدانى ، صنعاء (د.ت) .
- الوثائق السياسية اليمنية من قبيل الإسلام إلى سنة ٣٢٢هـ ، بغداد ١٩٧٦ .
- محمود الحويرى : منهج البحث التاريخى، القاهرة ١٩٩٩ .
- ميلاد المقرحى : ملاحظات حول كتابة التاريخ والبحث التاريخى: مجلة البحوث التاريخية، السنة السادسة ، العدد الثانى، يوليو ١٩٨٤ ، منشورات جامعة الفاتح ليبيا.

رابعاً :المراجع الأجنبية:

- Croken Barbara Eileen : Zabid under the Rasulids of Yemen (626-858 AH/ 1229 - 1454 AD) Ph . D. diss., : Harvard universty , 1990 .
- Encyclopeadia of Islam .
- Hayden V. White H,: Ibn Khaldun in world Philosophy of History(in Cop- arative studies in society and history . V. 2 October 1959) pp. 110-175 .
- Swanson Lealan Anderson Nunn : Historical considerations in Yemeni Vernacular Architecture: Sulahid Dyansty (439-1047) to the modern Pe- riod . Ph . D diss , Ohio State University 1997 .
- Daghfous Radhi : “ Les You’ Furides “ Facit Des letters et sciences Hu- maines de Tunis (1 et 2 timesttes 1982) .
- Reniner L History its Purpose and method , London , 1950 .
- The historical Importance of the Antiquities Related to Ancient Yemen's (www. Yemenini gov. ye).
- The historical Value of ancient Yemen's (art of El Hamdani. hum) .
- The new Encyclopaedia Britannica.

النشاط السياسى والحضارى للمسلمين فى الهند فى عهد السلطان علاء الدين الخلجى

٦٩٥-٧١٥هـ / ١٢٩٥-١٣١٦م

اختلف المؤرخون والباحثون حول أصل الخَلجيين^(١) ونسبهم . فقد ذهبت طائفة إلى أنهم من نسل «قالج خان» صهر جنكيز خان، وكان خاطره قد ملّ من زوجته ابنة جنكيز خان، ولم يجد مفرّاً من المداراة خوفاً من أبيها . وقد واثقه الفرصة عندما عاد جنكيز خان عن بلاد المشرق الإسلامى إلى موطنه فى منغوليا - شمال الصين- ففكر فى تحصين جبال الغور- شرقى الهضبة الإيرانية، وضمن أفغانستان الآن- وأسكنها قبيلته ، وكثر نسله . ودخل الخلجيون الهندستان بالتدريج فى ظل توسع سلاطين الغور^(٢) فيها، حيث عظم هناك شأن عدد من أحفاد قالج خان هذا الذى حوّل إلى خاليج وصار لكثرة استعماله خَلج^(٣) . وربما يظهر بوضوح خطأ بعض مضمون هذا الرأى من الناحية التاريخية . فالمعروف أن الغور- الذين يذكر هذا الرأى أن بعض أحفاد قالج خان صهر جنكيز خان قد عملوا وبرزوا فى عهدهم- قد انتهت دولتهم سنة ٦١٢ هـ على يد الخوارزميين^(٤) . فى حين أن جنكيز خان لم يقدم إلى مشرق العالم الإسلامى إلا فى عام ٦١٦ هـ .

* مدرس بقسم التاريخ الإسلامى والحضارة دار العلوم- جامعة القاهرة.

فى حين ترجع طائفة أخرى من المؤرخين والباحثين الأصل التركى للخلجيين ، ولكن نظراً لهجرتهم المبكرة من ديار الترك فقد ألفوا مجموعة متميزة ببلاد الغور ^(٥)، وربما كان هذا هو الدافع للبعض لأن ينسبهم للغوريين ^(٦).

كان جلال الدين فيروز شاه (٦٨٩-٦٩٥ هـ / ١٢٩٠-١٢٩٥ م) أول من ولى عرش دهلى - عاصمة الهندستان - من الأسرة الخلجية ^(٧). وكان لهذا السلطان ابن أخ يدعى «علاء الدين محمد بن شهاب الدين مسعود»، كان والده قائداً عسكرياً ومحارباً جسوراً ، ولكننا لانعرف متى ولد علاء الدين ولا فى أى ظروف نشأ ^(٨). ولكننا نعرف أن جلال الدين كان يحب ابن أخيه وأنه زوجه ابنته وعينه حاكماً لكره Kara وعين أخاه «الماس بيك» - وصهر السلطان أيضاً - فى منصب أخوريك ^(٩).

كان علاء الدين شجاعاً مغامراً ، وقلبه متعلق بحب الملك، كما كان على علاقة سيئة بزوجه ابنة السلطان أيضاً وأمها «ملكة جهان» ^(١٠) وفى نهاية سنة ٦٩١ هـ تقريباً حصل علاء الدين على إذن السلطان بالتقدم نحو بهيلسه Bhilsa ومهاجمة تلك المنطقة، حيث حصل على غنائم كبيرة أهدى منها للسلطان كما اصطحب معه عند العودة من هذه الغزوة صنفين حديديين كانا معبودين لأهل هذه النواحي ووضعهما تحت بوابة بداون Badaon ^(١١) ليطأهما الناس . ولقيت أعماله هذه استحساناً من قبل عمه السلطان ^(١٢).

فى بهيلسه سمع عن ثروة ملك ديوكير (أوديو جيرى Devagiri) الهائلة فى الجنوب . وبدون الحصول على إذن من عمه أو عمل الترتيبات فى كره لإمداد دهلى العاصمة بأخبار منتظمة عن تحركاته منعاً للشكوك ، وخرج علاء الدين سنة ٦٩٥ هـ على رأس ثمانية آلاف فارس، ولأبعد مما وصل إليه حاكم مسلم من قبل ، عبر جبال ويندهيا Vindhya نحو الدكن جنوباً حيث كانت ديوكير ^(١٤) يفصلها عن كره مدة شهرين سيراً عبر أقاليم غير معروفة . وبعد صراع قوى أذعن له حاكمها «رام ديو» وحصل علاء الدين على غنائم هائلة ، وانتوى العصيان، فرجع إلى كره ولم يبعث إلى عمه شيئاً من الغنائم وامتنع من المثول بين يدي السلطان فأغرى الأمراء عمه به ولكن السلطان قال : أنا أذهب إليه وأتى به، فإنه محل ولدى. وبعد مراسلات ساعد فيها - على نية الغدر أيضاً - الماس بيك ، أخو علاء الدين ، الذى التمس من السلطان مقابلة أخيه فى غير عدة ولا عدد كى لا يخافه علاء الدين فوافق السلطان، وفى مركب فى عرض النهر غدر علاء الدين بعمه ، إذ قتله أعوانه بالاتفاق معه وهو يحتضنه .

على أثر ذلك فر أكثر عساكر عمه إليه ، بينما عاد بعضهم إلى دهلى واجتمعوا على ركن الدين إبراهيم أصغر أبناء السلطان جلال الدين ، الذى أقامته أمه ملكه جهان- بمعاونة أمراء أبيه الذين غمرتهم بالهدايا والهبئات- سلطاناً على عرش دهلى خلفاً لأبيه . على أن علاء الدين سرعان ما اقتحم المدينة على أهلها، فاضطر السلطان الشاب وأمه إلى الفرار إلى الملتان^(١٥).
لم يضع علاء الدين وقتاً ، فقد أرسل قواده لمطاردة أركلى خان وركان الدين ابن عمه السلطان حيث حوصرا فى الملتان ثم قبض عليهما وقتلا وتحفظ على زوجات السلطان وبقية أولاده مسجونين فى دهلى^(١٦).

وفى يوم مقتل السلطان جلال الدين نفسه نشر علاء الدين شارات المملكة وشعاراتها، ورفع المظلة فوق رأسه باعتباره السلطان الجديد، وأمطر العامة فى دهلى العاصمة بالدنانير والدراهم وقطع الذهب، ويوماً فيوماً ربط أمراء جلال الدين أنفسهم بخدمته وحلفوا له يمين الولاء تحت الرغبة والرغبة . ودخلت المملكة جميعها تحت سيطرة علاء الدين^(١٧).

وفى ٢٩ ذو الحجة سنة ٦٩٥هـ / ١٢٩٥م ارتفع لواء السلطان علاء الدين على دهلى بواسطة أخيه الماس بك، الذى لقب بعد ذلك بألغ خان ، ولقب سنجار أمير مجلس علاء الدين بألب خان، بينما منح ملك نصرت جليساى لقب نصرت خان وملك بدر الدين (أو هزبر الدين) لقب ظفر خان . وهؤلاء هم قواده الأربعة المشاهير وأذرعت الطويلة لتسخير مجمل أرجاء شبه القارة الهندية خلال مدة سلطنته التى دامت حوالى عشرين عاماً منذ أقيمت الخطبة باسمه وذكر على السكة ولأول مرة فى تاريخ الحكم الإسلامى بها^(١٨).

– النشاط السياسى والعسكرى فى عهد السلطان علاء الدين:

أولاً : التصدى للمؤامرات الداخلية:

فى السنة الثالثة لجلوس السلطان علاء الدين على العرش أرسل قائديه ألغ خان ونصرت خان بجيوش جرارة لمهاجمة الكجرات^(١٩) فعادا بغنائم كثيرة أخذ بعضها بالشدة والتعذيب . فاتفق بعض الأمراء من المسلمين الجدد^(٢٠) مع آخرين تضرروا لما أخذ منهم، واجتمعوا وهجموا على ملك عز الدين أخى نصرت خان وكان أمير حاجب ألغ خان وقتلوه ودخلوا خيمة ألغ خان فخرج من الطرف الثانى، ووصلوا إلى خيمة نصرت خان، وكان ابن أخت السلطان علاء الدين نائماً بها فقتلوه ظناً منهم أنه ألغ خان، فأسرع نصرت خان وجمع جموعه وقصد

المتمردين فتفرقوا وتوجهوا إلى الجوانب والأطراف . وعلى أثر ذلك قبض السلطان على أولاد وأتباع الأشخاص الذين سعوا في هذه الفتنة وقتلهم (٢١).

وفي سنة ٦٩٩ هـ / ١٢٩٩ م وجه السلطان قائديه ألغ خان ونصرت خان للاستيلاء على حصن رنتنبهور Ranthambhor (٢٢). وفيما كانا يحاصرانه أصابت إحدى قذائف المدافع الحجرية نصرت خان إصابة قاتلة، فخرج المدافعون لمهاجمة القوات المحاصرة التي اضطرت للتراجع ، فبادر السلطان بالخروج بنفسه إلى هذا الحصن . وذات يوم - وهو في طريقه إلى الحصن - كان السلطان مشغولاً في ميدان الصيد بطريقة القمرغة Qamurgha (٢٣)، وقد نشر قواته في الأطراف وبقي هو مع تابعيه المختارين يتسلقون مرتفعاً ويتابعون ممارسة هذه الرياضة في غضون ذلك هاجمه بقسوة مع مجموعة من المسلمين الجدد ابن أخيه سليمان أكات خان ورموه بالسهم فجرحوا ذراعه ، ولأن الوقت كان شتاء ، والسلطان يرتدى لباساً واقياً شيئاً ما ، لم يكن جرحه مميتاً ، ورغب المتمرد في قطع رأس السلطان، ولكن بعض المحيطين به صرخوا قائلين : قتل السلطان ، فكف عنه وتوجه بسرعة إلى المعسكر وجلس على العرش ونشر المظلة فوق رأسه .

وحينما استعاد السلطان وعيه توجه نحو قائده ألغ خان في جهين . قرب رنتنبهور - ليتقوى به، إذ كان يظن أن المتمرد متفق مع أمراء آخرين شجعوه على تمرده ، ولكن بعض خلائه لم يستصوبوا ذلك وألحوا عليه في التوجه نحو المعسكر السلطاني، في الحال، ولأن أمر ابن أخيه لم يتم وسينفض الناس من حوله عند رؤية السلطان . وفي طريقه للمعسكر انضم إليه بعض عسكره ، وحين علم المتمرد بأمره سلك طريق الهرب ، ولكن أحد الذين أرسلوا لملاحقته قبض عليه وأرسله إلى حضرة السلطان - وقيل أرسل رأسه - وحينئذ دمرت كل أسرته وأقاربه حيث وجدوا (٢٤).

على أثر هذه الحوادث التي شارك فيها المسلمون الجدد من المغول أصبح السلطان كثير الشك فيهم واعتزم استئصالهم وهم من جانبهم كانوا مدفوعين بابتزاز وجشع جامعي الضرائب حائقين عليهم. وفي نهاية الأمر أرسلت من قبل السلطان أوامر سرية لحكام البلاد تأمرهم بالتخلص من المسلمين الجدد أينما وجدوا في موعد معين . وفي الموعد المحدد - كما يذكر بدواني - «جعلوا كثيراً من فقراء المغول سيئى الحظ طعمة لسيف الظلم وأرسلوهم إلى مملكة الإبادة وهم يستعصون على الحصر، ولم يعيش اسم المغول طويلاً في الهندستان» (٢٥).

وفى أثناء حصار السلطان السابق لحصن رنتنبهـور جمع شخص يدعى «حاجى مولى» من مماليك فخر الدين أمير الأمراء فى بلاط السلطان- مجموعة من غلاظ الطبع وأظهر أمراً مزيفاً فى دهلى ، ادعى أنه تسلمه من السلطان ودخل العاصمة، وأرسل فى طلب الكوتوال (٣٦) وفى الحال قطع رأسه وأغلق أبواب المدينة وأرسل إلى كوتوال القلعة علاء الملك- وكان صديقاً له - قائلاً:

وصل أمر من السلطان تعال واقراء . فتوجس خيفة ولم يلب الاستدعاء ، بينما أطلق المتمرد السجناء وأعطى حصاناً وأسلحة وصرة قطع ذهبية من الخزينة لكل منهم، وجمع أتباعاً كثيرين وقبض على شخص علوى يدعى «سيدزاده»، ينحدر من ناحية أمه من نسل السلطان شمس الدين ايلتمش وأجلسه على العرش فى حضور الزعماء والأمراء الذين استدعاهم وجمعهم واضطروا إلى حلف يمين الولاء له .

وحين وصلت أنباء هذا التمرد فى العاصمة إلى مسامع السلطان وهو يحاصر رنتنبهـور لم ينشرها بين عساكره حتى تمكن من فتح الحصن ثم أرسل نحو المتمرد قائده المدعو «حميد الدين» فتمكن من قتله وقتل العلوى وأرسلوا رأسيهما إلى السلطان فى رنتنبهـور .

وعين السلطان ألغ خان ليتقدم إلى العاصمة دهلى لتعقب الذين شاركوا فى التمرد وقتلهم واستئصال أسرهم . ثم عهد له بحصن رنتنبهـور وما يحيط به . ولكن ألغ خان ما لبث أن مرض ثم توفى (٣٧).

بانتهاى هذا التمرد الأخير فرغ بال السلطان من الشأن الداخلى واستقامت له الأمور وتوجه بنظره إلى الخارج لدرء الأخطار الخارجية المهددة لسلطنته خصوصاً الخطر المغولى التقليدى القادم من الشمال الغربى، ثم توسيع حدودها على حساب الإمارات الهندوكية المتبقية فى شبه القارة الهندية .

ثانياً : مواجهة الأخطار الخارجية :

تمثل الخطر الخارجى الرئيسى فى غزو المغول لأرض الهند، الذى تجدد مع بداية سلطنة علاء الدين واستمر حتى عام ٧٠٥هـ / ١٣٠٤م، نخل معهم السلطان خلال هذه المدة فى حروب طاحنة حتى تمكن فى النهاية من رد عائلتهم عن البلاد.

ففى سنة ٦٩٦هـ / ١٢٩٦م عبر جيش مغولى نهر السند فى الشمال الغربى قادماً من

بلاد ما وراء النهر (٢٨)، ودخل إلى أراضي الهند فأرسل السلطان قائديه ألغ خان وظفر خان حيث اصطدم الفريقان في معركة حامية حاقت فيها الهزيمة بجيش المغول وقتل منه كثيرون وأسر جماعة (٢٩).

وفي العام التالي (٣٠) قدم مما وراء النهر «قتلغ خواجه» بن داود بجيش لا يحصى محاولاً غزو الهندستان وتوغل نحو دهلí حيث أصبحت الحبوب فيها عزيزة والأهالى فى عسر عظيم . ومرة أخرى أرسل السلطان قائديه ألغ خان وظفر خان على رأس قوات كبيرة لصد الهجوم الجديد حيث وقعت معركة شديدة هزم فيها المغول وتعقبهم ظفر خان وتأخر عنه ألغ خان حسداً له فخرجت عليه الكمائن فقتلته (٣١).

وللمرة الثالثة يتوجه تارغى المغولى مصحوباً بمائة ألف من المشاة وعشرين ألفاً من الفرسان لنهب الهندستان، وتوغل حتى نزل على شاطئ نهر جون قرب دهلí . فى ذلك الوقت كانت معظم قوات السلطان قد توغلت جنوباً لإتمام فتح الدكن، وبقيت الأمراء قد توجهوا نحو مقاطعاتهم بعد فتح رنتنبهرو، وكان الجيش المصاحب للسلطان فى العاصمة - قد صار بلا أمتعة بسبب المطر وطول السفر - عائداً من رنتنبهرو - فاضطر السلطان - لكل هذه الأسباب - إلى الخروج من العاصمة والنزول بسيرى - إحدى ضواحيها - حيث تحصن هناك وراء الخنادق والأشواك فى انتظار بعض الأمراء الذين استدعاهم من الأطراف، والذين صعب عليهم الوصول للسلطان لاستيلاء المغول على نواحى دهلí والأطراف المجاورة لها، فتوقفوا قريباً من دهلí ، وعندما مر شهران انسحب جيش المغول دون سبب واضح، ربما لخشيته من الوقوع بين براثن جيوش السلطان التى من المحتمل تكاثرها ومسارعتها فى الوصول من الأطراف لنجدة العاصمة (٣٢). واستمر المغول فى تهديد أطراف الهندستان الغربية حيث تصدى لهم فى المرحلة التالية قائد السلطان الجسوران تغلق وكافور (٣٣).

ونظراً لإدراك السلطان لجسامة الخطر المغولى المهدد لبلاده فقد اتبع عدداً من الترتيبات للتصدي لهذا الخطر ، فأعاد تأسيس وتنظيم الدفاعات فى غربى الهندستان، فى إقليم البنجاب ، ووضع المقاطعة الأمامية منه فى ديپالپور Dipalpur (٣٤) تحت إمرة قائده تغلق العسكرى القدير، وجهاز جيشاً للطوارئ ، جعل اعتماده على الإقطاعات وأعدده للأغراض الدفاعية والهجومية ، يعنى هذا أن أمراء السلطان تحولوا من الدفاع للهجوم وأخذوا بزمam المبادرة وبالفعل فقد أغاروا على مقاطعات المغول قرب كابل وغزنة (٣٥) وبذا استبدلت

باستراتيجية الحدود المتراجعة- في السياسة الدفاعية للسلطين قبل علاء الدين في الشمال الغربى للهند- في النصف الثانى من عهد علاء الدين، استبدل بها ما يمكن تسميته باستراتيجية الحدود المتقدمة ضد المهاجمين من معرات الطرف الشمالى الغربى وخاصة المغول. فانقطع تهديد المغول للهند (٣٦).

وقد عبر الهروى عن هذا التحول بقوله : «وبعد ذلك انتهت متاعب المغول تماماً على الأطراف ودخلت بلاد الهندستان التى كانت ملاذاً وملجأ للمفسدين والمتمردين فى حيز الضبط، وتم تأمين طرق ذهاب وإياب التجار والسائحين ... واستراح خاطر السلطان علاء الدين من عرش دهلئ، وشرع فى تسخير البلاد البعيدة» (٣٧).

ثالثاً : التوسع فى شبه القارة الهندية .

فى السنة الثالثة لجلوس السلطان أرسل قائديه ألغ خان ونصرت خان بجيوش جرأوة لمهاجمة إقليم الكجرات فانتهبوه ، وفر «راى كران» (٣٨) حاكم نهرواله (٣٩) والتحق بوالى ديوكير بالدكن . وسقطت نساؤه وبنته «ديولرانى نام» مع الخزانة والأفيال وكل شئ فى يد الجيش، وحمل الصنم الذى اتخذته البراهمة معبوداً لهم بدلاً من سؤمنات (٤٠) الذى حملهُ السلطان محمود إلى دهلئ، وجعله تحت أقدام الناس. وتوجه نصرت خان إلى كنبايث (٤١) حيث حصل من التجار المقيمين هناك أموالاً كثيرة ونقائس (٤٢). واكتسحت مقاطعات الراجبوتانا Rajpu-lana وأخذت منها غنيمة هائلة (٤٣).

ونظراً لكثرة مال السلطان وعتاده وذخائره خطر له أن ينيب عنه فى دهلئ ويتوجه لفتح أركان الأرض تأسيساً بالإسكندر الأكبر ، وأمر أن يدعى فى الخطبة الإسكندر الثانى وكتب هذا على السكة أيضاً . وصدقته حاشيته خوفاً من طبعه الخشن ومزاجه القاسى إلا ملك علاء الملك (٤٥) كوتوال دهلئ (٤٦)، الذى طلب منه السلطان المشورة فى ذلك ، وكان مخلصاً مترتلاً ، فائقع السلطان بأنه من الأولى الانتهاء عن إحداث شئ فى الشريعة لأن فى ذلك خراب الملك والسلطنة . وأوضح له أن تبليغ الرسائل مهمة الأنبياء والرسل، وأن الزمان قد تغير عن عصر الإسكندر الذى كان الناس فيه أقل غدراً ومكرأ وأن الإسكندر تهيأ له وزير لايوجد الزمان بمثله وهو أرسطو ، فإذا ما خرج السلطان لغزو العالم لم يأمن من انتقاص الأطراف عليه. والأولى أن يوجه همهته لتسخير الهندستان وتحصين وإحكام القلاع جهة المغول، وبعدها يستطيع السلطان أن يرسل الممالك المخلصين بالجيوش القوية إلى الأطراف للاستيلاء على

الأقاليم البعيدة وبهذا يذيع في الآفاق أنه فاتح العالم، وعلى عكس المتوقع، استحسن السلطان منه هذه المشورة وأنعم عليه كما أنعم عليه أمراء السلطان الذين سرهم أثر نصيحته (١٧).

في عام ٦٩٩ هـ / ١٢٩٩ م أمر ألغ خان بالتقدم نحو حصن رنتنبهور وجهان حيث رأى همير ديوا الابن الأكبر لراي بتهورا الذي كان بحوزته عشرة آلاف فارس وما لا يحصى من المشاة والفيلة - ذائنة الصيت. ولكنه هزم وانسحبت بمهارة عسكرية فائقة كل قواته إلى حصن رنتنبهور. وأبلغ ألغ خان طبيعة الحال إلى البلاط السلطاني وألح على السلطان باقتناص الحصن فجمع السلطان قواته وسار نحوه ، وفي وقت قصير وبمحاولة بارعة وبمعاونة ونشاط مماليكه قهر السلطان الحصن واستولى عليه وقضى على همير ديوا وحاز كنوزاً وغنائم عظيمة وعين كوتوالا للحصن واستعمل ألغ خان على جهأين وغادرها ليهاجم جيتور أو جتور فغزاها في أيام قليلة وأعطاه اسم «خضر آباد» (١٨) على اسم ابنه خضر الذي عهد إليه بحكمها ، ثم رجع السلطان إلى دهلí (١٩).

في العام التالي أمر السلطان «عين الملك شهاب ملتاني» أن تقدم إلى مالوه - وسط الهندستان - في جيش ضخم ، فلم يستطع كوكا Koka زعيم الإقليم، الذي كان يمتلك أربعين ألف فارس ومائة ألف من المشاة، الوقوف ضده فنهب عين الملك وأتلف ورجع مظفراً بغنائم لاتعد (٢٠).

بعد أن فرغ بال السلطان من إخضاع جميع الهندستان توجه بأنظاره صوب الدكن - القسم الجنوبي من شبه القارة الهندية - فعين قائده ملك نايب كافور مع قادة آخرين لمهاجمة ديوكير ، من بلاد الدكن - سنة ٧٠٧ هـ / ١٣٠٧ م فهزم حاكمها رام ديو - الذي كان قد امتنع عن دفع الجزية التي وعد بها عقب غزوة علاء الدين الأولى - وأسرره، على الرغم من شجاعته ، وأرسل جميع خزائنه وسبعة عشر فيلا مع رسالة فتح إلى دهلí، ثم أرسله هو نفسه إلى السلطان الذي أنعم عليه ولقبه «راي رايان» وأعاد حاكماً على ولايته فسلك مسلك التابعين المطيعين وقدم خدمات جليلة (٢١).

بعد ذلك بعامين عاد كافور مرة أخرى إلى الجنوب على رأس جيش جرار متوجهاً إلى ورنكل Warangal، وقد أوصاه السلطان بأنه إذا بذل راي نادر ديو حاكمها الطاعة والجزية أن يقبل منه ويكتفى بذلك. فسار كافور متوجهاً إلى ديوكير فاستقبله رام ديو وقدم هدايا كثيرة وقدم لوازم الطاعة والولاء ورافق القائد الخلجي عدة منازل حتى سمح له كافور بالعودة

لولايته، وعندما اقترب جيش المسلمين من ورنكل أسرع رايان- حكام - الأطراف إلى قلعته- فحاصرها المسلمون وسعوا في فتحها واجتهد الهنادك في الدفاع عنها وبعد مدة فتحت الأجزاء الخارجية منها وأسر أكثر الرايان ، واضطرب راي نادر نيو وطلب الصلح والأمان فأخذ ملك نايب منه مائة فيل وسبعة آلاف جواد وأمنه بعد أن قبل أن يرسل مقررات سنوية(٥٢).

في العام التالي - ٧١٠هـ - توجه كافور نحو بلاد المعبر على الساحل الشرقي حيث فتحها وخرّب معابد أصنامها وحطم الأصنام الذهبية وأدخل ذهبها في الخزائن. وعاد بثلاثمائة وأثنى عشر فيلاً وأثنى عشر ألف جواد عدا صناديق الذهب والجوهر فسر السلطان بفتوحهم وأكرمهم. كما امتد سلطان المسلمين في تلك الآونة حتى الساحل الجنوبي للهند(٥٤).

هكذا امتد سلطان المسلمين في مختلف أرجاء شبه القارة الهندية، لأول مرة في تاريخ المسلمين بها، في عهد السلطان علاء الدين، الذي ينقل أحد الباحثين- في حقبة- عن تاريخ فرشته ما يفيد أن عدة معاركه كانت أربعاً وثمانين ، في كلها ظفر وغنم(٥٥).

ويرجع أحد الباحثين هذه القدرة التوسعية في عهد علاء الدين إلى التزايد الكبير في الطاقة البشرية القابلة للتجنيد التي نتجت عن مشاركة الأهالي في الجيوش والإدارة في ذلك العهد وعدم اقتصرهما على الأرستقراطية التركية وذلك أيضاً نتيجة الأعداد الكبيرة التي اهتدت إلى الإسلام بفعل جهود الدعاة والصوفية المسلمين مما وفر أعداداً ضخمة لخدمة الدولة(٥٦).

ويرى باحث في هذا التوسع سبباً لضعف الدولة إذ انهار سريعاً حكم الأسرة الخلاجية بعد وفاة علاء الدين بمقتل آخر حكامها سنة ٧٢٠هـ / ١٣٢٠م، بعد أن دام حكمها حوالي ثلاثين عاماً(٥٧). ولا أدري كيف يكون التوسع وما يجلبه من ثروات وإمكانات هائلة تدعم قوة الدولة وهيبتها- خصوصاً إذا كانت السلطة في يد قوية كيد علاء الدين الذي وضع قواعد راسخة لتنظيم دولته(٥٨)- سبباً في الضعف. وأظن أن الأوجه هو القول بأن علاء الدين خلفه من أسرته سلاطين ضعاف أضاعوا ما أسسه(٥٩).

رابعاً : نهاية علاء الدين:

حين خلا بال السلطان من الفتح والتوسع واستقرت قواعد السلطنة ، تفرغ للنظر في مستقبل أولاده فعين لكل منهم شيئاً وجعل ابنه «خضرخان» وريثه وولي عهده ، وكان له من الأولاد أربعة غيره ، هم:

شاهي خان وأيوبكر خان ومبارك خان وشهاب الدين . ثم اعتلت صحة السلطان لتقدم سنه ، فنشط ابنه خضر خان في جلب الصالحين لدهلي للدعاء له وتمريضه. ولكن قائده كافور ، الملازم له والمقرب عنده والذي فوض إليه السلطان كثيراً من الأمور في آخر أيامه وقد كانت له طموحات شخصية كبيرة، أوفر صدر السلطان ضد ابنه وأوحى له أن خاله ألب خان الذي حضر من الكجرات إلى دهلي يسعى للتدخل في شئون الدولة وأن نفسه تميل إلى سلطنة ابن أخته خضر خان وهو يصبو إلى أن يصبح نائباً عنه . ونتيجة لهذه الوشاية أمر السلطان بإعدام «ألب خان» . ثم أوحى كافور للسلطان أن خضرخان قد حذر لقتل خاله وسيتجنب الحضور للبلاط ، فاستدعاه السلطان، قد أطاع الابن الأمر وحضر فاستقبله السلطان بمشاعر الأبوة.

ولكن ملك نايب كافور عاد وملاً أذان السلطان بالأكاذيب من جهته ، فأمر السلطان بإبعاد خضرخان وأخيه شاي خان إلى حصن كواليار (٦٠) Gwoliar .

وبعد إبعاد هذين الوريثين أقام كافور شهاب الدين بن السلطان من أم أخرى وريثاً ونصب نفسه وصياً عليه إذا كان غصاً صغيراً. وبعد أيام قلائل توفي السلطان في شوال سنة ٧١٥هـ / يناير ١٣١٦م. وأسرعت يد القدر في أسرته ما بين سجن وسمل للأعين وقتل، حتى انقطع نسله وزال ظل السلطنة عن أهل بيته (٦١).

نظم الحكم والإدارة في عهد علاء الدين:

أولاً : السلطان :

رأس الأمر وعموده في نظام الحكم بالهند في ذلك الوقت ، إليه المرجع في كل الأمور ، ولايراجعه أحد، يصف المؤرخون السلطان علاء الدين بأنه كان قاسياً صعب الطباع مستبداً ، ورغم أنه كان في أوائل حاله يستشير رجاله في بعض أمور الملك ، إلا أنه حين فرغ خاطره من جميع الشواغل كان «يقوم بعمل ما يرد بخاطره من الأمور الملكية، وما كان يأتي على مخيلته ويوافق رأيه ينفذه. ولم يكن يستشير أى شخص في تنفيذ أمر الملك» (٦٢).

وكان للسلطنة شعاراتها فالجتر لايفارق رأس السلطان في سفر أو حضر وبه يعرف (٦٣). ودار السلطان بالعاصمة دهلي كانت تسمى «دولت خانه» ، ولها أبواب كثيرة، فأما الباب الأول فعليه جملة من الرجال موكلون به ويقعد به أهل الأبواق فإذا جاء أمير أو كبير ضربوها لكل

حسب رتبته . وبين الباب الثانى والثالث دهليز^(٦٤) كبير به أهل التوبة - التناوب - من حراس الأبواب . وبالباب الثالث يجلس كتاب الباب . ومن عادتهم ألا يدخل من هذا الباب أحد إلا من عينه السلطان لذلك ، ويعين لكل إنسان عدد من أصحابه وأهله يدخلون معه ، وكل من يأتى إلى هذا الباب يكتب الكتاب أن فلاناً جاء فى الساعة الأولى أو الثانية أو بعدها من الساعات إلى آخر النهار . ويطلع السلطان ذلك بعد العشاء الآخرة . ويكتبون كذلك كل ما يحدث بالباب من أمور . ومن عادتهم أيضاً أن من غاب عن دار السلطان ثلاثة أيام فصاعداً لعذر أو بغير عذر ، لا يدخل من هذا الباب إلا بإذن من السلطان . فإن كان له عذر من مرض أو غيره قدم بين يديه هدية مما يناسبه إهداقها إلى السلطان ، وكذلك القادمون من الأسفار ، فالفقيه يهدى المصحف والكتاب وشبهه ، والناسك يهدى المصلى والسبحة والسواك ونحوهما ، والأمراء ومن أشبههم يهدون الخيل والركاب ... والسلاح . ويفضى هذا الباب الثالث إلى المشور - الساحة - الهائل فسيح المساحة المسمى «هزار استون»^(٦٥) وهى أعمدة من خشب مذهبة وعليها سقف خشب منقوش بأبدع نقش يجلس الناس تحته ، وبهذا المشور يجلس السلطان الجلوس العام^(٦٦).

وكان جلوس السلطان فى الديوان العام بعد العصر أو أول النهار على مصطبة مفروشة بالبياض فوقها حشية وخلف ظهره مخدة كبيرة وعن يمينه ويساره متكأ . ويقف أمامه الوزير وخلفه الحجاب ثم يتلوهم النقباء . وعند جلوس السلطان ينادى الحجاب والنقباء بأعلى أصواتهم «بسم الله» ، ثم يقف على رأس السلطان كبير الأمراء ويده المنبة يشرد بها الذباب . وعن يمين السلطان يقف مائة من السلحدارية^(٦٧) ومثلهم عن يساره بأيديهم الأسلحة . ثم يقف فى الميمنة والميسرة بطول المشور قاضى القضاة ثم خطيب الخطباء ثم سائر القضاة ثم كبار الفقهاء ثم كبار الشرفاء ثم المشايخ ثم إخوة السلطان وأبنائه وأصهاره ثم الأمراء الكبار .

وكل من يأتى من الناس المعينين للوقوف فى الميمنة والميسرة يطأطئ رأسه عند موقف الحجاب ثم ينصرف إلى موقف لا يتعداه أبداً . ويقف عبيد السلطان من وراء الناس كلهم بأيديهم التروس والسيوف ، فلا يتمكن أحد من الدخول بينهم إلا بين أيدي الحجاب القائمين بين يدي السلطان^(٦٨).

ثانياً : السلطات الإدارية التنفيذية :

لم تختلف كثيراً عن نظم الإدارات فى الدول الإسلامية السابقة خاصة الإدارة الفزنوية^(٦٩). وقد كان على رأس الجهاز الإدارى «الوزير» وهو المهيمن على هذا الجهاز بإداراته المختلفة والمسئول عن تدبير أمور الدولة يعاونه المشرفون والمستوفون وغيرهم . وكانوا يسمونه «خواجه جهان»^(٧٠)، وهو بمثابة رئيس الوزراء الآن . وقد ولى هذا المنصب لعلاء الدين أسعاء مثل : نصرت خان وشمس الملك^(٧١).

وكان «الحاجب» هو الوسيط بين السلطان ورجال السلطة وهو على مراتب كثيرة، وإذا فقد كان موضع رجاء الأمراء ورجال السلطان ولنصبه هبة عظيمة . وهو على مراتب كثيرة منها: كبير الحاجب ونائبه ، وخاص حاجب وشرف الحاجب وسيد الحاجب .

و«أميرداد»^(٧٢) هو الأمير الكبير الذى يحكم على الأمراء^(٧٣)، فمن كان له حق على أمير أو كبير يحضر بين يديه . وديوان عرض وموضوعه التبليغ عن السلطان فى عامة الأمور، «وكيل دار» وإليه أمر البيوت السلطانية من المطابخ والشراب خاانه^(٧٤) والحاشية والفلمان . والمستوفى والمشرّف من بأيديهم حساب الدخل والخرج . و«إقطاع دار» وهو الأمير الذى ينوب عن السلطان فى حكم ولاية كبيرة من أرض الهند وإليه أمر جيشها وماليتها. ومناصب أخرى عديدة^(٧٥).

تنظيم الجيش وتنظيم البريد.

لتدبير أمور الجيش كانت وظيفة العارض أو مشرف عرض الممالك وظيفته رئيسية ضمن الحكومة المركزية ، وقد اكتسب منصبه أهمية كبيرة ليس فقط لقيادته القوات أحياناً^(٧٦)، ولكن لمسئوليته عن تجنيد أفراد الجيش وتدبير تمويل الصرف عليه. وكانت العساكر تعرض بين يديه وهناك قسى كثيرة ، فإذا أتى من يريد أن يثبت فى العسكر رامياً أعطى قوساً من تلك القسى ينزع فيها، وهى متفاوتة فى الشدة والضعف ، فعلى قدر نزعه يتحدد مرتبه . ومن أراد أن يثبت فارساً، فهناك طبل منصوب فيجرى فرسه ويطعنه برمحه . ومن يريد أن يثبت رامياً فارساً فهناك كرة موضوعة فى الأرض ، فيجرى فرسه ويرميها ، وعلى قدر ما يظهر من الإصابة يكون مرتبه^(٧٧).

ونظراً لخطورة الغزو المغولى الذى كان يتهدد الهند بين لحظة وأخرى مما يتطلب إعادة

تشبيد وتقوية القلاع والحصون المواجهة لهم وإعادة تنظيم الجيش على أسس جديدة فقد حاول جعله نظاميا ثابتا ذا رواتب شهرية تدفع له نقدا من الخزانة وإمداده بالخيول الصالحة للقتال ووسمها - وضع علامة عليها- لتمييزها (٧٨).

وقد كان سلاح الفرسان العمود الفقري للجيش، ولكن خروجاً على النظام التقليدي وظفت - قبيل هذا العهد واستمرت على أيام علاء الدين- الفيلة في قوس ممتد على أرض المعركة إلى جانب جنود المشاة (باياك Payaks) الذين كانوا في الغالب هنودا . وقد قسمت القوات على نظام عشري : فسارى عسكر يقود عشرة فرسان، وسبهسال يقود عشرة سارى خيل ، والأمير يترأس عشرة سبهسالار، والملك يتأمر على عشرة أمراء، والخان يتزعم عشرة ملوك (٧٩).

وقد بلغت عدة الجيش في ذلك العهد أربعمائة ألف وسبعين ألفاً من الفرسان والرجالة ، وعسكر معظمه حول العاصمة دهلي وصيغت هذه القوات على الدوام لمواجهة التهديدات (٨٠). وإلى جانب الأسلحة التقليدية استعمل النقط والنار الإغريقية، وكانت السهام الملتهبة والرماح بالإضافة إلى قنور الذهب تقذف نحو العدو (٨١).

أما البريد فقط نظم في ذلك العهد تنظيمًا جيدًا للغاية ببلاد الهند وقد كان على صنفين : بريد الخيل ويسمونه بالتركية «أولاق» (٨٢) وهو خيل للسلطان في كل مسافة أربعة أميال . وبريد الرجالة ويكون في مسافة ميل منه ثلاث رتب ويسمونه «الداوة» وهي ثلاث الميل. وترتيب ذلك أن يكون في كل ثلاث ميل قرية معمورة ويكون بخارجها ثلاث قباب، يقعد فيها الرجال مستعدين للحركة، وقد شدوا أوساطهم، ومع كل واحد منهم مقرعة بأعلاها جلاجل من نحاس، فإذا خرج البريد من المدينة أخذ الكتاب بأعلى يده ، والمقرعة ذات الجلاجل باليد الأخرى . فإذا سمع الرجال الذين في القباب صوت الجلاجل تأهبوا له، فإذا وصل إليهم أخذ ما معه أحدهم وجرى بأقصى جهده وهو يحرك المقرعة حتى يصل للداوة الأخرى وهكذا حتى يصل البريد إلى غايته في سرعة تفوق بريد الخيل (٨٣).

ومن خلال هذا النظام البريدى المسعف كان علاء الدين يظل على اتصال بالجيش عندما يكون متحركاً إلى جهة ما، واعتادت الأخبار الوصول للسلطان مخبرة عن تقدم الجيش واتصال البلد السلطاني المحمول له . وكانت الأخبار السيئة يحظر انتشارها بين الناس أو الجيش (٨٤).

ثالثاً : القضاء :

عرف مجتمع المسلمين بالهند أربعة نظم قضائية ورقابية هي:

ديوان المظالم : يترأسه السلطان أو ممثله ، محاكم القضاة : التي تنفذ الأحكام الشرعية بين الناس وتفصل في خصوماتهم ، المحتسبون : الذين يراقبون الحفاظ على الأخلاق والقواعد والأعراف والنظم العامة والشعائر الإسلامية ، ورجال الشرطة^(٨٥).

وكان لكل ولاية قاضيهما الذي يتبع قاضى القضاة الملازم لحضرة السلطان، ويلقبونه «صدر جهان» ، وبالرغم من شهرة السلطان علاء الدين بالقسوة والوحشية . إلا أن ذلك لم يمنع بعض رجال القضاة من الجهر بالحق في وجهه وقد مر بنا نموذج القاضى مغيث الدين الذي لم يخش نقد تصرفاته . كما شجع الضغط النسبى للرأى العام- نظراً لمكانة القضاة ورجال الدين الملتزمين فى المجتمع الإسلامى- أمانة واستقلال القضاء.

الأوضاع الاجتماعية : «عناصر المجتمع وطبقاته وأديانه ومذاهبه»

تمثلت عناصر المجتمع الهندى فى ذلك الوقت فى:

١) الدراوريون والتمول: أقدم من سكن الهند فى التاريخ المعروف ، ومنهم أغلب سكان الهند اليوم. وترجع أصولهم إلى اختلاط أجناس حامية سوداء قطنت الغابات مع موجات تورانية وافدة من أواسط آسيا .

ب) الآريون : قدموا فى موجات متتالية من الشمال الغربى فاكتسحت أمامها العنصر السابق الذى توغل جنوباً وتمركز فى الدكن بينما غلب الآريون على الهندستان فى الشمال .

ج) العرب : وصلوا إلى سواحلها مبكراً قبل الإسلام للتجارة وتمركزت جاليات منهم بموانئها ، وازداد عددهم بتوغلهم فى أطرافها الشمالية الغربية مع موجة الفتوحات الإسلامية الأولى على أيام الراشدين ثم الأمويين .

د) الترك : دخلوا إليها فى موجات كثيفة متتابة مع فتوحات الغزنويين الترك فى الهندستان ثم حكموها نيابة عن الغوريين ثم استقلوا بها مكونين أسر تركية حاكمة متتابة كالمماليك والخلجيين- على أرجح الآراء- وغيرهم .

هـ) الأفغان : تطرقوا إليها فى ركاب الفاتحين من العرب والترك وحكم فيها بعضهم هذا

بالإضافة إلى عناصر أخرى كثيرة قليلة الشأن بالمجتمع الهندى فى ذلك الوقت^(٨٧).

ورغم هيمنة العنصر التركي على الحياة السياسية والعسكرية بالهند فى تلك الآونة إلا أنه يبدو أن السلطان علاء الدين لم يكن يسمح بنفوذ قوى للعشيرة أو الأسرة فى اختياره لقواده ورجاله ، وقد كان كافور أشهر قواده من غير العنصر التركى (٨٨).

وقديماً خاف البراهمة الآريون مغبة اختلاط قومهم بعناصر الهند الأخرى فوضعوا نظام الطبقات الذى يعبر عنه أحد رجال الهند فى الوقت الحاضر (٨٩). بقوله : «أما نظام الطبقات فلم يعرف فى تاريخ أمة من الأمم نظام طبقى أشدة قسوة وأعظم فصلاً بين طبقة وطبقة وأشد استهانة بشرف الإنسان من النظام الذى اعترفت به الهند دينياً ومدنياً، وخضعت له ألقاً من السنين ولا تزال» وقد بدت طلائع التفاوت الطبقي ... بتأثير الحرف والصنائع وتوارثها ، وبحكم المحافظة على خصائص السلالة الآرية المحتلة ونجابتها . وقبل ميلاد المسيح بثلاثة قرون ازدهرت فى الهند الحضارة البرهمنية ، ووضع فيها مرسوم جديد للمجتمع الهندى، وألف فيه قانون مدنى وسياسى اتفقت عليه البلاد وأصبح قانوناً رسمياً ومرجعاً دينياً فى حياة البلاد ومدنيتها وهو المعروف الآن بـ «منوشاستر»

وقد قسم هذا القانون أهل الهند إلى طبقات هى:

- (١) البراهمة : وهم رجال الدين الهندوسى الآريين .
- (٢) الشترى: وهى تلى الطبقة السابقة وتتكون من النبلاء الفرسان المحاربين قادة الجيوش.
- (٣) الويش : وهم التجار وأرباب الأموال .
- (٤) الشودرا : وتنظم الزراعة والصناع والحرفيين.
- (٥) الباريا أو المنبونون : وهم أحط طبقات المجتمع الهندى وهم أصحاب المهن الوضيعة ، والعييد وأسرى الحرب ... إلخ (٩٠).

ولاشك أن مجتمع المسلمين بالهند قد تجاوز هذا النظام الطبقي المقيت الذى ظل متحكماً فى البيئات الهندوسية .

وقد كانت الهندوسية أو الهندوكية (٩١). فى ذلك العهد- وما تزال- صاحبة الأغلبية فى شبه القارة الهندية . وفيها تمثلت تقاليد الهنادك وعاداتهم وأخلاقهم ، وقد أطلق عليها البرهمنية ابتداء من القرن الثامن قبل الميلاد نسبة إلى براهما Brahma وهو القوة السحرية العظيمة الكامنة التى تتطلب كثيراً من العبادات والطقوس كقراءة الأدعية وإنشاد الأناشيد وتقديم

القرايين . ومن براهما اشتقت كلمة «البراهمة» لتكون علما على رجال الدين الذين كان يعتقد أنهم متصلين في طبائعهم بالعنصر الإلهي، وهم لهذا كانوا كهنة الأمة . ويقدس الهنادك قوى الطبيعة وعناصرها المختلفة حتى مجارى الأنهار وخاصة نهر الكنج الذى يحجون إليه ويذرون في مياهه رماد جثث موتاهم بعد حرقها (٩٢).

ومثل المسلمون - وما يزالون- الطائفة الدينية الثانية. ويبدو أن الطائفتين قد عاشتا منفصلتين غير معتزجتين في الممارسات والأحوال المعيشية في كثير من بلاد الهند ، يصور ذلك قول ابن بطوطة واصفاً رحلته عبر طريق بساحل المليبار: «والطريق في جميعها بين ظلال الأشجار ، وفي كل نصف ميل بيت من الخشب فيه دكاكين يقعد عليها كل وارد وصادر من مسلم وكافر . وعند كل بيت منها بئر يشرب منها، ورجل كافر موكل بها» فمن كان كافراً سقاء في الأواني، ومن كان مسلماً سقاء في يديه ، ولا يزال يصب له حتى يشير له أن يكف . وعادة الكفار ببلاد المليبار ألا يدخل المسلم دورهم ولا يطعم في أنيتهم، فإن طعم فيها كسروها أو أعطوها المسلمين، وإذا دخل المسلم موضعاً منها لا يكون فيه دار للمسلمين ، وطلبخوا له الطعام وصبوه له على أوراق الموز وسبوا عليه الأدام ، وما فضل عنه تناكله الكلاب أو الطير (٩٣).

ورغم اشتغال علاء الدين بالأغراض الدنيوية وانشغاله بها وعدم تعويله على الأغراض الدينية كثيراً ، إلا أن التحول إلى الإسلام قد شجع ، كما استنت في ذلك الوقت عادة تقديم الشخص الذى أسلم حديثاً إلى السلطان- كما يروى ابن بطوطة- الذى كان يكسوه كسوة حسنة ويعطيه قلادة وأساور من ذهب على قدره (٩٤). وقد اعتنق آخر حكام إقليم مالوه الهنادكة الإسلام على أيدي الخليجيين (٩٥). وكذا حاكم كشمير ولم يترك الدعاة بقعة من الهند إلا دخلوها بدءاً بالسواحل حتى قلب هضبة الدكن (٩٦).

وقد أقبل عدد كبير من الهنادكة على الدخول في الإسلام طواعية فلم يكن سيف الفتح ولا عوامل أخرى كالتخلص من الجزية- التى يدفع المسلم الزكاة في مقابلها- هما السبب في هذا الإقبال باعتراف بعض مؤرخي الغرب بل بعض المؤرخين من الهنود أنفسهم- بل كان التعليم والإقناع والقوة العملية هي وسائل الدعاة المسلمين الفعالة في هذا المحيط الهندوسى الفسيح ، ولم يكن ما تعرض له غير المسلمين من مضايقات في بعض العهود إلا حالات فردية عارضة (٩٧).

ورغم هذا الإقبال وتلك الجهود ورغم أن الإسلام قد تطرق لأطراف هذه البلاد مبكراً - منذ عهد الخلفاء الراشدين - ، وظل يتوغل حتى عمها نفوذ المسلمين السياسى والعسكرى أيام علاء الدين الخلقى، رغم كل هذا ما يزال التساؤل قائماً: لماذا لم يغمر الإسلام الهند ويصير المسلمون أغلبية فيها كما حدث فى كثير من البلدان والأقطار التى بخلها الإسلام ؟ صحيح أن المسلمين صاروا - فى ذلك الوقت وما زالوا إلى الآن - أقلية ضخمة ولكنهم لم يتحولوا قط إلى أغلبية فى شبه القارة الهندية .

بل الأغرب من ذلك أن المرء كان يتوقع تركيز انتشار الإسلام فى المناطق التى ترسخ فيها سلطان المسلمين السياسى، لكن الواقع - وبغض النظر عن الشمال الغربى - حيث باكستان الآن - والشمال الشرقى - حيث بنجلاديش الآن - اللذان تركز فيها جهد الدعاة والمتصوفة وتمركزت جماعات المسلمين القارة أمام ضغط المغول، بغض النظر عن ذلك، فإن نسبة انتشار الإسلام فى الهندوستان - فى الشمال - حيث معازل قوة المسلمين سياسياً وعسكرياً حول العاصمة دلهى، منخفضة قياساً على نسبة انتشاره فى الجنوب فى ساحل المليبار مثلاً حيث لم يرسخ سلطان المسلمين كما فى الشمال، وقد تخف جدة الغرابة فى هذا إذا عرفنا أن انتشار الإسلام فى أطراف الشمال كان امتداداً طبيعياً مباشراً لكتلة الإسلام المتصلة فى غرب آسيا حتى حدود شبه القارة الهندية أما الجنوب فقد جاءه الإسلام عن طريق البحر على يد التجار فى الغالب^(٩٨). ورغم كل هذا نعود فنكرر التساؤل : لماذا لم يصر للإسلام الأغلبية فى شبه القارة الهندية ؟

يعلل لذلك كثير من الباحثين بأسباب وجيهة تتلخص فى أن الذين قدموا الإسلام لهذه البلاد فى الغالب، إما تجار أو فاتحون عسكريون وكلتا الطائفتين قليلتا البضاعة من الفقه والفكر الإسلامى ولم تصحبها جماعات من العلماء الدعاة بالقدر الكافى، بالإضافة إلى أن هؤلاء الفاتحين العسكريين كانوا أحياناً قوة غير حسنة بلجوتهم للعنف والتدمير وتنازعهم ونهمهم فى جمع الغنائم. كما أن هذه البلاد كانت الهندوسية قد هيمنت عليها من قديم وتأصلت فى نفوس أهلها وشبوا عليها وياشروا طقوسها^(٩٩).

وختاماً للحديث عن طوائف المجتمع الهندى فى ذلك الوقت يجدر أن ننكر أنه لم يمارس تمييز يذكر بين رعايا السلطان علاء الدين، وربما يمكن القول بأن الرعية المسلمة شعرت بارتياح كبير مع حكمه، ولم يكن لدى الطبقات الدنيا من غير المسلمين ما تشكو منه تجاه حكمه القاسى العادل، إذ كان أقرب إلى صنف المستبد العادل من الحكام^(١٠٠).

خامساً الأحوال الاقتصادية :

أ- الزراعة :

بالهند مناطق واسعة خصيبة تروىها أنهار عديدة أهمها نهر السند الذى يروى السند والبنجاب فى غرب الهندستان، والكنج وجمنا اللذان يرويان فى الشرق منطقة الدواب- أرض ما بين النهرين المذكورين ، وهى الممد الأول لمالية السلطان ومصدر الدخل الرئيسى للدولة. وأعظم مناطق الهند حيوية وخصوبة . ومناطق أخرى غيرها^(١٠١).

وكانت الأرض مقسمة على كور كبيرة يلى كل كورة أمير يسمونه إقطاع دار ينوب عن السلطان فيها ويرفع إليه ما يتحصل منها من أموال، وكل كورة بدورها مقسمة لعمالات عليها أمير يسمى المقطع^(١٠٢).

وقد كان الهنود - كما يروى ابن بطوطة - يزرعون مرتين فى السنة :

عند نزول المطر فى أوان القيط يزرعون الزرع الخريفى ويحصدونه بعد ستين يوماً فإذا حصدوا زرعوا المحاصيل الربيعية المعروفة كالقمح والشعير والقمص ويزرعون أيضاً الأرز فى البنغال والقطن والكروم فى الكجرات والبطيخ فى سيوستان ومن فواكههم أيضاً النبق والمانجو والنانج والرمان^(١٠٣) وكان علاء الدين أول من أنشأ البساتين تقريباً فقد أسس ثلاثين حديقة بدهلى وملاها بالرياحين والفواكه والأشجار المثمرة^(١٠٤).

ونظراً لإصلاحات علاء الدين الاقتصادية ، وعنايته بالزراعة عناية فائقة واهتمامه فى ضبط الأسعار فى بلاده الواسعة توفرت الأقوات وقد شاهد ابن بطوطة بنفسه أهراء- مخازن- الحبوب التى أقامها علاء الدين بدهلى والتى ما برحت تمد السكان بالأرزاق والحبوب إبان المجاعات العنيفة التى كانت تجتاح الهند حينما تنحبس الأمطار وتقوم الخانقاوت - رباطات الصوفية - والمطابخ السلطانية المنتشرة فى أنحاء البلاد بإطعام الأهلى فى هذه الأزمات^(١٠٥).

ب) التجارة :

تعددت طرق التجارة الداخلية بالهند وربطت بين أجزائها وأطرافها المختلفة، وسلكتها إلى جانب الجيوش الضخمة قوافل التجار والحجاج المسافرين الهندوس والمسلمين، ومنها : طريق يخرج من قنوج^(١٠٦) فى قلب الهندستان فى الشمال ويصل إلى بنواسى على الساحل

الجنوبى، طريق من قنوج إلى الكجرات على الساحل الغربى ، طريق من قنوج إلى غزنة بأفغانستان الآن، طريق من إقليم مكران من قصبة- قاعدته - التيز بالساحل الشمال الغربى، يجتاز هذا الساحل نحو الجنوب حتى سيت بند التى تواجه سيلان أو سرنديب- سريلانكا الحالية. وأخيراً طريق من قنوج إلى كشمير فى أقصى الشمال الغربى كما وجدت شبكة طرق تربط العاصمة دهلئ بوادى السند ومالوه وبلاد المعبر بالساحل الشرقى وغيرها .

ومن هذه الطرق ما تكتشفه الأشجار الظليلة فكأن سالكه يسير فى بستان وفى كل داوة يريد منه ما يحتاج إليه المسافر فكأنه يمشى فى سوق فلا يحتاج إلى حمل زاد، وفى منازل بعض الطرق قصور للملوك (١٠٧). هذا بالإضافة إلى الطرق البحرية التى ربطت موانئ سواحل الهند التى سبق ذكر بعضها . وقد تعرضت هذه القوافل والسفن عبر هذه الطرق للقرصنة أحياناً كما حدث لابن بطوطة الذى يرد عنده الحديث عن القرصنة وسلب الكفار ما كان بيده (١٠٨).

وقد راجت تجارة المحاصيل والسلع والمصنوعات خصوصاً الأنسجة والمصنوعات الجلدية عبر هذه الطرق والمسالك (١٠٩). وقد قام الهنوس إلى جانب المسلمين بدور كبير فى التجارة. حتى فى عهد علاء الدين القوى، الذى أدرك خطورة نفوذ زعماء الريف الهنوس وحاول الحد من قوتهم، وجد أنه من الضرورى أن يجعل التجار الهنوس الأداة الرئيسية لإجراءاته لضبط مقاييس الأسعار ، حتى إن هؤلاء التجار والصرافين كانوا تقريباً الفئة الوحيدة الثرية بالإضافة إلى الملوك والأمراء ورجال النواوين فى عهده، وانتعشت أحوالهم حتى أقرضوا الأموال حتى للأمراء الترك (١١٠).

وكانت العملات المستعملة فى هذه التجارات من معدن تقى وقد اتخذت الدولة احتياطاتها للحفاظ على نقاء العملة ووزنها، ومن هذه العملات : التتكة من الذهب وتساوى واحد توله التى تزن الآن ١١ جرام و٦٦٤ ملى جرام، وقد تكون التتكة من الفضة بالوزن نفسه، والجيتل Jital من النحاس ووزن التتكة نفسه وخمسون منه تساوى تتكة واحدة فى القيمة. كما استعملت دنانير فضية ، الواحد منها يساوى ثمانية دراهم . وعندما نصح القاضى علاء الملك السلطان علاء الدين بالعدول عما انتواه من استحداث أمور جديدة بالشريعة والخروج بجيوش لغزو العالم، وقبل منه السلطان، كان من بين ما أنعم عليه به عشرة آلاف تتكة فضية وأنعم عليه الأمراء بالآلاف التتكات (١١١).

(ج) موارد ومصارف الدخل :

كانت غنائم الحرب من أكبر مصادر الدخل للدولة والمحاربين ، ففي حملة نصرت خان سنة ٦٩٨هـ «تقريباً» على الكجرات استولى على غنيمة كبيرة من البضائع القيمة واليواقيت والجواهر والرقيق ، وقد كان كافور- القائد المشهور فيما بعد- ضمن هذه الغنيمة (١١٢).

وقد فاقت غنائم كافور هذا في حملاته المتكررة على الدكن حد التصور، ففي إحداها غنم جميع خزائن العدو وسبعة عشر فيلاً، وفي الثانية أخذ غنائم كثيرة وسبعة آلاف حصان كهدية، وفي الثالثة غنم حوالى أكثر من ٣٠٠ فيل و ٢٠٠٠ حصان و ٩٦٠٠٠ قطعة ذهبية بالإضافة إلى صناديق عديدة من الجواهر واللؤلؤ وغنائم أخرى تفوق حد التخمين ، على حد تعبير بدوانى (١١٣).

ومثلت الموارد الثابتة الواردة من الأقاليم المفتوحة كالجزية والخراج وغيرها من أنواع الضرائب المفروضة آنذاك مورداً مهماً آخر، وقد أدت أحياناً المغالاة فيها- لكثرة النفقات على الجيوش والعمران وخلافه ، إلى تمرد وقلق ، وقد ارتفعت نسبة الخراج فى عهد علاء الدين إلى نصف مقدار المحصول (١١٤).

وزاد الأمر فلم تقتصر حكومة علاء الدين على هذه الموارد التقليدية للدخل بل لجأت إلى الوسائل غير المباحة شرعياً كالمصادرات . ففي سنة ٦٩٦هـ حين تقلد نصرت خان الوزارة شرع فى استرداد الأموال التى قسمها السلطان علاء الدين فى أول جلوسه بعد قتله عمه تأليفاً لقلوب الأمراء فادخل الخزانة أموالاً كثيرة بهذه الوسيلة كذلك صودرت أموال الثائرين والمتمردين كثيراً (١١٥) وقد أنفقت هذه الأموال فى تمويل الجيوش ورواتب الجند والمشروعات العمرانية والنفقات السلطانية، إلى غير ذلك (١١٦).

أما عن الإصلاحات الاقتصادية فى عهد السلطان علاء الدين الخلقى فبسبب كثرة الحوادث والفتن التى وقعت فى تلك الأيام من أمراء كبار، تساءل السلطان علاء الدين عن الأسباب وكيفية تداركها ، فأجابوه بردها إلى أربعة أسباب هى :

جهل السلطان بخير وشر أحوال الناس .

وتناول الشراب لأن الناس عندما يشربون تتحرك فيهم الطباع السيئة وتتوالد الفتن، وصداقة وقراية واتفاق الأمراء بعضهم مع بعض.

وكثرة الذهب والمال بأيدي الأراذل والمتهورين مما يشجعهم على سلوك التفكير الفاسد.

فاستصوب السلطان ذلك، وضم كل الأوقاف والإنعامات والأموال الشخصية إلى خالصة السلطان- الأملاك الخاصة به- وأدخل الأموال إلى الخزانة، أى صنع ما يشبه التأميم للأملاك الخاصة الكبيرة خصوصاً الموهوبة من السلطان لأصحابها. فاضطر الناس السعى لتحصيل أرزاقهم ولم يرد اسم الفتنة والفساد على لسانهم . كما عين الجواسيس للمراقبة وبالحق فى ذلك لدرجة صعب معها اختلاط الأمراء.

وأمر بسكب الشراب وتحطيم أدوات المجلس السلطاني الخاصة أمام بوابة بدوان بدهلى ليعلم الناس بمنع الشراب، ونادى المنادون وأرسلت الفرمانات بمنعه إلى الأطراف . وحين اكتشف جماعة من الفساق تحايلوا على الشراب بكل سبيل، أمر بحفر بئر تحت ممر الناس قرب بوابة بدوان لكى يسجن فيها هؤلاء ، وظل أكثرهم فى الحبس حتى مات وعولج الأحياء فقتضى بذلك على هذه العادة التى كانت تمارس جهاراً فى مجالس خاصة بها، واقتصر شرب الشخص على منزله منفرداً دون مجالس.

بعد ذلك حاول أن يقر عدة قواعد فى البلاد لكى يسوى ما بين الرعايا ، القوي منهم والضعيف ، ويقلل من تسلط الأمراء والمقدمين، ورجال السلطة على الرعية . فأمر ألا يلقى حمل الأقوياء على الضعفاء فى الخراج، وأن يدخل فى الخزانة كل ما يحصل . ووزع المراعى أيضاً بحسب نوعية الماشية بقر أو جاموس أو خراف . وتشدد فى أمر العمال وأهل القلم لدرجة أنه لم يتيسر لأحدهم الاستيلاء على جيتل خيانة، وإذا استولى على شئ تخرج ورقة من البتوارى - المحاسب- باسمه وما اختلسه ، فيسترد منه فى ساعته بالشدة والإهانة ، وقد كان عمل مقدمى القرى والجودهرين - مساعدي المقدمين- يستلزم أن يدوروا دائماً راكبين ومرتدين الأسلحة والملابس النفيسة، فوصل الأمر بهم إلى أن نسامهم عملن فى منازل الأهالى لتحصيل القوت (١١٧).

ثم أقر - بعد استطلاع رأى رجاله - عدة ضوابط لضبط ظروف المعيش هى:

الضابطة الأولى :

أن أمر السلطان هو الذى يحدد سعر القلة ، ولا دخل لأهل السوق فى تحديد سعرها . وقد استقامت هذه الأسعار حتى آخر أيامه ولم يحدث تراخ فى هذا رغم إمساك المطر ووقوع القحط أحياناً .

الضابطة الثانية :

أنه جعل ملك ألغ خان ، وكان رجلاً عادلاً ، صاحب شوكة شحنة بازار غلة- المسئول عن السوق ، بازاره سوق - ويسمى بلغة الهنود «مندوى» ، وعليه تنفيذ لائحة الأسعار التي أقرها السلطان.

الضابطة الثالثة :

أنه أمر أن يجمعوا الغلات من الأرض الخالصة للسلطان- خالصات سلطاني- ويخزنوها، حتى إذا حدث عجز في السوق تباع غلال السلطان بالسعر الذي يحدده .

الضابطة الرابعة:

منع الاحتكار لدرجة أنه لو ظهر أن أحداً احتكر الجنود أو الرعية تصدر بضاعته كما أمر الرعايا الزراع أن يبيعوا الغلال التي يزرعونها ولا يحملوا إلى منازلهم إلا حصتهم.

الضابطة الخامسة :

أن يعرض على السلطان يومياً أخبار الأسعار وسائر معاملات السوق بالتفصيل ولو حدث تقصير على هذا يعاقب المندوى وعماله، وقد وضعت ضوابط منظمة للسلع الأخرى كالأقمشة وغيرها .

ومن أجل خفض سعر الجياد- لكونها سلعة استراتيجية كعصب للجيش في تلك العهود - وضع أيضا أربع قواعد :

أولها : تحديد جنسها وقيمتها :

ثانيها : أنه أمر ألا يشتري بعض التجار الجياد من السوق، لأنه كان من عادتهم خفض سعر الشراء ورفع سعر البيع، فطردهم وفرقهم.

ثالثها : ترغيب وترهيب دلالى الخيول، فلو ظهر أنهم باعوا في السوق جواداً بخلاف سعر السلطان كان يعاقب جميع الدالين .

رابعها : أنه كان يفحص كل شهر أجناس الجياد وقيمتها ويتتبع أحوال الدالين، فلو ظهر أقل تفاوت في هذه الضوابط السلطانية كان الدالون يصابون بالأذى وقد روعيت هذه الضوابط أيضا في مجال تجارة البغال والحمير.

وكل ما كان يقع فى السوق كان يكتب ويعرض على السلطان يومياً فى صحيفة ، وكان الجواسيس أيضاً موكلين بمراقبة أحوال الأسواق، فإذا ظهر أن القائمين بمراقبة السوق قد عرضوا شيئاً مختلفاً على السلطان يعاقبون . وبلغ اهتمام السلطان بمراقبة السوق إلى درجة أنه كان فى بعض الأحيان يعطى الأطفال الذين لا دخل لهم فى البيع والشراء نقوداً ويرسلهم إلى السوق ليشتروا الأشياء التى يرغبون فيها ويحضرونها عنده، فإذا ظهر أن هناك تفاوتاً فى السعر أو الوزن يعاقب البائع وكان أقل عقاب يقع هو قطع الأذن أو الأنف . فانخفضت بذلك أسعار أمتعة المعيشة وأدوات الجيش وظهر الارتياح بين الرعية^(١١٨).

وقد ناقش أحد الباحثين آراء المؤرخين حول تقييم هذه الإصلاحات التى أجراها علاء الدين، وذكر أن ضياء الدين بارانى- المؤرخ المعاصر لعلاء الدين، وكان متحاملاً عليه لقسوته - قد عزا هذه التدابير إلى محاولة حفظ تكلفة الجيوش فى مستوى أقل . بينما عزا مؤرخون معاصرون ، منهم ابن بطوطة ، إلى الفائدة العامة. ثم يصف هذا الباحث تفسير بارانى بأنه يبدو شاذاً نظراً لأن حاكماً قاسياً مثل علاء الدين كان ممكن أن يدبر نفقات جيشه بوسائل أخرى كالضرائب الإضافية مثلاً، ولتتعامل مع مشكلة محدودة كهذه ليس من الضرورى أن يتبع نظاماً مفصلاً ومعقداً للتدابير الإدارية فى مناطق شاسعة كما فعل . فكل المعاصرين عدا بارانى - أشاروا إلى أن علاء الدين، رغم عيوبه السابقة ، كان لديه فكرة حاسمة عن مسئوليات الحاكم، وقد شعر أن الطريقة المؤثرة لإفادة العامة هى السيطرة على أسعار معقولة لضروريات الحياة اليومية^(١١٩). ويبدو لى هذا الاحتمال الثانى المخالف لبارانى وجيهاً إلى حد كبير .

ساسا : النشاط الثقافى وفنون العمارة:

كان طبيعياً أن تؤدى الفتوحات الواسعة الجالبة للغنائم الوفيرة، بالإضافة إلى ما قام به علاء الدين من إصلاحات اقتصادية وإدارية تنظيمية ، إلى مستوى كبير من الرخاء والوفرة خصوصاً لدى الطبقات الأرستقراطية من الأمراء ورجال الحاشية. مما جعل من بعضهم إلى جانب السلطان، رعاية للعلم والثقافة والفن ، ولهذا احتشد بدهلى فى أيام علاء الدين مجموعات من العلماء والشعراء والدعاة والفلاسفة والأطباء والفلكيين والمؤرخين . فقد شعر هؤلاء أن العاصمة دهلى فى ذلك الوقت صارت حاضرة المشرق الإسلامى ، صحيح لم تكن الصورة على ما هى عليه فى مثل بغداد وقرطبة من مؤسسات راسخة ودراسة للعلوم، والسبب

فى هذا أن العلماء كانوا يلجئون للهند غير مصطحبين مكتباتهم فى فرارهم إلى الهند أمام ضغط المغول وغيرهم، لصعوبة ذلك، فتركز النشاط الثقافى لذلك فى مجالات مثل : الشعر والموسيقى والتاريخ المحلى والعمارة، وجدت المدارس فى دهللى وكل العواصم الإقليمية المهمة. ويصعب هنا التقدير الكامل للمظاهر الثقافية فى عهد علاء الدين، ولكن الشواهد المبعثرة كافية لتبين أنها كانت فترة مهمة جداً فى الحياة الثقافية فى الهند الوسيطة ، فقد نضجت البلاد ثقافياً فى تلك الآونة ومكنت الثروة الطائلة الحاكم ومستفيدين آخرين من أن يتعهدوا الأنشطة الثقافية بسخاء . ورغم أن علاء الدين لم يعمر طويلاً ليشهد تحقق كل أحلامه المعمارية ، إلا أنه خلف كثيراً من الآثار الرائعة ، وحدثت أيضاً تطورات كثيرة مهمة فى ميدان الموسيقى وبعد غزو الإمارات الهندوسية فى الجنوب تحرك الموسيقيون شمالاً ليلتمسوا رعاية الملوك والأمراء المسلمين، ولحسن الحظ فقد وجد فى دهللى رجال مثل أمير خسرو أفادوا أنفسهم من المركز الاجتماعى، وافتتح عصر جديد من الموسيقى الهند إسلامية(١٢٠) .

وقد كانت لغة التأليف عند علماء المسلمين بالهند هى اللغة الفارسية ، كما نبغ فريق منهم فى الكتابة بالسنسكريتية ومنهم الشاعر خسرو الدهلوى الذى أبدع بالعربية أيضاً، وقد عاصره كوكبة من أصحاب ، المعارف المختلفة بالهند فى ذلك الوقت، من الشعراء القاضى عبد المقتدر الشانهى صاحب المنظومات العربية والفارسية ، ومن النثرين أحمد تنيسرى صاحب أخبار الأخبار وعين الملك الملقانى صاحب ديوان الرسائل عند الخلجيين والذى ترك مجموعة من الرسائل الديوانية تعرف باسم «إنشاء ماهرى» أما المؤرخون فيأتى على رأسهم ضياء الدين بارانى صاحب تاريخ فيروز شاهى الذى سجل فيه كثيراً من حوادث ومعارف عصره (١٢١). بالإضافة إلى الشاعر خسرو نفسه الذى أرخ لفتوحات جلال الدين الخلجى فى تاريخ الفتوحات وفتوحات علاء الدين فى خزائن الفتوح(١٢٢).

وقد كان الفقه عمدة بضاعتهم فى ذلك الوقت، ولذلك فقد كثرت فيهم الفتاوى والروايات ومطابقة الاجتهادات بالسنة المأثورة عن النبى ﷺ وحكى أن أحد مشايخ المحدثين المصريين قدم إلى الهند أيام السلطان علاء الدين الخلجى ووصل إلى الملتان ولقى بها الفقهاء وسمع كلامهم، ثم رجع إلى بلاده وبعث رسالة إلى السلطان علاء الدين شنع فيها على أن الفقهاء فى بلاده لا يعتنون بأحاديث النبى ﷺ ... ولكن الفقهاء لما وقفوا على تلك الرسالة منعوها عن السلطان(١٢٣).

ويبدو أن العلاقات بين الهند وسائر أقطار العالم الإسلامي في ذلك الوقت كانت ثرية والرحلة إليها قائمة من بلاد المسلمين (١٢٤). والجدير بالملاحظة أن هذا التراث الإسلامي الهندي لم يحظ باهتمام الباحثين العرب في العصر الحاضر وأهمل هذا الجانب الحضاري الكبير من تراثنا الإسلامي ربما بسبب الفواصل اللغوية (١٢٥).

وعلى الرغم من أن علاء الدين كان أمياً لا يعرف القراءة ولا الكتابة في حياته الباكرة، ثم أصبح على بعض الدراية بالقراءة بالفارسية بعد أن علا نجمه (١٢٦)، رغم ذلك فقد لازم بلاطه عدة أدباء وشعراء بارزين كما برز في عهده علماء في مختلف الفروع .

وقد كان ناصر الدين خسرو بن أمير سيف الدين محمود دهلوي الشهير بأمير خسرو (ت ٧٢٥هـ) من ألمع شعراء ورجالات عصره - ووالده من أمراء قبيلة لاجين التركية ببلاد ما وراء النهر قربيه السلطان جلال الدين فيروز شاه الخلجي بين أمراء بلاطه ومنها عرف بأمير ثم صار من أشهر شعراء علاء الدين، وصاحب كثيراً من حملاته العسكرية وصور أحداثها كما برع في الموسيقى والتصوف، وكان تلميذاً نجيباً للشيخ نظام الدين أوليا، ولعل منزلته بين الشعراء هناك عرف بفريد الهند (١٢٧).

وزامل خسرو في بلاط علاء الدين والتلمذة على الشيخ نظام الدين الشاعر المقلق نجم الدين حسن بن علاء الدين سجزي (ت ٧٣٧هـ) المعروف بأمير حسن الدهلوي، وذاعت مختارات من شعره حتى لقب بسعدى الهندستان (١٢٨).

وقد وجد بكثرة بالهند في ذلك الوقت كثير من الصالحاء والأولياء والمتصوفة والزهاد الذين كان يزورهم السلاطين والملوك ويخفصون لهم الجناح، وعلى رأسهم الشيخ نظام الدين أوليا البدواني الذي عاصر سبعة سلاطين لم يزر بلاط واحد منهم وحين أصر السلطان علاء الدين على زيارته أبلغه الرسول عنه هذه الرسالة: لداري بابان إن دخل السلطان من أحدهما سأخرج من الآخر . وقد مثل هذا الشيخ قوة روحية هائلة في تاريخ الهند الإسلامي وانتشر حواريه في ربوع القطر كله ونظموا حيواتهم وفقاً للشريعة ليصلوا لدرجة عالية من السمو الروحي وقد ضمن منهجه في إرشاد أتباعه في فوائد الفوائد للشاعر أمير حسن حيث سجل حواراته مع الشيخ ومنذ وفاة هذا الولي الكبير سنة ٧٢٥هـ حتى اليوم يجتذب قبره بدهلي عدداً كبيراً من الزوار من كل ربوع الهند (١٢٩).

وقد صادفت العمارة الإسلامية بالهندستان رواجاً كبيراً فى عصر السلطان علاء الدين الخلجى، وقد أطلق يد البذخ فى الإنفاق على منشأته بفضل كنوز الدكن وغنائم الحروب . وقد كان الملمع البارز للعمارة الخلجية أنها طورت لنفسها أسلوباً خاصاً فى النظم والأساليب . فالمباني الخلجية كانت من الحجر الرملى المبطن بالرخام، وللمرة الأولى يستعمل القوس (الأرش Arch) والقبة الفسيحة تتخلل الأقواس (١٣٠).

وقد اضطر ضغط الهجمات المغولية السلطان علاء الدين إلى أن يبنى عاصمة جديدة - فى ضواحي دهللى هى مدينة سيري Siri سنة ١٣٠٣م وبها قصره المهيّب الذى يتكون مدخله من ألف عمود (١٣١). وبنى السلطان أيضاً المستودع المائى الواسع المعروف بهوزخاس وهوز علائى ، وغير ذلك من الأعمال العمرانية كالمدارس والمساجد والبوابات والمنارات. وفى عهده كانت الأعراف الإسلامية قد رسخت فى الروح الهندية ولذا فإن مسجد الجماعة المشيد فى عهده هو النموذج المبكر الباقي فى الهند كمسجد بنى كاملاً طبقاً للأفكار الإسلامية (١٣٢).

الهوامش

١- الأشهر في نطق هذا الاسم كسر الخاء والأصح فتحها ، وربما كانت من الكلمة التركية «قلج» بمعنى: السيف . انظر : أرمنيوس هامبري : تاريخ بخارى ترجمه وعلق عليه: د. أحمد محمود الساداتى نهضة الشرق، ط٢ سنة ١٩٨٧ م ص٤٨ هامش (٢)، وانظر كذلك : على أكبر دهخدا : لغت نامه زير نظر د: محمد معين جلد ٢٥ تهران تير ١٣٤٢ هـ ش .

٢- سلطنة الغوريين إحدى الدول الإسلامية المستقلة في شرق العالم الإسلامي حكمت في شرق الهضبة الإيرانية والهندستان من سنة ٥٤٢ هـ إلى سنة ٦١٢ هـ .

٣- نظام الدين أحمد بخشي الهروي: طبقات أكبرى ترجمه عن الفارسية د. أحمد عبد القادر الشاذلى تحت عنوان : المسلمون في الهند من الفتح العربى إلى الاستعمار البريطانى، الهيئة العامة للكتاب ١٩٩٥م، ج ١ ص ١٠٨ .

٤- الدولة الخوارزمية إحدى دول المشرق الإسلامي المستقلة، حكمت في إيران وبلاد ما وراء النهر من سنة ٤٧٠ إلى ٦٢٨ هـ .

٥- انظر في ذلك مثلاً : عباس إقبال : تاريخ إيران بعد الإسلام، دار الثقافة نقله عن الفارسية وقدم له وعلق عليه د. محمد علاء الدين منصور ١٩٩٠م ص٦٨٧ هامش (١) هامبري : تاريخ بخارى ٤٨ .
S.M. Ikram : Muslim civilization in India, Columbia university Press, New York and London, Third Printing 1969 , p. 61 the Oxford history of India, by A. smith , Fourth edition, Karachi 1983 , p. 244 .

ويبدو لى أن هذا هو الأقرب للصواب خصوصاً في ظل سيادة العنصر التركى سياسياً وعسكرياً في دول المشرق الإسلامى في تلك الفترة.

٦- انظر مثلاً: الجوز جاني : طبقات ناصري به تصحيح ومقابلة وتحشية وتعليق عبد الحى حبيبي نشر كرده انجمن تاريخ أفغانستان كابل ١٣٣٢ ش جلد أول ٤٢٢ ، حمدالله مستوفى قزوین : نزهة القلوب بسعى واهتمام وتصحيح كاي ليسترانج ليدن ١٩١٣ م ص١٥٨ ، خواندمير : تاريخ حبيب السير از انتشارات كتا بخانه خيام ١٣٣٣ شمسی جلدنوم ص٦١٢ ، د. عبد المنعم النمر: تاريخ الإسلام في الهند المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع الطبعة الأولى ١٩٨١م ص١٥٨ ، ١٥٩ . ولعل صعوبة الفصل في نسب الخليجين هي التي دعت أحد المؤرخين إلى التعليق بالعبارة التالية: God Know "the truth of this" يعلم الله حقيقة ذلك، انظر: عبد القادر بدوانى: منتخب التواريخ المجلد الأول ص ٢٣٠ ، ٢٣٧ ، وقد ترجمه عن الفارسية إلى الإنجليزية George S.A. Ranking وقد اعتمدت على هذه النسخة الإنجليزية في هذه الدراسة.

٧- في هذا الصدد يذكر «لويون» أن الخليجين أعقبوا الأسرة الغورية في الحكم (حضارات الهند ٢٢١) . والمعروف أن سلطنة المماليك (٦٠٢-٦٨٩ هـ) هي أولى الدول الإسلامية المستقلة في الهند، وتلاها

الخليج في الحكم . وإن حكم الماليك - قبل هذا التاريخ - الهندستان كولاية تابعة للفرين شرقي إيران . فالماليك إذن ، وليس الخليين ، هم من أعقبوا الفرين بالهندستان .

٨- M. Mujeeb : the Indian Muslims , London , first published , 1967, p. 81 .

٩- الهوى : طبقات اكبرى ١ : ١١٢ .

Al- Badaoni : Muntakhabu - T- tawarikh, vol ., 1 , p. 232 , 239 .

وكره بفتح الكاف والراء كانت بلدة كبيرة على شاطئ نهر الكنج حسنة العمارة، حصينة ولها سور عظيم، فتحها «قطب الدين أيبك» (٦٠٢-٦٠٧هـ) أول سلاطين الماليك بالهندستان، وكانت قسبة بلاد شرق الهندستان في عهدهم ، وكانت من أخصب بلاد الهند وهي الآن قرية لا عمارة لها قرب الله آباد الحديثة انظر: الحسنى : الهند في العهد الإسلامى ص ٨٨ .

Ikram : Muslim Civilization in India , p. 62 .

أما منصب أخور بك فيعنى: المشرف على الاصطبل السلطاني . انظر : د. شتا : المعجم الفارسي .

١٠- Badaoni 1 : 237 .

١١- مدينة كبيرة بولاية مالوه Malwo بوسط الهندستان ، كانت مركزاً تجارياً ، افتتحها السلطان «شمس الدين ايلتيمش» المملوكى (٦٠٧-٦٢٣هـ) . وهي اليوم قرية من أعمال أجن انظر: الحسنى: الهند في العهد الإسلامى ص ٧٠ ، ١١٥ ، ١١٦ ، ١١٧ ، Ikram : Muslim Civilization: p. 62 .

١٢- بداون أو بدايئون بفتح الباء وضم الياء وإسكان الواو ، كانت بلدة كبيرة فتحها السلطان أيبك المملوكى بينها وبين دهلى مسيرة عشرين يوماً د. الحسنى : الهند في العهد الإسلامى ص ٨٠ . وإليها ينسب المؤرخ عبد القادر البدوانى صاحب «منتخب التواريخ» الذى تعتمد هذه الدراسة على نسخته المترجمة للإنجليزية عن الفارسية كثيراً .

١٣- ابن بطوطة : الرحلة ٤٥٠ ، الهوى : طبقات اكبرى ١ : ١١٦ ، ١١٧ ، Badaoni 1 : 236 .

١٤- ديوكير زو ديوجيرى Deogiri اتخذها - فيما بعد - السلطان «محمد تغلق شاه» (٧٢٥-٧٥٢هـ) عاصمة بدلاً من دهلى وسماها «بولت آباد» وهي تبعد الآن ٢٨ ميلاً غرب حيدر آباد .

انظر: Badaoni 1 : 271 , f. N. 6 .

١٥- ابن بطوطة ٤٥٠-٤٥٢ ، الهوى : طبقات اكبرى ١ : ١١٦ ، ١١٧ ، د. الساداتى : تاريخ المسلمين

Ikram : Muslim Civilization., p. 62 . ، ١١٧-١١٥

والملتان : Multan ولاية بشمال غرب الهندستان ، قاعدتها الملتان وهي مدينة معروفة بباكستان الآن . الحسنى: الهند في العهد الإسلامى ص ١٠ وهامش (١) ، ١٠٩ .

١٦- Badaoni : 247 , 248 .

١٧- ابن بطوطة ٤٥٢ ، الهوى : طبقات اكبرى : ١١٧-١٢٣ . Badaoni 1 : 244 .

١٨- ابن بطوطة ٤٥٢ . . Badaoni 1 : 247

والمعروف أن السلطان علاء الدين قد حكم في المدة من (٦٩٠هـ / ١٢٥٩م إلى ٧١٥هـ / ١٣١٦م) وليس من سنة ١٢٩٤ إلى سنة ١٣١٣م كما ينكر لويون : حضارات الهند ٢٢١ .

١٩- كجرات بضم الكاف الفارسية وإسكان الجيم، بلاد على الساحل الغربي للهند، وهي الآن ضمن مقاطعة بومباي . الحسنى الهند في العهد الإسلامي ص ٧١ ، معارف العوارف في أنواع العلوم والمعارف المنشور باسم «الثقافة الإسلامية في الهند» مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق ١٩٨٣م ص ١٠ هامش (٢) . وسيأتى الحديث عن التوسع الإسلامى في شبه القارة فيما بعد .

٢٠- مصطلح عُرف به في ذلك الوقت المقلول الذين دخلوا الهندستان حرباً أو سلماً وذاًبوا في ذلك المجتمع وعاشوا في تلك الآونة.

٢١- الهروى : طبقات اكبرى ١ : ١٢٥ ، ١٢٦ .

٢٢- إلى الجنوب الغربي من دهلې بينها وبين الكجرات ، وقد ذكر Ikram في Muslim Civilization in India, p. 63 أن إخضاعه تم في عام ١٣٠١م.

٢٣- كلمة تركية تعنى أرض الصيد وتقوم على محاصرة الصيد من جميع الجهات عن طريق كلاب الصيد وغيرها وتضييق الدائرة والخناق عليه شيئاً فشيئاً . انظر، Badaoni : 258 , F.N.5

٢٤- ابن بطوطة : الرحلة ٤٥٢ ، الهروى : طبقات اكبرى ١٢٩-١٢٣ . Badaoni 1 : 258 - 260

الذى يذكر أن تمرداً آخر- في الوقت نفسه - قاده عمر ومنكوخان - بنا أخى وأخت السلطان- في بدوان، حيث قبض عليهما وأحضرا للسلطان الذى أمر بسمل أعينهما . على أثر هذه المؤامرة احتجز علاء الدين فلم يكن يركب لجمعه ولا لعيد ولا سواهما كما يروى ابن بطوطة ٤٥٢ .

٢٥- Badaoni 1 : 254 ، يقول الهروى إن عدد الهلكى من هؤلاء المسلمين الجدد بلغ عدة آلاف برئ لم يكن لديهم دراية بالامر . طبقات اكبرى ١ ، ١٤٤ ، ١٤٥ .

٢٦- الكوتوال : رئيس المدينة وحاكمها أو حاكم القلعة وقائدها ، استعمل في الهند بهذا المدلول . انظر : د. شتا : المعجم الفارسى الكبير.

٢٧- الهروى : طبقات اكبرى ١ : ١٢٩ ، ١٢٣ . Badaoni 1 : 260 , 261

٢٨- بلاد ما وراء نهر جيحون (في العربية ، أموداريا في الفارسية ، Oxus في اللاتينية أو تركستان أو آسيا الوسطى Central Asia أو الجمهوريات الإسلامية المستقلة عن الاتحاد السوفيتى ، كلها أسماء لمسمى واحد هو هذه المنطقة التى كان يحكمها في تلك الآونة الجفتايون (٦٢٤هـ / ١٢٢٧م - ٧٦٠هـ / ١٢٥٨م) نسبة إلى جفتاي بن جنكيز خان، انظر د. أحمد عبد القادر الشاذلى: الجمهوريات الإسلامية في وسط آسيا ١٩٩٤م ، بوريبوى أحمدوف ، زاهد الله منروف : العرب

والإسلام في أوزبكستان تاريخ اسيا الوسطى من أيام الأسر الحاكمة حتى اليوم بيروت ط١ ١٩٩٦ م
ص ١٧٦-١٨٨ .

٢٩- الهروي : طبقات أكبرى ١ : ١٢٥ .

٣٠- حسب رواية الهروي في طبقات أكبرى ١ : ١٢٦ ، ١٢٧ بينما يجعلها Badaoni 1 : 244 , 250
وفي وقت متأخر عن هذا التاريخ .

٣١- يذكر الهروي أن السلطان اعتبر مقتل قائده ظفر خان نصراً آخر لما كان يكتفه له من غيره لشجاعته
طبقات أكبرى (١ : ١٢٦ ، ١٢٧) .

٣٢- الهروي : طبقات أكبرى ١ : ١٣٦ ، ١٣٧ ، ويبدو أن تاريخاً وهذا قد عاود الهجوم على الهندستان
من جديد حيث أسره قائد السلطان تغلق غازي وأحضره إلى الحضرة الملكية. Badaoni 1 250 .
وتغلق هذا هو الذي سيصبح فيما بعد السلطان غياث الدين تغلقشاه الأول (٧٢٠-٧٢٥هـ) مؤسس
حكم الأسرة التغلقية (٧٢٠-٨١٥هـ / ١٣٢٠-١٤١٢م) التالية للخلاجيين في حكم بلاد الهند .

انظر: أحمد السعيد سليمان : تاريخ الدول الإسلامية ومعجم الأسر الحاكمة دار المعارف ج٢
ص ٦٠٦ .

٣٣- انظر في ذلك : Badaoni 1 : 251 , 252 , the Oxford History of India, p. 246 .

٣٤- كانت مدينة كبيرة على مسيرة ثلاثة أيام من ملتان إلى جهة لاهور بباكستان الآن. الحسنى : الهند
في العهد الإسلامي ٦٠ .

٣٥- بأفغانستان الآن .

٣٦- Ikram : Muslim Civilization in India, p. 63, Mujeeb : The Indian Muslims, p. 47 .

٣٧- طبقات أكبرى ١ : ١٤١ .

٣٨- راي أو راجا لفظ هندي بمعنى حاكم . د. شتا : المعجم الفارسي الكبير.

٣٩- بفتح النون وإسكان الهاء وفتح الراء المهمة بعدها واو وألف ولام مفتوحة قبل الهاء ، بلدة قديمة
بالكجرات . الحسنى : الهند ١١٥ .

٤٠- سومنات Somnath بمعنى : صاحب القمر بلدة كبيرة على الساحل الغربي ، كان بها معبد عظيم به
صنم هائل كسره السلطان محمود الغزنوي (٢٨٧-٤٢١هـ) . الحسنى : الهند ١١٣٠٠ ، نفيس أحمد :
جهود المسلمين ٢٦٥٠٠٠ .

٤١- أو كنباية أو كنبايا قديما وهي الآن كمباي Kambay من مدن الكجرات على الساحل . الحسنى :
الهند ١١٣ ، نفيس : جهود المسلمين ٢٤٥ هامش (١).

٤٢- الهوي : طبقات أكبرى ١ : ١٢٥ .

٤٣- The Oxford History of India , p. 245 وراجبوتانا أو راجبوتانه كورة كبيرة بالهند يحدها من

الشرق أرض دهلـى ومن الجنوب الكجرات ومن الغرب السند وهى منسوبة إلى راجبوت، وهم أهل الجند، ومنهم الولاة والحكام. ومعنى الكلمة : أبناء الملوك. وأشهر مدنها : جتور وأوديبور ، ومن أحسن قلاعها أجـمير. وهى بلاد صحراوية مكنت طبيعتها المقاتلين الهنـادكة من مقاومة الفتح الإسلامى طويلا. الحسنى : الهند ٦٢ ، ٦٣ .

٤٤- كان ضمنها الخصى كافور الذى كان مملوكا لحاكم الكجرات ، وكان هندوسيا فأسلم، وصار من أشهر قواد علاء الدين، ولقب بملك نايب حين عينه السلطان نائباً له. كما كان يلقب هراز دینارى لأنه اشترى بألف دينار فيما قيل .. انظر: الهروى : طبقات أكبرى ١ : ١٢٥، د. عبد المنعم النمر : تاريخ الإسلام فى الهند ص ١٥٩ هامش (١) ، الشاذلى: الحياة الثقافية ١١ هامش (٣) ،

The Oxford History ..., p. 245 .

٤٥- يذكر د. الساداتى أن علاء الملك هذا هو عم السلطان علاء الدين. انظر : تاريخ المسلمين ١١٩ ويكرر ذلك فى كتابه : تاريخ النول الإسلامية بآسيا وحضارتها نهضة الشرق ١٩٩٧م ص ٢٨ . ولكن الثابت فى جميع المصادر والمراجع أنه عم المؤرخ المعاصر للسلطان علاء الدين، والذي ينتقل عنه د. الساداتى هذه الرواية، وهو ضياء الدين بارانى (ت بعد سنة ٧٥٨هـ) صاحب كتاب «تاريخى فيروز شاهى» والذي روى فيه أحداث تلك الفترة ومن بينها حادثة عمه علاء الملك مع السلطان بهذا الشأن ونصيبته له. فربما كان ورود لفظ «عمى» فى هذه الرواية هو الذى أوقع د. الساداتى فى هذا الخلط.

٤٦- وهذه الوظيفة هى التى تثبتها لعلاء الملك فى تلك الآونة جميع المصادر والمراجع أيضا على عكس ما يذكره د. عبد المنعم النمر (تاريخ الإسلام فى الهند ص ١٦٠) من أنه كان قاضى قضاة دهلـى. ولعل كونه قاضيا بالاساس هو الذى أوقع أيضا د. النمر فى هذا الخلط .

انظر مثلا :

Irfan Habib : Barani , theory of the History of the Delhi Sultanate , published in : the Indian historical review, vol V. 11 Delhi 1981, p. 101 , 102 .

٤٧- الهروى : طبقات أكبرى ١ : ١٢٧-١٢٩ ،

Badaoni 1 : 254 , 255 , Ikram: Muslim Civilization , p. 265 .

٤٨- أباد فارسية بمعنى مدينة .

٤٩- Badaoni 1 : 257 , 258 .

٥٠- Badaoni 1 : 264 , 265 .

٥١- الهروى : طبقات أكبرى ١ : ١٤٢ ،

Ikram : Muslim ..., p. 63 , the Oxford history , p. 245 , 246 .

٥٢- بفتح الواو وإسكان التون وفتح الكاف الفارسية كانت قصبة بلاد الدكن ، وفيها حصن حصين من أمنع قلاع الهند. الحسنى : الهند ١٢٠ .

Badaoni 1 : 265.

٥٣- الهروي : طبقات أكبرى ١ : ١٤٢ ، ١٤٣ ،

Ikram : Muslim Civilization p. 63 , 64 , the Oxford history 245 , 246 .

٥٤- الهروي : طبقات أكبرى ١ : ١٤٤ وبقية مراجع الهامش السابق في الصفحات نفسها . وبلاد المعبر أو كورد مندل بفتح الميم والذال هي بلاد الساحل الشرقي للدين من أشهر مدنها مدرّاس ميناء كبير الآن . الحسنى ٧٣ ، ٧٤ ، حسونة : الجغرافيا التاريخية ص ١٠٠ .

٥٥- الحسنى : الهند ١٨٩ ، وتاريخ فرشته لصاحبه محمد قاسم فرشته المؤرخ الهندي المشهور كتبه بالفارسية وترجم للأوردية ، فرغ من تأليفه سنة ١٠١٥ هـ . د. النمر : تاريخ الإسلام في الهند هامش (١) ص ١١٥ ، ١١٦ .

Ikran : Muslim Civilization , p. 61 .

٥٦-

٥٧- د. أحمد السعيد سليمان : تاريخ الدول الإسلامية ٢ : ٥٩٩ .

٥٨- سياى الحديث عنها عند تناول نظم الحكم والإدارة لاحقاً .

٥٩- يؤيد هذا أحمد عبد القادر الشاذلى في : نظام الدين أحمد وكتابه «طبقات أكبرى» رسالة دكتوراه بكلية الآداب جامعة القاهرة قسم اللغات الشرقية سنة ١٤٠٥ هـ / سنة ١٩٨٥ م ص ٦٥ .

بينما ينسب د. أحمد شلبى ذلك الضعف إلى ما قام بينهم من صراع ولعدم جدارتهم بالسلطة . موسوعة التاريخ الإسلامى النهضة المصرية ج ٨ ط ٢ ١٩٩٠ م ص ٢٨٥ .

٦٠- بفتح الكاف الفارسية والواو وكسر اللام، ويقال لها كوالير، حصن متيع على قمة جبل شاهق ، وأسفله الحصن مدينة حسنة مبنية من الحجارة المنحوتة . وهى من مدن إقليم أكبر آباد إلى الشرق من إقليم دهلـى . الحسنى : الهند ٨٣ ، نفيس : جهود المسلمين ٢٥٧ .

٦١- حول هذ النهاية اليانسة لنسل السلطان علاء الدين انظر مثلاً :

ابن بطوطة : الرحلة ٤٥٢-٤٥٥ ، الهروي : طبقات أكبرى ١ : ١٤٩-١٥١ ،

Ikram : Muslim Civilization 69 , Badaoni 267 , 272 the Oxford history p. 247 .

وحتى السلطان علاء الدين نفسه يقال إن كافورا قد دس له السم . الهروي : طبقات أكبرى ١ : ١٤٩ .

٦٢- الهروي : طبقات أكبرى ١ : ١٤٥ .

٦٣- ابن بطوطة : الرحلة ٤٥٩ وقد سعى الجتر : الشطر ، والجتر فارسية بمعنى المظلة . د. شتا : المعجم الفارسى الكبير.

٦٤- دهلـيز : فارسية معربة معناها : إيوان أو ركن من البيت . دشتا : المعجم الفارسى الكبير.

٦٥- هزار : ألف ، أستون : عمود . المعجم الفارسى الكبير.

٦٦- الحسنى : الهند ٢٥٧ ، ٢٥٨ .

٦٧- حملة السلاح.

٦٨- الحسنى: الهند ٣٦١ ، ٣٦٢ .

S.M. Jaffar : Medieval India under Muslim kings, India , 1972 , p. 237-264 .

حيث يوجد حديث مفصل حول نظم الإدارة الفزنوية .

٧٠- خواجه : سيد ، جهان : عالم ، فى الفارسية .

٧١- الهروى: طبقات أكبرى ١ : ١٢٠ ،

Yusuf Husain : Glimpes of Medieval Indian Culture , London , 1954 , p. 72-74 .

٧٢- داد فارسية معناها : عدالة وإنصاف .

٧٣- الذين يدعون فى الهند الملوك فيقال للأمير ملك. ابن بطوطة: الرحلة ٤٣٢ ، الهروى: طبقات أكبرى ١ : ١٢٥ .

٧٤- خانة فارسية معناها : دار .

٧٥- الحسنى : الهند ٣٢٩-٣٣٢ ، Ikram : Muslim Civilization , p. 91 .

٧٦- صاحب وشارك خواجه حاجى مشرف العرض القائد كافور فى حملاته على الدكن . انظر مثلاً : الهروى: طبقات أكبرى ١ : ١٤٢-١٤٣ . وقد عرف صاحب هذه الوظيفة فى فترة متأخرة بالهند باسم «بخشى».

٧٧- ابن بطوطة : الرحلة ٤١١ ، الحسنى: الهند ٣٢٩ ،

Ikram : Muslim Civilization , p. 98 , 99 . Mujeeb: Indian Muslims , p. 49 .

٧٨- عبد العزيز بقوش : أمير خسرو دهلوى وقصته شيرين وخسرو رسالة دكتوراه بقسم اللغات الشرقية بكلية الآداب بجامعة القاهرة سنة ١٩٦٩م ، ص ٢٤ ،

Ikram : Muslim Civilization p. 66-97 .

٧٩- . Bodaoni : 1 : 257 , 258 , Ikram , Muslim Civilization 95 , 96 .

٨٠- الحسنى : الهند ٢٤٥ ،

Misra : the Rise of Muslim Power in Gujarat , London , 1963, p. 40 .

٨١- . Ikram : Muslim Civilization , p. 98 .

٨٢- بضم الواو .. ويسمى الدارة : الدواة خطأ ، الحسنى: الهند ٢٩٧ ، ٢٩٨ .

٨٣- ابن بطوطة : الرحلة ٤١١-٤١٣ ، وكانت خيل البريد تسمى عندهم : داكجوكى ورجل البريد يسمى: بايك . الهروى طبقات أكبرى ١٤٣ . والميل يساوى ١٨٤٨ متراً تقريباً .

انظر : د. محمد ضياء الدين الرئيس: الخراج والنظم المالية للدولة الإسلامية دار الأنصار ط ٤ ١٩٧٧م ص ٣٠١ .

- Ikram : Muslim Civilization , p. 66, 67. -٨٤
- Ikram : Muslim Civilization , p. 99 . -٨٥
- ٨٦ ابن بطوطة : الرحلة ٤٣٢ ،
- Ikram : Muslim Civilization , p. 100-102 , 106 .
- ٨٧ انظر في ذلك مثلاً: ابن بطوطة : الرحلة ٥٧٢ ، ٥٧٥ ، الهروي : طبقات أكبرى ١ : ١٠٧ ، د. الساداتى : تاريخ المسلمين ٦-٨ .
- Mujeeb : The Indian Muslims, p. 35 . -٨٨
- ٨٩ هو المرحوم الشيخ أبو الحسن الندوى فى كتابه : ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين دار الجيل بيروت سنة ١٩٩١م ص ٧٢ ، ٧٣ .
- ٩٠ د. الساداتى : تاريخ المسلمين ص ٧ ، ٨ ، الندوى: ماذا خسر العالم ٧٢ ، ٧٣ .
- ٩١ لفظ هندوسى أو هندوكى - وهو معرب- غدا عند كتاب العربية المحدثين علماً على أصحاب العقائد الهندية القديمة من سكان شبه القارة، د. الساداتى : تاريخ المسلمين ص ج هامش (١) من المقدمة.
- ٩٢ ابن بطوطة : الرحلة ٦١٤ ، د. أحمد شلبى : موسوعة مقارنة الأديان الجزء الرابع : أديان الهند الكبرى مكتبة النهضة المصرية الطبعة التاسعة ١٩٩٣م ص ٤٢ ، الندوى: ماذا خسر العالم ٦٩ .
- ٩٣ الرحلة ٥٦٧ ، Ikram: Muslim Civilization , 131 , 132 .
- ٩٤ ابن بطوطة : الرحلة ٤٥٦ ، أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ترجمة وتعليق د. حسن ربراهيم وآخرين النهضة المصرية الطبعة الثالثة ١٩٧٠م ص ٢٨٩ ، ٢٩٠ .
- ٩٥ الساداتى : تاريخ المسلمين ٢٧ ، ٢٨ .
- ٩٦ د. شوقى أبو خليل : أطلس دول العالم الإسلام ص ١٧٩ ، ١٨٥ ، د. عصام الدين عبد الرؤوف الفقى : أسباب ونتائج انتشار الإسلام فى الهند بحث منشور ضمن ملف ندوة « الآثار الإسلامية فى شرق العالم الإسلامى كلية الآثار بجامعة القاهرة سنة ١٩٩٩م ص ٢١٣ . وكشمير فى أقصى الشمال فوق البنجاب فى حصن الجبال الشمالية . الحسنى : الهند ١٠٨ .
- ٩٧ أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ٢٨٥ ، د. الساداتى : تاريخ المسلمين ١٩٤ ، ١٩٥ هامش (٢) .
- ٩٨ د. جمال حمدان : العالم الإسلامى المعاصر كتاب الهلال الطبعة الثانية يونيه ١٩٩٦م ص ٥١-٥٤ ، Ikram : Muslim Civilization , p. 123 , 124 .
- ٩٩ الشاذلى : نظام الدين أحمد ص ١ ، د. أحمد شلبى : موسوعة التاريخ ٨ : ٣٩٦ ، ٣٩٧ ، لويون : حضارات الهند ٤١٧ ، د. النمر : تاريخ الإسلام فى الهند ٣٩٨ ، ٣٩٩ .
- Misra: The Rise of Muslim Power, p. 38. 39 . -١٠٠
- ١٠١ ابن بطوطة : الرحلة ٤١١ ، الحسنى : الهند ١١-١٣ ، ٦٥ .

Ikram : Muslim Civilization , p. 104 , Misra : The Rise of Muslim , p. 40 .

١٠٢- الحسنى : الهند ٣٥٠ .

١٠٣- ابن بطوطة : الرحلة ٤١٧ ، ٤٢٦ - ٤٢٨ ، ٤٣٢ ، ٥٤٩ ، ٥٥٣ ، ٦١٣ على سبيل المثال، الحسنى : الهند ٦٩ ، ٧٠ ، ٨٨ .

وسيويستان هي الآن سهوان بباكستان ، ابن بطوطة ٤١٧ هامش (٨) .

١٠٤- الحسنى : الهند ٤٠٧ .

١٠٥- ابن بطوطة ٤٣٧ ، ٤٣٨ ، د. الساداتى : تاريخ المسلمين ١٩٦ .

١٠٦- قنوج كسنور مدينة قديمة قسبة إقليم بوسط الهندستان ، إلى الشرق من دهل، قنوج كورة بإقليم السند، الحسنى: الهند ٥٩ ، ٨٥ .

١٠٧- الحسنى : الهند ٣٩٣ ، ٣٩٤ ، نفيس : جهود المسلمين ٢٥٥-٢٥٩ ، ٢٦٢، ٢٦١ .

١٠٨- ابن بطوطة ٤١٤ .

١٠٩- انظر مثلا : ابن بطوطة ٤٢٣ ، ٥٦٩ ، ٥٧٠ ، ٥٧٢ ، ٥٧٥ ، ٦١٣ ، الحسنى: الهند ٦٥ ، ٦٩ ، ٨٨ ، ٧٠ .

١١٠- Ikram : Muslim Civilization 109 , 110 , Irfan . Barani 114 .

١١١- انظر في ذلك مثلا : ابن بطوطة ٦١٣ ، ٤٥٣ ، ٦١٣ ، البيرونى : تحقيق ما للهند من مقولة حيدر آباد الهند ١٩٥٨ م ص ١٢٤ ، الهروى : طبقات اكبرى ١ : ١٢٩ ، الحسنى الهند ٢٧٨-٢٨٥ Ikram : Muslim ... 97 .

١١٢- Badaoni : 1 ; 256 .

١١٣- الهروى : طبقات اكبرى ١ : ١٤٢ ، ١٤٤ .

Badaoni 1 : 265 , Ikram : Muslim , p. 95 .

١١٤- ابن بطوطة ٥٥٩ ، الحسنى : الهند ٣٨٨ ، Badaoni 1 : 254 , Ikram : Muslim p. 64 , 94 .

١١٥- الهروى : طبقات اكبرى ١ : ١٢٥ ، ١٤٤ ، ١٤٥ ، Badaoni : 1 : 256 . 257 .

١١٦- الحسنى : الهند ٣٤٢ ، Badaoni : 1 : 256 , 257 .

١١٧- الهروى : طبقات اكبرى ١ : ١٢٣ ، ١٢٤ يهوامشهما ، Badaoni 1 : 252 , 253 , 262 , 263 ، 264 .

١١٨- في شأن هذه الضوابط والإصلاحات انظر : الهروى : طبقات اكبرى ١ : ١٢٧ - ١٤١ ،

Ikram : Muslim Civilization , p. the Oxford History of India p. 246 .

Ikram : Muslim Civilization , p. 65 . 66 .

Ikram : Muslim Civilization , p. 67 . 68 . 112 . 113 . -١٢٠-

وخسرو شاعر كبير وموسيقى سيرد الحديث عنه لاحقاً .

١٢١- د. الساداتى : تاريخ المسلمين ٢٠١ .

١٢٢- الحسنى: الثقافة الإسلامية فى الهند ٥٩ .

١٢٣- الحسنى: الثقافة الإسلامية فى الهند ١٢ ، ١٣ .

١٢٤- ابن بطوطة ٥٥٨ .

١٢٥- الشاذلى : نظام الدين أحمد ٢ ، ٣ .

١٢٦- أحمد رجب محمد : العمارة الإسلامية فى مدينة أكره بالهند فى عصر أباطرة المغول رسالة
دكتوراه بكلية الآثار بجامعة القاهرة ١٩٩٦م من ١٦، د. النمر: تاريخ الإسلام فى الهند ١٦٣ ، ١٦٤ .

Ikram : Muslim Civilization , p. 65 , The Ixford History , p. 247 .

١٢٧- وفى تراجم خسرو العديدة انظر:

د. أحمد إدريس : الأدب العربى فى شبه القارة الهندية حتى أواخر القرن العشرين عين للدراسات
والبحوث الطبعة الأولى سنة ١٩٩٨ م ص ٢٩١ ، ٢٩٢ ، بقوش : خسرو ٢٤ ، ٢٧ ، ٢٢ ، مثلاً :
الحسنى: الثقافة الإسلامية ٢٢٩ ، ٢٣٠ ، دكتور ذبيح الله صفا : تاريخ أدبيات در ايران ودر فلهر
وزبان بارسى جلد سوم بخش دوم جاب دهم ١٣٧٣ تهران ٧٧١-٧٩٧ ،

Bodaoni I : 245 , 269 . 270 .

١٢٨- الشيخ سعدى الشيرازى من ألمع الشعراء فى تاريخ الأدب الفارسى، من أشهر دواوينه البستان
وكستان سعدى، ت ٦٩١ هـ .

د. شتا : المعجم الفارسى الكبير. وانظر فى ترجمة : الحسنى: الثقافة الإسلامية ٢٣٢، د. صفا :
تاريخ أدبيات در ايران ٨١٧-٨٣١ ،
Bodaoni I : 270 .

١٢٩- انظر فى ترجمته : الهوى : طبقات أكبرى ١ : ١٤٣ ، ١٤٤ ، ١٤٥ ،

Mujeeb : Indian Muslims p. 74 , 75 .

Yusuf Glimpes of ... 39-43 .

A. K. Jain : The Cities Of Delhi , New Delhi , 1994 , p. 39 . -١٣٠-

١٣١- وسيرى مجرد بقايا متهاكة فى الموضع المعروف الآن بقرية شاهبور ، ودهلى العاصمة القديمة
كلها فى موضع قريب من دلهى الحديثة التى بنّاها المستعمرون البريطانىون .

Jain : the Cities of Delhi, p. 37 . 38 . the Oxford History p. 246 , 47 .

١٣٢- Ikram : Muslim Civilization 121 , Yusuf Husain : Glimpes of Medieval Indian
Culture, p. 73,74 .

المصادر والمراجع

أولاً : المراجع العربية والمعربة :

أبوخليل : د. شوقي :

– أطلس دول العالم الإسلامى دار الفكر المعاصر لبنان الطبعة الأولى ١٩٩٩م.

أحمد : نفيس :

– جهود المسلمين فى الجغرافية ترجمه عن الإنجليزية فتحى عثمان دار القلم.

أحمدوف : بوريبوى ، زاهد الله منروف :

– العرب والإسلام فى أوزبكستان تاريخ أسيا الوسطى من أيام الأسر الحاكمة حتى اليوم
بيروت ط١ ١٩٦٩م.

إدريس : د. أحمد :

– الأدب العربى فى شبه القارة الهندية حتى أواخر القرن العشرين عين للدراسات
والبحوث ط١ ١٩٩٨ م.

أرنولد : سير توماس :

– الدعوة إلى الإسلام ترجمة وتعليق د. حسن إبراهيم حسن وآخرين النهضة المصرية ط٢
١٩٧٠م.

إقبال : عباس :

– تاريخ إيران بعد الإسلام نقله عن الفارسية وقدم له وعلق عليه د. محمد علاء الدين
منصور ١٩٩٠م.

ابن بطوطة : أبو عبد الله محمد بن عبد الله اللواتى الطنجى، ت ٧٧٩هـ :

– تحفة النظار فى غرائب الأمصار المعروف برحلة ابن بطوطة شرحه وكتب هوامشه طلال
حرب دار الكتب العلمية بيروت ط٢ ١٩٩٢م.

بقوش : عبد العزيز مصطفى :

– أمير خسرو دهلوى وقصته شيرين وخسرو رسالة دكتوراه بقسم اللغات الشرقية بكلية
الآداب بجامعة القاهرة سنة ١٩٦٩م.

البيرونى: أبو الريحان محمد بن أحمد ، ت ٤٤٠هـ :

– تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة فى العقل أو مرنولة حيدر آباد الدكن الهند ١٩٥٨م.

الحسنى: العلامة عبد الحى بن فخر الدين بن العلى، ت ١٣٤١هـ :

– الثقافة الإسلامية فى الهند مطبوعات مجمع اللغة العربية دمشق ١٩٨٣م.

– جنة المشرق ومطلع النور المشرق المنشور باسم : الهند فى العصر الإسلامى حيدر آباد الدكن الهند ١٩٧٢م.

حسونة : محمد أحمد :

– الجغرافيا التاريخية الإسلامية لجنة البيان العربى بدون تاريخ .

حمدان : محمد أحمد:

– الجغرافيا التاريخية الإسلامية لجنة البيان العربى بدون تاريخ .

حمدان : د. جمال :

– العالم الإسلامى المعاصر كتاب الهلال ط٢ يونيو ١٩٩٦م.

الريس : د. محمد ضياء الدين:

– الخراج والنظم المالية للدولة الإسلامية دار الأنصار ط ٤ ١٩٧٧م.

الساداتى : د. أحمد محمود :

– تاريخ الدول الإسلامية بآسيا وحضارتها دار نهضة الشرق، ١٩٩٧م.

– تاريخ المسلمين فى شبه القارة الهندوباكستانية وحضارتهم نهضة الشرق الطبعة الثالثة بدون تاريخ.

سليمان : د. أحمد السعيد (مترجم ومعلق ومضيف) :

– تاريخ الدول الإسلامية ومعجم الأسر الحاكمة دار المعارف.

الشاذلى : د. أحمد عبد القادر:

– الجمهوريات الإسلامية فى وسط آسيا ١٩٩٤م.

– الحياة الثقافية فى بلاط السلطان جلال الدين أكبر رسالة ماجستير بقسم اللغات الشرقية بكلية الآداب بجامعة القاهرة ١٩٨٢م.

– المسلمون فى الهند من الفتح العربى إلى الاستعمار البريطانى الترجمة الكاملة لكتاب

- طبقات أكبرى لنظام الدين أحمد بخشى الهروى الهيئة العامة للكتاب ١٩٩٥م.
- نظام الدين أحمد وكتابه طبقات أكبرى رسالة دكتوراه بكلية الآداب بجامعة القاهرة
قسم اللغات الشرقية سنة ١٩٨٥م.
- شتا: إبراهيم الدسوقي:
- المعجم الفارسى الكبير فرهنك برزك فارسى فارسى/ عربى مديولى ١٩٩٢م.
- شلبى : د. أحمد:
- موسوعة التاريخ الإسلامى النهضة المصرية الجزء الثامن ط ٢ ١٩٩٠م.
- موسوعة مقارنة الأديان النهضة المصرية الجزء الرابع : أديان الهند الكبرى ط ٩
١٩٩٣م.
- قامبرى : أرمنيوس :
- تاريخ بخارى منذ أقدم العصور حتى العصر الحاضر ترجمه وعلق عليه د. أحمد محمود
الساداتى نهضة الشرق ط ٤ ١٩٨٧م.
- اللقى: د. عصام الدين عبد الرؤف :
- أسباب ونتائج انتشار الإسلام فى الهند بحث منشور ضمن ملف ندوة «الآثار الإسلامية
فى شرق العالم الإسلامى» كلية الآثار جامعة القاهرة ١٩٩٩م.
- لوبون : د. غوستاف :
- حضارات الهند ترجمة عادل زعيتر دار إحياء الكتب العربية ط ١ ١٩٤٨م.
- مجمع اللغة العربية: - المعجم الوسيط ط ٣ .
- محمد على: أحمد رجب:
- العمارة الإسلامية فى مدينة أكرى بالهند فى عصر أباطرة المغول رسالة دكتوراه بكلية
الآثار بجامعة القاهرة ١٩٩٦م.
- الندوى: أبو الحسن على الحسنى:
- ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين دار الجيل بيروت ١٩٩١م.
- النمر : د. عبد المنعم :
- تاريخ الإسلام فى الهند المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ط ١ ١٩٨١م.

ثانيًا : المراجع الفارسية:

- الجوزجاني : منهاج الدين عثمان بن سراج الدين ، ت ٦٥٨ هـ ك
- طبقات ناصري به تصحيح ومقابلة وتحشية وتعليق عبد الحى حبيبي نشر کرده انجمن تاريخ افغانستان كابل ١٣٤٢ ش .
- خواندمير : غياث الدين بن همام الدين الحسيني ، ت ٩٤٢ هـ:
- تاريخ حبيب السير فى أخبار أفراد بشر از انتشارات كتابخانه خيام ١٣٣٣ ش.
- دهخدا : على أكبر، ت ١٣٣٤ هـ . ش .
- لغت نامه زیر نظر دکتر محمد معین جلده ٣ تهران تیر ١٣٤٢ هـ . ش.
- صفا : دکتر ذبیح الله :
- تاريخ ادبيات در ايران ودر قلمر وزيان پارسی جلد سوم بخش سوم چاپ دهم ١٣٧٣ تهران.
- قزوینی: حمد الله مستوفی ، ت ٧٥٠ هـ .
- نزهة القلوب یسمى واهتمام وتصحيح کای لیسترانج لیدن ١٣٣١ هـ .

ثالثًا : المراجع الإنجليزية:

- A.K. Jain : The Cities of Delhi , New Delhi 1994 . -
- Badaoni : A History of India , English translation by : George S.A. Ranking , New Delhi , 1990 .
- وهو ترجمة لكتاب منتخب التواريخ لعبد القادر بدوانی.
- Irfan Habib : Barani,s Theory of the Delhi Sultanate , published in : - The Indian Historical Review , vol . V 11 , N .1-2 , Delhi . 1981 .
- M . Mujeeb : The Indian Muslims, London , first published in 1967 .
- S.C. Misra : The Rise of Muslim Power in Gujarat , London 1963 .
- S.M. Jaffar : India under Muslim kings, India , 1972 .
- S.M. Ikram : Muslim Civilization in India, New York and London , Third Printing , 1969 .
- The Oxford History of India, edited by : Percival Spear , forth edition , Karachi , 1983 .
- Yusuf Husain : Glimpes of Medieval Indain Culture, London Second edition, 1954 .

رقم الإيداع ١٩٩٤/٦٥٤٩

دار روتايرنت للطباعة ت: ٧٩٥٢٣٦٢ - ٧٩٥٠٦٩٤
٥٣ شارع نوبار - باب اللوق